اللباب

في علوم الكتاب

تأليف

الإمام المفسّر أبي حفص عمر بن عليّ

ابن عادل الدّمشقي الحنبلي

المتوفّى بعد سنة ٨٨٠هـ

تحقيق وتعليق

الشيخ عادل أحمد عبد الموجود — الشيخ علي محمّد معوّض

شارك في تحقيقه برسالته الجامعيّة

الدكتور محمّد سعد رمضان حسن / الدكتور محمّد المتولي الدسوقي حرب

الجزء السّابع عشر

المحتوى:

أوّل سورة غافر - آخر سورة الحجرات

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

دار الكتب العلمية

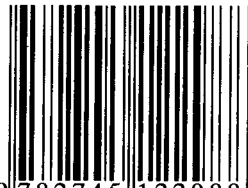
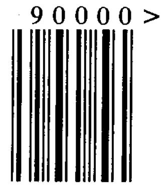
بيروت - لبنان

العنوان : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
تلفون وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ (١ ٩٦١) ٠٠
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH
Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohtory st., Melkart bldg., 1st Floore.
Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

ISBN 2-7451-2298-3

9 782745 122988

http://www.al-ilmiyah.com.lb/
e-mail : baydoun@dm.net.lb

(رَبِّ يَسِّر برحمتك يا كريم وأغن يا رحيم)[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة غافر

مكية وتسمى سورة الطول، وسورة المؤمن، وهي خمس وثمانون آية، وألف ومائة وتسع وتسعون كلمة وأربعة آلاف وتسعمائة وستون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿حمٓ﴾ كقوله الٓمٓ وبابه[2]، وقرأ الأخوان وأبو بكر وابن ذكوان بإمالة (حا) في السور السبع إمالة محضة، وورش وأبو عمرو بالإمالة بين بين، والباقون بالفتح، والعامة على سكون الميم كسائر الحروف المقطعة[3]. وقرأ الزهري برفع الميم على أنه خبر مبتدأ مضمر، أو مبتدأ والخبر ما بعدها[4]، وابن إسحاق وعيسى بفتحها[5] وهي تحتمل وجهين:

أحدهما: أنها منصوبة بفعل مقدر أي اقرأ حم، وإنما منع من الصرف للعلمية والتأنيث، أو العلمية وشبه العجمة وذلك أنه ليس في الأوزان العربية وزن «فاعيل» بخلاف الأعجمية نحو قابيل وهابيل.

---

(١) ما بين القوسين زيادة من أ.

(٢) ذكر الإمام القرطبي في الجامع معاني كثيرة لهذا عن ابن عباس أنه اسم الله الأعظم، وعنه أيضاً اسم من أسماء الله تعالى أقسم به، وقال قتادة اسم من أسماء القرآن (انظر القرطبي ١٥/ ٢٨٩).

(٣) انظر هذه القراءات المتواترة في كل من السبعة ٥٦٦ وإبراز المعاني ٢٠٣: ٧٠٢ والكشاف ٣/ ٤١٢، والقرطبي ١٥/ ٢٩٠ والإتحاف ٣٧٧ والنشر ٢/ ٣٦٤ وحجة ابن خالويه ٣١٢ والكشف ٢/ ٢٤٢.

(٤) الدر المصون ٤/ ٦٧٠ وشواذ القرآن ٢١١.

(٥) الدر ـ المرجع السابق ـ وانظر أيضاً البحر ٧/ ٤٦٦ والكشاف ٣/ ٤١٢.

والثاني: أنها حركة بناء تخفيفاً كَأَيْنَ وكَيْفَ[١]. وفي احتمال هذين الوجهين قول الكميت:

٤٣١٤ ـ وَجَدْنَا لَكُمْ في آلِ حَامِيم آيَةً تَـأَوَّلَـهَـا مِـنَّـا تَـقِـيٌّ ومُـعْـرِبُ[٢]

وقول شُرَيح بن أوفى:

٤٣١٥ ـ يُذَكِّرُني حَامِيم والرُّمْحُ شَاجِرٌ فَـهَـلاً تَـلاَ حَـامِـيـمَ قَـبْـلَ الـتَّـقَـدُّمِ[٣]

وقرأ أبو السَّمَّالِ بكسرها[٤]، وهل يجوز أن يجمع (حم) على «حواميم» ونقل ابن الجوزي[٥] عن شيخه الجواليقي[٦] أنه خطأ وليس بصواب بل الصواب أن تقول قرأت آل حم[٧]، وفي الحديث عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ[٨] ـ إذَا وَقَعْتُ فِي آلِ حمّ وَقَعْتُ في رَوْضَاتٍ أَتأَنَّقُ فيهن[٩]. وقال سعيد[١٠] بن إبراهيم: كلّ آل حم يسمين العرائس، قال الكُمَيْتُ:

٤٣١٦ ـ وجدنا لكم في آل حاميم ....

---

(١) انظر بيان ابن الأنباري ٢/ ٣٢٨ والكشاف ٣/ ٤١٢ والدر المصون ٣/ ٦٧١.

(٢) له من الهاشميات من الطويل وكان متشيعاً فيهم ويقصد بآل حم السور التي في أولها «حم» وقد جعل «حاميم» اسماً للكلمة ثم أضاف السور إليها، ويريد بالآية قوله في سورة الشورى ﴿**قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودّة في القربى**﴾. والتقي في البيت هنا هو الذي يخفي تشيّعه لآل البيت، والمعرب الذي يظهر ما في نفسه، وفي اللسان عن سيبويه: تقيّ معرب وقال: هكذا أنشده سيبويه كمكلم وقد استشهد بالبيت في أن «حم» فيها احتمالان:
الأول: أن يكون علماً منع من الصرف للعلمية والتأنيث أو للعلمية وشبه العجمية.
والثاني: أن يكون مبنياً على الفتح غير معرب. وأرى أن الفتح فيه لالتقاء الساكنين لا للبناء فلا يشبه «حم» أي حرف في وجه من الوجوه، وانظر البحر المحيط ٧/ ٤٤٦ والدر المصون ٤/ ٦٧٠ والكتاب ٣/ ٢٥٧ وحجة ابن خالويه ٣١٢، واللسان عرب ٢٦٥ وحمم ١٠٠٦ والمقتضب ١/ ٣٧٣ و٣/ ٣٥٦ ومجاز القرآن ٢/ ١٩٣ والمقتصد ٩٧ والهاشميات ١٨ وروي «منكم» وهو خطأ لا يتمشى مع مقصوده وانظر أيضاً مجمع البيان ٧/ ٧٩٩ والطبري ٢٤/ ٢٧.

(٣) هو له كما في بحر أبي حيان والمجاز لأبي عبيدة وشرح شواهد كشاف الزمخشري وأنشد للأشتر النخعي وشاهده كسابقه من الوجهين المحتملين وانظر البحر والدر والمجاز المراجع السابقة وكذلك المقتضب السابق وشرح شواهد الكشاف ٤/ ٥١١.

(٤) من القراءة الشاذة غير المتواترة انظرها في البحر ٧/ ٤٤٦ ومختصر ابن خالويه ١٣٢ وشواذ القرآن ٢١١.

(٥) الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد له تصانيف جليلة منها زاد المسير مات سنة ٥٩٧.

(٦) هو موهوب بن أحمد أبو منصور الجواليقي الإمام اللغوي صاحب كتاب المعرب وغيره، وانظر في ترجمة الأول طبقات الداودي ١/ ٢٨٥ والسيوطي ٦١ وفي الثاني إنباه الرواة ٤/ ٣٣٥، ٣٣٧.

(٧) زاد المسير ٧/ ٢٠٤، ٢٠٥.

(٨) في ب: عنه عليه الصلاة والسلام.

(٩) أخرجه البغوي في تفسيره عن ابن مسعود وكذلك الشوكاني في فتح القدير ٤/ ٤٧٩.

(١٠) في البغوي سعد.

ومنهم من جوزه، وروي في ذلك أحاديث[١] منها قوله ـ عليه (الصلاة و) السلام: «الحَوَامِيمُ دِيبَاجُ القرآن»[٢]، وقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: الحواميمُ سبعٌ وأبوابُ جهنَّمَ سبعٌ: جهنمُ والحُطَمَةُ ولَظَى والسعيرُ وسَقَرُ والهاويةُ والجحيمُ فتجيء كل جسم منهن يوم القيامة على باب من هذه الأبواب فتقول لا يدخل النار من كان يؤمن بي ويقرأني[٣]. وقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: لكل شيء ثمرةٌ وثمرةُ القرآن ذواتُ حم هن روضات حسان مخصبات متجاورات فمن أحب أن يَرْتَعَ في رِيَاضِ الجنة فليقرأ الحواميم[٤]، وقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: الحواميم في القرآن كمثل الحِبَرَاتِ في الثياب[٥]. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ لكل شيء لُباب ولُباب القرآن الحواميمُ. فإن صحت هذه الأحاديث فهي الفصل في ذلك.

قوله «تَنْزِيلُ» إما خبرٌ لـ «حمٓ» إن كانت مبتدأ، وإما خبر لمبتدأ مضمر، أو مبتدأ وخبره الجار بعده[٦]. قال ابن الخطيب: قال «تنزيل» والمراد منه المنزل.

فصل

روى السُّدي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: حم اسم الله الأعظم، وروى عكرمة عنه قال: الم وحم ون حروف الرحمن مقطعة، وقاله سعيد بن جبير. (وقال) عطاء الخراساني: الحاء افتتاح أسمائه حكيم حميد حي حليم حنان، والميم افتتاح أسمائه ملك مجيد. قال الضحاك والكسائيّ معناه قضى ما هو كائن كأنهما أشارا إلى أن معناه: حُمَّ، بضم الحاء وتشديد الميم[٧].

قوله «مِنَ اللَّهِ» لما ذكر أن حم تنزيل الكتاب وجب بيان أن المنزل من هو؟ فقال: من الله، ثم بين أن الله تعالى موصوف بصفات الجلالة فقال «العَزِيزِ العَلِيمِ».

فبين أنه بقدرته وعلمه نزل القرآن الذي يتضمن المصالح والإعجاز، ولولا كونه عزيزاً عالماً لما صح ذَلك.

قوله تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ العِقَابِ﴾ في هذه الأوصاف ثلاثة أوجه:

---

(١) ومن المجوزين أبو عبيدة وانظر المجاز ٢/ ٩٣ و ١/ ٦، ٧ والقرطبي ١٥/ ٢٨٨ واللسان حمم ١٠٠٦ وزاد المسير ٧/ ٢٠٤، ٢٠٥.

(٢) أورده السيوطي في الإتقان ٢/ ١٩٦ عن ابن مسعود وانظر فتح القدير ٤/ ٤٧٩ والقرطبي ١٥/ ٢٨٨.

(٣) فتح القدير المرجع السابق عن خليل بن مرة.

(٤) القرطبي السابق بدون سند.

(٥) معاني الزجاج ٤/ ٣٦٥ والمرجع السابق وانظر الدر المنثور ٢٤/ ٢٦٨، ٢٦٩.

(٦) ذكر هذه الإعرابات أبو حيان في البحر ٧/ ٤٤٧ والسمين في الدر ٤/ ٦٧٢.

(٧) ذكر هذه الأقوال البغوي والخازن في لباب التأويل ومعالم التنزيل ٦/ ٨٧.

أحدها: أنها كلها صفات الجلالة[١] كالعزيز، والعليم. وإنما جاز[٢] وصف المعرفة بهذه وإن كانت إضافتها لفظية لأنه يجوز أن تجعل إضافتها (معنوية)[٣] فيتعرَّف بالإضافة نص[٤] سيبويه على أن كل ما إضافته غير محضة جاز أن يجعل محضة وتوصف به المعارف إلا الصفة المشبهة[٥]، ولم يستثن غيره شيئاً وهم الكوفيون يقولون في مثل[٦] «حَسَن الوَجْهِ» بأنه يجوز أن تصير إضافته محضة[٧]. وعلى هذا فقوله: «شَدِيدِ العِقَابِ» من باب الصفة المشبهة فكيف أجزت جعله صفة للمعرفة وهو لا يتعرف إلا بالإضافة؟

والجواب: إمّا بالتزام مذهب الكوفيين وهو أن الصفة المشبهة يجوز أن تتمحض[٨] إضافتها أيضاً فتكون معرفة وإما بأن «شديد» بمعنى مشدد كأَذِين بمعنى «مؤذن» فتتمحض إضافته[٩].

والثاني: أن يكون الكل أبْدالاً لأن إضافتها غير محضة قاله الزمخشري[١٠]، إلا أن هذا الإبدال بالمشتق قليل جداً إلا أن يهجر فيها جانب الوصفية.

الثالث: أن يكون «غَافِرِ» و «قَابِلِ» نعتَيْنِ و «شَدِيدِ» بدلاً لِمَا تقدم من أن الصفة المشبهة لا تتعرف بالإضافة قاله الزجاج[١١] إلا أن الزمخشري قال: جعل الزجاج «شديد العقاب» وحده بدلاً للصفات فيه نُبُوٌّ ظاهر. والوجه أن يقال: لما صُودِفَ بين هذه المعارف هذه النكرة الواحدة فقد آذنت بأنها[١٢] كلها أبدال غير أوصاف، ومثال ذلك قصيدة جاءت تفاعيلها كلها على «مُسْتَفْعِلُن» فهي محكوم عليها بأنها من الرجز، فإن وقع فيها جزءٌ واحد على «مُتَفَاعِلُن» كانت من الكامل[١٣]. وناقشه أبو حيان فقال: ولا نُبُوَّ في ذلك؛ لأن الجري على القواعد التي قد استقرت وصحت هو الأصل[١٤]. وقوله «فقد آذنت بأن كلها أبدال» تركيب غير عربي لأنه جعل فقد آذنت جواب لما، وليس من كلامهم: لَمَّا قَامَ زَيْدٌ فَقَدْ قَام عَمْرو. وقوله بأنّ كلها أبدال فيه تكرير[١٥] للأبدال إمّا بدل البَدَاء عند من أثبته فقد تكررت فيه الأبدال، وإما بدل كل من كل وبدل بعض من كل

---

(١) في ب بدل الجلالة للجلالة.
(٢) في ب: جاوز.
(٣) سقط ما بين القوسين من ب.
(٤) في ب: قضى.
(٥) انظر الكتاب ١/ ٤٢٨، ٤٢٩.
(٦) في ب: نحو.
(٧) نقل أبو حيان في البحر عن صاحب المقنع عن الكوفيين أنهم أجازوا في «حسن الوجه» وما أشبهه أن يكون صفة للمعرفة قال وذلك خطأ عند البصريين انظر البحر ٧/ ٤٤٧.
(٨) في ب: يتمحض بالياء.
(٩) ذكر هذا الوجه العكبري في التبيان ١١١٥.
(١٠) الكشاف ٣/ ٤١٢، ٤١٣.
(١١) معاني القرآن وإعرابه ٤/ ٣٦٤ وانظر الكشاف المرجع السابق والقرطبي ١٥/ ٢٩٠ والبحر المحيط ٧/ ٤٤٧ وانظر هذا كله في الدر المصون لشهاب الدين السمين ٤/ ٦٧٢.
(١٢) في ب: بأن بدون (هاء).
(١٣) انظر الكشاف ٣/ ٤١٣.
(١٤) البحر المحيط ٧/ ٤٤٧.
(١٥) في ب: كذلك وما في البحر تكرار.

وبدل اشتمال، فلا نص عن أحد من النحويين أعرفه في جواز التكرار فيها أو منعه إلا أن في كلام بعض أصحابنا ما يدل على أن البدل لا يكرر وذلك في قول الشاعر:

٤٣١٧ ـ فَإلَى ابْنِ أُمّ أُنَاسَ أَرْحَلُ نَاقَتِي عَمْرٍو فَتُبْلِغُ حَاجَتِي أو تُزْحِفُ

مَلِكٍ إذَا نَزَلَ الوُفُودُ بِبَابِهِ عَرَفُوا مَوَارِدَ مُزْبِدٍ لاَ يُنْزَفُ[١]

قال: «فملك» بدل من «عمرو» بدل نكرة من معرفة، قال: فإن قلتَ: ألا يكون بدلاً من «ابن أم أناس» قلتُ: لأنه قد أبدل منه «عمراً» فلا يجوز أن يبدل منه مرة أخرى لأنه قد طرح انتهى[٢].

قال أبو حيان: فدل هذا على أن البدل لا يتكرر ويتحد المبدل منه، ودل على أن البدل من البدل جَائز[٣]. قال شهاب الدين: وهذا البحث قد تقدم في قوله «غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ» فلْيُلْتَفَتْ إليه[٤].

قال: وقوله تفاعيلها هو جمع تِفْعال أو تُفْعُول أو تَفْعِيل وليس شيء منها معدوداً من أجزاء العروض، فإن أجزاءه مُنْحَصِرَة ليس فيها شيء من هذه الأوزان فصوابه أن يقول: جاءت أجزاؤها كلها على مُسْتَفعِلُن[٥].

وقال الزمخشري أيضاً: ولقائل أن يقول هي صفات وإنما حذفت الألف واللام من «شديد» لِيُزَاوِجَ ما قبله وما بعده لفظاً فقد غيروا كثيراً من كلامهم عن قوانينه لأجل الإزواج[٦]، قالوا: ما يعرف سَحَادَلَيْهِ[٧] من عُنَادَلَيْهِ، فَثنَّوا ما هو «وَتر» لأجل ما هو

---

(١) البيتان من بحر البسيط لبشر بن أبي خازم ويروى الأول: وإلى ابن أم بالواو... تعمد ناقتي... لتنجح ناقتي أو تتلف وعمرو هو جد امرىء القيس وأم أناس بنت ذهل بن شيبان، وتزحف من الإزحاف وهو الإعياء، والموارد المناهل، والمزبد البحر يعلوه الزَّبد لتلاطم أمواجه وفي الديوان: عرفوا غوارب. وينزف: ينفد ماؤه. والبيت في مدح الممدوح ووصفه بالكرم كالبحر الفضفاض دوماً. والشاهد في قوله: «ملك» ـ كما أخبر أعلى ـ فإنه بدل من «عمرو» بدل نكرة من معرفة، ولا يجوز أن يكون بدلاً من «ابن أم أناس» لأنه قد أبدل منه «عمرو» فلا يجوز أن يبدل منه مرة أخرى ورواية الديوان «ملك» ـ بالرفع ـ وعليه فلا شاهد. ومن رأيي أن تكرار البدل لا يمنع منه مانع ما دام ذلك في خدمة المعنى قياساً على الصفة التي من الجائز أن تتعدد وانظر الكتاب ٢/ ٩ والقصائد السبع لابن الأنباري ٥٠٠ والإنصاف ٤٩٦ والخزانة ١/ ١٤٩ عرضاً والتصريح ٢/ ٣٢ وحاشية العليمي عليه والهمع ٢/ ١٢٧، واللسان (زحف) والبحر المحيط ٧/ ٤٤٨ والدر المصون ٤/ ٦٧٣ وديوانه ١٥٥.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٤٤٨. (٣) السابق.

(٤) الدر المصون ٤/ ٦٧٤. (٥) البحر المحيط المرجع السابق.

(٦) هو أن يزاوج بين الكلمات أو الجمل بكلام عذب وألفاظ حلوة وأمثلته أكثر من أن تحصى كقوله: ﴿**فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم**﴾ انظر الفوائد المشوق ٢٢٥.

(٧) السحادل: الذكر، والعنادلان: الخصيتان. وشاهد المثال تثنية السحادل ـ مع أنه مفرد للفرد ـ تبعاً للعنادلين مزاوجة (انظر معجم الألفاظ المثناة ٢٢٥، ٣٢٩ والقاموس المحيط سحدل ٣/ ٤٠٦).

«شَفْعٌ». على أن الخليل قال في قولهم: ما يَحْسُنُ بالرجل (مِثْلِكَ[١] أنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ، وما يَحْسُنُ بالرجل) خير منك أنه على نية الألف واللام كما كان الجَمَّاء[٢] الغفير على نية طرح الألف[٣] واللام، ومما سهل ذلك الأمن من اللبس وجهالة الموصوف[٤]. قال أبو حيان: ولا ضرورة إلى حذف «أل» من «شديد العقاب» وتشبيهه بنادر مغير وهو تثنية الوَتْر لأجل الشفع فيتنزه[٥] كتاب الله عن ذلك[٦].

قال شهاب الدين: أما الازدواج وهو المشاكلة من حيث[٧] هو فإنه واقع في القرآن وقد مضى منه مواضع.

وقال الزمخشري أيضاً: ويجوز أن يقال: قد تعمد[٨] تنكيره وإبهامه للدلالة على فرط الشِّدَّةِ على ما لا شيء أدْهَى منه وَأَمرّ لزيادة الإنذار. ويجوز أن يقال: هذه النكتة هي الداعية إلى اختيار البدل على الوصف إذا سلكت طريق الإبدال[٩] انتهى.

وقال مكي: يجوز في «غافر وقابل» البدل على أنهما نكرتان لاستقبالهما[١٠] والوصف على أنهما معرفتان لمُضِيِّهِمَا[١١]. وقال ابن الخطيب لا نزاع في جعل «غافر» صفة، وإنما كانا كذلك لأنهما يفيدان معنى الدوام والاستمرار فكذلك (شديد العقاب) يفيد ذلك لأن صفاته منزهة عن الحدوث والتجدد فمعناه كونه بحيث شديد عقابه، وهذا المعنى حاصل أبداً لا يوصف بأنه حصل بعد أن لم يكن[١٢] قال أبو حيان: وهذا كلام من لم يقف على علم النحو ولا نظر فيه ويلزمه أن يكون «حَكِيمٌ عَلِيمٌ» و «مَلِيكٌ مُقْتَدِرٌ» معارف لتنزيه صفاته عن الحدوث والتجدد، ولأنها صفاتٌ لم تَحْدُثْ لم تحصل بعد أن لم تكن ويكون تعريف صفاته بأل وتنكيرها سواء، وهذا لا يقوله مبتدىءٌ في علم النحو

---

(١) ما بين القوسين كله ساقط من نسخة ب بسبب انتقال النظر.

(٢) في ب: الجم.

(٣) ذكر إمام النحاة ذلك في الكتاب ٢/ ١٣ في باب مجرى نعت المعرفة عليها قال: «.. ومن المنقول ما يحسن بالرجل مثلك أن يفعل ذاك، وما يحسن بالرجل خير منك أن يفعل ذاك، وزعم الخليل ـ رحمه الله ـ أنه إنما جر هذا على نية الألف واللام ولكنه موضع لا تدخله الألف واللام كما كان الجماء الغفير منصوباً على نية إلقاء الألف واللام نحو طراً وقاطبةً..».

(٤) الكشاف ٣/ ٤١٣.

(٥) في ب: فتنزه.

(٦) البحر ٧/ ٤٤٨ بالمعنى.

(٧) الدر المصون ٤/ ٦٧٤.

(٨) في النسختين تغير والتصحيح من الكشاف.

(٩) الكشاف المرجع السابق.

(١٠) في ب: لا استغناء عنهما.

(١١) لم أجد هذا الرأي في كتاب مشكل الإعراب للإمام مكي وإنما هو لأبي جعفر النحاس في كتابه إعراب القرآن ٤/ ٢٦ قال: «وتحقيق الكلام في هذا وتلخيصه أن غافر الذنب وقابل التوب يجوز أن يكونا معرفتين على أنهما لما مضى فيكونا نعتين. ويجوز أين يكونا للمستقبل والحال فيكونا نكرتين» انظر الإعراب المرجع السابق.

(١٢) قاله في تفسيره الكبير ٢٧/ ٢٩.

بَلْه أن يُصَنِّفَ[١] فيه ويقدم على تفسير كتاب الله تعالى[٢]. وقد سُرِدَتْ هذه الصفات كلياً من غير عاطف إلا «قابل التوب» قال بعضهم: وإنما عطف لاجتماعهما وتلازمهما وعدم انفكاك أحدهما عن الآخر وقطع «شديد» عنهما فلم يعطف لانفراده[٣].

قال أبو حيان: وفيه نزعة اعتزالية، ومذهب أهل السنة جواز الغفران للعاصي وإن لم يتب إلا الشرك[٤]. قال شهاب الدين: وما أبعده عن نزعة الاعتزالية. ثم أقول: التلازم لازم من جهة أنه تعالى متى قَبِلَ التوبة فقد غفر الذنب وهو كَافٍ في[٥] التَّلاَزُم.

قال الزمخشري فإن قلتَ: ما بال الواو في قوله: «وَقَابِلِ التَّوْبِ»؟ قلتُ: فيها نكتة جليلة[٦] وهي إفادة الجمع للمذنب والتائب بين رحمتين بين أن يقبل توبته فيقبلها فيكتبها له طاعة من الطاعات وإن لم يجعلها مَحَّاءَةً للذنوب كمن لم يذنب كأنه قال: جامعُ المغفرة والقبول انتهى[٧].

وبعد هذا الكلام الأنيق وإبراز هذه المعاني الحسنة قال أبو حيان: وما أكثر تَهَجُّحَ[٨] هذا الرجل وشَقْشَقَتَه، والذي أفاد: أن الواو للجمع وهذا معروف من ظاهر علم النحو. قال شهاب الدين: وقد أنشدني بعضهم رحمه الله[٩]:

٤٣١٨ ـ وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلاً صَحِيحاً   وآفَتُهُ مِنَ الفَهْمِ السَّقِيمِ[١٠]

(وآخر)[١١]:

٤٣١٩ ـ قَدْ تُنْكِرُ العَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ   وَيُنْكِرُ الفَمُ طَعْمَ المَاءِ مِنْ سَقَمِ[١٢]

والتَّوْبُ (يحتمل)[١٣] أن يكون اسماً مفرداً مراداً به الجِنس كالذَّنْب، وأن يكون

---

(١) في ب: يضيف لا يصنف وقوله: «حكيم عليم» من الآية ٦ من سورة النمل، و ﴿مليك مقتدر﴾ من الآية ٥٥.
(٢) وانظر البحر ٧/٤٤٨.
(٣) نقله أبو حيان في مرجعه السابق عن صاحب الغنيان ولم أعرفه هو ولا مؤلفه.
(٤) انظر البحر المرجع السابق وتحفة المريد على جوهرة التوحيد ٢/٥: ١٣ وانظر في هذا أيضاً الدر المصون ٤/٦٧٥.
(٥) المرجع السابق.
(٦) كذا في الكشاف وفي النسختين حائلة.
(٧) الكشاف ٣/٤١٣.
(٨) في البحر تلمح وانظر البحر المرجع السابق.
(٩) في الدر المصون «ولله القائل» انظر الدر ٤/٦٧٥.
(١٠) جاء به المؤلف تبعاً لشهاب الدين في رده على أبي حيان شيخه في تحامله على الزمخشري والبيت من تمام الوافر وهو لأبي الطيب المتنبي وانظر المحتسب ٢/١٩ والدر المصون ٣/٦٧٦ وديوانه ٣/٣٤٦.
(١١) سقط من ب.
(١٢) شاهده كسابقه في رد شهاب الدين السَّمين مدافعاً عن الزمخشري وهو من بردة المديح المشهورة للإمام البوصيري. وهو من البسيط. البردة ١٨ والدر المصون ٤/٦٧٦ والديوان ١٩٧.
(١٣) سقط من ب.

جمعاً لتَوْبَةٍ كتَمْرٍ وتَمْرَةٍ[١] و «ذِي الطَّوْلِ» نعت أو بدل كما تقدم، والطَّوْلُ سَعَةُ الفَضْلِ[٢]، و «لاَ إِلَهَ إلاَّ هُوَ» يجوز أن يكون مستأنفاً[٣]، وأن يكون حالاً وهي حالٌ لازمةٌ، وقال أبو البقاء يجوز أن يكون[٤] صفة، وهذا على ظاهره فاسد؛ لأن الجُمَل لا تكون صفة للمعارف، ويمكن أن يريد أنه صفة لشديد العقاب، لأنه لم يتعرف بالإضافة. والقول في «إِلَيْهِ المَصِيرُ» كالقول في الجملة قبله ويجوز أن يكون حالاً من الجُمْلَةِ قبله[٥].

فصل

قال المفسرون: غافر الذنب ساتر الذنب وقابل التوب أي التوبة، مصدر تَابَ يَتُوبُ تَوْباً، وقيل: التوب جمع توبة مثل: دَوْمَة ودَوْم، وعَوْمَة وعَوْم، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: غافر الذنب لمن قال لا إله إلا الله، وقابل التوب لمن قال لا إله إلا الله، شديد العقاب لمن لا يقول لا إله إلا الله، «ذي الطول» ذي الغِنَى عمن لا يقول لا إله إلا الله. قال مجاهد: ذي الطول ذي السَّعَةِ والغِنَى، وقال الحسن: ذي الفضل، وقال قتادة: ذو النعم، وقيل: ذو القدرة، وأصل الطَّوْل الإنعام الذي تطولُ مُدَّتُهُ على صاحبه، لا إله إلا هو إليه المصير[٦]. والمعنى أنه لما وصف نفسه بصفاتِ الرحمة والفضل فلو حصل معه إله آخر يشاركه في صفة الرحمة والفضل لما كانت الحاجة إلى عبوديته شديدة فكان الترغيب والترهيب الكاملين حاصلين بسبب هذا التوحيد. وقوله «إِلَيْهِ المَصِيرُ» مما يقوِّي الرغبة في الإقرار بالعبودية.

قوله تعالى: ﴿**مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ لما قرر أن القرآن كتابه أنزله ليهتدى به في الدين ذكر أقوال[٧] من يجادل لغرض إبطاله فقال «ما يجادل في آيات الله» أي في دفع آيات الله بالتكذيب والإنكار إلا الذين كفروا.

واعلم أن الجدالَ نوعان، جدالٌ في تقرير الحق، وجدالٌ في تقرير الباطل، أما الجدال في تقرير الحق فهو حِرْفة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ قال تعالى لمحمد ـ

---

(١) المعروف أن اسم الجنس ما يفرق بينه وبين واحده بالتاء فكان على المؤلف أن يتحرى الدقة في أسلوبه والمحققون من متأخري النحاة والكوفيون يرون أن مثل ذلك جمع تكسير مفرده بالتاء وهذا ما عليه الأخفش في معانيه ٦٧٤، قال: «والتوب جماعة التوبة».

(٢) وانظر مجاز القرآن ٢/ ١٩٤ واللسان طول ٢٧٢٨.

(٣) التبيان ١١٣٥. (٤) السابق.

(٥) انظر الإعراب هذا كله في الدر المصون ٤/٦٧٦.

(٦) وانظر في هذا تفسير الإمام البغوي في معالم التنزيل ٦/ ٨٧ وتفسير الخازن في لباب التأويل نفس المرجع والموضع ذاته.

(٧) في ب: أحوال.

عليه الصلاة والسلام ـ ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] وحكى عن قوم نوح قولهم: ﴿قَالُوا يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ [هود: ٣٢]. وأما الجدال في تقرير الباطل فهو مذموم وهو المراد بهذه الآية، وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «إنَّ جِدَالاً في القُرْآنِ كُفْرٌ»[١] وروى عمرو بنُ شُعَيْب[٢] عن أبيه عن جده قال: سمع رسول الله ـ ﷺ ـ قوماً يَتَمارَوْنَ فقال: إنما هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بهذا ضربوا كتابَ الله عزّ وجلّ بعضه ببعضٍ، وإنما نزل كتاب الله يُصَدِّق بعضه بعضاً فلا تكذبوا بعضَه ببعض فما علمتم منه فقُولُوه، وما جَهِلْتم فكِلُوهُ إلى عالمه[٣]، وقال تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨] وقال: ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [غافر: ٥].

قوله «فَلاَ يَغْرُرْكَ» قرأ العامة بالفك وهي لغة الحِجَاز، وزيدُ بنُ عليّ وعُبَيْدُ بن عُمَيْرٍ فلا يَغُرَّكَ بالإدغام مفتوح[٤] الراء وهي لغة تَمِيم.

فصل

جدالهم في آيات الله هو قولهم مرة سحرٌ، ومرة هو شعرٌ، ومرة إنه قول الكهنة، ومرة إنه أساطير الأولين، ومرة إنه يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ، وقولهم: «مَا أَنْتُمْ[٥] إلاّ بَشَرٌ مِثْلُنَا» أَأُنْزِلَ عَلَيْنَا المَلاَئِكَةُ[٦]، وأشباه هذا.

ثم قال: «فَلاَ يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي البِلاَدِ» أي لا تغترَّ بأني أمْهَلْتُهُمْ وتركتهم سالمين في أبدانهم وأموالهم يتقلبون في البلاد أي يتصرفون فيها للتجارات وطلب المعاش فإني وإن أمهلتهم فإني سآخُذُهم وأنتقم كما فعلت بالأمم الماضية.

ثم كشف عن هذا المعنى فقال «كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ والأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ» وهم الكفار الذين تحزبوا على أنبيائهم بالتكذيب من بعد قوم نوح «وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ»، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ليقتلوه ويُهلكوه وقيل: ليأسِرُوه[٧]. وقرأ عبد الله بِرَسُولِها[٨]، أعاد الضمير على لفظ «الله» والجمهور على معناها، وفي قوله

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده ٢/٢٥٨، ٤٧٨، ٤٩٤.

(٢) ابن محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص السهمي أبو إبراهيم المدني نزيل الطائف عن أبيه عن جده وطاوس وعنه عمرو بن دينار وقتادة وخلق مات سنة ١١٨ هـ (انظر خلاصة الكمال ٢٩٠).

(٣) أخرجه البغوي هو وما قبله في تفسيره ٦/٨٨ وروى ما قبله عن أبي هريرة.

(٤) ذكرها أبو حيان في البحر ٧/٤٤٩ والزمخشري في الكشاف بدون نسبة ٣/٤١٤، ٤١٥ وهي من الشواذ.

(٥) في ب: ما أنت بالإفراد.

(٦) وفيها: لولا أنزل علينا الملائكة وهي الموافقة لما في المصحف.

(٧) ذكر ذلك البغوي في تفسيره ٦/٨٨.

(٨) ذكرت في البحر ٧/٤٤٩ والدر المصون ٤/٦٧٦ ومعاني الفراء ٣/٥ وهي من الشواذ.

«ليأخذوه» عبارة عن المُسَبَّبِ بالسَّبَبِ وذلك أن القتل مسبب عن الأخذ ومنه قيل لِلأسير: أخِيذٌ[١] قال:

٤٣٢٠ ـ فَإمَّا تأْخُذُونِي تَقْتُلُونِي فَكَمْ مِنْ واحِدٍ يَهْوَى خُلُودِي[٢]

«وَجَادَلُوا بالبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الحَقَّ» لِيُبْطِلُوا به الحق الذي جاءت به الرسلُ، «فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ» اجتزاءٌ بالكسرة عن ياء المتكلم وصلاً ووقفاً[٣]؛ لأنها رأس فاصلة، والمعنى فأنزلت بهم من الهلاك ما هموا بإنزاله بالرسل، وأرادوا أن يأخذوهم فأخذتهم أنا فكيف كان عقابي إيَّاهُم؟ أليس كان مستأصلاً؟ فأنا أفعل بقومك ما فعلت بهؤلاء إن أصروا على الكفر والجدال في آيات الله[٤].

قوله (تعالى)[٥] «وَكَذَلِكَ حَقَّتْ» يحتمل الكاف أن تكون مرفوعة المحل على خبر مبتدأ مضمر، أي والأمر كذلك[٦]: ثم أخبر بأنه حقت كلمة الله عليهم بالعذاب، وأن يكون نعتاً لمصدر محذوف أي مثل ذلك الوجوب من عقابهم وجب على الكفرة[٧]، والمعنى كما حقت كلمة العذاب على الأمم المكذبة حقت أيضاً على الذين كفروا من قومك.

قوله «أنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ» يجوز أن يكون على حذف حرف الجرّ أي[٨] لأنَّهُم (فحذف[٩]) فيجري في محلها القولان (قال الأخفش[١٠] لأَنَّهُمْ أو بأَنَّهُمْ أَصْحَابُ النار)، ويجوز أن يكون في محل رفع بدلاً من «كلمةِ[١١]». وقد تقدم خلافهم في إفراد «كَلِمَة» وجمعها، وأن نافعاً وابن عامر قرأ «كلمات» على الجمع والباقون بالإفراد[١٢].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ

(١) اللسان أخذ ٣٦، ومعالم التنزيل ٦/ ٨٨، والكشاف ٣/ ٤١٥.

(٢) من الوافر ويروى: فكم من آخذ. والاستشهاد في قوله «تأخذوني» فإن الأخذ بمعنى الأسر والدليل تقتلوني، وانظر البحر ٧/ ٤٤٩، والقرطبي ١٥/ ٢٩٣، برواية: فكم من آخذ، وانظر الدر ٤/ ٦٧٦.

(٣) وقد قرأ بإثبات الياء في الوصل والوقف يعقوب انظر إتحاف فضلاء البشر ٣٧٧ والدر المصون ٤/ ٦٧٧.

(٤) وانظر الكشاف ٣/ ٤١٥.

(٥) زيادة من أ.

(٦) قاله السمين في الدر ٤/ ٦٦٧.

(٧) قاله أبو حيان في تفسيره ٧/ ٤٥٠ فضلاً عن المرجع السابق.

(٨) أحد قولي الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤١٥ وانظر المرجعين السابقين أيضاً.

(٩) سقط من ب.

(١٠) ما بين القوسين كله زيادة من أ عن ب وانظر معاني القرآن للأخفش ٦٧٥.

(١١) الكشاف والدر المراجع السابقة.

(١٢) قرأ أيضاً بالجمعية ابن هرمز وشيبة وابن القعقاع وقرأ بالإفراد باقي السبعة وقتادة وأبو رجاء وانظر البحر ٧/ ٤٥٠، والإتحاف ٣٧٧ والسبعة ٥٦٧ والكشاف ٣/ ٤١٥ والدر المصون ٤/ ٦٧٧.

وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾

قوله «الَّذِينَ يَحْمِلُونَ» مبتدأ و «يُسَبِّحُونَ» خبره، والعامة على فتح عين العَرش وابن عباس في آخرينَ بضَمِّها[١]. فقيل: يحتمل أن يكون جمعاً لعَرْش كسُقُفٍ[٢] في سَقْفٍ وقوله «مِنْ حَوْلِهِ» يحتمل أن يكون مرفوع المحل عطفاً على «الذين يحملون العرش» أخبر عن الفريقين بأنهم يسبحون، وهذا هو الظاهر، وأن يكون منصوب المحل عطفاً على «العَرْشِ» يعني أنهم يحملون أيضاً الملائكة الحافين بالعرش، وليس بظاهر[٣].

فصل

لما بين أن الكفار يبالغون في إظهار العداوة مع المؤمنين بين أن أشرف طبقات المخلوقات هم الملائكة الذين هم حملة العرش والحافّون حول العرش يبالغون في إظهار المحبة والنصرة للمؤمنين، فكأنه تعالى يقول: إن كان هؤلاء الأراذل يبالغون في العداوة فلا تلتفت[٤] إليهم ولا تُقِمْ لهم وزناً فإن حملة العرش معك، والحافّون من حول العرش ينصرونك وهم الكُرُوبِيُّونَ، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: حملة العرش ما بين كعب أحدهم إلى أسفل قدميه مسيرة خمسمِائةِ عام، وروى جعفرُ بْنُ محمد عن أبيه عن جده أنه قال: بين القائمةِ من قوائم العرش والقائمة الثانية خَفَقَان الطير المسرع ثلاثين ألف عام[٥]. وقال مجاهد: بينَ السماءِ الثانية وبين العرش سبعونَ ألف حجابٍ: حجابٌ من نورٍ، وحجاب من ظلمة، وقال وهب بن منبه: إن حول العرشِ سبعونَ ألف صفٍّ من الملائكة، صفٌّ خلف صفٍّ يطوفون بالعرش.

قوله «يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ» قال شهر بن حوشب: حملةُ العرش ثمانيةٌ، فأربعةٌ منهم يَقُولُون: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ لَكَ الحَمْدُ عَلَى حِلْمك بعد عِلْمك، وأربعةٌ منهم يقولون: سُبْحَانَك اللَّهُمَّ وبِحَمْدِكَ لك الحمدُ على عَفْوِكَ بعْدَ قدْرَتِكَ؛ قال: وكأنهم يرون ذنوب بني آدَمَ[٦].

---

(١) من القراءات الشاذة، انظر مختصر ابن خالويه ١٣٢، والكشاف ٣/ ٤١٥، والبحر والدر أيضاً المرجعين السابقين.

(٢) ويحتمل ذلك وجهاً آخر وهو أن يكون ضم العين لغة في العرش قاله أبو حيان في البحر ٧/ ٥٢ وانظر شرح شافية ابن الحاجب لرضي الدين ٢/ ٩١، ٩٢ والدر المصون ٤/ ٦٧٧.

(٣) السابق الأخير.

(٤) في ب: لا يلتفت إليهم.

(٥) جزء من حديث أخرجه الإمام البغوي في تفسيره ٦/ ٨٩.

(٦) ذكر هذه الأقوال كلها البغوي في المرجع السابق.

وقوله: «ويُؤمِنُونَ بِهِ» فيه سؤال[١] وهو أن يقال: ما الفائدة في قوله «ويؤمنون به» مع أن الاشتغال بالتسبيح والتحميد لا يمكن إلا بعد سبق الإيمان بالله؟

وأجاب الزمخشري: بأن المقصودَ منه التنبيه على أن الله تعالى لو كان حاضراً لكان حملة العرش والحافون بالعرش يشاهدونه ويعاينونه، ولو كان كذلك لما كان إيمانهم بوجود الله موجباً للمدْح والثناء لأن الإقرارَ بوُجُود شيءٍ مشاهد معاين لا يوجب المدح والثناء، ألا ترى أن الإقرار بوجود الشمس وبكونها مضيئةً لا يوجب المدح والثناء؟ فلما ذكر الله سبحانه وتعالى إيمانهم بالله على سبيل المدح والثناء والتعظيم دل على أنهم إنما آمنوا به مع أنهم ما شاهدوه حاضراً جالساً هُنَاكَ.

قوله: «وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا» اعلم أن كمال السعادة بأمرين:

أحدِهِمَا: التعظيم لأمر الله.

والثاني: الشفقة على خلق الله، ويجب أن يكون التعظيم لأمر الله مقدماً على الشفقة على خلق الله، فقوله تعالى: ﴿**يُسَبِّحُونَ بحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ**﴾ مشعر بالتعظيم لأمر الله، وقوله «وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِين آمَنُوا» مشعرٌ بالشفقة على خلق الله، واحتج كثير من العلماء بهذه الآية على أن المَلَكَ أفضلُ من البشر؛ لأنها دلت على أن الملائكة لما فرغوا من ذكر الله تعالى بالثناء والتقدير اشتغلوا بالاستغفار لغيرهم وهم المؤمنون وهذا يدل على أنهم مستغنون بأنفسهم؛ إذ لو كانوا محتاجين إلى الاستغفار لاستغفروا لأنفسهم أولاً، لقوله ـ ﷺ ـ «ابدأ بنفسك»[٢] ولقوله تعالى لمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩] وقال[٣] عن نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [نوح: ٢٨] وهذا يدل على أن من كان محتاجاً إلى الاستغفار (فإنه يقدم الاستغفار[٤] لنفسه على الاستغفار لغيره والملائكة لو كانوا محتاجين إلى الاستغفار) لاستغفروا لأنفسهم أولاً ثم استغفروا لغيرهم، ولما لم يذكر الله تعالى استغفارهم لأنفسهم علمنا أنهم لم يكونوا محتاجين إلى الاستغفار، وأما الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فهم كانوا محتاجين إلى الاستغفار لقوله تعالى لمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ «واستَغْفِرْ لِذَنْبِكَ» فظهر أن الملك أفضل من البشر والله أعلم[٥].

قوله «رَبَّنَا» معمول لقول مضمر تقديره يقولون ربنا، والقول المضمر في محل

---

(١) نقله الرازي في تفسيره ٢٧/ ٣٢، ٣٣ عن الزمخشري في الكشّاف ٣/ ٤١٥، ٤١٦.

(٢) الحديث ذكره وأخرجه مسلم في صحيحه باب الزكاة ٤١ والرازي ٢٧/ ٣٣.

(٣) في ب والرازي: وحكى عن نوح.

(٤) ما بين القوسين كله سقط من نسخة ب بسبب انتقال النظر.

(٥) انظر في هذا تفسير الإمام الفخر الرازي ٢٧/ ٣٣.

نصب على الحال من فاعل «يستغفرون» أو خبرٌ بعد خبر، و «رَحْمَةً وعِلْماً» تمييز منقول من الفاعلية أي وسع كل شيء رَحْمَتُكَ وعِلْمُكَ[١]. واعلم أن الدعاء في أكثر الأمر مذكور بلفظ «الرب»؛ لأن الملائكة قالوا في هذه الآية «ربنا»، وقال آدمُ ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] وقال نوحٌ: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح: ٥] وقال ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ [نوح: ٢٨] وقال إبراهيم: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠] وقال: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] وقال يوسفُ ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ [يوسف: ١٠١] وقال مُوسى عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] وقال: ﴿(رب) إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ [القصص: ١٦] وحكى عن داود ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه استغفر ربه وخر راكعاً[٢] وقال سليمانُ ـ عليه الصلاة والسلام ـ ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥]، وحكى عن زكريًا ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه «نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيًّا»[٣] وقال عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة: ١١٤] وقال تعالى لمحمد عليه الصلاة والسلام: «﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [المؤمنون: ٩٧] وحكى عن المؤمنين أنهم قالوا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا . . . .﴾ [آل عمران: ١٩١].

فإن قيل: لفظ الله أعظم من لفظ الرب فلم خص لفظ الربِّ بالدعاء؟

فالجواب: بأن العبد يقول: كنتُ في العدم المحض والنفي الصِّرْفِ فأخرجتَنِي إلى الوجود وربَّيتني فاجعل تربيتك لي شفيعاً إليك في أن لا تُخَلِّيني طرفة عين عن تربيتك وإحسانك (وفضلك)[٣]، لإجابة دعائي.

فإن قيل: قوله ربنا وسعت كل شيء رحمةً وعلماً فيه سؤال، لأن العلم وسعَ كل شيء وأما الرحمة فما وصلت إلى كل شيء؛ لأن المضرورَ حال وقوعه في الضرر لا يكون ذلك في حقه رحمة وهذا السؤال أيضاً مذكور في قوله: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

فالجواب: كل موجود فقد نال من رحمة الله نصيباً؛ لأن الموجود إما واجب وإما ممكن أما الواجب فليس إلا الله (سبحانه)[٤] وتعالى. وأما الممكن فوجوده من الله تعالى وبإيجاده وذلك رحمة فثبت أنه لا موجود غير الله إلا وقد حصل له نصيب من الرحمة

---

(١) قال بهذا الإعراب الإمام السمين في الدر المصون ٤/٦٧٧ وأبو البقاء في التبيان ١١١٥، ١١١٦.

(٢) قال: ﴿فاستغفر ربّه وخرّ راكعاً وأناب﴾ [ص: ٢٤].

(٣) قال: ﴿إذ نادى ربّه نداءً خفيًا﴾ [مريم: ٣].

(٤) تكملة من الرازي عن النسختين.

(٥) سقط من ب وانظر في هذا كله تفسير الإمام فخر الدين الرازي ٢٧/ ٣٤، ٣٥.

فلهذا قال: «رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وعِلْماً» وهذه الآية دلت على أنه تعالى عالم بجميع المعلومات التي لا نهاية لها من الكليات والجزئيات.

قوله: «فاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا واتَّبَعُوا سَبِيلَكَ» دينك «وَقِهِمْ عَذَابَ الجَحِيمِ»

فإن قيل: لا معنى للغُفْران إلا إسقاط العذاب وعلى هذا فلا فرق بين قوله «فاغْفِرْ لَهُمْ» وبين قوله «وقِهِمْ عذابَ الجَحِيم».

فالجواب: قولهم: فاغفر فيه رمز وإشارة لإسقاط العذاب، فلهذا أردفوه بذكره على سبيل التصريح تأكيداً ومبالغة.

واعلم أنهم لما طلبوا من الله إزالة العذاب (عنهم)[١] أردفوه بطلب إيصالِ الثواب إليهم فقالوا: «رَبَّنَا وأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتهُمْ».

فإن قيل: أنتم زعمتم أن الشفاعة إنما جعلت[٢] للمذنبين وهذه الآية تُبْطِلُ ذَلِك، لأنه تعالى ما وعد المذنبين بأن يدخلهم جنات عَدْن.

فالجواب: (لا نسلم أنه)[٣] ما وَعَدَهُمْ بذلك، لأن الدلائل الكثيرة دلت على أنه لا يخلد أهل «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» في النار، وإذا أخرجهم من النار وجب أن يدخلهم الجنة فكان هذا وعد من الله بأن يدخلهم جنات عدن إما من غير دخول النار، وإما بعد أن يدخلهم النار.

قوله: «وَمَنْ صَلَحَ» في محل نصب إما عطفاً على مفعول «أَدْخِلْهُمْ» وإما على مفعول «وَعَدتَهُمْ» وقال الفراءُ[٤] والزجاج[٥] نصبه من مكانين إن شئت على الضمير في «أَدْخِلْهُمْ» وإن شئت على الضمير في «وَعَدتَهُمْ». والعامة على فتح لام «صَلَحَ» يقال: صَلَحَ فهو صَالِحٌ، وابنُ أبي عبلة بضمها[٦]، يقال: صَلُحَ فَهُو صَلِيحٌ. والعامة على «ذرِّيَاتهم» جمعاً، وعيسى «ذُرِّيَّتِهم»[٧] إفراداً. والمراد بقوله ومن صلح من أهل الإيمان.

ثم قالوا «إنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ». وإنما ذكروا في دعائهم هذين الوصفين، لأنه لو لم يكن عزيزاً بل كان بحيث يغلب ويمنع لما صح وقوع المطلوب منه ولو لم يكن

---

(١) سقط من ب.

(٢) في ب بدل جعلت حصلت.

(٣) ما بين القوسين زيادة من ب.

(٤) قال في معاني القرآن له ٣/ ٥: «من نصب من مكانين إن شئت جعلت «ومَنْ» مردودة على الهاء والميم في «وأدخلهم» وإن شئت على الياء والميم في وعدتهم».

(٥) وقال الزجاج في معانيه ٤/ ٣٦٨: «من في موضع نصب عطف على الياء والميم في قوله: «ربنا وأدخلهم جنات عدن» أي وأدخل من صلح، ويصلح أن يكون عطفاً على الهاء والميم في قوله «وعدتهم» فيكون المعنى وعدتهم ووعدت من صلح من آبائهم».

(٦) قراءة شاذة ذكرها البحر المحيط ٧/ ٤٥٢ والزمخشري في الكشاف ٣/ ٤١٧ والسمين في الدر ٤/ ٦٧٨.

(٧) المراجع السابقة.

حكيماً لما حصل هذا المطلوب على وفق الحكمة والمصلحة.

ثم قالوا بعد ذَلِكَ «وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ» (قال بعضُ المفسرين[١] المراد منه عذاب السيئات.

فإن قيل: فعلى هذا التقدير لا فرق بين قوله: «وقهم السيئات»)[٢] وبين قوله: «وقهم عذاب الجحيم» وحينئذ يلزم التكرار الخالي من الفائدة وهو لا يجوز!

فالجواب: أنّ التفاوت حاصلٌ من وجهين:

الأول: أن يكون قوله «وقهم عذاب الجحيم»، دعاء مذكوراً (للأصُولِ وقوله «وقهم السيئات»[٣] دعاء مذكوراً) للفروع وهم الآباء والأزواج والذريات.

الثاني: أن يكون قوله «وقهم عذاب الجحيم» مقصوراً على إزالة عذاب الجحيم، وقوله «وقهم السَّيِّئَات» يتناول عذاب الجحيم وعذاب موقف القيامة والحساب والسؤال.

وقال بعض المفسرين: المراد بقوله: «وَقِهِم السيئات» هو أن الملائكة طلبوا إزالة عذاب النار بقولهم: «عذاب الجحيم» وطلبوا إيصال الثواب (إليهم)[٤] بقولهم: «وأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ» ثم طلبوا بعده ذلك أن يصونهم الله تعالى في الدنيا عن العقائد الفاسدة بقولهم: «وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ» ثم قالوا «وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَات يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ» يعني من تقِ السيئات في الدنيا فقد رحمته في يوم القيامة، ثم قالوا «وَذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ» حيث وجدوا بأعمال منقطعة نعيماً لا ينقطع وبأفعالٍ حقيرة مُلْكاً لا تصل العقول إلى كُنْهِ جلالته والله أعلم[٥].

قوله: «يَوْمَئِذٍ» التنوين عوض من جملة محذوفة، ولكن ليس في الكلام جملة مصرحٌ بها عوض من هذا التنوين بخلاف قوله: ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٤] أي حين إذْ بَلَغَتِ الحلقومَ لِتَقَدُّمِهَا في اللفظ فلا بدّ من تقدير جملة يكون هذا عوضاً منها تقديره: يَوْمَ إذْ يُؤَاخَذُ بِهَا[٦].

فَصْلٌ

قال مُطرفٌ[٧]: أنصحُ عباد الله للمؤمنين الملائكة وأغشُّ الخلقِ للمؤمنين هم

---

(١) أورده الرازي في تفسيره دون تعيين أيضاً ٢٧/ ٣٧.

(٢) ما بين القوسين كله سقط من ب. (٣) سقط كذلك من ب بسبب انتقال النظر.

(٤) كذا في الرازي وأ وهي ساقطة من ب. (٥) انظر تفسير الإمام الرازي ٢٧/ ٣٧.

(٦) هذا قول أبي حيان ومن بعد السمين في الدر المصون ٤/ ٦٧٨ فقد قال أبو حيان في البحر ٧/ ٤٥٧: «ولم يتعرض أحد من المفسرين الذين وقفنا على كلامهم في الآية للجملة التي عوض منها التنوين في يومئذ».

(٧) في ب: ابن مطرف وهو تحريف والصحيح ما عليه أ فهو مطرف بن عبد الله وقد ترجم له.

الشياطين، قال سعيد بن جبير في تفسير قوله «ومن صلح من آبائهم» يدخل المؤمن الجنة فيقول: أين أبي؟ أين ولدي؟ أين زوجتي؟ فيقال لهم: إنهم لم يعملوا مثل عملك فيقول: إني كنت أعمل لي ولهم فيقال: أدخلوهم الجنة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ﴾** أي يوم القيامة وهم في النار وقد مقتوا أنفسهم حين عرض عليهم سيئاتهم وعاينوا العذاب فيقال لهم: «لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإيمَانِ فَتَكْفُرُونَ» أي لمقت الله إياكم في الدنيا إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون أكبر من مقتكم اليوم أنفسكم عند دُخُول العذاب[١] قاله البغوي[٢].

واعلم أن الله تعالى عاد إلى شرح أحوال الكافرين المجادلين في آيات الله، وهم المذكورون في قوله «مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا» وبين أنهم في القيامة يعترفون بذنوبهم واستحقاقهم العذاب ويسألون الرجوع إلى الدنيا ليتلافوا ما فرط مِنْهُمْ[٣].

قوله «إِذْ تُدْعَوْنَ» منصوب بمقدر يدل عليه (هذا الظاهر[٤]، تقديره مقتكم إذ تدعون، وقدّره بعضهم: اذكروا إذ تدعون)[٥]. وجوز الزمخشري أن يكون منصوباً بالمقت الأول[٦]. ورد عليه أبو حيان بأنه يلزم الفصل بين المصدر ومعموله بالأجنبي وهو الخبر[٧]، وقال: هذا من ظواهر علم النحو التي لا تكاد تَخْفَى على المُبْتَدِىءِ، فضلاً عن من يَدَّعِي من العجم أنه شيخ العرب والعجم[٨]، قال شهاب الدين: وَمِثْلُ هذا لا يخفى على أبي القاسم، وإنما أراد أنه دال على ناصبه[٩]، (و)[١٠] على تقدير ذلك

---

(١) في ب: قال بدون عائد وهو خطأ والتصحيح ما هو مثبت أعلى من أ فالمقول السابق للبغوي لا اللاحق.
(٢) معالم التنزيل ٦/ ٩٠.
(٣) قاله الرازي في التفسير الكبير ٢٧/ ٣٨.
(٤) ما بين القوسين ساقط من أ الأصل ومثبت في ب والسمين ٤/ ٦٧٩.
(٥) قال بذلك ابن الأنباري في البيان ٢/ ٣٢٨، ٣٢٩.
(٦) الكشاف ٣/ ٤١٧.
(٧) قال: لأن المقت مصدر ومعموله من صلته، ولا يجوز أن يخبر عنه إلا بعد استيفائه صلته وقد أخبر عنه بقوله «أكبر من مقتكم».
(٨) انظر البحر بالمعنى ٧/ ٤٥٢، ٤٥٣.
(٩) هذا دفاع من السمين عن الزمخشري ولكن صريح عبارة الزمخشري أنه منصوب بنفس المقت. وانظر الدر المصون ٤/ ٦٧٨ والكشاف ٤١٧.
(١٠) الواو سقطت من ب.

فهو مذهب كوفي قال به. أو لأن الظَّرْفَ يُتَّسَعُ فيه ما لا يُتَّسَعُ في غيره، وأيُّ غموض في هذا حتى يُنْحي عليه هذا الإنحاء؟ ولله درّ القائل:

٤٣٢١ ـ حَسَدُوا الفَتَى إذْ لَمْ يَنَالُوا سَعْيَهُ ... فَالقَوْمُ أعْدَاءٌ لَهُ وَخُصُومُ
كَضَرَائِرِ الحَسْنَاءِ قُلْنَ لِوَجْهِهَا ... كَذِباً وَزُوراً إنَّهُ لَذَمِيمُ[(١)]

وهذا الرد سبقه إليه أبو البقاء فقال: ولا يجوز أن يعمل فيه مقت الله؛ لأنه مصدر أخبر عنه وهو قوله «أَكْبَرُ» فمن ثم أخذه أبو حيان، ولا يجوز أن ينتصب بالمقت الثاني لأنهم لم يمقتوا أنفسهم وقت دعائهم إلى الإيمان إنما مَقتُوهَا يَوْمَ القيامة[(٢)]. والظاهر أن «مقت الله» واقع في الدنيا كما تقدم في تفسير الآية. وجوز الحسن أن يكون في الآخرة وضعفه أبو حيان بأنه يبقى «إذْ تُدْعَوْنَ» مفلّتاً من الكلام لكونه ليس له عامل مقدم فلا يفسر قائلاً فإذا كان المقت في الدنيا أمكن أن يضمر له عامل تقديره (مقتكم)[(٣)]. قال شهاب الدين: وهذا التجري على مثل الحسن يهون عليك تَجَرِّيه على الزمخشري ونحوه[(٤)].

واللام في «لَمَقْتُ» لام ابتداء[(٥)]، أو قسم[(٦)]، ومفعوله محذوف أي لمقت الله إياكم أو أنفسكم فهو مصدر مضاف[(٧)] لفاعله كالثاني. ولا يجوز أن تكون المسألة من باب التنازع في «أنفسكم» بين المقتين؛ لئلا يلزم الفصل بالخبر بين المقت الأول ومعموله على تقدير إعماله[(٨)]. لكن قد اختلف النحاة في مسألة وهي التنازع في فِعْلَي التعجب فمن منع اعتل بما ذكرته لأنه لا يُفْصَلُ بين فعل التعجب ومعموله، ومن جوز فقال: يلتزم (إعمال)[(٩)] الثاني حتى لا يلزم الفصل فليكن هذا منه، والحق عدم الجواز فإنَّه على خلاف قاعدة التنازع.

---

(١) هذا كله من كلام السمين في إطار دفاعه عن الزمخشري في الدر ٤/ ٦٧٩ والبيتان من الكامل وجيء بهما تضميناً في إطار الدفاع عن الزمخشري من السمين شهاب الدين وقد نسب هذا البيتان لأبي الأسود الدؤلي وانظر حاشية الأمير على المغني ١٧٩/ ١ والأشموني ٢/ ٢١٨ والهمع ٢/ ٣٢ واللسان «ذمم» والسبع الطوال لابن الأنباري ٢٦٧ والدر المصون ٤/ ٦٧٩ وفي البيت الثاني شاهدٌ لا مجال لنا فيه الآن.

(٢) قاله مكي في المشكل ٢/ ٢٦٤ وأبو البقاء في التبيان ١١١٦ وابن الأنباري في البيان ٢/ ٣٢٩ والسمين في الدر ٤/ ٦٧٩.

(٣) بالمعنى من البحر المحيط ٧/ ٤٥٢ وانظر الدر المرجع السابق.

(٤) الدر المرجع السابق.

(٥) قاله الأخفش في معانيه ٦٧٥ ونقله القرطبي في الجامع ١٥/ ٢٩٦.

(٦) ذكره أبو حيان في البحر ٤/ ٤٥٢ والسمين في الدر ٤/ ٦٧٩.

(٧) السابقين وانظر أيضاً التبيان ١١١٦.

(٨) الدر المصون ٤/ ٦٧٩.

(٩) سقط هذا من ب على هيئة بياض.

فصل

ذكروا في تفسير مقتهم أنفسهم وجوهاً:

الأول: أنهم إذا شاهدوا القيامة والجنة والنار مقتوا أنفسهم على إصرارهم على التكذيب بهذه الأشياء في الدنيا.

الثاني: أن الأتباع يشتد مقتهم للرؤساء الذين دَعَوْهُم إلى الكفر في الدنيا، والرؤساء أيضاً يشتد مقتهم للأتباع فعبر عن مقت بعضهم بعضاً بأنهم مقتوا أنفسهم كقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، والمراد قتل بعضهم بعضاً.

الثالث: قال محمد بن كعب (القُرَظِيّ): إذا خطبهم إبليس وهم في النار بقوله: «مَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ» إلى قوله: ﴿وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٥] ففي هذه الحالة مقتوا أنفسهم، وأما الذين ينادُون الكفار بهذا الكلام فهم خزنةُ جَهَنَّمَ(١).

فصل

المقت: أشد البغض وذلك في حق الله تعالى محال، فالمراد منه الإنكار والزجر(٢)، قال الفراء قوله «يُنَادَوْن لَمَقْتُ اللَّهِ» معناه ينادون أن مقت الله، يقال: ناديت إن زيداً قائمٌ، وناديت لَزَيْدٌ قائم(٣).

ثم إنه تعالى بين أن الكفار إذا خوطبوا بهذا الخطابُ قالوا: «ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين...» الآية: «اثنتين» نعت مصدر محذوف تقديره إمَاتَتَيْنِ اثْنَتَيْن(٤). قال ابن عباس وقتادة والضحاك: كانوا أمواتاً في أصلاب آبائهم فأحياهم الله في الدنيا، ثم أماتهم الموتة التي لا بد منها، ثم أحياهم للبعث يوم القيامة فهما موتان وحياتان، وهو كقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]. وقال السديّ: أميتُوا في الدنيا ثم أُحْيُوا في قبورهم للسؤال ثم أُميتُوا في قبورهم، ثم أُحْيُوا في الآخرة. وقوله «فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ» أي من خروج من النار إلى الدنيا فنصلح أعمالنا ونعمل بطاعتك، وَمَّر نظيرُ: «هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ»(٥) والمعنى أنهم لما عرفوا أن الذي كانوا عليه في الدنيا كان فاسداً باطلاً تمنوا الرجوع إلى الدنيا ليشتغلوا بالأعمال الصالحة.

فإن قيل: الفاء في قوله «فاعْتَرَفْنَا» يقتضي أن تكون الإماتةُ مرتين (والإحياءُ(٦) مرتين) سبباً لهذا الاعتراض فما وجه هذه السَّبَبِيَّةِ؟.

---

(١) (٢) انظر الرازي ٣٨/٢٧.
(٣) معاني القرآن له ٧/٣.
(٤) الرازي السابق.
(٥) انظر هذه الأقوال كلها في تفسير البغوي ٦/ ٩٠، ٩١.
(٦) سقط من ب.

فالجواب: لأنهم[١] كانوا منكرين البعث فلما شاهدوا هذا الإحياء بعد الإماتة مرتين لم يبق لهم عذر في الإقرار بالبعث فلا جرم وقع هذا الإقرار كالمسبب عن تلك الإماتة والإحياء.

واعلم أنهم لما قالوا فهل إلى خروج من سبيل فالجواب الصريح عنه أن يقال: لا أو نعم وهو تعالى لم يَقُلْ ذلك بل قال كلاماً يدل على أنه لا سبيل لهم إلى الخروج وهو قوله «ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ» أي ذلك الذي أنتم فيه من العذاب والخلود من النار وأن لا سبيل لكم إلى خروج قط إنما وقع بسبب كفرهم بتوحيد الله، أي إذا قيل لا إله إلا الله كفرتم وقلتمْ ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥] «وإِنْ يَشْرِكْ بِهِ تُؤْمِنُوا» أي تصدقوا ذلك الشرك[٢].

قوله «وَحْدَهُ» فيه وجهان:

أحدهما: أنه مصدر في موضع الحال، وجاز كونه معرفة لفظاً لكونه في قوة النكرة، كأنه قيل: منفرداً[٣].

والثاني ـ وهو قول يُونُسَ ـ: أنه منصوب على الظرف والتقدير: دُعِيَ عَلَى حِيَالِهِ[٤]. وهو[٥] مصدر محذوف الزوائد، والأصل أَوْحَدتُهُ إيحاداً.

قوله «فَالحُكْمُ لِلَّهِ» حيث حكم عليكم بالعذاب السَّرْمَدِ. وقوله: «العَلِيِّ الكَبِيرِ» يدل على الكبرياء والعظمة الذي لا أعلى منه ولا أكبر.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُم آياتِهِ﴾ ليدل على كمال قدرته وحكمته وأنه لا يجوز

---

(١) في ب: أنهم. (٢) انظر الرازي ٢٧/ ٣٩، ٤١.

(٣) هذا قول إمام النحاة قال: جعلوا ما أضيف ونصب نحو: خمستهم بمنزلة طاقته وجهده ووحده، وجعلوا الجماء الغفير بمنزلة العراك. انظر الكتاب ١/ ٣٧٧ وشرح ابن يعيش ٢/ ٦٣.

(٤) وفي الكتاب أيضاً: «وزعم يونس أن وحده بمنزلة عنده جعل يونس نصب وحدة كأنك قلت: مررت برجل على حياله فطرحت «على» فمن ثم قال: هو مثل عنده». المرجع السابق ١/ ٣٧٨، ٣٧٧ وفيه ثالث للخليل، وهو النصب على المصدر وقال سيبويه: وزعم الخليل ـ رحمه الله ـ أنه لم يستعمل. الكتاب ١/ ٣٧٤ وانظر في هذا أيضاً الدر المصون ٤/ ٦٨٠.

(٥) في ب وهي بالتأنيث.

جعل هذه الأحجار المنحوتة والخشب المصور شركاء لله تعالى في المعبودية، ثم قال «وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقاً» يعني المطر الذي هو سبب الأرزاق. وقرأ ابن كثير وأبو عمروٍ «ينزل» خفيفة والباقون بالتشديد[١].

واعلم أن أهم المُهمّات رعايةُ مصالح الأديان ومصالح الأبدان، فاللَّه تعالى يراعي مصالح أديان العباد بإظهار البَيِّناتِ والآيات وراعى مصالح العباد بأبدانهم بإنزال الرزق من السماء فموقع الآيات من الأديان كموقع الأرزاق من الأبدان وعند حصولها يحصل الإنعام الكامل.

ثم قال «وَمَا يَتَذَكَّرُ إلاَّ مَنْ يُنِيبُ» أي ما يتعظ بهذه الآيات إلا من يرجع إلى الله في جميع أموره فيعرض عن غير الله ويقبل بالكليّة على الله تعالى ولهذا قال «فادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» عن الشرك وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ[٢].

قوله تعالى: «رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ» فيه وجهان:

أحدهما: أن يكون مبتدأ والخبر «ذو العرش» و «يُلْقِي الروح» يجوز أن يكون خبراً ثانياً، وأن يكون حالاً، ويجوز أن يكونَ الثلاثة أخباراً لمبتدأ محذوف، ويجوز أن يكون الثلاثة أخباراً لقوله «هُوَ الَّذِي يُرِيكُم»[٣] قال الزمخشري: ثلاثة أخبار يجوز أن تكون مترتبة على قوله «هو الذي يريكم» أو أخبار مبتدأ محذوف وهي مختلفة تعريفاً وتنكيراً[٤]، قال شهاب الدّين: أما الأول ففيه طول الفصل وتعدد الأخبار، وليست في معنى خبر واحد، (وأما[٥] الثاني ففيه تعدد الأخبار وليست في معنى خبر واحد) وهي مسألة خلاف ولا يجوز أن يكون «ذُو العَرْشِ» صفة «لِرَفيعِ الدرجات» إن جعلناه صفة مشبهة، أما إذا جعلناه مثال مبالغة أي يرفع درجات المؤمنين فيجوز ذلك على أن يجعل إضافته محضة، وكذلك عند من يُجَوِّزُ تَمَحُّضَ إضافة الصفة المشبهة أيضاً[٦]. وقد تقدم، وقرىء «رَفِيعَ»[٧] بالنصب على المدح.

فصل

لما ذكر من صفات كبريائه كونه مظهراً للآيات منزلاً للأرزاق ذكر في هذه الآية

---

(١) الإتحاف ٣٧٨. (٢) وانظر تفسير الفخر ٢٧/ ٤٢.

(٣) انظر هذه الإعرابات في الدر المصون ٤/ ٦٨١ والتبيان ١١١٧ واختار النحاس في الإعراب ٤/٢٨ أن يكون «رفيع» خبر مبتدأ محذوف فقط.

(٤) كشاف الزمخشري ٣/٤١٩.

(٥) ما بين القوسين كله سقط من ب بسبب انتقال النظر والفقرة بكاملها في الدر المصون ٤/ ٦٨٠، ٦٨١.

(٦) الدر المصون ٤/ ٦٨١.

(٧) نقلت في البحر والكشاف بدون نسبة لمن قرأ بها وأجازها الأخفش في معانيه عربية ولم يحكها قراءة انظر البحر ٧/ ٤٥٤ والكشاف ٣/ ٤١٧ ومعاني الأخفش، وانظر أيضاً الجامع لأحكام القرآن ١٥/ ٢٢٩ وإعراب القرآن للنحاس ٤/٢٨ والدر المصون ٤/ ٦٨١.

ثلاثة أخرى من صفات الجلال والعظمة وهو قوله رفيع الدرجات وهذا يحتمل أن يكون المراد منه الرافع وأن يكون المراد منه المرتفع، فإن حملناهُ على الأول ففيه وجوه:

الأول: أن الله يرفع درجات الأنبياء والأولياء في الجنة.

والثاني: يرفع درجات الخلق في العلوم والأخلاق الفاضلة فجعل لكل أحد من الملائكة درجةً معيّنة كما قال: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤]، وجعل لكل أحد من العلماء درجة معينة فقال تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾ [المجادلة: ١١] وعين لكل جسم درجةً معينة فجعل بعضها سُفْليّة كدرة، وبعضها فلكية كوكبية، وبعضها من جواهر العرش والكرسي، وأيضاً جعل لكل واحد مرتبة معينة في الخَلْقِ والخُلُقِ والرزق والأجل فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ﴾ [الأنعام: ١٦٥] وجعل لكل أحد من السعداء والأشقياء في الدنيا درجة معينة من موجبات السعادة وموجبات الشقاوة وفي الآخرة تظهر تلك الآثار. وإن جعلنا «الرفيع» على «المرتفع» فهو سبحانه أرفع الموجودات في جميع صفات الكمال والجلال. وقوله «ذُو العَرْشِ» أي خالقه ومالكه ومدبره، و «يُلْقِي الرُّوح» أي ينزل الوحي من السماء روحاً لأنه تحيا به القلوب كما تحيا الأبدان بالأرواح[(١)] وقوله «مِنْ أَمْرِهِ» متعلق بـ «يُلْقِي»، و «مِنْ» لابتداء الغاية، ويجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف على أنه حالٌ من «الروح»[(٢)].

فصل

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: معنى من أمره أي من قضائه، وقيل: من قوله. وقال مقاتل بأمره على من يشاء من عباده[(٣)]. وقوله: «لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاَقِ» العامة على بنائه للفاعل، ونصب اليوم والفاعل هو الله تعالى أو الروح أو «مَنْ يَشَاءُ» أو الرسول، ونصب «اليوم» إما على الظرفية والمُنْذَرُ به محذوف تقديره لينذر العذابُ يوم التلاق، وإما على المفعول به اتساعاً في الظرف[(٤)] وقرأ أبيّ وجماعة كذلك إلا أنه رفع اليوم[(٥)] على الفاعلية مجازاً أي لينذر الناس العذاب يوم التلاق. وقرأ الحسن واليمانيّ «لتنذر» ـ بالتاء من فوق[(٦)] ـ وفيه وجهان:

أحدهما: أن الفاعل ضمير المخاطب وهو الرسول ـ ﷺ ـ.

---

(١) الرازي ٢٧/ ٤٢، ٤٣. (٢) الدر المصون ٤/ ٦٨١ والتبيان ١١١٦.

(٣) البغوي والخازن في تفسيريهما ٦/ ٩١.

(٤) أورد هذه الإعرابات شهاب الدين السمين في الدر المصون ٤/ ٦٨١.

(٥) نقلها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤١٩ وأبو حيان في البحر ٧/ ٤٥٥.

(٦) السابقين وانظر مختصر ابن خالويه ١٣٢ وانظر هذه القراءات أيضاً كلها في الدر المصون ٤/ ٦٨١، وانظر قراءة الخطاب في معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤/ ٣٦٩.

والثاني: أن الفاعل ضمير الروح فإنها مؤنثة على رأيٍ.

وقرأ اليماني أيضاً «لينذر»[١] مبنياً للمفعول «يوم» بالرفع وهي تؤيد نصبه في قراءة الجمهور على المفعول به اتساعاً. وأثبت ياء «التلاق» وصلاً ووقفاً ابن كثير، وأثبتها في الوقف دون الوصل من غير خلاف ورشٌ، وحذفها الباقون وصلاً ووقفاً إلا قَالُونُ، فإنه روي عنه وجهان، وجهٌ كورشٍ، ووجه كالباقين، وكذلك هذا الخلاف بعينه جارٍ في «يَوْم التَّنَادِ»[٢]. وقد تقدم توجيه هذين الوجهين في الرَّعْد في قوله ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾[٣] [الرعد: ٩].

قوله: «يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ» في «يوم» أربعةُ أوجه:

أحدها: أنه بدل من «يوم التلاق» بدل كل من كل[٤].

الثاني: أن ينتصب بالتلاق أي يقع التلاق في يوم بُرُوزِهِمْ[٥].

الثالث: أن ينتصب بقوله لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ (مِنهُمْ شَيْءٌ) ذكره ابن عطية[٦]. وهذا على أحد الأقوال الثلاثة في «لا» هل يعمل ما بعدها فيما قبلها؟ ثالثها التفصيل بين أن تقع جواب قسم فيمتنع أو لا فيجوز هذا على قولين من هذه الأقوال[٧].

الرابع: أن ينتصب بإضمار «اذكر»[٨] و «يوم» ظرف مستقبل «كإذا». وسيبويه لا يرى إضافة الظرف المستقبل إلى الجمل الاسمية والأخفش يراه ولذلك قدر سيبويه في قوله «إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ» ونحوه فعلاً قبل الاسم، والأخفش لم يقدرْه، وعلى هذا فظاهر الآية مع الأخفش. ويجاب عن سيبويه بأن «هُمْ» ليس مبتدأ بل مرفوعاً بفعل محذوف

---

(١) ذكرها البحر المحيط في ٧/ ٤٥٥ نقلاً عن صاحب اللوامح أبي الفضل الرازي كما ذكرها السمين في الدر المصون ٤/ ٦٨١.

(٢) ذكر صاحب الإتحاف والسبعة هذه التفصيلات فهي قراءات متواترةٌ. انظر الإتحاف ٣٧٨ والسبعة ٥٦٨ وانظر الدر المصون المرجع السابق.

(٣) وبين هناك: وقف ابن كثير وأبو عمرو في رواية على ياء «المتعال» وصلاً ووقفاً بينما حذفها الباقون وصلاً ووقفاً لحذفها في الرسم. وانظر اللباب ٤/ ١٢٧ ب.

(٤) البيان لابن الأنباري ٢/ ٣٢٩ والدر المصون ٤/ ٦٨٢.

(٥) السابق وانظر التبيان ١١١٦، ١١١٧.

(٦) البحر المحيط ٧/ ٤٥٥.

(٧) ذكر الإمام السيوطي في الأشباه والنظائر ١/ ١٤٠، ١٤١ والهمع ٢/ ٧٨ أن في «لا» النافية أقوال، أولها: أن لها الصدر مثل «ما» النافية وعليه فلا يجوز أن يتقدم معمول ما بعدها عليها لامتناع تقدم ما بعدها عليها. وثانيها وثالثها وهو الأصح لها الصدارة إذا كانت في مثل قوله تعالى: **﴿لئن أخرجوا لا يخرجون معهم﴾** ومثل: ربَّ رجلٍ لا يفعل هذا. أما إذا كانت دالة على نفي الفعل في الاستقبال فليس لها الصدارة وقول ابن عطية يجوز على أحد هذه الأقوال.

(٨) التبيان ١١١٧.

يفسره اسمُ الفاعل، أي يوم برزوا ويكون «بارزون» خبرَ مبتدأ مضمر، فلما حذف الفعل انفصل الضمير فَبقِيَ كما ترى، وهذا كما قالوا في قوله (ـ رَحِمَهُ[1] اللَّهُ ـ):

٤٣٢٢ ـ لَوْ بغَيْرِ المَاءِ حَلْقِي شَرِقٌ كُنْتُ كالغَصَّانِ بِالمَاءِ اعْتِصَارِي[2]

في أَنَّ «حَلْقِي» مرفوعٌ بفعل يفسره «شَرِقٌ»؛ لأَنَّ «لَوْ» لا يليها إلا الأفعال، وكذا قوله (شعرا)[3]

٤٣٢٣ ـ .... إليَّ فَهلاً نَفْسُ لَيْلَى شَفِيعُها[4]

لأنَّ «هَلاً» لا يليها إلا الأفعال، فالمفسَّر في هذه المواضع أسماء مشتقة وهو نظير: أنا زَيْداً ضَارِبُهُ من حيث التفسير، وحركة «يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ» حركة إعراب على المشهور، ومنهم من جوز بناء الظرف وإن أضيف إلى فعلٍ مضارع أو جملة اسمية وهم الكوفيون، وقد وَهَمَ بعضُهم فَحَتَّم بناء الظرف المضاف للجمل الاسمية وقد تقدم أنه لا يبنى عند البصريين إلا ما أضيف إلى (فعل[5]) ما نُصَّ كقوله:

٤٣٢٤ ـ عَلَى حِينَ عَاتَبْتُ ....[6]

---

(١) سقطت من ب.

(٢) بيت من الرمل لعدي بن زيد، والشَّرق الذي يغص بالماء فلا يقدر على بلعه. والاعتصار أن يغص الإنسان بالطعام فيعتصر بالماء فيشربه قليلاً قليلاً ليسيغه وشاهده: «حلقي» فإنه فاعل لفعل محذوف دل عليه الوصف المذكور بعده وهو «شرق» كما أخبر هو أعلى فوق، ومجيء الاسمية بعد «لو» هو قول إمام النحاة سيبويه ٣/ ١٢١، وقد تقدم.

(٣) زيادة من ب.

(٤) عجز بيت من الطويل للصّمة القشيريّ، وينسب إلى قيس بن الملوّح وإلى ابن الدمينة وإلى إبراهيم الصولي، وتمامه:

يقولون ليلى أرسلت بشفاعةٍ إليَّ فهلاً نفس ليلى شفيعها

ويروى: ونبئت ليلى، وشاهده كسابقه من رفع نفس بفعل محذوف يفسره ما بعده لأن «هلاً» لا تدخل إلا على فعل، وانظر الخزانة ٣/ ٦٠، ٦١، ٨/ ١٣ والدر المصون هو وسابقه ٤/ ٦٨٣ وشرح المفصل لابن يعيش وابن الناظم ٢٧٨ وتوضيح المقاصد ٤/ ٢٩٠ والمغني ٧٤ وحاشية الأمير ١/ ٢١٣ والهمع ٢/ ٦٧ والأشموني ٢/ ٢٥٩، ٤/ ٥٢ والتصريح ٢/ ٤١، ٢٦٣.

(٥) سقط من ب.

(٦) هذا بعض بيت من الطويل للنابغة الذبياني وهو بتمامه:

.... على الصّبا وقلت: ألمَّا أصح والشّيب وازع

وشاهده في «حين عاتبت» حيث بني على الفتح لإضافته إلى فعل بناؤه لازم، ويجوز كسره للإعراب وعلى الأول ظرف كما في «ودخل المدينة على حين غفلة» أي في وقت غفلة، وانظر الكتاب ٢/ ٣٣١ والمنصف ١/ ٥٨ وأمالي الشجري ١/ ٤٦ و ٢/ ١٣٢، وشرح ابن يعيش ٣/ ١٦، ٨٢، ٤/ ٩١، ٨/ ١٤٦ والإنصاف ٢٩٢ وشذور الذهب ١١٢ والمغني ٥١٧ والتصريح ٢/ ٤٢ والهمع ١/ ٢١٨، والأشموني ٢/ ٢٥٦، ٣/ ٢٢٦، ٤/ ٨.

وتقدم هذا مُسْتَوْفَى في آخر المائدة[١].

وكتبوا «يَوْمَ» هنا وفي الذاريات[٢] منفصلاً، وهو الأصل.

قوله: لاَ يَخْفَى عَلَى اللَّهِ» يجوز أن تكون مستأنفة، وأن تكون حالاً من ضمير «بَارِزُونَ»، وأن تكون خبراً ثانياً[٣].

فصل

قال بعض المفسرين: يوم التلاق هو يوم يلتقي أهلُ السماء وأهل الأرض. وقال قتادة ومقاتل: يلتقي الخلق والخالق. وقال ابن زيد: يتلاقى العباد. وقال مَيْمُونُ بْنُ مَهْرَانَ: يلتقي الظالم والمظلوم، وقيل: يلتقي العابد والمعبود، وقيل: يلتقي فيه المرء مع عمله، وقيل: يلتقي الأرواح مع الأجساد، بعد مفارقتها إياها يوم هم بارزون، كناية عن ظهور أعمالهم وانكشاف أسرارهم كما قال تعالى: «يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ».

«لا يخفى على الله منهم» أي من أحوالهم شيء ويقول الله سبحانه بعد فناء الخلق «لمن الملك اليوم» فلا يجيبه أحد فيجيب نفسه فيقول «لِلَّهِ الوَاحِدِ القَهَّار» الذي قهر الخلق بالموت[٤].

فإن قيل: الله تعالى لا يخفى عليه شيء منهم في جميع الأيام فما معنى تقييد هذا العلم بذلك اليوم؟.

فالجواب: أنهم كانوا يتوهمون في الدنيا أنهم إذا استتروا بالحِيطَان والحُجُب أن الله لا يراهم ويخفى عليه أعمالهم فهم في ذلك اليوم صائرون من البروز والانكشاف إلى حالة لا يتوهمون فيها مثل ما يتوهمونه[٥] في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٢] وقال تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٨] وهو معنى قوله: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

فصل

قال المفسرون: إذا هلك كل من في السموات ومن في الأرض فيقول الرب تعالى: لِمن الملك اليوم؟ يعني يوم القيامة، فلا يجيبه أحد، فهو تعالى يجيب نفسه فيقول: لله الواحد القهار، قال ابن الخطيب: قال أهل الأصول هذا القول ضعيف من وجوه:

---

(١) عند قوله: «هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم» من الآية ١١٩.

(٢) وهو قوله: **﴿يوم هم على النار يفتنون﴾**.

(٣) ذكر هذه الأوجه العكبري في التبيان ١١١٧ والسمين في الدر ٤/ ٦٨٤.

(٤) ذكر هذه الأقوال البغوي والخازن في تفسيريهما ٦/ ٩٠.

(٥) كذا في الرازي وفي ب بتوهمون.

الأول: أنه تعالى بين أن هذا النداء إنما يحصل يوم التلاق يوم هم بارزون، ويوم تجزى كل نفس ما كسبت، والناس في ذلك الوقت أحياء فبطل قولهم إنما ينادى هذا النداء حين يَهْلِكُ كُلُّ من في المسوات ومن في الأرض.

الثاني: أن الكلام لا بد فيه من فائدة؛ لأن الكلام إما أن يذكر حالَ حُضُور الغير أو حالَ ما لا يَحْضُرُ الغير، والأول باطل ههنا؛ لأن القوم قالوا: إنه تعالى إنما يذكر هذا الكلام عند فناء الكل. والثاني أيضاً باطل لأن الرجل إنما يحسن تكلمه حال كونه وحده إما لأن يحفظ به شيئاً كتكريره على الدرس وذلك على الله تعالى محال أو لأجل أن يعيد الله بذلك الذكر وهذا أيضاً على الله تعالى محال فثبت (أن[1]) قولهم: إن الله تعالى يذكر هذا النداء حال هلاك جميع المخلوقات باطل، وقال بعض المفسرين: إنه في يوم التلاق إذا حضر الأولون والآخرون وبرزوا لله نادى منادٍ: لمن الملك اليوم؟ فيقول كل الحاضرين[2] في محفل القيامة: لله الواحد القهار، فالمؤمنون يقولونه تلذذاً بهذا الكلام حيث نالوا بهذا الذكر المنزلة الرفيعة، والكفار يقولونه تحسراً وصَغَاراً وندامةً على تفويتهم هذا الذكر في الدنيا، وقال القائلون بهذا القول الأول عن ابن عباس وغيره إن هذا النداء بعد هلاك البشر لم يمنع أن يكون هناك ملائكة يسمعون ذلك النداء ويجيبون بقولهم: لله الواحد القهار. وقال ابن الخطيب: وأيضاً على هذا القول لا يبعد أن يكون السائل والمجيب هو الله تعالى، ولا يبعد أيضاً أن يكون السائل جمعاً من الملائكة والمجيب جمع آخرون وليس على التعيين دليل[3].

قوله: «اليَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ» يجزى المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته «لاَ ظُلْمَ اليَوْمَ إِنَّ الله سَرِيعُ الحِسَابِ».

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**وأنذرهم يوم الآزفة...**﴾ والمقصود بها وصف يوم القيامة، ويوم الآزفة يجوز أن يكون مفعولاً به[4] اتساعاً، وأن يكون ظرفاً، والمفعول محذوف[5]، والآزفة فاعلة من أَزِفَ الأَمْرُ إذا دنا وحضر، كقوله في صفة القيامة ﴿أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ﴾

---

(١) سقط من ب فقط.

(٢) في النسختين الحاضرون لحنٌ وخطأ وانظر تفسير الرازي ٢٧/ ٤٦.

(٣) المرجع السابق.

(٤) قاله ابن الأنباري في البيان ٢/ ٣٣١ والسمين في الدر ٤/ ٦٨٤.

(٥) السابق.

[النجم: ٥٧]. أي قربت، قال النابغة الشاعر[١] (رحمة الله[٢] عليه):

٤٣٢٥ ـ أَزِفَ التَّرَحُّلُ غَيْرَ أَنَّ رِكَابَنا لَمَّا تَزَلْ بِرِحَالِنَا وَكَأَنْ قَدِ[٣]

وقال كعب بن زهير:

٤٣٢٦ ـ بانَ الشَّبَابُ وهذا الشَّيْبُ قَدْ أَزِفَا وَلاَ أَرَى لِشَبَابٍ بَائِنٍ خَلَفَا[٤]

وقال الراغب: وأَزِفَ، وأَفِدَ يَتَعَاقَبَانِ[٥]، لكن أَزِفَ يقال اعتباراً بضيق وقتها، ويقال أزف[٦] الشخوص، والأَزْفُ ضيقُ الوقت. قال شهاب الدين، فجعل بينهما فَرْقاً، ويروى بيت النابغة أَفِدَ[٧] والآزفة صفة لموصوف محذوف، فيجوز أن يكون التقدير الساعة الآزفة، أو الظلمة الآزفة[٨]، وقوله: «إِذِ القُلُوبُ» بدل من «يوم الآزفة»[٩] أو من «هُمْ» في «أَنْذِرْهُمْ» بدل اشتمال[١٠].

فصل

المقصود من الآية التنبيه على أن يوم القيامة قريب، ونظيره قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١] قال الزجاج: إنما قيل لها آزفة لأنها قريبة وإن استبعد الناس مداها وما هو كائنٌ فهو قريب[١١].

واعلم أن الآزفة نعت لمحذوف مؤنث فقيل: يوم القيامة الآزفة، أو يوم المجازاة الآزفة[١٢]، قال القفال: وأسماء القيامة تجري على التأنيث كالطامة والحاقة ونحوها، كأنها يرجع معناها على الداهية[١٣].

وقيل: المراد بيوم الآزفة مُشَارَفَتُهُمْ[١٤] دخول النار، فإن عند ذلك ترتفع قلوبهم

---

(١) في ب شعراً بدل الشاعر. (٢) زيادة من أ فقط.

(٣) البيت له كما في ديوانه من تام الكامل ولكن بلفظ «أفد» وعليها فلا شاهد فيه حينئذ وفي ب الرحيل بدل الترحل، وجاء المؤلف بالبيت ليدلنا على أن الأزف هو القرب وفي البيت شواهد نحوية لا داعي لذكرها في هذا المقام وقد تقدم.

(٤) كسابقه في الشاهد وهو من البسيط والخلف هو العوض وانظر الدر المصون ٤/ ٦٨٥ وديوانه ٧٠.

(٥) في ب والراغب يتقاربان. المفردات له ١٧.

(٦) في ب أزفت بتاء التأنيث. (٧) الدر المصون ٤/ ٦٨٥.

(٨) قاله أبو حيان في بحره ٧/ ٤٥٦. (٩) حكاه ابن الأنباري في البيان ٢/ ٣٣٠.

(١٠) قاله في الدر المصون ٤/ ٦٨٥.

(١١) معاني القرآن وإعرابه له ٤/ ٣٦٩، وانظر الرازي ٢٧/ ٤٩.

(١٢) سبق إعراب يوم الآزفة عن قرب، وهذا الإعراب نقله المؤلف كعادته عن الفخر الرازي في إطار نقله عنه، انظر تفسير الرازي المرجع السابق.

(١٣) في الرازي معناها إلى الداهية وفي النسختين معناه على الداهية.

(١٤) في الرازي مسارعتهم إلى دخول.

عن مقارِّها من شدة الخوف، وقال أبو مسلم: يوم الآزفة يوم حضور الأجل لأنه تعالى وصف يوم القيامة بأنه يوم التلاق ويوم هم بارزون، ثم قال بعده: «وأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ» فوجب أن يكون ذلك اليوم غير ذلك اليوم وأيضاً فهذه الصفة مخصوصة في سائر الآيات بيوم الموت قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣]، وقال ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ [القيامة: ٢٦] وأيضاً فوصف يوم الموت بالقرب أولى من وصف يوم القيامة بالقرب، وأيضاً فالصفات المذكورة بعد قوله: «يوم الآزفة» لائقة بيوم حضور المنية؛ لأن الرجل عند معاينة ملائكة العذاب يَعْظُمُ[١] خَوْفُهُ[٢]، فكأنّ قلوبهم تبلغ حناجرهم من شدة الخوف وبَقُوا كَاظِمِينَ ساكتين عن ذكر ما في قلوبهم من شدة الخوف، ولا يكون لهم من حميم ولا شفيع يطاع ويدفع ما به من أنواع الخوف والقلق[٣].

قوله: «كَاظِمينَ» نَصْبٌ على الحال، واختلفوا في صاحبها والعامل فيها، فقال الحَوْفِيُّ: «القُلُوب» مبتدأ، و «لَدَى الحَنَاجِرِ» خبره و «كاظمين» حال من الضمير المستكن فيه[٤].

قال شهابُ الدين: ولا بد من جواب عن جمع العقول القلوب جمع من يعقل فقال «كاظمين» وهو أن يكون لما أسند إليهم ما يسند للعقلاء جمعت جمعه كقوله: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] و ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤] ويُعَضِّدُهُ قراءة من قرأ: «كَاظِمُونَ»[٥].

الثاني: أنها حال من «القلوب» وفيه السؤال والجواب المتقدمانِ، والمعنى أن القلوب كاظمة عن كَرْبٍ وغَمٍّ[٦] مع بلوغها الحناجر[٧].

والثالث: أنه حال من أصحاب القلوب قال الزمخشري: هو حال من أصحاب القلوب على المعنى؛ إذ المعنى إذ قلوبهم لدى الحناجر[٨] كاظمينَ عليها. قال شهابُ الدين: فكأنه في قوة أن جعل «أل» عوضاً من الضمير في حناجرهم[٩].

الرابع: أن يكون حالاً من «هم» في «أنذرهم»[١٠] ويكون حالاً مقدرة لأنهم وقت

---

(١) في ب: يعلم. (٢) تصحيح من الرازي ففي النسختين فوقه بدل من خوفه.
(٣) وانظر الرازي ٢٧/ ٤٩، ٥٠.
(٤) نقله أبو حيان في البحر ٦/ ٤٥٦ والسمين ٤/ ٦٨٥.
(٥) وانظر الدر المصون ٤/ ٦٨٥.
(٦) في ب وغمة بتاء تأنيث.
(٧) وانظر هذا الرأي في تفسير أبي حيان البحر المرجع السابق والدر المصون ٤/ ٦٨٥ والكشاف ٣/ ٤٢٠ والتبيان ١١١٧ ومعاني الأخفش ٦٧٧.
(٨) في الكشاف لدى حناجرهم الكشاف ٣/ ٤٢٠.
(٩) الدر المصون ٤/ ٦٨٥.
(١٠) قاله أبو البقاء في التبيان ١١١٧ والفراء في المعاني ٣/ ٦.

الإنذار غير كاظمين، وقال ابن عطية: كاظمين حال مما أبدل منه «إذ القُلُوب» أو مما يضاف إليه القلوب؛ إذ المراد إذ قُلُوب الناس لدى حناجرهم، وهذا كقوله «تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ مُهْطعين»[١] أراد تشخص فيه أبصارهم قال شهاب الدين: ظاهر قوله أنه حال مما أبدل منه قوله: «إذ القلوب» مشكل؛ لأنه أبدل من قوله: «يَوْم الآزفة» وهذا لا يصح البتَّةَ، وإنما يريد بذلك على الوجه الثاني وهو أن يكون بدلاً من «هُمْ» في أَنْذِرْهُمْ بدل اشتمال وحيئنذ يصح[٢]، وقد تقدم الكلام على الكظم والحناجر في آل عمران[٣] والأحزاب.

فصل

قيل المراد بقوله «إذ القُلُوبُ لَدَى الحَنَاجِرِ كَاظِمينَ» شدة الخوف والفزع ونظيره قوله ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠] وقال: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٣ و ٨٤]. وقال الحسن: القلوب تنتزع من الصدور لشدة الخوف وبلغت القلوب الحناجر فلا هي تخرج فيموتوا ولا ترجع إلى مواقعها فيتنفّسوا ويَتَرَّوحُوا، وقوله: (كاظمين) أي مكروبين، والكاظم الساكت حال امتلائه غماً وغيظاً والمعنى أنهم لا يمكنهم أن ينطقوا وأن يشرحوا ما عندهم من الخوف والحزن وذلك يوجب مزيد القلق والاضطراب.

قوله: «مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيم» قريب ينفعهم «وَلاَ شَفَيع يُطَاعُ» فيشفع لهم[٤]. وقوله «يُطَاعُ» يجوز أن يحكم على موضعه بالجر نعتاً على اللفظ، وبالرَّفع نعتاً على المحل لأنه معطوف على المجرور بمن المزيدة[٥]، وقوله «ولا شفيع يطاع» من باب:

٤٣٢٧ ـ عَلَى لاَحِبٍ لا يُهْتَدَى بِمَنَارِهِ ....[٦]

---

(١) من الآيتان ٤٢ و ٤٣ من سورة إبراهيم وانظر عبارة ابن عطية في البحر المحيط ٧/ ٤٥٦ والدر المصون ٤/ ٦٨٥ وقد اختار الزجاج والنحاس أن تكون «كاظمين» حالاً من أصحاب القلوب بالحمل على المعنى كالزمخشري، انظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤/ ٣٦٩، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٩.

(٢) الدر المصون ٤/ ٢٩.

(٣) من قوله: والكاظمين الغيظ، والآية ١٣٤. وبين هناك أن الكظم الممتلىء أسفاً والمكظوم الممتلىء غيظاً وانظر اللباب ٢/ ٢٩٧ ب.

(٤) وانظر الرازي ٢٧/ ٥٠ والبغوي ٦/ ٩٢.

(٥) قاله في التبيان ١١١٨ والدر المصون ٤/ ٦٨٦.

(٦) هذا صدر بيت من الطويل لامرىء القيس، عجزه:

إذا سافه العود الديافيّ جرجرا

واللاحب الطريق الواسع، وسافه شمّه، والعود: البعير المسنّ والديافي نسبة إلى دياف قرية في الشام. والجرجرة تردد صوت البعير، والبيت في الخصائص ٣/ ١٦٥، ٣٢١ واللساف سوف ٢١٥٣ والحجة لأبي علي ٢/ ٣٨ والصاحبي ٣٧٨ والدر المصون ٣/ ٦٨٦ والديوان ٦٦.

أي لا شفيع فلا طاعة، أو ثم شفيع ولكن لا يطاع.

فصل

احتجت المعتزلة بهذه الآية في نفي الشفاعة عن المذنبين فقالوا نفى حصول شفيع لهم يطاع فوجب أن لا يحصل لهم هذا الشفيع وأجيبوا بوجوه:

الأول: أنه تعالى نفى أن يحصل لهم شفيع يطاع وهذا لا يدل على نفي الشفيع، كقولك: ما عندي كتاب يباع فيقتضي نفي كتاب يباع ولا يقتضي نفي الكتاب، قال الشاعر:

٤٣٢٨ ـ .... وَلاَ تَرَى الضَّبَّ بِهَا يَنْجَحِرْ[1]

أو لفظ الطاعة بمعنى حصول المرتبة فهذا يدل على أنه ليس لهم يوم القيامة شفيع يطيعه الله، لأن ليس في الوجود أحد أعلى حالاً من الله سبحانه وتعالى حتى يقال: إن الله تعالى يطيعه.

والثاني: أن المراد بالظالمين ههنا: الكفار، لأن هذه الآية وردت في زجر الكفار وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

الثالث: أن لفظ الظالمين إما أن يفيد الاستغراق أو لا يفيد الاستغراق فإن كان المراد من الظالمين مجموعهم فيدخل في هذا المجموع الكفار وعندنا أنه ليس لهذا المجموع شفيعاً؛ لأن بعض هذا المجموع هم الكفار وليس لهم شفيعٌ فحينئذ لا يكون لهذا المجموع شفيع، وإن لم يفد الاستغراقَ كان المراد من الظالمين بعضَ الموصوفين بهذه الصفة وعندنا أن بعض الموصوفين بهذه الصفة ليس لهم شفيعٌ وهم الكفار.

وأجاب (بعض[2]) المعتزلة عن الأول فقالوا: يجب حمل كلام الله تعالى على محملٍ مفيد وكل أحد يعلم أنه ليس في الوجود شيء يطيعه الله لأن المطيع أدون حالاً من المطاع وليس في الوجود أعلى درجة من الله حتى يقال: إن الله يطيعه، وإذا كان هذا المعنى معلوماً بالضرورة كان حمل الآية عليه إخراجاً لها عن الفائدة، فوجب حمل الطاعة على الإجابة ويدل على أن لفظ الطاعة بمعنى الإجابة قولُ الشاعر:

٤٣٢٩ ـ رُبَّ مَنْ أَنْضَجْتُ غَيْظاً صَدْرَهُ قَدْ تَمَنَّى لِيَ مَوتاً لَمْ يُطَعْ[3]

---

(١) شاهده كسابقه من عدم وجود شيء تبعاً لعدم وجود الشيء الآخر أي لا أرنب بها فيفزعها أهوالها وهو عجز بيت صدره: لا تفزع الأرنب أهوالها، وهو من الرجز ونسبه ابن الأنباري في شرح المفضليات إلى عمرو بن أحمر ٥٩، وانظر الصاحبي ٣٧٨، والحجة ٢/ ٣٩ واللسان «حجر» و «رنب» والخصائص ٣/ ١٦٥ والبيان لابن الأنباري ١٧٩/١ وورد «محجراً» بلفظ الاسمية.

(٢) سقط من ب.

(٣) البيت من الرمل وأنشده الإمام الفخر الرازي ٢٧/ ٥١ شاهداً على أن الطاعة بمعنى الإجابة وهو لسويد بن أبي كاهل، وقد تقدم.

وعن الثاني: بأن لفظ «الظالمين» صيغة جمع دخل عليها حرف التعريف فيفيد العموم، أَقْصَى ما في الباب أن هذه الآية وردت لذم الكفار، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وعن الثالث أن قوله: «ما للظالمين من حميم» يفيد أن كل واحد من الظالمين محكوم عليه بأنه ليس له حميم ولا شفيع يطاع.

وأجيبوا عن الأول بأن القوم كانوا يقولون في الأصنام: إنها شفعاؤهم عند الله، وكانوا يقولون: إنها تشفع لهم عند الله من غير حاجة إلى إذن فلهذا السبب رد الله تعالى عليهم ذلك بقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[١] [البقرة: ٢٥٥] فهذا يدل على أن القوم اعتقدوا أنه يجب على الله تعالى إجابة تلك الأصنام في الشفاعة وهذا نوع طاعة فاللَّه تعالى نفى تلك الطاعة بقوله: «مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ». وعن الثاني بأن قالوا: الأصل في حرف التعريف أن ينصرف إلى المَعهود السَابق فإذا دخل حرف التعريف على صيغة الجمع وكان هناك معهود سابق انصرف إليه، وقد حصل في هذه الآية معهود سابق وهم الكفار الذين يجادلون في آيات الله فوجب أن ينصرف إليهم. وعن الثالث بأن قالوا قوله: «ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع» يحتمل عموم السلب، ويحتمل سلب العموم، أما الأول: فعلى تقدير أن يكون المعنى أنّ كل واحد من الظالمين محكوم عليه بأنه ليس له حميم، ولا شفيع. وأما الثاني: فعلى تقدير أن يكون مجموع الظالمين ليس لهم[٢] حميم ولا شفيع، ولا يلزم من نفي الحكم عن المجموع نفيه عن كل واحد من آحاد ذلك المجموع، ويؤيد ما ذكرناه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٩٦] فإن حملناه على أن كل واحد منهم محكوم عليه بأنه لا يؤمن لزم وقوع الخُلْفِ في كلام الله تعالى؛ لأن كثيراً ممن كفر قد آمن بعد ذلك، أما لو حملناه على أنّ مجموع الذين كفروا لا يؤمنون سواء آمن بعضهم أو لم يؤمن صدق وتخلص عن الخُلف، فلا جَرَمَ حملنا هذه الآية على سلب العموم لا على عموم السلب وحينئذ يسقط استدلال المعتزلة بهذه الآية[٣].

قوله «يَعْلَمُ» فيه أربعة أوجه:

أظهرها: أنه خبر آخر عن «هو» في قوله «هُوَ الَّذي يُريكُمْ آيَاتِهِ»[٤]، قال الزمخشري: فإن قُلْتَ: بم اتصل قوله «يعلم خائنة الأعين» قلتُ: هو خبر من أخبار

(١) وانظر في هذا كله تفسير الرازي ٢٧/ ٥١، ٥٠ بتوضيح وشرح لكلام الزّمخشري في الكشاف ٣/ ٤٢٠، ٤٢١.

(٢) في ب له مفرداً.

(٣) انظر تفسير الإمام الفخر المرجع السابق.

(٤) هذا رأي الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٢١ وقد ذكره الإمام السمين في الدر ٤/ ٦٨٦.

«هو» في قوله «هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ» مثل «يُلْقِي الرُّوحَ» ولكن «يلقي الروح» قد علل بقوله «لِيُنْذِرَ» ثم استطرد لذكر أحوال يوم التلاق إلى قوله «ولا شفيع يطاع» فبعد لذلك عن أخواته[١].

الثاني: أنه متصل بقوله «وأَنْذِرْهُمْ» لما أمر بإنذاره يوم الآزفة وما يعرض فيه من شدة الغمِّ والكَرْبِ وأن الظالم لا يجد من يحميه ولا شفيع له، ذكر اطِّلاعَهُ على جميع ما يصدر من الخلق سِرًّا وجهراً إذ المعنى أنه تعالى عالم لا يخفى عليه مثقالُ ذرة في السموات والأرض، والحاكم إذا بلغ في العلم إلى هذا الحد كان خوف المذنب شديداً جداً وعلى هذا فهذه الجملة لا محل لها لأنها في قوة التعليل للأمر بالإنذار[٢].

الثالث: أنها متصلة بقوله: «سَرِيع الحِسَابِ»[٣].

الرابع: أنها متصلة بقوله: «لاَ يَخْفَى عَلَى اللَّهِ»[٤] وعلى هذين الوجهين فيحتمل أن تكون جارية مجرى العلة، وأن تكون في محل نصب على الحال[٥].

و «خَائِنَة الأَعْيُنِ» فيه وجهان:

أحدهما: أنها مصدر بمعنى الخيانة كالعافية بمعنى المعافاة (والعافية)[٦] أي يعلم خيانة الأعين أي استراق النظر إلى ما لا يحل كما يفعل أهل الريب.

والثاني: أنها صفة على[٧] بابها وهو من باب إضافة الصفة للموصوف والأصل الأعينُ الخائنة كقوله:

٤٣٣٠ ـ .... **وإنْ سَقَيْتِ كِرَامَ النَّاسِ فاسْقِينَا**[٨]

وقد رده الزمخشري وقال: لا يحسن أن يراد الخائنةَ من الأعين لأن قوله: «وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ» لا يساعد عليه[٩] يعني أنه لا يناسب أن يقابل المعنى إلا بالمعنى[١٠].

---

(١) الكشاف المرجع السابق.

(٢) قال بهذا الوجه أبو حيان في تفسيره ٧/ ٤٥٧ ونقله صاحب الدر ٤/ ٦٨٦.

(٣) نقله أبو حيان في المرجع السابق عن ابن عطية قال «لأن سرعة حسابه للخلق إنما هي بعلمه الذي لا يحتاج معه إلى رؤية وفكر ولا لشيء مما يحتاجه المحاسبون».

(٤) وقد حكاه ابن عطية أيضاً عن جماعة واختاره قائلاً: وهذا قول حسن يقويه تناسب المعنيين ويضعفه بعد الآية من الآية وكثرة الحائل. انظر المرجع السابق.

(٥) الدر المصون ٤/ ٦٨٦. (٦) زيادة من النسختين عن الكشاف مصدر الكلام.

(٧) وقد ذكر هذين الوجهين الزمخشري في الكشاف ٢/ ٤٢١.

(٨) من بحر البسيط لبشامة بن حزن النهشلي صدره: إنا محيُّوك يا سلمى فحيِّينا. وشاهدهُ كرام الناس من إضافة الصفة للموصوف، فالأصل الناس الكرام، وانظر توضيح المقاصد ٢/ ٢٤٦ والبحر المحيط ٧/ ٤٥٧ والخزانة ٨/ ٣٠٢، وعجزه في ملحقات ديوان المفضليات ٨٨٦.

(٩) الكشاف ٣/ ٤٢١.

(١٠) هذا رد أو توضيح أبي حيان لكلام الزمخشري في البحر ٧/ ٤٥٧ حيث يريد الزمخشري المصدر مع المصدر.

وفيه نظر؛ إذ لقائل أن يقول لا نسلم أن «ما» في قوله «وما تخفي الصدور» مصدرية حتى يلزم ما ذكره، بل يجوز أن يكون بمعنى الذي وهو عبارة عن نفس ذلك الشيء المخفى فيكون قد قابل الاسم غير المصدر بمثله، والمراد بقوله: «وما تخفي الصدور» أي تضمر القلوب(١).

واعلم أن الأفعال قسمان: أفعال الجوارح، وأفعال القلوب، وأما أفعال الجوارح فأخفاها خائنة الأعين والله عالم بها فكيف الحال في سائر الأعمال، وأما أفعال القلوب فهي معلومة لله تعالى لقوله «وَمَا تُخْفِي الصُّدُور» فدل هذا على كونه عالماً بجميع أفعالهم.

قوله «واللَّهُ يَقْضِي بِالحَقِّ» وهذا أيضاً يوجب عظم الخوف لأن الحاكم إذا كان عالماً بجميع الأحوال وثبت أنه لا يقضي إلا بالحق في كل ما دق وجل كان خوف المذنب منه في الغاية القُصْوَى.

قوله: «وَالَّذِينَ يَدْعُونَ»، قرأ نافعٌ وهشامٌ تَدْعُونَ بالخطاب للمُشْرِكِين والباقون بالغيبة، إخباراً عنهم بذلك(٢).

واعلم أن الكفار إنما عولوا في دفع العقاب عن أنفسهم على شفاعة هذه الأصنام فبين الله تعالى أنه لا فائدة فيها البتة، فقال: «والَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لاَ يَقْضُونَ بَشِيءٍ» ثم قال: «إنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ» أي يسمع من الكفار ثناءهم على الأصنام، ولا يسمع ثناءهم على الله ويبصر خضوعهم وسجودهم، ولا يبصر خضوعهم وتواضعهم لله.

قوله تعالى: ﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾

ولما بالغ في تخويفهم بأحوال أهل الآخرة أردفه ببيان تخويفهم بأحوال الدنيا فقال «أَوَ لَمْ يَسِيرُوا في الأَرضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ» والمعنى أن العاقل من اعتبر بغيره، فإن الذين مَضَوْا من الكفار كانوا أشد قوة من هؤلاء الحاضرين من الكفار، وأقوى آثاراً في الأرض أي حصونهم وقصورهم وعساكرهم، فلما كذبوا رسلهم أهلكهم الله عاجلاً حتى إن هؤلاء الجاحدين(٣) من الكفار شاهدوا تلك الآثار

---

(١) هذا رد السمين على الزمخشري نقله المؤلف عنه وهو رأي وجيه حيث لا داعي لهذا الإلزام الذي فرضه الزمخشري انظر الدر ٤/٦٨٦.

(٢) في السبعة ٥٦٧ وإبراز المعاني ٦٧١.

(٣) في ب كذلك وفي الرازي الحاضرين.

فحذرهم الله من مثل ذلك وقال «وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ» أي لما نزل العذاب بهم لم يجدوا مُعِيناً يخلصهم[١].

قوله «فَيَنْظُرُوا» يجوز أن يكون منصوباً في جواب الاستفهام، وأن يكون مجزوماً نَسَقاً على ما قبله[٢] كقوله:

٤٣٣١ ـ أَلَمْ تَسْأَلْ فَتُخْبِرْكَ الرُّسُومُ ....[٣]

رواه بعضهم بالجزم، والنصب[٤].

قوله «مِنهُمْ قُوَّةً» قرأ ابن عامر «مِنْكُمْ» على سبيل الالتفات[٥]، وكذلك هو في مصاحفهم، والباقون «منهم» بضمير الغيبة جرياً على ما سبق من الضمائر الغائبة.

قوله: «وَآثَاراً» عطف على «قوة» وهو في قوة قوله «وَتَنْحِتُونَ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ»[٦]. وجعله الزمخشري منصوباً بمقدر، قال: أو أراد أكثر آثاراً[٧] كقوله: «مُتَقَلِّداً سَيْفاً وَرُمْحاً»[٨] (يعني وَمُعْتَقِلاً رُمْحاً)[٩]. ولا حاجة إلى هذا مع الاستغناء عنه.

قوله «ذَلِكَ» أي ذلك العذاب الذي نزل بهم «بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ العِقَابِ» وهذا مبالغة في التخويف والتحذير.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا
أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ
﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن
يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا
يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ
رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ

(١) انظر الرازي ٢٧/ ٥٣ و ٥٢. (٢) قال ذلك ابن الأنباري في البيان ٢/ ٣٣٠.

(٣) من شواهد إمام النحاة الخمسين وهو صدر بيت من تمام الوافر عجزه: على فرتاج والطلل القديم. وفرتاج: اسم موضع وشاهده: «فتخبرك» حيث يجوز فيها الجزم والنصب الجزم نسقاً على ما قبله والنصب على تقدير أن بعد فاء السببية بعد طلب وهو الاستفهام. انظر الكتاب ٣/ ٣٤، والبحر ٧/ ٤٥٧ واللسان فرتج، والتَّبصرة للصيمري ٤٠٢، والرد على النحاة لابن مضاء ١١٧.

(٤) في ب بالنصب والجزم.

(٥) الإتحاف ٣٧٨ والسبعة ٥٦٩ والنشر ٢/ ٣٦٥ وهي متواترة.

(٦) إن كان يقصد آية الشعراء ٤٩ فهي «وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين» وإن كان يقصد آية الحجر ٨٢ فهي **﴿وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين﴾** وإلا فقد لفق بين آيتين.

(٧) الكشاف ٣/ ٤٢٢. (٨) سبق الكلام عليه.

(٩) زيادة من الدر المصون ٤/ ٦٨٧.

وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ
﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا
قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ
يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ
مِنۢ بَعْدِهِمْ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ
تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ
يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن
يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ
يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا...**﴾ الآيات. لما سلى رسوله بذكر الكفار الذين كذبوا الأنبياء قبله وبمشاهدة آثارهم سلاه أيضاً بذكر قصة موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأنه مع قوته ومعجزته بعثه إلى فِرْعَوْنَ وهامانَ وقارونَ فكذبوه، وقالوا: ساحر كذاب، فلما جاءهم بالحق من عندنا أي بتلك الآيات الباهرة والسلطان المبين وهو المعجزات القاهرة قالوا يعني فرعون وقومه اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه، قال قتادة: هذا غير القتل الأول؛ لأن فرعون كان قد أمسك عن قتل الوِلْدَانِ فلما بعث موسى دعا بالقتل عليهم لئلا ينشأوا على دين موسى فيقوَى بهم، وهذه العلة مختصة بالبنين دون البنات فلهذا أمر بقتل الأبناء واسْتَحْيُوا نِساءهم ليصدوهم بذلك عن متابعة موسى ومظاهرته[١] ثم قال: «وَمَا كَيْدُ الكَافِرِينَ» أي وما مكر فرعون وقومه واحتيالهم إلا في ضلال.

قوله «وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى» أي وقال فرعون لِمَلئِهِ «ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى» فتح ابن كثير ياء «ذروني»[٢] وسكنها الباقون. وإنما قال فرعون ذلك؛ لأنه كان في خاصة قوم فرعون من يمنعه من قتل موسى وفي منعهم من قتله احتمالان:

الأول: أنهم منعوه من قتله لوجوه:

الأول: لعله كان فيهم من يعتقد بقلبه كون موسى صادقاً فيتحيل في منع فرعون من قتله.

وثانيهما: قال الحسن: إن أصحابه قالوا له: لا تقتله فإنما هو ساحر ضعيف ولا

---

(١) وانظر البغوي ٩٢ و ٩٣ والرازي ٢٧/ ٥٤.

(٢) ورواها أيضاً ورش من طريق الأصبهاني ولم ترو هذه القراءة في المتواتر، انظرها في الإتحاف ٣٧٨ فهي من الأربع فوق العشر.

يمكن أن يغلب سَحَرَتَنَا وإن قَتَلْتَهُ أدخلتَ الشبهةَ على الناس ويقولوا: إنه كان محقاً وعجزوا عن جوابه فقتلوه.

وثالثها: أنهم كانوا يحتالون في منعه من قتله لأجل أن يبقى فرعون مشغول القلب بموسى فلا يتفرغ لتأديب أولئك الأقوام؛ لأن من شأن الأمراء أن يشغلوا قلب ملكِهِم بخصمٍ خارجي حتى يصيروا آمنين من قلب ذلك الملك.

الاحتمال الثاني: أن أحداً ما منع فرعون من قتل موسى وأنه كان يريد قتله، إلا أنه كان خائفاً من أنه لو حاول قتله لظهرت معجزات قاهرات[١] تمنعه من قتله فيفتضح إلا أنه قال ذروني أقتل موسى وغرضه منه إخفاء خوفه.

قوله: «ولْيَدْعُ رَبَّهُ» أي وليدع موسى ربه الذي يزعم أنه أرسله إلينا فيمنعه منا؛ ذكر ذلك استهزاءًا.

قوله «إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الفَسَادَ» قرأ الكوفيون ويعقوبُ (أو أن) بأو التي للإبهام ومعناه أنه لا بد من وقوع أحد الأمرين والباقون بواو النسق على تسلط الخوف من التبديل وظهور الفساد معاً[٢]. وفتح نافع وابن كثير وأبو عمرو الياء من «إِنِّي أخاف»؛ وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص «يُظْهر» بضم الياء وكسر الهاء من أظهر، وفاعله ضمير موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ «الفَسَادَ» نصباً على المفعول به والباقون بفتح الياء والهاء[٣] من ظَهَرَ الفسادُ، «الفَسَادُ» رفعاً، وزيد بن علي يُظْهَرُ مبنياً للمفعول الفَسَادُ[٤] مرفوع لقيامه مقام الفاعل ومجاهد «يَظَّهَّر» بتشديد[٥] الظاء والهاء، وأصلها يَتَظَهَّر من تَظَهَّر بتشديد الهاء فأدغم التاء في الظاء، «الفسادُ» رفع على الفاعلية.

فصل

ذكر فرعونُ السببَ الموجبَ لقتل موسى وهو أن المُوجِبَ لقتله إما فساد الدين أو فساد الدنيا، أما فساد الدين فلأن القوم اعتقدوا أن الدين الصحيح هو دينهم الذي كانوا عليه، فلما كان موسى ساعياً في إفساده اعتقدوا أنه ساع في إفساد الدين الحق، وأما فساد الدنيا فهو أنه لا بد وأن يجتمع عليه قوم ويصير ذلك سبباً لوقوع الخصومات وإثارة الفتن، ولما كان حب الناس لأديانهم فوق حبّهم لأموالهم لا جَرَمَ بدأ فرعونُ بذكر الدين فقال: «إني أخاف أن يبدل

(١) في (ب) ظاهرات وفي الرازي قاهرة والتصحيح من الرازي و (أ) وانظر الرازي ٢٧/ ٥٤.

(٢) من القراءة المتواترة ذكرها الرازي في المرجع السابق ومكي في الكشف ٢/ ١٤٣ وانظر أيضاً السبعة ٥٦٩ والإتحاف ٣٧٨ والدر المصون ٤/ ٦٨٧ و ٦٨٨.

(٣) الكشف ٢/ ٢٤٣ والسبعة ٥٦٩ والإتحاف ٣٧٨ ومعاني الفراء ٣/ ٧.

(٤) قراءة شاذة غير متواترة ذكرها صاحب البحر ٧/ ٤٦٠ وصاحب شواذ القرآن ٢١٣.

(٥) ذكرها شاذة أيضاً انظر مختصر ابن خالويه ١٣٢ والبحر المرجع السابق والكشاف ٣/ ٤٢٣.

دينكم» ثم أتبعه بذكر فساد الدنيا فقال أو أن يظهر في الأرض الفساد.

قوله: «وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ» قرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي عُدتّ بإدغام الذال، والباقون بالإظهار[١]. وقوله «لاَ يُؤْمِنُ» صفة «لِمُتَكَبِّرٍ».

فصل

لما توعد فرعونُ موسى بالقتل لم يأت في دفع شره إلا بأن استعاذ بالله واعتمد على فضل الله فلا جَرَمَ صانه الله وحفظه منه. واعلم أن الموجب للإقدام على إيذاء الناس أمران:

أحدهما: كون الإنسان متكبراً قاسِيَ القلب.

والثاني: كونه منكراً للبعث والقيامة.

لأن المتكبر القاسي القلب قد يحمله طبعه على إيذاء الناس إلا أنه إذا كان مقرّاً بالبعث والحساب صار خوفه من الحساب مانعاً له من الجري على موجب تكبّره فإذا لم يحصل له الإيمان بالبعث والقيامة كان طبعه داعياً له إلى الإيذاء، لأن المانع وهو الخوف من السؤال والحساب زائلٌ فلا جَرَمَ تعظم القَسْوَةُ والإيذاء[٢].

قوله: «وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ» اختلفوا في هذا المؤمن، قال مقاتل والسدي: كان قبطياً. (وقيل)[٣]: ابن عم فرعون، وهو الذي حكى الله عنه ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ [القصص: ٢٠] وقيل: كان إسرائيلياً، روي عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: الصديقون حبيب النجار مؤمن آل ياسين ومؤمن آل فرعون الذي قال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، والثالث أبو بكر الصديق[٤] وهو أفضلهم، وعن جعفر بن محمد أنه قال: كان أبو بكر خيراً من مؤمن آل فرعون، لأنه كان يكتم إيمانه، وقال أبو بكر جهاراً أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وكان ذلك سراً، وهذا جهراً. روى عروةُ بن الزبير قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص أخبرني بأشد ما صنعهُ المشركون برسول الله ـ ﷺ ـ قال: «بَيْنَا رسولُ الله ـ ﷺ يصلي بفناء الكعبة إذا أقبل عقبةُ بن أبي مُعَيْط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ فلوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً وأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفعه عن رسول الله ـ ﷺ ـ وقال أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم؟». قال ابن عباس وأكثر العلماء كان اسم الجرل خزبيل. وقال ابن إسحاق جبريل، وقيل حبيب[٥].

---

(١) ذكرها صاحب السبعة ٥٧٠ والدر المصون ٤/٦٨٨ والنشر ٢/٣٦٥ وهي قراءة متواترة.
(٢) وانظر هذين الفصلين في تفسير الإمام الفخر الرازي ٢٧/٥٥، ٥٦.
(٣) زيادة عن النسختين يقتضيها السياق.
(٤) في الحديث الذي رواه الإمام الرازي علي بن طالب وليس أبو بكر وهو الأصح.
(٥) انظر تفسيري البغوي والخازن ٦/٩٣ وتفسير الرازي ٢٧/٥٧ والكشاف ٣/٤٢٣.

قوله: «رَجُلٌ مُؤْمِنٌ» الأكثرون قرأُوا بضم الجيم، وقرىء رَجِلَ بكسر الجيم كما يقال: عَضِدٌ في عَضُدٍ[١]. وقرأ الأعمش وعبد الوارث بتسكينها وهي لغة تميمٍ ونجد[٢] والأولى هي الفصحى.

قوله «من آل» يحتمل أن يكون متعلقاً «بيكْتُمُ» بعده أي يكتم إيمانه من آل فرعون[٣].

قيل: هذا الاحتمال غير جائز؛ لأنه لا يقال: كتمتُ من فلانٍ كذا، إنما يقال: كتمته كذا، قال تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢] بل الظاهر تعلقه بمحذوف صفةً لرجل[٤].

قال ابن الخطيب: يجوز أن يكون متعلقاً بقوله: «مؤمن» وإن كان ذلك المؤمن شخصاً من آل فرعون[٥].

قال شهاب الدين: وجاء هنا على أحسن ترتيب حيث قدم المفرد ثم ما يقرب منه وهو حرف الجر ثم الجملة[٦] وقد تقدم أيضاً هذه المسألة في المائدة وغيرها ويترتب على الوجهين هل كان هذا الرجل من قرابة فرعون فعلى الأولى لا دليل فيه، وقد رد بعضهم الأول[٧] بما تقدم، وأنه لا يقال: كتمت من فلان كذا إنما يقال: كتمت فلاناً كذا فيتعدى لاثنين بنفسه، قال تعالى: ﴿لاَ يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً﴾ وقال الشاعر:

٤٣٣٢ ـ كَتَمْتُكَ هَمًّا بالجَمُومَيْنِ سَاهِراً ... وَهَمَّيْنِ هَمًّا مُسْتَكِنّاً وَظَاهِرَا

أَحَادِيثَ نَفْسٍ تَشْتَكِي مَا يَرِيبُهَا ... وَوِرْدَ هُمُومٍ لَنْ يَجِدْنَ مَصَادِرَا[٨]

أي كتمتك أحاديث نفس وهمين، فقدم المعطوف على المعطوف عليه ومحلّه الشعر[٩].

---

(١) ذكرها صاحب الكشاف في المرجع السابق والإمام الفخر في ٥٧/٢٧ ولم يحدد كل منهما القارىء وهي شاذة لم ترو في المتواتر.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٤٦٠ والكشاف ٣/ ٤٢٣.

(٣) ذكره الرازي في المرجع السابق والسمين في الدر ٤/ ٦٨٨. وقال الزمخشري: «من آل فرعون» صفة لرجل أو صلة ليكتم أي يكتم إيمانه، من آل فرعون.

(٤) انظر الدر المصون ٤/ ٦٨٨.

(٥) تفسيره ٢٧/ ٥٧.

(٦) الدر المصون المرجع السابق.

(٧) أي كون هذا الرجل من بني إسرائيل وهو ما قاله الإمام القشيري فيما نقله عنه الإمام القرطبي في الجامع ١٥/ ٣٠٧.

(٨) بيتان من الطويل لنابغة ذبيان، والرواية: كتمتك ليلاً، والجموميين اسم ماء، وساهراً: نعت لليل أو للهم على كلتا الروايتين. والشاهد: نصب «أحاديث» بكتم مفعولاً ثانياً، ويجوز أن تنصب على البدل من قوله «همّين». وعلى ذلك الإعراب لا شاهد فدل من موطن الشاهد أن «كتم» لا يتعدى بحرف الجر بل بنفسه. وقد تقدم.

(٩) شرح ديوان النابغة للأعلم ٦٧ وانظر البيت في البحر المحيط ٧/ ٤٦٠ والدر المصون ٤/ ٦٨٨، والدر اللقيط على البحر ذاته والديوان ٦٧.

قوله «أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ» أي كراهة أن يقول، أو لأن يقول[١]. قال الزمخشري: ولك أن تقدر مضافاً محذوفاً أي وقت أن يقول والمعنى أتقتلونه ساعة سمعتم منه هذا القول من غير روية ولا فكر (في أمره)[٢] وهذا الذي أجازه رده أبو حيان بأن تقدير هذا الوقت لا يجوز إلا مع المصدر المصرّح به، تقول: صِيَاحَ الدِّيكِ أي وقت صياحه، ولو قلت: أجيئك أَنْ صَاحَ الديك أو أَنْ يَصِيحَ لم يصح نص عليه النحويون[٣].

قوله: «وقد جاءكم» جملة حالية، يجوز أن تكون من المفعول.

فإن قيل: هو[٤] نكرة.

فالجواب: أنه في حيِّز الاستفهام وكل ما سوغ الابتداء بالنكرة سوغ انتصاب الحال عنها، ويجوز أن تكون حالاً من الفاعل[٥].

فصل

لما حكى الله تعالى عن موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه ما زاد في دفع مكر فرعون وشره على الاستعاذة بالله بين أنه تعالى قَيَّضَ له إنساناً أجنبياً حتى ذب عنه بأحسن الوجوه وبالغ في تسكين تلك الفتنة فقال: «أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ» وهذا استفهام على سبيل الإنكار، وذكر في هذا الكلام ما يدل على حسن ذلك الإنكار، وذلك لأنه ما زاد على أن قال: ربي الله وجاء بالبينات، وذلك لا يوجب القتل البتةَ فقوله: «وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ» يحتمل وجهين:

الأول: أن قوله «ربي الله» إشارة إلى تعزيز النبوة بإظهار المعجزة.

الثاني: أن قوله «رَبِّي اللَّهُ» إشارة إلى التوحيد.

وقوله: «قَدْ جَاءَكُمْ بالبَيِّنَات مِنْ رَبِّكُم» إشارة إلى الدلائل الدالة على التوحيد، ثم ذكر ذلك المؤمن حجة ثانية على أن الإقدام على قتلِهِ غير جائز، وهي حجة مذكورة على طريق التقسيم فقال: إن كان هذا الرجل كاذباً كان وبال كذبه عائداً عليه فاتركوه وإن كان صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم فعلى كلا التقديرين الأولى إبقاؤه حيًّا.

فإن قيل: الإشكال على هذا الدليل من وجهين:

---

(١) هذا قول أبي البقاء في تبيانه ١١١٨ والزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٣٤ وأبي حيان في البحر ٧/ ٤٦٠ ومعاني القرآن وإعرابه ٤/ ٣٧١.

(٢) زيادة من الكشاف وانظر الكشاف المرجع السابق.

(٣) قاله في بحره ٧/ ٤٦٠ بالمعنى.

(٤) تصحيح من السمين والمقام وفي النسختين «هي» وهو يتكلم عن المفعول وهو مذكو وهو «رجلاً».

(٥) وقد أعربها أبو البقاء حالاً في تبيانه ١١١٨ دون تحديد صاحب الحال وقد فصل القول السمين في الدر ٤/ ٦٨٩.

الأول: أن قوله «فَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ» معناه أن (ضرر)[١] كذبه مقصور عليه ولا يتعداه، وهذا كلام فاسد لوجوه:

أولها: أنا لا نسلم أن بتقدير كونه كاذباً يكون ضرر كذبه مقصوراً عليه لأنه يدعو الناس إلى ذلك الدين الباطل ويغتر به جماعة ويقعون في المذهب الباطل والاعتقاد السيّىء ثم يقع بينهم وبين غيرهم الخصوماتُ الكثيرة فثبت أن بتقدير كونه كاذباً لم يكن ضرر كذبه مقصوراً عليه بل يكون متعدياً إلى الكل، ولهذا أجمع العلماء على أن الزِّنْدِيقَ الذي يدعو الناس إلى زَنْدَقَتِهِ يجب قتله.

وثانيها: أنه إن كان هذا الكلام حجة فلا كذاب إلا ويمكنه أن يتمسك بهذه الطريقة فيمكن جميع الزنادقة والمُبْطِلَة من أديانهم[٢] الباطلة.

وثالثها: أن الكفار الذين انكروا نبوة موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ يجب أن لا يجوز الإنكار عليهم لأنه يقال إن كان ذلك المنكر كاذباً في ذلك الإنكار فعليه كذبه وإن يك صادقاً فما انتفعتم بصدقه، فثبت أن هذه الطريق[٣] صَوَّبَتْ صدقه وما أفضى ثُبُوتُه إلى عدم صدقه كان فاسداً.

الوجه الثاني: كان من الواجب أن يقال: وإنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ كُلُّ الَّذِي يَعِدُكُمْ؛ لأن الذي يصيب من بعض الذي[٤] يَعِدُ دون البعض هو الكفار والمنجمون. أما الرسول الصادق الذي لا يتكلم إلا بالوحي فإنه يجب أن يكون صادقاً في كل ما يقول فكان قوله: «يصبكم بعض الذي يعدكم» غير لائق بهذا المقام.

والجواب عن الأسئلة الثلاثة بأن تقدير الكلام (أنه)[٥] لا حاجة بكم في دفع شره إلى قتله بل يكفيكم أن تمنعوه من إظهار هذه المقالة ثم تتركوا قتله فإن كان كاذباً فحينئذ لا يعود ضرره إلا إليه وإن كان صادقاً فما انتفعتم به. والمقصود من ذلك التقسيم أنه لا حاجة بكم إلى قتله بل يكفيكم أن تُعْرِضُوا عنه وأن تمنعوه من إظهار دينه. وأما الجواب عن الوجه الثاني: وهو قوله كان الأولى أن يقال: «يصيبكم كل الذي يعدكم» فهو من وجوه:

الأول: أن مدار هذا الاستدلال على إظهار الإنصاف وترك اللَّجَاج؛ لأَنَّ المقصود منه وإن كان كاذباً كان ضرر كذبه مقصوراً عليه وإن كان صادقاً فلا أقلَّ من أن يصيبكم بعض ما يعدكم وإن كان المقصود من الكلام هذا صح، ونظيره قوله ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢٤].

---

(١) سقط من ب فقط دون الرازي و (أ).

(٢) في الرازي: والمبطلين من تقرير أديانهم الباطلة.

(٣) كذا في النسختين وفي الرازي أن هذا الطريق يوجب تصويب ضده.

(٤) في الرازي: لأن الذي يصيب في بعض ما يعد دون البعض.

(٥) سقط من ب.

والثاني: أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يتوعّدهم بهم بعذاب الدنيا وبعذاب الآخرة، فإذا وصل إليهم في الدنيا عذاب الدنيا فقد أصابهم بعض الذي وعدهم به.

الثالث: قال الزمخشري: «بعض» على بابها وإنما قال ذلك ليهضم موسى بعضَ حَقِّهِ في ظاهر الكلام فيريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وافياً فضلاً عن أن يتعصب له[١]. وهذا أحسن من قول أبي عبيدة[٢] وغيره أن بعض بمعنى كل، وأَنْشَدَ قَوْلَ لَبِيدٍ:

٤٣٣٣ ـ تَـرَّاكُ أَمْـكِـنَـةٍ إذَا لَـمْ أَرْضَـهَـا ... أَوْ يَـرْتَـبِـطْ بَـعْـضَ الـنُّـفُـوسِ حِـمَـامُـهـا[٣]

وأنشد أيضاً قول عمرو بن شُيَيْم:

٤٣٣٤ ـ قَدْ يُدْرِكُ المُتأنّي بَعْضَ حَاجَتِهِ ... وَقَـدْ يَـكُـونُ مع الـمُـسْـتَـعْـجِـلِ الـزَّلَـلُ[٤]

وقول الآخر:

٤٣٣٥ ـ إنَّ الأُمُـورَ إذَا الأَحْـدَاثُ دَبَّـرهَـا ... دُونَ الـشُّـيُـوخِ تَـرَى فِـي بَـعْـضِـهَـا خَـلَـلا[٥]

قال شهاب الدين: ولا أدري كيف فهموا «الكل» من البيتين الأخيرين، وأما الأول ففيه بعض دليل لأن الموت يأتي على الكل[٦]. قال ابن الخطيب: والجمهور على أن هذا القول خطأ قالوا: وأراد لبيدٌ ببعض النفوس نفسه[٧]، ومعنى البيت أنه وصف نفسه

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٢٥.

(٢) لم أجد في المجاز عند هذه الآية تعليقاً لأبي عبيدة وقد ذكر في [آل عمران: ٥٠] وهي قوله **﴿ولأحلَّ لكم بعض الذي حرِّم عليكم﴾** وفي الآية ٦٣ من سورة الزخرف **﴿ولأبين لكم بعض الّذي تختلفون فيه﴾** أن البعض بمعنى الكل. المجاز له ١/ ٩٤ و ٢/ ٢٠٥. وقد ذكر الإمام القرطبي في الجامع ١٥/ ٣٠٧ رأي أبي عبيدة هذا ورأي الماوردي في أن البعض بمعنى الكل.

(٣) بيت من الكامل من المعلقة المشهورة له والرواية كما ذكرت أعلى، ويروى: أو يرضها بالياء، كما يروى «أو يعتلق» بدل قوله «أو يرتبط» والشاهد: بعض النفوس فقد ذهب أبو عبيدة إلى أن بعض بمعنى كل وهذا خلاف ما عليه أهل اللغة؛ لأن المراد بها نفسه كما أخبر الإمام الرازي أعلى. وانظر شرح القصائد السبع ٥٧٣، ومجالس ثعلب ٥٠، والخصائص ١/ ٧٤ و ٢/ ٣١٧ و ٣٣١ ومحتسب ابن جني أيضاً ١/ ١١١ وشرح شواهد الشافية للبغدادي ٤١٥، والجامع لأحكام القرآن ١٥/ ٣٠٧ وفتح القدير للشوكاني ٤/ ٤٨٨ والطبري ٢٥/ ٥٥ والديوان ٤/ ٦٨٩ واللسان «ح م م».

(٤) الشهير بالقطامي لقباً. وهو من البسيط ووجه الاستشهاد به كسابقه حيث ذهب بعضهم إلى أن «بعض» بمعنى «كل» وهو خلاف ما عليه أهل اللغة فإن ذكر البعض يوجب الكل وانظر البحر المحيط ٧/ ٤٦١ والدر المصون ٤/ ٦٩٠ واللسان بعض ٣١٢، ٣١٣ والقرطبي ١٥/ ٣٠٧ ومجالس ثعلب ١٦٩ وفتح القدير ٤/ ٤٨٨ وديوانه ٣.

(٥) مجهول قائله وهو من البسيط أيضاً، وشاهده كسابقيه من استعمال البعض بمعنى الكل عند البعض ومعنى البيت واضح، وقد تقدم.

(٦) الدر المصون السابق. (٧) التفسير الكبير له ٢٧/ ٥٨.

أنه نَزَّالُ أمكنةٍ أي كثيرُ النزول في أماكن لا يرضاها إلا أن يربط نفسه الحِمام وهو الموت، وقال اللَّيْثُ: بعض ههنا صلة يُريد يصبكم الذي يعدكم[١]. ولما حكى الزمخشري قول أبي عبيدة أن «بعض» بمعنى «الكل» وأنشد عنه بيت لبيد قال: إن صحت الرواية عنه فقد حق فيه قولُ المَازِنِيِّ في مسألة العَلْقَى: كان أجْفَى من أن يفقه ما أقول له[٢]. قال شهاب الدين: ومسألة المازني معه: هي أن أبا عبيدة قال للمازني: ما أكذب النحويين يقولون هاء التأنيث لا تدخل على ألف التأنيث، فإن الألف في عَلْقَى ملحقة، قال: فقلت له وما أنكرت من ذلك؟ فقال: سمعت رؤبة يُنْشِدُ:

٤٣٣٦ ـ يَنْحَطُّ فِي عَلْقَى ....[٣]

فلم ينونها، فقلت: ما واحد علقى؟ قال: عَلْقَاة، قال المازني: فأَسِفْتُ ولم أفسر له لأنه كان أغلظ من أن يفهم مثل هذا. قال شهاب الدين[٤]: وإنما استغلظه المازني؛ لأن الألف التي للإلحاق قد تدخل عليها تاء التأنيث (دالة[٥] على الوحدة فيقال: أَرْطَى، وأَرْطَاة، وإنما الممتنع دخولها على ألف التأنيث) نحو: دَعْوَى، وصَرْعَى. وأما عدم تنوين «علقى» فلأنه سمَّى بها شيئاً بعينه، وألف الإلحاق المقصورة حال العلمية تجري[٦] مجرى تاء التأنيث فيمتنع الاسم الذي هو فيه كما يمتنع فاطمةُ وينصرفُ قَائِمةُ[٧].

قوله: «إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ» وفيه احتمالان:

الأول: أن هذا إشارة إلى الرمز والتعريض بعلو شأن موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ والمعنى أن الله تعالى هدى موسى إلى الإتيان بالمعجزات الباهرة، ومن هداه إلى الإتيان بالمعجزات لا يكون مسرفاً كذَّاباً فدل على أن موسى ليس من الكذابينَ.

الاحتمال الثاني: أن يكون المراد أن فرعون مسرفٌ في عزمه على قتل موسى كذابٌ في ادعائه الإلَهيَّة والله لا يهدي من هذا شأنه وصفته بل يُبْطِلُهُ ويَهْدِمُ أمره.

---

(١) ذكره عنه الخازن والبغوي ٦/ ٩٣ وقد ذكر الزجاج في معاني القرآن وإعرابه في بيت القطامي: إنما ذكر البعض ليوجب له الكل إلا أن البعض هو الكل ولكن للقائل إذا قال أقل ما يكون للمتأني إدراك بعض حاجته وأقل ما يكون للمستعجل الزلل ٤/ ٣٧٢.

(٢) انظر كشافه ٣/ ٤٢٥.

(٣) من بيت من الرجز، تمامه: ينحطُّ في علقى وفي مكور. وبعده: بين تواري الشَّمس والذُّرور. كما في ديوانه والمكور: نبتة من نبات الصحراء غير المزهرة، ومثلها العلقى انظر الديوان ٢٣٣ وإنباه الرواة للقفطي ١/ ٢٥٤ والكتاب ٣/ ٢١٢، ولسان العرب «مكر وعلق» وهو في النسب للعجاج بلفظ «فحطَّ» ماضياً وانظره أيضاً في الدر المصون ٤/ ٦٩٠.

(٤) المرجع السابق.

(٥) ما بين القوسين كله سقط من ب فقط بسبب انتقال النظر.

(٦) في ب يجري.

(٧) السابق.

قوله: «يَا قَوْمِ لَكُمُ المُلْكُ الْيَوْمَ» اعلم أن مؤمن آل فرعون لما استدل على أنه لا يجوز قتل موسى خوف فرعون وقومه ذلك العقاب[١] الذي توعّدهم به في قوله «يصبكم بعض الذي يعدكم» فقال: يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض. أي أرض مصر يعني قد علوتم الناس وقَهَرْتُمُوهُمْ فلا تفسدوا أمركم على أنفسكم ولا تتعرضوا لعذاب الله بالتكذيب وقتل النبي فإنه لا مانع من عذاب الله إن حلَّ بكم، وإنما قال «يَنْصُرُنَا وَجَاءَنَا»؛ لأنه كان يظهر أنه منهم وأن الذي ينصحهم به هو مشارك لهم فيه[٢].

قوله «ظَاهِرِينَ» حال من الضمير في «لكم» والعامل فيها وفي اليوم ما تعلق به «لكم»[٣].

ولما قال المؤمن هذا الكلام قال فرعون: «مَا أُرِيكُمْ إلاَّ مَا أَرَى» هي من رؤية الاعتقاد[٤] فيتعدى لمفعولين ثانيهما «إلاَّ مَا أَرَى» أي إلا ما أرى لنفسي[٥]. وقال الضحاك: ما أعلمكم إلا ما أعلم[٦]. قوله «وَمَا أَهْدِيكُمْ إلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ» العامة على تخفيف الشين، مصدر رَشَدَ يَرْشُدُ. وقرأ معاذ بن جبل بتشديدها[٧]، وخرجها أبو الفتح وغيره على أنها صفة مبالغة، نحو ضَرَبَ فهو ضَرَّاب[٨]، وقال النحاس: هو لحن، وتوهمه من[٩] الرباعي يعني أرشد، ورد على النحاس قوله: بأنه يحتمل أن يكون من «رشد» الثلاثي، وهو الظاهر[١٠]، وقد جاء فعال أيضاً من أفعل وإن كان لا ينقاس، قالوا: أَدْرَكَ فَهُوَ دَرَّاك وأَجْبَرَ فهو جَبَّار، وأَقْصَرَ فهو قَصَّار، وأَسْأَرَ[١١] فهو سَئَّار. ويدل على أنه صفة مبالغة أن معاذاً كان يفسرها بسبيل الله.

قال ابن عطية: ويبعد عندي على معاذ ـ رضي الله عنه ـ وهل كان فرعون يدعي إلا الإِلَهِيَّة؟ ويعلق بناء اللفظ على هذا التركيب[١٢]. قال شهاب الدين يعني ابن عطية أنه

---

(١) في ب: العذاب بدل العقاب.
(٢) التفسير الكبير للرازي ٢٧/ ٥٨، ٥٩.
(٣) وهو «الملك» وانظر الإعراب في التبيان ١١١٨.
(٤) أي الرواية العلمية التي تحتاج مفعولين.
(٥) المرجع السابق.
(٦) نقله البغوي ٦/ ٩٤.
(٧) شاذة غير متواترة ذكرها العكبري في التبيان ١١١٨ والكشاف ٣/ ٤٢٥ والمختصر لابن خالويه ١٣٢، والمحتسب لابن جني ٢/ ٢٤١ و ٢٤٢.
(٨) المراجع السابقة.
(٩) إعراب القرآن له ٤/ ٣٤ بدون تعليق.
(١٠) قال أبو الفتح بن جني في المحتسب المرجع السابق وينبغي أن يكون هذا من قولهم رشد يرشد كعلام من علم يعلم، أو من رشد يرشد كعباد من عبد يعبد ولا ينبغي أن يحمل على أنه من أرشد يرشد لأن فعالاً لم يأت إلا في حروف محفوظة.
(١١) أي أبقى في الكأس بقية وقد ذكر هذه الألفاظ ابن جني في محتسبه المرجع السابق ٢/ ٢٤١ و ٢٤٢، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٢٥ والسمين في الدر ٤/ ٦٩١ وابن خالويه في حجة القراءات السبع ذكر ثلاثة فقط دراك وقصار وسآر، الحجة له ٣١٥.
(١٢) البحر المحيط ٧/ ٤٦٢.

كيف يقول فرعون ذلك فيقر بأنَّ ثَمَّ من يهدي إلى الرشاد غيره مع أنه يدعي أنه إله[١]. وهذا الذي عزاه ابن عطية والزمخشري وابن جبارة[٢] صاحب الكامل إلى معاذ بن جبل من القراءة المذكورة ليس هو في «الرَّشَادِ» الذي هو في كلام فرعون كما توهموا، وإنما هو في «الرَّشَادِ» الثاني الذي هو من قول المؤمن بعد ذلك[٣]. ويدل على ذلك ما روى أبو الفضل الرازي في كتاب اللوامح: وقرأ معاذ بن جبل سبيل الرشاد الحرف الثاني[٤] بالتشديد وكذلك الحسن وهو سبيل الله تعالى أوضحه لعباده كذلك فسره معاذ (بن جبل) وهو منقول من مُرْشِد كدَرَّاك من مدرك، وجبار من مجبر، وقصّار من مقصِر عن الأمر، ولها نظائر معدودة فأما قصّار الثوب فهو من قصرت الثوب قِصَارَةً. فعلى هذا يزول إشكال ابن عطية المتقدم ويتضح القراءة والتفسير[٥]. وقال أبو البقاء وهو الذي يكثر منه الإرشاد أو الرشد يعني أنه يحتمل أن يكون من «أَرْشَدَ» الرباعي، أو «رَشَدَ» الثلاثي، والأولى أن يكون من الثلاثي لما عرفت أنه ينقاس دون الأول[٦].

قوله: «يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ» اعلم أنه تعالى (لما)[٧] حكى عن ذلك المؤمن أنه (كان)[٨] يكتم إيمانه والذي يكتم إيمانه كيف يمكنه أن يذكر هذه الكلمات مع فرعون فلهذا السبب حصل ههنا قولان:

الأول: أن فرعون لما قال ذروني أَقْتُلْ موسى لم يصرِّح ذلك المؤمن بأنه على دين موسى بل أوهم أنه على دين فرعون إلا أنه زعم أن المصلحة تقتضي إبقاء موسى؛ لأنه لم يصدر عنه إلا الدعوة إلى الله والإتيان بالمعجزات القاهرة، وهذا لا يبوجب القتل، فالإقدام على قتله يوجب الوقوع في ألسنة الناس يقبح الكلمات بل الأولى تأخير قتله ومنعه من إظهار دينه لأنه إن كان كاذباً فَوَبَالُ كَذِبِهِ عليه، وإن كان صادقاً حصل الانتفاع به من بعض الوجوه. ثم أكد ذلك بقوله: «إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ» يعني أنه إن صدق فيما يدعيه من إثبات الإله القادر الحكيم فهو لا يهدي المسرف الكذاب،

---

(١) الدر المصون ٤/ ٦٩١.

(٢) هو أبو القاسم الهذلي صاحب القراءات الخمسين الكتاب الشهير وقد مر ترجمته وانظر البحر ٧/ ٤٦٢ والكشف ٤/ ٤٢٥ والكامل في القراءات الخمسين (خ) ٢/ق ٢٣٤ ب وفيه الرشاد بتشديد الشين الحسن والباقون بتخفيف الشين، والأحسن التشديد يعني الله فهم قد فهموا من خلال تلك الآية فهماً ناقص المعنى والمقام وإنما ما قالوه في الآية الآتية كما أوضع المؤلف أعلى تبعاً لأبي حيان ومن حذا حذوه.

(٣) وهي «وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد» الآية ٣٨ من نفس السورة.

(٤) يقصد الشين.

(٥) انظر البحر المحيط ٧/ ٤٦٢ والدر المصون ٤/ ٦٩١.

(٦) بالمعنى من التبيان ١١٨ وقد جعله اسماً للمصدر فقال: «الجمهور على التخفيف وهو اسم للمصدر، إما الرشد أو الإرشاد».

(٧) سقط من ب.

(٨) كذلك.

فأوهم بقوله: «إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ» أنه يريد موسى، وإنما كان يقصد به فرعون؛ لأن المسرف الكذاب هو فرعون.

والقول الثاني: أن مؤمن آل فرعون كان يكتم إيمانه أولاً فلما قال فرعون ذروني أقتل موسى أزال الكتمان وأظهر أنه على دين موسى وشَاقَّ[(١)] فرعون بالحق وقال: يا قوم إنِّي أخاف عليكم مثلَ يومِ الأحزاب أي مثل أيام الأحزاب إلا أنه لما أضاف اليومَ إلى الأحزاب وفسرهم بقوم نوح وعاد وثمود، وكان لكل حزب يوم في العذاب اقتصر من الجمع على ذكر الواحد لعدم الالتباس.

قوله: «مِثْلَ دأبِ» يجوز أن يكون «مثل» بدلاً، وأن يكون عطف بيان[(٢)] والمعنى مثل دأبهم في عملهم من الكفر والتكذيب وسائر المعاصي دائماً لا يفترون عنه. ولا بدّ من حذف مضاف يريد مثل جزاء دأبهم. والحاصلُ أنه خوفهم الهلاك في الدنيا ثم خوفهم هلاك الآخرة «وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ» أي لا يُهْلِكُهُمْ قبل إقامة الحجة عليهم، والمقصود التنبيه على عذاب الآخرة يعني أن تدمير أولئك الأحزاب كان عدلاً بأنهم استوجبوه بتكذيبهم الأنبياء، وتلك العلة قائمة هنا فوجب حصول الحكم هنا.

قالت المعتزلة: وما الله يريد ظلماً للعباد يدل على أنه لا يريد أن يظلم العباد، ولا يريد الظلم من أحد من العباد البتة، ولو خلق الكفر فيهم ثم عذبهم على ذلك الكفر لكان ظالماً، وإذا ثبت أنه لا يريد الظلم ألبتة ثبت أنه غير خالق لأفعال العباد، لأنه لو خلقها لأرادها، وثبت أيضاً أنه قادر على الظلم إذ لو لم يقدر عليه لما حصل التمدح بترك الظلم، وهذا الاستدلال قد تقدم مراراً مع الجواب[(٣)].

قوله (تعالى)[(٤)]: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ التناد تفاعلَ من النداء يقال: تنادى القوم أي نادى بعضهم بعضاً[(٥)]، والأصل: الياء، وقد تقدم الخلاف في يائه كيف تحذف والأصل[(٦)] تَنَادُياً ـ بضم الدال ـ ولكنهم كسروها؛ لِتَصِحَّ الياءُ. وقرأت طائفة بسكون الدال إجراء للوصل مجرى الوقف[(٧)]، وتنادى القوم أي نادى بعضهُم بَعْضاً، قال (الشَّاعِرُ[(٨)] ـ رَحِمَهُ اللَّه ـ):

---

(١) بزنة فاعل من شاقّ يشاقق إذا جاهر وخالف.
(٢) البيان ٢/ ٣٣١ والدر المصون ٤/ ٦٩٢.
(٣) وانظر تفسير الإمام فخر الدين ٢٧/ ٦٠، ٦١.
(٤) سقط من ب.
(٥) بين في الرعد عند قوله: «مآب» و «متاب» و «عقاب» من الآيات ٢٩، ٣٠، ٣٢، ٣٣، ٣٤ أنّ إثبات الياء الوجه والحذف حسن جميل؛ لأن الكسرة تدل عليها وهو رأس آية وانظر اللباب ٤/ ٩٧ب.
(٦) انظر غريب القرآن لابن قتيبة ٣٨٦.
(٧) لم أجد تحديد من قرأ بها انظر البحر ٧/ ٤٦٤ والدر المصون ٤/ ٦٩٢.
(٨) زيادة من (أ) عن (ب).

٤٣٣٧ ـ تَنَادَوْا فَقَالُوا أَرْدَتِ الخَيْلُ فَارِساً فَقُلْنَا عُبَيْدَ اللَّهِ ذَلِكُمُ الرَّدِي[١]

وقال آخر:

٤٣٣٨ ـ تَنَادَوْا بَالرَّحِيلِ غَداً وَفِي تَرْحَالِهِمْ نَفْسِ[٢]

وقرأ ابن عباس والضحاك والكلبي وأبو صالح وابن مقسم والزعفراني[٣] في آخرين بتشديدها[٤] مصدر تَنَادَّ من: نَدَّ البَعِيرُ إذَا هَرَبَ ونَفَرَ، وهو في معنى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ [عبس: ٣٤] الآيات ويدل على صحة هذه القراءة قوله تعالى بعد ذلك: «يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ». قال أبو علي: التَّنَادي مخففاً من التناد من قولهم نَدَّ فلانٌ إذا هرب[٥]. وفي الحديث: «إنَّ لِلنَّاسِ جَوْلَةً يَنِدُّونَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ يَجِدُونَ مَهْرَباً»[٦]. وقال أميةُ بنُ أبي الصَّلْتِ:

٤٣٣٩ ـ وَبَثَّ الخَلْقَ فِيهَا إذْ دَحَاهَا فَهُمْ سُكَّانُهَا حَتَّى التَّنَادِي[٧]

قوله: «يَوْمَ تُوَلُّونَ» يجوز أن يكون بدلاً من «يوم التناد»[٨] وأن يكون منصوباً بإضمار «أعني»[٩]. ولا يجوز أن يكون عطف بيان، لأنه نكرة وما قبله معرفة، وقد تقدم[١٠] في قوله «فيه آياتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إبْرَاهِيمَ» أن الزمخشري جعله بياناً مع تخالفهما

---

(١) من الطويل لدريد بن الصِّمَّة والرواية: فقلت أعبد الله بالاستفهام. والرَّدي الهالك من الرَّدى وهو الهلاك. وشاهده تنادوا أي نادى بعضهم بعضاً، وانظر الأصمعيات ١٠٨ والبحر ٧/ ٤٦٤، والدر المصون ٤/ ٦٩٢.

(٢) شاهده كسابقه من أن «تنادوا» بمعنى نادى بعضهم البعض ومعنى البيت كسابقه في التحسر على الفراق وهو من مجزوء الوافر ولم أعلم قائله؛ وانظر المحتسب ٢/ ٣٢٥، وسر الصناعة ١/ ٢٣٦ والخزانة ٩/ ١٨٣ والأشباه والنظائر ٤/ ٢٠٠ ودرة الغواص ١٧٦ والدر المصون ٤/ ٦٩٢.

(٣) الحسين بن مالك أبو عبد الله الزعفراني مقرىء شهير، له اختيار في القراءة قرأ عليه أبو نصر عبد الملك بن حاشد وقرأ اختيار العباس بن الفضل على عبد الله بن عبد الرحمن انظر غاية النهاية ١/ ٢٤٩.

(٤) من القراءة الشاذة غير المتواترة وإن كانت اللغة تبيحها انظر مختصر ابن خالويه ١٣٢، والمحتسب ٢/ ٢٤٣ و ٢٤٤، واللسان ندد ٤٣٨١، ومعاني الفراء ٣/ ٧ والكشاف ٣/ ٤٢٦ ومعاني الزجاج ٤/ ٤٧٣.

(٥) الرازي ٢٧/ ٦١.

(٦) الحديث رواه أبو حيان بدون سند عن الرسول ٧/ ٤٦٤، وهو بالمعنى من حديث طويل رواه العلامة السيوطي في الدر المنثور ٢٤/ ٢٨٦.

(٧) من الوافر له ودحاها أي بسطها أي الأرض وهو مثل: «والأرض بعد ذلك دحاها» وشاهده في كلمة التنادي حيث ينادي بعضهم بعضاً يوم القيامة وانظر البحر ٧/ ٤٦٤، والدر المصون ٤/ ٦٩٣ والقرطبي ١٥/ ٣١٠.

(٨) التبيان ١١١٨، ١١١٩ والدر المصون السابق والبيان ٢/ ٣٣١.

(٩) الدر المرجع السابق.

(١٠) وقد سبق رأي الزمخشري في هذه الآية وانظر الكشاف ١/ ٤٤٧.

تعريفاً وتنكيراً وهو عكس هذا، فإن الذي نحن فيه الثاني نكرة، والأول معرفة.

قوله «مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِم» يجوز في «من عاصم» أن يكون فاعلاً[١] بالجار، لاعتماده على النفي، وأن يكون مبتدأ[٢] أو من مزيدة على كلا التقديرين، ومن الله متعلق بعَاصِمٍ[٣].

فصل

أجمع المفسرون على أن يوم التنادي (هو) يوم القيامة وفي تسميته بهذا الاسم وجوه:

قيل: لأن أهل النار ينادون أصحابَ الجنة، وأصحاب الجنة ينادون أصحابَ النار كما حكى الله عنهم. وقال الزجاج: هو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾[٤] [الإسراء: ٧١].

وقيل: ينادي بعضُ الظالمينَ بعضاً بالويْلِ والثُّبُور، فيقولون: يَا وَيْلَنَا. وقيل: يُنَادَوْنَ إلى المحشر وقيل ينادي المؤمن: هَاؤُم اقْرَأُوا كِتَابِيَهْ، والكافر: يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ، وقيل: ينادى باللَّعْنَةِ على الظالمين، وقيل: يجاء بالموت على صورة كبش أملح ثم يذبح بين الجنة والنار، ثم ينادى يا أهل الجنة خلود بلا موت، ويا أهل النار خلود بلا موت، وقيل: ينادى بالسعادة والشقاوة ألا إنَّ فلان ابن فلان سَعِدَ سعادة لا يشقى بعدها أبداً، وفلان ابن فلان شقي شقاوة فلا يسعد[٥] بعدها أبداً.

وقوله: «يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ». قال الضحاك: إذا سمعوا زفيرَ النار نَدُّوا هرباً فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجدوا الملائكة صفوفاً فيرجعون[٦] إلى مكانهم فذلك قوله: «والمَلَكُ عَلَى أرْجَائِهَا»[٧] وقوله: «يَا مَعْشَرَ الجِنِّ والإِنْسِ إن اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ فَانْفُذُوا»[٨]. قال مجاهد ـ رضي الله عنه ـ: فارِّينَ عن النار غير معجزين[٩]، ثم أكد التهديد فقال: مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ يعصمكم من عذابه، ثم نبه على قوة ضلالتهم وشدة جهالتهم فقال «وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ».

---

(١) سد مسد الخبر لاعتماده على نفي وهو «ما».

(٢) فيكون مرفوعاً بضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد والخبر «لكم».

(٣) انظر الدر ٤/ ٦٩٣.

(٤) وانظر معاني القرآن وإعرابه ٤/ ٣٧٣ وهو أحد وجهين قال بهما الزجاج الثاني هو قوله «يوم ينادي أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً».

(٥) في ب يشقى خطأ والتصحيح من ب. (٦) في ب فيرجعوا.

(٧) ١٨ من الحاقة. (٨) ٢٣ من الرحمن عز وجل.

(٩) وانظر فيما سبق كله من أقوال في تفسير البغوي ٦/ ٩٤ و ٩٥ والقرطبي ١٥/ ٣١٠ و ٣١١.

قَوْلُهُ (تَعَالَى)[١]: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني يوسف بن يعقوب من قبل موسى بالبينات، ونقل الزمخشري أنه قبل يوسف بن إبراهيم بن يوسف بن يعقوب أقام فيهم نيفاً وعشرين سنة وقيل: إن فرعون موسى هو فرعون يوسف بَقِيَ حيًّا إلى زمانه، وقيل: هو فرعون آخر[٢]. والمقصود من الكل شيء واحد هو أن يوسف جاء قومه بالبينات وهي قوله تعالى: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾[٣] [يوسف: ٣٩]. والأولى أن يُراد بها المعجزات.

واعلم أن مؤمن آل فرعون لما قال لهم: ومن يضلل الله فما له من هاد ذكر هذا المثال وهو أن يوسف جاءهم بالبينات الباهرة فأصروا على التكذيب ولم ينتفعوا بتلك الدلائل، وهذا يدل على (أن)[٤] من أضله الله فما له من هاد، ثم قال: «فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ» قال ابن عباس ـ (رضي الله عنه ـ)[٥]: من عبادة الله وحده لا شريك له، فلم ينتفعوا ألبتة بتلك البينات.

قوله «حَتَّى إِذَا» غاية لقوله «فما زلتم في شك»، فَلَمَا هَلَكَ «قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً» أي أقمتم على كفركم، وظننتم أن الله تعالى لا يجدد عليكم الحجة، وقرىء ألن[٦] يبعث الله بإدخال همزة التقرير يقرّر بعضهم بعضاً.

قوله: «كَذَلِكَ» أي الأمر كذلك[٧]، أو مثل هذا الضلال يضل الله كل مسرف كذاب في عصيانه مرتاب في دينه، فقوله «يضل الله» مستأنف، أو نعت مصدر أي مثل إضلال الله إياكم حين لم تقبلوا من يوسف يضل الله من هو مسرف[٨].

ثم بين تعالى ما لأجله بقُوا في ذلك الشك والإسراف فقال: «الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ» أي بغير حجة إما بناء على التقليد، وأما بناء على شبهات خسيسة.

قوله: «الَّذِينَ يُجَادِلُونَ» يجوز فيه عشرة أوجه:

أحدها: أنه بدل من[٩] قوله «من هو مسرف» وإنما جمع اعتباراً بمعنى «من»[١٠].

---

(١) زيادة من (أ).

(٢) ذكر هذه الأقوال الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٢٦ والرازي تبعاً له في تفسيره ٢٧/ ٦٢.

(٣) رأي الرازي السابق. (٤) سقط من (أ).

(٥) زيادة من (أ).

(٦) قراءة شاذه غير متواترة لم يحددها أبو حيان في البحر ٧/ ٤٦٤ وكذلك الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٢٧.

(٧) التبيان ١١١٩. (٨) الدر المصون ٤/ ٦٩٣.

(٩) وهو قول الزمخشري في الكشاف المرجع السابق، ومكي في المشكل ٢/ ٢٦٦، وأبو البقاء في التبيان لم يذكره بل ذكر أوجهاً أخر، كما قال بالبدلية ابن الأنباري في البيان ٢/ ٣٣١، والنحاس في الإعراب ٤/ ٣٣ والزجاج في معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٣٨٤.

(١٠) الكشاف ٣/ ٤٢٧.

الثاني: أن يكون[١] بياناً له.

الثالث: أن يكون صفة له وإنما جمع على معنى «من» أيضاً[٢].

الرابع: أن ينتصب بإضمار أعني[٣].

الخامس: أن يرتفع خبر مبتدأ مضمر أي هم الذين[٤].

السادس: أن يرتفع مبتدأ خبره «يَطْبَعُ اللَّهُ»، و «كذلك» خبر مبتدأ مضمر أيضاً أي الأمر كذلك، والعائد من الجملة وهي يطبع على المبتدأ محذوف أي على كل متكبر منهم[٥].

السابع: أن يكون مبتدأ، والخبر «كَبُرَ مَقْتاً» ولكن لا بُدّ من حذف مضاف ليعود الضمير من «كبر» عليه والتقدير: قال الذين يجادلون كَبُرَ مقتاً، ويكون «مَقْتاً» تمييزاً، وهو منقول من الفاعلية؛ إذ التقدير كبر مَقْتُ حالهم أي جادل المجادلين[٦].

الثامن: أن يكون «الَّذِينَ» مبتدأ أيضاً، ولكن لا يقدر حذف مضاف، ويكون فاعل كبر ضميراً عائداً على ما تقدم أي كبر مقت[٧] جدالهم.

التاسع: أن يكون «الذين» مبتدأ أيضاً، والخبر «بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ» قاله الزمخشري[٨]. ورده أبو حيان بأن فيه تفكيك الكلام بعضه من بعض؛ لأن الظاهر تعلق «بغَيْرِ سُلْطَانٍ» «بِيُجَادِلُونَ» ولا يتعقل جعله خبراً «للذين» لأنه جار ومجرور فيصير التقدير: الذين يجادلون كائنونَ أو مستقرونَ بغير سلطان أي في غير سلطان؛ لأن الباء إذْ ذَاكَ ظرفية خبرٌ عن الجثث[٩].

العاشر: أنه مبتدأ وخبره محذوف أي معاندون ونحوه قاله أبو البقاء[١٠].

قوله: «كَبُرَ مَقْتاً» يحتمل أن يراد به التعجب[١١] والاستفهام، وأن يراد به الذم «كبئس» وذلك أنه يجوز أن يبنى (فَعُلَ) ـ بضم العين ـ مما يجوز فيه التعجب منه، ويَجْرِي مَجْرَى نِعْمَ وَبِئْسَ في جميع الأحكام، وفي فاعله ستة أوجه:

---

(١) الدر المصون ٤/ ٦٩٢. (٢) المرجع السابق.
(٣) التبيان ١١١٩.
(٤) البيان والتبيان والمشكل وإعراب النحاس ومعاني الزجاج السابقة.
(٥) قاله أبو البقاء من المرجع السابق.
(٦) مفهوم كلام الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٢٧ وباللفظ في الدر المصون ٤/ ٦٩٤.
(٧) البحر المحيط ٧/ ٤٦٥.
(٨) الكشاف ٣/ ٤٢٧.
(٩) في البحر «الجثَّة» وانظر بحر أبي حيان ٧/ ٤٦٥.
(١٠) التبيان ١١١٩.
(١١) قاله العلامة الرضي في شرح الكافية ٢/ ٣٠٧، ٣٠٨.

الأول: أنه ضمير عائد على حال المضاف إلى الذين، كما تقدم تقريره(١).

الثاني: أنه ضمير يعود على جدالهم المفهوم من «يُجَادِلُونَ» كما تقدم تقريره أيضاً(٢).

الثالث: أنه الكاف في «كَذَلِكَ». قال الزمخشري: وفاعل «كَبُرَ» قوله: كذلك، أي كَبُرَ مقْتاً مِثْل ذَلِكَ الجِدال، و «يَطْبَعُ اللَّهُ» كلام مستأنف(٣). ورده أبو حيان: بأن فيه تفكيكاً للكلام وارتكابَ مذهب ليس بصحيح، أما التفكيك فلأن ما جاء في القرآن من «كَذَلِكَ يطبع أو تطبع» إنما جاء مربوطاً بعضه ببعض، وكذلك هذا(٤) وأما ارتكاب مذهب غير صحيح فإنه جعل الكاف اسماً، ولا يكون اسماً إلا في ضرورة خلافاً للأخفش(٥).

الرابع: أن الفاعل محذوف نقله الزمخشري، قال: ومن قال كبر مقتاً عند الله جِدَالهُم فقد حذف الفاعل والفاعل لا يصح حذفه. قال شهاب الدين: القائل بذلك هو الحَوْفِيُّ لكنه لا يريد بذلك تفسير الإعراب إنما يريد به تفسير المعنى، وهو معنى ما تقدم من أنّ الفاعل ضمير يعود على جدالهم المفهوم من فعله، فصرح به الحوفي بالأصل، وهو الاسم الظاهر، ومراده ضمير يعود عليه(٦).

الخامس: أن الفاعل ضمير يعود على ما بعده، وهو التمييز، نحو: نعم رجلاً زيد، وبئس غلاماً عَمْرو(٧).

السادس: أنه ضمير يعود على من في قوله: «من هو مسرف» وأعاد الضمير من كبر مقتاً اعتباراً بلفظها وحينئذ يكون قد راعى لفظ من أولاً في قوله كبر مقتاً(٨).

وهذا كله إذا أعربت «الذين» تابعاً لـ «مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ» نعتاً أو بياناً، أو بدلاً. وقد تقدم أن الجملة من قوله «كبر مقتاً» فيها وجهان:

أحدهما: الرفع، إذا جعلناها خبر المبتدأ.

والثاني: أنها لا محل لها، إذا لم نجعلها خبراً، بل هي جملة استئنافية.

وقوله: «عِنْدَ الله» متعلق «بكَبُرَ»، فكذلك قد تقدم أنه يجوز أن يكون خبر المبتدأ محذوفاً وأن يكون فاعلاً وهما ضعيفان.

والثالث ـ وهو الصحيح ـ: أنه معمول لـ «يَطْبَعُ» أي مثل ذلك الطبع يطبع الله(٩)، و «يطبع الله» فيه وجهان:

---

(١) قاله السمين في الدر المصون ٤/ ٦٩٥. (٢) ذكره أبو حيان في بحره ٧/ ٤٦٥.

(٣) الكشاف ٣/ ٤٢٧. (٤) في البحر: فكذلك هنا.

(٥) في البحر لا يجوز على مذهب البصريين إلا الأخفش وانظر البحر ٧/ ٤٦٤ و ٤٦٥.

(٦) انظر معاني الفراء ٣/ ٨ والكشاف ٣/ ٤٢٧ والدر ٤/ ٤٩٨.

(٧) و (٨) و (٩) الدر المصون ٤/ ٦٩٨ السابق بايضاح لكلام أبي حيان في البحر ٤/ ٤٦٥.

أظهرهما: أنه مستأنف(١).

والثاني: أنه خبر للموصول كما تقدم.

قوله: «قَلْبِ متكبّر» قرأ أبو عمرو، وابن ذَكْوَانَ بتنوين «قَلْبٍ»(٢)، وصف القلب بالتكبر والجبروت لأنهما ناشئان منه، وإن كان المراد الجملة، كما وصف بالإثم في قوله: ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣] وفي قوله: «إنْ فِي صُدُورِهِمْ إلاَّ كِبْرٌ» قال ابن الخطيب: «وأيضاً قال قوم: الإنسان الحقيقي هو القلب»(٣) والباقون بإضافة «قلب» إلى ما بعده، أي كُلِّ قَلْبِ شخصٍ متكبرٍ. قال أبو عبيد: الاختيار الإضافة، لوجوه:

الأول: أن عبد الله قرأ: «على قلب كل متكبر»(٤) وهو شاهد لهذه القراءة.

الثاني: أن وصف الإنسان بالتكبر والجبروت أولى من وصف القلب بهما(٥). وقد قدر الزمخشري مضافاً في القراءة الأولى، أي على كُلّ ذِي قلبٍ متكبر، فجعل الصفة لصاحب(٦) القلب. قال أبو حيان: «ولا ضرورة تدعو إلى(٧) اعتقاد الحذف». قال شهاب الدين: بل ثَمَّ ضرورة إلى ذلك، وهو توافقُ القراءتين واحداً وهو صاحب القلب بخلاف عدم التقدير، فإنه يصير الموصوف في إحداهما القلب وفي الأخرى صاحبه(٨).

فصل

قال الزَّجَّاجُ: قوله: «الذين» تفسير لـ «المسرف المرتاب»، يعني(٩) هم الذين يجادلون في آيات الله أي في إبطالها بالتكذيب «بغير سلطان» حجة، «أتاهم»، «كبر مقتاً» أي كبر ذلك الجدال مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا. ودلت الآية على أنه يجوز وصف الله تعالى بأنه قد مقت بعض عباده، إلا أنها صفة التأويل في حق الله، كالغضب، والحياء، والعجب.

ثم بين أن هذا المقت كما حصل عند الله فكذلك حصل عند الذين آمنوا، قال القاضي: مقت الله إياهم يدل على أن كل فعل ليس بخلق الله لا أنّ كونه فاعلاً للفعل، وما قاله محال(١٠).

---

(١) قال بهذا الإمام الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٢٧ قال: «ويطبع الله كلام مستأنف».

(٢) من القراءة المتواترة ذكرها صاحب السبعة ٥٧٠، والإتحاف ٣٧٨ والنشر ٢/ ٣٦٥.

(٣) كذا في تفسيره، وفي النسختين جزء القلب وانظر تفسيره ٢٧/ ٦٣.

(٤) المختصر لابن خالويه ١٣٣.

(٥) لم أعثر على رأي أبي عبيد بعلّته هذه.

(٦) قال: ويجوز أن يكون على حذف المضاف، أي على كل ذي قلب متكبر تجعل الصفة لصاحب القلب. الكشاف ٣/ ٤٢٧ و ٤٢٨.

(٧) البحر ٧/ ٤٦٥.

(٨) الدر المصون ٤/ ٦٩٦.

(٩) قال: «ويجوز أن يكون موضع الذين رفعاً على معنى من هو مسرف مرتاب هم الذين يجادلون» معاني القرآن وإعرابه ٤/ ٣٧٤.

(١٠) انظر تفسير الإمام الفخر الرازي ٢٧/ ٦٣.

فصل

قد تقدم الكلام في الطبع[١]، والرَّيْنِ[٢]، والقَسوة[٣]، قال أهل السنة: قوله: «كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ» يدل على أن الكل مِنْ عند الله. وقالت المعتزلة: الآية تدل على أن هذا الطبع إنما حصل، لأنه كان في نفسه متكبراً جباراً. قال ابن الخطيب: وعند هذا تصِيرُ الآية حجة لكل واحد من الفريقين من وجه، وعليه من وجه آخر، والقول الثاني يخرج عليه رُجْحَانُ مذهبنا، وهو أنه تعالى يخلق دواعي الكبر والرياسة في القلب فتصير تلك الدواعي مانعة من حصول ما يدعو إلى الطاعة، والانقياد لأمر الله، فيكون القول بالقضاء والقدر حقاً[٤]، فيكون تعليل القلب بكونه متكبراً متجبراً باقياً، فثبت أن القول بالقضاء والقدر هو ما ينطبق عليه لفظ القرآن من أوله لي آخرة[٥]

فصل

قال مقاتل: الفرق بين المتكبر، والجبار، أن المتكبر عن قبول التوحيد، والجبار في غير حق. قال ابن الخطيب: كمال السعادة في أمرين: التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله فعلى قول مقاتل المتكبر كالمضاد للتعظيم لأمر الله، والجبروت كالمضاد للشفقة على خلق الله[٦].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: **﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً﴾**... الآية. قال المفسرون: إن فرعون قال لوزيره هامان: ابْنِ لي صرحاً، والصرح: البناء الظاهر الذي لا يخفى على الناظر، وإن بعُدَ. وأصله من التَّصريح، وهو الإظهار «لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ» طُرُقها[٧].

فإن قيل: ما فائدة هذا التكرير؟ ولو قيل: لَعَلِّي أبلغ أسباب السموات كان كافياً؟

فأجاب الزمخشري عنه فقال: «إنه إذا أبهم الشيء، ثم أوضح كان تفخيماً لشأنه، فلما أراد تفخيم السموات أبهمها ثم أوضَحَها»[٨].

---

(١) من قوله: **﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾** [النساء: ١٥٥].

(٢) من نفس السورة فقد قيل: إن الرين هو الطبع وقال مجاهد: الرين أسهل من الطبع والطبع أيسر من الإقفال والإقفال أشد من ذلك كله.

(٣) والقسوة الغلظة قال: «ثم قست قلوبكم من بعد ذلك».

(٤) في الرازي حيًّا.

(٥) الرازي ٢٧/ ٧٣.

(٦) السابق.

(٧) نقله البغوي في تفسيره ٦/ ٩٥.

(٨) كشافه ٣/ ٤٢٧.

فصل

اختلف الناس في أن فرعون هل قصد بناء الصرح ليصعد منه إلى السموات أم لا؟ قال ابن الخطيب: أما الظَّاهِرِيُّونَ من المفسرين فقد قطعوا بذلك، وذكروا حكاية طويلة في كيفية بناء الصرح. والذي عندي أن هذا بعيدٌ، والدليل عليه أن فرعون لا يخلو إما أن يقال: إنه كان مجنوناً أو عاقلاً[١]، فإن كان مجنوناً لم يجز من الله ـ عزّ وجلّ ـ أن يذكر حكاية كلامه في القرآن، وإن كان عاقلاً فنقول: إن كل عاقل يعلم ببديهة عقله أنه يتعذر في قدرة البشر وضع بناء[٢] يكون أرفع من الجبل العالِي ويعلم أيضاً ببديهة عقله أنه لا يتفاوت في البصر من حال السماء بين أن ينظر إليها من أسفل الجبال وبين أن ينظر إليها من أعلى الجبال، وإذا كان هذان العلمان بديهيَّان امتنع أن يقصد العاقل وضع بناء يصعد منه إلى السماء، وإذا كان فساداً[٣] معلوماً بالضرورة امتنع إسْنَادُهُ إلَى فِرْعَوْنَ. والذي عندي في تفسير هذه الآية، أنَّ فِرْعَوْنَ كان من الدهرية[٤]، وغرضه من هذا الكلام إيراد شبهة في نفي الصانع وتقريره أنه قال: إنّا لا نرى شيئاً نحكم عليه أنه إله العالم، فإنه لو كان موجوداً لكان في السماء، ونحن لا[٥] سبيلَ لنا إلى صعود السموات فكيف يمكننا أن نراه، ثم إنه لأجل المبالغة لبيان أنه لا يمكن الصعود إلى السماء قال: «يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ» والمقصود أنه لما عرف كل أحد أن هذا الطريق ممتنع كان الوصول إلى معرفة وجود الله بطريق الحِسِّ ممتنعاً. ونظيره قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍۢ﴾ [الأنعام: ٣٥] وليس المراد منه أن محمداً ـ عليه الصلاة والسلام ـ طلبَ نفقاً في الأرض، أو وضع سُلَّماً إلى السماء بل المعنى أنه لما عرف أن هذا المعنى ممتنع فقد عرف أنه لا سبيلَ لك إلى تحصيل ذلك المقصود، كذا ههنا غرض فرعون من قوله: «يا هامان ابن لي صرحاً» يعني أن الاطلاع إلى إله موسى لما كان لا سبيل إليه إلا بهذا الطريق، وكان هذا الطريق ممتنعاً، فحينئذ يظهر منه أنه لا سبيل إلى معرفة الإله الذي يثبته موسى.

واعلم أن هذه الشبهة فاسدةٌ؛ لأن طرق العلم ثلاثة: الحِسّ، والخَبَر، والنَّظَر، ولا يلزم من انتفاء طريق واحد ـ وهو الحِسّ ـ انتفاء المطلوب؛ وذلك لأن موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان قد بين لفرعون أن الطريقَ في معرفة الله تعالى إنما هو الحُجَّة، والدليل كما قال: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦] ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾

---

(١) في الرازي من المجانين أو كان من العقلاء.

(٢) كذا في الرازي وفي ب «ما» دون «بناء».

(٣) في الرازي فساد هذا وفي ب فساده.

(٤) الذين ينسبون كل شيء وقع ويقع إلى الطبيعة والدهر، ولا شك أن هذا المذهب باطل وفوضى.

(٥) كذا في الرازي وفي ب فلا.

[المزمل: ٩] إلا أن فرعونَ بِخُبْثِهِ ومَكْرِهِ تغافل عن ذلك الدليل، وألقى إلى الجُهّال أنه لما كان لا طريق إلى الإحساس بهذه الإله وجب نفيه[١].

قوله: «أَسْبَابَ السَّمَوٰتِ»، فيه وجهان:

أحدهما: أنه تابع «للأسباب» قبله، بدلاً أو عطف بيان.

والثاني: أنه منصوب[٢] بإضمار أعني. والأول أولى[٣]؛ إذ الأصْلُ عدمُ الإضمار.

قوله: «فَأَطَّلِعَ» العامة على رفعه عطفاً على أبلغ فهو داخل في حيز الترجي، وقرأ حفص في آخرين بنصبه[٤] وفيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه جواب الأمر في قوله «ابن لي» فنصب بأن مضمرة بعد الفاء في جوابه على قاعدة البصريين كقوله:

٤٣٤٠ ـ يا نَاقُ سِيرِي عَنَقاً فَسِيحا إِلَى سُلَيْمَانَ فَنَسْتَرِيحَا[٥]

وهو أوفق لمذهب البصريين.

الثاني: أنه منصوب، قال أبو حيان: عطفاً على التوهم؛ لأن خبر «لعل» جاء مقروناً «بأن» كثيراً في النظم، وقليلاً في النثر، فمن نصب توهم أن الفعل المضارع الواقع خبراً منصوب «بأن» والعطف على التوهم كثير وإن كان لا ينقاس[٦].

الثالث: أن ينتصب على جواب الترجي في لعل، وهو مذهب كوفي استشهد أصحابه بهذه القراءة وبقراءة نافع ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ عَبَسَ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ [عبس: ٣ ـ ٤] بنصب «فتنفعه» جواباً لـ «لعله». وإلى هذا نحا الزمخشري، قال: «تشبيهاً للترجي بالتمني»[٧]. والبصريون يأبون ذلك ويخرجون القراءتين على ما تقدم.

وفي سورة عبس[٨] يجوز أن يكون جواباً للاستفهام في قوله: «وَمَا يُدْرِيكَ» فإنه

---

(١) وانظر تفسير الرازي ٢٧/ ٦٥ و ٦٦. (٢) في ب منسوب بالسين.

(٣) قال بالأول ابن الأنباري في البيان ٢/ ٣٣١ والعكبري في التبيان ١١٢٠ والسمين في الدر ٤/ ٦٩٦ وبالثاني السمين في مرجعه السابق.

(٤) من القراءة المتواترة وممن قرأ بها أيضاً الأعرج وأبو حيوة، وزيد بن علي، والزعفراني ذكره أبو حيان في البحر ٧/ ٤٦٥.

(٥) من الأبيات المشهورة في عالم النحو وهو من الرجز لأبي النجم العجلي. والعنق محركة ضرب من السير والفسيح الواسع، وسليمان هو سليمان بن عبد الله الخليفة. والشاهد: «فنستريحا» حيث نصب المضارع بعد الفاء على جواب الأمر وهو «سيري». وانظر معاني الفراء ١/ ٤٧٨ و ٢/ ٧٩، والكتاب ٣/ ٣٥، والمقتضب ٢/ ١٣، وشرح ابن يعيش على المفصل ٧/ ٢٦، والهمع ١/ ١٨٢، ٢/ ١٠، والتصريح ٢/ ٢٣٩، والأشموني ٣/ ٣٠٢، والمقتصد ١٠٦٩، والرد على النحاة ١١٥، والدر المصون ٤/ ٥٩٦.

(٦) قاله في البحر ٧/ ٤٦٦. (٧) الكشاف ٣/ ٤٢٧ و ٤٢٨.

(٨) الآيتان ٣و ٤ السابقتان.

مترتبٌ عليه معنًى. وقال ابن عطية وابن جبارة الهذلي على جواب التمني[١]، وفيه نظر؛ إذ ليس في اللفظ تمن، إنما فيه ترجٍّ، وقد فرق الناس بين التَّمنِّي والتَّرجِّي، بأن الترجي لا يكون إلا في الممكن عكس التمني فإنه يكون فيه وفي المستحيل كقوله:

٤٣٤١ ـ لَيتَ الشَّبابَ هُوَ الرَّجِيعُ عَلَى الفَتَى والشَّيبُ كَانَ هُوَ البَدِيءَ الأَوَّلُ[٢]

قوله: «وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ»، قرىء: «زَيَّنَ» مبنياً للفاعل[٣]، وهو الشيطان، وتقدم الخلاف في «صد عن السبيل» في الرعد[٤]، فمن بناه للفاعل حذف المفعول أي صد قومه عن السبيل، (وهو[٥] الإيمان). قالوا: ومِنْ صَدِّه قوله: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ [طه: ٧١]، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [محمد: ١] وقوله: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الفتح: ٢٥] وابن وثاب: «وصِدَّ» بكسر الصاد[٦]، كأنه نقل حركة الدال الأولى إلى فاء الكلمة بعد توهم سلب حركتها، وقد تقدم ذلك في نحو: ردَّ[٧]، وأنه يجوز فيه ثلاث لغات الجائزة في قِيلَ وبِيعَ. وابن إسحاق وعبد الرحمن بن أبي بكرة: وَصَدٌّ[٨] ـ بفتح الصاد، ورفع الدال منونة ـ جعله مصدراً منسوقاً[٩] على «سُوءُ عَمَلِهِ»، أي زين له الشيطان سُوءَ العَمَلِ والصَّدَّ، «وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ» أي وما كيده في إبطال ما جاء به موسى إلا في خسارةٍ وهَلاَكٍ. والتَّبَابُ الخِسَارة، وقد تقدم في قَوْلِهِ «غَيْرَ تَتْبِيبٍ»[١٠].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٤٦٥.

(٢) من تمام الكامل، ولم أعرف قائله، والرجيع: العرق، سمي رجيعاً لأنه كان ماء فصار عرقاً. والبيت تدور فكرته في تمني الشباب بعد زواله وبعد حلول الكبر. وشاهده: أن «ليت» لا تستعمل إلا في الأمر المستحيل والممكن معاً وهي هنا في المستحيل. وقد تقدم..

(٣) من القراءة الشاذة، وقد نقلها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٢٨ وأبو حيان في البحر المحيط ٧/ ٤٦٦.

(٤) من الآية ٣٣ **﴿بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل﴾** فقرأ هنا وفي الرعد حفص عن عاصم وحمزة والكسائي بالبناء للمجهول والباقون بفتح الصاد والدال مشددة وهي متواترة، وانظر النشر ١/ ٣٦٥، ٣٦١ وحجة ابن خالويه ٣١٥.

(٥) ما بين القوسين سقط من ب وهو كلام من الرازي ٢٧/ ٦٧.

(٦) نقلها أبو حيان في بحره ٧/ ٤٦٦.

(٧) من إخلاص الضم وإخلاص الكسر والإشمام.

(٨) قراءة شاذة غير متواترة ذكرها ابن خالويه في مختصره ١٣٠.

(٩) أي معطوفاً.

(١٠) من الآية ١٠٣ **﴿وما تزيدونني غير تتبيب﴾**. والتَّتبيب هو التَّخسير. وانظر اللباب ميكروفيلم.

يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ
وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠
أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي
ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ
لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا
مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ
تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ**﴾ أي طريق الهدى «يَا قَوْمِ إِنَّمَا هذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا متاعٌ» أي متعةٌ تنتفعون بها مرة ثم تنقطع «وإِنَّ الآخِرة هِيَ دارُ القَرار» التي لا تزول، ثم قال: «مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يُجْزَى إلاَّ مِثْلَهَا، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ» تقدم الخلاف في قوله: «يدخلون الجنة» في سورة النساء(١). وقال مقاتل: لا تبعة عليهم فيما يُعْطَوْنَ في الجنة من الخيرات.

واختلفوا في تفسير قوله: «بِغَيْرِ حِسَابٍ» فقيل: لما كان لا نهاية لذلك الثواب قيل: بغير حساب، وقيل: لأنه تعالى معطيهم ثواب آبائِهِمْ، ويضم إلى ذلك الثواب من التفضيل ما يخرج من الحساب واقع في مقابلة: «إلاَّ مثلها» يعني أن جزاء السيئة له حساب وتقدير، لئلا يزيد على الاستحقاق فأما جزاء العمل الصالح فبغير تقدير وغير حساب، وهذا يدل على أن جانب الرحمة والفضل راجحُ على جانب العقاب، فإذا عارضنا عُمُومَاتِ الوَعِيدِ بعُمُومَاتِ الوَعْد وجب أن يكون الترجيحُ لجانبِ عُمومَاتِ الوعد، وذلك يهدم قواعد المعتزلة(٢).

فصل

احتج أهل السنة بهذه الآية، فقالوا: قوله: «وَمنْ عَمِلَ صَالِحاً» نكرة في معرض الشرط في جانب الإثبات(٣) فجَرَى مَجْرَى أن يقال: «من ذكر كلمة أو من خطا خطوة فله كذا» فإنه يدخل فيه أنّ من آمن بتلك الكلمة أو بتلك الخطوة مرة واحدة فكذلك ها هنا

---

(١) يشير إلى قوله عز وعلا من تلك السورة: ﴿**ومن يعمل من الصّالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً**﴾. الآية ١٢٤، فقرأ نافع، وابن عامر، وحمزة والكسائي بالبناء للفاعل في هذه السورة وفي النساء والباقون بضم الياء على البناء للمجهول بخلاف عن البعض في بعض المواقع وهي قراءة تواترية انظر السبعة لابن مجاهد ٢٣٧، ٢٣٨ و ٥٧١ والنشر ٢/ ٣٦٥.

(٢) الرازي في تفسيره ٢٧/ ٦٩. (٣) وتدل على العموم والشمول.

وجب أن يقال: كُلُّ من عمل صالحاً واحداً من الصالحات فإنه يدخل الجنة، ويُرْزَقُ فيها بغير حساب، والآتي بالإيمان والمواظب على التوحيد والتنزيه والتقديس مدة ثمانين سنة قد أتى بأعظم الطاعات[١]، وبأحسن الطاعات، فوجب أن يدخل الجنة، والخصم يقول: إنه يَخْلُدُ في النار أَبَدَ الآباد، وذلك مخالف لهذا النص الصريح. قالت المعتزلة: إنه تعالى شرط فيه كونه مؤمناً، ومرتكب الكبيرة عندنا ليس بمؤمن، فلا يدخل في هذا الوعد والجواب ما تقدم في قوله: «يُؤْمِنُون بالغَيْبِ» فإن صاحب الكبيرة مؤمن فَسَقَطَ كلامُهُمْ[٢].

فصل

دلت هذه الآية على اعتبار المماثلة في الشريعة، وأن الزائد على المِثْلِ غير مشروع، وليس في الآية بيان أن تلك المماثلة معتبرةٌ في أي الأمور، فلو حملناها على رعاية المماثلة في جميع الأمور صارت الآية عامةً خاصة. وقد ثبت في أصول الفقه أن التعارض إذا وقع بين الإجمال والتخصيص كان الأول أولى، فوجب أن تحمل هذه الآية على رعاية المماثلة من كل الوجوه إلا ما خَصّهُ الدليل وإذا ثبت ذلك بني عليه أحكامٌ كثيرة من الجنايات على النفوس والأعضاء والأموال؛ لأنه تعالى بين أنَّ جزاءَ السيئة مقصورٌ على المِثْلِ، وبين أن جزاء الحسنة ليس مقصوراً على المِثْلِ بل هو خارج عن الحساب[٣].

قوله تعالى: **﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُم إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾**. قوله تعالى: **﴿وَيَا قَوْمِ﴾** قال الزمخشري: فَإن قُلْتَ: لِمَ جاء بالواو في النداء الثالث دون الثاني؟ قلتُ: لأَن الثانيَ داخل على كلام هو بيان للمجمل، وتفسير له، فأعطي الداخل عليه حكمه في امتناع دخول الواو. وأما الثالث فداخلٌ على كلام ليس بتلك المَثَابَةِ، أي كلام مباين للأول والثاني، فَحَسُنَ إيرادُ الواو العاطفة فيه[٤]. وكرر النداء لأن فيه زيادةَ تنبيه لهم وإيقاظاً من سنة الغفلة، وأظهر أن له بهذا مزيدَ اهتمامٍ، وعلى أُولئك الأقوام فرط شفقة.

قوله: «وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ» هذه الجملة مستأنفة، أخبر عنهم بذلك بعد استفهام عن دعاء نفسه ويجوز أن يكون التقدير: وما لكم تدعونني إلى النار، وهو الظاهر، ويضعف أن تكون الجملة حالاً، أي ما لكم أدعوكم إلى النجاة حال دعائكم إياي إلَى النار[٥].

---

(١) كذا في النسختين وفي الرازي: «الصالحات».

(٢) انظر الرازي المرجع السابق.

(٣) قاله الإمام الرازي بالمعنى في تفسيره ٦٩/٢٧.

(٤) الكشاف ٣/ ٤٢٩.

(٥) قال بهذه الإعرابات السمين في الدر المصون ٦٩٨/٤.

قوله: «تَدْعُونني» هذه الجملة بدل من «تَدْعُونَنِي» الأولى على جهة البيان لها[١]. وأتى في قوله «تَدْعُونَنِي» بجملة فعلية؛ ليدل على أن دعوتهم باطلة لا ثبوت لها، وفي قوله: «وَأَنَا أَدْعُوكُمْ» بجملة اسميَّة؛ ليدل على ثُبُوتِ دعوته وتَقْوِيَتِهَا[٢].

فصل

معنى قوله: «مَا لَكُمْ» كقولك: ما لي أراك حزيناً، أي ما لك، يقول: أخبروني عنكم، كيف هَذِهِ الحال؟ أدعوكم إلى النجاة من النار بالإيمان بالله، وتدعونني إلى النار بالشرك الذي يُوجِبُ النار، ثم فسر فقال «تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ». والمراد بنفي العلم[٣] نفي الإله كأنه قال: وَأَشْرك به ما ليس لي بإله، وما ليس إله كيف يُعْقَلُ جَعْلُهُ شريكاً للإله؟

ولما بين أنهم يدعونه إلى الكفر بيَّنَ أنه يدعوهم إلى الإيمان بالعزيز الغَفَّارِ، «العزيز» في انتقامه ممن كفر، «الغفار» لذنوب أهل التوحيد. فقوله: «العَزِيز» إشارة إلى كونة كامل القدرة، وأما فرعون فهو في غاية العجز، فكيف يكون إلهاً؟ وأما الأصنام فهي حجارة منحوتة فكيف يعقل كونها آلهة؟ وقوله: «الغَفَّار» إشارة إلى أنهم يجب أن لا يَيْأَسُوا من رحمة الله بسبب إصرارهم على الكفر مُدّةً مَدِيدَة فَإنَّ إله العَالَم، وإن كان عَزِيزاً لا يُغْلَبُ، قادراً لا يعارض، لكنه غفار يغفر كفر سبعينَ سنة بإيمان ساعةٍ واحدةٍ[٤].

قوله: «لاَ جَرَمَ» تقدم الخلاف في «لاَ جَرَمَ» في سورة هود في قوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ [هود: ٢٢]، وقال الزمخشري هنا: «ورُوِيَ عن بعض العرب: لا جُرْمَ أنه يفعل كذا ـ بضم الجيم وسكون الراء ـ بمعنى: لا بُدَّ. وَفَعَلٌ وَفُعْلٌ أخوان كَرَشَدٍ، وَرُشْدٍ، وَعَدَمٍ، وَعُدْمٍ»[٥]. وشأنه على مذهب البصريين أن يجعل رداً لما دعاه إليه قَوْمُهُ[٦].

و «جَرَمَ» فَعَلٌ بمعنى حَق، و «أَنَّ» مع ما في حيّزها فاعله، أي وَجَبَ بُطْلاَنُ دَعْوَتِهِ، أو بمعنى كَسَبَ من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ﴾ [المائدة: ٢] أي بسبب ذلك الدعاء إليه بطلان دعوته بمعنى أنه ما حصل من ذلك إلا ظهور بطلان دعوته[٧].

---

(١) قاله العكبري في التبيان ١١٢٠.

(٢) بالمعنى من البحر المحيط ٧/ ٤٦٧، وباللفظ من الدر المصون ٤/ ٦٩٨.

(٣) في الرازي بنفي المعلوم.

(٤) انظر تفسير الإمام الفخري الرازي ٢٧/ ٧٠ والكشاف للعلامة الزمخشري ٣/ ٢٤٩.

(٥) الكشاف ٣/ ٤٢٩.

(٦) أي ليس الأمر كما تصفون ثم يبتدىء ما بعده.

(٧) هذا رأي الرازي في تفسيرة ٢٧/ ٧٠ آخذاً إياه من الكشاف ٣/ ٤٢٩.

ويجوز أن يقال إنّ «لاَ جَرَمَ» نظير «لاَ بُدَّ» فَعَلَ من الجَرْم ـ وهو القطع ـ كما أن «بُدًّا» فعل من التبديد وهو التفريق، وكما أن معنى: لاَ بُدَّ أنكَ تَفْعَلُ كذا بمعنى لاَ بُدَّ لك من فِعْلِهِ، فكذلك «لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ» أي لاَ قَطْعَ لذلك بمعنى أنهم أبداً يستحقون (العقاب)[١] النار لا انقطاع لاسْتِحْقَاقِهِمْ، ولا قطع لبُطْلاَن دعوة الأصنام أي لا تزال باطلةً لا ينقطع ذلك فينقلب حقًّا[٢].

فصل

قال البغوي: «لاَ جَرَمَ» حقاً «أَنَّ مَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ» أي للدين دعوة في الآخرة قال السدي (رحمه الله)[٣] لا يستجيب لأحد في الدنيا ولا في الآخرة يعني ليست[٤] له استجابة دعوة، فسمى[٥] استجابه الدعوة دعوة، إطلاقاً لاسم أحد المضافين على الآخر، كقوله: وجزاء سيئة سيئه مثلها. وقيل[٦]: ليستْ له دعوة أي عبادة في الدنيا؛ لأن الأوثانَ لا تَدَّعِي الربوبية، ولا تدعو إلى عبادتها وفي الآخرة تتبرأ من عابديها.

ثم قال: «وأَنَّ مَرَدَّنَا» أي مرجعنا «إِلَى اللَّهِ» فيجازي كُلاً بما يَسْتَحِقُّهُ، «وَأَنَّ المُسْرِفِينَ» المشركين «هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ». قاله قتادة. وقال مجاهد: السفاكين الدماء[٧].

ولما بالغ مؤمن آل فرعون في هذا البيان ختم كلامه بخاتِمَةٍ لطيفة فقال: «فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُم» وهذا كلام مبهم يوجب التخويف، وهذا يحتمل أن يكون المراد منه أن هذا الذكر يحصل في الدنيا أي عند الموت، وأن يكون في القيامة عند مشاهدة العذاب حين لا ينفعكم الذكر[٨].

قوله: «وَأُفَوِّضُ» هذه مستأنفة. وجوز أبو البقاء أن تكون حالاً من فعال «أقولُ»[٩].

وفَتَحَ نافعٌ وأبو عَمْرو الياء من: أمري، والباقون بالإسكان[١٠].

فصل

لما خوفهم بقوله: «فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ» توعدوه وخوفوه فعول في دفع

(١) زيادة من الأصل عن ب والكشاف والرازي.
(٢) قال بهذا الرأي أيضاً صاحب الكشاف وتبعه الرازي انظر المرجعين السابقين.
(٣) زيادة من (أ) فقط.
(٤) في ب ليس وانظر البغوي ٦/ ٩٦.
(٥) قاله الرازي ٢٧/ ٧١.
(٦) نقله البغوي في مرجعه السابق.
(٧) الرازي السابق.
(٨) السابق.
(٩) التبيان ١١٢٠.
(١٠) قراءة نافع وأبي عمرو لم أجدها في المتواتر من كتب القراءات، فهي من الأربع فوق العشر المتواترة فقد ذكرها صاحب الإتحاف ٣٧٩ قال: «وفتح ياء «أمري إلى الله» نافع وأبو عمرو وأبو جعفر» كما ذكرها الإمام الرازي في تفسيره ٢٧٥/ ٧١.

تخويفهم وكيدهم ومكرهم على الله تعالى بقوله: «وأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ» وهو إنما تعلم هذه الطريقة من موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ حين خوّفه فرعون بالقتل فرجع موسى في دفع ذلك الشر إلى الله تعالى فقال: «إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحِسَابِ». ثم قال: «إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالعِبَادِ». أي عالم بأحوالهم يعلم المحقَّ من المُبطل[١].

قوله: «فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا». قال مقاتل: لما قال هذه الكلمات قصدوا قتله فهرب منهم إلى الجبل فطلبوه، فلم يهتدوا عليه. وقيل: المراد بقوله: فوقاه الله سيئات ما مكروا أنهم قصدوا إدخاله في الكفر، وصرفه عن الإسلام، فوقاه الله من ذلك. والأول أولى، لأن قوله بعد ذلك: «وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ العَذَابِ» لا يليق إلا بالوجْهِ الأول[٢].

وقرأ حمزة وَحِيقَ ـ بكسر الحاء[٣] ـ وكذلك في كل القرآن والباقون بالفتح.

قال قتادة: نجا مع مُوسَى، وكان قِبْطِيًّا. «وَحَاقَ» نزل «بآل فرعون سوء العذاب» الغرق في الدنيا، والنار في الآخرة[٤].

قوله: «النَّارُ» الجمهور على رفعها، وفيه ثلاثةُ أوجهُ:

أحدها: أنه بدل من: «سوء العذاب» قاله الزجاج[٥].

الثاني: أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو أي سُوء العذابِ النارُ[٦]، لأنه جواب لسؤال مقدر؛ و «يُعْرَضُونَ» على هذين الوجهين يجوز أن يكون حالاً من «النار»، ويجوز أن يكون حالاً من «آل فرعون».

الثالث: أنه مبتدأ، وخبره: «يُعْرَضُونَ»[٧].

وقُرِىءَ النَّارَ[٨] منصوباً، وفيه وجهان:

أحدهما: أنه منصوب بفعل مضمر يفسره يعرضون من حيث المعنى أي يصلونَ النارَ يُعْرَضُونَ عليها كقوله: ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ﴾[٩] [الإنسان: ٣٢].

---

(١) السابق. (٢) الرازي ٢٧/ ٧٣.
(٣) لم أجد هذه القراءة عن حمزة في المتواتر ولا في الشواذ إلا ما حكاه الإمام الرازي في مرجعه السابق.
(٤) انظر البغوي ٦/ ٩٦ والبحر ٧/ ٤٦٨.
(٥) معاني القرآن وإعرابه ٤/ ٣٧٦ وهو أحد وجهين قال بهما أبو إسحاق.
(٦) السابق. وانظر أيضاً البيان لابن الأنباري ٢/ ٣٣، ومعاني الأخفش ٦٧٧، وقد قال هو وابن الأنباري بالأول أيضاً.
(٧) البيان ٢/ ٣٣٢ والدر المصون ٤/ ٦٩٩، وقال به أبو البقاء هو والأول ١١٢٠ أيضاً.
(٨) شاذه قراءةً، قياسية عربيةً ولم تعز في البحر ٧/ ٤٦٨ ولا في الكشاف ٣/ ٤٣٠.
(٩) وانظر التبيان ١١٢٠.

الثاني: أن ينتصب على الاختصاص، قال الزمخشري[١]: فعلى الأول لا محل «لِيُعْرَضُونَ»؛ لكونه مفسراً، وعلى الثاني هو حال كما تقدم.

فصل

دلت هذه الآية على إثبات عذاب القبر؛ لأن الآية تقتضي عرض النار عليهم غُدُوًّا وعَشِيًّا، وليس المراد منه يوم القيامة، لقوله بعده «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ»، وليس المراد منه أيضاً الدنيا؛ لأن عرض النار عليهم غدوًّا وعشياً ما كان حاصلاً في الدنيا فثبت أن هذا العرض إنما حصل بعد الموت، وقبل القيامة[٢]. وذلك يدل على إثبات عذاب القبر في حق هؤلاء، وإذا ثبت في حقهم ثبت في غيرهم لأنه لا قائل بالفَرْقِ.

فإن قيل: لا يجوز أن يكون المراد من عرض النار عليهم غدواً وعشياً عرض القبائح[٣] عليهم في الدنيا لأن أهل الدين إذا ذكروا لهم الترغيب والترهيب، وخوّفوهم بعذاب الله فقد عرضوا عليهم النار. ثم في الآية ما يمنع حمله على عذاب القبر وبيانه من وجهين:

أحدهما: أن ذلك العذاب يجب أن يكون دائماً غير منقطع. وقوله: «يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا» يقتضي أن لا يحصُلَ ذلك العذاب إلا في هذين الوقتين فثبت أن هذا لا يمكن حمله على عذاب القبر.

الثاني: أن الغدوةَ والعشيةَ إنما يحصُلان في الدنيا، أما في القيامة[٤] فلا وجود لهما، فثبت أنه لا يمكن حمل هذه الآية على عذاب القبر.

والجواب على الأول: أن في الدنيا إذا عرض عليهم الكلمات التي تذكرهم أمر النار، ولم يعرض عليهم نفس النار، وهذا لظاهر الآية، وارتكاب المجاز، وأما قولهم: الآية تدل على حصول العذاب في هذين الوقتين وذلك لا يجوز فالجواب لِمَ لا يجوز أن يكتفى في القبر بإيصال العذاب إليه في هذين الوقتين، ثم عند قيام القيامة يُلْقَى في النار، فيدوم عذابه حينئذٍ[٥]، وأيضاً لا يمتنع أن يكون ذكر الغَدْوَةِ والعشية كناية عن الدوام، كقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢] وأما قولهم: إنه ليس في القبر والقيامة غدوة وعشية قلنا: لِمَ لا يجوز أن يقال: إن (عند) حصول هذين الوقتين لأهل الدنيا يعرض عليهم العذاب[٦].

(١) الكشاف ٢/ ٤٣٠.
(٢) كذا في الرازي و (ب). وفي (أ) وقيل بدل وذلك.
(٣) كذا في النسختين وفي ب والرازي: النصائح.
(٤) في الرازي بدل القيامة القبر.
(٥) في الرازي بعد ذلك.
(٦) وانظر في هذا الفصل كله تفسير الرازي ٢٧/ ٧٨ مع تغيير طفيفٍ في العبارة.

فصل

قال ابنُ مَسعُود ـ رضي الله عنه ـ أرواح آل فرعون في أجْوَاف طيرٍ سُودٍ يعرضون على النار كل يوم مرتين تغدو وتروح إلى النار، يقال: يا آل فرعون هذه منازلكم. وقال قتادة، والسدي والكلبي: تعرض روح كل كافر على النار بُكْرَةً وعَشِيًّا ما دامتْ الدنيا[١].

وروى ابنُ عُمَرَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُمَا ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: إن أحَدَكُم إذَا مَاتَ عُرِضَ عليه مَقْعَدُهُ بالغَدَاةِ والْعَشِيِّ إنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَإنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، فيقال: هذا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللَّهُ إلَيْهِ يَوْمَ القِيَامَةِ[٢].

قوله: «وَيَوْمَ تَقُومُ» فيه ثلاثةُ أوجهٍ:

أظهرها: أنه معمول لقول مضمر، وذلك القول المضمر محكي به الجملة الأمرية من قوله: أَدْخِلُوا، والتقدير: يقال لهم يوم تقوم الساعة: أَدْخِلُوا[٣].

الثاني: أنه منصوب «بأدْخِلُوا»[٤] أي أدخلوا يوم تقوم، وعلى هذين الوجهين، فَالْوَقْفُ تامٌّ على قوله: «وَعَشِيًّا».

الثالث: أنه معطوف على الظرفين قبله، فيكون معمولاً لِيُعْرَضُونَ، والوقف على هذا على قوله: «الساعة». و «أدخلوا» معمول لقول مضمر، أي يقال لهم كذا[٥]. وقرأ الكسائيُّ وحمزةُ ونافعٌ وحفصٌ أدْخِلُوا بقطع الهمزة وكسر الخاء، أي يقال للملائكة أدخلوا، أَمْراً من «أَدْخَلَ» «فآل فرعون» مفعولٌ أول، و «أشد العذاب» مفعول ثانٍ، والباقون بهمزة وصل، من دَخَلَ يَدْخُلُ، فآل فِرْعونَ منادَى حذف حرف النداء منه و «أَشَدّ» منصوب به، إما ظرفاً، وإما مفعولاً به[٦]. أي ادخلوا يا آلَ فِرْعَون في أشد العذاب. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يريد ألوان العذاب، غير العذاب الذي كانوا يعذبون به منذ غرقوا.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ

---

(١) البغوي ٦/٩٦.

(٢) أخرجه الإمام مالك في الموطأ باب الجنائز رقم ٤٨ والإمام البغوي في المرجع السابق، وأحمد في مسنده ٢/١٦، ٥١، ١١٣، ١٢٣.

(٣) قاله السمين في الدر ٤/٦٩٩ والأخفش في المعاني ٦٧٨ والعكبري في التبيان ١٠٢١.

(٤) قاله ابن الأنباري في البيان ٢/٣٣٢. (٥) السمين في الدر ٤/٦٩٩.

(٦) السابق وانظر إتحاف ٣٧٩ ومشكل إعراب القرآن لمكي ٢/٢٦٦ والكشف له أيضاً ٢/٢٤٥ وانظر أيضاً الحجة في القراءت السبعة لابن خالويه ٣١٥.

رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وإِذْ يَتحَاجُونَ﴾ في العامل في «إذْ» ثلاثةُ أوجه:

أحدها: أنه معطوف على «غُدُوًّا» فيكون معمولاً ليُعْرَضُونَ أي يعرضون على النار في هذه الأوقات كلها قاله أبو البقاء(١).

الثاني: أنه معطوف على قوله: «إذِ القُلُوبُ لَدَى الحَنَاجِرِ» قاله الطبري(٢). وفيه نظر؛ لبُعْد ما بينهما، ولأن الظاهر عودُ الضمير من «يَتَحَاجُونَ» إلى آل فرعون.

الثالث: أنه منصوب بإضمار اذكر(٣).

قوله: «تبعاً» فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه اسم جَمْع لِتَابِعٍ، ونحوه: خَادِمٍ وخَدَمٌ، وغَائبٌ وغَيَبٌ وآدمٌ وأَدَمٌ(٤). قال البغوي: والتَّبَعُ يكونُ واحداً وجَمعاً في قول أهل البَصْرة، واحده تابع. وقال الكوفيون: هو جمع لا واحد له وجمعه أتباع(٥).

والثاني: أنه مصدر واقع موقع اسم الفاعل أي تابعين(٦).

والثالث: أنه مصدر أيضاً ولكن على حذف مضاف أي ذَوِي تَبَعٍ(٧).

قوله: «نَصِيباً» فيه ثلاثةُ أوجه:

أحدها: أن ينتصب بفعل مقدر به عليه قوله: «مُغْنُونَ» تقديره: هل أنتم دَافِعُونَ عَنَّا(٨).

الثاني: أن يُضَمَّن مُغْنُونَ معنى حَامِلِينَ(٩).

الثالث: أن ينتصب على المصدر، قال أبو البقاء: كَما كَانَ «شَيءٌ» كذلك، ألا ترى إلى قوله: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٠] «فَشَيْئاً» في موضع «غِنًى» فكذلك «نصيباً» و «من النار» صفة لـ «نصِيباً»(١٠).

---

(١) ذكره في التبيان ١٠٢١. (٢) جامع البيان له ٤٧/٢٥.
(٣) البحر المحيط ٦/ ٤٦٩ والتبيان المرجع السابق.
(٤) قاله الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٣٠ والسمين في الدر ٤/ ٧٠٠، والأخفش في المعاني ٢/ ٦٧٩.
(٥) نقله في معالم التنزيل ٦/ ٩٧. (٦) قاله العكبري في التبيان ١٠٢١.
(٧) قاله الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٣٠. (٨) قرره العكبري في المرجع السابق.
(٩) أخذه من أبي حيان في بحره ٧/ ٤٦٦. (١٠) التبيان له المرجع السابق.

قوله: «إِنَّا كُلٌّ فِيهَا» العامة على رفع «كُلٌّ» ورفعه على الابتداء و «فِيهَا» خبره والجملة خبر «إنَّ»، وهذا كقوله في آل عمران: ﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلُّهُ للَّهِ﴾(١) [آل عمران: ١٥٤]، في قراءة أبي عمرو. وقرأ ابن السّميْقَع وعيسى بْنُ عُمَرَ بالنصب، وفيه ثلاثةُ أوجه:

أحدها: أن يكون تأكيداً لاسم إن، قال الزمخشري: توكيد لاسم إن، وهو معرفة، والتنوين عوض من المضاف إليه، يريد: إنا كُلَّنَا فيها(٢) انتهى، يعني فيكون «فيها» هو الخبر، وإلى كونه توكيداً ذهب ابْنُ عطيةَ أيضاً(٣).

ورد ابن مالك هذا المذهب فقال في تَسْهِيلِهِ: «ولا يستغني بنية إضافته خلافاً للزمخشري»(٤).

قال شهاب الدين: «وليس هذا مذهباً للزمخشري وحده بل هو منقول عن الكوفيين أيضاً»(٥).

والثاني: أن تكون منصوبة على الحال، قال ابن مالك: والقول المَرْضِيُّ عندي أنّ «كُلاًّ» في القراءة المذكورة منصوبة على الحال من الضمير المرفوع في «فِيهَا» و «فيها» هو العامل؛ وقد قدمت عليه مع عدم تصرفه، كما قدمت في قراءة مَنْ قَرَأَ: ﴿والسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٍ﴾(٦) [الزمر: ٦٧].

وفي قول النَّابِغَةِ:

٤٣٤٢ ـ رَهْطُ ابْنِ كُوزِ مُحْقِبِي أَدْرَاعِهِمْ ... فِيهِمْ وَرَهْطُ رَبِيعَةَ بْنِ حُذَارِ(٧)

وقال بعض الطائيين:

٤٣٤٣ ـ دَعَا فَأَجَبْنَا وَهُوَ بَادِيَ ذِلَّةً ... لَدَيْكُمْ وَكَانَ النَّصْرُ غَيْرَ بَعِيدِ(٨)

---

(١) وانظر السبعة ٢١٨ وحجة ابن خالويه ١١٥.

(٢) في الكشاف: إنا كلنا أو كنا باللفظين وانظر الكشاف ٣/ ٤٣٠.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٤٦٩.

(٤) التسهيل ١٦٤.

(٥) الدر المصون ٤/ ٧٠١.

(٦) وانظر البحر المحيط ٧/ ٤٦٩.

(٧) من تام الكامل له. والشاهد: نصب «محقبي» على الحال من الجار والمجرور في «فيهم»، وقد تقدمت الحال على عاملها وصاحبها المجرور بذلك العامل والعامل في الحال الجار والمجرور وما يتعلق به وقد تقدم.

(٨) من الطويل مجهول القائل، رواه في البحر: «غير قريب» وفي الأشموني:

بنا عاذ عوف وهو بادي ذلة ... لديكم فلم يعدم ولاء ولا نصرا

وشاهده: تقدم الحال وهو قوله «بادي» على صاحبها المجروو بإضافة الظرف وهو «كم» في «لديكم». وانظر البحر المحيط ٧/ ٤٦٩، والأشموني ٢/ ١٨٢، والتصريح ١/ ٣٨٥ وشرح ابن الناظم بدر الدين ١٣١، وأوضح المسالك ١٢٠ والدر المصون ٤/ ٧٠٢.

يعني بنصب «بادي». وهذا هو مذهب الأخفش، إلا أن الزمخشري منع من ذلك، قال ـ رحمه الله ـ: فَإن قُلْتَ: هل يجوز أن يكون «كلاً» حالاً، قد عمل فيهِ «فيها»؟ قُلْتُ: لا؛ لأن الظرف لا يعمل في الحال متقدمةً كما يعمل في الظرف متقدماً، تقول: كُلَّ يَوْم لَكَ ثَوْبٌ، ولا تقول: قائماً في الدَّارِ زَيْدٌ[1]، قال أبو حيان: وهذا الذي منعه أجازه الأخفش، إذا توسعت الحال، نحو: زيدٌ قائماً في الدار، وزيد قائماً عندك. والمثال الذي ذكره ليس مطابقاً لما في الآية؛ لأن الآية تقدم فيها المسند إليه الحكم وهو اسم إن، وتوسطت الحال إذا قلنا: إنها حال، وتأخر العامل فيها. وأما تمثيله بقوله: «ولا تقول قائماً في الدَّارِ زيْد»[2] فقد تأخر فيه المسند والمسند إليه، وقد ذكر بعضهم: أن المنع في ذلك إجماع من النحاة[3].

قال شهاب الدين: الزمخشري منعه صحيح؛ لأنه ماشٍ على مذهب الجمهور وأما تمثيله بما ذكر فلا يضره[4]؛ لأنه في محل المنع، فعدم تجويزه صحيح[5].

الثالث: أن «كُلاً» بدل من «نَا» في «إنَّا»؛ لأن «كُلاً» قد وَلِيَت العَوامِلَ فكأنه قيل: إنّ كُلاً فيها وإذا كانوا قد تأولوا قوله:

٤٣٤٤ ـ ....حَــوْلاً أَكْــتَــعَــا[6]

و «حَوْلاً أجْمَعَا» على البدل مع تصرف أَكْتَعَ وأجْمَعَ؛ فلأن ذلك في «كُلّ» أولى وأجدى. وأيضاً فإن المشهور تعريف «كُلّ» حال قطعها، حكي في الكثير الفَاشِي: مررت بكُلٍّ قائماً وبِبَعْضٍ جالساً، وعزاه بعضهم لسيبويه[7].

وتنكير «كل» ونصبها حالاً في غاية الشذوذ، نحو: «مَرَرْتُ بِهِمْ كُلاً» أي جميعاً.

فإن قيل: فيه بدل الكل من الكل في ضمير الحاضر وهو لا يجوز.

---

(١) الكشاف ٤/ ٤٣١.
(٢) و (٣) أبو حيان في البحر ٧/ ٤٦٩.
(٤) في الدر المصون: يضيره.
(٥) المرجع السابق ٤/ ٧٠٢.
(٦) رجز مجهول قائله والبيت بتمامه:

يـا لـيـتـنـي كـنـت صـبـيـاً مـرضـعـا تـحـمـلـنـي الـذلـفـاء حـولاً أكـتـعـا

والذلفاء اسم امرأة. واستشهد بالبيت على توكيد «حول» وهو نكرة بأكتع، وشرط تأكيد أكتع أن يكون مسبوقاً بأجمع، وتوكيد النكرة منعها البصريون، وأجازها الأخفش لأن النكرة محدودة وصححه ابن مالك وقد أعرب البصريون هذا على البدل أو النعت أو المجيء على الضرورة الشعرية وانظر الإنصاف ٤٥١ ـ ٤٥٦ وشرح الأشموني على الألفية ٣/ ٧٨، والهمع ٢/ ١٢٤، وابن يعيش ٤/ ٥٤ وابن عقيل ١٣١، وابن الناظم ١٩٨، وتوضيح المقاصد ٣/ ١٦٧.

(٧) قال: «هذا باب ما ينتصب خبره لأنه معرفة، وهي معرفة لا توصف ولا تكون وصفاً، وذلك قولك: مررت بكلٍّ قائماً، ومررت ببعض قائماً، وببعض جالساً». الكتاب ٢/ ١١٤. ثم قال: «وصار معرفة لأنه مضاف إلى معرفة كأنك قلت: مررت بكلهم وببعضهم، ولكنك حذفت ذلك المضاف إليه». الكتاب ٢/ ١١٥.

أجيبَ بوجهين:

أحدهما: أن الكوفيين والأخفش يرون ذلك وأنشدوا قوله:

٤٣٤٥ ـ أنَا سَيْفُ العِشِيرَةِ فَاعْرِفُونِي حَمِيداً قَدْ تَذَرَّيْتُ السَّنَامَا[١]

«فحميداً» بدل من ياء «فاعرفوني». وقد تأوله البصريون على نصبه على الاختصاص.

والثاني: أن هذا الذي نحن فيه ليس محل الخلاف؛ لأنه دال على الإحاطة والشمول، وقد قالوا: إنه متى كان البدل دالاً على ذلك جاز، وأنشدوا:

٤٣٤٦ ـ فَمَا بَرِحَتْ أَقْدَامُنَا فِي مَكَانِنَا ثَلاَثَتِنَا حَتَّى أُزِيرُوا المَنَائِيَا[٢]

ومثله قوله تعالى: ﴿لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ [المائدة: ١١٤] قالوا: «ثلاثتنا» بدل من «نا» في «مكاننا»؛ لدلالتها على الإحاطة، وكذلك «لأولنا وآخرنا» بدل من «نا» في «لنا»، فلأن يجوز ذلك في كل التي هي أصل في الشمول والإحاطة بطريق الأولى، هذا كلام أبي حيان في الوجه الثالث[٣]. وفيه نظر لأن المبرد[٤] ومكيًا[٥] نصا على أن البدل في هذه الآية لا يجوز فكيف يدعى أنه لا خلاف في البدل والحالة هذه؟ لا يقال: إن في الآية قولاً رابعاً، وهو أن «كُلاًّ» نعت لاسم إنَّ، وقد صرح الكسائيُّ[٦] والفراءُ بذلك فقالا: هو نعت لاسم[٧] إن؛ لأن الكوفيين يطلقون اسم النعت على التأكيد، ولا يريدون حقيقة النعت[٨].

وممن نص على هذا التأويل مكي[٩] ـ رحمه الله ـ؛ ولأن الكسائي إنما جوز نعت ضمير الغائب فقط دون المتكلم والمخاطب.

---

(١) من تمام الوافر وهو لحميد بن بجدلة الكلبي واستشهد به الكوفيون والأخفش على جواز إبدال الظاهر وهو حميد من ضمير المتكلم وهو الياء من اعرفوني، وقد أوّله البصريون على الاختصاص كما أوضح أعلى وقد تقدم.

(٢) من الطويل لعبيدة بن الحارث المطلبي ويروى في مقامنا بدل مكاننا، وحتى للغاية بمعنى إلى وأزيروا: فعل مجهول والواو نائب فاعل والمنائيا أصلها المنايا، ولكن أظهرت فيه الياء المحذوفة للضرورة، وقلبت همزة. وقد تقدم.

(٣) البحر المحيط ٧/٤٧٠ بتقديم وتأخير في عبارته.

(٤) قال ولا يبدل من المخاطب ولا المخاطب لأنهما لا يشكلان فيبدل منهما انظر إعراب القرآن للنحاس ٤/٣٦.

(٥) قال مكي: ولا يجوز البدل لأن المخبر عن نفسه لا يبدل منه غيره مشكل إعراب القرآن ٢/٣٦٧.

(٦) نقله عنه القرطبي في الجامع ١٥/٣٢١.

(٧) معاني الفراء ٣/١٠.

(٨) القرطبي المرجع السابق والدر المصون ٤/٧٠٤.

(٩) مشكل إعراب القرآن المرجع السابق.

فصل

معنى الآية واذكر يا محمد لقومك إذ يَتَحاجُون أي يُحَاجُّ بعضُهم بعضاً. ثم شرح خصومتهم وهي أن الضعفاء يقولون للرؤساء: إنا كنا لكم تبعاً في الدنيا فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار أي فهل تقدرون على أن تدفعوا عنا أيها الرُّؤسَاء نصيباً من العذاب؟ ومقصودهم من هذا الكلام المبالغة في تعجيز أولئك الرؤساءَ وإيلام قلوبهم؛ لأنهم يعلمون أن أولئك الرؤساء لا قدرةَ لهم على ذلك التخفيف فعند ذلك يقول الرؤساء إنا كل فيها أي إنا كُلُّنا واقعون في هذا العذاب، فلو قدرنا على إزالة العذاب لدفعناه عن أنفسنا. ثم يقولون: «إنَّ اللَّهَ (قَدْ)[1] حَكَمَ بَيْنَ العِبَادِ» يعنى فَأَوْصَلَ إلى كل أحد حقه من النعيم أو من العذاب، فعند هذا يحصل اليأس للأتباع من المتبوعين، فيرجعون إلى خَزَنَةِ جهنم ويقولون لهم: ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ العَذَابِ.

فإن قيل: لم لم يقل: وقال الذين في النار لخزنتها؟

فالجواب من وجهين:

الأول: أن يكون المقصود من ذكر جهنم التهويل والتفظيع.

والثاني: أن تكون جهنم اسماً لموضع من أشد المواضع بعيدِ القرار من قولهم: بِئْرٌ جِهِنَّامٌ أي بعيدة القَعْر[2] وفيها أعظم أقسام الكفار عقوبة، وخزنة ذلك الموضع تكون أعظم خزنة جهنم عند الله درجة، فإذْ عرف الكافر[3] أن الأمر كذلك استغاثوا بهم فيقولون لهم: «أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ»؟

قوله: «يَوْماً مِنَ العَذَابِ» في يوماً وَجْهَانِ:

أحدهما: أنه ظرف لِيُخَفِّفْ، ومفعول «يخفف» محذوف، أي يخفف عنا شيئاً من العذاب في يومٍ. ويجوز على رأي الأخفش أن تكون «مِنْ» مزيدة فيكون العذاب هو المفعول، أي يخفف عنا في يوم العذابَ.

الثاني: أن يكون مفعولاً به، واليوم لا يخفف، وإنما يخفف مظروفه، والتقدير يخفف عذاب يوم، وهو قلق لقوله: «مِنَ العَذَابِ» والقول بأنه صفة كالحال أقلق منه. والظاهر أن «مِنَ العَذَابِ» هو المفعول ليخفف، ومِنْ تَبْعِيضِيَّة، و «يَوْماً» ظرف[4]، سألوا أن يخفف عنهم بعض العذاب لا كله في يوم ما، لا في كل يوم ولا في يوم معين.

---

(١) سقط من ب.

(٢) انظر لسان العرب جهنم ٧١٥ بكسر الجيم والياء وقال اللحياني: جهنَّام اسم أعجمي.

(٣) الأصح كما في الرازي الكفار. وانظر في هذا تفسير الرازي ٢٧/ ٧٤.

(٤) قال بهذا الإعراب أبو البقاء في التبيان ١٠٢١، والسمين في الدر ٤/ ٧٠٤.

فصل

لما أجابوهم الخزنة بقولهم: أَوَ لَمْ تَكُ تَأتيكم رُسُلُكُمْ بالبينات؟ قالوا: بلى والمعنى أن لولا إرسال الرسل كان للقوم أن يقولوا ما جاءنا من نذير. وهذه الآية تدل على أن الوجوب لا يتحقق إلا بعد مجيء الشَّرْع. ثم إن أولئك الملائكة يقولون لهم: ادْعُوا أنتم فإنا لا نَتَجَرأ على ذلك ولا نشفع إلا بشرطين:

أحدهما: أن يكون المشفوع له مؤمناً.

والثاني: حصول الإذن في الشفاعة، ولم يوجد شيء من هذين الشرطين لكن ادعوا أنتم.

وليس قولهم فادعوا لرجاء المنفعة، ولكن لِلدلالة على الخيبة، وأن المَلَكَ المقرب، إذا لم يسمعْ دعاؤه فكيف يسمع دعاء الكافر؟ ثم صرحوا لهم بأنه لا أثر لدعائهم فقالوا: «وَمَا دُعَاءُ الكَافِرِينَ إلاَّ فِي ضَلاَلٍ» أي يبطل ويَضِلّ ولا ينفعهم.

فإن قيل: إنه تعالى يمتنع عليه أن يتأذى من المجرمين بسبب جُرْأَتِهِمْ، وإذا كان التَّأَذِّي محالاً كانت شهوة الانتقام ممتنعةً في حقه، وإذا ثبت هذا فنقول إيصال هذه المضارّ العظيمة إلى أولئك الكفار إضرار خالٍ عن جميع جهات المنفعة فكيف يليق بالرحيم الكريم أن يعذب[1] بترك الآلام أبَدَ الآبادِ ودَهْرَ الدَّاهِرِينَ من غير أن يَرْحم حاجتهم، ومن غير أن يسمع دعاءهم، ومن غير أن يلتفت إلى تضرعهم وانكسارهم. ولو أن أقسى الناس قلباً فعل مثل هذا التعذيب ببعض عَبِيدِهِ لأداء كَرَمُهُ ورحمته إلى العفو عنه مع أن هذا السيِّد في محل الحاجة والنفع والضرر فأكرم الأكرمين كيف يليق به هذا الإضرار؟

فالجواب: أن أفعال الله لا تُعَلَّل، ولا يُسْأَلُ عما يَفْعَلُ وهم يُسْأَلُونَ فلما جاء الحكم الحق به في الكتاب الحق وجب الإقرار به والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿**إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا**...﴾ الآية. في كيفية النظم وجوه:

الأول: أنه تعالى لما ذكر وقاية الله موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ[2]، وذلك المؤمن من مكر فرعون مَنَّ[3] في هذه الآية بأنه ينصر رسله والذين آمنوا معه.

الثاني: لما بين من قبل تَخَاصُم أهلِ النار، وأنهم عند الفزع إلى خزنة جهنم يقولون: ألم تك تأتيكم رسلكم بالبينات أتبع ذلك بذكر الرسل وأنه ينصرهم في الدنيا والآخرة.

---

(١) كذا في النسختين وفي الرازي أن يبقي على ذلك الإيلام.

(٢) في ب صلوات الله وسلامه عليه.

(٣) كذا في النسختين ولعل مقصوده بين كما في الرازي وانظر تفسير الرازي ٢٧/ ٧٤، ٧٥.

الثالث: قال ابن الخطيب: وهو الأقرب عندي أن الكلام في أول السورة إنما وقع من قوله: إنما يُجَادِلُ في آيَات اللَّهِ الذين كفروا فلا يغرنك تقلّبهم في البلاد. وأصل الكلام في الرد على أولئك المجادلين وعلى أن المحقين أبداً مشغولين بدفع كيد المبطلين، وكل ذلك إنما ذكره الله تعالى تسلية للرسول ـ ﷺ ـ وتصبيراً له على تحمل الأذى من قومه[١].

ولما بلغ الكلام في تقرير هذا المطلوب إلى الغاية القصوى وعد تعالى بأن ينصر رسوله على أعدائه تعالى فقال: «إنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا والَّذِينَ آمَنُوا في الحَيَاةِ الدُّنْيَا». قال ابنُ عباسٍ ـ رضي الله عنهما ـ بالغلبة والقهر، وقال الضَّحَّاكُ: بالحُجَّة، وفي الآخرة بالانتقام من الأعداء وبإعلاء درجاتهم في مراتب الثواب، وكل ذلك قد كان للأنبياء والمؤمنين، فهم منصورون بالحجة على من خالفهم، وأهلك أعداءهم[٢] بعد أن قتلوا بالانتقام من أعدائهم، كما نصر يحيى بن زكريا لما قُتِلَ فقَتَلَ به سبعين ألفاً.

قوله: «وَيَوْمَ يقومُ الأشْهَادُ» قرأ الجمهور يَقُوم بالياء من أسفلَ، وأبو عمرو في رواية المنقريّ[٣] عنه وابن هُرْمز وإسماعيل[٤] بالتاء من فوق لتأنيث الجماعة[٥].

والأشْهاد يجوز أن يكون جمع «شَهِيدٍ» كشَرِيفٍ وأشْرَافٍ، وهو مطابق لقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ [النساء: ٤١] وأن يكون جمع «شاهد» كصَاحِب، وأصْحاب، وطَائر، وأطيار، قال المبرد وهو مطابق لقوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ [الأحزاب: ٤٥].

واعلم أن قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يقُومُ الأَشْهَادُ﴾ فيه دقيقة لطيفة، وهي أن السلطان العظيم إذا آثر بعض خواصه بالإكرام العظيم عند حضور الجمع من أهل المشرق والمغرب كان ذلك[٦] أتمّ وأبهج. وعنى بالأشهاد كل من شهد بأعمال العباد يوم القيامة

---

(١) الرازي ٢٧/ ٧٥.

(٢) في البغوي منصورون بالحجة على من خالفهم وقد نصرهم الله بالقهر على من ناوأهم وإهلاك أعدائهم ونصرهم بعد أن قتلوا بالانتقام، البغوي ٦/ ٩٧.

(٣) هو عبد الله بن عمرو بن الحجاج أبو معمر المنقري التميمي اهتم بحرف أبي عمرو ضابط له، روى القراءة عن عبد الوارث وعنه أحمد بن علي بن هاشم، وأحمد بن يزيد الحلواني وغيرهما مات سنة ٢٢٤. انظر غاية النهاية ١/ ٤٣٩.

(٤) إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد أبو إسحاق الأزدي البغدادي ثقة مشهور كبير، روى القراءة عن قالون وعبد الرحمن بن سهل وعنه ابن مجاهد، وابن الأنباري مات سنة ٢٨٢ هـ. انظر غاية النهاية ١/ ١٦٢.

(٥) وانظر معاني الفراء ٣/ ١٠ والكشاف ٢/ ٤٣٢ ولم أجدها في المتواتر وهي شاذة نسبها صاحب شواذ القرآن إلى الأعرج ٢١٣.

(٦) كذا في الرازي وفي النسختين: آكد.

من ملك ونبي ومؤمن. أما الملائكة فهم الكرام الكاتبون يشهدون على الرسل بالتبليغ وعلى الكفار بالتكذيب. وأما الأنبياء فقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، وأما المؤمنون فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

قوله «يَوْمَ» بدل من «يوم» قبله، أو بيان له، أو نصب بإضمار أَعْنِي[١].

وتقدم الخلاف في قوله «يَنْفَع الظَّالِمِينَ» بالياء والتاء آخر الروم. والمعنى لا ينفع الظالمين معذرتهم إن اعتذروا «ولهم اللعنة» البعد من الرحمة، وهذا يفيد الحصر[٢][٣] يعني أن اللعنة مقصورة عليهم، وهي الإهانة والإذلال «وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ» يعني جهنم.

فإن قيل: قوله: «لا ينفع الظالمين معذرتهم» يدل على أنهم يذكرون الأعذار، ولكن تلك الأعذار لا تنفعهم فكيف الجمع بين هذا وبين قوله: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦]؟

فالجواب: قوله «لا ينفع الظالمين معذرتهم» لا يدل على أنهم ذكروا الأعذار بل ليس فيه إلا أنه ليس عندهم عذر مقبول، وهذا لا يدل على أنهم ذكروه أم لا وأيضاً فيوم القيامة يوم طويل فيعتذرون في وقت ولا يعتذرون في وقت آخر.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ (٥٣) هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ (٥٤) فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ (٥٥)﴾

قوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الكِتَابَ. . .﴾** الآية لما بين أنه تعالى ينصر الأنبياء والمؤمنين في الدنيا والآخرة ذكر نوعاً من أنواع تلك النصرة في الدنيا فقال: «ولقد آتينا موسى الهدى».

قال مقاتل: هُدًى من الضلالة، يعني التوراة، ويجوز أن يكون المراد الدلائل القاهرة التي أوردها على فِرْعَون وأتباعهِ وكادهم بها، ويجوز أن يكون المراد بالهدى النبوة التي هي أعظم المناصب الإنسانية «وأَوْرَثْنا بَنِي إسْرائيل الكتاب» وهو التوراة «هُدًى وذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَاب» يعني أنه تعالى لما أنزل التوراة على موسى بقي ذلك العِلْمُ فيهم وتَوارَثُوهُ خَلَفاً عن سَلَفٍ.

وقيل المراد: سائر[٤] الكتب التي أنزلها الله عليهم، وهي كتب أنبياء بني إسرائيل كالتوراة والإنجيل والزَّبُور.

---

(١) قال بالبدلية الزمخشري في كشافه ٣/ ٤٣٢ والعكبري في التبيان ١٠٢١ وقال بالثلاثة السمين ٤/ ٧٠٥.
(٢) قاله الرازي في مرجعه السابق. (٣) نقله الإمام الكبير البغوي ٦/ ٩٧.
(٤) الفخر الرازي ٢٧/ ٧٧ فقد نقل هذه الأقوال مجتمعة.

قوله: «هُدًى وَذِكْرَى» فيهما وجهان:

أحدهما: أنهما مفعول من أجْلِهِمَا أي لأجل الهُدَى والذكر.

والثاني: أنهما مصدران في موضع الحال(١).

والفرق بين الهدى والذكرى، أن الهدى ما يكون دليلاً على الشيء وليس من شرطه أن يذكر شيئاً آخر كان معلوماً ثم صار مَنسِيًا، وأما الذكرى فهو الذي يكون كذلك، فكتب أنبياء الله تعالى مشتملة على هذين القسمين بعضها دلائل في أنفسها، وبعضها مذكرات لما ورد في الكتب الإلهية المتقدمة(٢).

ولما بين تعالى أنه ينصر رسله وينصر المؤمنين في الدنيا والآخرة وضرب المثال في ذلك بحال مُوسى خاطب بعد ذلك محمداً ـ ﷺ ـ فقال: «فَاصْبِرْ إنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ» أي فاصبر يا محمد على أَذَاهُمْ، إن وعد الله حق في إظهار دينك وهلاك أعدائك. قال الكلبي: نسخت آية القتل آية الصَّبْر.

قوله: «واسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ» قيل: المصدر مضاف للمفعول أي لذنب أمتك في حقك(٣). والظاهر أن الله تعالى يقول ما أراد وإن لم يجز لنا نحن أن نضيف إليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ذنباً، قال المفسرون: هذا تعبد من الله تعالى ليزيده به درجة، وليصير سنة لمن بعده.

قوله: «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ» صَلِّ شكراً لربك بالعَشِيِّ والإبْكَارِ، قال الحسن: يعني صلاة العصر وصلاة الفجر، وقال ابن عباس: الصلوات الخمس.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٥٦﴾

قوله (تعالى)(٤): ﴿**إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم**...﴾ الآية لما ابتدأ بالرد على الذين يُجادلون في آيات الله واتصل الكلام بعضه ببعض على الترتيب المتقدم إلى هنا نبه تعالى على الداعية التي تحمل أولئك الكفار على تلك المجادلة، فقال: «إنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ في آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إنْ فِي صُدُورِهِمْ إلاَّ كِبْر» أي ما يحملهم على هذا العمل الباطل إلا الكبر الذي في صدورهم. قال ابن عباس: والمراد ما في قلوبهم، والصدر موضع القلب فكني به عن القلب لمجاورته.

قوله: «مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ» قال مجاهد: ما هم ببالغي مقتضى ذلك الكبر؛ لأن الله عزّ

---

(١) ذكر هذين الإعرابين الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٣٢ والسمين في الدر ٤/ ٧٠٥.

(٢) الرازي المرجع السابق.

(٣) قاله أبو حيان في البحر ٧/ ٤٧١ والرازي في تفسييره أيضاً المرجع السابق.

(٤) سقط من ب.

وجلّ مذلّهم[١]. قال ابن قتيبة: «إن في صدورهم إلا تكبر على محمد، وطمع أن يغلبوه، وما هم ببالغي ذلك»[٢].

وقوله «فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ» قال المفسرون: نزلت في اليهودِ، وذلك أنهم قالوا للنبي ﷺ: إنا صاحبنا المسيحُ بنُ داود ـ يعنون الدّجّال ـ يخرج في آخر الزمان فيبلغ سلطانه البر والبحر ويرد المُلْكَ إلينا، قال الله تعالى: فاستعذ بالله من فتنة الدجال إنه هو السميع البصير[٣]. وقال ابن الخطيب: يعني بقوله «مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ» يعني أنهم يريدون[٤] أذاك، ولا يصلو ن إلى هذا المراد بل لا بد وأن يصيروا تحت أمرك ونهيك.[٥] ثم قال تعالى: ﴿**فاستعذ بالله**﴾ أي فالتجىء إليه من كيد من يجادلك[٦] إنه هو السَّمِيعُ بما يقولون أو تقول «البَصِيرُ» بما يعملون وتعمل فهو يجعلك نَافِذَ الحكم عليهم ويصونك عن مكرهم وكيدهم.

قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**لَخَلْقُ السَّمواتِ والأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ**﴾ المصدران مضافان لمفعولهما، والفاعل محذوف، وهو الله تعالى.

ويجوز أن يكون الثاني مضافاً للفاعل أي أكبر مما يخلقه الناسُ، أي يصنعونه. ويجوز أن يكون المصدران واقعين موقع المخلوق، أي مخلوقهما أكبر من مخلوقهم، أي جرمهما أكبر من جرمهم[٧].

فصل

اعلم أنه تعالى لما وصف جِدالهم في الآيات بأنه بغير سلطان ولا حجة، ذكر لهذا مثالاً، فقال: لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس والقادر على الأكبر قادر على الأقلّ لا محالة. وتقرير هذا الكلام أن الاستدلال بالشيء على غيره ينقسم ثلاثة أقسام:

أحدها: أن يقال: لما قدر على الأضعف، وجب أن يقدر على الأقوى وهذا فاسد.

(**وثانيها**: أن يُقَال: لما قدر على الشيء قدر على مِثْلِهِ، فهذا استدلال صحيح لما ثبت في الأصول: أن حكم الشيء حكم مثله)[٨].

---

(١) انظر تفسير البغوي ٦/ ٩٨ والرازي ٢٧/ ٧٩.
(٢) نقله في غريب القرآن ٣٨٧.
(٣) قاله البغوي والخازن في المرجع السابق ٦/ ٩٨.
(٤) في تفسيره أن لا يكونوا تحت يديك.
(٥) التفسير الكبير له ٢٧/ ٧٩.
(٦) في ب: يحسدك.
(٧) ذكر هذه الآراء أبو حيان في البحر ٧/ ٤٧١ والسمين في الدر ٤/ ٧٠٥.
(٨) ما بين القوسين كله سقط من ب.

وثالثها: أن يُقَالَ: لما قدر على الأقوى الأكمل (فَبِأَنْ)[١] يقدر على الأقل الأرذل كان أولى. وهذا استدلال في غاية الصحة والقوة، ولا يرتاب فيه عاقل البتةَ. ثم إن هؤلاء القوم يسلمون أن خالق السمواتِ والأرضِ هو الله سبحانه وتعالى ويعلمون بالضرورة أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، وكان من حقهم أن يقروا بأن القادر على خلق السموات والأرض يكون قادراً على إعادة الإنسان الذي خلقه أولاً فهذا برهان كلي في إفادة هذا المطلوب.

ثم إن هذا البرهان على قوته صار بحيث لا يعرفه أكثر الناس، والمراد منه الذين ينكرون الحشر والنشر. فظهر بهذا المثال أنَّ هؤلاء الكفار يجادلون في آيات الله بغير سلطان ولا حجة بل بمجرد الحَسَدِ والكِبْر والغَضَب.

ثم لما بين الله تعالى أن الجِدَال المقرونَ بالكِبر والحسد، والجَهْل كيف يكون؟ وأن الجدال بالحجة والبرهان كيف يكون؟ نبه تعالى على الفرق بين البيانين فقال: «وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى والبَصِيرُ» يعني: وما يستوي المستدل والجاهل المقلد، ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلاَ المُسِيءُ قَلِيلاً مَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فالمراد بالأول: التفاوت بين العالم والجاهل والمراد بالثاني: التفاوت بين الآتي بالأعمال الصالحة وبين الآتي بالأعمال السيئة الباطلة، ثم قال: «قليلاً ما تتذكرون» يعني أنهم وإن كانوا (يعلمون) أن العلمَ خير من الجهل، وأن العمل الصالح خيرٌ من العمل الفاسد إلا أنه قليلاً ما يتذكرون. فبين في النوع الأول المعنى من الاعتقاد أنه علم أو جهل، وفي النوع الثاني المعنى من العمل أنه عملٌ صالح أو فاسدٌ.

فصل

قوله: (وَالْبَصير) اعلم أن التقابلَ يجيء على ثَلاَثِ طُرُقٍ:

أحدها: أن يجاور المناسب ما يناسبه كهذه الآية.

والثانية: أن يتأخر المتقابلان كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ [هود: ٢٤].

والثالثة: أن يقدم مقابل الأول ويؤخر مقابل الآخر كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ [فاطر: ١٩ ـ ٢٠]. وكل ذلك تفنن في البلاغة[٢].

وقدم الأعمى في نفي التساوي لمجيئه بعد صفة الذم في قوله: «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ»[٣].

---

(١) زيادة للسياق وانظر تفسير الإمام الرازي ٢٧/ ٧٩.

(٢) وهو ما يسمى بالمقابلة كقوله عزَّ من قائل أيضاً: ﴿فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً﴾ وانظر بغية الإيضاح للسكاكي ٤/ ١٤، ١٦ والفوائد المشوق ١٤٧، ١٥١.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٢٧٢.

قوله: «وَلاَ المُسِيءُ» لاَ زائدة للتوكيد؛ لأنه لما طال الكلام بالصلة بعد تقسيم المؤمنين، فأعاد معه «لا» توكيداً، وإنما قدم المؤمنين لمجاورتهم(١).

قوله: «تتذكرون» قرأ الكوفيون بتاء الخطاب، والباقون بياء الغيبة، والخطاب على الالتفات للمذكورين بعد الإخبار عنهم. والغيبة نظراً لقوله: «إنَّ الَّذين يُجَادِلُونَ» وهم الذين التفت إليهم في قراءة الخطاب(٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾

قوله: «إنَّ السَّاعَةَ» يعني القيامة «لآتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ» والمراد بأكثر الناس الكفار الذين ينكرون البعث والقيامة لما قرر الدليل على إمكان وجود يوم القيامة أردفه بالإخبار عن وقوعها.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**. . .﴾ الآية لما بين أن القولَ بالقيامة حق وكان من المعلوم بالضرورة أن الإنسان لا ينتفع في يوم القيامة إلا بطاعة الله تعالى والتضرع إليه لا جَرَمَ كان الاشتغال بالطاعة من أهم المُهِمّات، ولما كان أشرفَ أنواع الطاعات الدعاءُ والتضرعُ لا جَرَمَ أمر الله تعالى به فقال: «وقال ربكم ادعوني أستجب لكم».

واختلفوا في المراد بقوله «ادعوني» فقيل: المراد منه الأمر بالدعاء، وقيل: الأمر بالعبادة بدليل قوله بعده: إنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي»، وأيضاً الدعاء بمعنى العبادة كثير في القرآن كقوله: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ [النساء: ١١٧]. وأجاب الأوّلونَ بأن هذ ترك للظاهر فلا يُصَار إليه إلا بدليل.

فإن قيل: كيف قال: «ادعوني أستجب لكم»، وقد يُدْعَى كثيراً فلا يستجاب؟

وأجاب الكَعْبِيُّ بأن الدعاء إنما يصح بشرط، ومن دعا كذلك يستجيب له، وذلك الشرط هو أن يكون المطلوب بالدعاء مصلحة وحكمة.

ثم سأل نفسه فقال: إن الله تعالى يفعل ما هو الأصلح بغير دعاء فما الفائدة في الدعاء؟

وأجاب عنه بوجهين:

---

(١) المرجع السابق نفسه.

(٢) انظر حجة ابن خالويه ٣١٦ والسبعة ٢٧٥ وهي سبعية متواترة.

الأول: أن فيه الفزعَ والانقطاعَ إلى الله تعالى.

الثاني: أن هذا أيضاً وارد على الكل لأنه إن علم أنه يفعله فلا بدّ وأن يفعله، فلا فائدة في الدعاء وإن علم أنه لا يفعله فإنه البتة لا يفعله، فلا فائدة في الدعاء أيضاً، فكل ما يقولونه ههنا فهو جوابنا[١].

قال ابن الخطيب: وعندي وجه آخر وهو أنه قال: ادعوني أستجب لكم، وكل من دعا الله وفي قلبه ذَرّة من الاعتماد على ماله وجاهه وأصدقائه واجتهاده فهو في الحقيقة ما دعا الله إلا باللسان وأما القلب فإنه يعول في تحصيل ذلك المطلوب على غير الله، فهذا اللسان ما دعا ربه، أما إذا دعا في وقت لا يكون القلبُ فيه ملتفتاً إلى غير الله فالظاهر أن يستجاب له[٢].

قوله: «إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلونَ جَهَنَّم دَاخِرِينَ» وهذا إحسانٌ عظيمٌ من الله تعالى حيث ذكر الوعيد الشديد على ترك الدعاء. وروى أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ «مَنْ لَمْ يَدْعُ اللَّهَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ»[٣].

فإن قيل: إنه ـ ﷺ ـ قال حكاية عن ربه عزّ وجلّ: «مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ»[٤].

فهذا يقتضي أن ترك الدعاء أفضل، وهذه الآية تدل على أن ترك الدعاء يوجب الوعيد الشديد فكيف الجمع بينهما؟

فالجواب: لا شك أن العقلَ إذا كان مستغرقاً في الثناء كان ذلك أفضلَ في الدعاء لأن الدعاء طلب الجنة، والاستغراق في معرفة جلال الله أفضل من طلب الجنة، أما إذا لم يحصل الاستغراق كان الاشتغال بالدُّعَاء أولى؛ لأن الدعاء يشتمل على معرفة الربوبية[٥] وذُلّ العبودية.

قوله: «سَيَدْخُلونَ» قرأ ابن كثير وأبو جعفر «سَيُدْخَلُونَ» بضم الياء وفتح الخاء، والآخرون بفتح الياء وضم الخاء[٦] «دَاخِرِينَ» صاغرين ذَلِيلِينَ.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ

---

(١) أورده الرازي في تفسيره ٢٧/ ٨١. (٢) ذكره في المرجع السابق.

(٣) أخرجه البغوي في تفسيره عن أبي صالح عن أبي هريرة. البغوي ٦/ ١٠١، كما ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره عن مرّة عن أبي صالح عن أبي هريرة. ابن كثير في تفسيره القرآن العظيم ٤/ ٨٥.

(٤) الرازي ٢٧/ ٨١. (٥) المرجع السابق.

(٦) من الأربع فوق العشر المتواترة انظرها في الإتحاف ٣٧٩، والوجهان عن أبي بكر عن طريق يحيى بن آدم.

خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيلَ لِتَسْكنُوا فِيهِ**﴾ اعلم أن تعلقه بما قبله من وجهين:

الأول: كأنه تعالى قال: إني أنعمت عليك قبل طلبك هذه النعم العظيمة، ومن أنعم عليك قبل السؤال بهذه النعم العالية فكيف لا ينعم بالأشياء القليلة بعد السؤال؟!.

والثاني: أنه تعالى لما أمر بالدعاء فكأنه قيل: الاشتغال بالدعاء لا بد وأن يكون مسبوقاً بحصول المعرفة فما الدليل على وجود الإله القدر؟ فذكر تعالى هذه الدلائل العشرة على وجوده وقدرته وحكمته، وقد تقدم ذِكْرُ الدلائل الدالة على وجود الله وقدرته وهي إما فلكيّة، وإما عُنْصُرِيَّة وأن الفلكيات أقسامٌ كثيرة، أحدُها الليلُ والنهارُ، وأن أكثرَ مصالحِ العالم مربوطةٌ بهما فذكرهما الله تعالى ههنا، وبين أن الحكمة في خلق الليل حصولُ الراحة بالنوم والسكون، والحكمة في خلق النهار إبصار الأشياء؛ لِيُمْكِنَ التصرفُ فيها على الوجه الأنفع.

فإن قيل: هلاً قِيلَ بحسب رِعاية النظم هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار لتبصروا فيه أو يقال: جعل لكم الليلَ ساكناً والنهار مبصراً ولكنه لم يقل ذلك، فما الفائدة؟ وما الحكمة في تقدم ذكر الليل؟[١].

فالجواب عن الأول: هو أن الليل والنوم في الحقيقة طبيعة عَدَمِيَّة فهو غير مقصود بالذات، وأما اليقظة فأمور وجودية، وهي مقصودة بالذات. وقد بيّن الشيخ عَبْدُ القَاهِرِ النَّحوِيُّ في دلائل الإعْجَازِ[٢] أن دلالة صيغة الاسم على الكمال والتمام أقوى من دلالة صيغة الفعل عليها فهذا هو السبب في الفَرْق.

وأما الجواب عن الثاني: فهو أن الظلمة طَبِيعَةٌ عدمِيَّة، والنورُ طبيعةٌ وجودية، والعدم في المُحْدَثَاتِ مقدَّمٌ على الوجود؛ فلهذا السبب قال في أول سورة الأنعام: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: ١].

ثم قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ**﴾ والمعنى أن فضل الله تعالى على الخلق كثيرٌ جداً، ولكنهم لا يشكرونه.

---

(١) تفسير الرازي ٣٧/ ٨٢، ٨٣. (٢) دلائل الإعجاز له ١٢١، ١٢٢ بالمعنى.

واعلم أن ترك الشكر لوجوه:

الأول: أن يَعْتَقِدَ الرجل أنّ هذه النعم ليست من الله، مثل أن يعتقد أن هذه الأفلاك واجبة الوجود لذواتها، واجبة الدوران (لذواتها) فيعتقد أن هذه النعم منها.

الثاني: أن يَعْتَقِدَ أن كلَّ هذا العالم إنما حصل بتخليق الله وتكوينه إلا أن نعمةَ تَعَاقُبِ الليل والنهار لما دامت واستمرت نَسِيها الإنسان، فإذا ابْتُلِيَ الإنسان بفِقْدانِ شيء منها عرف قدرها مثل أن يحبس في بئر عميق مظلمةٍ مُدَّةً مديدةً، فحينئذ يعرف ذلك الإنسان قَدْرَ نعمةِ الهواء الصافي وقَدْر نعمة الضوء، وقد كان بعض الملوك يعذب بعض خدمه بأن يأمر أقواماً يمنعونه من النوم وعن الاستناد إلى الجدار.

والثالث: أن الإنسان وإن كان عارفاً بهذه النعم إلا أنه يكون حريصاً على الدنيا، محبًّا المالَ والجاهَ، فإذا فاته المال الكثير والجاه العريض وقع في كُفْران هذه النعم العظيمة، ولما كان أكثر الخلق واقعون في أحد هذه الأودية الثلاثة لا جرم قال تعالى: **﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾**. ونظيره قوله تعالى: **﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾** [سبأ: ١٣] وقول إبليس: «وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ»(١).

ولما بين الله تعالى بتلك الدلائل المذكورة وجود الإله القادر قال: «ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ». قال الزمخشري: ذَلِكُمُ المعلوم المتميز بالأفعال الخاصة التي لا يشاركه فيها أحد هو اللَّهُ رَبُّكُمْ، خالق كل شيء «لا إله إلا هو» أخبار مترادفة أي هو الجامع لهذه الأوصاف من الإلهية والربوبية وخلق كل شيء وأنه لا ثانيَ له(٢). «فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ» أي فأنى تُصْرَفُونَ أي ولِمَ تَعْدِلُونَ عن هذه الدلائل وتكذبون بها(٣)؟.

قوله: «خَالِقُ كُلِّ شيء» العامة على الرفع، وزيْدُ بْنُ عليٍّ بالنصب(٤). قال الزَّمخشريُّ: «على الاختصاص»(٥). وقرأ طلحة يُؤْفَكُونَ بياء(٦) الغيبة. وقوله: «وكذلك يُؤْفَكُ» أي مثل ذلك الإفك بمعنى(٧) كما أَفِكْتُمْ عن الحق مع قيام الأدلة كذلك يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ يعني كلّ من(٨) جحد بآيات الله ولم يَتَأَملْهَا ولم يكن فيه عزمُ طَلَبِ الحقّ وخَوْفِ العاقبة أفِكَ كما أفِكُوا.

---

(١) ١٧ من الأعراف. وانظر في هذا التفسير: الإمام الرازي ٢٧/ ٨٢ مع تغيير طفيفٍ في العبارة.

(٢) ذكره جار الله الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٣٤.

(٣) ذكره الرازي في تفسيره ٢٧/ ٨٣.

(٤) من القراءة الشاذة غير المتواترة انظرها في الكشاف ٣/ ٤٣٤ والبحر المحيط ٧/ ٤٧٣.

(٥) الكشاف المرجع السابق.

(٦) انظر الكشاف والبحر المرجعين السابقين وذكر هذه القراءة أيضاً هي وسابقتها السَّمين في الدر ٤/ ٧٠٦.

(٧) قاله البغوي في معالم التنزيل ٦/ ١٠١، ١٠٢.

(٨) نقله الرازي في المرجع السابق.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَاراً. . .﴾ لما تقدم أن دلائل وجود الله تعالى وقدرته إما أن يكون من دلائل الآفاق وهي غير الإنسان وهي أقسام، وذكر منها أحوالَ الليل والنهار كما تقدم، وذكر منها أيضاً ههنا الأرض والسماء فقال: «الله الذي جعل لكم الأرض قراراً» قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قراراً أي منزلاً في حالِ الحرارة وبعد المَمَات والسماء بناء أي قائماً ثابتاً وإلا وَقَعَتْ علينا. وقيل[١]: سَقْفاً كالقُبَّة، ثم ذكر دلائل الأنفس، وهي دلالة أحوال بَدَن الإنسان على وجود الصانع القادر الحكيم، وهو قوله: «صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ». قوله: «فَأَحْسَنَ صُوَرَكُم» قرأ أبو رَزِين والأعْمَشُ صِوَرَكُمْ بكسر[٢] الصاد فراراً من الضمة قبل الواو. وقرأت فِرْقَةٌ بضم الصاد وسكون الواو، وجعلوه اسم جنس لصُورَةٍ، كبُسْر وبُسْرَةٍ[٣].

فصل

قال مقاتل: خلقكم فأحسن خَلْقكم. قال ابن عباس ـ رَضِي اللَّهُ عَنْهُمَا ـ خُلِقَ ابن آدم قائماً معتدلاً يأكل ويتناول بيده، وغَيْرُ ابن آدم يتناول بفيه. «ورزقكم من الطيبات»، قيل: من غير[٤] رزق الدوابِّ. ثم قال: «ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ»، ومعنى تبارك إمّا الدوام والتبيان وإما كثرة الخيرات. ثم قال: «هُوَ الحَيُّ» وهذا يفيد الحَصْر؛ ولأن لا حيَّ إلا هو. ثم نبّه على الوحدانية فقال: لا إله إلا هو ثم أمر العباد بالإخلاص في الدعاء فقال: «فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ». ثم قال: «الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ».

والمراد أنه لما كان موصوفاً بصفات الجَلال والعِزة استحق لذاته أن يقال له: الحمد لله رب العالمين[٥] وقال الفراء هو خبر، وفيه إضمار الأمر ومجازه فادعوه واحْمَدُوهُ[٦]. وروى مجاهد عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ من قال: لا إله إلا الله فليقل على أثرها: الحمد لله رب العالمين، فذلك قوله: فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين[٧].

قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم

---

(١) ذكر هذه الآراء الرازي والبغوي في مرجعيهما السابقين.

(٢) من الشواذ غير المتواترات رواها أبو حيان في البحر ٧/٤٦٣، ومختصر ابن خالويه ١٣٢.

(٣) شاذة أيضاً وذكرها أبو حيان في مرجعه السابق والسمين في الدر ٤/٧٠٦.

(٤) وانظر البغوي ٦/١٠٢.

(٥) الرازي ٢٧/ ٨٤.

(٦) معاني الفراء ٣/١٢، ١١.

(٧) القرطبي ١٥/٣٢٩.

مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾ لما أورد على المشركين تلك الأدلة الدالة على إثبات إله العالم أمره بهذا القول؛ ليصرفهم عن عبادة الأوثان، وبين وجه النهي في ذلك وهو ما جاءه من البينات، وهو ما تقدم من الدلائل على أن إله العالم قد ثَبَتَ كونُهُ موصوفاً بصفات الجَلاَل والعظمة على ما تقدم وصريحُ العقل يشهد بأن العبادة لا تليق إلا به، والأحجار المنحوتة والأخشاب المُصوَّرة لا تصلح أن تكون شريكاً له فقال: وأمرت أَنْ أُسْلِمَ لرب العالمين، وذلك حين دُعِيَ إلى الكفر[١].

قوله تعالى: ﴿**هُوَ الذي خَلَقَكُم مِن تُرَابٍ...**﴾ لما استدل على إثبات الإلهية بدليل الآفاق وذكر منها الليل والنهار والأرض والسماء، ثم ذكر الدليل على إثبات الإله القادر بخلق الأنفس وهو نوعان: أحدهما: حسن العودة ورزق الطيّبات؛ ذكر النوع الثاني وهو: تكوين البدن من ابتداء كونه نُطفةً وجَنِيناً إلى آخر الشَّيْخُوخَة والموت فقال: «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ»، قيل: المراد آدم[٢]. قال ابن الخطيب: وعندي لا حاجة إلى ذلك لأن كل إنسان فهو مخلوق من المَنِي ومن دَم الطَّمْثِ والمَنِي مخلوق من دم فالإنسان مخلوق من الدّم، والدم إنما يتولد من الأغذية والأغذية إما حيوانية وإما نباتية، والحال في ذلك الحيوان كالحال في تكوين الإنسان فكانت الأغذية كلها منتهية إلى النبات والنبات إنما يكون من التراب والماء فثبت أن كل إنسان مُتَكَوِّن من التراب، ثم إن ذلك التراب يصير نطفةً ثم علقةً، ثم بعد كونه علقة مراتب إلى أن ينفصل من بطن الأم. والله تعالى ترك ذكرها ههنا لأنه ذكرها في آياتٍ أُخَر، قال: «ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً» أي أطفالاً «ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ»[٣]. (قال الزمخشري[٤]: قوله: لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ) متعلق بفعل محذوف، تقديره ثم يبعثكم لِتبلغوا أَشُدَّكُمْ[٥]، «ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنْكُم مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ» أي: أن يصير شَيْخاً، أو من قبل هذه الأحوال إذا خرج سَقْطاً ثم قال: «وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى» أي ولتبلغوا جميعاً «أجلاً مُسَمًّى» وقتاً محدوداً لا تُجَاوِزُونَه وهو وقت الموت. وقيل: يوم القيامة، «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» أي لكي تعقلوا توحيد ربكم وقدرته وتستدلوا بهذه الأحوال العجيبة على وحدانية الله تعالى[٦].

---

(١) بالمعنى من الرازي المرجع السابق. (٢) ذكره الرازي في تفسيره ٢٧/ ٨٥.

(٣) ذكره في تفسيره المرجع السابق. (٤) ما بين القوسين سقط من ب.

(٥) قال: «لتبلغوا أشدكم، متعلق بفعل محذوف تقديره ثم يبقيكم لتبلغوا وكذلك لتكونوا. وأما «ولتبلغوا أجلاً مسمى» فمعناه ونفعل ذلك لتبلغوا أجلاً مسمى وهو وقت الموت» الكشاف ٣/ ٤٣٦.

(٦) السابق وانظر البغوي ٦/ ١٠٢.

ثم قال: «هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» والمعنى أنه تعالى لما ذكر انتقال الأجسام من كونها تراباً إلى أن بلغت الشيخوخة، واستدل بهذه التغييرات على وجود الإله القادر قال بعده: «هُوَ الَّذي يُحْيِي وَيُمِيتُ» أي كما أن الانتقال من صفةٍ إلى صفةٍ أخرى من الصِّفات المتقدمة يدل على الإله القادر فكذلك الانتقال من الحياةِ إلى الموت وبالعكس، يدل على الإله القادر.

(و)[١] قوله: «فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» فيه وجوه:

الأول: معناه أنه لم ينقل هذه الأجسام من صفة إلى صفة أخرى بآلةٍ تعينه إنما يقول له كن فيكون.

الثاني: أنه عبر عن الإحياء والإماتة بقوله: «كُنْ فَيَكُونُ» فكأنه قيل: الانتقال من كونه تراباً إلى كونه نطفةً إلى كونه علقةً انتقالاتٌ تَحْصُل على التدريج قليلاً قليلاً. وأما صَيْرُورَتُهُ حَيًّا فهي إنما تحصل بتعليق جَوْهَر الرُّوح، وذلك يحدث دفعة واحدة فلهذا عبر عنه بقوله: «كن فيكون».

الثالث: أنَّ من الناس من يقول: إن الإنسان إنما يتكون من المَنِي والدَّم في الرحم في مدة معينة بحسب الانتقالات من حال إلى حال، فكأنه قيل: إنه[٢] يمتنع أن يكون[٣] كل إنسان عن إنسان آخرَ؛ لأن التسلسل محالٌ، ووقوع الحادث في الأزل محال فلا بد من الاعتراف بإنسان هو الناس وحينئذ يكون حدوث ذلك الإنسان لا بواسطة المَنِي والدم بل بإيجاد الله تعالى، ابتداءً، فعبر الله تعالى عن هذا المعنى بقوله: «كُنْ فَيَكُونُ».

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَـٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ وَٱلسَّلَـٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ**...﴾ الآيات. اعلم أنه تعالى عادَ إلى ذَمِّ الذين يجادلون في آيات الله، أي في إنكار آيات الله ودفعها والتكذيب بها، فعَجَّبَ تعالى منهم بقوله: «أنَّى يُصْرَفُونَ»؟ كيف صُرِفُوا عن دين الحق وهذا كما

---

(١) زيادة من ب. (٢) تصحيح من الرازي عن النسختين ففيهما: له.

(٣) كذا في الرازي، وفي ب يقول. وانظر تفسير الإمام الرازي ٢٧/٨٦، ٨٧.

يقول الرجل لمن لا يسمع نصحه: إلى أين يُذْهَبُ بك؟! تعجباً من غفلته[(١)].

قوله: «الذين كذبوا»، يجوز فيه أوجه، أن يكون بدلاً من الموصول قبله، أو بياناً له أو نعتاً أو خبر مبتدأ محذوف، أو منصوباً على الذم، وعلى هذه الأوجه، فقوله: «فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» جملة مستأنفة، سيقت للتهديد.

ويجوز أن يكون مبتدأ والخبر الجملة من قوله: «فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ»[(٢)] ودخول الفاء فيه واضح[(٣)].

فصل

المعنى هم الذين كذبوا بالكتاب أي بالقرآن وبما أرسلنا به رسلنا من سائر الكتب؛ قيل: هم المشركون. وعن محمد بن سِيرِين[(٤)] وجماعة: أنها نزلت في القَدَرِيَّة[(٥)].

قوله: «إِذِ الأَغْلاَلُ» فيه سؤال، وهو أن «سوفَ» للاستقبال، و «إِذْ» للماضي، فقوله: «فسوف يعلمون إذ الأغلال في أعناقهم» مثل قولك: سَوْفَ أَصُومُ أَمْسِ، والجواب: جوزوا في «إذ» هذه أن تكون بمعنى «إذا»؛ لأن العامل فيها محقق الاستقبال وهو فسوف يعلمون.

قالوا: وكما تقع «إِذَا» موضع إِذْ في قوله تعالى: **﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفضُّوا إِلَيْهَا﴾** كذلك تقع إِذْ مَوْقِعَهَا.

وقد مضى نَحْوٌ من هذا في البقرة عند قوله تعالى: **﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾** [البقرة: ١٦٥] قالوا: والذي حسن هذا تيقن وقوع الفعل، فأخرج في صورة الماضي[(٦)].

قال شهاب الدين: ولا حاجة إلى إِخْراج «إِذْ» عن موضوعها؛ بل هي باقية على دَلاَلَتِهَا على المعنى، وهي منصوبة بقوله: «فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» نصب المفعول به، أي فسوف يعلمون يوم القيامة وقت الأغلالِ في أعناقهم أيْ وقتَ سببِ الأغلال، وهي المعاصي التي كانوا يفعلونها في الدنيا، كأنه قيل: سيعرفون وقت معاصيهم التي تَجْعَلُ الأغلال في أعناقهم وهو وجه واضح غاية ما فيه التصرفُ في إذ يجعلها. وهو وجه واضح غاية ما فيه التصرف في إذ يجعلها مفعولاً بها[(٧)]. ولا يضر ذلك، فإن المعربين

---

(١) السابق.

(٢) قال بهذه الإعرابات أبو حيان في البحر ٧/ ٤٧٣ والسمين في الدر المصون ٤/ ٧٠٦.

(٣) فالفاء هنا رابطة للجواب حيث اقترنت بحرف استقبال، ويجوز أن تكون للسببية.

(٤) هو محمد بن سيرين الأنصاري مولاهم أبو بكر البصري إمام وقته عن مولاه أنس، وزيد بن ثابت، وعنه الشعبيّ، وثابت وقتادة وأيوب، وابن دينار. مات سنة ١١٠ هـ. وانظر خلاصة الكمال ٣٤٠.

(٥) البغوي ٦/ ١٠٢.

(٦) البحر المحيط ٧/ ٤٧٤ والكشاف ٣/ ٤٣٦، والتبيان ١٠٢٢، ١٣٥.

(٧) كذا في الدر المصون والأقرب مفعولاً به.

غالب أوقاتهم يقولون: منصوب «باذْكُرْ» مُقَدَّراً، أو لا يكون حينئذ إلا مفعولاً به لاستحالة عمل المستقبل في الزمن الماضي.

وجوزوا أن يكون منصوباً باذْكُرْ مقدراً، أي اذكر لهم وَقْتَ الإِغلال؛ ليخافوا ويَنْزَجِرُوا، فهذه ثلاثة أوجه خيرها أوسطها[١].

قوله: «والسَّلاَسِلُ» العامة على رفعها، وفيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه معطوف على الأَغْلاَلِ. وأخبر عن النوعين بالجار، فالجال في نية التأخير والتقدير: إِذ الأَغْلاَلُ والسَّلاَسِلُ في أعناقهم[٢].

الثاني: أنه مبتدأ، والخبر محذوف لدلالة خبر الأول عليه[٣].

الثالث: أنه مبتدأ أيضاً، وخبره الجملة[٤] من قوله: «يُسْحَبُونَ» ولا بُدَّ مِن ذكر ضمير يعود عليه منها، والتقدير: والسلاسل يُسْحَبُونَ بِهَا، حذف لِقُوَّة الدَّلالةِ عليه.

«فَيُسْحَبُونَ» مرفوع المحل على هذا الوجه. وأما في الوجهين المتقدمين فيجوز فيه النصب على الحال من المضير المنويّ في الجار، ويجوز أن يكون مستأنفاً[٥].

وقرأ ابنُ عَبَّاسٍ وابنُ مسعُودٍ وزَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ وابْنُ وَثَّابٍ، والحسن في اختياره «والسَّلاَسِلَ» نصباً ـ يَسْحَبُونَ بفتح الياء[٦]، مبنياً للفاعل، فيكون السلاسل مفعولاً مقدماً، ويكون قد عطف جملة فعلية على جملة اسمية[٧].

قال ابن عباس في معنى هذه القراءة: إذا كانوا يَجُرُّونَهَا فهو أشد عليهم يكلفون ذلك ولا يطيقونه[٨].

وقرأ ابن عباس وجماعة «والسَّلاَسِلِ» بالجر[٩] يُسْحَبُونَ مبنياً للمفعول وفيها ثلاثةُ تأويلاتٍ:

أحدها: الحمل على المعنى وتقديره إِذْ أَعْنَاقُهُم في الأغلالِ والسلاسلِ فلما كان

---

(١) قاله الإمام شهاب الدين في الدر المصون ٤/٧٠٧.

(٢) قاله ابن الأنباري في البيان ٢/٣٣٤ والسمين في الدر ٤/٧٠٧ والزجاج في معاني القرآن وإعرابه ٤/٣٧٨، وأبو البقاء في التبيان ١٠٢٢ والنحّاس في الإعراب ٤/٤٢.

(٣) قاله العكبري في تبيانه السابق ١٠٢٢ وكذلك السمين في الدر.

(٤) البيان لابن الأنباري المرجع السابق قال: «ومنهم من وقف على أعناقهم وابتدأ: والسلاسل يسحبون في الجحيم».

(٥) التبيان لأبي البقاء والدر المصون للسمين المرجعين السابقين.

(٦) من الشاذات غير المتواترات ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/٤٣٦ وأبو الفتح في المحتسب ٢/٢٤٢ وابن خالويه في المختصر ٢٣٣.

(٧) الكشاف السابق.

(٨) القرطبي ١٥/٣٣٢ والبحر المحيط ٧/٤٧٥.

(٩) البحر والكشاف السابقين.

معنى الكلام على ذلك حمل عليه في العطف[١].

قال الزمخشري: ووجهه أنه لو قيل: «إِذْ أَعْنَاقُهُمْ في الأغلال مكان قوله: إِذِ الأَغْلاَلُ في أعناقهم» لكان صحيحاً مستقيماً، فلما كانتا عبارتين مُعْتَقِبَتَيْنِ[٢]، حمل قوله: «والسلاسل» (عليه) على العبارة الأخرى[٣]. ونظيره:

٤٣٤٧ ـ مَشَائِيمُ لَيسُوا مُصْلِحِينَ عَشِيرَةً ... وَلاَ نَاعِبٍ إلاَّ بِبَيْنٍ غُرَابُهَا[٤]

كأنه قيل: بمصلحين.

وقرىء: بالسَّلاَسِلِ[٥]. وقال ابن عطية: تقديره: إذا أعناقهم في الأغلال والسلاسلِ فعطف على المراد من الكلام لا على ترتيب اللفظ؛ إذ ترتيبه فيه قلب، وهو على حد قول العرب: أَدْخَلْتُ القَلَنْسُوَةَ فِي رَأْسِي[٦].

وفي مصحف أُبيٍّ: وفي السلاسلِ يَسْحَبُونها. قال أبو حيان بعد قول ابن عطية والزمخشري المتقدم: ويسمى هذا العطف على التوهم، إلا أن قولهم: إدخال حرف الجر على مصلحين أقرب من تغيير تركيب الجملة بأسرها، والقراءة من تغيير تركيب الجملة السابقة بأسرها[٧]، ونظير ذلك قوله:

٤٣٤٨ ـ أَجِدَّكَ لَنْ تَرَى بِثُعَيْلِبَاتٍ ... وَلاَ بَيْدَاءَ نَاجِيَةً ذَمُولاَ
وَلاَ مُتَدَارِكٍ والَّليْلُ طِفْلٌ ... بِبَعْضِ نَوَاشِغِ الوَادِي حُمُولاَ[٨]

التقدير: لَسْتَ براءٍ ولا بمتداركٍ.

---

(١) وهو ما يسمى بالعطف على المعنى مع القرآن تأدباً ومع غيره بالعطف على التوهم.

(٢) في الكشاف متعقبتين.

(٣) الكشاف ٣/ ٤٣٦.

(٤) من الأبيات المشهورة في شواهد النحو وهو من الطويل، ونسبه سيبويه في الكتاب إلى الأحوص الرِّياحيِّ مرة، وإلى الفرزدق مرة أخرى، وشاهده: عطف ولا ناعب ـ بالجر ـ على توهم دخول الباء في خبر ليس كأنه قيل: بمصلحين، والباء تدخل في خبر «ليس وما» كثيراً، وهو ما يسمى بالعطف على التوهم. وانظر الكتاب ١/ ١٦٥، ٣٠٦، ٣/ ٢٩، والخصائص ٢/ ٣٥٤، والإنصاف ١٩٣، ٣٩٥، وابن يعيش ٧/ ٥٧، ٨/ ٦٩ والرضي على الكافية ٢/ ٢٦٩، والخزانة ٢/ ١٥٨، والكشاف ٣/ ٤٣٦، والمغني ٥٥٣ والأشموني ٢/ ٢٣٥، والبحر المحيط ٧/ ٤٧٥، والإفصاح ١٥٩، والدر المصون ٤/ ٧٠٨.

(٥) هي قراءة شاذة لم ينسبها جار الله الزمخشري وكذلك السمين إلى من قرأ بها. انظر الكشاف ٣/ ٤٣٦، والدر المصون ٤/ ٧٠٨.

(٦) البحر المحيط ٧/ ٤٧٥ وهو رأي وجيهٌ.

(٧) وأبو حيان في هذا يرد على ابن عطية مفضلاً إطلاق عطف التوهم في القرآن عن قلب الكلام كما قال ابن عطية بذلك.

(٨) من تمام الوافر، للمرَّار الفقعسي، وقد تقدم.

وهذا الذي قالاه سبقهما إليه الفَرَّاءُ فإنه قال: «من جر السلاسل حمله على المعنى»[١]، إذ المعنى أعناقهم في الأغلال والسلاسل.

الوجه الثاني: أنه عطف على «الحميم»[٢]، فقدم على المعطوف عليه وسيأتي تقرير ذلك.

الثالث: أن الجر على تقدير إضمار الخافض، ويؤيده قراءة أُبَيٍّ: «وفِي السَّلاَسِلِ» وقرأ غيره: وبالسَّلاَسِلِ وإلى هذا نحا الزجاج[٣]، إلاَّ أنَّ ابْنَ الأنباريِّ[٤] ردَّه وقال: لو قلت: «زيد في الدار» لم يحسن أن تضمر «في» فتقول: زيد (في[٥]) الدار ثم ذكر تأويل الفراء وخرج القراءة عليه. ثم قال: كما تقول: «خَاصَمَ عَبْد اللَّهِ زَيْداً العَاقِلَيْنِ»، بنصب «العاقلين» ورفعه[٦]؛ لأن أحدهما إذا خاصم صاحبه فقد خاصمه الآخر[٧]. وهذه المسألة ليست جارية على أصول البصريين، ونصّوا على منعها وإنما قال بها من الكوفيين ابْنُ (سَـ)[٨] ـعْدَانَ.

وقال مَكيّ: وقد قرىء: والسَّلاَسِلِ بالخفض على العطف على الأعناق، وهو غلط؛ لأنه يصير الأغلال في الأعناق وفي السلاسل ولا معنى للأغلال في السَّلاَسِل[٩].

قال شهاب الدين: وقوله: على العطف على الأعناق ممنوع بل خفضه على ما تقدم[١٠]. وقال أيضاً: وقيل: هو معطوف على «الحميم» وهو أيضاً لا يجوز؛ لأن المعطوف المخفوض، لا يتقدم على المعطوف عليه لو قلت: «مَرَرْتُ وَزَيْدٍ بِعَمْرو» لم يجز، وفي المرفوع يجوز، نحو: قَام وَزَيْدٌ عَمْرٌو، ويبعد في المنصوب لا يحسن رأيتُ وَزَيْداً عَمْراً، ولم يُجِزْهُ في المخفوض أحدٌ[١١].

قال شهاب الدين: وظاهر كلامه أنه يجوز في المرفوع منعه[١٢]، وقد نصوا على أنه لا يجوز إلا ضرورة بثلاثة شروط:

---

(١) معاني الفراء ٣/١١. (٢) الدر المصون ٤/٧٠٨.

(٣) معاني القرآن وإعرابه ٤/٣٧٨.

(٤) يبدو أنه ابن الأنباري الكوفي أبو بكر العالم الكبير الذي تبحر في علوم جمة، وكان من أعلم الناس وأفضلهم في نحو الكوفيين. من مؤلفاته الأضداد وغيرها مات سنة ٣٣٦ وانظر نزهة الألباء ١٧٨ ـ ١٨٦.

(٥) سقط حرف (في) في القرطبي وهو المناسب للسياق.

(٦) في القرطبي ويجوز رفعهما.

(٧) وانظر القرطبي ١٥/ ٣٣٢ والبحر المحيط ٧/ ٤٧٥، والدر المصون ٤/ ٧٠٩.

(٨) زيادة عن النسختين وتصحيحٌ لهما ففيهما ابن معدان ولكن الأصح أنه ابن سعدان أبو جعفر الضرير كان من أكابر الكوفيين، محمد بن سعدان، نشأ بالكوفة، وأخذ عن أبي معاوية الضرير، وغيره، مات سنة ٢٣١ هـ وانظر إنباه الرواة للقفطي ٢/٣٥٨، ٣/١٠٢.

(٩) مشكل إعراب القرآن ٢/٢٦٨. (١٠) الدر المصون ٤/٧٠٩.

(١١) مشكل الإعراب المرجع السابق. (١٢) كذا في النسختين وفي الدر المصون له «يبعد» بدل «منعه».

أن لا يقع حرف العطف صدراً، وأن يكون العامل متصرفاً، وأن لا يكون المعطوف عليه مجروراً[(١)] وأنشدوا:

٤٣٤٩ ـ .... عَلَيْكِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ السَّلَامُ[(٢)]

إلى غير ذلك من الشواهد مع تنصيصهم على أنه مختص[(٣)] بالضرورة. و «السَّلاَسِلُ» معروفة، قال الراغب: «وتَسَلْسَلَ الشيءُ اضطرب كأنه تُصُوِّر منه تسلسلٌ متردد فتردد لفظه تنبيهاً على تردد معناه. وماء سلسل متردد في مقره»[(٤)].

والسَّحْبُ: الجر بعنف، والسَّحَابُ من ذلك؛ لأن الريح تَجُرُّهُ، أو لأنه يجر الماء[(٥)]، وسجرت التَّنُّورَ أي ملأته ناراً وهيجتها، ومنه البحر المسجور، أي المملوء، وقيل: المضطرم ناراً[(٦)]، وقال الشاعر (ـ رحمة الله عليه ـ[(٧)]):

٤٣٥٠ ـ إِذَا شَاء طَالَعَ مَسْجُورةً تَرَى حَوْلَهَا النَّبْعَ والشَّوْحَطَا[(٨)]

فمعنى قوله تعالى هنا: «ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ» أي يوقد بهم، كقوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦] والسَّجِيرُ: الخليلُ الذي يَسْجُرُ في مَوَدَّة خليله، كقولهم: فُلاَنٌ يَحْتَرِقُ فِي مَوَدَّةِ فُلاَنٍ[(٩)].

---

(١) المرجع السابق وقد قال ابن الأنباري في البيان: «وقد يجيء التقديم للضرورة قليلاً في المرفوع وفي المنصوب أقل منه، ولم يجيء ذلك في المجرور ولم يجزه أحد البتة» البيان ٢/ ٣٣٤.

(٢) من تمام الوافر وينسب للأحوص، وصدره:

ألا يا نخلة من ذات عرقٍ ....

و «ذات عرق»: مكان بين نجد وتهامة، والنخلة يكنى بها عن المرأة. وشاهده: تقديم المعطوف (رحمة الله) على المعطوف عليه (السلام) للضرورة الشعرية وينسب هذا للكوفيين ويروى الشطر الثاني:

بـرود الظـلِّ شـاعكـم السَّـلام

وعلى ذلك فلا شاهد حينئذ.

وانظر الخصائص ٢/ ٣٨٦، والخزانة ١/ ٣٩٩ ـ ٤٠١ والتصريح ١/ ٣٤٤، ٣٧٦ ومجالس ثعلب ٢٣٩ والرضي ٢/ ٩٣، والهمع ١/ ١٧٣، ٢٢٠، ٢/ ١٣٠، ١٤٠، وأمالي الزجاجي ٨١، والمغني ٧/ ٣٥، ٦٥٩، وشرح شواهده للسيوطي ٧٧٧ والدر المصون ٤/ ٧١٠.

(٣) انظر السيوطي في همعه ٢/ ١٤٠، ١٤١.

(٤) نقله في المفردات ٢٣٧.

(٥) السابق.

(٦) اللسان سحر ١٩٤٢.

(٧) ما بين القوسين زيادة من أ.

(٨) من المتقارب وقائله النمر بن تولب، وصواب القافية كما في المرجع السابق: السَّاسما. والمسجورة: الروضة المملوءة عشباً. والنَّبع والسَّاسم من شجر الجبال. والشَّوحط: نوع من التبغ والاستشهاد بالبيت على أنَّ المسجورة المملوءة وانظر ابن يعيش ٨/ ١٠٢، ومجاز القرآن ٢/ ٢٣٠، ٣١، والدر المصون ٤/ ٧١٠ وغريب القرآن ٤٢٣، ٤٢٤.

(٩) انظر اللسان السابق والدر المصون ٤/ ٧١٠.

فصل

هذه كيفية عقابهم، والمعنى أنه يكون في أعناقهم أغلال وسلاسل ثم يسحبون بتلك السلاسل في الماء المُسَخَّنِ بنار جهنم، ثم تُوقَدُ بهم النار «ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» يعني الأصنام «قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا» أي فقدناهم وغابوا عن عيوننا فلا نراهم، ثم قالوا: «بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئاً» أنكروا، كقولهم في سورة الأنعام: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] وقيل: معناه لم نكن ندعو من قبل شيئاً يضر وينفع. وقال الحسين بن الفضل(١): أي لم نكن نصنع من قبل شيئاً أي ضاعت عبادتنا لها كما يقول من ضاع عمله: «ما كنت أعمل شَيْئاً»(٢).

ثم قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الكَافِرِينَ﴾ قال القاضي: معناه أنه يُضِلُّهم عن طريق الجنة، ولا يجوز أن يقال: يضلهم عن الحجة، وقد هداهم في الدنيا، وقال «يُضِلُّ الله الكافرين» مثل ضلال آلهتهم عنهم يضلهم عن آلهتهم حتى أنهم لو طلبوا الآلهة، أو طلبتهم الآلهة لم يجد أحدهما الآخر(٣).

قوله تعالى: ﴿بما كنتم تفرحون﴾ أي ذلكم العذابُ الذي نزل بكم «بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ» تَبْطُرون وتَأْشِرُونَ «فِي الأَرْضِ بغير الحق وبما كنتم تمرحون» تفرحون وتختالون(٤). وقيل(٥): تفرحون وتمرحون من باب التجنيس المحرف، وهو أن يقع الفرق بين اللفظين بحرف(٦).

قوله: «ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ» أي السبعة المقسومة لكم «خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى المُتَكَبِّرِينَ» المخصوص بالذم محذوف؛ أي جهنمُ أو مَثْوَاكُمْ، ولم يقل: فبئس مدخل؛ لأن الدخول لا يدوم وإنما يدوم الثّواء، فلذلك خصه بالذم، وإن كان أيضاً مذموماً(٧).

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا

---

(١) هو الحسين بن الفضل بن عمير البجلي الكوفي ثم النيسابوري أبو علي المفسر، الأديب، إمام عصره في معاني القرآن سمع يزيد بن هارون وغيره وروى عنه محمد بن صالح وآخرون، مات سنة ٢٨٢هـ ينظر طبقات المفسرين للداودي ١/ ١٥٩، ١٦٠.

(٢) نقله البغوي ٦/ ١٠٣.

(٣) الرازي ٢٧/ ٨٧، ٨٨.

(٤) البغوي في المرجع السابق.

(٥) في ب: وقوله.

(٦) انظر بغية الإيضاح ٨٠، والإيضاح ٢٧٢، والمثل السائر ١٠١.

(٧) قاله السمين في الدر ٤/ ٧١١.

وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَأَيَّ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾

قوله تعالى: «فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ» لما زَيَّفَ طريقة المجادلين في آيات الله تعالى أمر في هذه الآية رسوله بأن يصبرَ على أذاهم بسبب جدالهم، ثم قال: «إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ». والمراد ما وعد الرسول نُصْرته، ومن إنزال العذاب على أعدائه.

قوله: «فإِمَّا نُرِيَنَّكَ» قال الزمخشري: أصله: فَإِن نُرِكَ و «ما» مزيدة لتأكيد معنى الشرط، ولذلك ألحقت النون بالفعل، ألا ترَاك تقول: «إِنْ تُكْرِمَنِّي أُكْرِمْكَ، ولكن إِمَّا تُكْرِمَنِّي أُكْرِمْكَ»(١) قال أبو حيان: «وما ذكره(٢) من تَلاَزُم النون، وما الزائدة، ليس مذهب سيبويه، إنما هو مذهب المبرد(٣)، والزجاج(٤).

ونص سيبويه(٥) على التخيير، وقد تقدمت هذه القواعدُ مستوفاةً.

قوله: «فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ» ليس جواباً للشرط الأول، بل جواباً لما عطف عليه. وجواب الأول محذوف. (قال الزمخشري(٦): «فَإِلَيْنَا» متعلق بقوله «نَتَوفَّيَنَّكَ» وجواب نرينك محذوف) تقديره: فإن نرينك بعض الذي نعدهم من العذاب والقتل يوم بدر، فذاك؛ وإنْ «نَتَوَفَّيَنَّكَ» قبل يوم بدر «فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ» فننتقم منهم أشدَّ الانتقام(٧). وقد تقدم مثلُ هذا في سورة يونس(٨). وبحثُ أبي حَيَّانَ مَعَهُ.

وقال أبو حيان هَهُنَا: وقال بعضهم(٩): جواب «إما نُرِيَنَّكَ» محذوف؛ لدلالة

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٣٧.
(٢) بالمعنى في البحر المحيط ٧/ ٤٧٧.
(٣) لم أجد في المقتضب ما يخالف فيه المبرد سيبويه في هذه المسألة، وكما أفهم بذلك محقق هذا الكتاب وقد قال في الكامل: «فتقول: إن تأتني آتك، وإمّا تأتنّي آتك. .» الكامل ١/ ٢٨٩، وانظر المقتضب أيضاً ٣/ ١٣، ١٤، ١٩.
(٤) ذكره السيوطي في الهمع ٢/ ٧٨، وقد قال الزجاج في معاني القرآن ١/ ٨٦: «وإعراب إما في هذا الموضع إعراب حرف الشرط والجزاء، إلا أن الجزاء إذا جاء في الفعل معه النون الثقيلة، أو الخفيفة لزمتها ما». معاني القرآن له ٨٦١.
(٥) قال في الكتاب: «ومن مواضعها ـ أي النون ـ حرف الجزاء، إذا وقعت بينها وبين الفعل «ما» للتوكيد وذلك لأنهم شبهوا «ما» باللام التي في لتفعلنّ لما وقع التوكيد قبل الفعل ألزموا النون آخره كما ألزموا هذه اللام وإن شئت لم تفخم النون، كما أنك إن شئت لم تجىء بها» الكتاب ٣/ ٥١٤، ٥١٥.
(٦) ما بين القوسين سقط من أ الأصل.
(٧) بالمعنى من الكشاف ٣/ ٤٣٨ قال: قلت: فإلينا يرجعون متعلق بـ «نتوفينك» وجزاء «نرينَّك» محذوف. . . الخ.
(٨) يقصد الآية ٤٦ ﴿وإمَّا نرينَّك بعض الَّذي نعدهم أو نتوفينك﴾.
(٩) لعله الطبري فما في جامع البيان موافق لما نقله في البحر. انظر البحر ٧/ ٤٧٧ وجامع البيان للإمام ابن جرير الطبري ٢٥/ ٥٦.

المعنى عليه أي فتقرّ عينك، ولا يصح أن يكون «فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ» جواباً للمعطوف عليه والمعطوف، لأن تركيبَ «فإما نُرينك بعض الذي نعدهم في حياتك فإلينا يرجعون» ليس بظاهر، وهو يصحُّ أن يكون جواب «أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ» أي فإلينا يرجعون فننتقم منهم ونعذبهم، لكونهم لم يَتَّبِعُوكَ(١).

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ [الزخرف: ٤١ و ٤٢]. إلا أنه هنا صرح بجواب الشرط، قال شهاب الدين: وَهَذَا(٢) بعَيْنِهِ هو قول الزمخشري(٣). وقرأ السُّلَمِيُّ ويَعْقُوبُ: يَرْجِعُونَ بفتح ياء الغيبة مبنياً للفاعل، وابْنُ مِصْرِفٍ ويعقوبُ أيضاً بفتح الخطاب(٤).

قول: «مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا» يجوز أن يكون «مِنْهُمْ» صفة «لِرُسُلاً» فيكون «مَنْ قَصَصْنَا» فاعلاً لاعتماده ويجوز أن يكون خبراً مقدماً، و «مَنْ» مبتدأ مؤخر.

ثم في الجملة وجهان:

أحدهما: الوصف «لِرُسُلاً» وهو الظاهر.

والثاني: الاستئناف(٥).

فصل

معنى الآية قال لمحمد (ـ ﷺ(٦) ـ)، أنت كالرسل من قبلك وقد ذكرنا حال بعضهم لك ولم نذكر حال الباقين وليس فيهم أحد أعطاه الله آياتٍ ومعجزاتٍ، إلا وقد جادله قومُه فيها وكَذَّبُوه فصبروا، وكانوا أبداً يقترحون على الأنبياء إظهار المعجزات الزائدة على الحاجة عِناداً وعبثاً، «وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ»، والله تعالى علم الصلاح في إظهار ما أظهروه، فلم يَقْدَحْ ذلك في نُبُوَّتِهِمْ، فكذلك الحال في اقتراح قومك عليك المعجزات الزائدة لما لم يكن إظهارها صلاحاً لا جَرَمَ ما أظهرناها(٧).

ثم قال: «فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالحَقِّ» أي فإذا جاء قضاءُ الله بين الأنبياء والأمم قضي بالحق «وَخَسر هُنَالِكَ المُبْطِلُونَ» وهم المعاندون الذين يجادلون في آيات الله فيقترحون المعجزات الزائدة على قدر الحاجة تعنتاً وعبثاً.

قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ**...﴾ الآية. لما ذكر الوعيدَ عاد إلى ذِكر

---

(١) البحر المحيط السابق. (٢) الدر المصون ٤/ ٧١٢.

(٣) وأبو حيان قد نقل هذا القول أيضاً في بحره السابق وانظر الكشاف ٣/ ٤٣٨.

(٤) لم أجد هاتين القراءتين في المتواتر، فقد نقل الأولى صاحب الإتحاف ٣٨٠ فهي من الأربع فوق العشر ونقل الاثنتين أبو حيان في البحر ٧/ ٤٧٧.

(٥) ذكر هذه الإعرابات العكبري في التبيان ١١٢٢ والسمين في الدر ٤/ ٧١٢.

(٦) زيادة من أ. (٧) الرازي ٢٧/ ٨٨، ٨٩.

ما يدل على وجود الإِلَهِ القَادِرِ الحَكِيم، وإِلى ذكر ما يصلح أن يعد إِنعاماً على العباد. قال الزجاج: «الأَنْعَامُ الإِبل[١] (خاصةً)»، وقال القاضي: هي الأزواج الثمانية[٢]. قوله: «مِنْهَا. . . وَمِنْهَا».

«من» الأولى يجوز أن تكونَ لِلتَّبْعِيض[٣]، إذ ليس كُلُّها تُرْكَبُ، ويجوز أن تكون لابتداء الغاية إذ المرادُ بالأنعام شيءٌ خاصٌّ هي الإبل، قال الزجاج: «لأنه لم يُعْهد المركوبُ غيرها»[٤].

وأما الثانية فكالأولى. وقال ابن عطية: هي لبيان الجنس قال: لأن الخيل منها ولا تُؤْكَلُ[٥].

فإن قيل: ما السَّبَبُ في إدخال لام العِوَض على قوله: «لِتَرْكَبُوا» وعلى قوله: «لِتَبْلُغُوا» ولم يدخل على البَوَاقِي؟.

فالجواب: قال الزمخشري: الركوب في الحج والغزو إما أن يكون واجباً أو مندوباً، وأيضاً ركوبها لأجل حاجتهم، وهي الانتقال من بلدٍ إلى بلد آخر لطلب علم أو إقامة دين يكون إما واجباً أو مندوباً فهذان القسمان أغراض دينيةٍ، فلا جَرَمَ أدخل عليها حرف التعليل نظيره قوله تعالى: ﴿**وَالخَيْلَ والبِغَالَ والحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً**﴾ فأدخل حرف التعليل على «الرُّكُوبِ» ولم يدخله على الزِّينَةِ[٦].

قوله «لِتَرْكَبُوا مِنْهَا» أي بعضها «وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ» أي في أصوافها وأوبارها وأشعارها وألبانها «وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ» لحمل أثقالكم من بلد إلى بلد. قوله: «وَعَلَيْهَا وَعَلَى الفُلْكِ تُحْمَلُونَ» أي على الإبل في البرِّ، وعلى السفن في البَحْرِ.

فإن قيل: لِمَ لَمْ يقل: في الفلك، كما قال: «قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ»؟.

فالجواب: كلمة على للاستِعْلاَء، فالشيء الذي يُوضَع على الفلك كما صح أن يقال: وضع فيه صح أن يقال: وضع عليه ولما صح الوجهان كانت لفظةُ «عَلَى» أولى حتى يتم المزاوجة في قوله: «وعليها وعلى الفلك تحملون»[٧].

---

(١) معاني القرآن وإعرابه له ٤/٣٧٨. (٢) الرازي ٢٧/٨٩.

(٣) ذكره أبو حيان في البحر المحيط ٧/٤٧٨.

(٤) لم أجد في معاني القرآن له هذا، بل نقله عنه القرطبي في الجامع ١٥/ ٣٣٣٥ وأبو حيان في البحر ٧/ ٤٧٨.

(٥) البحر المحيط المرجع السابق وفيه أيضاً «لأن الجمل منها يؤكل».

(٦) المعنى من الكشاف لجار الله الزمخشري ٣/٤٣٨، ٤٣٩، وباللفظ من تفسير الإمام الرازي ٢٧/٨٩ والآية ٨ من النحل.

(٧) الزمخشري في الكشاف المرجع السابق والرازي السابق أيضاً. والآية ٤٠ من هود.

وقال بعضهم[١]: إن لفظة «فِي» هناك أَلْيَقُ؛ لأن سفينة نُوحٍ على ما قيل كانت مُطْبِقَةً عليهم وهي محيطة بهم كالوعاء، وأما غيرها فالاستعلاء فيه واضح، لأن الناس على ظهرها.

قوله: «وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ» دلائل قدرته، وقوله: «فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ» منصوب بـ «تُنْكِرُونَ» وقدم وجوباً لأن له صدر الكلام. قال مكيّ: ولو كان مع الفعلِ هاءٌ لكان الاختيار الرفع في أي بخلافِ ألف الاستفهام تدخل على الاسم، وبعدها فعلٌ واقعٌ على ضمير الاسم فالاختيار[٢] النصب نحو قولك: أَزَيْداً ضَرَبْتَهُ، هذا مذهب سيبويه فرق بين الألف وبين[٣] «أي» يعني أنك إذا قُلْت: أَيّهُمْ ضَرَبْتَ؟ كان الاختيار الرفع؛ لأنه لا يُحْوجُ إلى إضمار مع أن الاستفهام موجود وفي: «أَزَيْداً ضَرَبْتَهُ» يختار النصب لأجل الاستفهام فكان مقتضاه اختيار النصب أيضاً فيما إذا كان الاستفهام بنفس الاسم، والفرق عَسِرٌ[٤].

وقال الزمخشري: «فَأَيَّ آيَاتِ» جاءت على اللغة المستفيضة وقولك: فأية آياتِ الله قليلةٌ؛ لأن التفرقة بين المذكر والمؤنث في الأسماء غير الصفات، نحو: حِمَار، وحِمارة غريب، وهو في أي أغرب (لإبهامه[٥]) قال أبو حيانَ (رَحْمَةُ[٦] اللَّهِ عَلَيْهِ): ومِن قلة تأنيث أيٍّ قولُه:

٤٣٥١ ـ بِـأَيِّ كِـتَـابٍ أَمْ بِـأَيَّـةِ سُـنَّـةٍ ... تَـرَى حُـبَّـهُـمْ عَـاراً عَـلَـيَّ وتَـحْـسِـبُ[٧]

وقوله: وهو في «أي» أغرب إن عَنَى «أيًّا» على الإطلاق فليس بصحيح؛ لأن المستفيضَ في النِّداء أن يؤنث في نداء المؤنث كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧] ولا نعلم أحداً ذكر تذكيرها فيه فيقول: يأَيُّها المرأَةُ، إلا صاحب[٨] البَدِيع في النَّحْوِ. وإن

---

(١) هو السمين في الدر المصون ٤/ ٧١٢ قال: «ويظهر أن في هناك أليق.... الخ».

(٢) في المشكل: «هذا يختار فيها».

(٣) نقله في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٢٦٨، وقد قال سيبويه في الكتاب: «وسألته (يقصد أبا الخطّاب) عن أيّهم، لم لم يقولوا: أيهم مررت به، فقال: لأن أيهم هو حرف استفهام لا تدخل عليه الألف، وإنما تركت الألف استغناء فصار بمنزلة الابتداء، ألا ترى أن حدَّ الكلام أن تؤخر الفعل، فتقول: أيهم رأيت كما تفعل ذلك بالألف فهي نفسها بمنزلة الابتداء». الكتاب ١/ ١٢٦.

(٤) هذا شرح وتعقيب السمين على كلام مكي في الدر ٤/ ٧١٣.

(٥) سقطت من أ وانظر الكشاف ٣/ ٤٣٩. (٦) زيادة من أ الأصل.

(٧) من الطويل للكميت بن زيد في مدح آل البيت. والشاهد: «أم بأية سنة» حيث أنَّث «أيًّا» في الاستفهام وهو قليل كما قال أبو حيان وهي مضافة أيضاً، وقد ورد عن الأخفش جواز التأنيث لا على وجه القلة. وانظر البحر المحيط ٧/ ٤٧٨، وحاشية يس ١/ ٢٦١ وشرح الكافية للرضي ٢/ ٢٧٩، والخزانة ٩/ ١٣٧، والهمع ١/ ١٥٢ وتمهيد القواعد ٢/ ٢٨٩، ٢٩٨ وتوضيح المقاصد ١/ ٣٨٨ والأشموني ٢/ ٣٥ وديوانه ١٦.

(٨) هو محمد بن مسعود الغزني، ذكره ابن هشام في المغني وسماه ابن الزّكي وقال: خالف النحاة وأكثر أبو حيان من النقل عنه، مات سنة ٤٢١ هـ وانظر كشف الظنون ١/ ٢٢٤. وقال صاحب البديع: =

عنَى غير المناداة فكلامه صحيح يقل تأنيثها في الاستفهام، وموصولة شرطية.

قال شهاب الدين: أما إذا وقعت صفةً لنكرة أو حالاً لمعرفة فالذي ينبغي أن يجُوزَ الوجهان كالموصولة[1] ويكون التأنيث أقلّ نحو: مررتُ بامرأةٍ أَيَّةِ امرأة، وجَاءَتْ هِنْدٌ أَيَّةَ امْرَأَةٍ وكان ينبغي لأبي حَيَّانَ[2] أن ينبه على هذين الفَرْعَيْنِ[3].

فصل

معنى قوله «فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ» أَيْ هذه الآيات التي عددناها كلها ظاهرة باهرة ليس في شيء منها ما يمكن إنكاره.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

قوله تعالى: **﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا في الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ. . .﴾** معناه أن هؤلاء الكفار الذين يجادلون في آيات الله وحصل الكِبْر العظيم في صدورهم، إنما كان السبب في ذلك طلب الرياسة والتقديم على الغير في المال والجاه ومن ترك الانقياد على الحق طلباً لهذه الأشياء فقد باع الآخرة بالدنيا وهذه طريقة فاسدة؛ لأن الدنيا ذاهبة واحتج بقوله تعالى: **﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ. . .﴾** يعني لو ساروا في أطراف الأرض لعرفوا أن عاقبة المتكبرين والمتمردين ليس إلا الهلاك والبَوَار مع أنهم كانوا أكثر عَدَداً وعِدَداً ومالاً من هؤلاء المتأخرين، فلما لم تُفِدْهُمْ تلك المُكْنَةُ العظيمة إلا الخَيْبَة والخَسَار فكيف حال هؤلاء الفقراء المساكين؟!.

قوله: «فما أغنى عنهم» يجوز في «ما» أن تكون نافية واستفهامية[4] بمعنى النفي، ولا حاجة إليه وقوله «مَا كَانُوا» يجوز أن يكون «ما» مصدرية، ومحلها الرفع أي مَكْسُوبُهُمْ أو كَسْبُهُمْ ويجوز أن يكون بمعنى الذي[5] فلا عائد على الأول وعلى الثاني هو محذوف أي يكسبونه وهي فاعل «بأَغْنَى» على التقديرين.

= الاختيار إثبات التاء ولا تثنى ولا تجمع. انظر شرح المرادي على الألفية ٣/ ٣١٠ والبحر المحيط ٧/ ٤٨٧.

(١) في ب: الموصول.

(٢) وفيها: على أبي حيان.

(٣) وانظر الدر المصون ٤/ ٧١٣.

(٤) قال بذلك الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٣٩.

(٥) المرجعين السابقين.

قوله «بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ العِلْم» فيه أوجه:

أحدها: أنه تهكم بهم، والمعنى ليْسَ عندهم عِلْم[١].

الثاني: أن ذلك جاء على زَعْمِهِمْ أنَّ عندهم علماً ينتفعون[٢] به.

الثالث: أن «مِنْ» بمعنى بدل أي بما عندهم من الدنيا بدل العلم.

الرابع: أن يكون الضمير للرسل، أي فَرِحَ الرسل بما عندهم من العلم.

الخامس: أن الأول للكفار، وأما الثاني لِلرسل، ومعناه فرح الكفار فَرَحَ ضَحِكٍ واستهزاءٍ بما عند الرسل من العلم؛ إذ لم يأخذوه بقبول ويمتثلوا أوامر الوحي ونواهيه[٣]. وقال الزمخشري: وَمِنْهَا ـ أي من الوجوه ـ أن يوضع قوله: فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ العِلْم مبالغة في نفي فرحهم بالوحي الموجب لأقصى الفرح والمسرة مع تهكم بفَرْطِ خُلُوِّهم منَ العلم[٤] وجهلهم.

قال أبو حيان: ولا يعبر بالجملة الظاهر كونها مثبتة عن الجملة المنفية إلا في قليلٍ من الكلام، نحو: «شَرٌّ أهَرَّ ذا ناب» على خلاف فيه، ولما آل أمره إلى الإثبات المحصور جاز. وأما في الآية فينبغي أن لا يحمل على القليل لأن في ذلك تخليطاً لمعاني الجمل المتباينة[٥].

فصل

قال المفسرون[٦]: الضمير في قوله «فَرِحُوا» يحتمل أن يكون عائداً على الكفار وأن يكون عائداً إلى الرسل فإن عاد إلى الكفار، فذلك العلم الذي فرحوا به قيل: هو الأشياء التي كانوا يسمونها علماً، وهي الشبهات المحكيّة عنهم في القرآن، كقولهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] وقولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٨٤] وقولهم: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨] ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦] وكانوا يفرحون بذلك ويدفعون به علوم الأنبياء، كما قال: ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣] و [الروم: ٣٢] وقيل: المراد[٧] علوم الفلاسفة فإنهم كانوا إذا سمعوا بوحي الله دفعوه وصغَّروا علوم الأنبياء عن علومهم كما روي عن سقراط أن سمع بمجيء أحد الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فقيل له: لو هاجرت إليه فقال: نحن قوم مهتدون فلا حاجة بنا إلى من يهدينا. وقيل: المراد علمهم

---

(١) السابقين أيضاً والأسبقية للزمخشري وعنه أخذ أبو حيان.

(٢) قال السمين في الدر ٤/ ٧١٤.

(٣) قال بهذين الوجهين أبو حيان في البحر ٧/ ٤٧٩.

(٤) في الكشاف العلماء وانظر الكشاف ٣/ ٤٣٩.

(٥) البحر المرجع السابق.

(٦) يعني بهم الرازي.

(٧) هذا هو رأي الزمخشري وممن نقله عنه الرازي في تفسيره، انظر الكشاف ٣/ ٤٣٩ والرازي ٢٧/ ٩١.

بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها[١]، كقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧] «ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِنَ العِلْمِ» فلما جاءت الرسل بعلوم الديانات ومعرفة الله تعالى، ومعرفة المعاد وتطهير النفس من الرذائل لم يلتفتوا إليها واستهزأوا بها، واعتقدوا أنه لا علم أنفع وأجلب للفائدة من علمهم ففرحوا به.

وإن عاد الضمير إلى الأنبياء ففيه وجهان:

الأول: أن يفرح الرُّسُلُ إذَا رَأَوا من قومهم جهلاً كاملاً وإعراضاً عن الحقّ وعلموا سوء غَفْلَتِهِمْ وما يلحقهم من العقوبة على جهلهم وإعراضهم يفرحوا بما أوتوا من العلم، ويشكروا الله عليه «وَحَاقَ» بالكافرين جزاء جهلهم واستهزائهم.

الثاني: أن المراد أن الرسل فرحوا بما عندهم من العلم فَرَحَ ضَحِكٍ[٢] واستهزاء.

قوله: «فَلَمَّا رَأَوا بَأْسَنَا» أي عذابنا «قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مشركين» أي تبرأنا مما كنا نعدل بالله، البأسُ: شدة العذاب، ومنه قوله تعالى: ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ [الأعراف: ١٦٥]. قوله: «فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إيمَانُهُمْ» يجوز رفع «إيمانهم» اسماً لكان، و «يَنْفَعُهُمْ» جملة خبراً مقدماً، ويجوز أن يرتفع بأنه فاعل ينفعهم، وفي كان ضمير الشأن[٣].

وقد تقدم هذا محققاً في قوله: ﴿مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ﴾ [الأعراف: ١٣٧] وأنه ليس من باب التنازع[٤]. ودخل حرف النفي على الكون لا على النفي؛ لأنه بمعنى لا يصح ولا ينبغي، كقوله تعالى: ﴿**مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ**﴾[٥].

واعلم أن المراد بالوقت الذي لا ينفع الإيمان فيه هو وقت مُعَايِنَة نزول ملائكة الرحمة وملائكة العذاب لأن في ذلك الوقت يصير المرء ملجأ إلى الإيمان فذلك الإيمان لاَ يَنْفَعُ.

قوله: «سُنَّةَ اللَّهِ» يجوز انتصابها على المصدر المؤكد لمضمون الجملة يعني إن الذي فعل الله بهم سنة سابقة من الله[٦]، ويجوز انتصابها على التحذير، أي احذَرُوا[٧] سنة الله في المكذبين «التي قد خلت في عباده»، وتلك السنة أنهم إذا عاينوا العذاب آمنوا

---

(١) المرجعين السابقين.

(٢) الرازي في مرجعه السابق.

(٣) قاله أبو حيان في البحر المحيط ٧/ ٤٧٩.

(٤) والتنازع هنا في الآية الذي يقصده تنازع فرعون «لكان» على أنه اسمها مؤخر، و «ليصنع» على أنه فاعل، فالتنازع هنا معمول لعاملين.

(٥) الآية ٣٥ من مريم. وانظر البحر المحيط ٧/ ٤٧٩ والكشاف ٣/ ٤٤٠.

(٦) قاله الزمخشري في الكشاف المرجع السابق ونقله عنه أبو حيان في بحره ٧/ ٤٧٩.

(٧) حكاه أبو حيان في البحر بدون نسبة.

ولا ينفعهم إيمانهم «وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكَافِرُونَ» «هُنَالِكَ» في الأصل مكان. قيل: واستعير هنا للزمان[١]، ولا حاجة له فالمكانيةُ فيه ظاهرة[٢]، أي وخسر هُنَالِكَ الكافرون بذهاب الدارين[٣].

قال الزَّجَّاجُ: «الكافر خاسر في كل وقت، وإنما يُبَيِّنُ لهم خسرانهم إذا رأوا العَذَاب»[٤].

فصل

قال ابن سيرين: رأى رجل في المنام سَبْعَ جوارٍ حِسَانٍ في مكان واحد لم ير أحْسَنَ منهُنَّ فقال لهُنَّ: لِمَنْ أنتُنَّ؟ فقُلْنَ: لِمَنْ قَرَأَ آلَ حمَ.

(اللَّهم وفِّقنا لكتابك)[٥] (والله سبحانه وتعالى أعلم)[٦].

---

(١) سبق إلى هذا القول الزمخشري في كشافه ونقله عنه أبو حيان في بحره، وانظر هذا في الدر المصون ٤/ ٧١٥.

(٢) هذا قول شهاب الدين السمين في الدر ٤/ ٧١٥.

(٣) قاله البغوي في معالم التنزيل ٦/ ١٠٤.

(٤) قال في معاني القرآن وإعرابه: «والكافرون والمبطلون خاسرون في ذلك الوقت وفي كل وقت خاسرون ولكنه تعالى بين لهم خسرانهم إذا رأوا العذاب». معاني القرآن وإعرابه ٤/ ٣٧٨.

(٥) زيادة من أ الأصل.

(٦) زيادة من ب.

سورة فصلت

مكية[١] وهي أربع وخمسون[٢] آية، وسبعمائة وتسعة وتسعون كلمة، وثلاثة آلاف وثلثمائة وخمسون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥﴾

قوله تعالى: حم تنزيل من الرحمن الرحيم يجوز أن يكون «تنزيل» خبر «حم» على القول بأنها اسم السورة[٣]. ويجوز أن يكون تنزيل خبر ابتداء مضمر، أي هذا تنزيل[٤]. وقال الأخفش: تنزيل رفع بالابتداء و «كتاب» خبره[٥].

قوله: «كتاب» قد تقدم أنه يجوز أن يكون خبراً لِتَنْزِيلُ، ويجوز أن يكون خبراً ثانياً، وأن يكون بدلاً من تنزيل[٦]، وأن يكون فاعلاً بالمصدر، وهو تنزيل أي نزل الكتاب، قاله أبو البقاء. و «فُصِّلَتْ آيَاتُهُ» صفة «لِكِتَابٍ»[٧].

قوله: «قرآناً» في نصبة ستةُ أوجه:

أحدها: هو حال بنفسه. و «عَرَبِيًّا» صفته، أو حال مُوطِّئَة[٨]، والحال في الحقيقة

---

(١) في قول الجميع انظر القرطبي ١٥/ ٣٣٧.

(٢) وقيل: ثلاث وخمسون المرجع السابق.

(٣) هذا قول الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٤١، والرازي في التفسير الكبير ٢٧/ ٩٣.

(٤) الكشاف المرجع السابق، وهو رأي الفراء في معاني القرآن ٣/ ١١.

(٥) قال في المعاني: «فالكتاب خبر المبتدأ أخبر به أن التنزيل كتاب» معاني القرآن له ٦٨٠.

(٦) التبيان ١٠٢٣.

(٧) ذكره الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٣٧٩ وانظر الكشاف ٣/ ٤٤١ والقرطبي ١٥/ ٣٣٧.

(٨) قاله العكبري في التبيان ٢٣/ ١١.

«عربياً»، وهي حال غير منتقلة، وصاحب الحال إما كتاب لوصفه بفصلت، وإما «آياته»، أو منصوب على المصدر[١]، أي يقرأه قرآناً أو على الاختصاص والمدح[٢]، أو مفعول ثانٍ «لفصلت»[٣]، أو منصوب بتقدير فعل، أي فصَّلْنَاهُ قُرْآناً[٤].

قوله: «لِقَومٍ» فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يتعلق «بفصلت» أي فصلتُ لهؤلاءِ وبينتُ لهم؛ لأنهم هم المنتفعون بها وإن كانت مفصلة في نفسها لجميع الناس.

الثاني أن يتعلق بمحذوف صفة «لقرآناً»، أي كائناً لهؤلاء خاصةً؛ لما تقدم من المعنى.

الثالث: أن يتعلق بتنزيل. وهذا إذا لم تجعل «مِنَ الرَّحْمٰنِ» صفة له؛ لأنك إن جعلت «من الرحمن» صفة له، فقد أعملت المصدر الموصوف وإذا لم يكن «كتاب» خبراً عنه، ولا بدلاً منه؛ لئلا يلزم الإخبار عن الموصول أو المبدل منه قبل تمام صلته، ومن يتسع في الظرف وعديله لم يبال بشيءٍ.

وأما إذا جعلت «من الرحمن» متعلقاً به و «كتاب» فاعلاً به فلا يَضُرُّ ذلك؛ لأنه من تتماته وليس بأجنبي[٥].

فصل

اعلم أنه تعالى حكم على هذه السورة بأشياء:

أولها: كونها تنزيلاً، والمراد المنزل، والتعبير عن المفعول بالمصدر مجاز مشهور، كقوله: هذا بناء الأمير أي مبنيّه، وهذا الدِّرهم ضربُ السُّلطان (أي مضروبه)[٦] ومعنى كونه منزلاً: أن الله تعالى كتبها في اللوح المحفوظ، وأمر جبريل، عليه (الصلاة)[٧] والسلام ـ أن يحفظ الكلمات ثم ينزل بها على النبي محمد ـ ﷺ ـ ويُؤَدِّيها إليه، فلما حصل تفهيمُ هذه الكلمات بواسطة نزول جبريل ـ عليه (الصلاة)[٨] والسلام ـ سمي بذلك تنزيلاً.

وثانيها: كون ذلك التنزيل من الرحمن الرحيم، وذلك يدل على أن ذلك التنزيل نعمةٌ عظيمة من الله تعالى، لأن الفعل المقرون بالصفة لا بد وأن يكون مناسباً لتلك

(١) ذكره أبو حيان في البحر ١٥/ ٣٣٧. (٢) قاله الأخفش في معانيه ٦٨٠.
(٣) السابق.
(٤) القرطبي ١٥/ ٣٣٧، والبحر المحيط ٧/ ٤٨٣، وانظر هذا الإعراب كله في الدر المصون ٤/ ٧١٦.
(٥) المرجع الأخير السابق، وانظر هذا كله بالمعنى من الكشاف ٣/ ٤٤١ والبحر المحيط ٧/ ٤٨٣.
(٦) سقطت من الأصل أ. (٧) زيادة من أ.
(٨) كذلك سقط من ب.

الصفة، فكونه تعالى رَحمٰن[١] رحيماً صفتان دالتان على كمال الرحمة، فالتنزيلُ المضاف إلى هاتين الصفتين لا بدَّ وأن يكون دالاً على أعظم وجوه الرحمة والنعمة والأمر كذلك؛ لأن الخَلْقَ في هذا العالم كالمرضى والمُحتاجين، والقرآن مشتمل على كل ما يحتاج إليه المرضى من الأدوية، وعلى ما يحتاج إليه الأصحاء من الأغذية، فكان أعظم النعم من الله تعالى على أهل هذا العالم إنزال القرآن عليهم.

وثالثها: كونه كتاباً، وتقدم أن هذا الاسم مشتق من الكَتْبِ وهو الجمع، فسمي كتاباً لأنه جمع فيه عِلْمَ الأولين والآخرين.

ورابعها: قوله فصلت آياته، أي ميزت وجعلت تفاصيل في معانٍ مختلفةٍ فبعضها وصف ذات الله، وصفاتِ التنزيه والتقديس وشرح كمال علمه وقدرته ورحمته وعجائب أصول خلقه من السموات والكواكب وتعاقب الليل والنهار، وعجائب أحوال النبات والحيوان وبعضها في المواعظ والنصائح، وبعضها في تهذيب الأخلاق ورياضة النفس، وبعضها في قَصَص الأنبياء وتواريخ الماضين، وبالجملة فمن أنصف علم أنه ليس في بدء الخلق كتاب اجتمع فيه من العلوم المختلفة مثل ما في القرآن.

وخامسها: قوله: قرآناً وقد سبق توجيه هذا الاسم.

وسادسها: قوله عربياً أي إنما نزل بلغة العرب، ويؤكده قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٥].

وسابعها: قوله: «لقوم يعلمون» أي جعلناه قرآناً لأَجْلِ أنا أنزلناه على قوم عربٍ بلغتهم ليفهموا منه المراد[٢].

وثامنها وتاسعها: قوله «بشيراً ونذيراً» يجوز أن يكونا نعتين[٣] لقرآناً، وأن يكونا حالين؛ إما من كتاب وإما من آياته[٤]، وإما من الضمير المنوي في قرآناً[٥]. وقرأ زيد بن علي برفعهما[٦] على النعت لكتاب، أو على خبر ابتداء مضمر، أي هو بشير ونذير، ومعناه بشيراً للمطيعين بالثواب ونذيراً للمجرمين بالعقاب.

قال ابن الخطيب: والحق أن القرآن بشارة ونِذَارة إلا أنه أطلق اسم الفاعل عليه للتنبيه على كونه كاملاً في هذه الصفة كما يقال: شعر شاعر وكلام قائل[٧].

---

(١) في النسختين والرازي رحماناً منوناً. (٢) هذه الأوجه ذكرها الرازي في تفسيره ٢٧/ ٩٤.

(٣) ذكر هذا الأخفش في المعاني ٦٨٠ وأبو حيان في البحر ٧/ ٤٨٣.

(٤) قال بذلك ابن الأنباري في البيان ٢/ ٣٣٦.

(٥) السمين في الدر ٤/ ٧١٧.

(٦) من الشواذ غير المتواتر لم ينسبها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٤١ ونسبها أبو حيان في البحر ٧/ ٤٨٣ وانظر القرطبي ١٥/ ٣٣٨ وشواذ القرآن ٢١٣.

(٧) الرازي ٢٧/ ٩٥.

عاشرها: كونهم معرضين عنه لا يسمعونه ولا يتلفتون إليه، فهذه الصفات العشرة التي وصف الله تعالى القرآن بها.

فصل

احتج القائلون بخلق القرآن بهذه الآية من وجوه:

الأول: أنه وصف القرآن بكونه مُنَزَّلاً وتَنْزِيلاً، والمنزَّلُ والتنزيلُ مشعر بالتغيير من حال إلى حال فوجب أن يكونَ مخلوقاً.

الثاني: أن التنزيل مصدر، والمصدر هو المفعول المطلق باتفاق النحويين[١].

الثالث: أن المراد بالكتابة إما الكتابة، وهي المصدر الذي هو المفعول المطلق وإما المكتوب الذي هو المفعول.

الرابع: أن قوله: «فصلت آياته» (بدل)[٢] على أن متصرفاً يتصرف فيه بالتفصيل وذلك لا يليق بالقديم.

الخامس: أنه إنما سمي قرآناً، لأنه قُرِنَ بعض أجزائه ببعض وذلك يدل على كونه مفعول فاعل ومجعول جاعل.

السادس: وصفه بكونه «عربياً»، وإنما صحت هذه النسبة لأن هذه الألفاظ إنما دلت على هذه المعاني بحسب وضع العرب، واصطلاحاتهم، وما حصل بِجَعْلِ جاعل وفِعْلِ فاعل فلا بد وأن يكون مُحْدَثاً ومَخْلُوقاً[٣].

والجواب: أن كل هذه الوجوه المذكورة عائدة إلى اللغات وإلى الحروف والكلمات وهي حادثة[٤].

فصل

ذهب قومٌ إلى أن في القرآن من سائر اللغات كالإِستبرق[٥] والسِّجيل[٦] فإنهما فارسيان والمِشْكَاة[٧] فإنها حبشية، والقِسْطاسِ[٨]، فإنه من لغة الروم، وهذا فاسد لقوله

---

(١) يقصد من هذا أن المصدر هو المفعول حقيقة، لأنه هو الذي يحدثه الفاعل، وأما المفعول به فمحل الفعل والزمان وقت يقع فيه الفعل والمكان محل الفاعل والمفعول فما دام المصدر يدل على الحدث فإن هذا يؤيد وجهة نظر هؤلاء القائلين بخلق القرآن.

(٢) سقط من ب. (٣) انظر الرازي ٢٧/ ٩٥.

(٤) هذا جواب يبطل آراء هؤلاء القائلين بخلق القرآن المرجع السابق.

(٥) من قوله: ﴿**من سندس وإستبرق**﴾ [الكهف: ٣١].

(٦) من قوله: ﴿**ترميهم بحجارة من سجّيل**﴾ [الفيل: ٤].

(٧) من قوله: ﴿**مثل نوره كمشكاة فيها مصباح**﴾ [النور: ٣٥].

(٨) من قوله: ﴿**وزنوا بالقسطاس المستقيم**﴾ [الشعراء: ١٨٢].

تعالى «قرآناً عَرَبياً»، وقوله: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إلاَّ بِلِسانِ قَوْمِهِ».

فصل

قالت المعتزلة: الإيمان والكفارة والصلاة والزكاة والصوم والحج، ألفاظ شرعية لا لغوية بمعنى أن الشرع نقل هذه الألفاظ عن مُسمَّياتها اللُّغويَّة الأصلية إلى مسميات أخرى[١]. وهذا باطل، وليس للشرع تصرفٌ في هذه الألفاظ إلا من وجهٍ واحد، وهو أنه خَصَّص هذه الأسماء بنوع معيَّنٍ من أنواع مسمَّيَاتها، كما أن الإيمان عبارةٌ عن التصديق والصلاة عبارة عن الدعاَء، فخصَّصه الشرع بنوع معين من الدّعاء، وكذا القول في البواقي.

فصل

تمسك القائلون بأن أفعال الله تعالى معلَّلةٌ بالمصالح والحكمة بهذه الآية فقالوا: إنها تدل على أنه إنما جعله قرآناً عربياً لأجل أن يعلموا المراد منه، فدل على أنَّ تعليل أفعالِ الله وأحكامه جائز[٢].

فصل

قال قوم: القرآن كله[٣] معلوم لقوله تعالى: قرآناً عربياً لقوم يعلمون يعني إنما جعلناه عربياً ليصير معلوماً والقول بأنه غير معلوم يقدح فيه.

قوله: «فأعرضَ أكثرهُم فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ» لا يصغُون تكبراً. وهذه الآية تدل على أنه لا مُهْتَدِي إلا من هَدَاهُ الله، ولا مُضِلَّ إلا من أضله الله. ولما وصف الله تعالى القرآن بأنهم أعرضوا عنه ولم يلتفتوا إليه بين أنهم صرحوا بهذه النفرة، وذكروا ثلاثة أشياء:

أحدها: قوله: «فِي أَكِنَّةٍ»، قال الزمخشري: فإن قُلْتَ: هلا قيل: على قلوبنا أكنة، كما قيل: وفي آذَانِنَا وقر ليكون الكلام على نمطٍ واحد؟ قلت: هو على نمط واحد؛ لأنه لا فرق في المعنى بين قولك: قلوبنا في أكنة، وعلى قلوبنا أكنة، والدليل عليه قوله تعالى: (إنَّا)[٤] جعلنا على قُلُوبِهِم، ولو قيل: جعلنا قلوبهم في أكنةٍ لم يختلف المعنى، وترى المطابيع منهم لا يرون[٥] الطباق (والملاحظة)[٦] إلا في المعاني.

قال أبو حيان: و «في» هنا أبلغ من على، لأنهم قصدوا الإفراط في عدم القبول

(١) نقله عنهم الرازي في التفسير يالكبير ٢٧/ ٩٥ و ٩٦.
(٢) السابق ٩٧. (٣) في ب كل.
(٤) سقط من النسختين والصواب إثباتها كما في الكشاف في الآية ٥٧ من الكهف.
(٥) في الكشاف لا يدعون بدل يرون.
(٦) تصحيح من الكشاف ففي النسخ: والملاحة وانظر الكشاف ٣/ ٤٤٣.

بحصول قلوبهم في أكنة احتوت عليها احتواء الظرف على المظروف، فلا يمكن أن يصل إليها شيء كما تقول: المالُ في الكيسِ بخلاف قولك: المالُ على الكيس، فإنه لا يدل على الحَصر، وعدم الوصول دلالة الوعاء، وأما «وجعلنا» فهو من إخبار الله تعالى فلا يحتاج إلى مبالغة[١].

وتقدم تفسير الأكنة والوقر[٢].

وقرأ طلحة بن مصرف وِقْر[٣] ـ بكسر الواو ـ وتقدَّم الفرق بينهما.

قوله: «مِمَّا تَدْعُونَا» من في «مِمَّا» وفي «ومِنْ بَيْننا» لابتداء الغاية والمعنى أن الحِجاب ابتداء منا وابتداء منك فالمسافة المتوسطة جهتنا وجهتك مستوعبة بالحجاب لا فراغ فيها، فلو لم تأتِ «مِنْ» لكان المعنى أن حجاباً حاصل وسط الجهتين. والمقصود المبالغة بالتبايُن المُفرِط، فلذلك جيء بِمِنْ[٤] قاله الزمخشري. وقال أبو البقاء: هو محصول على المعنى؛ لأن المعنى في أكنة محجوبةٍ عن سماع ما تدعُونا إليه. ولا يجوز أن يكون نعتاً لأَكنَّةٍ؛ لأن الأكنة الأغشية، وليست الأغشية مما تدعونا[٥] إليه[٦].

فصل

وقالوا يعني المشركين قلوبنا في أكنة أغطية، والأكنة جمع كنان، كأغطية جمع غطاء، والكِنان هو الذي يجعل فيه السهام، والمعنى لا نفقهُ ما تقول، وفي آذاننا وقر أي صممٌ فلا نسمعُ ما تقول، والمعنى: إنا في ترك القبول عنك بمنزلة من لا يفهم ولا يسمع ومن بيننا وبينك حجاب، خِلاف في الدين، فلا نوافقك على ما تقول فاعمل أنت على دينك إنّا عاملون على ديننا[٧].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾

(١) بتصرف من البحر المحيط ٧/ ٤٨٤ وباللفظ من الدر المصون ٤/ ٨١٧.

(٢) يشير إلى قوله: ﴿**وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً**﴾ [الأنعام: ٢٥] وبين هناك أن الكنان هو الوعاء الجامع، والغِطاء الساتر، والوقر هو الثقل في الأذن، والوقر بكسر الواو الحمل للحمار والبغل. بتصرف من اللباب ميكروفيلم.

(٣) من القراءة الشاذة غير المتواترة ذكرها صاحب الكشاف ٣/ ٤٤٢، ومختصر ابن خالويه ١٣٣ والبحر المحيط ٧/ ٤٨٣.

(٤) الكشاف ٣/ ٤٤٢، ٤٤٣.

(٥) في ب تدعون تحريف.

(٦) التبيان ١١٢٣.

(٧) البغوي في معالم التنزيل ٦/ ١٠٥.

وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: «قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ» قرأ ابنُ وثابٍ والأعمش: «قَالَ» فعلاً ماضياً خبراً عن الرسول[١]. والرسم يحتملهما. وقد تقدم مثل هذا في الأنبياء[٢] وآخر المؤمنين[٣]. وقرأ الأعمشُ والنَّخعيُّ يوحي بكسر[٤] الحاء؛ أي الله تعالى، والمعنى إنَّما أنا بشر مثلكم أي كواحد منكم لولا الوحيُ ما دعوتكم «أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ» قال الحسن ـ رضي الله عنه ـ عَلَّمَهُ الله التواضع.

قوله: «فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ» عُدِّي بإلى؛ لتضمنه معنى توجَّهُوا والمعنى وجِّهُوا استقامتكم إليه بالطاعة ولا تَمِيلوا عن سبيله «واستغفروه» من ذنوبكم[٥].

قوله: «وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لا يُؤْتُون الزَّكَاةَ» قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الذين لا يقولون لا إله إلا الله، وهي زكاة الأنفس. والمعنى لا يُطَهِّرون أنفسهم من الشِّرك بالتوحيد، وهو مأخوذ من قوله: «وَنَفْسٍ ومَا زَكَّاهَا». وقال الحسن وقتادة: لا يقرُّون بالزكاة ولا يرون إيتاءَها واجباً، وكان يقال: الزكاة قَنْطَرَةُ الإسلام، فمن قطعها نجا، ومن تخلف عنها هلك. وقال الضحاك ومقاتل: لا يُنفِقُون في الطاعة ولا يتصدقون، وقال مجاهد: لا يزكون أعمالهم «وَهُمْ بالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ»[٦].

فصل

احتج من قال: إن الكفار مخاطبُون بفروع الإسلام بهذه الآية، فقالوا: إنه تعالى توعدهم بأمرين:

أحدهما: كونهم مشركين.

والثاني: لا يؤتون الزكاة، فوجب أن يكون لكل واحد من هذين تأثير عظيم في حق وصول الوعيد، وذلك يدل على أن لعدم ايتاء الزكاة من المشرك تأثير عظيم في زيادة الوعيد وهو المطلوب[٧].

---

(١) انظر البحر المحيط ٧/ ٤٨٤ والإتحاف ٣٨٠، والكشاف ٣/ ٤٤٤.

(٢) يريد قوله: ﴿قال رب احكم بالحق﴾ [الأنبياء: ١١٢] وقراءة الماضي هي قراءة حفص والباقون قل.

(٣) قوله: ﴿قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين﴾ [المؤمنون: ١١٢]، وانظر اللباب ٦/ ١١٨ ب.

(٤) شاذة غير متواترة مختصر ابن خالويه ١٣٣. (٥) قاله أبو حيان في البحر ٧/ ٤٨٤.

(٦) ذكر هذه الأقوال أبو حيان في مرجعه السابق والبغوي في معالم التنزيل ٦/ ١٠٤.

(٧) الرازي ٢٧/ ١٠٠.

فصل

احتج بعضهم على أن مانع الزكاة كافر بهذه الآية فقال: إن الله تعالى لما ذكر هذه الصفة ذكر قبلها ما يوجب الكفر وهو قوله: «وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ» وذكر بعدها ما يوجب الكفر وهو قوله: «وَهُمْ بالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ» فلو لم يكن منع الزكاة كفراً لكان ذكره فيما بين الصفتين[١] الموجبتين للكفر قبيحاً؛ لأن الكلام إنما يكون فصيحاً إذا كانت المناسبة مرعيةً بين أجزائه، ثم أكدوا ذلك بأن أبا بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ حكم بكفر مانعي الزكاة[٢]. قال ابن الخطيب: والجواب أنه ثبت بالدليل أن الإيمان عبارة عن التصديق بالقلب، والإقرار باللسان، وهما حاصلان عند عدم إيتاء الزكاة، فلم يلزم حُصُول الكفر بسبب عدم إيتاء الزكاة والله أعلم[٣].

قوله: «إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعمِلُوا الصَّالِحَاتَ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ» قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ غير مقطوع[٤]، من قولك: مننتُ الحبلَ أي قطعتُهُ، ومنه قولهم: «قَد مَنَّهُ السَّفَر» أي قطعه[٥] وأنشدوا:

٤٣٥٢ ـ فَضْلَ الجَوَادِ على الخَيْلِ البِطَاءِ فَلاَ يُعْطِي بِذلك مَمْنُوناً وَلاَ نَزِقَا[٦]

وقال مقاتل: غير منقوص، ومنه المنون لأنه ينقص منة الإنسان وقوته، وأنشدوا لذي الإصبع العُدواني:

٤٣٥٣ ـ إنِّي لَعَمْرُكَ مَا بَابِي بِذِي غَلَقٍ على الصَّدِيقِ ولا خَيري بِمَمْنُونِ[٧]

وقيل: غير ممنون به عليهم؛ لأن عطاء الله لا يُمَنُّ به إنما يَمُنُّ المخلوق. وقال مجاهد: غير محسوب وقال السُّدِّيّ: نزلت هذه الآية في المَرْضَى والزَّمنى والهَزْمَى إذا عجزوا عن الطاعة يكتب لهم الأجرُ كأصح ما كانوا يعملون فيه[٨].

روي عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: إن العبد إذا

---

(١) كذا في الرازي وفي النسختين الوصفين الموجبين.

(٢) و (٣) انظر الرازي ٢٧/ ١٠٠. (٤) نقله البغوي في تفسيره ٦/ ١٠٤.

(٥) نقله صاحب اللسان (منن) ٤٢٧٧.

(٦) من البسيط لزهير بن أبي سلمى من قصيدة في مدح هرم بن سنان، ويروى: الجياد بدل الجواد والبطاء البطيئة، والنزق الخفيف الطائش، والممنون المقطوع يقول: إن فضله على غيره مثل فضل الجياد على الخيل البِطاء. وشاهده: أن الممنون بمعنى المقطوع وانظر اللسان بطأ ٢٩٩ والبحر المحيط ٧/ ٤٨٥ والدر المصون ٤/٧١٩، والقرطبي ١٥/ ٣٤١، وديوانه ٤٩.

(٧) من البسيط كسابقه وشاهده كسابقه أيضاً في أن الممنون معناه المقطوع والغلقُ ـ بالتحريك ـ ما يغلق به الباب من الرِّتاج ونحوه. ويروى: ولا زادي بممنُون، ويروى: (عن الصَّديق) بدل (على الصديق) وانظر القرطبي ١٥/ ٣٤١، والبحر ٧/ ٤٨٥، وديوان الحماسة البصرية ١/ ٢٢٤، والدر المصون ٤/ ٧١٨، وديوان المفضليات ٤٢٢ و ٣٢٧ وفتح القدير ٤/ ٥٠٦ هو وما قبله.

(٨) البغوي ٦/ ١٠٥ والقرطبي ١٥/ ٣٤١ و ٣٤٢ والخازن ٦/ ١٠٤.

كان على طريقة حسنة من العبادة ثم مَرِضَ، قيل للملك الموكل به: اكتُبْ له مثل عمله إذا كان طليقاً حتى أطلقه أو اكفته إليّ[١].

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ الآية قرأ ابنُ كثير أينكم لتكفرون ـ بهمزة وبعدها ياء محققة ساكنة بلا مد ـ والباقون ممدوداً مشدد النون[٢]. وهو استفهام بمعنى الإنكار، أي كيف تكفرون بالله، وكيف يجوز جعل هذه الأنداد الخسيسة أنداداً لله مع أنه تعالى خلق الأرض في يومين، وهما يوم الأحد ويوم الاثنين، وتمم بقية مصالحها في يومين آخرين وخلق السموات بأسرها في يومين آخرين، فمن قدر على خلق هذه الأشياء العظيمة كيف يعقل الكفر به، وإنكار قدرته على الحَشْر والنَّشر[٣]؟

فإن قيل: مَن استدل بشيء على إثبات شيء فذلك الشيء المستدل به يجب أن يكون مسلماً عند الخصم حتى يصح الاستدلال به، وكونه تعالى خالقاً للأرض في يومين أمر لا يمكن إثباته بالعقل المحض إنا يمكن إثباته بالسمع ووحي الأنبياء والكفار كانوا منازعين في الوحي والنبوة، فلا يعقل تقرير المقدمة عليهم، وإذا امتنع تقريرها عليهم امتنع الاستدلال بها على فساد مذاهبهم.

فالجواب: إثبات كون السموات والأرض مخلوقةً بالعقل مُمكنٌ، وإذا أمكن ذلك أمكن الاستدلال به على وجود الإله القادر القاهر العظيم. وحينئذ يقال: الكافر كيف يعقل التسوية بين الإله الموصوف بهذه القدرة القادرة[٤] وبين الصَّنم الذي هو جمادٌ لا يضرُّ ولا ينفع في المعبودية[٥] والإلهية؟ بقي أن يقال: فيحنئذ لا يبقى في الاستدلال بكونه تعالى خالقاً للأرض في يومين أثر. قال ابن الخطيب: بل له أثر في هذا الباب، وذلك أن التورية مشتملة على هذا المعنى، فكان ذلك في غاية الشهرة بين أهل الكتاب فكفار مكة كانوا يعتقدون في أهل الكتاب أنهم أصحاب العلوم، والظاهر أنهم كانوا قد سمعوا من أهل الكتاب هذه المعاني فاعتقدوا كونها حقاً، وإذا كان الأمر كذلك حَسن أن يقال لهم: إن الإله الموصوفَ بالقدرة على خلق هذه الأشياء العظيمة في هذه المدة اللطيفة كيف يليق بالعقل جعل الخشب المنجور والحجر المنحوت شريكاً له في المعبودية والإلهية؟! فبهذا التقدير حسن الاستدلال[٦].

قوله: «وَتَجْعَلُونَ لَهُ» عطف على «لَتَكْفُرُونَ»[٧] فهو داخل في حيز الاستفهام وقوله: «ذٰلِكَ رَبُّ العَالَمِينَ» أي ذلك الموجود الذي علمتَ من صفته وقدرته أن خلق

---

(١) أورده أحمدُ في المسند ٢/٢٠٣ كما أخرجه البغوي في المرجع السابق عن ابن عمر أيضاً.

(٢) الإتحاف ٣٨٠ والنشر ٢/٣٦٦ وهي قراءة عشرية متواترة.

(٣) قاله الرازي في تفسيره ٢٧/١٠٣.

(٤) في ب القاهرة.

(٥) في ب العبودية.

(٦) الرازي ٢٧/١٠٢.

(٧) في ب أتكفرون بالهمزة والتصحيح من أ.

الأرض في يومين (هو[١] رب العالمين وخالقهم ومبدعهم فكيف أثبتم له أنداداً من الخشب والحجر؟ ثم إنه تعالى لما أخبر عن كونه خالقاً للأرض في يومين) ثم أخبر أنه أتى بثلاثة أنواعٍ من الصُّنع العجيب والفعل البديع بعد ذلك، فالأول قوله: «وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ» وهذا مستأنف ولا يجوز عطفه على صلة الموصول، للفصل بينهما بأجنبي، وهو قوله: «وَتَجْعَلُونَ» فإنه معطوف على قوله: «لتكفرون»[٢] كما تقدم. والمراد بالرواسي الجبال.

فإن قيل: ما الفائدة في قوله: «من فوقها» ولم يقتصر على قوله «وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي» كما اقتصر على قوله ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ﴾ [المرسلات: ٢٧] وقوله ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ [الأنبياء: ٣١] وقوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ [الرعد: ٣].

فالجواب: أنه تعالى لو جعل فيها رواسي من تحتها لأوهم ذلك أن تلك الأساطين التَّحتانيَّة هي التي أمسكت هذه الأرض الثقيلة عن النزول، ولكنه تعالى قال: خُلِقَتْ هذه الجبال الثقال فوق الأرض ليرى الإنسان بعينه أنَّ الأرض والجبال أثقالٌ وكلها مفتقرة إلى مُمْسِكٍ وحافظٍ وما ذاك الحافظ المدبِّر إلا الله سبحانه وتعالى[٣].

النوع الثاني: قوله «وَبَارَكَ فِيهَا» أي في الأرض بما خلق من البحار والأنهار والأشجار والثمار. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يريد شقَّ الأنهار، وخلق الجبال وخلق الأشجار والنار، وخلق أصناف الحيوانات، وكل ما يحتاج إليه من الخيرات.

النوع الثالث: قوله «وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا» قيل: المعنى وقدر فيها أقوات أهلِها ومعايشهم وما يصلحهم وقال محمد بن كعب: قدر أقوات الأبدان قبل أن يخلق الأبدان. وقال مجاهد: وقدر فيها أقواتها من المطر. وعلى هذا فالأقوات للأرض لا للسكان، والمعنى أن الله عزَّ وجلَّ قدر لكل أرض حظَّها من المطر[٤]. وقيل[٥] المراد من إضافة القُوت إلى الأرض كونها متولدة في تلك الأرض وحادثة فيها؛ لأن النحاة قالوا في حسن الإضافة أدنى سبب فالشيء قد يضاف إلى فاعله تارة، وإلى محله أخرى، فقوله «وقدر فيها أقواتها» أي قدر الأقوات التي يختص حدوثها بها، وذلك لأنه تعالى جعل كل بلدة معدناً لنوع آخر من الأشياء المطلوبة بمعنى أن أهل هذه البلدة يحتاجون إلى الأشياء المتولدة في ذلك البلد وبالعكس فصار هذا المعنى سبباً لرغبة الناس في التجارات واكتساب الأموال.

---

(١) ما بين القوسين زيادة للمقام من الرازي المصدر السابق.

(٢) بالمعنى من التبيان للعكبري ١٠٢٣ وباللفظ من الدر المصون ٤/ ٧١٩.

(٣) الرازي ٢٧/ ١٠٢.

(٤) السابق وانظر البغوي والخازن ٦/ ١٠٥ والجامع للإمام القرطبي ١٥/ ٣٤٢، ٣٤٣.

(٥) هذا هو رأي الإمام الرازي في التفسير الكبير المرجع السابق.

قوله: «في أَرْبَعَة أيام» تقديره: في تَمَام أَرْبَعَةِ أيام باليَوْمَيْنِ المتقدمين. قال الزجاج: في تتمَّة أربعة أيام[١]، يريد بالتتمة اليومين. وقال الزمخشري: في أربعة أيام فلذلك[٢] المدة خلق الله الأرض وما فيها كأنه قال: كل ذلك في أربعة أيام كاملة مستويةً بلا زيادة ولا نُقصانٍ. قال شهاب الدين: وهٰذا كقولك: بَنَيْتُ بيتي في يوم وأكملته في يومين أي بالأول[٣]. وقال أبو البقاء: أي في تمام أربعة أيام، ولولا هذا التقدير لكانت الأيام ثمانيةً يومان في الأول، وهو قوله: «خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ» ويومانِ في الآخر وهو قوله «فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمٰواتٍ فِي يَوْمَيْنِ» وأربعةٌ في الوَسَطِ وهو قوله «فِي أَرْبَعَةِ أيامٍ»[٤].

فإن قيل: إنه تعالى لما ذكر خلق الأرض في يومين، فلو ذكر أنه خلق هذه الأنواع الثلاثة الباقية في يومين آخرين كان أبعدَ عن الشُّبهة وعن الغلط فَلِمَ تَرَك التصريح وذكر الكلام المجمل؟

فالجواب: أن قوله «في أربعة أيام سواء» فيه فائدة زائدة على ما إذا قال: خلقت هذه الثلاثة في يومين؛ لأنه لو قال: خلقت هذه الأشياء في يومين لم يُفِدْ هذا الكلام كون اليومين مُستغرقين بتلك الأعمال؛ لأنه قد يقال: عملتُ هذا العمل في يومين مع أن اليومين ما كانا مستغرقين بذلك العمل، أمَّا لما ذكر خلق الأرض، وخلق هذه الأشياء ثم قال: في أربعة أيام سواء دلَّ على أن هذه الأيام الأربعة صارت مستغرقةً في تلك الأعمال من غير زيادة ولا نُقصانٍ[٥].

قوله: «سواء» العامة على النصب، وفيه أوجه:

أحدها: أنه منصوب على المصدر بفعل مقدر، أي استوت قاله مكي[٦] وأبو البقاء[٧].

الثاني: أنه حال من «ها» في أقواتها، أو من «ها» في «فيها» العائدة على الأرض أو من الأرض قاله أبو البقاء[٨] وفيه نظر لأن المعنى إنما هو وصف الأيام بأنها سواء، لا وصف الأرض بذلك وعلى هذا جاء التفسير[٩].

ويدل على ذلك قراءة سَواءٍ ـ بالجر ـ صفة للمضاف، أو المضاف إليه، وقال قتادةُ والسُّدي سواء معناها سواء لمن سأل عن الأمر، واستفهم عن حقيقة وقوعه وأراد العبرة فيه فإنه يجده كما قال تعالى. إلا أن ابن زيد وجماعةً قالوا شيئاً يَقْرُبُ من المعنى الذي

---

(١) قاله في معاني القرآن وإعرابه ٤/ ٣٨١.
(٢) في الكشاف فذلكة وكذا نقل عنه صاحب الدر المصون ٤/ ٧١٩ وكذلك البحر المحيط ٧/ ٤٨٥.
(٣) الدر المصون ٤/ ٧١٩.
(٤) التبيان ١١٢٣.
(٥) الرازي ٢٧/ ١٠٣.
(٦) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٢٧٠.
(٧) و (٨) التبيان ١١٢٤.
(٩) نقله السمين في إعرابه ٤/ ٧١٩.

ذكره أبو البقاء فإنهم قالوا معناه مستوٍ مهيَّأً أمر هذه المخلوقات ونفعها للمحتاجين إليها من البشر، فعبر بالسائلين عن الطالبين[١]. وقرأ زيدُ بنُ علي والحسنُ وابنُ أبي إسحاق وعيسى ويعقوبُ وعمرُو بن عُبيدٍ: سَواءٍ بالخفض[٢] على ما تقدم[٣]. وأبو جعفر بالرفع[٤] وفيه وجهان:

أحدهما: أنه على خبر ابتداء مضمر، أي هي سواء، لا يزيدُ ولا يَنقُصُ، وقال مكّي: هو مرفوع بالابتداء وخبره للسائلين[٥]؛ وفيه نظر، من حيث الابتداء بنكرة من غير مُسوِّغ. ثم قال: بمعنى مستويات لمن سأل فقال: في كَمْ خلقت[٦]؟ وقيل: للسائلين لجميع السائلين لأنهم يسألون الرزق وغيره من عند الله تعالى[٧].

قوله «للسائلين» فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه متعلق بسَوَاء بمعنى مستويات للسائلين[٨].

الثاني: أنه متعلق بقدَّر، أي قدر فيها أقواتها لأجل الطالبين لها[٩] المحتاجين المقتاتين.

الثالث: أن يتعلق بمحذوف، كأنه قيل: هذا الحصر لأجل من سأل: في كم خلقت الأرض وما فيها[١٠]؟.

قوله (تعالى)[١١]: «ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ» أي عمد إلى خلق السماء[١٢]. قال ابن الخطيب: من قولهم: استوى إلى مكان كذا إذا توجَّه إليه توجُّهاً لا يلتفتُ معه إلى عملٍ آخر وهو من الاستواء الذي هو ضد الاعوجاج. ونظيره قولهم: استقام إليه وامتدَّ إليه، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٦] والمعنى: ثم دعاه داعي الحكمة إلى خلق السموات بعد خلق الأرض وما فيها[١٣] من صارفٍ يصرفُهُ عن

---

(١) في ب الظالمين وهو خطأ. وانظر البحر المحيط ٧/ ٤٨٦.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٤٨٦ والتبيان ١١٢٤ وهي قراءة عشرية متواترة انظر الإتحاف ٣٨٠، والنشر لابن الجزري ٢/ ٣٦٦ وانظر أيضاً معاني القرآن للفراء ٣/ ١٢ و ١٣ ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤/ ٣٨١.

(٣) نعت للأربعة.

(٤) متواترة عشرية أيضاً وانظر المرجعين السابقين والكشاف ٣/ ٤٤٤ ومختصر ابن خالويه ١٣٢.

(٥) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٢٧٠. (٦) السابق.

(٧) وهو قول أهل المعاني القرطبي ١٥/ ٣٤٣.

(٨) الدر المصون ٤/ ٧٢٠. (٩) في ب بها.

(١٠) قال بهذين الوجهين الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٤٤.

(١١) زيادة من أ. (١٢) قاله البغويّ في معالم التنزيل ٦/ ١٠٥.

(١٣) في تفسيره: وما فيها من غير صارف وانظر الرازي ٢٧/ ١٠٤، وانظر لسان العرب (سوا) ٢١٦٤ ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤/ ٣٨١، وغريب القرآن ٣٨٨، وانظر بإفاضة في اللسان المرجع السابق.

ذلك. والدُّخان: هو ما ارتفع عن لهبِ النار(١). ويستعار لما يرى من بُخار الأرض عند جدبها وقياس جمعه في القلة أَدْخِنَةٌ وفي الكثرة دُخْيَان، نحو: غُرابٍ وأغربة وغِرْبَانٍ وشذوا في جمعه على: دَوَاخِن(٢)، قيل: هو جمع داخِنةٍ تقديراً على سبيل الإسناد المجازيّ، ومثله عثانٌ وعواثِن(٣).

وقوله: و «هِيَ دُخَان» من باب التشبيه الصُّوري؛ لأن صورتها صورة الدُّخانِ في رأي العين(٤).

فصل

قال المفسرون: هذا الدخان بُخار الماء، وذلك أن عرش الرحمٰنِ كان على الماء قبل خلق السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧]. ثم إن الله تعالى أحدث في ذلك الماء اضطراباً فأزْبَدَ(٥) وارتفع، وخرج منه دُخانٌ فأما الزَّبدُ فبقي على وجه الماء فخلق منه اليبوسة وأحدثَ منه الأرض، وأما الدخان فارتفع وعلا فخلق منه السَّموات.

فإن قيل: قوله تعالى «ثم استوى إلى السماء وهي دخان» يُشعر بأن تخليق السماء حصل بعد تخليق الأرض(٦)، وقوله تعالى ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠] يشعر بأن تخليق الأرض حصل بعد تخليق السماء وذلك يوجب التناقض!

فالجواب: المشهور أن يقال: إنه تعالى خلق الأرض أولاً، ثم خَلَقَ بعده السماء، ثم بعد أن خَلَقَ السماء دحى(٧) الأرض، وبهذه الطريق يزول التناقض. قال ابن الخطيب: وهذا الجواب عندي مُشكِلٌ من وجوه(٨):

الأول: أنه تعالى خَلَقَ الأرض في يومين، ثم إنه في اليوم الثالث جعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها، وهذه الأحوال لا يمكن إدخالها في الوجود، إلا بعد أن صارت الأرض منبسطة ثم إنه تعالى قال بعد ذلك: «ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ» فهذا

---

(١) اللسان (دخن) ١٣٤٤، وانظر معنى الاستواء السابق في الكشاف أيضاً ٣/ ٤٤٥.

(٢) حيث إن فُعَال يكسر على أفعلة في القلة وفي الكثرة على فعلان وهو مفاد قول إمام النحاة في الكتاب ٣/ ٦٠٣.

(٣) العثان والعثن الدواخن والجمع عواثن على غير قياس... والعواثن والدواخن لا يعرف لهما نظير اللسان (عثن) ٢٨١٠ وانظر «ليس» لابن خالويه ١١.

(٤) الدر المصون ٤/ ٧٢٠.

(٥) أي حصل له رغوة أو كَثُر. انظر اللسان «زبد» ١٨٠٣.

(٦) في ب يشعر بأن تخليق الأرض حصل بعد تخليق السماء بالعكس من أ.

(٧) الدحو: البسط، دحا الأرض يدحُوها دحواً: بسطها وقال شمر: دحا الأرض: أوسعها انظر اللسان دحا ١٣٣٨.

(٨) انظر تفسير الإمام الفخر الرازي مع تغيير طفيف في الأسلوب ٢٧/ ١٠٤ و ١٠٥.

يقتضي أنه تعالى خلق السماء بعد خلق الأرض، وبعد أن جعلها مدحُوَّةً وحينئذ يعود السؤال.

الثاني: أنه ورد أنَّ الدلائل الهندسية دلَّت على أن الأرض كرةٌ في أول حدوثها إن قلنا: إنها كرة، والآن بقيتْ كرة أيضاً فهي منذ خلقت كأنها مدحُوَّةٌ، وإن قلنا: إنها غير كرة ثم جعلت كرة فيلزم أن يقال: إنها كانت مدحُوَّةً قبل ذلك، ثم أزيل عنها هذه الصفة وذلك باطل.

الثالث: أن الأرض جسمٌ في غاية العِظم والجسم الذي يكون كذلك فإنه من أول دخوله في الوجود يكون مدحوًّا، فالقول بأنها كانت غير مدحوةٍ ثم صارت مدحوة قولٌ باطل. والذي جاء في كتب التواريخ أن الأرض خلقت من موضع الصّخرة ببيت المقدس فهو كلام مشكلٍ لأنه إذا كان المراد أنها على عظمها خلقت من ذلك الموضع ثم خلق بقيةُ أجزائها، وأُضيفت إلى تلك الأجزاء التي خلقت أولاً فهذا يكون اعترافاً بأن تخليق الأرض وقع متأخراً عن تخليق السماء.

الرابع: أنه لما حصل تخليق ذات الأرض في يومين، وتخليق سائر الأشياء الموجودة في الأرض في يومين وتخليق السموات في يومين آخرين كان مجموع ذلك ستة أيام، فإذا حصل دَحْوُ الأرض بعد ذلك فقد حصل هذا الدحو في زمانٍ آخر بعد الأيام الستة فحينئذ يقع تخليق السموات والأرض في أكثر من ستة أيام وذلك باطل.

الخامس: أنه لا نزاع في أن قوله تعالى بعد هذه الآية: «ثُمَّ قَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً» كناية عن إيجاد السموات والأرض، فلو تقدم إيجاد السموات لكان قوله تعالى: «ائتِنا طَوْعاً أو كَرْهاً» يقتضي إيجاد الموجودات وأنه محال باطل. هذا تمام البحث عن هذا الجواب(١).

ونقل الواحدي في البسيط عن مقاتل أنه قال: خلق السماء قبل الأرض، وتأول قوله: «ثمَّ استوى إلى السماء» ثم كان قد استوى إلى السماء وهي دُخان قبل أن يخلق الأرض، فأضمر فيه كان كما قال تعالى ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ [يوسف: ٧٧] معناه إن يكن سرق، وقال تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا﴾ [الأعراف: ٤] (والمعنى(٢)) فكان قد جاءها، هذا ما نقله الواحدي قال ابن الخطيب وهذا عندي ضعيف، لأن تقدير الكلام ثُمَّ كان قد استوى إلى السماء. هذا جمع ين الضدين لأن كلمة «ثُمَّ» تقتضي التأخير، وكلمة «كان» تقتضي التقديم، والجمع بينهما يفيد التناقض، وإنما يجوز تأويل كلام الله بما لا يؤدي إلى وقوع التناقض(٣) والركاكة فيه. والمختار عندي أن يُقال: خلق السماء مقدم على خلق الأرض، وتأويل الآية أن

---

(١) السابق. (٢) سقط من ب. (٣) المرجع السابق.

يقال[١]: الخلق ليس عبارةً عن التكوين والإيجاد، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] فلو كان الخلق عبارةً عن الإيجاد والتكوين لصار تقدير الآية أوجدَهُ من تراب، ثم قال له كن فيكون وهذا محال فثبت أن الخلق ليس عبارةً عن الإيجاد والتكوين، بل هو عبارة عن التقدير، والتقدير في حق الله هو كلمته بأن سيُوجدُهُ. وإذا ثبت هذا فنقول قوله: خلق الأرض في يومين معناه أنه قضى بحدوثِهِ في يومين، وقضاء الله أنه سيحدث كذا في مدة كذا لا يقتضي حدوث ذلك الشيء في الحال فَقَضَاءُ الله بحُدُوثِ الأرض في يومين قد تقدم على إحداثِ السَّماء وحينئذ يزول السؤال[٢].

قوله: «ثُمَّ قَالَ لَهَا وللأَرْضِ ائتيا طَوْعاً أو كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ». وقرأ العامة «ائتيا» أمراً من الإتيان «قَالَتَا أَتَيْنَا» منه أيضاً. وقرأ ابن عباس وابن جبيرٍ ومجاهدٌ «آتِيا» قَالَتَا آتينا ـ بالمد فيهما[٣] ـ وفيه وجهان:

أحدهما: من المؤاتاة وهي المُوافقة، أي ليوافق كل منكما الأخرى لما يليق بها. وإليه ذهب الرازي[٤] والزَّمخشريُّ[٥]، فوزن «آتِيَا» فاعلا، كقاتِلا، و «آتَيْنَا» وزنه فاعلنا كقاتلنا.

والثاني: أنه من الإيتاء بمعنى الإعطاء، فوزن «آتِيَا» أفْعِلاَ كأكرما، ووزن «آتينا» أَفْعَلْنَا كأكْرَمْنَا. فعلى الأول يكون قد حذف مفعولاً، وعلى الثاني قد حذف مفعولين؛ إذ التقدير: أعطيا الطاعة من أنفسكما مَنْ أمركما، قالتا أَعطيناهُ الطاعة[٦]. وقد منع أبو الفضل الرازي الوجه الثاني فقال: آتينا بالمَدِّ على فاعلنا من المؤاتاة بمعنى سارعنا، على حذف المفعول به، ولا يكون من الإيتاء الذي هو الإعطاء لبعد حذف مفعوليه[٧].

قال شهاب الدين: وهذا هو الذي منع الزمخشري[٨] أن يجعله من الإيتاء. قوله: «طَوْعاً أَوْ كَرْهاً» مصدران في موضع الحال، أي طائعتين أو مُكرهتين[٩].

وقرأ الأعمش «كُرْهاً» بالضم[١٠]، وتقدم الكلام على ذلك في النساء[١١]. قوله:

---

(١) في ب أن نقول. (٢) المرجع السابق.

(٣) قراءة شاذة غير متواترة، رغم أنها جائزة لغة، وقد ذكرها أبو الفتح في المحتسب ٢/ ٢٤٥، والقرطبي في الجامع ١٥/ ٣٤٤، والسمين في الدر ٤/ ٧٢٠.

(٤) المراد به الإمام الفخر صاحب التفسير الكبير الذي يكثر المؤلف من النقل عنه والذي يكثر هو الآخر من النقل من الزمخشري انظر الرازي ٢٧/ ١٠٦ فقد قال: ومعنى الإتيان الحصول والوقوع على وفق المراد.

(٥) انظر الكشاف ٣/ ٤٤٦. (٦) الدر المصون ٤/ ٧٢١.

(٧) بالمعنى من البحر المحيط ٧/ ٤٨٧. (٨) الدر المصون المرجع السابق.

(٩) قاله الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٤٦. (١٠) ذكر تلك القراءة أبو حيان في البحر ٧/ ٤٨٧.

(١١) يشير إلى قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النِّساء كرهاً﴾ [النساء: ١٩].

«قَالَتَا» أي قالت السماءُ والأرض، وقال ابن عطية: (رحمة الله عليه)[١] أراد الفرقتين المذكورتين[٢]، جعل السموات سماءً والأرضين أرضاً كقوله:

٤٣٥٤ ـ أَلَمْ يَحْزُنْكَ أَنَّ حِبَالَ قَوْمِي وَقَوْمِكَ قَدْ تَبَايَنَتَا انْقِطَاعَا[٣]

عبر عنهما «بتَبَايَنَتَا». قال أبو حيان وليس كما ذكر لأنه لم يتقدم إلا ذكر الأرض مفردة والسماء مفردة فلذلك حسن التعبير بالتثنية.

وأما البيت فكأنه قال: حَبْلَي قَوْمِي وَقَوْمِكَ، وأنث في تَبَايَنَتَا على المعنى؛ لأنه عنى بالحبال المودة[٤]. قوله: «طَائِعِينَ» في مجيئه مجيء جمع المذكرين العقلاء وجهان:

أحدهما: أن المراد يأتينا من فيهما من العقلاء وغيرهم، فلذلك غلَّب العقلاء على غيرهم، وهو رأي الكسائيِّ.

والثاني: أنه لما عاملهما معاملة العقلاء في الإخبار عنهما، والأمر لهما جمعهما كجمعهم، كقوله: «رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ»[٥] وهل هذه المحاورة حقيقية أو مجازاً وإذا كانت مجازاً فهل هو تمثيلٌ أو تخييلٌ؟ خلاف[٦].

فصل

ظاهر هذا الكلام يقتضي أن الله تعالى أمر السماء والأرض بالإيمان فأطاعُوهُ وهذا ليس بمستبعد كما أن الله تعالى أنطقَ الجبالَ مع داود ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقال: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠] وأنطق الأيدي والأرجل، فقال: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤] وقوله: «وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ» وإذا كان كذلك فكيف يستبعدُ أن يخلقَ الله تعالى في ذات السموات والأرض حياةً وعقلاً ثم يوجه التكليف عليهما؟ ويؤكد هذا وجوه:

الأول: أن الأصل حمل اللفظ على ظاهره، إلا إن منع منه مانع، فههنا لا مانع.

---

(١) زيادة من أ. (٢) البحر المحيط المرجع السابق.

(٣) من تمام الوافر للقطامي وهو من الاستعطاف والتوسل.

وشاهده: «تباينتا» حيث جعل حبال قومه وحبال قومها كل جماعة، وثنى هذا بقوله تباينتا أي الجماعتان ولو أراد جمع التكسير أو لفظ الجمعية لقال تباينت وانظر البحر المحيط ٧/ ٤٨٧ والدر المصون ٤/ ٧٢١، وديوانه ٣٧.

(٤) بالمعنى من البحر المرجع السابق.

(٥) يوسف ٤. وانظر الرأيين في معاني الفراء ٣/ ١٣ والثاني في بيان ابن الأنباري ٢/ ٣٣٧ ومعاني الزجاج ٤/ ٣٨١.

(٦) هناك من قال بالحقيقة وهناك من قال بالتخييل انظر الكشاف ٣/ ٤٥ والقرطبي ١٥/ ٣٤٤.

الثاني: أنه تعالى جمعهما جمع العقلاء فقال: «قَالَتَا آتَيْنَا طَائِعِينَ».

الثالث: قوله: «إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ والجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا» وهذا يدل على كونها عارفة بالله، عالمة بتوجه تكليف الله تعالى.

وأجاب ابن الخطيب عن هذا القول: بأن المراد من قوله: «ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً» الإثبات إلى الوجود والحدوث والحصول، فعلى هذا التقدير فحال[1] توجه[2] هذا الأمر كانت السموات والأرض معدومة، إذ لو كانت موجودةً فذلك لا يجوز، فثبت أن حال توجه هذا الأمر عليها كانت معدومة، وإذا كانت معدومة لم تكن فاهمة، ولا عارفة للخطاب، فلم يَجُزْ توجُّه الأمر عليها[3].

فصل[4]

روى مجاهدٌ وطاوس عن ابن عباس أنه قال: قال الله للسموات والأرض أخرجا ما فيكما من المنافع ومصالح العباد، أما أنتِ يا سماءُ فأطلعي شَمْسَكِ وقَمَرَكِ ونُجُومكِ، وأنت يا أرض فشقِّقي أنهارك وأخرجي ثمارك ونباتكِ، وقال لهما: افعلا ما آمركما طوعاً، وإلا ألجأتكما إلى ذلك (حتى)[5] تفعلا (ه)[6] فنقول: فعلى هذا التقدير لا يكون المراد من قوله: أتينا طائعين حدوثهما في ذاتهما، بل يصيرُ المراد من هذا الأمر أن يظهرا ما كان مودعاً فيهما، وهذا باطل؛ لأنه تعالى قال: «فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ في يَوْمَيْنِ» وذلك يدل على أن حُدُوثَ السماء إنما حصل بعد قوله: «ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً»[7].

فصل

اعلم أن المقصود من هذا الكلام إظهار كمال القدرة، والتقدير ائتيا شئتما ذلك أو أَبَيْتُما كما يقول الجبار لمن تحت يده: لتفعلن هذا شِئْتَ أو أبيتَ، ولَتَفْعَلُنَّهُ طَوْعاً أو كَرهاً.

وقيل: إنَّهُ تعالى ذكر السماء والأرض، ثم ذكر الطوع والكره فوجب أن ينصرف الطوعُ إلى السماء والكرهُ إلى الأرض، وتخصص السماء بالطوع لوجوه:

أحدها: أن السماء في دوام حركتها على نهج واحد لا يختلف تُشْبِهُ حيواناً مطيعاً لله عزَّ وجلَّ بخلاف الأرض فإنها مختلفة الأحوال، تارة تكون ساكنةً، وتارة تضطربُ.

وثانيها: أن الموجود في السماء ليس إلا الطاعة، قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ

---

(١) كذا في الرازي وفي ب محال تحريف.

(٢) كذا في النسختين توجه مصدراً لتوجَّه وفي الرازي: تَوْجيه.

(٣) انظر الرازي ١٠٨/٢٧.

(٤) في ب وقيل بدل من «فصل».

(٥) سقط من أ الأصل.

(٦) كذلك زيادة من ب وانظر معالم التنزيل للبغوي ١٠٦/٦.

(٧) الرازي في تفسيره ١٠٨/٢٧ وهو رأي له.

﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠]. وأما أهل الأرض فليس كذلك.

وثالثها: أن السماء موصوفة بكمال الحال، وقيل: إنها أفضل الألوان وشكلها أفضل الأشكال وهو المستدير ومكانها أفضل الأمكنة، وهو العُلُوُّ، وسُكَّانُها أفضل الأجرام، وهي[١] الكواكب المنيرة بخلاف الأرض فإنها مكان الظلمة والكثافة، واختلاف الأحوال وتغيير الذات والصفات فلا جرم عبَّر عن تكوين السماء بالطَّوْعِ وعن تكوين الأرض بالكره[٢].

قوله تعالى: «فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ». في نصب «سَبْعَ» أربعةُ أوجه:

أحدها: أنه مفعول ثانٍ «لقَضَاهُنَّ»؛ لأنه ضمّن معنى صيَّرهُنَّ بقضائه سبع سموات[٣].

الثاني: أنه منصوب على الحال من مفعول «فقضاهن» أي قضاهن معدودةً[٤]، وقضى بمعنى «صَنَعَ»[٥] كقول أبي ذؤيب:

٤٣٥٥ ـ وَعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا ... دَاوُدُ أَوْ صَنَعُ السَّوَابِغِ تُبَّعُ[٦]

أي صنعها.

الثالث: أنه تمييز؛ قال الزمخشري: ويجوز أن يكون ضميراً مبهماً مفسَّراً بسبعِ سَمٰواتٍ على التمييز[٧] يعني بقوله «مبهماً»، أنه لا يعود على السماء، لا من حيث اللفظ، ولا من حيث المعنى بخلاف كونه حالاً أو مفعولاً ثانياً.

الرابع: أنه بدل من «هُنَّ» في «فَقَضَاهُنَّ» قاله مكي[٨]، وقال أيضاً: السماء، تذكَّر وتؤَنَّثُ، وعلى التأنيث جاء القرآن، ولو جاء على التذكير لقيل: سَبْعَةَ سَمٰواتٍ[٩]. وقد تقدم تحقيق تذكيره وتأنيثه في أوائل البقرة[١٠].

---

(١) في الرازي: «وأجرامُها أفضلُ الأجرام وهي الكواكبُ المتلألئةُ».

(٢) الرازي ٢٧/١٠٦.

(٣) قاله السمين في الدر ٤/ ٧٢٢.

(٤) السابق.

(٥) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤/ ٣٨١ و ٣٨٢.

(٦) من تمام الكامل لأبي ذؤيب كما أخبر. والشاهد: قضاهما بمعنى صنعهما. ومسرُودتان صفة لموصوف محذوف أي دِرعان مسرودتان، والبيت في معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ٣٨٢ وفتح القدير ٤/٥٠٨، ومجمع البيان ٧/٥٩٦، وشرح المفصل ٣/٥٨ و ٥٩ والبحر المحيط ٧/ ٤٨٨ والمعاني الكبير ٢/ ١٠٣٩ وغريب القرآن ٣٨٨ وتأويل المشكل ٣٤٢ واللسان قضى وديوان المفضليات ٥٠٠ و٨٨١ وديوان الهذليين ١/ ١٩.

(٧) الكشاف ٣/ ٤٤٧.

(٨) مشكل إعراب القرآن له ٢/ ٢٧٠.

(٩) السابق ٢/ ٢٧٠ و ٢٧١.

(١٠) يشير إلى قوله تعالى: ﴿ثم استوى إلى السّماء فسوّاهنّ سبع سمواتٍ﴾ [البقرة: ٢٩].

فصل

قال أهل الأثر: إن الله تعالى خلق الأرض يوم الأحد والإثنين، وخلق سائر ما في الأرض يوم الثلاثاء والأربعاء وخلق السموات وما فيها في يوم الخميس والجمعة، وفرغ في آخر ساعةٍ من يوم الجُمُعةِ فخلق فيها آدم، وهي الساعة التي تقوم فيها القيامة.

فإن قيل: اليوم عبارة عن النهار والليل، وذلك إنما يحصل بطُلُوعِ الشَّمس وغروبها، وقبل حدوث السموات والشمس والقمر كيف يعقل حصوم اليوم؟

فالجواب: معناه أنه مضى من المدة ما لو حصل هناك فلكٌ وشمس لكان المقدار مُقدَّراً بيوم[١]. وقضاء الشيء إتمامه[٢] والفراغ منه.

قوله: «وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا». قال عطاء عن ابن عباس[٣] رضي الله عنهما: خلق في كل سماء خلقها من الملائكة وما فيها من البحار، وجبال البرد، وما لا يعلمه إلا الله تعالى، وقال قتادة والسُّدِّيُّ: يعني خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها. وقال مقاتل: وأوحى إلى كل سماء ما أراد من الأمر والنهي، وذلك يوم الخميس والجمعة، قال السدي: ولله في كل سماء بيت يُحَجُّ إليه ويطوف به الملائكة، كل واحد منها مقابل للكعبة بحيث لو وقعت منه حصاةٌ لوقعت على الكعبة.

قوله: «وَزَيَّنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ» وهي النيرات التي خلقها في السموات، وخص كل واحد بضوء معين، وسرٌّ معين وطبيعة معينة لا يعرفها إلا الله تعالى.

قوله: «وَحِفْظاً» في نصبه وجهان:

الأول: أنه منصوب على المصدر بفعل مقدر، أي: وحفظناها بالثواقب من الكواكب حفظاً[٤].

والثاني: أنه مفعول من أجله على المعنى؛ فإن التقدير: خلقنا الكواكب زينةً وحِفظاً[٥]، قال أبو حيان «وهو تَكَلُّفٌ وعُدُولٌ عن السَّهْلِ البَيِّن»[٦].

---

(١) انظر تفسير الإمام الرازي ٢٧/ ١٠٧ والكشاف بإجمال ٣/ ٤٤٧.

(٢) اللسان قضى ٣٦٦٥.

(٣) هذه الأقوال ذكرها العلامة البغوي في «معالم التنزيل» ٦/ ١٠٦، وكذلك الخازن في «لباب التأويل» السابق، والقرطبي ١٥/ ٣٤٥ وانظر أيضاً الرازي ٢٧/ ١٠٧، والبحر المحيط ٧/ ٤٨٨.

(٤) قاله العكبري في التبيان ١٠٢٤ والأخفش في المعاني ٦٨١ والزجاج في معاني القرآن وإعرابه ٤/ ٣٨٢، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٤٧، والسمين في الدر ٤/ ٧٢٢ ونقله في إعراب القرآن ٤/ ٥٢ والمغني ٤٧٩.

(٥) قال بهذا الوجه كسابقه العكبري والكشاف والسمين المراجع السابقة.

(٦) بالمعنى من البحر فإنه قال: «ولا حاجة إلى هذا التقدير الثاني وتكلفه مع ظهور الأول وسهولته» البحر ٧/ ٤٨٨.

فصل

المعنى وحفظناها من الشياطين الذين يسترقون السمع، ثم قال: «ذٰلِكَ» أي الذي ذكر من صُنْعَةِ «العَزِيزِ» في ملكه «العَلِيمِ» بخلقه فالعزيزُ إشارة إلى كمال القدرة، والعليمُ إشارة إلى كمال العلم[١].

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً﴾ هذا التفات من خطابهم بقوله: «قُلْ أَئِنَّكُمْ» إلى الغيبة لفعلهم الإعراض، أعرض عن خطابهم وهو تناسب حسنٌ، والمعنى أن الحجة قد تمت على أكمل الوجوه، فإن بقُوا مصرِّين على الجهل لم يبق حينئذ علاجٌ في حقهم إلا إنزال العذاب عليهم، فلهذا قال: «فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عادٍ وثَمودٍ»، أي هلاكاً مثلَ هلاكِهِمْ، والإنذار التخويف.

قال المبرد: الصاعقة المرة المهلكة لأي شيءٍ كان[٢]. وقرأ الجمهور: صاعِقَةً مثل صاعِقةِ بالألف فيهما. وابنُ الزبير[٣] والنَّخعيُّ والسُّلميُّ وابن محيصنٍ: صعقةً مثل صعقةِ محذوف الألف وسكون العين[٤]. وتقدم الكلام في ذلك في أوائل البقرة[٥]. يقال: صعقته الصاعقة فصعق. وهذا مما جاء فيه فعلتُهُ بالفتح ففعل بالكسر. ومثله: جذَعتُهُ فجذعَ[٦]. قال الزمخشري: والصَّعقَةُ المرة من الصَّعق[٧].

قوله: «إذْ جَاءَتْهُم» فيه أوجه:

أحدها: أنه ظرف «لأنْذَرْتُكُم»، نحو: لقيتك إذ كان كذا[٨].

الثاني: أنه منصوب بصاعقه، لأنها بمعنى العذاب[٩]، أي أنذرتكم العذاب الواقعَ في وقت مجيء رُسُلهم[١٠].

---

(١) انظر البغوي ٦/١٠٦. (٢) الرازي ٢٧/١٠٨.

(٣) عبد الله بن الزبير رضي الله عنه أبو بكر القرشي الأسدي الصّحابي وردت الرّواية عنه في حُرُوف القرآن مات مقتولاً سنة ٧٣ انظر طبقات القراء ١/٤١٩.

(٤) من الشواذ غير المتواترات نقلها ابن خالويه في المختصر ١٣٣ والزمخشري في الكشاف ٣/٤٤٧.

(٥) يقصد قوله: ﴿لن نؤمن لك حتّى نرى الله جهرةً فأخذتهم الصّاعقة﴾ [البقرة: ٥٥].

(٦) و (٧) قاله الزمخشري في الكشاف ٣/٤٤٧.

(٨) التبيان ١١٢٤. (٩) البحر المحيط ٧/٤٨٩.

(١٠) في ب رسله.

الثالث: أنه صفة لصاعقة الأولى.

الرابع: أنه حال من «صاعقة» الثانية، قالهما أبو البقاء[(١)]. وفيه[(٢)] نظر إذ الظَّاهِرُ أنَّ الصَّاعِقَة جُثَّةٌ وهي قطعة نار تنزل من السماء فتحرق كما تقدم تفسيرها، ولا يقع الزمان صفة لها، ولا حالاً عنها، وتأويلها بمعنى العذاب إخراجٌ لها عن مدلولها من غير ضرورةٍ، وإنما جعلها وصفاً للأولى، لأنها نكرة، وحالاً من الثانية لأنها معرفة لإضافتها إلى علم، ولو جعلها حالاً من الأولى لأنها تخصصت بالإضافة لجاز. فتعودُ الأوجهُ خمسةً.

قوله: «مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ» الظاهر أن الضَّميرين عائدان على عاد وثمود[(٣)]. وقيل: الضمير في «خَلْفِهِمْ» يعودُ[(٤)] على الرسل واستُبعد هذا من حيث المعنى؛ إذ يصير التقدير: جاءتهم الرسل من خلف الرسل أي من خلف أنفسهم، وقد يجاب عنه بأنه من باب: دِرْهَمٌ ونصفُهُ، أي ومن خلف رسُلٍ آخرين[(٥)].

قوله: «أَنْ لا تَعْبُدُوا» يجوز في «أن» ثلاثةُ أوجه:

أحدها: أن تكون المخففة من[(٦)] الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوفٌ، والجملة النهيية بعدها خبر، كذا أعربه أبو حيان وفيه نظر من وجهين:

أحدهما: أنَّ المخففة (من الثقيلة) لا يقع بعدها فعلٌ إلا من أفعال اليقين.

والثاني: أن الخبر في باب إنَّ وأخواتها لا يكون طلباً، فإن ورد منه شيء أوِّلَ، ولذلك تأوَّلُوا:

٤٣٥٦ ـ إِنَّ الَّذِينَ قَتَلْتُمْ أَمْسِ[(٧)] سَيِّدَهُمْ لاَ تَحْسَبُوا لَيْلَهُمْ عَنْ لَيْلِكُمْ نَامَا[(٨)]

وقوله:

٤٣٥٧ ـ وَلَوْ أَصَابَتْ لَقَالَتْ وَهِيَ صَادِقَةٌ إِنَّ الرِّيَاضَةَ لاَ تُنْصِبْكَ لِلشَّيبِ[(٩)]

---

(١) التبيان المرجع السابق. (٢) الدر المصون ٤/ ٧٢٣.

(٣) نقله الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٤٧ والبغوي ٦/ ١٠٦.

(٤) نقله أبو زكريا الفراء في معاني القرآن ٣/ ١٣.

(٥) قال بهذا الاعتراض والجواب أبو حيان في البحر المحيط ٧/ ٤٨٨، ونقله عنه تلميذه الشهاب السمين في الدر المصون ٤/ ٧٢٣، ٧٢٤.

(٦) أحد قولي الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٤٨ وأحد أقوال البحر المحيط لأبي حيان أيضاً ٧/ ٤٨٩.

(٧) في ب بالأمس.

(٨) من البسيط لأبي مِكْعت. وشاهده: «لا تحسبوا» جملة نهيية طلبية مؤولة بالخبر، حيث هي واقعة خبراً لإن المخففة من الثقيلة على إضمار القول. وقد تقدم.

(٩) من البسيط كسابقه وهو للجُمَيع بن منقذ، وشاهده: «لا تنصبك» فهذه جملة طلبية ليست خبراً لإن ولكنها مدخول عليها بقول مضمر هو الخبر وقد تقدم.

على إضمار القول.

الثاني: أنها الناصبة للمضارع، والجملة النهيية بعدها صلتها وصلت بالنهي كما توصل بالأمر في كتبتُ إليه بأن قُم[١].

وقد مر في وصلها بالأمر إشكالٌ يأتي مثله في النهي.

الثالث: أن تكون مفسرة لمجيئهم[٢]؛ لأنه يتضمن قولاً، و «لا» في هذه الأوجه كلها ناهية، ويجوز أن تكون نافية على الوجه الثاني، ويكون الفعل منصوباً بأن بعد لا النافية، فإنَّ لا النافية لا تمنع العامل أن يعمل فيما بعدها، نحو: جئتُ بلا زيدٍ، ولم يذكر الحوفيُّ غيره[٣].

قوله: «لَوْ شَاءَ» قدَّر الزمخشري مفعول شاء لو شاء إرسالَ الرُّسل لأنْزَلَ ملائكةً[٤]. قال أبو حيان تتبعت القرآن وكلام العرب، فلم أجد حذف مفعول شاء الواقع بعد لو إلاَّ من جنس جوابها، نحو ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥] أي لو شاء (الله) جمعهم على الهدى لجمعهم عليه. (و[٥]) ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ [الواقعة: ٦٥] و ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: ٧٠] و ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ﴾ [يونس: ٩٩] و ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢] و ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ﴾ [النحل: ٣٥]، وقال الشاعر (ـ رحمه الله عليه[٦] ـ):

٤٣٥٨ ـ فَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتَ قَيْسَ بْنَ خَالِدٍ ... وَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتَ عَمْرو بْنَ مَرْثَدِ[٧]

وقال الآخر:

٤٣٥٩ ـ واللَّذِ لَوْ شَاءَ لَكُنْت صَخْراً ... أَوْ جَبَلاً أَشَمَّ مُشْمَخِرَّا[٨]

---

(١) هو أحد أقوال أبي حيان فيه انظر البحر ٧/ ٤٨٩ وعلى هذا فهي مؤولة مع ما بعدها بمصدر مجرور بحرف جر محذوف والتقدير: بعدم عِبادتهم.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٤٨ والبحر المحيط ٧/ ٤٨٩.

(٣) المرجع الأخير السابق. (٤) الكشاف المرجع السابق.

(٥) زيادة للسياق. (٦) زيادة من أ.

(٧) من الطويل لطرفة بن العبد ويروى صدره:

أرى كُلَّ ذي جدٍّ ينوءُ بجدِّه ....

والشاهد: أن مفعول شاء الواقع بعد لو مقدر من جنس جوابها كما قرر بذلك أبو حيان والتقدير:

فلو شاء ربي كوني ....**كنت**

وانظر ديوان طرفة ٣٦ والسبع الطوال ٢٠٩ و ٢١٠، والبحر المحيط ٧/ ٤٩٠، والدر المصون ٤/ ٧٢٥.

(٨) من الرجز وهو مجهول ويروى:

والَّذ لو شاء لكانت برّا

وكانت أي الدنيا، والبرُّ مقابل البحر، والأشمّ المرتفع، والمشمخرّ: العالي المتطاول. وشاهده: أن=

قال: فعلى ما تقدم لا يكون المحذوف ما قدره الزمخشري، وإنما التقدير: لو شاء ربنا إنزال ملائكةٍ بالرسالة منه إلى الإنس لأنزلهُم بها إليهم وهذا أبلغ في[1] الامتناع من إرسال البشر إذ علَّقوا ذلك بإنزال الملائكة وهو لم يشأ ذلك فكيف يشاءُ ذلك في البشر[2].

قال شهاب الدين: وتقدير أبي القاسم أوقع معنًى وأخلصُ من إيقاع الظاهر موقع المضمر؛ إذ يصير التقدير «لو شاء إنزال ملائكةٍ لأنزلَ ملائكة»[3].

قوله: «بِمَا أُرسلتُم به» هذا خطاب لهودٍ وصالح وغيرهم من الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وغلب المخاطب على الغائب نحو: أَنتَ وَزَيْدٌ تقومانِ. و «ما» يجوز أن تكون موصولة بمعنى «الذي»، وعائدها «به»، وأن تكون مصدرية، أي بإرسالكم فعلى هذا يكون «به» يعود على ذلك المصدر المؤول، ويكون من باب التأكيد، كأنه قيل: كافرون بإِرسالكم به[4].

فصل

معنى جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم، أي إن الرسل المبعوثين إليهم أتوهُم من كل جانب، وأتوا بجميع وجوه الدلالات، فلم يروا منهم إلا العُتُوَّ والإعراض، كما حكى الله تعالى عن الشيطان: ﴿لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ [الأعراف: ١٧] أي من كل جهة. وقيل: المعنى أن الرسل جاءتهم من قبلهم أي أرسلوا إلى آبائهم، ومن خلفهم يعني الذين أرسلوا إليهم.

فإن قيل: كيف يمكن وصفهم بأنهم جاءوا؟!.

فالجواب: قد جاءهم هودٌ وصالح داعيين إلى الإيمان بهما، وبجميع الرسل، وبهذا التقدير: فكأن جميع الرسل قد جاءوهم وأمروهم بالتوحيد ونفي الشرك، فقالوا: «لو شاء ربّنا لأنزل ملائكة» وجعلوا عدم إنزال الملائكة دليلاً على تكذيب الرسل، والمعنى أنه تعالى لو شاء إرسال الرسل إلى البشر لجعل رسله ملائكةً؛ لأن الملائكة أفضى إلى المقصود من بعثةِ البشر. ثم قالوا إنا بما أُرسلتُم به كافرون، وتقدم الجواب عن هذه الشُّبهة في سورة الأنعام.

واعلم أن قولهم: أرسلتم به، ليس إقراراً بأن أولئك الأنبياء رسلٌ وإنما ذكروه حكاية لكلام الرسل أو على سبيل الاستهزاء، كما قال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ﴾ [الشعراء: ٢٧].

= جواب لو مقدر من جنس الجواب تقديره: لو شاء كوني وقد تقدم ويستشهد النحاة بالبيت على حذف ياء الذي تخفيفاً وكسر ما قبلها لغة لبعض العرب.

(١) في ب من.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٤٩٠.
(٣) الدر المصون ٤/ ٧٢٥.
(٤) المرجعان السابقان.

فصل

روي أن أبا جهل ـ لعنه الله ـ قال في ملأ من قريش: التبس علينا أمرُ محمد، فلو التمستم لنا رجلاً عالماً بالشعر والسحر والكهانةِ وكلَّمَهُ ثم أتانا ببيان من أمره، فقال عُيينةُ بْنُ حصنٍ: والله لقد علمتُ الشعر والسحر والكهانة، وعلمتُ من ذلك علماً ولا يخفى عليَّ، فأتاه، فقال يا محمدُ: أنت خيرٌ أم هاشم؟ أنت خير أم عبد المطلب؟ أنت خير أم عبد الله؟ فَلِمَ تَشْتِمُ آلهتنا وتضلِّلُ آباءنا؟ فإن كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواءَ فكنت رئيسنا، وإن أردت الباءة زوَّجناك أعزَّ نسوة تختارُهُنَّ من أيِّ بنات قريش شئت، وإن كنت تريد المال جمعنا لك ما تستعين به على ذلك، ورسول الله ـ ﷺ ـ ساكت، فلما فرغ، قال رسول الله ـ ﷺ ـ أفرغت؟ قال: نعم. قال: فاسمع ثم إنَّ النبي ـ ﷺ ـ تَعَوَّذَ ثم قرأ: «بسم الله الرحمن الرحيم» حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً إلى أن بلغ قوله: فإن أَعْرَضُوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود فأمسك عُيينةُ على فِيهِ وناشدهُ بالرحم إلا ما سكت، ثم رجع إلى أهله، فلم يخرج إلى قريش، فلما احتبس عنهم قالوا: ما نرى عيينة إلا قد صَبَأ فانطلقوا إليه وقالوا: يا عيينة، ما حَبَسَكَ عنا، إلا أنك قد صبأت إلى محمد، وأعجبك طعامُه، فإن كان بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد، فغضب وأقسم لا يكلم محمداً أبداً، ثم قال: «واللَّهُ لقد علمتم أني من أكثر قريش مالاً، ولكني قصصت عليه القصة فأجابني بشيء والله ما هو بشعرٍ ولا كهانةٍ ولا سحر، وقرأ السورة ولما بلغ صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود أمسكت بفيه، وناشدته بالرحم حتى سكت، لقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب فخِفت أن ينزل العذاب.

قوله تعالى: «فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ» قيل: هذا الاستكبار إظهار العُجبِ والتِّيه وعدم الالتفات إلى الغير. وقيل: الاستعلاء على الناس واستخدامهم. ثم ذكر تعالى سبب ذلك الاستكبار وهو قولهم: «مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً» وكانوا ذوي أجسام طوال، وقوة شديدة. ثم إنه تعالى ذكر ما يدل على أنهم لا يجوز لهم أن يغتروا بشدة قوتهم فقال: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ الله الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً» وإن كانت الزيادة في القوة توجب كون الناقص في طاعة الكامل فيجب عليهم الانقياد لله تعالى والخضوع لأوامره ونواهيه.

فإن قيل: صيغة أفعل التفضيل إنما تجري بين شيئين لأحدهما نسبة إلى الآخر لكن قدرة العبد متناهية، وقدرة الله لا نهاية لها والمتناهي لا نسبة لها[1] إلى غير المتناهي فما معنى قوله: «أنَّ الله أَشَدَّ مِنْهُمْ قوة»؟.

---

(١) كذا في أ وفي ب والرازي له وهو الأصح.

فالجواب: هذا ورد على قانون قولنا: الله أكبر[١]، ثم قال: «وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ» والمعنى أنهم يعرفون أنها حق ولكنهم يجحدونها كما يجحد المُودَعُ الوَدِيعةَ[٢].

واعلم أنَّ نظم الكلام أن يقال: أما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وكانوا بآياتنا يجحدون، وأما قولهم: مَنْ أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة[٣] اعتراض وقع في البين[٤] لتقرير السبب الداعي لهم إلى الاستكبار.

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾﴾

قوله: «فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً» الصَّرصرُ: الريح الشديدة، فقيل: هي الباردة من الصَّرِّ وهو البرد[٥]، وقيل: هي الشديدة السُّمُوم[٦]، وقيل: هي المُصوِّتة[٧] من صرَّ البابُ أي سُمِعَ صريرُهُ. والصَّرَّةُ: الصَّيحة ومنه: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾ [الذاريات: ٢٩] قال ابن قتيبة «صَرْصَرٌ» يجوز أن يكون من الصَّرِّ وهو البرد، وأن يكون من صرَّ البابُ، وأن يكون من الصَّرَّة ومنه: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾[٨] [الذاريات: ٢٩].

وقال الراغب: صَرْصرٌ لفظه من الصّر وذلك يرجع إلى الشد لما في البرودة من التعقيد[٩].

قوله: في أيَّام نحساتٍ قرأ الكوفيون وابنُ عامر بكسر الحاء والباقون بسكونها[١٠].

---

(١) أي أن أفعل ليست للتفضيل فهو هنا بمعنى كبير كالبيت المشهور: «وإن مُدَّت الأيدي إلى الزَّاد لم أكن بأعجلهم. . . . البيت».

(٢) قاله الرازي ٢٧/ ١١٢ والزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٤٩.

(٣) من لفظ «بين» الظرفية. (٤) الرّازي السابق.

(٥) نقله القرطبيُ عن عكرمة وسعيد بن جبير.

(٦) نقله أيضاً عن مجاهد وانظر القرطبي ٥/ ٣٤٩ والبحر ٧/ ٤٩٠.

(٧) هذا قول أبي عبيدة في المجاز ٢/ ١٩٧.

(٨) لم أجد هذا بعينه لابن قتيبة في الغريب أو تأويل المشكل ومما وجدته عنه أنه فسر الصّر بالبرد والصرة بالصيحة وهنا الصرصر بالشديدة وانظر غريب القرآن لابن قتيبة ١٠٩ و ٤٢١ و ٣٨٨، وانظر أيضاً اللسان صرر، ومعاني القرآن للزّجاج ٤/ ٣٨٢.

(٩) مفردات القرآن ٢٧٩.

(١٠) من القراءة المتواترة وذكرها ابن مجاهد في السبعة ٥٧٦، وابن الجزري في النشر ٢/ ٣٦٦ وتقريبه ١٧٠.

فأما الكسر فهو صفة على «فَعِلٍ» وفعلُهُ: «فَعِلَ» بكسر العين أيضاً كفِعْلِه[(١)]؛ يقال: نَحِسَ فهو نَحِسٌ، كَفَرِحَ، فهُو فَرِحٌ، وأَشِرَ فهو أَشِرٌ، ومعناه نكدات مَشْئُوماتٌ ذاتُ نُحُوسٍ[(٢)].

وأمال اللَّيثُ[(٣)] عن الكسائيِّ ألفه لأجل الكسرة[(٤)]، ولكنه غير مشهور عنه حتى نسبه الدَّانيُّ للوهم وأما قراءة الإسكان فتحتمل ثلاثة أوجهٍ:

أحدها: أن يكون مخفف من «فَعِل» في القراءة المتقدمة وفيه توافق القراءتين.

الثاني: أنه مصدر وصف به كرجُلٍ عَدْلٍ[(٥)]، إلا أنَّ هذا يضعفه الجمعُ، فإن الفصيحَ في المصدر الموصوف (به)[(٦)] أن يوحَّد وكأنَّ المُسوِّغَ للجمع اختلافُ أنواعه في الأصل.

الثالث: أنه صفة مستقلة على «فَعْل» بسكون العين ولكن أهل التصريف لم يذكروا في الصفة الجائية من «فَعِل» بكسر العين إلا أوزاناً محصورة ليس فيها «فَعْل» بالسكون فذكروا: فَرِحَ فهو فَرِحٌ وحور فهو أَحْوَرُ، وشَبع فهو شَبْعَانُ، وسَلِمَ فهو سَالِمٌ، وبلي فَهُو بالٍ[(٧)]. وفي معنى «نحسات» قولان:

أحدهما: أنها من الشّؤم، قال السدي أي مشائيم من النحس المعروف.

والثاني: أنها من شدة البرد[(٨)] وأنشدوا على الأول قولَ الشاعر:

٤٣٦٠ ـ يَوْمَيْنِ غَيْمَيْنِ وَيَوْماً نَحْسَا[(٩)] نَجْمَيْنِ سَعْدَيْنِ وَنَجْماً نَحْسَا[(١٠)]

---

(١) كذا في أ وفي ب كفعلة بتاء التأنيث، وكلاهما خطأ والمقصود كاسمه أو وصفه.

(٢) قاله الإمام البغوي في معالم التنزيل ٦/١٠٨.

(٣) هو الليث بن خالد أبو الحارث البغدادي، ثقة، معروف حاذق ضابط، عرض على الكسائيّ، وهو من جملة أصحابه، وروى الحروف عن حمزة بن القاسم الأحول، وعن اليزيدي وروى القراءة عنه عرضاً وسماعاً سلمة بن عاصم صاحب الفراء وغيره، انظر غاية النهاية ٢/ ٣٤.

(٤) في ب للكسر بالتذكير وانظر إبراز المعاني ٦٧٤.

(٥) في الكشاف: قرىء بكسر الحاء وسكونها ونَحِسَ نحساً نقيض سَعِدَ سعداً، وهو نحس وأما نحس فهو مخفف نحس أو صفة على فعل كضخم وشبهه الكشاف ٣/ ٤٤٩، الدر المصون ٤/ ٧٢٦.

(٦) زيادة لا بد منها حتى يتأتى المعنى المؤدي إليه.

(٧) انظر في هذا الدر المصون لشهاب الدين السمين ٤/ ٧٢٦ و ٧٢٧ وبالمعنى من كلام البحر المحيط لأبي حيان ٧/ ٤٩٠ قال: وتتبعت ما ذكره التصريفيون مما جاء صفة من فعل اللازم، فلم يذكروا فيه «فَعْلاً» بسكون العين قالوا يأتي على أفعل كحور فهو أحورُ، وعلى فعلان كشبع فهو شبعان، وقد يجيء على فاعل كسلم فهو سالم وبلي فهو بالٍ.

(٨) انظر البحر المحيط ٧/ ٤٩١ والبغوي ٦/ ١٠٨، والقرطبي ١٥/ ٣٤٨.

(٩) الأصح شمساً وهذه الرواية التي نراها أعلى رواية أ.

(١٠) من الرجز ولم أعرف قائلهُ، ويروى عجزه:

نجمين بالسعد ونجماً نحسا

=

وعلى المعنى الثاني:

٤٣٦١ ـ كَأَنَّ سُلافَةً عُرِضَتْ لِنَحْسٍ يُحِيلُ شَفِيفُهَا المَاءَ الزُّلالا[١]

ومنه:

٤٣٦٢ ـ قَدْ أَغْتَدِي قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ لِلصَّيْدِ فِي يَوْمٍ قَلِيلِ النَّحْسِ[٢]

وقيل: يريدُ به في هذا البيت الغبار، أي قليل الغبار. وقد قيل بذلك في الآية إنها ذات غبار. و «نَحِسَات» نعت لأيَّام، والجمع بالألف والتاء مُطَّرِدٌ في صفة ما لا يعقل كأيَّام معدوداتٍ[٣] كما تقدم تحقيقه في البقرة (اللَّهُمَّ يَسِّرْ)[٤].

فصل

الصَّرْصَر: العاصفة التي تُصَرْصِرُ في هُبُوبِهَا. روي عن عبد الله بن عَبَّاسٍ[٥] ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: الرِّياح ثمانٍ، أربعٌ منها عذاب وهي العاصف، والصرصر، والعقيم، والعاصفة، وأربع منها رحمة، وهي: الناشرات، والمُبَشِّرات، والمُرْسَلاَت، والذَّاريات. وعن ابن عباس[٦] رضي الله عنهما: أن الله تعالى ما أرسل على عباده من الريح إلا قدر خَاتَمِي. قال الضحاك: أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين، وتوالت الرياح عليهم من غير مَطَرٍ[٧].

فصل

استدلَّ الأَحكَامِيُّون من المُنَجِّمِينَ بهذه الآية على أن بعض الأيام يكون نحساً وبعضها سعداً وأجاب المتكلمون بأن المراد بهذه النحسات أي ذات غبار وتراب ثائر، لا يكاد يُبْصَرُ فيه ولا يُتَصَرَّف فيه، وقالوا أيضاً: معنى كون هذه الأيام نَحِسَاتٍ أن الله أهلكهم فيها. وأجاب الأحكاميون بأن الأحكام[٨] في وضع اللغة هي المشئومات لأن

= وهو في التفاؤل والتشاؤم بالنجوم على العادة العربية القديمة. والشاهد: استعمال النحس ضد السعد صفة على فَعْل بإسكان العين. وانظر المذكر والمؤنث لابن الأنباري ٣٠١ والدر المصون ٤/ ٧٣٧ ومعاني الفراء ٢/ ٧٣.

(١) من الوافر لابن أحمر، ويحيل: يصب الماءَ في الحلق، وهو يصف خمراً بأنها تعرضت لبرد. والشاهد باستعمال نحس بمعنى البرد الشديد، وانظر اللسان «نحس» ٤٣٦٧، والبحر المحيط ٧/ ٤٩١، والدر المصون ٤/ ٧٢٧ والطبري ٢٤/ ٦٧.

(٢) شاهده في النحس الذي هو بمعنى الغبار، وهو من الرجز مجهول قائلُهُ، انظر البحر المحيط ٧/ ٤٩١ والنوادر لأبي زيد ٣٤٥، والدر المصون ٤/ ٧٢٧ ولسان العرب «نحس» ٤٣٦٧.

(٣) من البقرة ٢٠٣ وانظر اللباب ميكروفيلم.

(٤) زيادة من أ الأصل.

(٥) روى الرازي أنه حديث لرسول الله ﷺ وليس لابن عبّاس.

(٦) الرازي ٢٧/ ١١٢.

(٧) معالم التنزيل للبغوي ٦/ ١٠٨.

(٨) الأصح كما في ب والرازي النحسات لا الأحكام.

النحس مقابلة السعد، والهواء الكدر يقابله[١] الصافي. وأيضاً فإنه تعالى أخبر عن إيقاع ذلك العذاب في تلك الأيام النحسات، فوجب أن[٢] كون تلك الأيام نَحِسَةً مغايراً لذلك العذاب الذي وقع فيها.

قوله: «لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ في الحَيَاةِ الدُّنْيَا» أي عذاب الهوان والذل مقابل لذلك الاستكبار «ولعَذَابُ الآخِرَةِ أخزى» أشد إهانة «وَهُمْ لاَ يُنْصَرُونَ» أي لا يكون لهم ناصر يدفع عنهم ذلك الخزي[٣].

قوله تعالى: «وَأما ثَمُود» الجمهور على رفعه، ممنوع الصرف. والأعمش وابن وثّاب مصروفاً[٤]، وكذلك كل ما في القرآن[٥] إلا قوله: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ﴾ [الإسراء: ٥٩]، قالوا لأن الرسم ثمود بغير ألف. وقرأ ابن عباس وابنُ أبي إسحاق والأعمش ـ في روايةٍ ـ ثموداً منصوباً مصروفاً[٦]. والحسنُ وابن هرمزٍ وعاصم أيضاً منصوباً غير منصرف[٧].

فأما الصرف وعدمه فقد تقدم توجيههما في «هُودٍ»[٨]. وأما الرفع فعلى الابتداء والجملة بعده الخبر، وهو متعيّن عند الجمهور[٩] لأن «أَمَّا» لا يليها إلا المبتدأ، فلا يجوز فيما بعدها الاشتغال إلا في قليل كهذه القراءة[١٠]، وإذا قدرت الفعل الناصب فقدِّره بعد

---

(١) في ب مقابلة.

(٢) في الرازي فوجب أن يكون كون تلك الأيام نحسة مغايراً لذلك العذاب. . الخ وانظر الرازي المرجع السابق.

(٣) قاله الرازي بتغيير طفيف في العبارة في تفسيره ٢٧/١١٣.

(٤) من القراءات الأربع فوق العشر المتواترة ذكرها صاحب الإتحاف ٣٨٠ وانظر أيضاً معاني القرآن للفراء ٣/١٤، ومختصر ابن خالويه ١٣٣، والبحر المحيط ٧/٤٩١، والكشاف ٣/٤٤٩ وبدون نسبة الزجاج في معاني القرآن وإعرابه ٤/٣٨٣ وهي من الشواذ.

(٥) من لفظ ثمود.

(٦) لم تُعْزَ في الكشاف ٣/٤٤٩ ونسبها أبو حيان في البحر ٧/٤٩١ إلى عاصم وما هو أعلى موافق لما في الدر المصون ٤/٨٢٨.

(٧) ذكرها في الشواذ ابن خالويه في المختصر ١٣٣ بالإضافة إلى الكشاف المرجع السابق ولم أجدها في المتواتر عن عاصم.

(٨) عند الآية ٦٨ منها: ﴿ألا إن ثموداً كفروا ربَّهم ألا بعداً لثمود﴾ وكذلك الآيات ٦١ و ٩٥ منها أيضاً ومفاد ما ذكر: أن هود لا يجوز صرفه لأنه مطلق على قبيلة فيكون ممنوعاً للعلمية والتأنيث، ويجوز أن يصرف لأنه على ثلاثة أحرف علم أعجمي أوسطه ساكن كنُوح.

(٩) قال الزجاج في معاني القرآن وإعرابه ٤/٣٨٣: والاختيار رفع ثمود على الابتداء والخبر، وهذا مذهب جميع النحويين اختيار الرفع، وكلهم يجيز النصب وقال الزمخشري في الكشاف ٣/٤٤٩: «والرفع أفصح لوقوعه بعد حرف الابتداء» بينما قال سيبويه في الكتاب: «لأن أما وإذا من حروف الابتداء، يصرفان الكلام إلى الابتداء» الكتاب ١/٩٥. ففهم من كلام سيبويه تعيين رفع ما بعد «أما» بخلاف قولي الزجاج والزمخشري السابقين.

(١٠) وهو الموافق أيضاً لما في الكتاب قال: إلا أن يوقع بعدها فعل، نحو: «أَمَّا زَيْداً فَضَرَبْتَ» الكتاب المرجع السابق، وكهذه الآية التي معنا.

الاسم المنصوب أي وأما ثمود هديناهم فهديناهم. قالوا: لأنها لا يليها الأفعال[١].

فصل

قال الزمخشري: وقرىء: بضم الثَّاء[٢]. قال مجاهد: هديناهم: دعوناهم. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: بيَّنَّا لهم سبيل الهدى، وقيل: دللناهم على طرق الخير والشر، كقوله ﴿هَدَيْنَهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣] «فَاسْتَحَبُّوا العَمَى عَلَى الهُدَى» أي فاختاروا الكفر على الإيمان.

وذكر الزمخشري في تفسير الهدى في قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]: أن الهدى عبارة عن الدلالة الموصلة إلى البغية[٣]، وهذه الآية تبطل قوله لأنها تدل على أن الهدى قد حصل مع أن الإفضاء إلى البغية لم يحصل[٤]. (انتهى)[٥].

فصل

قالت المعتزلة: دلت هذه الآية على أن الله تعالى ينصب الدلائل ويزيح الأعذار إلا أن الإيمان إنما يحصل من العبد، لأن قوله تعالى: «فَهَدَيْنَاهُمْ» يدل على أنه تعالى نصب لهم الدلائل، وقوله «فاستحبوا العمى على الهدى» يدل على أنهم من عند أنفسهم أتوا بذلك العمى، وهذا يدل على أن الكفر والإيمان يحصلان من العبد.

والجواب من وجهين:

الأول: أنه إنما صدر عنهم ذلك العمى لأنهم أحبوا تحصيله، فلما وقع في قلوبهم هذه المحبة دون محبة ضده، فإن حصل هذا الترجيح لا لمرجِّح فهو باطل وإن كان لمرجِّح فإن كان المرجِّح هو العبد عاد الطلب، وإن كان المرجح هو الله فقد حصل المطلوب.

الثاني: أنه تعالى قال: ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ ومن المعلوم بالضرورة أن أحداً لا يحب العمى والجهل مع العلم بكونه[٦] عَمًى وجهلاً بل ما يظنُّ[٧] في ذلك العمى والجهل بكونه[٨] تبصرةً وعلماً مما يرغب فيه فإقدامه على اختياره[٩] على ذلك الجهل الثاني إن كان باختياره لزم التسلسل وهو محال، فلا بد من انتهاء تلك الجهالات إلى

(١) انظر هذا بتفصيل في المغني ٥٨ قال: ويجب تقدير العامل بعد الفاء وقبل ما دخلت عليه لأن «أمَّا» نائبة عن الفعل، فكأنها فعل، والفعل لا يلي الفعل.
(٢) الكشاف ٣/٤٤٩.
(٣) الكشاف ١/١١٦.
(٤) الرازي ٢٧/١١٣.
(٥) زيادة من ب.
(٦) كذا في الرازي وفي النسختين: لكونه باللام.
(٧) في الرازي ما لم يظن.
(٨) في ب والرازي: كونه دون الباء.
(٩) في الرازي: فإقدامه على اختيار ذلك الجهل.

جهل يحصل فيه لا باختياره وهو المطلوب[١].

قول: «فَأَخَذتهمْ صَاعِقَةُ العَذَابِ الهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُون» وصاعقة العذاب أي المهلكة والعذاب الهون أي ذي الهون، أي الهوان وهو الذي يهينهم «بما كانوا يكسبون» من شركهم وتكذيبهم صالحاً.

ثم قال: «وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانوا يَتَّقُونَ» يعني يتقون الأعمال التي كانوا يأتون بها عادٌ وثمودُ.

فإن قيل: كيف يجوز للرسول ـ ﷺ ـ أن ينذر قومه مثل صاعقة عادٍ وثمود مع العلم بأن ذلك لا يقع في أمة محمد ـ ﷺ ـ وقد صرح الله تعالى بذلك في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] وجاء في الحديث الصحيح أن الله رفع عن هذه الأمة أنواع العذاب؟!.

فالجواب: أنهم لما عرفوا كونهم مشاركين لعادٍ وثمود في استحقاق مثل تلك الصاعقة وأن السبب الموجب للعذاب واحد ربما يكون العذاب النازل بهم من جنس ذلك وإن كان أقل درجة، وهذا القدر يكفي في التخويف[٢].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ الآية لما بين كيفية عقوبة أولئك الكفار في الدنيا أردفه ببيان كيفية عقوبتهم في الآخرة ليحصل تمام الاعتبار في الزجر والتحذير، فقال «ويوم يحشر». في العامل في هذا الظرف وجهان:

أحدهما: محذوف دل عليه ما بعده من قوله «فَهُمْ يوزَعُونَ» تقديره: يساقُ[٣] الناسُ يَوْمَ يُحْشَر[٤] وقدره أبو البقاء يمنعون يوم يحشر[٥].

الثاني: أنه منصوب باذكر، أي اذكر يوم[٦]. وقرأ نافع «نَحْشُرُ» بنون العظمة وضم الشين «أَعْدَاءَ» نصباً أي نحشر نحن، والباقون بياء الغيبة مضمومة والشين مفتوحة على ما لم يسم فاعله و «أَعْدَاءُ» رفعاً لقيامه مقام الفاعل[٧].

ووجه الأول أنه معطوف على «وَنَجَّيْنَا» فيحسن أن يكون على وفقه في اللفظ (يقويه)[٨] وقوله ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [مريم: ٨٥]، ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ [الكهف: ٤٧].

وحجة الثانية: أن قصة ثمود قد تمت وقوله: «وَيَوْمَ يُحْشَر» ابتداء كلام آخر وأيضاً

---

(١) انظر الرازي ٢٧/١١٣ و ١١٤. (٢) الرازي المرجع السابق.

(٣) في ب ليساق.

(٤) بتوضيح لكلام أبي البقاء من الدر المصون للسمين ٤/٧٢٨.

(٥) انظر التبيان له ١١٢٥. (٦) السمين السابق.

(٧) من القراءة المتواترة، ذكرها صاحب الإتحاف ٣٨١ وصاحب السبعة ٥٧٦ وصاحب النشر ٢/٣٦٦ وابن خالويه في الحجة ٣١٧ وانظر الكشف لمكي ٢/٢٤٨.

(٨) ما بين القوسين زيادة من الرازي ولاستقامة الكلام فهي ساقطة من النسختين.

الحاشرون لهم هم المأمورون بقوله: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الصافات: ٢٢] وهم الملائكة، وأيضاً موافقة لقوله: «فَهُمْ يُوزَعُونَ» وأيضاً فتقدير القراءة الأولى، أن الله تعالى قال: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ﴾ فكان الأولى على هذا التقدير أن يقال: ويوم نَحْشُرُ أعداءنا إلى النار. وكسر الأعرج شين «يحشِر». ثم قال: «فهم يُوزَعون» أي يساقون، ويدفعون إلى النار[١]. وقال قتادة والسدي: يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا[٢]. أي[٣] يوقف سوابقهم حتى يصل إليهم تواليهم.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: «حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا» «حتى» غاية ليُحْشَرُ والمعنى حتى إذا جاءوا النار فيكون «ما» صلة[٤]. وقيل: فيها فائدة زائدة وهي تأكيد أن عند مجيئهم لا بد وأن تحصل هذه الشهادة كقوله تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ﴾ [يونس: ٥١] أي لا بد لوقت وقوعه من أن يكون وقت إيمانهم به[٥].

فصل

في كيفية تلك الشهادة ثلاثة أقوال:

الأول: أن الله تعالى يخلق الفهم والقدرة والنطق فتشهد كما يشهد الرجل على ما يعرفه.

والثاني: أنه تعالى يخلق في تلك الأعضاء الأصوات والحروف الدالة على تلك المعاني[٦].

الثالث: أن يظهر في تلك الأعضاء أحوال تدل على صدور تلك الأعمال من ذلك الإنسان وتلك الأمارات تسمى شهادات كما يقال: يشهد هذا العالم بتغيرات[٧] أحواله على حدوثه.

---

(١) قال بهذه التوجيهات بالإضافة لمراجع القراءات السابقة الرازي في التفسير الكبير ٢٧/ ١١٥.
(٢) البغوي ٦/ ١٠٩. (٣) هذا التفسير قاله الرازي في مرجعه السابق.
(٤) أي زائدة.
(٥) نقله الرازي في التفسير الكبير ٢٧/ ١١٥، بالمعنى من كشاف الزمخشري ٣/ ٤٥٠.
(٦) قال الرازي: كما خلق الكلام في الشجرة.
(٧) في ب بتغييرات بمد الياء.

فصل

قال ابن الخطيب: والسبب في تخصيص هذه الأعضاء الثلاثة بالذكر أن الحواسَّ الخمس وهي السمع والبصر، والشَّمُّ والذَّوْقُ واللمسُ، وآلة اللمس هي الجلد، فالله تعالى ذكر هاهنا ثلاثة أنواع من الحواس وهي السمع والبصر واللمس، وأهمل ذكر نوعين، وهما: الذوق والشم، فالذوق داخل في اللّمس من بعض الوجوه؛ لأن إدراك الذوق إنما يتأتى بأن تصير جلدة اللسان مماسَّة لجرم (الطعام وكذلك الشم لا يتأتى حتى تصير جلدة الحنك مماسةً لجرم) المشموم فكانا داخلين في جنس[١] اللَّمس. وإذا عرف هذا فنقول: نقل عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: المراد من شهادة الجلود شهادة الفروج، وهذا من باب الكنايات، كما قال: ﴿لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ [البقرة: ٢٣٥] وأراد النكاح وقال: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ [النساء: ٤٣] والمراد قضاء الحاجة، وقال عليه الصلاة والسلام: «أَوَّلَ مَا يَتَكَلَّمُ مِنَ الآدميِّ فَخِذُهُ وكَفُّه»[٢] وعلى هذا التقدير فتكون هذه الآية وعيداً شديداً في إتيان الزنا؛ لأن مقدمة الزنا إنما تحصل بالفخذ. وقال مقاتل: تنطق جوارحهم بما كتمته الأنفس[٣] من عملهم.

قوله: «وَقَالُوا» يعني الكفار الذين يحشرون إلى النار «لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» هذا من جواب الجلود، ومعناه أن القادر على خلقكم وإنطاقكم في المرة الأولى حال كونكم في الدنيا ثم (على)[٤] خلقكم وإنطاقكم[٥] في المرة الثانية وهي حال القيامة والبعث كيف يستبعد منه إنطاق الجوارح والأعضاء[٦]؟!

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ أي تستخفون عند الإقدام على الأعمال القبيحة. وقال مجاهد تتقون، وقال قتادة: تظنون[٧]. قوله ﴿أَن يَشْهَدَ﴾ يجوز فيه أوجه:

أحدها: من أن يشهد[٨].

الثاني: خيفة أن يشهد.

الثالث: لأجل أن يشهد وكلاهما بمعنى المفعول له[٩].

---

(١) في ب حيز وانظر الرازي بالمعنى ٢٧/١١٦ وما بين القوسين سقط من ب بسبب انتقال النظر.
(٢) انظر الرازي ٢٧/١١٧.
(٣) في البغوي: الألسُن وكذلك الخازن وانظر البغوي والخازن ٦/١٠٩.
(٤) سقط من ب. (٥) في ب وأنطقكم بالفعلية.
(٦) هذا قول الرازي في تفسيره المرجع السابق.
(٧) البغوي السابق والقرطبي ١٥/٣٥٢.
(٨) قاله العكبري في التبيان ١١٢٥ قال: لأن «تستتِرُ» لا يتعدى بنفسه.
(٩) البحر المحيط ٧/٤٩٣، البغوي ٤/٧٢٩.

الرابع: عن أن يشهد أي ما كنتم تمتنعون[١] ولا يمكنكم الاختفاء عن أعضائكم والاستتار عنها.

الخامس: أنه ضمن معنى الظن[٢] وفيه بعد.

فصل

معنى الكلام أنهم كانوا يستترون عند الإقدام على الأعمال القبيحة؛ لأن استتارهم ما كان لأجل قولهم من أن يشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم لأنهم كانوا منكرين للبعث والقيامة، وذلك الاستتار لأجل أنهم كانوا يظنون أن الله لا يعلم الأعمال التي يخفونها. رويَ عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: كنت مستتراً بأستار الكعبة فدخل ثلاثة نفر ثقفيان وقرشيّ أو قرشيان وثقفي كثير شحم بطونهم، قليل فقه قلوبهم، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع ما نقول؟ قال الآخر: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا، وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا سمع إذا أخفينا. فذكرت ذلك لرسول الله ـ ﷺ ـ فأنزل الله «وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ...» الآية[٣]. قيل: الثقفي عبد[٤] ياليل وختناه القرشيان ربيعة وصفوان بن أمية.

قوله: «وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمْ» فيه أوجه:

أحدها: أن «ذلكم» رفع بالابتداء و «ظنكم» خبره و «الَّذِي ظَنَنْتُمْ» نعته «وَأَرْداكُمْ» حال و «قد» معه مقدرة[٥] على رأي الجمهور خلافاً للأخفش[٦]، ومنع مكي الحالية للخلو من «قد»[٧] وهو ممنوع لما تقدم.

---

(١) هذا رأي ابن الأنباري في البيان ٢/ ٣٣٩.

(٢) نقله السمين في الدر المصون ٤/ ٧٢٩ نقلاً عن أبي حيان في بحره فقد قال في البحر: «وعبر قتادة عن تستترون بتظنون أي وما كنتم تظنون أن يشهدوا» المرجع السابق ٧/ ٤٩٣.

(٣) ذكره السيوطي في أسباب النزول ٢/ ١٤٩ وانظر أيضاً معالم التنزيل للبغوي ٦/ ١٠٩ ولباب التأويل للإمام الخازن ٦/ ١٠٩ أيضاً.

(٤) هو عبد بن ياليل بن ناشب بن غيرة الليثي من بني سعد بن ليث شهد بدراً وتوفي في آخر خلافة عمر وكان شيخاً كبيراً انظر أسد الغابة ٣/ ٣٣٤.

(٥) ذكر هذا الإعراب أبو البقاء العكبري في التبيان ١١٢٥.

(٦) مع الكوفيين فإنهم لن يشترطوا وجود «قد» مع الفعل الماضي الواقع حالاً فحجتهم أن كل ما جاز أن يقع صفة للنكرة، نحو مررتُ برجلٍ قاعدٍ جاز أن يكون حالاً من المعرفة مثل: مررت بالرجل قاعداً والفعل الماضي يقع وصفاً للنكرة نحو: مررت برجل قعد فينبغي أن يقع حالاً للمعرفة نحو: مررت بالرجل قعد. وقد ذكر هذه القضية ابن الأنباري في الإنصاف المسألة رقم ٣٢ (٢٥٢ و ٢٥٨) وانظر أيضاً الهمع ١/ ٢٤٧، ورأي الأخفش قد وافق عليه أبو حيان من المتأخرين قال في الهمع: قال أبو حيان: والصحيح جواز وقوع الماضي حالاً بدون قد ولا يحتاجُ إلى تقدير.

(٧) قال في المشكل ٢/ ٢٧٢ وقال الفراء «أرداكم» حال والماضي لا يحسن أن يكون حالاً عند البصريين إلا على إضمار «قد».

والثاني: أن يكون «ظَنُّكُمْ» بدلاً، والموصول خبره، و «أَرْدَاكُمْ» حال أيضاً.

الثالث: أن يكون الموصول خبراً ثانياً.

الرابع: أن يكون «ظنكم» بدلاً أو بياناً، والموصول هو الخبر، و «أَرْدَاكُمْ» خبر ثان(١).

الخامس: أن يكون ظنكم والموصول والجملة من «أرداكم» أخباراً(٢) إلا أن أبا حيان ردَّ على الزمخشري قوله: «وَظَنُّكُمْ وَأَرْدَاكُمْ» خبران قال: لأن قوله: «وَذلِكُمْ» إشارة إلى ظنهم السابق فيصير التقدير: وظنكم بربكم أنه لا يعلم ظنكم بربكم(٣) فاستفيد من الخبر ما استفيد من المبتدأ وهو لا يجوز وهذا نظير ما منعه النحاة من قولك: سَيِّد الجارية مالكها.

وقد منع ابن عطية كون «أَرْدَاكُمْ» حالاً، لعدم وجود «قد»(٤). وتقدَّم الخلاف في ذلك.

فصل

قال المفسرون: وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أي ظنكم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون أرداكم أهلككم. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: طرحكم في النار «فأصبحتم من الخاسرين»(٥) وهذا نص صريح في أن من ظن أنه يخرج شيء من المعلومات عن علم الله فإنه يكون من الهالكين الخاسرين(٦).

قال المحققون: الظن قسمان:

أحدهما: حسن، والآخر: فاسد. فالحسن أن يظن بالله عز وجل الرحمة والفضل والإحسان، قال عليه الصلاة والسلام حكايةً عن الله عز وجل: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بي»(٧). وقال عليه الصلاة والسلام: «لاَ يمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إلاَّ وهُوَ حَسَنُ الظَّنِّ بالله»(٨).

والظن القبيح أن يظن أنه تعالى يعزب(٩) عن علمه بعض الأحوال. وقال قتادة:

---

(١) وهذه الأوجه الأربعة قال بها العكبري في التبيان ١١٢٥ وبتوضيح من الدر المصون للسمين ٤/ ٧٢٩ وانظر الكشاف ٣/ ٤٥١ والبيان لابن الأنباري ٢/ ٣٣٩.

(٢) متعددة لمبتدأ واحد وهو «وذلكم» قال بذلك السمين في الدر ٤/ ٧٢٩، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٥٣.

(٣) في البحر: فيصير التقدير وظنكم بأن ربكم لا يعلم ظنكم بربكم والمؤلف مشى في نقله عن أبي حيان من الدر المصون للشهاب السمين ٤/ ٧٢٩، وانظر البحر ٧/ ٤٩٣.

(٤) المرجع السابق.

(٥) معالم التنزيل للبغوي ٦/ ١٠٩.

(٦) نقله الرازي ٢٧/ ١١٧.

(٧) نقله البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه البخاري ٤/ ٢٧٨٨.

(٨) لم أعثر عليه إلا في تفسير الإمام الرازي ٢٧/ ١١٧ فقد نقله بدون سند إلى راويه عنه ﷺ.

(٩) أي يغيب.

والظن نوعان: مُنْجِي[1] ومُرْدِي فالمنجي قوله: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٠] وقوله: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦] والمردي هو قوله ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي سكن لهم، يعني إن أمسكوا عن الاستغاثة لفرجٍ ينتظرونه لم يجدوا ذلك وتكون النار مثوى لهم أي مقاماً لهم[2].

قوله: «وإن يُسْتَعْتَبُوا فَمَا هُمْ مِنَ المُعْتَبِينَ» العامة على فتح الياء من «يَسْتَعْتِبُوا» وكسر التاء الثانية مبنياً للفاعل «فما هم من المعتبين» بكسر التاء اسم الفاعل ومعناه وإن طلبوا العُتْبَى وهي الرضا فما هم ممن يعطاها. والمعتب الذي قبل عتابه وأجيب إلى ما سأل، يقال: أعتبني فلانٌ، أي أرضاني بعد إسخاطه إيَّاي، واستعتبته طلبت منه أن يعتب أي يرضى. وقيل: المعنى وإن طلبوا زوال ما يعتبون فيه فما هم من المجابين إلى إزالة العتب. وأصل العتب المكان النّائي بنازله، ومنه قيل لأسكفَّة[3] الباب والمرقاة: عتبة، ويعبر بالعتب عن الغلظة التي يجدها الإنسان في صدره على صاحبه، وعتبت فلاناً أبرزت له الغلظة، وأعتبته أزلت عتباه كأشكيته وقيل: حملته على العتب[4].

وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد: وإن يُستعتبوا مبنياً للمفعول[5] فما هم من المُعْتِبِينَ اسم فاعل بمعنى إن يطلب منهم أن يرضوا فما هم فاعلون ذلك، لأنهم فارقوا دار التكليف[6]، وقيل: معناه أن يطلب ما لا يعتبون عليه فما هم ممَّن[7] يريد العُتْبَى وقال أبو ذؤيب:

٤٣٦٣ ـ أَمِنَ المَنُونِ وَرَيْبِهِ تَتَوَجَّعُ وَالدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ[8]

---

(١) كذا رسمها الناسخ في نسخ اللباب والأصح لغوياً منج ومرد.

(٢) قاله الرازي في مرجعه السابق.

(٣) وهي السفلى وانظر معالم التنزيل للإمام البغوي ٦/ ١١٠، واللسان لابن منظور عتب ٢/ ٢٧٩٣.

(٤) المرجع السابق وص ٢٧٩٢ منه.

(٥) قراءة شاذة ذكرها أبو الفتح ابن جنيّ في المحتسب ٢/ ٢٤٥ وابن خالويه في المختصر ١٣٣.

(٦) بالمعنى من الكشاف ٣/ ٤٥١ وانظر البحر المحيط ٧/ ٤٩٤.

(٧) قاله أبو البقاء في التبيان ١١٢٦.

(٨) من تمام الكامل له يرثي أولاده وهو يخاطب نفسه على العادة القديمة، والمنون: الموت والجوع وهو=

قوله: «وَقَيَّضْنَا لَهُمْ» بعثنا لهم ووكلنا، وقال مقاتل: هَيَّأْنَاهُ[١]. وقال الزجاج: سينالهم[٢] وأصل التقييض التيسير والتهيئة، قيضته للداء هيأته له ويسّرته، وهذان ثوبان قيِّضان أي كل منهما مكافيء للآخر في الثمن. والمقايضة المعارضة، وقوله ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ [الزخرف: ٣٦] أي نسهل ونيسر ليستولي عليه استيلاء القَيْض على البَيْض[٣]. والقيض في الأصل قشر البيض الأعلى[٤]. قال الجوهري[٥]: ويقال: قايضت الرجل مقايضة أي عاوضته بمتاع، وهما قيضان كما يقال: بيعان. وقيَّض الله فلاناً لفلان أي جاء به ومنه قوله تعالى: «وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ»[٦] والمراد بالقرناء النظراء من الشياطين حتى أضلوهم «فَزَيَّنوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهم» من أمر الدنيا حتى آثروه على الآخرة «وَمَا خَلْفَهُمْ» من أمر الآخرة فدعوهم إلى التكذيب وإنكار البعث[٧].

وقال الزجاج: زينوا (لهم[٨] ما بين أيديهم من أمر الآخرة أنَّه لا بعث ولا جنة ولا نار، وما خلفهم من أمر الدنيا وأن الدنيا قديمة، ولا صانع إلا الطبائع والأفلاك[٩]. وقيل[١٠]: ما بين أيديهم أعمالهم التي يعملونها وما خلفهم ما يعزمون[١١] أن يعملوه. وقال ابن زيد: ما بين أيديهم ما مضى من أعمالهم الخبيثة (وما بقي من أعمالهم الخسيسة)[١٢]).

فصل

دلت هذه الآية على أنه تعالى يريد الكفر من الكافر؛ لأنه تعالى قيَّض لهم قرناء

= جمع منيَّة والمُعتب اسم فاعل من أعتب أي الذي يزيل سبب العتب. والشاهد: في معتب وهي بمعنى إزالة العُتب أي سببه وانظر ديوان المفضليات ٥٨٠، وديوان الهذليين ١/١، والسبع الطوال لابن الأنباري أبي بكر ٤٦٠ والبحر المحيط ٧/ ٤٩٤ والكشاف ٤/ ٢٥، واللسان منن ٤٢٧٧ وشرح شواهد الكشاف ٤٢٥.

(١) انظر معالم البغوي ٦/ ١١٠. (٢) نقله في معاني القرآن وإعرابه ٤/ ٣٨٤.

(٣) انظر اللسان قيض ٣٧٩٥ وغريب القرآن ٣٨٩.

(٤) اللسان المرجع السابق.

(٥) هو إسماعيل بن حماد الجوهري الإمام أبو نصر الفارابيّ كان من أعاجيب الزمان ذكاءً وفطنةً وعلماً، إماماً في اللغة والأدب ومن فرسان الكلام والأصول من مؤلفاته: «الصحاح» المشهور اختلف في وفاته فقيل سنة ٤٠٠. وقيل: ٣٩٣هـ البغية ١/ ٤٤٦.

(٦) انظر الصحاح له قيض.

(٧) قال بهذه المعاني البغوي ٦/ ١١٠.

(٨) ما بين القوسين الكبيرين بتقديم وتأخير وتداخل لما بعده من الكلام في نسخة ب.

(٩) قول الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٣٨٤ زينوا لهم أعمالهم التي يعملونها ويشاهدونها وما خلفهم وما يعزمون أن يعملوه.

(١٠) نقله الرازي وهو رأي الزجاج كما رأينا. (١١) في الرازي وما زعموا أنهم يعملونه.

(١٢) تكملة لرأي ابن زيد عن الرازي ٢٧/ ١١٩.

فزينوا لهم الباطل، وهذا يدل على أنه تعالى أراد منهم الكفر. وأجاب الجُبَّائيُّ بأن قال: لو أراد المعاصي لكانوا بفعلها[١] مطيعين؛ لأن الفاعل لما يريده منه غيره يجب أن يكون مطيعاً له. وأجاب ابن الخطيب: بأنه لو كان من فعل ما أراده غيره مطيعاً له لوجب أن يكون الله مطيعاً لعباده إذا فعل ما أرادوه[٢] فهذا إلزام الشيء على نفسه وإن أردت غيره فلا بد من بيانه حتى ينظر فيه هل يصح أم لا[٣].

قوله: «فِي أُمَمٍ» نصب على الحال من الضمير في «عَلَيْهِمْ» والمعنى كائنين في جملة أُمَم، وهذا كقوله (شِعْراً)[٤]:

٤٣٦٤ ـ إنْ تَكُ عَنْ أَحْسَنِ الصَّنِيعَةِ مَأْ فُوكاً فَفِي آخَرِينَ قَدْ أَفِكُوا[٥]

أي في جملة قوم آخرين. وقيل: في بمعنى «مع»[٦].

فصل

احتجّ أهل السنة بأنه تعالى أخبر أن هؤلاء حق عليهم القول فلو لم يكونوا كفاراً لانقلب هذا الخبر الحق باطلاً، وهذا العلم جهلاً، وهذا الخبر الصدق كذباً، وكل ذلك محال، ومستلزم المحال محال فثبت أن صدور الإيمان وعدم صدور الكفر عنهم محال.

قوله (تعالى)[٧]: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ والْغوا فِيهِ...» الآية اعلم أن الكلام ابتداء من قوله تعالى: «وَقَالُوا قُلُوبُنَا في أَكِنَّة» إلى قوله: «إِنَّنَا عَامِلُونَ». وأجاب الله تعالى عن تلك الشبهة[٨] واتصل الكلام إلى هذا الموضع، ثم إنه تعالى حكى عنهم شبهة أخرى فقال: «وَقَالَ الَّذِين كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا القُرْآنِ والْغوا فِيهِ» العامة على فتح الغين وهي تحتمل وجهين:

أحدهما: أن تكون من «لَغِيَ» بالكسر يَلْغَى، وفيها معنيان:

أحدهما: من ألغى إذا تكلم باللغو وهو ما لا فائدة فيه[٩].

---

(١) في ب يفعلونها. (٢) في ب أراده.
(٣) نقله الرازي في تفسيره ١١٩/٢٧. (٤) زيادة من ب.
(٥) من المنسرح لعروة بن أذينة، ويروى: «إن تك عن أفضل المروءة».
والمأفوك: المصروف عن الحق وهو يخاطب إنساناً قد عزف عن صنع الخير، قائلاً إنك لستَ الوحيد في ذلك فغيرك كثير ممن لا يلتفتون إلى هذا الأشياء الحسنة. وشاهده: «ففي آخرين» حيث تعلق الجار والمجرور بحال محذوف أي فأنت كائناً أو مستقراً في جملة قوم آخرين. وانظر المحتسب ٢/ ١٦١ و ٢٦٧ والبحر المحيط ٧/ ٤٩٣ وإصلاح المنطق ٢٣، ولسان العرب أفك ٩٧ والكشاف ٢/ ٤٥٢، والدر المصون ٤/ ٧٣٠ والقرطبي ١٥/ ٣٥٥ وديوانه ٣٤٣.
(٦) نقله أبو حيان في البحر المرجع السابق ولم يرتضه.
(٧) زيادة من أ. (٨) في ب الشبه.
(٩) لسان العرب لغا ٤٠٤٩.

والثاني: أنه من لغى بكذا أي رمى به فتكون «في» بمعنى الباء أي ارموا به وانبذوه[١].

والثاني من الوجهين الأولين: أن يكون من «لَغَا» بالفتح أيضاً حكاه الأخفش، وكان قياسه الضم كغزا يغزو، ولكنه فتح لأجل حرف الحلق[٢]. وقرأ قتادة وأبو حيوة وأبو السمال والزعفراني وابن أبي إسحاق وعيسى بضم الغين، من لغا بالفتح يَلغُو كدَعَا يَدْعُو[٣]، وفي الحديث: «فَقَدْ لَغَوْتَ»[٤]. وهذا موافق لقراءة غير الجمهور.

فصل

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يعني الغَطُوا فيه، كان بعضهم يوصي بعضاً: إذا رأيتم محمداً يقرأ فعارضوه بالرجز والشعر واللغو.

قال مجاهد: والغوا فيه بالمكاء[٥] والصّفير. وقال الضحاك: أكثروا الكلام فيختلط عليه ما يقول؛ وقال السّدي صيحوا في وجهه. «لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ» على قراءته[٦]، وهذا جهل[٧] منهم لأنهم في الحال أقروا بأنهم مشتغلين باللغو والباطل من العمل والله تعالى ينصر محمداً بفضله ولما ذكر الله تعالى هددهم بالعذاب الشديد وقال «فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً» وهذا تهديد شديد؛ لأن لفظ الذوق إنما بذكر في القدر القليل الذي يؤتى به لأجل التجربة، ثم إنه تعالى ذكر أن ذلك الذوق عذاب شديد، فإن كان القليل منه عذاباً شديداً فكيف يكون حال الكثير منه؟! ثم قال: «وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ» قال أكثر العلماء[٨]: المراد بالأسوأ أي أقبح أعمالهم وهو الشرك. وقال الحسن: المراد منه أنه لا يجازيهم على محاسن أعمالهم لأنهم أحبطوها بالكفر فضاعت أعمالهم الحسنة، ولم يبق معهم إلا الأعمال القبيحة فلا جرم لم يحصلوا إلا على السيئات.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا

---

(١) نقله أبو حيان في البحر عن أبي الفضل الرازي صاحب اللوامح ٧/ ٤٩٤ و ٤٩٥.

(٢) المرجع السابق. والذي في معاني الأخفش ٦٨٣: وقال: والغوا فيه لأنها من لغوت يلغا مثل محوت يَمْحا، وقال بعضهم: «والغُوا فيه» وقال لغوت تلغو مثل محوت تمحُو وبعض العرب يقول: لَغِي يلغى وهي قبيحة قليلة ولكن لَغِي بكذا وكذا أي: أغري به فهو يقوله ويصنعه.

(٣) من القراءة الشاذة غير المتواترة، وذكرها أبو الفتح في المحتسب ٢/ ٢٤٦ وابن خالويه في المختصر ١٢٣.

(٤) أورده البخاري في صحيحه عن أبي هريرة باب الجمعة رقم ٣٦ وأوردهُ أيضاً أحمد في مسنده ٢/ ٢٤٤ و ٢٧٢ و ٢٨٠ و ٣٩٣ و ٣٩٦ و ٣٨٥ و ٥٣٢.

(٥) وهو عدم الاستماع والتهريج.

(٦) انظر معالم التنزيل للبغوي ٦/ ١١٠.

(٧) قاله الرازي ٢٧ ١٢٠.

(٨) انظر القرطبي ١٥/ ٣٥٦.

يَجۡحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ
أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ
ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ
أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا
تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: «ذَلِكَ» فيه وجهان:

أحدهما: أنه مبتدأ و «جزاء» خبره.

والثاني: أنه خبر مبتدأ محذوف أي: الأمر ذلك «وجَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ» جملة مستقلة مبينةٌ للجملة قبلها(١).

(قوله)(٢): «النار» فيه ثلاثة أوجه(٣):

أحدها: أنها بدل من «جزاء» وفيه نظر؛ إذ البدل يحل محلّ المبدل منه فيصير التقدير ذلك النار(٤).

الثاني: أنه خبر مبتدأ مضمر(٥).

الثالث: أنه مبتدأ و «لَهُمْ فِيها دَارُ الخُلْدِ» الخبر، و «دَارُ» يجوز ارتفاعها بالفاعليَّة(٦) أو الابتداء(٧).

وقوله: «فِيهَا دَارُ الخُلْدِ» يقتضي أن يكون «دار الخلد» غير النار، وليس كذلك بل النار هي نفس دار الخلد. وأجيب عن ذلك: بأنه قد يجعل الشيء ظرفاً لنفسه باعتبار متعلَّقه على سبيل المبالغة، لأن ذلك المتعلق صار مستقراً له، وهو أبلغ من نسبة المتعلق إليه على سبيل الإخبار به عنه. ومثله قول الآخر:

٤٣٦٥ ـ .... وَفِي اللَّهِ إنْ لَمْ تُنْصِفُوا حَكَمٌ عَدْلُ(٨)

---

(١) أعرب السمين هذه الوجهين في الدر المصون ٤/ ٧٣١.

(٢) زيادة من ب.

(٣) قال بهذه الأوجه الثلاثة ابن الأنباري في البيان ٢/ ٣٣٩ والعكبري في التبيان ١١٢٦.

(٤) فلا يصح المعنى المراد إذن.

(٥) قال الزمخشري في الكشاف بهذين الوجهين الأولين ولم يُشر إلى الثالث.

(٦) فقد رفعت بالفاعلية لما تعلق به الجار والمجرور وهو «فيها» أي استقر لهم فيها دار الخلد.

(٧) والخبر هو «لهم» أو فيها.

(٨) من بحر الطويل لبشر بن صفوان الكلبي، وهو عجز بيت صدره:

أفـاءت بـنـو مـروان ظُـلـمـاً دمـاءنـا ....

ويروى: أباحت بدل أفاءت، وأفاءت من الفيء وهو ما يؤخذ من الأعداء. والشاهد: وفي الله ففي الكلام حذف أي وفي عدل الله حكم عدل، فلا يعتقد أن الله ظرف لشيء إلا باعتبار المتعلق فجاء هنا=

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] والرسول هو نفس الأسوة. كذا أجابوا[١]. وفيه نظر؛ إذ الظاهر وهو معنى صحيح منقول أن في النار داراً تسمى دار الخلد، والنار محيطة بها[٢].

قوله: «جزاء» في نصبه ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه منصوب بفعل مقدر، وهو مصدر مؤكد، أي يجزون جزاءً.

الثاني: أن يكون منصوباً بالمصدر الذي قبله، وهو جزاء أعداء الله. والمصدر ينصب بمثله كقوله ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً﴾ [الإسراء: ٦٣].

الثالث: أن ينتصب على أنه مصدر واقع موقع الحال و «بِمَا» متعلق «بجزاء» الثاني إن لم يكن مؤكداً وبالأول إن كان (مؤكداً)[٣] و «بِآيَاتِنَا» متعلق بيجحدون[٤].

فصل

لما قال: «لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ» بين أن ذلك الأسوأ الذي جعل جزاء أعداء الله هو النار، ثم قال: «لَهُمْ فِيهَا دَارُ الخُلْدِ»، أي لهم في جملة النار دارٌ معينة، وهي دار العذاب الخلد، «جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون» أي يلغون في القراءة، وسماه جحداً؛ لأنهم لما علموا أن القرآن بالغ إلى حد الإعجاز خافوا من أنه لو سمعه الناس لآمنوا به فاستخرجوا (تلك)[٥] الطريقة الفاسدة وذلك يدل على أنهم علموا كونه معجزاً وأنهم جحدوا حسداً[٦].

قال الزمخشري: «أي[٧] بما كانوا يلغون، فذكر الجحود؛ لأنه سبب اللَّغو» انتهى. يعني أنه من باب إقامة السبب مقام المسبَّب، وهو مجاز سائغٌ.

قوله: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَرِنَا اللَّذين أَضَلاَّنَا. . . .» الآية تقدم الخلاف في «أَرِنَا»[٨] وفي نون اللَّذين وقال الخليل: إذا قلت: أرني ثوبك فمعناه بصِّرنيهِ، وبالسكون أعطنيه[٩].

= على سبيل المبالغة. وانظر الحماسة البصرية ٢/ ٣٦٧، والخصائص ٢/ ٤٧٥، والمحتسب ٢/ ٤٢، ١٠٦، ومعاهد التنصيص ١/ ٢٥٤، والبحر المحيط ٧/ ٤٩٥، واللّسان والتاج «حكم» والبيان ١/ ١٢١، والدر المصون ٤/ ٧٣٢.

(١) انظر معاني القرآن للفراء ٣/ ١٧، والكشاف ٣/ ٤٥٢ والبحر المحيط ٣/ ٤٩٥.

(٢) لم أهتد فيما بحثت فيه عن قول يرشد إلى هذا.

(٣) زيادة لتوضيح السياق وتبيينه.

(٤) انظر التبيان لأبي البقاء ١١٢٦ والدر المصون ٤/ ٧٣٢.

(٥) سقطت من ب.

(٦) مع تغيير طفيف في العبارة من الرازي ٢٧/ ١٢٠.

(٧) في الكشاف جزاء بما كانوا يلغون، وانظر الكشاف ٣/ ٤٥٢.

(٨) ﴿وأرنا مناسكنا وتب علينا﴾ [البقرة: ١٢٨] فقرأ ابن كثير في البقرة وفي فصلت بإسكان الراء وقرأ نافعٌ وحمزةُ وعاصمٌ والكسائيُّ بكسر الراء وانظر السبعة لابن مجاهد ١٧٠ واللباب ١/ ٢٤٠ب ميكروفيلم.

(٩) نقله عنه صاحب الكشاف ٢/ ٤٥٢ و ٤٥٣ والبحر المحيط ٧/ ٤٩٥.

فصل

لما بين أن الذي حملهم على الكفر الموجب للعقاب الشديد مجالسة قرناء السوء بيَّن أن الكفار (عند الوقوع[١] في العذاب الشديد) في النار يقولون: «رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الجِنِّ والإنْسِ» ومعناه أن الشيطان على نوعين جنّيٍّ وإنْسِيٍّ.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] وقال: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٥ ـ ٦] وقيل[٢]: هما إبليس وقابيل بن آدم الذي قتل أخاه؛ لأن الكفر سنة إبليس والقتل بغير حق سنة قابيل فهما سنا المعصية[٣]. «وَنَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا» في النار «لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ» قال مقاتل: يكونون أسفل منا في النار[٤]. وقال الزجاج: ليكونا في الدرك الأسفل[٥]. وقال بعض الحكماء: المراد باللَّذَيْنِ يُضِلاَّن الشهوة والغضب[٦] والمراد بجعلهما تحت أقدامهم كونهما مسخَّرين للنفس مطيعين لها، وأن لا يكونا مستوليين[٧] عليها قاهرين لها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ الآية. لما ذكر الوعيد أردفه بذكر الوعد كما هو الغالب. واعلم أن «ثُمَّ» لتراخي الرتبة في الفضيلة[٨] سئل أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ عن الاستقامة فقال: أن لا تشرك بالله شيئاً. وقال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهي، ولا تروغَ رَوَغَات الثَّعْلَب. وقال عثمان ـ رضي الله عنه ـ أخلصوا العمل. وقال علي ـ رضي الله عنه ـ أدَّوا الفرائض. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ استقاموا على أداء الفرائض. وقال الحسن ـ (رضي[٩] الله عنه) ـ استقاموا على أمر الله بطاعته واجتنبوا معصيته. وقال مجاهد وعكرمة استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى لحقوا بالله. وقال قتادة: كان الحسن إذا تلا هذه الآية قال: اللَّهُمَّ فَارْزُقْنَا الاستقامة.

قوله: «تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلاَئِكَةُ» قال ابن عباس ـ (رضي الله[١٠] عنهما) ـ عند الموت. وقال مقاتل وقتادة: إذا قاموا من قبورهم. وقال وكيع بن الجرَّاح[١١]: البشرى

---

(١) زيادة من الرازي لتوضيح السياق الذي نقل منه أصلاً.
(٢) وروي عن ابن عباس رضي الله عنه القرطبي ١٥/ ٣٥٧.
(٣) انظر الرازي ٢٧/ ١٢٠ والبغوي ٦/ ١١٠.
(٤) الرازي السابق. (٥) معاني القرآن وإعرابه ٤/ ٣٨٥.
(٦) نقله الرازي عن بعض تلامذته المرجع السابق للرازي.
(٧) السابق أيضاً.
(٨) قاله الزمخشري قال: «ثم لتراخي الاستقامة عن الإقرار في المرتبة».
(٩) سقط من ب. (١٠) كذلك.
(١١) ابن مليح الرؤاسي الإمام الحافظ الثبت، روى عنه محمد بن إسماعيل الحساني وسمع هشام بن عروة=

تكون في ثلاثة مواطن، عند الموت وفي القبر وعند البعث[١].

قوله: «أَنْ لاَ تَخَافُوا» يجوز في «أن» أن تكون المخففة، أو المفسِّرة[٢]، أو الناصبة[٣] و «لا» ناهية على الوجهين الأولين، ونافية على الثالث[٤]. وقد تقدم ما في ذلك من الإشكال. فالتقدير بأن لا تخافوا أي بانتفاء الخوف. وقال أبو البقاء: التقدير: بأن لا تخافوا، أو قائلين أن لا تخافوا فعلى الأول: هو حال، أي نزلوا بقولهم: لا تخافوا. وعلى الثاني: الحال محذوفة[٥]. قال شهاب الدين: يعني أن الباء المقدرة حالية، فالحال غير محذوفة وعلى الثاني الحال هو القول المقدر وفيه تسامح، وإلا فالحال محذوفة في الموضعين، وكما قام المقول مقام الحال كذلك قام الجار مقامها[٦]. وقرأ عبد الله «لا تخافوا»[٧] بإسقاط «أن» وذلك على إضمار القول، أي: يقولون لا تخافوا.

فصل

«أن لا تخافوا» من الموت. قال مجاهد: لا تخافون على ما تَقْدَمُونَ عليه من أمر الآخرة ولا تحزنوا على ما خلَّفتم من أهل وولد، فإنا نخلفكم في ذلك كله. وقال عطاء ابن أبي رباح: لا تخافوا ولا تحزنوا على ذنوبكم فإني أغفرها لكم[٨].

قوله: «وأَبْشِرُوا بالجنة التي كنتم توعدون».

فإن قيل: البشارة عبارةٌ عن الخبر الأول بحصول المنافع، فأما إذا أخبر الرجل بحصول المنفعة ثم أخبر ثانياً بحصولها كان الإخبار الثاني إخباراً ولا يكون بشارةً، والمؤمن قد يسمع بشارات الخير، فإذا سمع المؤمن هذا الخبَر من الملائكة وجب أن يكون هذا إخباراً ولا يكون بشارة، فما السَّبب في تسمية هذا الخبر بشارة؟

فالجواب: أن المؤمن قد يسمع بشارات الخير، (فإذا[٩] سمع المؤمن هذا الخبر من الملائكة وجب أن يكون هذا إخباراً ولا يكون بشارة! قلنا: المؤمن يسمع أن من كان مؤمناً تقِيًّا) كان له الجنة أما إذا لم (يسمع)[١٠] ألبتة أنه من أهل الجنة فإذا سمع هذا

= وابن جريج وعنه أخذ ابن المبارك، وأحمد وزهير بن حرب مات سنة ١٩٧هـ، انظر الطبقات للداودي ٢/٣٥٨: ٣٦١.

(١) انظر هذه الأقوال في البغوي والخازن ٦/١١٠ و ١١١ وانظر القرطبي ١٥/٣٥٨ ففيه المزيد من الأقوال أيضاً.

(٢) قال بذلك الزمخشري في الكشاف ٣/٤٥٣.

(٣) و (٤) الدر المصون ٤/٧٣٣ لتوضيح وتفصيل ما أفهمه كلام الزمخشري في المرجع السابق.

(٥) التبيان ١١٢٥ و ١١٢٦. (٦) الدر المصون ٤/٧٣٣.

(٧) قراءة شاذة غير متواترة نقلها الكشاف ٣/٤٥٣ والفراء في معاني القرآن ٣/١٨.

(٨) انظر البغوي ٦/١١١.

(٩) و (١٠) بياض من النسخ وتكملة من الرازي المصدر لهذا الكلام.

الكلام من الملائكة كان إخباراً بنفع عظيم مع أنه هو الخبر الأول فكان ذلك بشارة.

واعلم أن هذا الكلام يدل على أن المؤمن عند الموت وفي القبر وعند البعث (لا)[١] يكون فازعاً من الأهوال ومن الفزع الشديد (بل يكون[٢] آمن الصدر لأن قوله: «أَنْ لاَ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا» يفيد نفي الخوف، والحزن على الإطلاق).

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ وهذا في مقابلة ما ذكره في وعيد الكفار حيث قال: «وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا». قال السدي: تقول الملائكة نحن الحفظة الذين كنا معكم في الدنيا (ونحن أولياؤكم في[٣] الدنيا) ونحن أولياؤكم في الآخرة أي لا نفارقكم حتى تدخلوا الجنة. «وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ» من الكرامات واللذات «وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ» أي تتمنون.

فإن قيل: هلى هذا التفسير لا فرق بين قوله: «ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم» و «لكم فيها ما تدعون» قال ابن الخطيب: والأقرب عندي أن قوله: «ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم» إشارة إلى الجنة الرُّوحانيَّة المذكورة في قوله: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾[٤] [يونس: ١٠] الآية.

قوله تعالى: ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾

قوله: «نُزُلاً» فيه أوجه:

أحدها: أنه منصوب على الحال من الموصول، أو من عائده، والمراد بالنزل الرزق المعدّ للنازل كأنه قيل ولكم فيها الذي تدعونه حال كونه معدًا.

الثاني[٥]: أنه حال من فاعل «تَدَّعُونَ» أو من الضمير في «لَكُمْ» على أن يكون نزلاً جمع نازل كصَابِرٍ وصُبُرٍ وشَارِفٍ[٦] وشُرُفٍ.

---

(١) ساقطة من النسختين وتكملة لا بد منها حتى يتأتى المعنى.

(٢) تكملة كسابقتها من الفخر الرازي لا بد منها وانظر الرازي ٢٧/ ١٢٢.

(٣) سقط من ب وهي بقية كلام السديّ المنقول في البغوي المرجع السابق.

(٤) وكلامه في التفسير الكبير ما يأتي: ما تشتهي أنفسكم إشارة إلى الجنَّة الجثمانيَّة وقوله: «ولكم فيها ما تدعون» إشارة إلى الجنَّة الرُّوحانيَّة الرازي ٢٧/ ١٢٣.

(٥) قال بالوجه الأول أبو البقاء في التبيان ١١٢٧ وبهذا الوجه ابن الأنباري وأبو البقاء أيضاً ومكي في المشكل ٢/ ٢٧٢ وانظر البيان ٢/ ٣٤٠.

(٦) هو المسن من الإبل اللسان شرف ٢٢٤٣.

والثالث: أنه مصدر مؤكد[١]، وفيه نظر، لأن المصدر «نزل» النزول لا النزل. وقيل: هو مصدر أنزل[٢].

قوله: «من غفور رحيم» يجوز أن يكون تعلقه بمحذوف على أنه[٣] صفة «لنزلاً» وأن يتعلق بتَدَّعُون[٤] أي تطلبونه من جهة غفور رحيم، وأن يتعلق[٥] بما تعلق به الظرف في «لكم» من الاستقرار أي استقر لكم من جهة غفورٍ رحيمٍ.

قال أبو البقاء: فيكون حالاً من ما[٦]. قال شهاب الدين: وهذا البناء منه ليس بواضح بل هو متعلق بالاستقرار فَضلةً كسائر الفضلات، وليس حالاً من «ما»[٧].

قوله تعالى: «وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ...» الآية قال ابن سيرين والسُّدِّيُّ: هو رسول الله ـ ﷺ ـ دعا إلى شهادة أن لا إله إلا الله وقال الحسن: هو المؤمن الذي أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب إليه، وعمل صالحاً في إجابته وقال إنَّني من المسلمين. وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ إن هذه الآية نزلت في المؤذِّنين. وقال عكرمة: هو المؤذن. وقال أبو أمامة الباهليّ: وعمل صالحاً: ركعتين بين الأذان والإقامة. وقال قيس بن أبي حازمٍ: هو الصلاة بين الأذان والإقامة[٨].

قوله: «وقال إنَّنِي مِنَ المُسْلِمِينَ» العامة على إنني بنونين. وابن أبي عبلة وابن نوحٍ[٩] بنون واحدة. قوله تعالى: «ولا السيئَةُ» في «لا» هذه وجهان:

أحدهما: أنها زائدة للتوكيد، كقوله: ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾ [فاطر: ٢١] وكقوله: ﴿وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾ [غافر: ٥٨]، لأن استوى لا يكتفي بواحد.

والثاني: أنها مؤسسة غير مؤكِّدة[١٠]؛ إذ المراد بالحسنة والسيئة الجنس، أي لا تستوي الحسنات في أنفسها فإنها متفاوتة، ولا تستوي السيئات أيضاً، فربَّ واحدةٍ أعظم من أخرى، وهو مأخوذ من كلام الزمخشري[١١]، وقال أبو حيان: «إن أخذت الحسنة والسيئة جنساً لم يكن زيادتها كزيادتها في الوجه الذي قبل هذا»[١٢]. قال شهاب الدين: «فقد جعلها في المعنى الثاني زائدة، وفيه نظر لما تقدم»[١٣].

---

(١) البيان المرجع السابق.
(٢) حكاه أبو حيان ولم ينسبه البحر المحيط ٧/٤٩٧.
(٣) البيان ٢/٣٤٠.
(٤) (٥) و (٦) التبيان ١١٢٧.
(٧) الدر المصون: ٤/٧٣٣.
(٨) هذه الأقوال ذكرها القرطبي في الجامع ١٥/ ٣٦٠ والبغوي في معالم التنزيل ٦/١١١.
(٩) هو إبراهيم بن أحمد بن نوح الأصبهاني الفقيه روى القراءة عن أبي خالد النزندولانيّ عن قتيبة وروى عنه ابن شنبوذ. انظر غاية النهاية ١/٩، وهذه القراءة شاذة انظر البحر ٧/٤٩٧.
(١٠) انظر البحر المحيط ٧/٤٩٨ والكشاف ٣/ ٤٥٤ وقد قال بالوجهين أيضاً الأخفش في معانيه ٢/ ٦٨٤ وقال بوجه الزيادة فقط الزجاج في معانيه أيضاً ٤/٣٨٦.
(١١) بالمعنى من الكشاف ٣/ ٤٥٤ و ٤٥٥.
(١٢) البحر المحيط ٧/٤٩٨.
(١٣) الدر المصون ٤/ ٧٣٤.

فصل

قال المفسرون: المراد بالحسنة الصَّبر، وبالسيئة الغضب. وقيل: الحلم والجهل. وقيل: العفو والإساءة(١). قال ابن الخطيب: لما حكى الله تعالى عنهم قولهم: «قُلُوبُنَا في أَكِنَّةٍ» وإصرارهم الشديد على دينهم، وعدم التأثّر بدلائل محمد ـ ﷺ ـ ثم أطنب في الجواب عن شبهاتهم ثم رغّب محمداً ﷺ في أن لا يترك الدعوة إلى الله بقوله: «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فلهم الثواب العظيم»، ثم تَرَقَّى من تلك الدرجة إلى درجة أخرى، وهي أن الدعوة إلى الله تعالى أعظم الدرجات، ثم كأن سائلاً (سأل(٢) فـ) ـقال: إن الدعوة إلى الله، وإن كانت طاعةً عظيمةً، إلا أنَّ الصبر على سفاهة الكفَّار شديدةٌ، فذكر الله تعالى ما يصلحُ لأن يكون دافعاً لهذا الإشكال فقال: «ولا تستوي الحسنة ولا السيئة». والمراد بالحسنة دعوة الرسول ـ ﷺ ـ إلى الدين الحق، والصبر على جهالة الكفار، وترك الانتقام وترك الالتفات إليهم؛ والمراد بالسيئة ما أظهروا من الجلافة في قولهم: «قُلُوبُنَا في أَكِنَّةٍ» وقولهم: «لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا القُرْآن والْغوا فِيهِ» فكأنه قال: يا محمد فعلُك حسنة، وفعلُهم سيئة، ولا تستوي الحسنة (ولا(٣) السيئة) أنت(٤) إذا أتيت بهذه الحسنة استوجبت التعظيم في الدنيا والثواب في الآخرة، وهم بالضِّدِّ من ذلك، فلا ينبغي أن يكون إقدامهم على تلك السيئة مانعاً لك من الاشتغال بهذه الحسنة. ثم قال «ادْفَعْ بالَّتي هي أَحْسَنُ» يعني ادفع سفاهتهم وجهالتهم بالطريق التي هي أحسن الطُّرق(٥). قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أمر بالصبر عند الغضب(٦)، وبالحِلْم عند الجهل، وبالعفو عند الإساءة. والمعنى أنك إذا صبرت على سوء أخلاقهم مرةً بعد أخرى ولم تقابل سفاهتهم بالغضب استحيوا من تلك الأخلاق المذمومة وتركوا أفعالهم القبيحة، وانقلبوا من العداوة إلى المحبة، ومن البغضاء إلى المودَّة فقال: «فإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ» يعني إذا فعلت ذلك خضع لك عدوك «كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ» أي كالصديق القريب، قال مقاتل بن حيَّان: نزلت في أبي سفيان بن حرب، وذلك لأنه لان للمسلمين بعد شدة عداوته بالمصاهرة التي حصلت بينه وبين النبيّ ﷺ، ثم أسلم فصار وليًّا بالإسلام وحميماً بالقرابة(٧).

قوله: «كأنه ولي» في هذه الجملة التَّشبيهيَّة وجهان:

أحدهما: أنها في محل نصب على الحال، والموصول مبتدأ، و «إذا» التي(٨)

---

(١) البغوي ٦/ ١١٢.
(٢) زيادة من الرازي عن النسخ.
(٣) زيادة من أ.
(٤) في الرازي بمعنى أنك إذا أتيت.
(٥) انظر الرازي ٢٧/ ١٢٧.
(٦) البغوي ٦/ ١١٢.
(٧) السابق.
(٨) كذا في الدر المصون وفي النسختين «الذي» وكلا اللفظين صحيحان وقد أخذ المؤلف هذين الوجهين عن الدر المصون عن أبي البقاء العكبري في التبيان ١١٣٧.

للمفاجأة خبره والعامل في هذا الظرف من الاستقرار هو العامل في هذا الحال. ومحطُّ الفائدة في هذا الكلام (هي[١] الحال والتقدير: فبالحضرة المعادي مشبهاً القريب الشفوق.

والثاني: أن الموصول مبتدأ) أيضاً، والجملة بعده خبره، و «إذَا» معمولة لمعنى التشبيه والظرف يتقدم على عامله المعنوي. هذا إن قيل: إنها ظرف.

فإن قيل: إنَّها حرف فلا عامل[٢].

قوله: «وَمَا يُلَقَّاها» العامة على يُلَقَّاها من التَّلْقِيَة. وابن كثير ـ في رواية ـ وطلحة بن مصرف يُلاقَاها[٣] من المُلاَقَاةِ، فالضمير للخصلة أو الكلمة، (أو الجنة[٤] أو شهادة التوحيد.

فصل

لما أرشد الله تعالى إلى الطريق النافع في الدين والدنيا) قال: وَمَا يُلَقَّاهَا إلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا، (قَالَ[٥] الزَّجاج: «وَمَا يُلَقَّى هذه الفِعْلَةَ إلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا) على تحمل المكاره وتجرح الشدائد وكظم الغيظ، وترك الانتقام. «وما يلقاها إلا ذو حظٍّ عظيم» من الفضائل النفسانية[٦]. وقال قتادة[٧] الحظ العظيم الجنة، أي وما يلقاها إلا من وجبتْ له الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٣٦) وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ (٣٨) وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)﴾

قوله تعالى: «وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ...» الآية. تقدم تفسيرها في آخر

(١) ما بين القوسين كله سقط من أ الأصل بسبب انتقال النظر.
(٢) المرجعين السابقين.
(٣) من القراءات الشاذة، ولم أجدها عن ابن كثير في المتواتر وانظر مختصر ابن خالويه ١٣٣ والبحر المحيط ٧/٤٩٨.
(٤) ما بين المعقوفين كله سقط من ب.
(٥) ما بين القوسين سقط من أ الأصل والمؤلف نقل كعادته عن الرازي هذا وما في إعراب القرآن للزجاج «وما يلقاها إلا من وجبت له الجنة» ٤/٣٨٦.
(٦) قاله الرازي ٢٧/١٢٧.
(٧) البغوي ٦/١١٣.

سورة الأعراف[١]. قال الزمخشري: النَّزْغُ والنَّسْغُ بمعنى واحد وهو شبه النَّخس والشيطان ينزغ الإنسان كأنه ينخسه يبعثه على ما لا ينبغي[٢]. والمعنى وإن صرفك الشيطان عما شرع لك من الدفع بالتي هي أحسن فاستعذ بالله من شره «إنه هو السميع» لاستعاذتك وأقوالك «العليم» بأفعالك وأحوالك.

قوله تعالى: «ومِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ والنَّهارُ...» الآية لما بين تعالى في الآية المتقدمة أن أحسن الأعمال والأقوال هو الدعوة إلى الله تعالى وهي عبارة عن تنوير الدلائل الدالة على ذات الله وصفاته، ومن جملتها العالم بجميع أجزائه فبدأ هاهنا بذكر الفلكيَّات وهي اللَّيل والنَّهار، والشمس والقمر، وقدم ذكر الليل على ذكر النهار تنبيهاً على أن الظلمة عدمٌ، والنور وجود، والعدم سابق على الوجود، وهذا كالتنبيه على وجود الصانع وتقدم شرحه مراراً. ولما بين أن الشمس والقمر يحدثان وهما دليلان على وجود الإله القادر قال «لا تَسْجُدُوا للشَّمسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ» يعني أنهما عبدان دليلان على وجود الإله (القادر)[٣] والسجود عبارة عن نهاية التعظيم وهو لا يليق إلا بمن كان أشرف الموجودات فقال: «لا تسجدوا للشمس ولا للقمر» لأنهما عبدان مخلوقان، واسجدوا لله الخالق القادر الحكيم[٤].

قوله: «خَلَقَهُنَّ» في هذا الضمير ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه يعود على «الليل والنهار والشمس والقمر»[٥]. وفي مجيء الضمير كضمير الإناث (كما قال الزمخشري هو أنَّ جمع ما لا يعقل حكمه حكم الأنثى أو الإناث) نحو: الأَقْلاَمُ بريتُها وبرَيْتُهُنَّ.

وناقشه أبو حيان: من حيث إنه لم يفرق بين جمع القلة والكثرة في ذلك؛ لأن الأفصح في جمع القلة أن يعامل معاملة الإناث، وفي جمع الكثرة أن يعامل معاملة الأنثى، فالأفصح أن يقال: الأجذاع كَسَرتهُنَّ، والجذوع كسرتُهَا، والذي تقدم في هذه الآية ليس بجمع قلة أعني بلفظ واحد ولكنه ذكر أربعة متعاطفة فتنزَّلَت منزلة الجمع المعبر به عنها بلفظ واحد[٦]. قال شهاب الدين: والزمخشري ليس في مقام بيان الفصيح والأفصح بل في مقام كيفية مجيء الضمير ضمير إناث بعد تقدم ثلاثة أشياء مذكرات وواحد مؤنث والقاعدة تغليب المذكر على المؤنث[٧] أو لَمَّا قال: «وَمِن آياتِهِ» كُنَّ في

---

(١) ولم يزد هناك عما ذكره هنا على قول الزمخشري والآية ٢٠٠ من الأعراف **﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنَّه سميعٌ عليمٌ﴾**.

(٢) الكشاف ٢/ ٤٥٤.

(٣) سقط من ب الأصل.

(٤) انظر الرازي بتغيير طفيف في العبارة ٢٧/ ١٢٨، ١٢٩.

(٥) نقله الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٥٤.

(٦) نقله في البحر المحيط ٧/ ٤٩٨، ونقله عن السمين في الدر المصون ٤/ ٧٣٥، وانظر معاني الفراء ٣/ ٨.

(٧) الدر المصون ٤/ ٧٣٥.

معنى الآيات فقيل: خَلَقَهُنَّ. ذكر الزمخشري[1] أيضاً أنه يعود على لفظ الآيات وهذا هو الوجه الثاني.

الثالث: أنه يعود على الشمس والقمر؛ لأن الاثنين جمع، والجمع مؤنث لقولهم: «شُمُوسٌ وأَقْمَارٌ»[2].

وقال البغوي: إنما قال خلقهُنَّ بالتأنيث لأنه أجراها على طريق جمع التكسير، ولم يُجْر على طريق التغليب للمذكر على المؤنث[3].

قوله: «إنْ كُنتُمْ إيَّاهُ تَعْبُدُونَ» قيل: كان ناسٌ يسجدون للشمس والقمر كالصَّابئين في عبادتهم الكواكب ويزعمون أنهم يقصدون بالسجود لهما السجود لله، فَنُهُوا عن هذه الواسطة وأمروا أن لا يسجدوا إلا لله الذي خلق هذه الأشياء[4].

قوله: «فإن اسْتَكْبَرُوا» أي عن السجود «فالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لاَ يَسْأَمُونَ» لا يَمَلُّونَ.

فإن قيل: إن الذين يسجدون للشمس والقمر يقولون نحن أقلّ وأذلّ من أن يحصُل لنا أهليَّةٌ لعبادة الله تعالى ولكنا عبيدٌ للشمس والقمر وهما عبدان لله تعالى، وإذا كان قولهم هكذا فكيف يليق بهم أنهم استكبروا عن السجود لله تعالى؟!.

فالجواب: ليس المراد من الاستكبار ههنا ما ذكرتم بل المراد استكبارهُم عن قبول قولك يا محمد بالنهي عن السجود للشمس والقمر[5].

فصل

قال ابن الخطيب ليس المراد بهذه العِنديَّة قرب المكان، بل يقال: عند المَلِك من الجُند كذا وكذا، ويدل عليه قوله: «أنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي»[6] وأنا عِنْدَ المُنْكَسِرَة قُلُوبُهُم من أجلي في مقعدِ صدقٍ عند مليكٍ مُقتدرٍ، ويقال: عند الشافعي: أنَّ المُسْلم لا يُقْتَلُ بالذِّمِّيِّ.

فصل

دلَّت هذه الآية على أن المَلِكَ أفضل من البشر؛ لأنه إنما يُسْتَدَلُّ بحال الأعلى على الأدنى فيقال: هؤلاء القوم[7] إن استكبروا عن طاعة فلان، فالأكابر يخدمونه.

---

(١) الكشاف للزمخشري ٣/ ٤٥٤، وقد قال بذلك أيضاً أبو البركات ابن الأنباري في البيان ٢/ ٣٤٠ قال والهاء والنون في «خلقهن» تعود على الآيات، ولا تعود على الشمس والقمر والليل والنهار؛ لأنَّ المذكر والمؤنث إذا اجتمعا غلب جانب المذكر على جانب المؤنث.

(٢) قال بذلك أبو حيان في البحر ٧/ ٤٩٩.

(٣) معالم التنزيل له ٦/ ١١٢.

(٤) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٥٤ والرازي في التفسير الكبير ٢٧/ ١٢٩.

(٥) المرجع السابق.

(٦) سبق هذا الحديث.

(٧) لفظ إن سقط من أ الأصل.

فإن قيل: وصف الملائكة بأنهم يسبحون له بالليل والنهار لا يفترون، وهذا يدل على مواظبتهم على التسبيح لا ينفكون عنه لحظةً واحدة كما قال: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠] واشتغالهم بهذا العمل على سبيل الدوام يمنعهم من الاشتغال بسائر الأعمال لكنهم ينزلون على الأرض، كما قال تعالى ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٤] وقال ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحجر: ٥١] وقال ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ [التحريم: ٦] وقال عن الذين قاتلوا مع رسول الله ـ ﷺ ـ يوم بدر ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

فالجواب: أن الذين ذكرهم الله ههنا بكونهم مواظبين على التسبيح أقوام مُعيَّنُونَ من الملائكة.

فصل

اختلفوا في مكان السجدة فقال الشافعي ـ رحمهُ الله ـ هو عند قوله تعالى «إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ»[1] وقال أبو حنيفة ـ رضي الله ـ: هو عند قوله تعالى «وَهُمْ لاَ يَسْأَمُونَ»[2].

قوله: «وَمِنْ آيَاتِهِ» أي ومن دلائل قدرته أنك ترى الأرض خاشعةً أي يابسة غير الإنبات فيها «فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ»، أي تحركت بالنبات، وَرَبَت انْتَفَخَتْ؛ لأن النبت إذا قرب أن يظهر ارتفعت له الأرض[3] وانتفخت ثم تصدعت عن النبات.

واعلم أنه تعالى لما ذكر الدلائل الأربعة الفلكية أتبعها بذكر الدلائل الأرضية وهي هذه الآية ثم قال: «إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لمحُيي المَوْتَى» يعني أن القادر على إحياء الأرض بعد موتها هو القادرُ على إحياء هذه الأجساد بعد موتها. ثم قال: «إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» وهذا هو الدليل الأصلي وتقدم تقريره مِرَاراً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ (٤١) لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣)﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ الآية لما بين أن الدعوة إلى دين الله تعالى أعظم المناصب، وأشرف المراتب، ثم بين أن الدعوة إنما تحصُلُ بذكر دلائل التوحيد والعدل وصحة البعث والقيامة عاد إلى تهديد من ينازع في تلك الآيات، ويجادل بإلقاء الشُّبهات فيها فقال: إن الذين يُلحدون في آياتنا لا يخفون علينا، يقال: ألحدَ الحافِرُ

---

(١) وهو قول مالك أيضاً.

(٢) قال به ابن وهب ونقل القرطبي في الجامع عكس ما قال المؤلف، انظر الجامع ١٥/ ٣٦٤.

(٣) قاله الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٣٨٨.

وَلَحَدَ إذا مال عن الاستقامة فحفر في شقٍّ فالمُلحِدُ، هو المُنْحَرِفُ، ثم اختص في العرف بالمُنْحرِفِ[١] عن الحق إلى الباطل قال مجاهد: يلحدون في آياتنا بالمُكَاءِ والتصدية واللغو واللَّغط. وقال قتادة: يكذبون في آياتنا. وقال السدي: يعاندون ويشاقون «لاَ يَخْفُونَ عَلَيْنَا» وهو كقول الملك المهيب: إنَّ الذين ينازعون في ملكي أعرفهم فإن ذلك (لا)[٢] يكون تهديداً. ثم قال: «أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ القِيَامَةِ» وهذا استفهام بمعنى التقرير[٣]، والغرض منه التنبيه على أن المُلحِدين في الآيات يُلْقون في النار، وأن المؤمنين بالآيات يأتون آمنين يوم القيامة. قال المفسرون: المراد حمزة، وقيل: عثمان، وقيل: عمار بن ياسر[٤]. ثم قال: «اعملُوا مَا شِئْتُمْ» وهذا أمر تهديد[٥] ووعيد أيضاً، «إنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» أي عالم بأعمالكم فيجازيكم.

قوله: «إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا» في خبرها ستةُ أوجه:

أحدها: أنه مذكور، وهو قوله «أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ»[٦] وقد سئل بلال بنُ أبي بُرْدَة[٧] عن ذلك في مجلسه فقال: لا أجد لها معاداً، فقال له أبو عمرو بن العلاء: إنه منك لقريب أولئك ينادون[٨]. وقد استبعد هذا من وجهين:

أحدهما: كثرة الفواصل.

والثاني: تقدم من يصح الإشارة إليه بقوله: «أُولَئِكَ» وهو قوله: «وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ» واسم الإشارة يعود على أقرب مذكور[٩].

الثاني: أنه محذوف لفهم المعنى فقدر[١٠]: مُعَذَّبُونَ، أو مُهْلَكُونَ، أو مُعَانِدُونَ[١١]. وقال الكسائي: سد مسده ما تقدم من الكلام قبل «إنَّ» وهو قوله: «أَفَمَنْ

(١) قاله الرازي في التفسير الكبير ٢٧/ ١٣١ وانظر معنى اللَّحد في تفسير الزجاج في معاني القرآن وإعرابه له ٤/ ٣٨٨ واللسان «لَحَد» ٤٠٠٥.

(٢) زيادة من أ لا داعي لها وانظر هذه الأقوال في القرطبي ١٥/ ٣٦٦ ومعالم التنزيل للبغوي ٦/ ١١٣.

(٣) أحد المواضع التي يخرج فيها الاستفهام عن الحقيقة إلى المجاز.

(٤) المرجعين السابقين.

(٥) أحد المواضع التي يخرج فيها الأمر عن الحقيقة إلى المجاز.

(٦) نقله أبو البقاء في التبيان ١١٢٧ وهو رأي ابن الأنباري في البيان ٢/ ٣٤١ ومكي في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٢٧٢.

(٧) قاضي البصرة وأميرها والمفوض من قبل خالد القسري كان من أهل الأدب والفصاحة توفي سنة ١٢٠هـ وانظر هامش إنباه الرواة ١/ ٢٤٥.

(٨) انظر هذا بالمعنى من البحر المحيط ٧/ ٥٠٠ وباللفظ من الدر المصون ٤/ ٧٣٥.

(٩) نقل هذين الاعتراضين أبو حيان في مرجعه السابق عن الحوفي رحمه الله.

(١٠) في ب ويقدر.

(١١) هو قول العكبري في التبيان ١١٢٧.

يُلْقَى فِي النَّارِ»[١]. يعني في الدلالة عليه، والتقدير: يُخلَّدُونَ في النار، وقال البغوي: يُجَازَوْنَ بكُفْرِهِمْ[٢]. وسأل عيسى بن عمر عَمْرَو بن عبيدٍ عن ذلك فقال معناه في التفسير: إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم كفروا به[٣]، فقدر الخبر من جنس الصِّلة. وفيه نظر من حيث اتّحاد الخبر والمُخبر عنه في المعنى من غير زيادة فائدة، نحو: سيِّدُ الجارية مَالِكُها[٤].

الثالث: أن «إنَّ الَّذِينَ» الثانية بدل من «إنَّ الَّذِين» الأولى والمحكوم به على البدل محكوم به على المبدل منه فيلزم أن يكون الخبر «لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا» وهو منتزع من كلام الزمخشري[٥].

الرابع: أنَّ الخبر قوله: «لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ» والعائد محذوف تقديره لا يأتيه الباطل منهم، نحو: «السَّمْنُ منوان بِدِرْهَم» أي منوان منه أو يكون «أل» عوضاً من الضمير في رأي الكوفيين، تقديره: «إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بالذِّكْرِ لاَ يَأْتِيهِ بَاطِلُهُمْ».

الخامس: أن الخبر قوله تعالى: «مَا يُقَالُ لَكَ» والعائد محذوف أيضاً تقديره: إنَّ الَّذِين كَفَرُوا بالذِّكْرِ مَا يقال لك في شأنهم إلاَّ ما قد قيل للرسل من قبلك. وهذان الوجهان ذهب إليهما أبو حيَّان[٦].

والسادس: قال بعض الكوفيين: إنه قوله: «وَإنَّهُ لَكِتابٌ» وهذا غير متعقَّلٍ[٧].

قوله: «وَإنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ» جملة حالية[٨]، وقوله «لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ» صفة «لكتاب»، و «تَنْزِيلٌ» خبر مبتدأ محذوف، أو صفة لكتاب على أنَّ «لاَ يَأْتِيهِ» معترض أو صفة كما تقدم على رأي من يجوز تقديم غير الصريح من الصفات على الصريح[٩]، وتقدم تحقيقه

---

(١) نقله أبو حيان في المرجع السابق. (٢) البغوي ٦/ ١١٣.

(٣) نقله أبو الحسن الأخفش في المعاني ٦٨٤ و ٦٨٥.

(٤) البحر المحيط ٧/ ٥٠٠.

(٥) الكشاف ٣/ ٤٥٥، فقد قال: فإن قُلت: بم اتصل قوله: «إنَّ الَّذين كفروا بالذِّكر»؟ قلت: هو بدل من قوله: إن الذين يُلحِدون في آياتنا، والذكر القرآن؛ لأنهم كفروا به.

(٦) قال في البحر ٧/ ٥٠٠ و ٥٠١ والذي أذهب إليه أن الخبر مذكور لكنه حذف عائد يعود على اسم إن وذلك في قوله: لا يأتيه الباطل أي الباطل منهم، أو تكون «أل» عوضاً من الضمير على قول الكوفيين الخ، أو يكون الخبر قوله: «ما يقال لك إلا ما قد قيل».

(٧) لعل بعض الكوفيين المقصود الفراء فقد قرأت في كتابه المعاني ٣/ ١٩ يقال: أين جواب إنه؟ فإن شئت جعلته أولئك ينادون من مكان قريب، وإن شئت كان في قوله: «وإنَّه لكتابٌ عزيزٌ».

(٨) من الذكر.

(٩) أورد السيوطي ـ رحمه الله ـ في الهمع ما مفاده أن الاسم إذا وصف به بظرف أو مفرد أو مجرور أو جملة فالأولى ترتيب المفرد ثم الظرف والمجرور والجملة، وقد أوجب ابن عصفور هذا الترتيب غير أنه يرد بنحو قوله تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك﴾، وقدم ابن جنيّ الوصف الرافع على الظرف=

في المائدة. و «مِنْ حَكِيمٍ» صفة «لتنزيل» أو متعلق به و «الباطل» اسم فاعل، وقيل: مصدر كالعاصِفَـةِ والعـاقِبَـةِ[١].

فصل

لما بلغ في تهديد المُلحدين في آيات القرآن أتبعه ببيان تعظيم القرآن فقال: «وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ» قال الكلبي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهم[٢] ـ: أي كريم على الله. وقال قتادة: أعزه الله تعالى لا يجد الباطل إليه سبيلاً. قال قتادة والسدي: الباطل هو الشيطان لا يستطيع أن يغيره أو يزيل فيه أو ينقص منه[٣]. وقال الزجاج: معناه أنه محفوظ من أن يُنْقَصُ منه فيأتيه الباطل من بين يديه أو يُزَادُ فيه فيأتيه الباطل من خلفه[٤]، وعلى هذا فمعنى الباطل هو الزيادة والنقصان. وقال مقاتل: لا يأتيه التكذيب من الكتب التي قبله، ولا يأتي بعده كتاب[٥] فيُبطلُهُ (و) قال الزمخشري هذا تمثيل والمقصود أن الباطل لا يتطرقُ إليه ولا يجد إليه سبيلاً من جهة من الجهات حين يصل إليه[٦].

فصل

اعلم أنَّ لأبي مسلم الأصفهاني أن يحتج بهذه الآية على أنه لم يوجد النسخ فيه؛ لأن النسخ إبطال، فلو دخل النسخ فيه لكان قد أتاه الباطل من خلفه وهذا خلاف الآية. ثم قال: «تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ» أي حكيم في جميع أفعاله حميد إلى جميع خلقه بسبب كثرة نعمه[٧].

قوله تعالى: «مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ»... الآية لما هدَّد الملحدين في آيات الله ثم بين شرف آيات الله وعلو درجة كتاب الله تعالى رجع إلى أمر رسوله بأن يصبر على أذى قومه، وأن لا يضيق قلبه بسبب ما حكاه عنهم في أول السورة وهو قولهم: «قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ» إلى قوله: «فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ» فقال: «ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك» أي إنهم قالوا للأنبياء قبلك: ساحرٌ، وكذبوهم

= مثل: جاء رجلٌ كريمٌ أبوه في الدَّار. وقدم صاحب البديع الوصف بالجملة الفعلية على الوصف بالجملة الاسمية. انظر الهمع بتصرف ٢/ ١٢٠، وانظر الدر المصون ٤/ ٧٣٦.

(١) السابق.

(٢) ما بين القوسين سقط من ب.

(٣) ذكر هذه الأقوال الإمام القرطبي في الجامع ١٥/ ٣٦٦ والإمامان البغويّ والخازنُ في معالم التنزيل ولباب التأويل ٦/ ١١٣.

(٤) أجد وجهين ذكرهما الزجاج في تفسير تلك العبارة والوجه الآخر: أن الكتب التي تقدمت لا تبطله ولا يأتي بعده كتاب يبطله معاني القرآن وإعرابه ٤/ ٣٨٨.

(٥) البغوي والخازن السابقان.

(٦) الكشاف ٣/ ٤٥٥.

(٧) الرازي ٢٧/ ١٣٢.

كما كُذِّبت. وقيل: المراد ما قال لك إلا مثل ما قال لسائر الرسل وهو أنه أمرك وأمرهم بالصبر على سفاهة الأقوام[(١)].

قوله: «إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ» قيل: هو مفسر للمقول كأنه قيل: قيل للرسل إن ربك لذو مغفرة[(٢)] وقيل: هو مستأنف[(٣)] ومعناه لذو مغفرة لمن تاب وآمن بك، وذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ لمن أصر على التكذيب.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾﴾

قوله: «وَلَوْ جَعَلْنَاهُ» أي جعلنا هذا الكتاب الذي يقرؤه على الناس قرآناه أعجميًا بغير لغة العرب «لَقَالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ» أي هلا بينت آياته بالعربية حتى نفهمها.

قوله: «أَأَعْجَمِيٌّ» قرأ الأخوان وأبو بكر بتحقيق الهمزة، وهشام بإسقاط الأولى، والباقون: بتسهيل الثانية بَيْنَ بَيْنَ[(٤)]. وأما المدّ فقد عرف حكمه من قوله ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ [البقرة: ٥] في أول الكتاب. فمن استفهم قال معناه أكتاب أعجمي ورسول عربي[(٥)]؟ وقيل: ومرسل إليه عربي[(٦)]؟ وقيل: معناه (أ[(٧)]) بعضه أعجمي وبعضه عربي[(٨)]؟ ومن لم يثبت همزة الاستفهام فيحتمل أنه حملها[(٩)] لفظاً وأرادها معنى، وفيه توافق القراءتين، إلا أن ذلك لا يجوز عند الجمهور إلا[(١٠)] إذا كان في الكلام «أم» نحو: بِسَبْعٍ رَمَيْنَ الجَمْرَ أَمْ بِثَمَانِ[(١١)].

---

(١) السابق.

(٢) ذكره أبو حيان في البحر ٧/ ٥٠١ والسمين في الدرّ ٤/ ٧٣٦.

(٣) المرجع الأخير السابق.

(٤) إحدى القراءات المتواترة، ذكرها مكي في الكشف ٢/ ٢٤٨، وابن الجزري في النشر ٢/ ٣٦٧ وانظر السبعة ٥٧٧، والإتحاف ٣٨١، وإبراز المعاني ١٢٨، والبحر المحيط ٧/ ٥٠٢، والكشاف ٢/ ٤٥٥.

(٥) الكشف ٢/ ٢٤٨، ومعاني الفراء ٣/ ١٩، والكشاف ٣/ ٤٥٥.

(٦) الأخير السابق.

(٧) الهمزة سقطت من ب.

(٨) نقله أبو حيان في بحره ٧/ ٥٠٢.

(٩) في ب حذفها وهو الأصح.

(١٠) انظر الدر المصون ٤/ ٧٣٧.

(١١) سبق هذا البيت.

فإن لم يكن «أم» لم يجز إلا عند الأخفش[(١)]. وتقدم ما فيه.

ويحتمل أن يكون جعله خبراً محضاً ويكون معناه: هلا فُصِّلت آياتُهُ فكان بعضها أعجمياً يفهمه العجم وبعضه عربياً يفهمه العرب[(٢)]. والأعجمي من لا يفصح، وإن كان من العرب[(٣)] وهو منسوب إلى صفته، كأحمريّ، ودوّاريّ؛ فالياء فيه للمبالغة في الوصف وليس فيه حقيقياً[(٤)]. وقال الرازي في لوامحه: فهو كياء كُرْسيّ وبُختيّ[(٥)].

وفرق أبو حيان بينهما فقال: ليست كياء كُرسيّ، فإنَّ ياء كرسيٍّ وبختيّ بُنِيَت الكلمة عليها بخلاف ياء «أعْجَمِيّ» فإنهم يقولون: رجلٌ أعجم وأعجميٌّ[(٦)].

وقرأ عمرو بن ميمونٍ[(٧)] أعَجميّ بفتح العين[(٨)] ـ وهو منسوب إلى العجم ـ والياء فيه للنسب حقيقة، يقال: رجلٌ عجميّ وإن كان فصيحاً. وقد تقدم الفرق بينهما في سورة الشعراء[(٩)]. وفي رفع أعجمي ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه مبتدأ والخبر محذوف تقديره أعجمي وعربي يستويان.

والثاني: أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو أي القرآن أعجمي والمرسل به عربيٌّ.

الثالث: أنه فاعل فعل مضمر، أي أيستوي عجميٌّ وعربيٌّ[(١٠)]؟ إذ لا يحذف الفعلُ إلا في مواضع تقدم بيانها.

فصل

قال المفسرون: هذا استفهام على وجه الإنكار، لأنهم كانوا يقولون: المُنزَّلُ عليه عربي، والمُنَزَّلُ أعجمي وذلك أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يدخل على يسار[(١١)] غلام

---

(١) قال في المعاني ٢/ ٦٨٥ وقد قرئت من غير استفهام وكل جائز في معنى واحد.

(٢) الدر المصون ٤/ ٧٣٧.

(٣) قاله ابن خالويه في الحجة ٣١٧.

(٤) نقله أبو حيان في البحر المحيط ٧/ ٥٠٢، والسمين في الدر ٤/ ٧٣٧.

(٥) بجعل النسب فيه حقيقةً، انظر البحر المرجع السابق.

(٦) البحر المحيط المرجع السابق. والبخت والبختية دخيل في العربية أعجميّ معرب وهي الإبل الخُراسانيّة وبعضهم يقول: إن البختَ عربي، والواحد بُختيّ وبُختيّة، وفي الحديث: فأتي بسارقٍ قد أتى بختيَّة. اللسان بخت ٢١٩.

(٧) عمرو بن ميمون أبو عبد الله الأوديّ الكوفيّ التابعيّ أخذ القراءة عن ابن مسعود، وروى عن عمر بن الخطاب روى عنه أبو إسحاق السَّبيعي وحصين، مات سنة ٧٥. وقيل سنة أربع. الغاية ١/ ٦٠٣.

(٨) من القراءة الشاذة، ذكرها أبو الفتح في المحتسب ٢/ ٢٤٨ وانظر المختصر ١٣٣ ومعاني الفراء ٣/ ١٩.

(٩) فرق بين أعجمي بسكون العين، وفتحها، سكون العين لفظه لفظ النسب وليس هناك حقيقة نسب كما أوضح أما أعجمي بالفتح فالهمزة للاستفهام وهو منسوب للعجم وآية الشعراء هي «لو نزَّلناه على بعض الأعجمين» ١٩٨.

(١٠) الدر المصون ٤/ ٧٣٧.

(١١) كان عبداً لهذا اليهودي وأسلم في خيبر ومات مقتولاً وصلى عليه الرسول انظر أسد الغابة ٥/ ٥٣٣، ٥٣٤.

عامر بن الحضرمي وكان يهوديًا أعجمياً يكنى أبا فكيهة، فقال المشركون: إنما يعلمه يسار فضربه سيده وقال: إنك تعلِّمُ محمداً فقال يسار: هو يعلّمني، فأنزل الله تعالى هذه الآية[١]. وقال ابن الخطيب: نقلوا في نزول هذه الآية أن الكفار لأجل التعنت قالوا: هلا نزل القرآن بلغة العجم فنزلت هذه الآية. وعندي: أن أمثال هذه الكلمات فيها حذف عظيم على القرآن، لأنه يقتضي ورود آيات لا تعلق للبعض فيها بالبعض، وأنه يوجب أعظم أنواع الطعن فكيف يتم مع التزام مثل هذه الطعن ادعاه كونه كتاباً منتظماً؟! فضلاً عن ادِّعاء كونه معجزاً؛ بل الحق عندي أن هذه السورة من أولها إلى آخرها كلام واحد على ما حكى الله عنهم من قولهم «قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر» وهذا الكلام متعلق به أيضاً وجواب له والتقدير: إنا لو أنزلنا هذا القرآن بلغة العجم لكان لهم أن يقولوا: كيف أرسلت الكلام العجمي إلى القوم العرب؟ ويصح لهم أن يقولوا: قلوبنا في أكنة من هذا الكلام، وفي آذاننا وقر منه لأنا لا نفهمه ولا نحيط بمعناه. أما لمَّا نزل[٢] هذا الكتاب بلغه العرب وبألفاظهم وأنتم من أهل هذه اللغة فكيف يُمكنكم ادعاء أن قلوبكم في أكنة منها وفي آذانكم وقر منها؟! فظهر أنا إذا جعلنا هذا الكلام جواباً عن ذلك الكلام بقيت السورة من أولها إلى آخرها على أحسن وجوه النظم، وأما على الوجه الذي يذكره الناس فهو عجيبٌ جدًّا[٣].

قوله: «قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ» أي قل يا محمد هو يعني القرآن للذين آمنوا هدى وشفاء هدى من الضلالة وشفاء لما في القلوب. وقيل: شفاءٌ من الأوجاع[٤]. قال ابن الخطيب: هذا متعلق بقولهم: «وقَالُوا قُلُوبُنَا في أَكِنَّةٍ مما تدعونا إليه»... الآية كأنه تعالى يقول: إن هذا الكلام أرسلته إليكم بلغتكم لا بلغة أجنبية عنكم فلا يمكنكم أن تقولوا قلوبنا في أكنة منه بسبب جهلنا هذه اللغة فكل من أعطاه الله تعالى طبعاً مائلاً إلى الحق، وقلباً داعياً إلى الصدق وهمَّةً تدعوه إلى بذل الجهد في طلب الدين فإن هذا القرآن يكون في حقه هُدًى وشفاء. أما كونه هدى فإنه إذا أمكنه الاهتداء فقد حصل الهدى، وذلك شفاء لهم من مرض الكفر والجهل، وأما من غرق في بحر الخِذْلان وشغف بمتابعة الشيطان فكأنَّ هذا القرآن عليهم عَمًى، كما قال «وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ» أولئك يُنادون من مكان بعيدٍ بسبب ذلك الحجاب الحائل بينه وبين الانتفاع ببيان القرآن وكل من أنصف ولم يتعسف[٥] علم أن التفسير على هذا الوجه الذي ذكرناه أولى مما ذكروه؛ لأن السورة تصير من

(١) في الرازي ـ وهو الأصح ـ حيفٌ وهو ظلم كما سيأتي بعد الرازي ٢٧/ ١٣٣.

(٢) وفيه أنزلنا.

(٣) الرازي ٢٧/ ١٣٣، وانظر ما قبل أعلى في البغوي ٦/ ١١٣ و ١١٤.

(٤) ذكر هذا الإمامان البغوي والخازن في تفسيريهما ٦/ ١١٤.

(٥) كذا في تفسير ابن الخطيب وفي ب ينصف بدل يتعسف.

أولها إلى آخرها كلاماً واحداً منتظماً منسوقاً نحو غرض واحد[١].

قوله: «والَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ» فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون مبتدأ و «في آذانِهِم» خبره و «وَقْرٌ» فاعل، أو «في آذَانِهِم» خبر مقدم و «وقر» مبتدأ مؤخر، فالجملة خبر الأول[٢].

الثاني: أن «وقراً» خبر مبتدأ مضمر، والجملة خبر الأول، والتقدير والذين لا يؤمنون هو وقر في آذانهم. لما أخبر عنه بأنه هدى لأولئك أخبر عنه أنه وقر في آذان هؤلاء وعمًى عليهم[٣]، قال معناه الزمخشري. ولا حاجة إلى الإضمار مع تمام الكلام بدونه[٤].

الثالث: أن يكون «الذين لا يؤمنون» عطفاً على «الذين آمنوا» و «وَقْرٌ» عطف على «هُدى»[٥]. وهذا من باب العطف على معمولي عاملين وفيه مذاهب تقدم تحريرها.

قوله: «عَمًى» العامة على فتح الميم المنونة، وهو مصدر لعَمِي يَعْمَى عَمًى، نحو: صَدِيَ يَصْدَى صَدًى وهَوِيَ يَهْوَى هَوًى. وقرأ ابن عباس، وابن عمر، وابن الزُّبير وجماعةٌ عم بكسرها منونة[٦] اسماً منقوصاً، وصف بذلك مجازاً. وقرأ عمرو بن دينار، ورُويت عن ابن عباس: «عَمِيَ» بكسر الميم وفتح الياء فعلاً ماضياً[٧]. وفي الضمير وجهان:

أظهرهما: أنه القرآن.

والثاني: أنه للوقر، والمعنى يأباه و «في آذانهم» إن تجعله خبراً تعلق بمحذوف على أنه حال منه لأنه صفة في الأصل، ولا يتعلق به لأنه مصدر، فلا يتقدم معموله عليه وقوله: «وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى» كذلك في قراءة العامة وأما في القراءتين المتقدمتين فيتعلق «على» بما بعده إذ ليس بمصدر. قال أبو عبيد: والأولى هي الوجه، لقوله: «هُدًى وَشِفَاءٌ» وكذلك «عمى» وهو مصدر مثلهما ولو كان المذكور أنه هادٍ وشافٍ لكان الكسر في «عَمِيَ» أجود، فيكون نعتاً لهما.

فصل

قال قتادة: عَمُوا عن القرآن وصمُّوا عنه، فلا ينتفعون به. «أولئك ينادون من مكان

---

(١) انظر تفسير ابن الخطيب الفخر الرازي مع تغيير طفيف في العبارة ٢٧/ ١٣٥.
(٢) البيان ٣/ ٣٤٢. (٣) الكشاف ٣/ ٤٥٦.
(٤) ذلك كلام أبي حيان في رده على الزمخشري ٧/ ٥٠٢.
(٥) ذكره الزمخشري في الكشاف المرجع السابق واستبعده قال: وإن كان الأخفش يجيزه الكشاف ٣/ ٤٥٦.
(٦) شاذة ذكرها ابن خالويه ١٣٣ والفراء ٣/ ٢٠ والكشاف ٣/ ٤٥٦.
(٧) السابق.

بعيد» قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يريد مثل البهيمة التي لا تفهم إلا دعاء ونداء. وقيل: من دعي من مكان بعيد لم يسمع وإن سمع لم يفهم فكذا حال هؤلاء، وهذا مثل لقلّة انتفاعِهِمْ بما يُوعظُونَ بِهِ(١).

قوله تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ فاختُلِفَ فِيهِ» وجه تعلقه بما قبله كأنه قيل: إنا لما آتينا موسى الكتاب فقبله بعضهم وردَّهُ آخرون فكذلك آتيناك هذا الكتاب، فقبله بعضهم وهم أصحابك، ورده آخرون وهم الذين يقولون: قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه(٢). ثم قال: «وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ» يعني في تأخير العذاب عنهم «إلى أَجَلٍ مُسَمًّى» وهو يوم القيامة «لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ» يعني المصدق والمكذب بالعذاب الواقع أي لفرغ من عذابهم وعجل إهلاكهم «وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ» من صدقك وكتابك «مُرِيبٍ» موقع لهم الريبة، فلا ينبغي أن يعظم استيحاشك من قولهم: «قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه». ثم قال: «مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا» يعني خفف على نفسك إعراضهم فإنهم إن آمنوا فنفع إيمانهم يعود عليهم وإن كفروا فضرر كفرهم يعود عليهم(٣) فالله سبحانه وتعالى يوصل إلى كل أحد ما يليق بعمله من الجزاء «وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ»(٤).

قوله: «فلنفسه» يجوز أن يتعلق بفعل مقدر أي فلنفسه عملُهُ(٥)، وأن يكون خبر مبتدأ مضمر أي فالعامل الصالحُ لنفسه(٦). وقوله «فَعَلَيْهَا» مثله. ثم قال: «وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ» والكلام على نظيره قد تقدم في سورة آل عمران عند قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨٢].

قوله (تعالى)(٧): «إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ» لما هدد الكفار بقوله: «من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها» ومعناه أن جزاء كل أحد يصل إليه يوم القيامة، فكأن سائلاً قال: ومتى يكون ذلك اليوم؟ فقال تعالى: إنه لا سبيل للخلق إلى معرفة وقت ذلك اليوم ولا يعلمه إلا الله فقال: إليه يرد علم الساعة وهذه الكلمة تفيد الحصر، أي لا يعلم وقت الساعة بعينه إلا الله تعالى وكذلك العلم بحدوث الحوادث المستقبلة في أوقاتها المعينة ليس إلا عند الله، ثم ذكر من أمثلة هذا الباب مثالين:

أحدهما: قوله: «وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَراتٍ مِنْ أَكْمَامِها».

والثاني: قوله: «وَمَا تَحْملُ مِنْ أنثى ولاَ تَضَع إلاَّ بِعِلْمِهِ»(٨).

---

(١) البغوي ٦/ ١١٤.
(٢) الرازي ٢٧/ ١٣٤.
(٣) في ب والله، بالواو.
(٤) انظر المرجعين السابقين.
(٥) الدر المصون ٤/ ٧٣٨.
(٦) التبيان ١١٢٨.
(٧) زيادة من أ الأصل.
(٨) قاله الإمام الرازي في تفسيره التفسير الكبير ٢٧/ ١٣٦ و ١٣٧.

قوله: «وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ»[١] ما هذه[٢] يجوز أن تكون نافية وهو الظاهر وأن تكون موصولة جوَّز ذلك أبو البقاء[٣]، ولم يبين وجهه، وبيانه أنها مجرورة المحل عطف على الساعة أي (علم الساعة)[٤] وعلم التي تخرج، و «مِنْ ثَمَرَاتٍ» على هذا حال، أو تكون «مِن» للبيان، و «مِن» الثانية لابتداء الغاية. وأما الثانية فنافية فقط. قال أبو البقاء: لأنه عطف عليها «وَلاَ تَضَعُ» ثم نقض النفي بإلا ولو كانت بمعنى الذي معطوفة على الساعة لم يَجُزْ ذلك[٥].

وقرأ نافعٌ وابن عامر «ثَمَرَاتٍ»[٦] ويقويه أنها رُسِمَتْ بالتاء الممطوطة والباقون ثمرة بالإفراد، والمراد بها الجنس، فإن كانت «ما» نافية كانت «مِنْ» مزيدة في[٧] الفاعل، وإن كانت موصولة كانت للبيان[٨] كما تقدم. والأكمام جمع «كِمّ» بكسر الكاف؛ كذا ضبطه الزمخشري[٩]، وهو ما يُغطي الثمرة كجُفِّ الطَّلع[١٠]. وقال الراغب: الكُم ما يغطي اليد من القميص وما يغطي الثمرة وجمعه: أكمامٌ[١١]، وهذا يدل على أنه مضموم الكاف؛ إذ جعله مُشْتَرَكاً بين «كم» القميص، و «كم» الثمرة، ولا خلاف في «كُم» القميص بالضم فيجوز أن يكون في وعاء الثمرة لغتان، دون «كم» القميص جمعاً بين قوليهما[١٢]. وأما أَكِمَّةٌ فواحدها «كِمامٌ» كأزِمَّةٍ وزِمام[١٣].

قال أبو عبيدة: أكمامها أوعيتها وهي ما كانت فيه الثمرة واحدها كم[١٤] وكِمَّة. قال

---

(١) ضبطت في النسخ ثمرة بالإفراد. (٢) في ب يجوز أن تكون «ما» نافية.. الخ.
(٣) التبيان ١١٢٨.
(٤) ما بين القوسين سقط من ب بسبب انتقال النظر.
(٥) في التبيان لم يستقم وكل هذا أخذ من التبيان لأبي البقاء ١١٢٨.
(٦) هي القراءة المعهودة عن حفص عن عاصم وهي قراءة متواترة انظر السبعة لابن مجاهد ٥٧٧ والكشف لمكي ٢/٢٤٩.
(٧) وهو ثمرات وهو حينئذ يكون مرفوعاً بضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد.
(٨) انظر الدر المصون ٤/٧٣٩.
(٩) الكشاف ٣/٤٥٦.
(١٠) في النخل خاصة ويسميه عوام الناس الكوز وانظر اللسان «جفف» ٦٤٢.
(١١) المفردات للراغب ٤٤١.
(١٢) في ب قولهما وفي اللسان: والكم للطلع ـ بضم الكاف ـ وقد ضبطت في المحكم والتهذيب بالضم ككُمّ القميص. بينما وجدت في المصباح والقاموس والنهاية كم الطلع وكل نور بالكسر وانظر اللسان كمم ٣٩٣١ والقاموس والمصباح «كمم».
(١٣) نقل صاحب اللسان عن الجوهري: والكِمّ بالكسر والكِمَامَةُ وعاء الطَّلع وغِطاء النور، والجمع كِمام وأَكِمَّةٌ وأكمام اللسان المرجع السابق.
(١٤) في ب كمة وانظر المجاز ٢/١٩٨ «أي أوعيتها واحدتها كمَّة» وهو ما كانت فيه وكم وكمة واحد وجمعهما أكمام وأكمة.

ابن عباس (رضي الله عنهما)[١]: يعني الكُفُرَّى[٢] قبل أن تنشقّ. «وَمَا تَحمل مِنْ أُنْثَى وَلاَ تَضَعُ إلاَّ بِعِلْمِهِ» أي إليه يرد علم الساعة كما يرد إليه علم الثمار والنّتاج[٣].

قوله: «وَيَوْمَ يُنادِيهِم أَيْنَ شُرَكَائِي» أي بحسب زعمكم واعتقادكم. (و) فتح ابن كثير ياء شُركائي[٤]. «قَالُوا آذَنَّاكَ» قال ابن عباس ـ (رضي الله[٥] عنهما): أسمعناك، كقوله ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الإنشقاق: ٢]، يعني سمعت. وقال الكلبي: أعلمناك، قال ابن الخطيب: وهذا بعيد؛ لأن أهل القيامة يعلمون أن الله تعالى يعلم الأشياء علماً واجباً، فالإعلام في حقه محال[٦].

قوله: «مَا مِنَّا مِنْ شهيدٍ» هذه الجملة المنفية معلقة «لآذناك»؛ لأنهما بمعنى أعلمناكَ، قال:

٤٣٦٦ ـ آذَنَتْـنَـا بِـبَـيْـنِـهَـا أَسْـمَـاءُ رُبَّ ثَـاوٍ يَـمَـلُّ مِـنْـهُ الـثَّـوَاءُ[٧]

وتقدم الخلاف في تعليق أعلم[٨]. و «مِنْ» للغاية. والصحيح وقوعه سماعاً من العرب. وجوَّز أبو حاتم أن يوقف على «آذنَّاكَ» وعلى «ظنوا» ويبتدأ بالنفي بعدهما على سبيل الاستئناف. و «مِنَّا» خبر مقدم. و «مِنْ شَهِيدٍ» مبتدأ، ويجوز أن يكون «مِنْ شَهِيدٍ» فاعلاً بالجار قبله؛ لاعتماده على النفي[٩].

فصل

في معنى الآية وجوه:

قيل: ليس أحد منا يشهد بأن لك شريكاً لما عاينوا العذاب تبرأوا من الأصنام.

---

(١) زيادة من أ.

(٢) وهي وعاء طلع النخل والكافور. اللسان كفر.

(٣) انظر معالم التنزيل ٦/ ١١٤.

(٤) الإتحاف ٣٨٢ وهي من الأربع فوق العشر المتواترة.

(٥) زيادة من أ.

(٦) الرازي ٢٧/١٣٦.

(٧) البيت من الخفيف، وهو مطلع معلقة الحارث بن حلِّزة اليشكريّ وأسماء اسم امرأة. والبينُ البعد والمعنى لا نملّ إقامة هذه المرأة بيننا لكنها أعلمتنا بالرحيل.
والشاهد: آذنتنا فإنها بمعنى أعلمتنا. وقد تقدم.

(٨) للثاني والثالث من مفاعيل أعلم وأرى ما كان لهما في باب «علم ورأى» من جواز الإلغاء والتعليق وغيرهما ومنع قوم الإلغاء والتعليق هنا سواء ثبت للفاعل أم للمفعول، وعليه ابن النحاس وابن أبي الربيع لأن مبنى الكلام عليهما ولا يجيء بعدما مضى الكلام على الابتداء ومنعهما آخرون إن ثبت للفاعل وعليه الجُزوليّ؛ لما فيه من إعمالها في المفعول الأول وإلغائها بالنسبة إلى الأخيرين وذلك تناقض لأنه بقوة وضعف معاً بخلاف ما إذا لم يثبت للمفعول. ومنع آخرون التعليق دون الإلغاء وعليه الأكثرون، ومنع قوم إلغاء أعلم دون أرى، وعليه الشلوبين؛ لأن أعلم مؤثر فلا يلغى كما تلغى الأفعال المؤثرة. وأرى بمعنى أذن موافقة في الإلغاء كما وافقه في المعنى. انظر الهمع ١/ ١٥٨.

(٩) انظر في هذا التبيان للعكبري ١١٢٨ و ١١٢٩ والدر المصون ٤/ ٧٤٠.

وقيل: معناه ما منا أحد يشاهدهم لأنهم ضلوا عنهم وضلت عنهم آلهتهم فلا يبصرونها في ساعة التوبيخ وقيل: هذا كلام الأصنام كأن الله يجيبها، ثم إنها تقول: «مَا مِنَّا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ» بصحة ما أضافه إلينا من الشركة، وعلى هذا التقدير فمعنى ضلالهم عنهم (أنهم[1] لا ينفعونهم وهي معنى قوله: «وَضَلَّ عَنْهُمْ) مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ».

قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: «وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ» كقوله: «مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ»[2] ومعناه: أنهم أيقنوا أنهم لا محيص لهم عن النار أي مهرب، وهذا ابتداء كلام من الله تعالى.

قوله تعالى: «لاَ يَسْأَمُ الإنسانُ مِن دُعَاء الخَيْرِ»... الآية لما بين تعالى من حال هؤلاء الكفار (أنهم)[3] بعد أن كانوا مصرين على القول بإثبات الشركاء والأضداد لله في الدنيا تبرأوا عن تلك الشركاء في الآخرة بين أن الإنسان في جميع الأوقات متغير الأحوال، فإن أَحسَّ بخير وقدرة تعاظم، وإن أَحسَّ ببلاءٍ ومحنةٍ ذُلَّ. والمعنى أن الإنسان في حال الإقبال لا ينتهي إلى درجة إلا ويطلب الزيادة عليها، وفي مجال الإدبار والحِرمان يصير آيساً قانطاً. وفي قوله «يئُوسٌ قنوطٌ» مُبالغةٌ من وجهين:

أحدهما: من طريق فعول.

والثاني: من طريق التكرار.

واليأس من صفة القلب، والقنوط أن يظهر آثار اليأس في الوجه والأحوال الظاهرة. ثم بين تعالى أن الذي صار آيساً قانطاً لو عاودَتْهُ النعمة والدَّولة[4] وهو قوله: «وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ

---

(١) ما بين القوسين سقط من أ الأصل. (٢) أي كإعراب «ما منا من شهيد» السابق.

(٣) سقط من ب.

(٤) الدولة ـ بضم الدال أو فتحها على خلاف في ذلك ـ العقبى في المآل وانظر اللسان دول ١٤٥٥.

رحمةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ» فإنه يأتي بثلاثة أنواع من الأقاويل الفاسدة الموجبة للكفر والبعد عن الله[١].

فالأول: قوله «لَيَقُولَنَّ هٰذَا لِي» وهو جواب القسم لسبقه الشرط، وجواب الشرط محذوف كما تقدم تقريره[٢].

وقال أبو البقاء: ليقولن جواب الشرط والفاء محذوفة[٣]. قال شهاب الدين (رحمه الله[٤]) وهو لا يجوز إلا في شعر كقوله:

٤٣٦٧ ـ مَن يَفعَلِ الحَسَنَاتِ اللَّهُ يَشكُرُهَا ....[٥]

حتى إنَّ المبرد يمنعه في الشعر، ويروى البيت:

٤٣٦٨ ـ مَنْ يَفعَلِ الخَيرَ فَالرَّحْمٰنُ يَشْكُرُهُ[٦]

فصل

معنى قوله: «هذَا لي» أي هذا حقي وصل إِليَّ؛ لأني استوجبته بعلمي وعملي، ولا يعلم المِسْكينُ أن أحداً لا يستحق على الله شيئاً، لأنه إن كان عارياً من الفضائل، فكلامه ظاهر الفساد، وإن كان موصوفاً بشيء من الفضائل والصفات الحميدة فهي إنما حصلت بفضل الله تعالى وإحسانه، فيثبتُ بهذا فساد قوله: إنما حصلت هذه الخيرات بسبب استحقاقي.

النوع الثاني من كلامه الفاسد: قوله: «وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً»، والمعنى أنه يكون شديد الرغبة في الدنيا عظيم النُّفرة عن الآخرة فإذا آل الأمرُ إلى أحوال الدنيا يقول: إنها لي، وإذا آل الأمر إلى الآخرة يقول: وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَة.

النوع الثالث من كلامه الفاسد: قوله: «وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى» أي أن هذا الكافر يقول: لست على يقين من البعث وإن كان الأمر على ذلك ورُدِدْتُ إلى ربي إن لي عنده للحسنى أي الجنة، كما أعطاني في الدنيا سيعطيني في الآخرة. ولما

---

(١) وانظر في هذا كله الفخر الرازي ٢٧/١٣٧.

(٢) ذكره السمين في الدر ٤/٧٤٠ وانظر التبيان ١١٢٩.

(٣) السابق. (٤) زيادة من أ.

(٥) صدر بيت من البسيط عجزه:

.... **والشَّرُّ بالشَّرِّ عند الله مثلان**

وهو لعبد الرحمن بن حسّان. واستشهد به على حذف الفاء من قوله: «الله يشكرها» والأصل فالله يشكرها، ولم يرتض المبرد هذا. وقد تقدم.

(٦) قال المبرد في المقتضب: فلا اختلاف بين النحويين أنه على إرادة الفاء؛ لأن التقديم فيه لا يصلح وانظر نوادر أبي زيد ٢٠٧، ٢٠٨.

حكى الله تعالى عنهم هذه الأقوال الثلاثة الفاسدة قال[١]: «فلنُنَبِّئَنَّ الذِّين كَفَروا بما عَمِلوا» قال ابن عباس[٢] ـ رضي الله عنهما ـ: لنوقفنّهم على مساوىء أعمالهم «وَلَنذيقنَّهُمْ منْ عَذابٍ غَلِيظٍ» وهذا في مقابلة قولهم: «إنَّ لي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى». ولما حكى الله تعالى أقوال الذي أنعم عليه بعد وقوعه في الآفات حكى أفعاله أيضاً فقال: «إذا أَنْعَمْنا عَلَى الإِنْسَانِ أعْرَضَ ونأى بِجَانبهِ» أي أعرض عن التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله. «ونَأى بِجَانِبِهِ» أي تعاظم، ثم إن مسه الضر والفقر أقبل على دوام الدعاء وأخذ في الابتهال والتضرع[٣]. ومعنى «عريض» كبير. والعرب تستعمل الطُّول والعَرْضَ في الكثرة، يقال: أَطَالَ فلانٌ الكَلاَمَ والدعاءَ وأعْرَضَ أي أَكثَرَ[٤].

قوله تعالى: (قلْ أرَأيْتُمْ) تقدم الكلام عليها، ومفعولها الأول هنا محذوف، تقديره أرأيتم أنْفُسَكُمْ والثاني[٥] هو الجملة الاستفهامية.

فصل

ومعنى الآية إنكم لما سمعتم هذا القول القرآن أعرضتم عنه، وما تأملتم فيه وبالغتم في النُّفرةِ عنه حتى قلتم قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن المعلوم بالضرورة أنه ليس العلم بكون القرآن باطلاً وليس العلم بفساد القول بالتوحيد والنبوة علماً بديهيًّا فقيل: الدليل يحتمل أن يكون صحيحاً، وأن يكون فاسداً، فبتقدير أن يكون صحيحاً كان إصراركم على دفعه من أعظم موجبات العقاب فيجب عليكم أن تتركوا هذه النفرة، وأن ترجعوا إلى النظر والاستدلال فإن دَلَّ دليل على صحته قَبِلْتُموهُ، وإن دل دليل على فساده تركتموه، وقبل الدليل فالإصرار على الدفع والإعراض بعيد عن العقل. فقوله: «مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ» موضوع موضع بيان حالهم وصفتهم[٦].

ولما ذكر هذه الوجوه الكثيرة في تقرير التوحيد والنبوة أجاب عن شبهات المشركين فقال: «سَنُرِيهم آياتِنَا في الآفاق وفِي أنفسهم» الآفاق جمع أفق وهو الناحية. نقل النَّوَوِيُّ في التهذيب قال أهل اللغة: الآفاق النَّواحِي، الواحد أُفُق بضم الهمزة والفاء، وأُفْق ـ بإسكان الفاء ـ قال الشاعر (رحمه الله)[٧]:

٤٣٦٩ ـ لَوْ نَالَ حَيٌّ مِنَ الدُّنيا بِمَنْزِلَةٍ ... أُفْقَ السَّمَاءِ لَنَالَتْ كَفُّهُ الأُفُقَا[٨]

---

(١) الرازي ٢٧/ ١٣٧ و ١٣٨.
(٢) البغوي والخازن ٦/ ١١٥.
(٣) الرازي السابق والكشاف ٣/ ٤٥٧.
(٤) المرجعان السابقان.
(٥) البحر المحيط ٧/ ٥٠٥، والسمين ٤/ ٧٤٠.
(٦) الرازي ٢٧/ ١٣٨ و ١٣٩.
(٧) زيادة من أ.
(٨) من البسيط لزهير بن أبي سلمى.
والشاهد في أفق الأولى والثانية حيث إنهما مفرد آفاق والأولى بضم الهمزة وتسكين الفاء والثانية بضم=

وهو كأعناقٍ في عنق، أُبدِلَتْ همزته ألفاً[١]. ونقل الراغب أنه يقال: أَفَقٌ ـ بفتح الهمزة والفاء ـ[٢] فيكون كجبلٍ وأجبالٍ. وأَفَقَ فلانٌ أي ذهب في الآفاق. والآفِقُ الذي بلغ نهاية الكرم تشبيهاً في ذلك بالذاهب في الآفاق. والنسبة إلى الأفق أَفَقيّ ـ بفتحهما[٣] ـ. ويحتمل أنه نسب الى المفتوح ثم استغنوا بذلك عن النسبة إلى المضموم، وله نظائر[٤]. قال النووي: قالوا والنسبة إليه أُفُقيّ بضم الهمزة والفاء وبفتحهما لغتان[٥] مشهورتانِ.

فصل

قال ابن عباس ـ (رضي الله عنهما[٦] ـ): معنى قوله سنريهم آياتنا في الآفاق أي منازل الأمم الخالية وفي أنفسهم بالبلاء والأمراض. وقال قتادة: يعني وقائع الله تعالى في الأمم الخالية وفي أنفسهم يوم بدر. وقال مجاهد والحسن والسدي: ما يفتح الله من القُرى على محمد ـ ﷺ ـ والمسلمين وفي أنفسهم: فتح مكة.[٧]

فإن قيل: حمل الآية على (هذا) الوجه بعيد؛ لأن أقصى ما في الباب أن محمداً ﷺ استولى على البلاد المحيطة بمكة ثم استولى على مكة إلا أن الاستيلاء على بعض البلاد لا يدل على كون المستولي محقاً فإنا نرى بعض الكفار قد يستولي على بلاد المسلمين وعلى ملوكهم[٨] (وهذا لا يدل على كونهم) محقين.

فالجواب: أنا لا نستدل بمجرد استيلاء محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ على تلك البلاد على كونه محقاً في ادعاء النبوة، بل يستدل به من حيث إنه ﷺ أخبر عن أنه سيستولي عليها ويقهر أهلها وهذا إخبار عن الغيب، وقد وقع مُخْبَره مطابقاً لخَبَرِهِ، فيكون هذا إخباراً صدقاً عن الغيب فيكون معجزاً فبهذا الطريق يستدل بحصول هذا

= الهمزة والفاء، ومن المحتمل أن يكون للوزن العروضي دخل في هيئة الكلمتين. وانظر الديوان له ٥٥، والبحر المحيط ٧/ ٤٨١، والدر المصون ٤/ ٧٤٠.

(١) يقصد أن آفاق جمع عن أفق وآفاق أصلها أأفاق بزنة أفعال، فاجتمعت همزتان الأولى متحركة والثانية ساكنة فأبدلت الثانية من جنس حركة الأولى مثل: آبار، وآثام وغيرهما.

(٢) أتى الراغب في كتابه بهذه الكلمة دون ضبط إلا أن محقق الكتاب ضبطها بالكسر.

(٣) ومحقق الكتاب ضبطها أيضاً بضم الهمزة والفاء واحتمال أن يعود هذا كله إلى الطبع والسهو والله أعلم انظر المفردات (١٩) «أفق».

(٤) قال إمام النحاة سيبويه فيما جاء من النسب شاذاً.. وفي السَّهل سهلِيّ وفي الدَّهر دهرِيّ.. وقالوا في الأفق: أفقِيّ، ومن العرب من يقول: أُفُقِيّ فهو على القياس الكتاب ٣/ ٣٣٦، وانظر أيضاً اللسان أفق ٩٦ ومفردات الراغب السابق ١٩.

(٥) انظر تهذيب النووي المرجع السابق. (٦) سقط من ب.

(٧) هذه الآراء ذكرها القرطبي في الجامع ١٥/ ٣٧٤ و ٣٧٥.

(٨) ما بين القوسين سقط من أ الأصل.

الاستيلاء على كون هذا الدين حقاً. وقال عطاء وابن زيد: في الآفاق يعني أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم، وآيات الليل والنهار، والأضواء، والظلال والظلمات والنبات والأشجار والأنهار، وفي أنفسهم من لطيف الصنعة، وبديع الحكمة، في كيفية تكوين الأجنة في ظلمات الأرحام، وحدوث الأعضاء العجيبة، والتركيبات الغريبة، كقوله: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] يعني نريهم هذه الدلائل «حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ» من عند الله يعني محمداً ﷺ، وأنه مرسل من عند الله.

فإن قيل: هذا الوجه ضعيف، لأن قوله تعالى «سَنُرِيهِمْ آيَاتِنا» يقتضي أنه تعالى ما أطلعهم على تلك الآيات إلى الآن وسيطلعهم عليها بعد ذلك، والآيات الموجودة في العالم الأعلى والأسفل قد أطلعهم عليها قبل ذلك فيتعذر حمل اللفظ على هذا الوجه.

فالجواب: أن القوم وإن كانوا قد رأوا هذه الأشياء إلا أن العجائب (التي أَوْدَعَها[١] الله تعالى في هذه الأشياء مما لا نهاية لها فهو تعالى يطلعهم على تلك العجائب زماناً فزماناً؛ لأن كل أحد رأى بنية الإنسان وشاهدها، إلا أن العجائب) إلى أبدعها الله تعالى في تركيب هذا البدن كثيرة وأكثر الناس لا يعرفونها، والذي وقف على شيء منها كلَّما ازداد وقوفاً على تلك العجائب ازْدَاد يقيناً وتعظيماً، وكذلك التركيبات (الفلكية أيضاً)[٢].

والأولى أن يقال: إن كان المراد بقوله: «حتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ»[٣] هو الرسول فقول مجاهد أولى وإن كان المراد به الدين والتوحيد فهذا أولى.

قوله: «أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ» فيه وجهان:

أحدهما: أن الباء مزيدة في الفاعل، وهذا هو الراجح، والمفعول محذوف، أي أَوَ لَمْ يكف ربُّك[٤].

وفي قوله: «أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيءٍ شَهيد» وجهان:

أحدهما: أنه بدل من «بربك» فيكون مرفوع المحل، مجرور اللفظ كمتبوعه[٥].

والثاني: أن الأصل بأنه، تم حذف الجار فجرى الخلاف[٦].

الثاني من الوجهين الأولين: أن يكون «بِرَبِّكَ» هو المفعول و «أنه» وما بعده هو

---

(١) ما بين القوسين كله سقط من ب بسبب انتقال النظر. وانظر في هذا كله تفسير الإمام الرازي ١٣٩/٢٧ و ١٤٠.

(٢) سقط من ب. (٣) انظر الرازي المرجع السابق.

(٤) انظر الكشاف ٤٥٨/٣ معنى، والبحر المحيط ٥٠٥/٧ والدر المصون ٧٤١/٤ لفظاً.

(٥) المرجع السابق بالمعنى من الكشاف السابق أيضاً.

(٦) المرجع قبل الأخير، وقد نقل هذه الأوجه أبو البقاء في التبيان ١١٢٩ وابن الأنباري في البيان ٢/ ٣٣٤.

الفاعل، أي أو لم يكف ربُّك شَهَادَته. وقرىء: «إنَّه على كلِّ» «بالكسر»[١]، وهو على إضمار القول أو على الاستئناف.

فصل

اعلم أن قوله «بِرَبِّك» في موضع الرفع على أنه فاعل كفى كما تقدم ومعناه: أو لم يكفهم أن ربك على كل شيء شهيد، أي شهيداً على الأشياء لأنه خلق الدلائل الدالة عليها.

وقال مقاتل: أو لم يكفِ[٢] بربك شاهداً أن القرآن من الله عزَّ وجلَّ. قال الزجاج: معنى الكفاية ههنا أن الله عزَّ وجلَّ قد بين من الدلائل ما فيه كِفَاية[٣].

قوله: «أَلاَ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ» أي في شك من البعث والقيامة[٤]. وقرأ أبو عبد الرحمن[٥] والحسن في مُرْيَة ـ بضم الميم[٦] ـ وقد تقدم أنها لغة في المكسورة[٧] الميم.

ثم قال: «أَلاَ إِنَّهُ بكلِّ شَيءٍ مُحِيط» أي عالم بكل المعلومات (التي لا نهاية لها[٨] فيعلم بواطن الكفار وظواهرهم ويجازي كل واحد على فعله).

فإن قيل: الإحاطة مشعرة بالنهاية، وهذا يقتضي أن يكون معلومه[٩] مُتَنَاهِياً!

فالجواب: أن قوله: «بكلّ شيء محيط» يقتضي أن يكون عمله بكل شيء محيطاً أي بكلّ واحد من الأشياء وهذا يقتضي أن يكون واحدٌ منها متناهياً لا كون مجموعها متناهياً والله أعلم.

روى الثعلبي في تفسيره أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «من قرأ حم السجدة أعطاه الله من الأجر بكل حرف منها عشْرَ حَسَنَاتٍ»[١٠].

---

(١) قراءة شاذة ولم ينسبها أبو حيان في البحر ولا السمين في الدر انظر البحر ٧/ ٥٠٥، والدر المصون ٤/ ٧٤١.

(٢) البغوي ٦/ ١١٥.

(٣) قال: «ومعنى الكفاية ههنا أنه قد بيَّن لهم ما فيه كفاية في الدلالة على توحيده وبينت رسله» معاني القرآن وإعرابه ٤/ ٣٩٢.

(٤) قاله البغوي في معالم التنزيل ٦/ ١١٥ والقرطبي في الجامع ١٥/ ٣٧٥.

(٥) هو أبو عبد الرحمن السلمي وقد تقدم التعريف به.

(٦) نقلها صاحب الإتحاف من الآية ١١ من هود وعلى ذلك فهي من الأربع الشواذ فوق العشر المتواترات وذكرها كقراءة الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٥٨.

(٧) قال في اللسان: والمِرية والمُرية الشك والجدل بالكسر والضمّ وقرىء بهما في قوله عزَّ وجلَّ «فَلاَ تَكُ في مريةٍ منه». قال ثعلب: هما لغتان، قال: وأما مِريةُ الناقة فليس فيها إلا الكسر (ومرية الناقة أي التي تدر على من يمسحُ ضُرُوعها) والضمّ غلط. اللسان (مرا) ٤١٨٩.

(٨) ما بين القوسين ساقط من أ الأصل.

(٩) في ب معلوماً وفي الرازي علومه ففي الثلاث اختلاف لفظي يعود إلى معنى واحد.

(١٠) ذكره الكشاف للزمخشري بدون سند. انظر الكشاف ٣/ ٤٥٩.

سورة الشورى

مكية[1] وهي ثلاث وخمسون آية، وثمانمائة وستٌّ وستون كلمةً، وثلاثةُ آلافٍ وخمسمائة وثمانية وثمانون حرفاً[2]

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: «حم عسق» تقدم الكلام في أمثال هذه الفواتح[3].

وسئل الحُسينُ بنُ الفضل: لم قطع حم عسق ولم يقطع كهيعص[4] فقال: لأنها سور أوائلها «حم» فجرت مجرى نظائرها. كأنَّ «حم» مبتدأ «وعسق» خبره، ولأنهما عدا آيتين وأخواتها مثل: كهيعص، والمص والمر عدت آية واحدة[5]. وقيل: لأن أهل

---

(١) في قول ابن عباس والجمهور، وحكي عن ابن عباس: إلا أربع آيات نزلت بالمدينة وانظر الخازن ٦/ ١١٥، والقرطبي ١٦/ ١. والقول بأنها مكية قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر.

(٢) الخازن السابق.

(٣) انظر أول العنكبوت.

(٤) الأولى من مريم.

(٥) والذي سأل الحسين بن الفضل عبد المؤمن. القرطبي ١٦/ ١.

التأويل لم يختلفوا في كهيعص، وأخواتها، لأنها حروف التهجي لا غير[١].

واختلفوا في «حم» فأخرجها بعضهم من حيِّز الحروف، وجعلها فعلاً. وقيل: معناه حُمَّ أي قضي ما هو كائن[٢]. روى عكرمة عن ابن عباس ـ (رضي الله[٣] عنهما) ـ أنه قال: «ح» حلمه «م» مجده «ع» علمه، «س» سناؤه، «ق» قدرته أقسم الله بها. وقال شهرُ بن حوشب وعطاءُ بن أبي رباح: «ح» حرب يعِزُّ فيها الذليل ويذلُّ فيها العزيز من قريش «م» ملكٌ يتحول مِنْ قوم إلى قوم «ع» عدوٌّ لقريش يقصدهم «س» سبيٌ يكون فيهم «ق» قُدرةُ الله النافذة في خلقه؛ ورُوِيَ عن ابن عباس ـ (رضي الله عنهما) ـ أنه قال: ليس من نبي صاحب كتاب إلا وقد أوحيت إليه حم عسق فلذلك قال: يُوحى إليك وإلى الَّذِين من قبلك وعلى هذا فقوله «اللَّهُ العزيزُ الحكيمُ» تبيين للفاعل كأنه قال: من يوحي؟ فقيل: اللَّه العزيزُ الحكيم[٤] كما سيأتي. وقرأ ابنُ عباس وابنُ مسعود حمَ سَق[٥].

قوله: «كَذَلِكَ يُوحِي» القراء على يوحي بالياء من أسفل مبنيًا للفاعل، وهو الله تعالى، والعزيز الحكيم نعتان، والكاف منصوبة المحل[٦] إما نعتاً لمصدر، أو حالاً من ضميره، أي يوحي إيحاءً مثل ذلك الإيحاء.

وقرأ ابن كثير ـ وتُرْوَى عن أبي عمرو ـ يُوحَى ـ بفتح الحاء مبنياً للمجهول[٧] ـ وفي القائم مقام الفاعل ثلاثة أوجه:

أحدها: ضمير مستتر يعود على كذلك، لأنه مبتدأ، والتقدير مثلُ ذلك الإيحاء يُوحَى هو إليك. «فمِثْلُ ذَلِك» مبتدأ، و «يُوحَى إِلَيْكَ» خبره.

الثاني: أن القائم مقام الفاعل «إليك» والكاف منصوبة المحل على الوجهين المتقدمين.

الثالث: أن القائم مقامه الجملة من قوله «اللَّهُ العزيزُ» أي يُوحى إليك هذا اللفظُ[٨]. وأصول البصريين لا تساعد عليه[٩]؛ لأن الجملة لا تكون فاعلةً ولا قائمةً

---

(١) البغوي: ٦/١١٦. (٢) حكاه القرطبي عن القشيري المرجع السابق.

(٣) زيادة من أ.

(٤) ذكر هذه الأقوال القرطبي في مرجعه السابق والبغوي في معالم التنزيل في المرجع السابق أيضاً.

(٥) من القراءة الشاذة غير المتواترة ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/٤٥٩ والقرطبي في الجامع ١٦/١ و ٢ وابن خالويه في المختصر ١٣٤.

(٦) انظر التبيان ١١٣٠.

(٧) السبعة ٥٨٠ والإتحاف ٣٨٢ ومعاني القرآن للفراء ٣/٢١ وهي قراءة متواترة.

(٨) أخذ المؤلف كل هذا من التبيان لأبي البقاء ١١٣٠.

(٩) في ب إليه. وقد اختلف في الإسناد إلى الجملة على مذاهب، أصحها: المنع فلا بكون فاعلاً، ولا نائباً عنه، والثاني: الجواز، لوروده في قوله تعالى: **﴿ثم بدا لهم من بعدما رأوا الآيات ليسجننَّه﴾** فأجازوا: يعجبني يقومُ زيدٌ، وظهر لي أقام زيدٌ أم عمرو، وأجيب: بأن الفاعل في الآية ضمير البداء=

مقامه. وقرأ أبو حيوة والأعمش وأبان نُوحي ـ بالنون[١] ـ وهي موافقة العامة. ويحتمل أن تكون الجملة من قوله: «اللَّهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ» منصوبة المحل مفعولة بنُوحِي أي نُوحِي إليك هذا اللفظ، إلا أنَّ فيه حكاية الجملة بغير القول الصريح[٢].

و «يُوحِي» على اختلاف قراءته يجوز أن يكون على بابه من الحال والاستقبال فيتعلق قوله: «وَإِلى الَّذِين مِنْ قَبْلِكَ» بمحذوف لتعذر ذلك تقديره: «وأُوحِي إلى الَّذين[٣] من قَبْلِكَ» وأن يكون بمعنى الماضي، وجيء به على صورة المضارع لغرضٍ وهو تصوير الحال[٤].

قوله: «اللَّهُ العَزِيزُ» يجوز أن يرتفع بالفاعلية في قراءة العامة، وأن يرتفع بفعل مضمر في قراءة ابن كثير كأنه قيل: من يوحيه؟ فقيل: اللَّهُ العزيزُ، كقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ رِجَالٌ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧] وقوله:

٤٣٧٠ ـ لِيُبْكَ يَزِيدُ ضَارِعٌ لِخُصُومَةٍ[٥]

وقد مرَّ. وأن يرتفع بالابتداء، وما بعده خبره، والجملة قائمة مقام الفاعل على ما مر، وأن يكون «العَزِيزُ الحَكِيمُ» خبرين، أو نعتين، والجملة من قوله: «لَهُ مَا فِي السَّمٰواتِ» خبر أول أو ثانٍ على حسب ما تقدم في «العَزِيزِ الحَكِيم». وجوَّز أبو البقاء أن يكون «العَزِيزُ» مبتدأ، و «الحكيم» خبره، أو نعته و «لَهُ مَا في السَّمٰواتِ» خبره.

وفيه نظر؛ إذا الظاهر تبعيَّتُهما للجلالة. وأنت إذا قلت: «جَاءَ زَيْدٌ العَاقِلُ الفَاضِلُ» لا تجعل العامل مرفوعاً على الابتداء.

= المفهوم من بدا أو ضمير السجن المفهوم من الفعل. والثالث: يجوز أن يقع فاعلاً أو نائباً عنه لفعل من أفعال القلوب إذا علق، نحو ظهر لي أقام زيدٌ أم عمرو، وعَلِم أقام بكرٌ أم خالدٌ، بخلاف نحو: يسرُّني خرج عبدُ الله فلا يجوز. ونُسب هذا لسيبويه انظر الهمع ١/ ١٦٤.

(١) البحر المحيط ٧/٥٠٨ وابن خالويه ١٣٤ وهي فيه الشواذ.

(٢) أقول قد يحكى بالقول وتصريفه الجمل ولا يحلق به معناه خلافاً للكوفيين وابن عصفور، فيوحي هنا معنى من معاني القول مرجّح عند الكوفيين وممتنع عند البصريين (بتصرف من الهمع ١/ ١٥٦).

(٣) انظر البحر المحيط ٧/ ٥٠٨.

(٤) بالمعنى من الكشاف ٣/ ٤٥٩، وباللفظ من الدر المصون ٤/ ٧٤٢.

(٥) صدر بيت من الطويل عجزه:

ومختبط ممَّا تطيح الطَّوائح

وهو لضرار بن نهشل يرثي يزيد بن نهشل. وشاهده: رفع «ضارع» حيث رفع بفعل مقدر أي يبكيه ضارعٌ أي ذليل ومسكين. و«مختبط» محتاج. أقول: وهذا البيت مما اختلف في نسبته. فقد نسبه العيني لنهشل بن حُرَيّ النهشلي والثعلبي إلى الحارث بن نهيك، والنيلي لضرار النهشلي، وبعضهم لمزرد، وأبو عبيدة لمهلهل، وقد تقدم.

فصل

الكاف في «كَذَلِكَ» معناه المثل و «ذَا» للإشارة إلى شيء سبق ذكره فيكون المعنى مثل حم عسق يوحي إليك وإلى الذين من قبلك، وعند هذا حصل قولان:

أحدهما: ما نقل عن ابن عباس (رضي الله[١] عنهما) أنه قال: لا نبي صاحب كتاب إلا وقد أوحي إليه حم عسق كما تقدم.

قال ابن الخطيب: «وهذا عندي بعيد»[٢].

والثاني: أن يكون مثل الكتاب المسمى بحم عسق يوحى إليك وإلى الذين من قبلك، وهذه المماثلة المراد منها المماثلة في الدعوة إلى التوحيد والنبوة والمعاد، وتقبيح أحوال الدنيا، والترغيب في أمور الآخرة[٣].

قال الزمخشري: لم يقل: أُوحِيَ إليك ولكن قال: يوحى إليك على لفظ المضارع ليدل على أن إيحاء[٤] مثله عادة[٥] وكونه عزيزاً بدل على كونه قادراً على ما لا نهاية له وكونه حكيماً يدل على كونه عالماً بجميع المعلومات غنياً عن جميع الحاجيات كما تقدم بيانه في أول سورة «حم» المؤمن.

وقوله: «لَهُ مَا فَي السَّمٰوات ومَا فِي الأَرْض» يدل على كونه موصوفاً بالقدرة الكاملة النافذة في جميع أجواء[٦] السموات والأرض على عظمها وسعتها بالإيجاد والإعدام وأن ما في السموات وما في الأرض ملكه وملكه، وهو[٧] العَلِيّ أي المتعالي عن مُشابهةِ المُمْكِنَات العظيم بالقدرة والقهر والاستعلاء.

قوله تعالى: «تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ» تقدم الكلام فيه مُشْبعاً في مريم[٨]، إلا أن الزمخشري زاد هنا وروى يونس عن أبي عمرو قراءةً غريبةً تتفطَّرن بتاءين مع النون. ونظيرها حرف نادر، رُوِيَ في نوادر ابن الأعرابي: «الإِبل تتشمَّمْنَ»[٩].

---

(١) زيادة من أ.

(٢) تفسيره التفسير الكبير ٢٧/ ١٤٢.

(٣) المرجع السابق.

(٤) في ب الحاء بدل من إيحاء وهو تحريف.

(٥) في الكشاف عادته.

(٦) في ب والرازي أجزاء وهو الأصح.

(٧) أخذ المؤلف كلام الرازي بتغيير وتبديل، ولعل هذا من النساخ ففي الرازي: «... أن كل ما في السموات وما في الأرض فهو ملكه وملكه وجب أن يكون منزهاً عن كونه حاصلاً في السموات وفي الأرض وإلا لزم كونه ملكاً لنفسه» الرازي ٢٧/ ١٤٢، ١٤٣.

(٨) من الآية ٩٠ من مريم: **﴿تكاد السموات يتفطرن منه وتنشقُّ الأرض﴾** فقد قرأ ابن كثير وابن عامر وحمزة «تكاد» بالتاء «يتفطَّرن» بالياء وبعدها تاء، وكذلك حفص عن عاصم إلا في رواية هبيرة عنه «ينفطِرن» بالنون مثل أبي عمرو بالإضافة إلى القراءات الشاذة التي ذكرها أعلى.

(٩) الكشاف ٣/ ٤٥٩ والذي في الكشاف: تشمَّمن بتاء واحد وميمين والصواب ما أتى به المؤلف حتى يتحقق الشاهد.

قال أبو حيان: والظاهر أن هذا وهمٌ منه، لأن ابن خالويه قال في شاذِّ القرآن ما نصه «تَنْفَطِرْنَ» بالتاء والنون يُونسُ عن أبي عمرو[١].

قال ابن خالويه: وهذا حرف نادر؛ لأن العرب لا تجمع بين علامتي التأنيث[٢] لا يقال: النساء تقُمْنَ، ولكن يَقُمْنَ، والوالِدَاتُ يُرْضِعنَ ولا يقال: تُرضِعن. وقد كان أبو عمر الزَّاهِدُ[٣] روى في نوادر ابن الأعرابي: الإبل تتشمَّمْنَ[٤] فأنكرناه، فقد قواه الآن هذا[٥].

قال أبو حيان: فإن كانت نسخُ الزمخشري متفقةً على قوله: «بتاءين مع النون» فهو وهم، وإن كان في بعضها بتاء مع النون كان موافقاً لقول ابن خالويه وكان بتاءين تحريفاً من النساخ وكذلك كتبهم تتفطَّرنَ وتَتشمَّمْنَ بتاءين. انتهى[٦].

قال شهاب الدين: كيف يستقيم أن يكون[٧] كتبهم تتشمَّمن بتاءين وهماً وذلك لأن ابن خالويه أورده في معرض الندرة والإنكار حتى يقوى عنده بهذه القراءة، وإنما يكون نادراً منكراً بتاءين، فإنه حينئذ يكون مضارعاً مسنداً لضمير الإبل، فكان من حقه أن يكون حرف مضارعته ياء منقوطة من أسفل، نحو: النِّساءُ يقُمن فكان ينبغي أن يقال: الإبل يتشمَّمن بالياء من تحت ثم بالتاء من فوق، فلما جاء بتاءين كلاهما من فوق ظهر نُدُوره وإنكاره، ولو كان على ما قال أبو حيان: إن كتبهم بتاءين وهماً بل كان ينبغي كتبه بتاء واحدة لما كان فيه شذوذ ولا إنكار، لأنه نظير: النِّسوة تدحرجْنَ فإنه ماض مسندٌ لضمير الإناث، وكذا لو كتبت بياء من تحت وتاء من فوق لم يكن فيه شذوذ، ولا إنكار. وإنما يجيء الشذوذ والإنكار إذا كان بتاءين منقوطتين من فوق، ثم إنه سواء قُرِىء تتفطَّرن بتاءين أو بياء ونون، فإنه نادر لما ذكر ابن خالويه، وهذه القراءة لم يقرأ بها في نظيرتها في سورة مريم[٨].

قوله: «مِنْ فَوْقِهِنَّ» في هذا الضمير ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه عائد على السموات، أي كل واحدة منها تتفطَّرُ فوق التي تليها[٩] من قول المشركين: ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [الكهف: ٤] كما في سورة مريم، أي يبتدىء

---

(١) البحر المحيط ٧/٥٠٨. (٢) تاء التأنيث الأولى، ونون النسوة.

(٣) محمد بن عبد الواحد بن أبي هاشم المعروف بغلام ثعلب والملقب بالزاهد من أكابر أئمة اللغة والنحو أخذ عن ثعلب. انظر إنباه الرواة ٣/ ١٧١ : ١٧٧.

(٤) في مختصر ابن خالويه (تسَمَّن) بالسين والنون المشددة.

(٥) انظر مختصر ابن خالويه ١٣٤ والبحر المحيط ٧/٥٠٨.

(٦) قاله في البحر المحيط ٧/٥٠٨.

(٧) النون من تكون سقطت من ب.

(٨) انظر هذا كله للسمين في الدر المصون ٤/ ٧٤٣.

(٩) بالمعنى من الكشاف ٣/ ٤٦٠ وباللفظ من الدر المصون ٤/ ٧٢٤.

انفطارهُنَّ من هذه الجهة «فِمَنْ» لابتداء الغاية متعلقة بما قبلها[١].

الثاني: أنه يعود على الأرضين؛ لتقدم ذكر الأرض[٢].

الثالث: أنه يعود على فرق[٣] الكفار والجماعات الملحدين[٤]. قاله الأخفش الصغير[٥]. وأنكره مكي وقال لا يجوز ذلك في المذكور من بني آدم[٦]، وهذا لا يلزم الأخفش فإنه قال على الفرق والجماعات فراعى ذلك المعنى.

فصل

قال الزمخشري: كلمة الكفر إنَّما جاءت من الذين تحت السموات، وكان القياس أن يقال: ينفطِرن من تحتهن (أي)[٧] من الجهة التي (تحت)[٨] جاءت منها الكلمة، ولكن بُولغ في ذلك فجعلت مؤثرة مِنْ جهة الفوقِ، فكأنه قيل: يكون ينفطرن من الجهة التي فوقهنَّ، دع الجهة التي تحتهن. ونظيره في المبالغة، قوله تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ [الحج: ١٩و ٢٠]. فجعل مؤثراً في أجزائهم الباطنة[٩].

وقال ابن الخطيب: يعني من فوقهن أي من فوق الجهة التي حصلت هذه السموات فيها، وتلك الجهة هي فوق، فقوله: من فوقهن أي من الجهة الفوقانيَّة التي هُنَّ فيها[١٠].

قوله: «وَالمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِم» فالتسبيح عبارة عن تنزيه الله تعالى عما لا ينبغي والتحميد عبارة عن وصفه بكونه مُفيضاً لكُلِّ الخيرات.

قوله: «وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ» أي من المؤمنين كما حكى عنهم في سورة المؤمن فقال: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧].

فإن قيل: (قوله)[١١]: ويستغفرون لمن في الأرض عام، فيدخل فيهم الكفار وقد لعنهم الله تعالى فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦١] فكيف (يكونون)[١٢] لاعنين لهم ومستغفرين لهم؟! قال ابن الخطيب: والجواب من وجوه:

---

(١) المرجعين السابقين.
(٢) نقله أبو حيان عن الحوفي في البحر المحيط ٧/٥٠٨.
(٣) في ب فريق.
(٤) المرجع السابق.
(٥) هو علي بن سليمان بن الفضل أخذ عن المبرد وثعلب وغيرهما توفي ببغداد سنة ٣١٥هـ. انظر إنباه الرواة للقفطيّ ٢/٢٧٦ ـ ٢٧٨ ونشأة النحو ١٥٢، وانظر رأيه في البحر المرجع السابق.
(٦) البحر المرجع السابق ولم أجده في مشكل الإعراب له.
(٧) أي زائدة من النسخ عن الكشاف.
(٨) ساقطة من الكشاف.
(٩) الكشاف ٣/ ٤٦٠.
(١٠) تفسيره ٢٧/ ١٤٤.
(١١) ساقطة من أ الأصل.
(١٢) ساقطة من ب.

الأول: أنه عام مخصوص بآية المؤمن كما تقدم.

الثاني: أن قوله «لِمَنْ فِي الأَرْض» لا يفيد العموم؛ لأنه (لا)[1] يصح أن يقال: إنهم استغفروا لكل من في الأرض وأن يقال: إنهم استغفروا لبعض من في الأرض دون البعض ولو كان صريحاً في العموم لما صحَّ ذلك.

الثالث: يجوز أن يكون المراد من الاستغفار أنه لا يُعاجلهم بالعقاب، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ [فاطر: ٤١] إلى أن قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

الرابع: يجوز أن يقال: إنهم يستغفرون لكل من في الأرض، أما في حق الكفار فبطلب الإيمان لهم وأما في حق المؤمنين فبالتجاوز عن سيئاتهم فإنا نقول: اللهم اهدِ الكفار، وزيِّن قلوبهم بنور الإيمان وأزِل عن خواطرهم وحشة الكُفْرِ، وهذا استغفار لهم في الحقيقة[2].

فصل

قال ابن الخطيب: قوله: «ويستغفرون لمن في الأرض» يدل على أنهم لا يستغفرون لأنفسهم ولو وجد منهم معصية لاستغفروا لأنفسهم قبل استغفارهم لمن في الأرض، فحيث لم يذكر الله عزَّ وجلَّ استغفارهم لأنفسهم علمنا أنهم مُبرَّأُون عن كل الذنوب والأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لهم ذنوب، والذين لا ذنب لهم ألبتة أفضل ممن له ذنب، وأيضاً فقوله: «ويستغفرون لمن في الأرض» يدل على أنهم يستغفرون للأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لأنهم من جملة مَنْ في الأرض، وإذا كانوا مستغفرين للأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ كان الظاهر أنهم أفضل منهم. ثم قال تعالى: «ألاَ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ» وهذا تنبيه على أن الملائكة وإن كانوا يستغفرون للبشر، إلا أن المغفرة المُطْلَقة لله تعالى وهذا يدل على أنه تعالى يعطي المغفرة التي طلبوها ويضم إليها الرحمة[3].

قوله: «والَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ» أي جعلوا له شركاء وأنداداً الله حفيظٌ عليهم أي رقيب عليهم ويحفظ أعمالهم، وأقوالهم ويُحصيها ليجازيهم بها، «وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِم» يا محمد «بِوَكِيل» أي لم يوكلك بهم ولا أمرهم إليك إنَّما أنت مُنذرٌ[4].

قوله تعالى: «وَكذلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبيًّا» في قرآناً وجهان:

أظهرهما: أنه مفعول أوحَيْنا[5]، والكاف للمصدر نعتاً أو حالاً.

---

(١) زيادة من ب.
(٢) وانظر في هذا كله تفسير الرازي ٢٧/ ١٤٥.
(٣) بالمعنى من الفخر الرازي ٢٧/ ١٤٥ و ١٤٦.
(٤) السابق.
(٥) قاله أبو حيان في البحر ٧/ ٥٠٩ والسمين في الدر ٤/ ٧٤٤.

الثاني: أنه حال من الكاف، والكاف هي المفعول «لأَوْحَيْنَا» أي أوحينا مثل ذلك الإيحاء، وهو قرآن عربي وإليه نحا الزمخشري[١]. وكون الكاف اسماً في النثر[٢] مذهب الأخفش[٣].

فصل

قال ابن الخطيب: قوله وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً يقتضي تشبيه وحي الله بالقرآن بشيء سبق ذكره، وليس ههنا شيء سبق ذكره يمكن تشبيه وحي القرآن به إلا قوله: «والَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاء اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ» يعني كما أوحينا إليك أنك لست حفيظاً عليهم ولست وكيلاً عليهم وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً ليكون نذيراً لهم[٤].

قوله: «وَلتنذرَ أُمَّ القُرَى» أي أهلَ[٥] أُمّ القرى؛ لأن البلد لا تعقِلُ[٦].

قوله: «وَمَنْ حَوْلَها» عطف على أهل المقدر قبل أم القرى والمفعول الثاني محذوف أي العذاب[٧].

وقرىء: ليُنذر ـ بالياء من تحت ـ أي القرآن[٨]، وأم القرى أصل القرى بمعنى مكة، وسمي بهذا الاسم إجلالاً؛ لأن فيها البيت ومقامَ إبراهيم. والعرب تسمي أصل كلِّ شيء أمةً، حتى يقال: هذه القصيدة من أُمّهاتِ قصائد فلانٍ ومعنى «مَنْ حَوْلَها» أي قرى الأرض كلها من أهل البدو والحضر وأهل المَدَر والوَبَر. والإنذار: التخويف[٩].

قوله: «وَتُنْذِرَ يَوْمَ الجَمْعِ» أي تنذرهم بيوم الجمع، وهو يوم القيامة، جمع الله فيه الأولين والآخرين وأهل السموات والأرض. وقيل: المراد تجمع الأرواح بالأجساد. وقيل: يجمع بين العامل وعمله وقيل: يجمع بين الظالم والمظلوم[١٠].

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٦١. (٢) في ب البين تحريفٌ ولحنٌ.

(٣) والفارسيّ وجماعة، وهذه الكاف الاسمية لا تقع كذلك عند سيبويه والمحققين إلا في الضرورة كقوله:

بيض ثلاث كنعاج جمٍّ يضحكن عن كالبرد المُنْهَمِّ

أما الأخفش والفارسي وجماعة فجوزوا ذلك في الاختيار. بتصرف من المغني ١٨٠.

(٤) الفخر الرازي ٢٧/ ١٤٧.

(٥) فهو مجاز عقلي كقوله تعالى: ﴿واسأل القرية﴾ وكذلك ههنا.

(٦) في ب لا يعقل بتذكير عائد على البلد وهما جائزان.

(٧) بالمعنى من كشاف الزمخشري ٣/ ٤٦١.

(٨) السابق ولم ينسبها الزمخشري إلى من قرأ بها. وانظر أيضاً الدر المصون ٤/ ٧٤٤.

(٩) نقله الرازي في تفسيره ٢٧/ ١٤٧.

(١٠) قال بالأوَّل البغويُّ ٦/ ١١٧ وبالأقوال مجتمعةً الرَّازي المرجع السابق.

قوله: «لاَ رَيْبَ فِيهِ» إخبارٌ فهو مستأنف، ويجوز أن يكون حالاً من «يَوْمِ الجَمْعِ» وجعله الزَّمخشري اعتراضاً[(١)] وهو غير ظاهر صناعة إذ لم يقع بين مُتلازمين[(٢)].

قوله: «فَرِيقٌ» العامة على رفعه بأحد وجهين:

إِمَّا الابتداء، وخبره الجار بعده، وساغ هذا في النكرة، لأنه مقام تفصيل كقوله:

٤٣٧١ ـ .... فَثَوْبٌ نَسِيتُ وثَوْبٌ أَجُرُّ[(٣)]

ويجوز أن يكون الخبر مقدراً تقديره منهم فريق[(٤)]. وساغ الابتداء[(٥)] بالنكرة لشيئين: تقديم خبرها جار ومجروراً ووصفها بالجار بعدها، والثاني: أنه خبر ابتداء مضمر أي هم أي المجموعون، دَلَّ على ذلك يوم الجمع.

وقرأ زيدُ بن عليٍّ: فريقاً وفريقاً، نصباً[(٦)] على الحال من جملة محذوفة أي افترَقُوا أي المجموعون.

وقال مكي: وأجاز الكسائي والفراءُ[(٧)] النصب في الكلام في «فريقاً» على معنى: تُنذر فريقاً في الجنة وفريقاً في السعير يوم الجمع[(٨)] وكأنه لم يطلع على أنها قراءة[(٨)]. وظاهر نقله عن هذين الإمامين أنهما لم يطلعا (عليها)[(٩)] وجعل «فريقاً» مفعولاً أول لتنذر، «ويوم الجمع» مفعولاً ثانياً. وفي ظاهره إشكالٌ وهو أنَّ الإنذار لا يقع للفريقين وهما في الجنة وفي السعير إنما يكون الإنذار قبل استقرارهما فيهما. ويمكن أن يُجَابَ عنه بأن المراد مَنْ هو من أهل الجنة ومن أهل السعير، وإن لم يكن حاصلاً فيهما وقت

---

(١) قال في الكشاف: اعتراض لا محل له. الكشاف ٣/ ٤٦١.

(٢) كالمبتدأ والخبر والفعل وفاعله والفعل ومفعوليه أو مفعوله الخ.

(٣) عجز بيت من المتقارب لامرىء القيس صدره:

فَلَمَّا دنوتُ تَسَدَّيْتُها ....

ويروى: فأقبلتُ زحفاً على الركبتين، كما يروى: «لبست» بدل «نسيت» رواية المؤلف والبيت في معنى الفُحش الجاهلي. والشاهد: فثوبٌ نسيت.. الخ، حيث ابتدأ الشاعر بنكرة وجاز لمسوغ من المسوغات وهو وجود التفصيل. وانظر الديوان ١٥٩، والمغني ٤٧٢، وشرح الرضي على الكافية ١/ ٩٢ والكتاب ١/ ٨٦، والمحتسب ٢/ ١٢٤، والخزانة ١/ ٣٧٣، ٣٧٥، وابن عقيل ٣٤، وأمالي الشجري ١/ ٩٣ كما ورد بالمغني أيضاً ٦٣٣.

(٤) في ب فريق منهم عكساً وهو خطأ بالطبع فلا مسوِّغ حينئذ وانظر في هذا التقدير الأعلى أبا البقاء في التبيان ١١٣٠ والزمخشري ٢/ ٤٦١.

(٥) في ب الأخذ بدل الابتداء.

(٦) ذكرها أبو حيان في البحر ٧/ ٥٠٩.

(٧) قال في معاني القرآن له قوله: فريقٌ في الجنة وفريق في السعير رفع بالاستئناف كقولك: رأيت الناس شقيٌّ وسعيدٌ، ولو كان فريقاً في الجنة وفريقاً في السعير كان صواباً والرفع أجود في العربية. معاني الفراء ٣/ ٢٢.

(٨) انظر مشكل الإعراب لمكي ٢/ ٦»٢٧.

(٩) سقط من ب.

الإنذار، و «فِي الجَنَّةِ» صفة «فَرِيقاً» أو متعلق بذلك المحذوف[١].

فإن قيل: يوم الجمع يقتضي كون القوم مجتمعين، والجمع بين الصنفين محال!.

فالجواب: أنهم يجتمعون[٢] أولاً ثم يصيرون فريقين.

قوله تعالى: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً» قال ابن عباس (ـ رضي اللَّهُ عَنهُمَا ـ)[٣] على دينٍ واحدٍ وقال مقاتل: على ملة الإسلام، كقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥] «وَلَـٰكِن يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رحمته» أي في دين الإسلام «والظَّالِمُونَ» الكافرون «مَا لَهُمْ من وَلِيٍّ» يرفع عنهم العذاب «وَلاَ نَصِير» يمنعهم من النار[٤] وهذا تقرير لقوله تعالى: «حَفِيظٌ عَلَيهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ» أي أنت لا تقدر أن تحملهم على الإيمان فلو شاء الله لفعله؛ لأنه أقدر منك، ولكنه جعل البعض مؤمناً والبعض كافراً[٥].

قوله تعالى: «أَم اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ» أم هذه (هي)[٦] أم المنقطعة فتقدر ببل التي للانتقال وبهمزة الإنكار[٧]، أو بالهمزة فقط[٨]. واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم أولاً أنهم اتخذوا من دونه أولياء ثم قال بعده لمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ: لَسْتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ أي لا يجب عليك أن تحملهم على الإيمان فإن الله لو شاء لفعله أعاد ذلك الكلام على سبيل الاستنكار. ثم قال: «فَاللَّهُ هُوَ الوَلِيُّ»، قال ابن عباس ـ (رضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا)[٩]: وليك يا محمد، وولي من اتبعك، والفاء جواب شرط مقدر[١٠] كأنه قال: إنْ أَرَادُوا أولياء بحق فاللَّهُ هو الوليّ، لاَ وليَّ سواه؛ لأنه يحيي الموتى «وهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» فهو الحقيق بأن يتخذ ولياً دون من لا يقدر على شيء قاله الزمخشري[١١]. وقيل: الفاء عاطفة ما بعدها على ما قبلها.

قوله تعالى: «وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ» وجه النظم أنه تعالى كما منع[١٢] الرسول ـ ﷺ ـ أن يحمل الكفار على الإيمان قهراً فكذلك منع[١٣] المؤمنين أن يشرعوا معهم في الخُصُوماتِ والمنازعات فقال: «وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ» (من شيء)[١٤] من أمر الدين فحكمه إلى الله يقضي فيه ويحكم يوم القيامة بالفصل الذي يُزيل الرِّيب، وقيل:

---

(١) انظر الدر ٤/ ٧٤٥.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٦١.

(٣) زيادة من أ.

(٤) وانظر هذه الآراء في البغوي والخازن ٦/ ١١٧.

(٥) الرازي ٢٧/ ١٤٨.

(٦) زيادة لتوضيح السياق.

(٧) قال بالوجهين أبو حيان في البحر ٧/ ٥٠٩.

(٨) الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٦١.

(٩) زيادة من أ.

(١٠) وهي ما تسمى بفاء الفصيحة.

(١١) بتوضيح وتفصيل لكلامه في الكشاف ٣/ ٤٦١.

(١٢)و (١٣) في ب يمنع وهو مخالف لما في الرازي ففيه منع.

(١٤) سقط من ب.

وما اختلفتُم فيه من شيء وتنازعتم فتحاكموا فيه إلى رسول الله ـ ﷺ ـ ولا تُؤثروا حكومة غيره على حكومته[١].

وقيل: ما وقع بينكم فيه خلاف من الأمور التي لا يصل تكليفكم ولا طريق لكم إلى علمه، فقولوا الله أعلم كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥].

قوله: «فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ» إما أن يكون المراد فحكمه مستفاد من نص الله عليه، أو المراد فحكمه مستفاد من القياس على ما نص الله عليه، والثاني باطل، لأنه يقتضي كون كل الأحكام مثبتة بالقياس وأنه باطل فتعين الأول، فوجب كون كل الأحكام مثبتة بالمعنى، وذلك ينفي العمل بالقياس.

فإن قيل: لا يجوز أن يكون المراد فحكمه معروف من بيان الله تعالى سواء كان ذلك البيان بالنص أو القياس؟.

فالجواب: أن المقصود من التحاكم إلى الله قطع الاختلاف والرجوع إلى القياس يقوي حكم الاختلاف ولا يوضحه فوجب أن يكون الواجب هو الرجوع إلى نص الله تعالى.

قوله: «ذَٰلِكُمُ اللَّهُ» أي الذي يحكم بين المختلفين «رَبِّي عليه تَوَكَّلْتُ» في رفع كيد الأعداء وفي طلب كُل خير «وَإِلَيْهِ أُنِيبُ» أي أرجع إليه في كل المهمات، وهذا يفيد الحصر أي لا أتوكل إلا عليه[٢].

قوله تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًاۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: «فَاطِرُ السَّمٰواتِ والأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفسكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يذرأكم فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ».

---

(١) قاله أبو حيان والرازي في مرجعيهما السابقين. (٢) ذكر كل هذا الإمام الفخر الرازي ١٤٩/٢٧.

قوله تعالى: «فاطر» العامة على رفعه خبراً «لذلكم»، أو نعتاً «لربي» على محض إضافته و «عليه توكلت» معترض على هذا، أو مبتدأ وخبره «جعل لكم» أو خبر مبتدأ مضمر أي هو[١].

وقرأ زيد بن علي «فاطِرِ» بالجر[٢]، نعتاً للجلالة في قوله: «إِلَى اللَّهِ» وما بينهما اعتراض أو بدل من الهاء في «عَلَيْهِ» أو «إِلَيْهِ»[٣].

وقال مكيٌّ: وأجاز الكسائي النصب على البدلِ[٤]، وقال غيره: على المدح ويجوز في الكلام الخفض على البدل من[٥] الهاء كأنه لم يطلع على أنها قراءة زيد بن علي.

قوله: «جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجاً» قيل معناه: جعل لكم من أنفسكم أزواجاً أي مثل خلقكم[٦]، وأزواجاً أي حلائل، وقيل معنى من أنفسكم أي خلق حوّاء من ضِلع آدم، «ومن الأنعام أزواجاً» أي أصنافاً ذكوراً وإناثاً[٧].

قوله: «يَذْرَأُكُمْ فيه» أي يكثركم. وقوله: «فيه» يجوز أن تكون «في» عَلَى بَابها، والمعنى يكثركم في هذا التدبير، وهو أن يجعل الناس والأنعام أزواجاً حتى كان بين ذكورهم وإناثهم التوالد. والضمير في «يذرأكم» للمخاطبين والأنعام، إلا أنه غلب فيه العقلاء من وجهين:

أحدهما: أنه غلب فيه جانب العقلاء على غير العقلاء.

الثاني: أنه غلب جانب المخاطبين على الغائبين[٨].

قال الزمخشري: وهي من الأحكام ذات العلّتين[٩]. قال أبو حيان: وهو اصطلاح غريب[١٠] يعني أن الخطاب يغلب على الغيبة إذا اجتمعا. ثم قال الزمخشري: فإن قلت: ما معنى يذرأكم في هذا التدبير وهلا قيل: يذرأكم به؟ قلت: جعل هذا التدبير كالمنبع والمعدن للبث والتكثير، ألا تراك تقول للحيوان في خلق الأزواج تكثير، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]. وقيل: إنها للسببيّة كالباء أي

---

(١) قال بهذه الأوجه ابن الأنباري في البيان ٢/ ٣٤٥ والسمين في الدر ٤/ ٧٤٦ وانظر الكشاف ٣/ ٤٦٢ والبحر المحيط ٧/ ٥٠٩ والتبيان ١١٣١.

(٢) ذكرها أبو حيان في البحر ٧/ ٥٠٩ كما ذكرها صاحب شواذ القرآن ٢١٥ والكشاف ٣/ ٤٦٢ والقرطبي ١٦/ ٧، ومشكل الإعراب ٢/ ٢٧٦.

(٣) التبيان والسمين المرجعين السابقين. (٤) مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٢٧٦.

(٥) السابق، وقد نقل القرطبي الرأيين النصب والجر. انظر الجامع ١٦/ ٧. وقد قال السمين: وأما النصب فلم أحفظ له قراءة انظر الدر المصون ٤/ ٧٤٦.

(٦) قاله البغوي في معالم التنزيل ٦/ ١١٨. (٧) الرازي ٢٧/ ١٤٩.

(٨) السابق. (٩) الكشاف ٣/ ٤٦٢.

(١٠) البحر المحيط ٧/ ٥١٠.

يكثركم بسببه[(١)]، والضمير يعود على الجعل أو للمخلوق[(٢)].

وقيل: يذرأكم فيه أي يخلقكم في الرحم. وقيل: في البطن.

قوله: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» في هذه الآية أوجه:

أشهرها: أن الكاف زائدة في خبر ليس، و «شيء» اسمها، والتقدير: ليس شيءٌ مثله. قالوا: ولولا ادعاء زيادتها للزم أن يكون له مثل، وهو محال؛ إذ يصير التقدير على أصالة الكاف: ليس (مِثْلَ)[(٣)] مثله شيء فنفى المماثلة عن مثله، فثبت أن له مثلاً لا مثل لذلك المثل، وهذا محال تعالى الله عن ذلك[(٤)].

وقال أبو البقاء: لو لم تكن زائدة، لأفضى ذلك إلى المحال؛ إذ كان (يكون)[(٥)] المعنى أن له مثلاً وليس لمثله مثل، وفي ذلك تناقض؛ لأنه إذا كان له مثل فلمثله مثل وهو هو، مع أن إثبات المثل لله تعالى محال[(٦)]. وهذه طريقة حسنة في تقرير زيادة الكاف، وفيها حسن صناعةٍ[(٧)].

الثاني: أن «مثل» هي[(٨)] الزائدة كزيادتها في قوله تعالى: ﴿بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٣٧] قال الطبريُّ: كما زيدت الكاف في قوله:

٤٣٧٢ ـ وَصَالِيَاتٍ كَكَمَا يُؤَثْفِينْ[(٩)]

---

(١) قال الفراء: معني فيه أي به.

(٢) نقله أبو حيان عن ابن عطية في البحر المحيط ٧/ ٥١٠.

(٣) سقطت كلمة مثل من ب.

(٤) ممن قال بزيادتها أبو إسحاق الزجاج في: معاني القرآن وإعرابه ٤/ ٣٩٥، وابن قتيبة في: تأويل مشكل القرآن ١٩٥ بينما صرح في غريب القرآن بالأصالة ٣٩١، والقرطبي في الجامع ١٦/ ٨، وأبو البقاء في التبيان ١١٣١، وأحد قولين قال بهما ابن الأنباري في البيان ٢/ ٣٤٥.

(٥) سقط من ب.

(٦) التبيان له ١١٣١.

(٧) أخذ المؤلف هذه العبارة من كلام السمين قال: وهي طريقة غريبة في تقرير الزيادة وهي طريقة حسنة الصناعة الدر المصون ٤/ ٧٤٧.

(٨) قال بذلك القرطبيُّ: في الجامع ١٦/ ٨، والتبيان: ١٣٣١، والطبريّ في: جامع البيان ٢٥/ ٩ والزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٦٣.

(٩) البيت من مشطور السريع وهو لخطام بن نصر المُجاشعيّ ونسب إلى هميان بن قحافة وهو يصف منزلاً قد خلا أهله وبقيت فيه آثارهم ومنها صاليات وهي الأحجار التي يوضع عليها القِدْر. والشاهد: ككما، فإن الكاف الأولى زائدة، دخلت على الثانية التي بمعنى مثل فكأنه قال: كمثل ما يؤثفين كما استشهد بالبيت أيضاً على مجيء المضارع من الماضي المبدوء بهمزة قطع (أثفى) زائدة على الأصل كما في يؤكرم، وكما قال الشاعر:

فـإنَّـه أهـلٌ لأن يـؤكـرمـا

فالكثير: يكرما، ويُثفين، والنون نون التوكيد الخفيفة فالفعل فعل مضارع مبني على السكون لاتصال نون النسوة به كقولنا: الفاطماتُ يذاكرن، وسكنت النون للشعر. وانظر شرح شواهد الشافية ٥٩، =

وفي قوله:

٤٣٧٣ ـ فَصُيِّرُوا مِثْلَ كَعَصْفٍ مَأْكُول[١]

وهذا ليس بجيد، لأن زيادة الأسماء ليست[٢] بجائزة، وأيضاً يصير التقدير: ليس كهو شيء. ودخول الكاف على الضمائر لا يجوز إلا في شعر.

الثالث: أن العرب تقول: «مِثْلُكَ لاَ يَفْعَلُ كَذَا» يعنون المخاطب نفسه؛ لأنهم يريدون المبالغة في نفي الوصف عن المخاطب فينفونها في اللفظ عن مثله، فثبت انتفاؤها عنه[٣] بدليلها ومنه قول الشاعر ـ (رحمة الله عليه)[٤] ـ:

٤٣٧٤ ـ عَلَى مِثْلِ لَيْلَى يَقْتُلُ المَرْءُ نَفْسَهُ وَإِنْ بَاتَ مِنْ لَيْلَى عَلَى النَّاسِ طَاوِيَا[٥]

وقال أوس بن حجر:

٤٣٧٥ ـ ولَيْسَ كَمِثْلِ الفَتَى زُهَيْر خَلْقٌ يُوَازِيهِ فِي الفَضَائِلِ[٦]

وقال آخر:

٤٣٧٦ ـ وَقَتْلَى كَمِثْلِ جُذُوعِ النَّخِيلِ تَغَشَّاهُمُ مُسْبِلٌ مُنْهَمِرْ[٧]

= والمحتسب ١/١٨٦، وسرّ الصناعة ١/٣٠٠ والمقتضب ٢/٩٥ و ٤/١٤٠ و ٣٥٠، والكتاب ١/٣٢ و ٤٨ و ٤/٢٧٩، والاقتضاب ٣/٣٣٥ والخصائص ٢/٣١٨، والرضي على الكافية ١/٣٣١، ٣٣٢ والمغني ١٨١ والدر المصون ٤/٧٤٧ والكشاف ٣/٤٦٣ والقرطبي ١٦/٨ وجامع البيان للطبري ٢٥/ ٩ وبقية هذا الشعر:

لم يبق من آيٍ بها يحلّين غيرُ رمادٍ وخطامِ كنفين
وغير ودٍّ جازل أو ودين ....

(١) من الرجز، ونسب في الكتاب لحميد الأرقط، ونسب إلى رؤبة أيضاً وهو في زيادات ديوانه ١٨١ وهو يصف قوماً هلكوا ثم شبههم بالعصف، وشاهده كسابقه من زيادة الكاف وزيادة الكاف للتأكيد تأكيد التشبيه وقبله:

ولعبت طيرٌ بهم أبابيل

وانظر الكشاف ٣/٤٦٣، والمغني ١٨٠، والكتاب ١/٤٠٨ وانظر الدر المصون ٤/٧٤٧ والمقتضب ٤/١٤١، ٣٥٠ وسرّ الصناعة ١/٢٩٦.

(٢) حتى قال ابن هشام في المغني ١٨٠ بل زيادة الاسم لم تثبت.

(٣) وانظر البيان ٢/٣٤٥ وغريب القرآن لابن قتيبة ٣٩١.

(٤) زيادة من أ.

(٥) البيت من بحر الطويل ولم أعرف قائله. وشاهده: إقامة المِثْلِ مكان الذات مبالغة وانظر البيت في الدر المصون ٤/٧٤٨ وفتح القدير للشوكاني ٤/٥٢٨.

(٦) من مخلع البسيط ونسبه أبو حيان ومن بعد السمين إلى أوس وليس في ديوانه ومعناه واضح. وشاهده كسابقه من حيث انتفاء الشيء أو إثباته عن المثل ويقصد بها المخاطب فإذا انتفى أو ثبت الشيء عن المثل فالمخاطب ثبتت أو تنتفي له وعنه الأشياء وانظر البحر المحيط ٧/٥١٠ والدر المصون ٤/٧٤٨.

(٧) أتى به المؤلف شاهدا كسابقيه وإن كان المعنى بعيداً فدخول الكاف الزائدة تأكيداً على «مثل» يجعلنا=

وقال آخر:

٤٣٧٧ ـ سَعْدُ بْنُ زَيْدٍ إِذَا أَبْصَرْتَ فَضْلَهُمُ فَمَا كَمِثْلِهِم في النَّاسِ مِنْ أَحَدِ[١]

قال ابن قتيبة: العرب تُقِيمُ المِثْلَ مُقَامَ النَّفْس فتقول: «مِثْلِي لاَ يُقَالُ لَهُ هَذَا» أي أنا لا يقال لي[٢]. قيل: ونسبة المثل إلى من لا مثل له قولك: فلانٌ يده مبسوطةٌ، يريد: أنه جواد، ولا نظير له في الحقيقة إلى اليد حتى تقول ذلك لمن لا يد له كقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤].

الرابع: أن يراد بالمثل الصفة، وذلك أن المثل بمعنى المثل، والمثل الصفة كقوله ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ﴾ [محمد: ١٥]، فيكون المعنى ليس مثل صفته تعالى شيء من التي لغيره (وهو مَحْمِلٌ سَهْلٌ)[٣].

فصل

قال ابن عباس ـ (رضي الله عنهما)[٤] ـ معناه ليس له نظير[٥] «وهو السميع البصير» أي سامعاً للمسموعات بصيراً للمرئيات[٦].

فإن قيل: قوله: «وهو السميع البصير» يفيد الحصر، فما معنى هذا الحصر مع أن العباد أيضاً موصوفون بكونهم سميعين بصيرين؟!

فالجواب: «السميع البصير» لفظان مشعران بحصول هاتين الصفتين على سبيل الكمال والكمال في كل الصفات ليس إلا لله، فهذا هو المراد من هذا الحصر[٧].

قوله تعالى: ﴿له مقاليد السموات والأرض﴾ أي مفاتيح الرزق في السموات والأرض، قال المفسرون: مفاتيح السموات: الأمطار. ومقاليد الأرض: النبات[٨] وتقدم الكلام على المقاليد في الزمر. «يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ» لأن مفاتيح الأرزاق بيده «إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ» من البسط والتقدير «عَلِيمٌ».

= نقر بأن ذلك شاهد أرجح ونسب هذا البيت في الطبري إلى أوس بن حجر من المتقارب، وانظر ديوانه ٣٠ والبحر المحيط ٧/ ٥١٠ والدر المصون ٤/٧٤٨، والطبري ٢٥/ ٩، ومجمع البيان للطبرسي ٩/ ٣٦ وفتح القدير ٤/ ٥٢٨ والجُذْوعُ ساق النخيل، والمُسبل: المطر، والسيل المطر النازل من السماء قبل أن ينزل الأرض.

(١) من البسيط ولم أعرف قائله، وشاهده: كمثلهم، حيث تسلط النفي على معنى نفي مماثلة غيرهم لهم، فقد أقيم المثل مقام الذات مبالغة كما قال بذلك ابن قتيبة في غريب القرآن، وانظر البحر ٧/ ٥١٠ والدر المصون ٤/٧٤٨، وفتح القدير ٤/٥٢٨، والطبري ٢٥/ ٩ ومجمع البيان ٩/ ٣٧.

(٢) غريب القرآن ٣٩١.

(٣) زيادة من البحر ٧/ ٥١٠.

(٤) زيادة من أ.

(٥) قاله البغوي ٦/ ١١٨.

(٦) الرازي ٢٧/ ١٥٣.

(٧) نقله الرازي وهو رأيه انظر السابق.

(٨) البغوي المرجع السابق.

قوله تعالى: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّين...» الآية لمَّا عظم وحيه إلى محمد ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ بقوله: «كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم» ذكر في هذه الآية تفصيل ذلك فقال: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً» أي بين لكم من الدين يا أصحاب محمد ما وصى به نوحاً وهو أول أنبياء الشريعة. قال مجاهد[١]: أوصيناك وإياه يا محمد ديناً واحداً «والَّذِي أَوْحَيْنَا إلَيْكَ» من القرآن وشرائع الإسلام «ما وَصَّيْنَا بِهِ إبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى» إنما خص هؤلاء الأنبياء الخمسة بالذكر لأنهم كانوا أكابر الأنبياء وأصحاب الشرائع العظيمة والأتباع الكثيرة[٢].

واختلفوا في الموصى به، فقال قتادة: تحليل الحلال وتحريم الحرام، وقال الحكم: تحريم الأمهات والبنات والأخوات. وقال مجاهد: لم يبعث الله تعالى نبياً إلا وهداه بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والإقرار لله بالطاعة، فذلك دينه الذي شرع لهم. وقيل: هو التوحيد والبراءة من الشرك. وقيل: هو ما ذكر من بعد في قوله: «أنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ» بعث الأنبياء كلهم بإقامة الدين والألفة والجماعة وترك الفرقة والمخالفة[٣].

فصل

قال ابن الخطيب: في لفظ الآية إشكالات:

أحدها: قال في أول الآية: «مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً» وفي آخرها «وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إبْرَاهِيمَ» وفي وسطها «والَّذِي أَوْحَيْنَا إلَيْكَ» فما فائدة هذا التفاوت؟

وثانيها: ذكر نوحاً على سبيل الغيبة فقال: «مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً» وقال «وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إبْرَاهِيمَ».

وثالثها: تقدير الآية شرع لكم من الدين الذي أوحينا إليك. وهذا يقتضي الجمع بين خطاب الغيبة وخطاب الحضور في الكلام الواحد بالاعتبار الواحد، وهو مشكل، وهذه مضايق يجب البحث عنها والقوم ما داروا حولها بالجملة[٤].

واعلم أن المقصود من الآية أن يقال: شرع لكم من الدين ديناً تطابقت الأنبياء على صحته، فيجب أن يكون المراد من هذا الدين شيئاً مغايراً للتكاليف والأحكام؛ لأنها مختلفة متفاوتة، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ [المائدة: ٤٨] فوجب أن يكون المراد منه (الأمور)[٥] التي لا تختلف باختلاف الشرائع، وهو الإيمان بالله، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، (وأصول الدين)[٦].

---

(١) البغوي السابق.

(٢) الرازي السابق ٢٧/ ١٥٤.

(٣) انظر البغوي السابق والقرطبي ١٦/ ١٠.

(٤) في الرازي وبالجملة فالمقصود من الآية.. الخ.

(٥) سقط من ب.

(٦) زيادة عن الرازي وانظر تفسيره ٢٧/ ١٥٦.

فصل

استدل بعضهم بقوله: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وصى به نوحاً» على أن النبي ـ ﷺ ـ كان في أول الأمر متعبداً(١) بشريعة نوح ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ، وأجيب: بأنه عطف عليه سائر الأنبياء، فدل ذلك على أن المراد هو الأخذ بالشريعة المتفق عليها بين الكل(٢).

قوله: «أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ» يجوز فيها أوجه:

أحدها: أن تكون مصدرية في محل رفع على خبر مبتدأ مضمر، كأنه قيل: وما ذلك المشروع؟ فقيل: هو إقامة الدين المشروع توحيد الله(٣).

الثاني: أنها في محل نصب بدلاً من الموصول، كأنه قيل: شرع لكم ما وصَّى به نوحاً توحيد الله(٤).

الثالث: أنها في محل جر بدلاً من الدين(٥).

الرابع: أنها في محل جر أيضاً. بدلاً من الهاء(٦).

الخامس: أن تكون مفسِّرة(٧)؛ لأنه قد تقدمها ما هو بمعنى القول.

قوله: «كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ» من التوحيد، ورفض الأوثان.

قوله: «اللَّهُ يَجْتَبِي» أي يصطفي «إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ» يهدي إليه من يشاء يصطفي لدينه من عباده من يشاء «وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ» يقبل إلى طاعته. والاجتباء يدل على الضم ومنه: جبى الخرَاجَ واجْتَبَى(٨) الماء في الحوض فقوله: «الله يجتبي» أي يضم إليه ويقربه منه تقريب الإكرام والرحمة(٩).

فصل

احتج نفاة القياس بهذه الآية، فقالوا: إنه تعالى أخبر بأن أكابر الأنبياء أطبقوا على أنه يجب إقامة الدين بحيث لا يفضي إلى الاختلاف والنزاع، والله تعالى ذكر في معرض المنَّة على عباده أنه أرشدهم إلى الدين الخالي عن التفرق والمخالفة، ومعلوم أن فتح باب القياس يُفْضِي إلى أعظم أنواع التفرق والمنازعة فإن الحسَّ شاهد بأن هؤلاء الذين

---

(١) في الرازي مبعوثاً.
(٢) المرجع السابق.
(٣) الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٦٤.
(٤) قاله ابن الأنباري في البيان ٢/ ٣٤٦.
(٥) الدر المصون ٤/ ٧٤٩.
(٦) قاله العكبري في التبيان ١١٣٢.
(٧) السابق.
(٨) في ب واجتباء بلفظ الاسمية وانظر الرازي ٢٧/ ١٥٧ ولسان العرب (جبى) قال: جبى الماء والحوض والخِراج يجباه ويجبيه جمعهُ وجَبَى يَجْبَى مما جاء نادراً مثل أَبَى يأبَى اللسان جبى ٥٤١.
(٩) قاله الرازي في تفسيره ٢٧/ ١٥٧.

بنوا دينهم على القياس تفرقوا تفرقاً لا رجاء في حصول الاتفاق بينهم إلى قيام القيامة، فوجب أن يكون ذلك محرماً[(١)].

فصل

اعلم أنه تعالى لما بين أنه أمر كل الأنبياء والأمم بالأخذ بالدين المتفق عليه كان لقائل أن يقول: فلماذا نجدهم متفرقين؟ فأجاب بقوله: «وَمَا تَفَرَّقُوا إلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ جَاءَهُم العِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ» يعني أنهم ما تفرقوا إلا من بعد أن علموا أن الفرقة ضلالة، ولكنهم فعلوا ذلك للبغي وطلب الرياسة، فحملتهم الحميَّة النَّفسانية الطبيعية[(٢)]، على أن ذهبت[(٣)] كل طائفة إلى مذهب، ودعوا الناس إليه، وقبحوا ما سواه طالباً للذكر والرياسة فصار ذلك سبباً لوقوع الاختلاف.

ثم أخبر تعالى أنهم استحقوا العذاب بسبب هذا الفعل، إلا أنَّه تعالى أخَّر عنهم ذلك العذاب لأن لكل عذاب عنده أجلاً مسمًّى، أي وقتاً معلوماً وهذا معنى قوله: «وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ ربِّكَ إلى أجلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ». والأجل المسمَّى قد يكون في الدنيا، وقد يكون في الآخرة، واختلفوا في الذين أريدوا بهذه الصفة، فقال ابن عباس والأكثرون: هم اليهود والنصارى[(٤)]، لقوله تعالى في آل عمران: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩].

وقوله في سورة «لم يكن»: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤]. وقيل: هم العرب[(٥)]، وهذا باطل، لما تقدم، لأن قوله تعالى بعد هذه الآية: «وإنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ»[(٦)] أي من بعد أنبيائهم. وقيل: من بعد الأمم الخالية «لَفِي شَكٍّ مِنْهُ» أي من كتابهم. وقيل من محمد ـ ﷺ[(٧)] ـ و «مُرِيبٍ» صفة الشك، أي لا يؤمنون به حق الإيمان.

قوله: «أُورِثُوا» قرأ زيد بن علي: وُرِّثُوا ـ بالتشديد ـ مبنياً للمفعول[(٨)].

قوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ في اللام وجهان:

أحدهما: أن تكون بمعنى «إلى» أي فإلى ذلك الدين فادع واستقم[(٩)]، وهو الاتفاق

---

(١) السابق. (٢) كذا في ب وفي الرازي: الحمية النفسانية والأنفة الطبيعية.

(٣) في ب والرازي ذهب وانظر الرازي السابق.

(٤) ذكره الرازي في تفسيره ٢٧/١٥٨ والقرطبي في الجامع ١٦/١٢.

(٥) ولم يحدد الرازي من قال بهذا. انظر الرازي السابق.

(٦) المراد بهم أهل الكتاب الذين كانوا في عهد رسول الله ـ ﷺ ـ وانظر الرازي السابق.

(٧) البغوي ٦/١١٩.

(٨) من الشواذ غير المتواترات البحر المحيط ٧/٥١٣ والسمين في الدر ٤/٧٤٩.

(٩) قاله الفراء في المعاني ٣/٢٢.

على الملة الحنيفية، «واسْتَقِمْ» عليها (أي اثبت على الدين[١] الذي أَمَرَكَ به) كما أمرك الله «وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ» المختلفة الباطلة.

والثاني: أنها للعلة[٢]، أي لأجل التفرق والاختلاف ادع للدين القيم «وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتاب» أي بأيِّ كتابٍ صحَّ أن الله أنزله يعني الإيمان بجميع الكتب المنزلة.

قوله: «وأمِرْتُ لأَعْدِلَ» يجوز أن يكون التقدير: وأمرت بذلك لأعدل بينكم في الحكم[٣]. وقيل: أمِرْتُ أنْ أَعْدِلَ[٤]، فاللام مزيدة. وفيه نظر لأنك بعد زيادة اللام تحتاج إلى تقدير حرف أي بأن أعدل[٥].

فصل

قال القفال: معناه أن ربي أمرني أن لا أفرق بين نفسي أو أنفسكم[٦] بأن آمركم[٧] بما لا أعمله أو أخالفكم إلى ما لا أنهاكم عنه، لكني أسوي بينكم وبين نفسي كذلك أسوي بين أكابركم[٨] وأصاغركم في الحكم. وقيل معناه: لا أضيف عليكم بأكثر مما افترض الله عليكم[٩] من الأحكام.

قوله: «اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ» يعني إلهنا واحد، وإن اختلفت أعمالنا، فكلٌّ يُجازَى بعمله، «لا حجَّة»، لا خصومة، «بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ». نسختها آية القتال، وإذا لم يؤمر بالقتال وأمر بالدعوة لم يكن بينه وبين من لا يجيب خصومة[١٠].

قال ابن الخطيب: ومعنى الآية أن إله الكل واحد، وكل واحد مخصوص بعمل نفسه، فوجب أن يشتغل كل واحد في الدنيا بنفسه فإن الله تعالى يجمع بين الكل يوم القيامة ويجازيه على عمله[١١].

فإن قيل: كيف يليق بهذه المتاركة[١٢] ما فعل بهم من القتل وتخريب البيوت وقطع النخيل والإجلاء؟! فالجواب: هذه المتاركة كانت مشروطة بشرط أن يقبلوا الدين المتفق

---

(١) سقط من ب.
(٢) في ب للعلم خطأ وقال بهذا الوجه أبو حيان في البحر ٧/٥١٣.
(٣) قال الأخفش في المعاني: أي أمرت كي أعدل. المعاني ٦٨٦ وانظر الدر المصون ٤/ ٧٥٠.
(٤) قاله القرطبي في الجامع ١٦/١٣ وقد نقل الأول أيضاً.
(٥) فيعاد إلى حرف الجر مرة أخرى.
(٦) في «أ» «ونفسك» والأصح من ب والرازي.
(٧) في أ أمرك والأصح من ب والرازي أيضاً.
(٨) وانظر الرازي ٢٧/١٥٨.
(٩) هو رأي ابن عباس. نقله البغوي في تفسيره ٦/١١٩.
(١٠) السابق.
(١١) الرازي المرجع السابق.
(١٢) كذا في أ والرازي وفي ب المشاركة غير مقصود.

على صحته بين كل الأنبياء ودخل فيه التوحيد، وترك عبادة الأصنام والإقرار بنبوة الأنبياء وبصحة البعث والقيامة فلمّا لم يقبلوا هذا الدين فات الشَّرط فيفوت المشروط.

واعلم أن قوله تعالى: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ يجري مجرى محاجَّتهم، بدليل أن هذا الكلام مذكور في معرض المحاجَّة، فلو كان المراد من هذه الآية تحريم المحاجة لزم كونها محرمةً لنفسها، وهو متناقض[١]. وأيضاً لولا الأدلة لما توجه التكليف، وأيضاً: أن الدليل يفيد العلم وذلك لا يمكن تحريمه بل المراد أن القوم عرفوا بالحجة صدق محمد ـ ﷺ ـ. وإنما تركوا تصديقه عناداً فبين تعالى أنه حصل الاستغناء عن محاجَّتهم؛ لأنهم عرفوا صدقه[٢]، ولا حاجة معهم إلى المحاجَّة ألبتة.

ومما يقوي عدم تحريم المحاجة قوله: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] وقوله: ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود: ٣١] وقوله: وَتِلْكَ حُجَّتُنَا (آتَيْنَاهَا)[٣] ﴿إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ

---

(١) انظر الرازي المرجع السابق. (٢) في ب فلا. (٣) سقط من أ.

وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾

قوله: «وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ» (مبتدأ، و «حجتهم»[1]) مبتدأ ثانٍ و (داحضة) خبر الثاني، والثاني وخبره خبر الأول[2]. وأعرب مكيٌّ: حجتهم بدلاً من الموصول بدل اشتمال[3]. والهاء في «لَهُ» تعود على الله تعالى، أو على الرسول ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ أي من بعد ما استجاب الناس لله أو من بعد ما استجاب الله لرسوله حين دعا على قومه[4]. وقال ابن الخطيب: يعود على «الدين» أي من بعد ما استجاب النَّاس لذلك الدين[5].

فصل

المعنى والذين يخاصمون في دين الله نبيَّه. وقال قتادة: هم اليهود، قالوا كتابنا قبل كتابكم ونبينا قبل نبيكم، فنحن خيرٌ منكم، فهذه خصومتهم من بعد ما استجاب له الناس، فأسلموا ودخلوا في دينه لظهور معجزته «حجتهم داحِضةٌ» خصومتهم باطلة «عِنْدَ رَبِّهِمْ»[6] قال ابن الخطيب: تلك المخاصمة هي أن اليهود قالوا: ألستم تقولون إن الأخذ بالمتفق عليه أولى بالأخذ من المختلف فيه فنبوة موسى ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ وحقيقة[7] التوراة معلومة بالاتفاق، ونبوة محمد ـ ﷺ ـ ليست متفقاً عليها فوجب الأخذ باليهودية، فبين تعالى فساد هذه الحجة، وذلك لأن اليهود أجمعوا على أنه إنما وجب الإيمان بموسى ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ لأجل ظهور المعجزات على قوله وهاهنا ظهرت[8] المعجزات على وفق قول محمد ـ ﷺ ـ، واليهود شاهدوا تلك المعجزات، فإن كان ظهور المعجزة يدل على الصدق فهاهنا يجب الاعتراف بنبوة محمد ـ ﷺ ـ وإن كان لا يدل على الصدق وجب في حق موسى أن لا يقروا بنبوته بظهور المعجزات؛ لأنه يكون متناقضاً[9]، ولما قرر (الله تعالى) هذه الدلائل خوف المنكرين بعذاب القيامة فقال: «وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ» في الآخرة.

قوله تعالى: «اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الكِتَابَ بالحَقِّ والمِيزَانَ» قال قتادة ومجاهد ومقاتل: سمي العدل ميزاناً؛ لأن الميزان آلة للإنصاف والتسوية. قال ابن عباس ـ (رضي الله عنهما)[10] ـ أمر الله تعالى بالوفاء ونهى عن البخس[11].

---

(١) ما بين القوسين سقط من أ بسبب انتقال النظر.
(٢) قال السمين في الدر ٤/ ٣٥٠.
(٣) قال: رفع على البدل من «الذين» وهو بدل الاشتمال و «داحضة» الخبر مشكل إعراب القرآن ٢/ ٢٧٦.
(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦/ ١٤.
(٥) الرازي ٢٧/ ١٥٩.
(٦) البغوي ٦/ ١١٩.
(٧) في تفسيره: وحقية.
(٨) في ب ظهر وما في أ موافق لما في الرازي.
(٩) انظر الرازي ٢٧/ ١٥٩.
(١٠) زيادة من أ.
(١١) في ب الفحش وما هُنا في أ موافق لما في البغوي ٦/ ١٢٠.

ومعنى الآية أنه تعالى أنزل الكتاب المشتمل على الدلائل والبيِّنات[١] وأنزل الميزان وهو الفصل الذي هو القسطاس المستقيم وأنهم لا يعلمون أن القيامة حق[٢] يفاجئهم، ومتى كان الأمر كذلك وجب على العاقل أن يجتهد[٣] في النظر والاستدلال، ويترك طريقة أهل الجهل والتقليد. ولما كان الرسول ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ يهددهم يوم القيامة ولم يروا لذلك أثراً قالوا على سبيل السخرية متى تقوم الساعة؟ وليتها قامت حتى يظهر لنا الحقّ أهو الذي نحن عليه أم الذي عليه محمد وأصحابه[٤]؟!.

قوله: «لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ» إنما ذكر «قريب» وإن كان صفة لمؤنث لأن الساعة في معنى الوقت أو البعث أو على معنى النَّسب أي ذات قُرْب[٥]، أو على حذف مضاف، أي مجيء الساعة[٦]. وقيل للفرق بينها وبين قرابة النسب[٧]. وقيل: لأن تأنيثها مجازي نقله مكي[٨]. وليس بشيء؛ إذ لا يجوز: الشمسُ طالعٌ، ولا القِدْرُ فائِرٌ، وجملة الترجي أو الإشفاق معلِّقة للدراية. وتقدم مثله آخر الأنبياء[٩].

فصل

قال مقاتل: ذكر النبي ـ ﷺ ـ الساعة وعنده قوم من المشركين فقالوا مستهزءين: متى تكون الساعة؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ ظناً منهم أنهم غير آتية «والَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ» خائفون «مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الحَقُّ» أي أنها آتية لا ريب فيها، ثم قال: «أَلاَ إنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ» يخاصمون. وقيل: يدخلهم المرية والشك[١٠] في «وُقُوع الساعة» لفي ضلالٍ بعيدٍ؛ لأن استيفاء[١١] حقِّ المظلوم من الظالم واجب في العدل فلو لم تحصل القيامة لزم إسناد الظلم إلى الله عز وجل، وهذا من أمحل المحالات، فلا جرم كان إنكار القيامة ضلالاً بعيداً.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِۦ﴾ قال ابن عباس ـ (رضي الله عنهما) ـ: حفيٌّ

---

(١) في ب البيانات جمع بيان وما في أ هنا موافق لما في الرازي بينات جمع بينة.
(٢) في الرازي: متى تفاجئهم. (٣) وفيه: أن يجدَّ ويجتهد.
(٤) وانظر الرازي ٢٧/ ١٥٩.
(٥) ذكر هذه الأوجه ابن الأنباري في البيان ٢/ ٣٤٦ ومكي في المشكل ٢/ ٢٧٧، وانظر التبيان ١١٣٢.
(٦) ذكره الزمخشري في كشافه ٣/ ٤٩٥ والسمين في الدر ٤/ ٧٥٠.
(٧) في النسختين قراءة النسب وهو تصحيف والأصح ما كتبته أعلى.
(٨) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٢٧٦ والبيان ٢/ ٣٤٦ وقد قال بالتأنيث المجازي الزجاج في معاني القرآن وإعرابه ٤/ ٣٩٦ والقرطبي في الجامع ١٦/ ١٥.
(٩) من قوله: ﴿وأن أدري لعلّه فتنةٌ لكم ومتاعٌ إلى حين﴾ [الأنبياء: ١١١]. وانظر اللباب ٦/ ٣٥٣ ب ميكروفيلم.
(١٠) انظر البغوي والخازن ٦/ ١٢٠.
(١١) هذا قول الرازي في تفسيره ٢٧/ ١٦٠.

بهم. وقال عكرمة: بارٌّ بهم. وقال السديّ: رفيق بهم. وقال مقاتل: لطيف بالبر والفاجر حيث لم يهلكهم جوعاً بمعاصيهم بدليل قوله: «يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ» وكل من رزقه الله من مؤمن وكافرٍ وذي روحٍ فهو ممَّن يشاءُ الله أن يرزقه.

قال جعفر الصادق: اللطيف في الرزق من وجهين:

أحدهما: أنه جعل رزقك من الطيبات.

الثاني: أنه لم يدفعه إليك مرة واحدة[١].

و «هو القوي» القادر على ما يشاء «العزيز» الذي لا يغالب.

فصل

إنما حسن ذكر هذا الكلام هاهنا؛ لأنه أنزل عليهم الكتاب المشتمل على هذه الدلائل اللطيفة، فكان ذلك من لطف الله (تعالى)[٢] بعباده، وأيضاً فالمتفرقون استوجبوا العذاب الشديد. ثم إنه تعالى أخر عنهم ذلك العذاب فكان ذلك أيضاً من لطف الله تعالى، فلما سبق ذكر إيصال أعظم المنافع إليهم (و)[٣] دفع أعظم المضارِّ عنهم لا جرم حسن ذكره هاهنا[٤].

قوله: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ في حَرْثِهِ...» الآية الحرث في اللغة الكسب، أي من كان يريد بعمله الآخرة نزد له في حرثه بالتضعيف بالواحد عشرة إلى ما شاء الله من الزيادة. قاله مقاتل[٥]. وقيل: معناه إنا نزيد في توفيقه وإعانته وتسهيل سبيل الخيرات والطاعات عليه[٦].

وقال الزمخشري: إنه تعالى سمَّى ما يعمله العامل مما يطلب به الفائدة حرثاً على سبيل المجاز[٧]. واعلم أنه قد تقدم أن كون الشرط ماضياً والجزاء مضارعاً مجزوماً لا يختص مجيئه بكان خلافاً لأبي الحكم[٨] مصنِّف كتاب الإعراب فإنه قال: لا يجوز ذلك إلا مع «كان» إلا في ضرورة شعر. وأطلق النحويون جواز ذلك وأنشدوا بيت الفرزدق:

---

(١) البغوي والخازن في تفسيريهما السابقين.
(٢) زيادة من أ.
(٣) زيادة من أ أيضاً. (٤) قاله الرازي في تفسيره ٢٧/ ١٦٠.
(٥) قاله البغوي في معالم التنزيل ٦/ ١٢٠. (٦) نقله الرازي في المرجع السابق.
(٧) نقل الكشاف ٣/ ٤٦٥ قال: سمي ما يعمله العامل مما ينبغي به الفائدة والزكاء حرثاً، على المجاز.
(٨) نقل المؤلف هذا عن السمين عن أبي حيان في البحر قوله: «ولا نعلم خلافاً في الجزم فإنه فصيح مختار إلا ما ذكره صاحب كتاب الإعراب وهو أبو الحكم بن عُذرة عن بعض النحويين أنه لا يجيء في الكلام الفصيح وإنما يجيء مع كان؛ لأنها أصل الأفعال ولا يجيء مع غيرها من الأفعال. انظر البحر ٧/ ٥١٤، والدر المصون ٤/ ٧٥١.

٤٣٧٨ ـ دَسَّتْ رَسُولاً بِأَنَّ القَوْمَ إنْ قَدَرُوا عَلَيْكَ يَشْفُوا صُدُوراً ذَاتِ تَوْغِيرِ[١]

وقوله أيضاً:

٤٣٧٩ ـ تَعَشَّ فَإِنْ عَاهَدْتَني لاَ تَخُونني نَكُنْ مِثْلَ مَنْ يَا ذِئْبُ يَصْطَحِبَانِ[٢]

وقرأ ابن مقسم والزَّعفرانيُّ ومحبوب: يزد ويؤته[٣] بالياء من تحت، أي الله تعالى. وقرأ سلام يؤته ـ بضم هاء الكناية[٤] ـ وهو الأصل، وهو لغة الحجاز وتقدم خلاف القراء في ذلك.

فصل

قال قتادة: معنى قوله: ومن كان يريد (حَرْثَ)[٥] الدنيا أي يريد جملة حرث الدُّنيا نؤته منها أي نؤته بقدر ما قسم له كما قال: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾ [الإسراء: ١٨] وما له في الآخرة من نصيب؛ لأنه لم يعمل للآخرة قال ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «بَشِّرْ هَذِهِ الأُمَّة بالسناء والرِّفْعَةِ والنَّصْرِ والتَّمْكِينِ في الأَرْضِ، فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلَ الآخِرَةِ للدُّنْيَا لَمْ يَكُنْ لَهُ في الآخِرَةِ نَصِيبٌ»[٦]. واعلم أنه تعالى قال في طلب الآخرة (إنه)[٧] يزيد له في حرثه ولم يذكر أنه يعطيه الدنيا أم لا بل سكت عنه نفياً وإثباتاً.

وأما طالب[٨] الدنيا فبين أنه لا يعطيه شيئاً من نصيب الآخرة على التنصيص، وهذا يدل على التفاوت العظيم كأنه يقول: الآخرة أصلٌ والدنيا تبعٌ فواجد الأصل يكون واجداً للتَّبع بقدر الحاجة، إلا أنه لم يذكر ذلك تنبيهاً على أن الدّنيا أحسن من أن يقرن ذكرها بذكر الآخرة. وأيضاً بين أن طالب الآخرة يزاد في مطلوبه وطالب الدنيا يعطى بعض

---

(١) من بحر البسيط له. ودست: أرسلت في خفيةٍ. والتوغير: الإغراء بالحقد. وقد تقدم.

(٢) البيت من الطويل له أيضاً وقد رواه في الكتاب: تعال فإن. . البيت.
على أن الرواية هذه التي أتى بها المؤلف هي المشهورة. والبيت فيه شاهدان:
شاهد معنا وهو جزم «نكن» جواباً لشرط فعله ماض (فإن عاهدتني).
وشاهد آخر غير مراد هنا وهو استعمال من للتثنية. وانظر كتاب سيبويه ٢/ ٣١٦، والخصائص ٢/ ٤٢٢ وشرح ابن يعيش ٢/ ١٣٢، ٤/ ١٣، والأشموني ١/ ١٥٣ والهمع ١/ ٨٧ والبحر المحيط ٧/ ٥١٤ والدر المصون ٤/ ٧٥١ والمغني ٤٠٤ وشرح شواهده للسيوطي ٥٣٦ و ٧٢٩ والديوان ٢/ ٣٢٩.

(٣) من القراءة الشاذة ذكرها صاحب البحر ٧/ ٥١٤ ومحبوب هو محمد بن الحسن بن هلال بن محبوب أبو بكر محبوب البصري مولى قريش مشهور كبير، روى القراءة عن شبل بن عباد، وأبي عمرو بن العلاء وعنه خلف بن هشام وروح بن عبد المؤمن. انظر غاية النهاية ٢/ ١٢٣.

(٤) المحتسب لأبي الفتح ٢/ ٢٤٩ وهي كسابقتها شذوذاً.

(٥) سقط من أ الأصل.

(٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن أبي بن كعب ٥/ ١٣٤.

(٧) زيادة من أ.

(٨) في ب طلب.

مطلوبه ولا يحصل له في الآخرة من نصيب البتة فبين أن طالب الآخرة يكون حاله أبداً في التزايد، وأن طالب الدنيا يكون حاله في النقصان والبطلان في الآخرة، وذلك يدل على تفضيل طلب الآخرة.

وأيضاً فإنه تعالى بين أن منافع الآخرة ومنافع الدنيا ليست حاضرة ناجزةً، بل لا بدَّ فيهما[١] من الحرث والحرث لا يتأتى إلا بتحمل المشاق (في البذر ثم التسقية[٢] والتنمية ثم الحصد ثم التنقية فلما سمى الله كلا القسمين حرثاً علمنا أن كل واحد منهما لا يحصل) والمتاعب. ثم بين أنَّ مصير الآخرة إلى الزيادة والكمال وأن مصير الدنيا إلى النُّقصان والعناء، فكأنه قيل: إذا كان لا بد في القسمين من متاعب الحراثة من التبقية والتنمية[٣] والحصد[٤] والتَّنْقِية فصرف هذه المتاعب إلى ما يكون في التزايد الباقي أولى من صرفها إلى ما يكون في التناقص والانقضاء.

فصل

قال ابن الخطيب: فإن قيل: ظاهر اللفظ يدل على أن من صلَّى لأجل طلب الثواب أو لأجل دفع العقاب فإنه تصح صلاته، وأجمعوا على أنها لا تصح.

فالجواب: أنه تعالى قال: مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَة، والحرث لا يَتَأَتَّى إلا بإلقاء البذر الصَّحيح في الأرض، والبذر الصحيح الجامع للخيرات والسعادات ليس إلا عبودية الله سبحانه وتعالى[٥].

فصل

إذا توضأ بغير نية، لم يصح، لأنه لم يرد حرث الآخرة، وذلك لا يحصل بالوضوء العاري عن النية.

قوله تعالى: «أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ. . .» الآية. لما بين القانون الأعظم في أعمال الآخرة والدنيا أردفه ببيان ما هو الأصل في باب الضَّلالة والسعادة[٦] فقال: «أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ» ومعنى الهمزة في «أم» التقرير والتقريع. والضمير في «شَرَعُوا»[٧] يجوز أن يكون عائداً على «الشركاء»، والضمير في «لهم» على الكفار، ويجوز العكس؛ لأنهم جعلوا لهم أنصباء، والمعنى شركاؤهم أي شياطينهم الذين زينوا لهم الشرك وإنكار البعث، والعمل للدنيا. وقيل: شركاؤهم أوثانهم، وإنما أضيفت إليهم؛ لأنهم هم الذين اتَّخذوها شركاء لله. ولما كانت سبباً لضلالتهم جعلت شارعة

---

(١) في ب منها.
(٢) ما بين القوسين ساقط من أ الأصل.
(٣) في الرازي التسمية.
(٤) في ب ثم الحصد.
(٥) انظر الرازي ٢٧/ ١٦٢.
(٦) في ب الشقاوة وهو الأصح.
(٧) في ب عن وانظر الرازي السابق وانظر الكشاف ٣/ ٤٦٦ والبحر ٧/ ٥١٥.

لدين ضلالتهم لهم كما قال إبراهيم ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ».

قال المفسرون: يعني كفار مكة أي (أ)[١] لهم آلهة سنوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله. قال ابن عباس ـ (رضي الله عنهما)[٢] ـ شرعوا لهم ديناً غير دين الإسلام[٣].

قوله: «وَلَوْلاَ كَلِمَةُ الفَصْلِ» أي لولا القضاء السابق بتأخير الجزاء أو لولا الوعد بأن الفصل يكون بينهم يوم القيامة «لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ» أي بين الكافرين والمؤمنين، أو بين المشركين وشركائهم[٤].

قوله: «وإِنَّ الظَّالِمِينَ» العامة بكسر «إن» على الاستئناف ومسلم بن جنوب[٥] والأعرج بفتحها[٦] عطفاً على كلمة الفصل. وفصل بين المتعاطفين بجواب «لولا»، تقديره: ولولا كلمة واستقرار الظالمين في العذاب لَقُضِي بينهم في الدنيا[٧]. وهو نظير قوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [طه: ١٢٩]. ثم إنه تعالى ذكر أحوال أهل العقاب وأحوال أهل الثواب. أما الأول فهو قوله: «تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ» أي ترى المشركين يوم القيامة خائفين وَجِلِينَ «مِمَّا كَسَبُوا» من السيئات، «وَهُوَ واقِعٌ بِهِمْ» أي جزاء كسبهم واقع سواء أشفقوا أو لم يشفقوا.

وأما الثاني ـ وهو أحوال أهل الثواب ـ فهو قوله: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ في رَوْضَاتِ الجَنَّاتِ» قال أبو حيان: اللغة الكثيرة تسكين واو «رَوْضَات»، ولغة هذيل[٨] فتح الواو إجراء لها مُجْرَى[٩] الصحيح نحو: جَفَنَات[١٠]. ولم يقرأ أحد فيما علمناه بلغتهم[١١]. قال شهاب الدين: إن عنى لم يقرأ أحد بلغتهم في هذا الباب من حيث هو فليس كذلك؛ لما تقدم في سورة النور أن الأعمش قرأ: «ثَلاَثُ عَوَرَاتٍ» ـ بفتح الواو ـ وإن عَنَى أنه لم يقرأ في روضات بخصوصها فقريب، لكن ليس هو ظاهر عادته[١٢].

---

(١) الهمزة ساقطة من ب. (٢) زيادة من أ.
(٣) انظر البغوي ٦/ ١٢٠ و ١٢١. (٤) الرازي ٢٧/ ١٦٣.
(٥) كذا في النسختين جنوب والأصح جندب أبو عبد الله الهذليّ مولاهم المدني القاص، تابعي مشهور عرض على عبد الله بن عياش ونافع وعنه ابنه وزيد بن أسلم، وابن أبي ذئب، وغيرهم مات سنة ١٣هـ. انظر الغاية ٢/ ٢٩٦.
(٦) انظر مختصر ابن خالويه ١٣٤ والكشاف ٢/ ٤٦٦.
(٧) بالمعنى من الكشاف ـ المرجع السابق ـ وباللفظ من الدر المصون ٤/ ٧٥٢.
(٨) هو هذيل بن مدركة كما قال أبو حيان في البحر ٧/ ٥١٥.
(٩) في البحر: إجراء للمعتلّ مجرى.
(١٠) في النسختين حصيات وفي البحر والسمين جفنات وهو المراد.
(١١) وانظر البحر ٧/ ٥١٥. (١٢) الدر المصون ٤/ ٧٥٢ وهو بالمعنى منه.

فصل

اعلم أن روضة الجنة أطيب بقعةٍ[١] فيها، وفيه تنبيه على أن الفسَّاق من أهل الصلاة كلهم من أهل الجنة؛ لأنه خص الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأنهم في روضات الجنَّات، وهي البقاع الشَّريفة كالبقاع التي دون تلك الروضات، لا بد وأن تكون مخصوصة بمن كانوا دون الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

ثم قال: «لَهُمْ ما يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ» وهذا يدل على أن تلك الأشياء حاضرة عنده مهيَّأة[٢]. والعندية مجاز و «عِنْدَ رَبِّهِمْ» يجوز أن يكون ظرفاً «لِيَشَاءُونَ». قاله الحوفي[٣]، أو للاستقرار العامل في «لهم» قاله الزمخشري[٤]. ثم قال: «ذَلِكَ هُوَ الفَضْلُ الكَبِيرُ» وهذا يدل على أنَّ الجزاء المرتب على العمل إنما حصل بطريق الفضل من الله تعالى لا بطريق الوجوب والاستحقاق.

قوله تعالى: «ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ» كقوله: «كالَّذِي خَاضُوا»[٥]. وقد تقدم تحقيقه. وتقدمت القراءات في يُبَشِّرُ[٦]. وقرأ مجاهدٌ وحُمَيْدُ بنُ قَيْسٍ: يُبْشِرُ ـ بضم الياء وسكون الباء وكسر الشين[٧] ـ من أَبْشَرَ منقولاً من بَشِرَ بالكسر لا من بَشَرَ بالفتح؛ لأنه متعدٍّ والتشديد في «بشر» للتكثير لا للتعدية، لأنه متعد بدونها[٨].

ونقل أبو حيان قراءة يَبْشُرُ بفتح الياء وضم الشين عن حمزة والكسائي[٩] (أي)[١٠] من السَّبعة، ولم يذكر غيرهما من السبعة، وقد وافقهما على ذلك ابن كثير وأبو عمرو[١١]. و «ذلك» مبتدأ، والموصول بعده خبره، وعائده محذوف على التدريج

---

(١) في ب قطعة. (٢) وانظر الرازي ٢٧/ ١٦٣.

(٣) نقله عنه أبو حيان في البحر ٧/ ٥١٥. وقد رفض الزمخشري هذا الرأي.

(٤) منصوب بالظرف لا بيشاؤون. الكشاف ٣/ ٤٦٦.

(٥) في حذف العائد كما سيقرره بعد والآية ٦٩ من التوبة.

(٦) ولا أعرف مقصوده بتقديم القراءة في يبشر هل هي في مريم، أو الإسراء أو الحجر، أو الكهف أو التوبة، وقد وصلتُ إلى مريم من قوله: لتُبشِّر به المتَّقين ٩٧ فاستنتجت الآتي: قرىء يبشرُ بفتح الياء وسكون الموحدة وضم الشين مخففة من بشر الثلاثي ونسبت لابن كثير وأبي عمرو وحمزة والكسائي، والباقون بالتشديد للتكثير لا للتعدية، وقد قرأ نافعٌ وابن عامر بالتشديد في القرآن كله وافقهم الكسائيّ هنا في الشورى، بالإضافة إلى ما ذكر من القراءات أعلى. وانظر السبعة ٢٠٥ و ٢٠٦ والإتحاف ٣٨٣ واللباب ميكروفيلم.

(٧) نقلها صاحب الكشاف ٣/ ٤٦٦، وابن جنّي في المحتسب ٢/ ٢٥١، والسمين في الدر المصون ٤/ ٧٥٢.

(٨) انظر المرجعين الأخيرين السابقين. (٩) البحر المحيط ٧/ ٥١٥.

(١٠) زيادة من أ فقط.

(١١) نقل ابن مجاهد ـ كما سبق من قليل ـ في السبعة ـ أن ابن كثير وأبا عمرو يوافقانهما في هذا الموضع فقط من الشورى وانظر السبعة ٢٠٥ و ٢٠٦.

المذكور كقوله «كالَّذِي خَاضُوا» أي يُبَشِّرُ بِهِ[١]، ثم يُبَشِّرُهُ[٢] على الاتساع. وأما على رأي يونُس[٣] فلا يحتاج إلى عائد؛ لأنها عنده[٤] مصدرية وهو قول الفراء[٥] أيضاً، أي ذلك تبشير الله عباده. وذلك إشارة إلى ما أعده الله تعالى لهم من الكرامة. وقال الزمخشري[٦]: أو ذلك التبشير الذي يبشِّره الله عباده. قال أبو حيان: وليس بظاهر؛ إذ لم يتقدم في هذه السورة لفظ البشرى ولا ما يدل عليها من «بَشَّر» أو شبهه[٧].

فصل

هذه الآيات دالة على تعظيم حال الثواب من وجوه:

الأول: أن الملك[٨] الذي هو أعظم الموجودات وأكرمهم إذا رتب على أعمال شاقة جزاءً، دل ذلك على أن ذلك الجزاء قد بلغ إلى حيث لا يعلم كُنْهَهُ إلاَّ الله تعالى.

الثاني: أن قوله تعالى: «وَلَهُمْ مَا يَشَاءُونَ» يدخل في باب غير المتناهي؛ لأنه لا درجة إلا والإنسان يريد ما هو أعلى منها.

الثالث: أنه تعالى قال: «ذَلِكَ هُوَ الفَضْلُ الكَبِيرُ» والذي يحكم بكبره من له الكبرياء والعظمة على الإطلاق يكون في غاية الكبر[٩].

واعلم أنه تعالى لما أوحى إلى محمد ـ ﷺ ـ هذا الكتاب الشريف، وأودع فيه أقسام الدلائل والتكاليف ورتبه على الطاعة والثواب وأمره بتبليغه إلى الأمة أمره بأن يقول إني لا أطلب منكم بسبب هذا التبليغ نفعاً حاضراً فقال: «قُلْ لاَ لاَأَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إلاَّ المَوَدَّة في القُرْبَى». في هذا الاستثناء قولان:

أحدهما: أنه منقطع؛ إذ ليست المودة من جنس الأجر[١٠].

---

(١) فحذف الياء من الضمير المجرور محلاً.

(٢) ثم اتّصل بعد ذلك الضمير بالفعل مضموماً هيئةً ولكنه منصوب محلاً، وانظر البيان ٢/٣٤٧.

(٣) وهو يونس بن حبيب الذي نقل عنه سيبويه كثيراً أبو عبد الرحمن الضبيّ أخذ عن أبي عمرو، وحمّاد ابن سلمة. انظر إنباه الرواة للقفطي.

(٤) نقله عنه السيوطي في همعه ١/٨٢ بينما قال الأخفش في المعاني ٦٨٦: وجعل «الذي يبشر» اسماً للفعل كأنه تبشير، كما قال: «اصدع بما تؤمر» أي اصدع بالأمر ولا يمكن أن تضمر فيها الباء وتحذفها لأنك لا تقول: كلم الذي مررت، وأنت تريد به.

(٥) وهو المفهوم من عبارته في المعاني قال: «كخوضهم الذي خاضوه» المعاني ١/٤٤٦. وممن وافقهما من المتأخرين ابن مالك في التسهيل «٣٧» قال: «وقد تقع الذي مصدرية».

(٦) الكشاف ٣/٤٦٦.

(٧) البحر المحيط ٧/٥١٥ و ٥١٦.

(٨) في الرازي: السلطان.

(٩) انظر الرازي ٢٧/١٦٤.

(١٠) قال به أيضاً غير الزمخشري الأخفش في المعاني ٦٨٦ ومكي في المشكل ٢/٢٧٧ وابن الأنباري في البيان ٢/٢٤٧.

والثاني: أنه متصل[(١)]، أي لا أسألكم عليه أجراً إلا هذا وهو أن تودُّوا أهل قرابتي ولم يكن هذا أجراً في الحقيقة؛ لأن قرابته قرابتهم وكانت صلتهم لازمةً لهم في المودة. قاله الزمخشري[(٢)].

وقال أيضاً: فإن قلت: هلا قيل: إلاَّ مودَّة القربى، أو إلا المودة للقربى[(٣)]؟! قلت: جعلوا مكاناً للمودة ومقراً لها، كقولك: في آل فلان مودة[(٤)] وليست «في» صلة المودة، كاللام إذا قلت: إلا المودة للقربى[(٥)]، إنما هي متعلقة بمحذوف فتعلق الظرف به في قولك: المال في الكيس، وتقديره: إلا المودة ثابتةً في القربى ومتمكنةً فيها[(٦)].

وقال أبو البقاء: وقيل: متصل، أي لا أسألكم شيئاً إلا المودة[(٧)].

قال شهاب الدين: وفي تأويله متصلاً بما ذكر نظر؛ لمجيئه بشيء الذي هو عام، وما من استثناء منقطع إلا ويمكن تأويله بما ذكر، ألا ترى إلى قولك: ما جاءني أحدٌ إلا حمار، أنه يصح ما جاءني شيء إلا حماراً[(٨)].

وقرأ زيد بن عليٍّ: «مودة» بدون ألفٍ ولامٍ[(٩)].

فصل

في الآية ثلاثة أقوال:

الأول: قال الشَّعبيُّ: أكثر الناس علينا في هذه الآية فكتبنا إلى ابن عباس نسأله عن ذلك، فكتب ابن عباس أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان[(١٠)] وسط النسب من قريش ليس بطنٌ من بطونهم إلا قد ولده، وكان له فيهم قرابةٌ، فقال الله عز وجل «قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً» على ما أدعوكم إليه إلا أن تؤثروني[(١١)] لقرابتي أي تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة، والمعنى أنكم قومي وأحق من أجابني وأطاعني، فإذا قد أبيتم ذلك فاحفظوا حق

---

(١) وبه قال الزجاج في المعاني ٣٩٨/٤ وأبو البقاء في التبيان ١١٣٢ ناقلاً له.

(٢) الكشاف ٦/٣.

(٣) وفيه: وما معنى قوله: إلا المودة في القربى؟ قلت... الخ.

(٤) فيه: ولي فيهم هوى وحب شديد تريد: أحبهم وهم مكان حبِّي ومحلُّه.

(٥) في ب في القربى خطأ وتحريف.

(٦) الكشاف ٤٦٦/٣، واللفظ لفظ السمين ناقلاً عنه ٧٥٣/٤.

(٧) التبيان لأبي البقاء العكبري ١١٣٢.

(٨) الدر المصون له ٤/ ٧٥٣، ٧٥٤ واعتراض السمين أن تقدير أبي البقاء يصح في المنقطع لا في المتصل لأنه أتى بلفظ عام وهو شيء.

(٩) عزاها صاحب شواذ القرآن (٢١٥) إلى عيسى الكوفي، بينما نسبها أبو حيان إلى ما ذكر المؤلف البحر المحيط ٥١٦/٧، وهي من الشواذ غير المتواترة.

(١٠) في ب: في وسط وفي الرازي: وَاسِط وفي السمين أَوْسَطِ وكذا في القرطبي ٢١/١٦.

(١١) ما في المراجع تودُّوني وكذا ب.

القربى وصلوا رحمي، ولا تؤذوني[١]. وإلى هذا ذهب مجاهد وقتادة وعكرمة ومقاتل والسدي والضَّحَّاك[٢].

الثاني: روى الكلبي عن ابن عباس، قال: إن النبي ـ ﷺ ـ لما قدم المدينة كانت تَنُوبهُ[٣] نوائب وحقوق، وليس في يده سعةٌ فقالت (الأنصار)[٤]: إن هذا الرجل هداكم[٥] هو ابن أخيكم، وأجاركم من بلدكم، فاجمعوا له طائفة من أموالكم، ففعلوا ثم أتوه بها، فردها عليهم ونزل قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي على الإيمان (إلا)[٦] أن لا تؤذوا أقاربي وعشيرتي، وتحفظوني فيهم، قاله سعيد بن جبير وعمرو بن شعيب[٧].

الثالث: قال الحسن: معناه إلا أن تَوَدُّوا الله وتتقربوا إليه بالطاعة والعمل الصالح، ورواه ابن أبي نُجَيْحٍ عن مجاهد[٨].

فالقربى على القول الأول بالقرابة التي بمعنى الرَّحِم، وعلى الثاني بمعنى الأقارب، وعلى الثالث فُعْلَى من القُرْبِ والتَّقْرِيب.

فإن قيل: طلب الأجر على تبليغ الوحي لا يجوز لوجوه:

أحدها: أنه تعالى حكى عن أكثر الأنبياء التصريح بنفي طلب الأجر، فقال في قصة نوح ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الشعراء: ١٠٩].. الآية وكذا في قصة هود وصالح ولوط وشعيب ـ عليهم الصَّلاة والسَّلام ـ ورسولنا أفضل الأنبياء فَبِأَنْ لا يطلب الأجر على النبوة والرسالة أولى.

وثانيها: أنه ـ عليه الصَّلاة السَّلام ـ صرَّح بنفي طلب الأجر فقال: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦] وقال: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ [سبأ: ٤٧].. الآية وطلب الأجر على أداء الواجب لا يليق بأقل الناس فضلاً عن أعلم العلماء.

ورابعها: أن النبوة أفضل من الحكمة، وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] ووصف الدنيا بأنها متاع قليل فقال: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧] فكيف يحسن بالعاقل مقابلة أشرف الأنبياء بأخس[٩] الأشياء؟!

---

(١) الرازي ٢٧/ ١٦٤ والقرطبي المرجع السابق.
(٢) ذكره البغوي في تفسيره ٦/ ١٢١.
(٣) في الرازي تعرُوهُ.
(٤) سقط من أ.
(٥) في الرازي: هداكم الله على يده.
(٦) سقط من ب وفي الرازي: إلا أن تودّوا أقاربي. الرازي السابق.
(٧) نقله القرطبي في الجامع ١٦/ ٢١.
(٨) السابق ٢٦/ ٢٢ وانظر البغوي ٦/ ١٢١ والرازي السابق ٢٧/ ١٦٥.
(٩) في ب: أحسن تحريف.

وخامسها: أن طلب الأجر يوجب التهمة، وذلك ينافي القطع بصحة النبوة. فثبت بهذه الوجوه أنه لا يجوز من النبي ـ ﷺ ـ أن يطلب أجراً ألبتة على التبليغ والرسالة، وهاهنا قد ذكر ما يجري مَجْرَى طلب الأجر وهو المودة في القربى (هذا تقرير[1] السؤال).

فالجواب: أنه لا نزاع في أنه لا يجوز طلب الأجر على التبليغ، وأما قوله: إلا المودة في القربى فالجواب عنه من وجهين:

الأول: أن هذا من باب قوله:

٤٣٨٠ ـ وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ[2]

يعني أنا لا أطلب منكم إلا هذا. وهذا في الحقيقة ليس أجراً؛ لأن حصول المودة بين المسلمين أمر واجب، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، وقال ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: المُؤْمِنُونَ كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً[3]، والآيات والأخبار في هذا كثيرة. وإذا[4] كان حصول المودة بين المسلمين واجب فحصولها في حق أشرف المسلمِين أولى، فقوله: «إلا المودة في القربى» تقديره والمودة في القربى ليست أجراً، فرَجَعَ الحاصل إلى أنه[5] لا أجر ألبتة.

الثاني: إن هذا استثناء منقطع، وتم الكلام عند قوله: «لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً»، ثم قال: إلاَّ المَوَدَّة في القربى أي أذكركم قرابتي منكم فكأنه في اللفظ أجر وليس بأجر[6].

فصل

اختلفوا في قرابته، فقيل: هم فاطمة وعلي وأبناؤهما، وفيهم نزل: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وروى زيد بن أرقم[7] عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «إنِّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ كتابَ اللَّهِ تَعَالَى وَأَهْلَ بَيْتِي وَأُذَكِّرُكُم اللَّه في أَهْلِ بَيْتِي»[8]. قيل لزيد بن أرقم: فمن أهل بيته؟

---

(١) زيادة من الرازي.

(٢) للنابغة الذبياني من الطويل وقد أتى به شاهداً لما يسمى المدح بما يشبه الذم. وهذا البيت مشهور في الشواهد البلاغية معناه: إذا كان هذا عيبهم، فليس فيهم عيب، بل هو مدح فيهم.
انظر تفسير الخازن لباب التأويل ٦/ ١٢٢ وتفسير الرازي ٢٧/ ١٦٥، والمغني ١١٤، والهمع ١/ ٢٣٢.

(٣) رواه البخاري بلفظ المؤمنُ للمؤمن عن أبي موسى رضي الله عنه باب المظالم ٢/ ٦٧ وانظر أيضاً مسند الإمام أحمد ٤/ ٤٠٤ و ٤٠٥ و ٤٠٩.

(٤) في ب: وإنه كان. (٥) وفيها: أن لا.

(٦) انظر في هذين الوجهين الإمام الرازي ٢٧/ ١٦٥، والإمام الخازن ٦/ ١٢٢.

(٧) ابن زيد بن النعمان كان صحابياً مات سنة ٦٦. انظر خلاصة الكمال ١٢٦.

(٨) رواه الإمام أحمد في مسنده ٣/ ١٤ و ١٧ و ٢٦ و٥٩ و٤/ ٣٦٧ و ٣٧١ وقد روي الحديث: أنا تارك فيكم ثقلين.

فقال: هم آلُ عليٍّ وآل عَقِيل وآل جعفر، وآل عباس ـ رضي الله عنهم ـ وروى ابن عمر عن ابن بكر ـ رضي الله تعالى عنه ـ قال: ارقبوا محمداً ـ ﷺ ـ في أهل بيته. وقيل: هم الذين تحرم عليهم الصدقة من أقاربه ويقسم فيهم الخُمسُ وهم بنو هاشم، وبنو المطلب الذين لم يتفرقوا بجاهلية ولا إسلام. وقيل: هذه الآية منسوخة، وإليه ذهب الضحاك بن مُزاحم والحسين بن الفضل. قال البغوي وهذا قول (غير)[1] مرضٍ؛ لأن مودة النبي ـ ﷺ ـ وكف الأذى عنه ومودة أقاربه والتقرب إلى الله تعالى بالطاعة والعمل الصالح من فرائض الدين[2].

قوله تعالى: «وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً» أي من يكتسب طاعة «نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً» العامة على «نَزد» بالنون، وزيد بن علي وعبدُ الوارث عن أبي عمرو ـ يَزِدْ ـ بالياء[3] من تحت ـ أي يزدِ الله. والعامة «حُسْناً» بالتنوين مصدراً على «فُعْلٍ» نحو: شُكر وهو مفعول به، وعبد الوارث ـ عن أبي عمرو ـ حُسْنَى بألف التأنيث[4] على وزن بُشْرَى، ورُجْعَى، وهو مفعول به أيضاً. ويجوز أن يكون صفة كفُضْلَى، فيكون وصفاً لمحذوف أي خصْلَةً حُسْنَى. قيل: نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق ـ رضي الله تعالى عنه ـ والظاهر العموم في أي حسنة كانت، إلا أنها لما ذكرت عقيب المودة في القُرْبَى دل ذلك على أن المقصود التأكيد في تلك المودَّةِ[5].

ثُمَّ قال سبحانه وتعالى: «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ»: للقليل (حتى يضاعفها)[6] والشكر في حق الله تعالى مجاز، والمعنى أنه تعالى يُحْسِنُ للمطيعين في إيصال الثواب إليهم، وفي أن يزيدَ عليهم أنواعاً كثيرةً من التفضل.

قوله: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً» اعلم أن الكلام ابتداء من أول هذه السورة في تقرير أن هذا الكتاب إنما حصل بِوَحْيِ الله تعالى، قال تعالى: «كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ» واتصال الكلام في تقرير هذا المعنى وتعلق بعضه ببعض (حتى[7] وصل) إلى هاهنا، ثم حكى هاهنا شبهة القوم وهي قولهم: إن هذا ليس وحياً من الله تعالى فقال: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً»[8]. قال الزمخشري: «أم» منقطعة ومعنى الهمزة للتوبيخ[9] والمعنى: أيقع[10] في قلوبهم ويجري على ألسنتهم أن ينسبوا مثله على الافتراء على الله سبحانه وتعالى الذي هو أقبح الأنواع وأفحشها، ثم أجاب عنه بأن قال:

---

(١) زيادة من البغوي.
(٢) وانظر هذه الأقوال في البغوي والخازن ٦/ ١٢٢.
(٣) ذكرها ابن خالويه في مختصره ١٣٤ وأبو حيان في البحر ٧/ ٥١٦ وهي شاذة غير متواترة.
(٤) لم ترو عن أبي عمرو في المتواتر؛ انظر البحر المحيط ٧/ ٥١٦ ومختصر ابن خالويه ١٣٤.
(٥) ذكره الرازي ٢٧/ ١٦٧.
(٦) زيادة من البغوي ٦/ ١٢٢.
(٧) زيادة من الرازي.
(٨) المرجع السابق.
(٩) الكشاف ٣/ ٤٦٨
(١٠) في ب ليقع. والتصحيح من الرازي.

«فَإِنْ يَشَأ اللَّهُ يَخْتِم عَلَى قَلْبِكَ» قال مجاهد: يربط على قلبك بالصبر حتى لا يشقَّ عليك أذاهم وقولهم: إنه مفتر كذابٌ، وقال قتادة: يعني يطبع على قلبك فينسيك[١] القرآن وما آتاك فأخبرهم أنه لو افترى على الله كذباً لفعل به، وما أخبر في هذه الآية[٢] فإنه لا يجترىء على افتراء الكذب إلاّ من كان في هذه الحالة والمقصود من هذا الكلام المبالغة في تقرير الاستبعاد، ومثاله: أن ينسب رجل بعض الأمناء إلى الخيانة فيقول الأمين: لعل الله أعمى قَلْبي، وهو لا يريد إثبات الخِذلان ولا عَمَى القلب لنفسه وإنما يريد استبعاد صدق الله تعالى الخيانة عنه[٣].

قوله تعالى: «ويَمْحُ اللَّهُ البَاطِلَ» هذا مستأنف غير داخل في جزاء الشرط؛ لأنه تعالى يمحو الباطل مطلقاً، وسقطت الواو منه لفظاً لالتقاء الساكنين في الدَّرج، وخطًّا حملاً للخطِّ على اللفظ كما كتبوا: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨] عليه، ولكن ينبغي أن لا يجوز الوقف على هذه الآية لأنه إن وقف عليه بالأصل ـ وهو الواو ـ خالفنا خط المصحف وإن وقف عليه بغيرها موافقاً للرسم خالفنا الأصل[٤]. وتقدَّم بحث مثل هذا.

وقد منع مكيٌّ الوقف على نحو: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [غافر: ٩]. وقال الكسائي: فيه تقديم وتأخير مجازه والله يمح الباطل فهو في محل رفع، ولكن حذفت منه الواو في المصحف حملاً على اللفظ كما حذفت من قوله: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الإسراء: ١١] ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨].

فصل

أخبر تعالى أن ما يقولونه باطل يمحوه الله «ويُحِقُّ الحَقَّ» أي الإسلام بكلماته، أي بما أنزل الله تعالى من كتاب، وقد فعل الله ذلك فمحى باطلهم، وأعلى كلمة الإسلام «إنَّهُ عَلِيم» بما في صدرك وصدورهم، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لما نزلت «قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إلاَّ المَوَدَّةَ في القُرْبَى» وقع في قلوب قوم منها شيء وقالوا: يريد أن يحثنا[٥] على أقاربه من بعده، فنزل جبريل فأخبره أنهم اتهموه فأنزل الله هذه الآية فقال القوم يا رسول الله[٦]: (فـ)[٦] إنا نشهد أنك صادق فنزل: «وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ» قال ابن عباس: يريد أولياءه وأهل طاعته[٧]. قال الزمخشري: يقال[٨]: قَبِلْتُ مِنْهُ الشيء وقَبِلْتُهُ عَنْهُ.

---

(١) انظر البغوي وفي ب فيسرك والتصحيح من البغوي.
(٢) انظر البغوي ٦/١٢٣.
(٣) الرازي ٢٧/١٦٧ و ١٦٨.
(٤) قاله شهاب الدين السمين في الدر المصون ٤/٧٥٥.
(٥) تصحيح من البغوي ٦/١٢٣، وفي ب يخشى.
(٦) زيادة من ب عن البغوي.
(٧) انظر البغوي ٦/١٢٣.
(٨) الكشاف ٣/٤٦٨.

فصل

قيل: التوبة بترك المعاصي نية وفعلاً، والإقبال على الطاعة نيّةً وفعلاً. وقال سهل ابن عبد الله: التوبة الانتقال من الأحوال المذمومة إلى الأحوال الممدوحة[١]. وقيل: الندم على الماضي والترك في الحال والعزم على أن لا يعود إليه في المستقبل روى جابر أن أعرابياً دخل مسجد رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك، وكبَّر، فلما فرغ من صلاته ـ قال عليٌّ ـ رضي الله تعالى عنه: يا هذا إن سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين، فقال يا أمير المؤمنين (وما)[٢] التوبة؟ فقال[٣]: اسم يقع على ستة أشياء على الماضي من الذنوب الندامة، ولتضييع الفريضة الإعادة ورد المظالم وإدامة[٤] النفس في الطاعة كما ربيتها[٥] في المعصية، وإذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية، والبكاء بدل كل ضحك ضحكته[٦].

قالت المعتزلة: يجب على الله قبول التوبة، وقال أهل السنة: لا يجب على الله تعالى، وكل ما يقبله فهو كرم وفضل، واحتجوا بهذه الآية فقالوا: إنه تعالى تمدح بقبول التوبة، ولو كان ذلك القبول واجباً لما حصل المدح[٧] العظيم، ألا ترى أنه من مدح نفسه بأن لا يضرب الناس[٨] ظلماً كان ذلك مدحاً.

قوله: «وَيَعْفُو عَنِ السيِّئَاتِ» إما أن يكون المراد منه أن يعفو عن الكبائر بعد التوبة، أو المراد أن يعفو عن الصغائر أو المراد: أن يعفو عن الكبائر قبل التوبة[٩].

والأول باطل وإلا صار قوله: «وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ» عين قوله: «وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ» والتكرار خلاف الأصل)[١٠].

والثاني أيضاً باطل؛ لأن ذلك واجبٌ، وأداء الواجب لا يمدح به فبقي القسم الثالث فيكون المعنى أنه تارة يعفو بواسطة قبول التوبة، وتارة يعفو ابتداء من غير توبة[١١].

فصل

روى أنس ـ (رضي الله عنه)[١٢] ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحاً

---

(١) البغوي المرجع السابق.
(٢) و (٣) تكملتان من تفسير الرازي.
(٤) في الرازي: ولإذابة النفس.
(٥) في ب وأمهر. والتصحيح من الرازي.
(٦) وانظر تفسير الإمام الرازي ٢٧/١٦٨، والكشاف ٣/٤٦٨ و ٤٦٩.
(٧) في الرازي: التمدح.
(٨) وفيه: ولا يقتلهم غضباً، والعبارة بتصرف من المؤلف في عبارة الرازي ٢٧/١٦٨.
(٩) السابق.
(١٠) ما بين القوسين سقط من ب.
(١١) الرازي المرجع السابق.
(١٢) سقط من ب.

بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فَلاَةٍ فانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا فَأَتَى شَجَرةً فاضْطَجَعَ في ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ هُوَ بِهَا قَائِمةً عِنْدَهُ فَأَخَذَ بِخُطَامِهَا ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ» أخطأ من شدَّة الفَرَح.

قوله: «ويَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ» قرأ الأخوان وحَفْصٌ يَفْعَلُونَ بالياء من تحت؛ نظراً إلى قوله: «مِنْ عِبَادِهِ» وقال بعده: «وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ» والباقون[١] بالخطاب إقبالاً على الناس عامةً، وهو خطاب للمشركين.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يجوز أن يكون الموصول فاعلاً[٢] أي يجيبون ربهم إذا دعاهم كقوله تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] واستجاب كأجاب، ومنه قوله الشاعر:

٤٣٨١ ـ وَدَاعٍ دَعَا يَا مَنْ يُجِيبُ إِلَى النَّدَى فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَاكَ مُجِيبُ[٣]

ويجوز أن تكون السين للطلب على بابها بمعنى ويستدعي المؤمنون الإجابة من ربهم بالأعمال الصالحة[٤]. ويجوز أن يكون الموصول مفعولاً به والفاعل مضمر يعود على الله بمعنى: ويُجيبُ الذينَ آمنوا أي دُعَاءَهُمْ. وقيل: ثَمَّ لام مقدرة أي ويستجيبُ الله لِلذين آمنوا[٥]، (فحذفها، للعلم بها[٦]، كقوله: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ [المطففين: ٣] قال عطاء عن ابن عباس معناه: ويُثِيبُ الذين آمنوا)[٧] وعملوا الصالحات «وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ» سِوَى ثواب أعمالهم تفضلاً منه، وروى أبو صالح عنه: يشفعهم ويزيدهم من فضله. (ثُمَّ)[٨] قال في إخوان إخوانهم[٩]: «والكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ».

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، قال خَبَّاب بن الأرتِّ: فينا نزلت هذه الآية، وذلك أنا نظرنا إلى أموال بني قُرَيْظَة والنَّضير وبني قَينقاعَ وتمنيناها فأنزل الله عز وجل «وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغوا»، لطغوا في الأرض، قال ابن عباس

---

(١) من القراءات المتواترة، انظر السبعة ٥٨٠، والإتحاف ٣٨٣، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٢٣.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٥١٧.

(٣) من تمام الطويل وهو لكعب بن سعد الغنوي من قطعة أوردها القالي في أماليه ٢/ ١٥١. وشاهده: أن أجاب واستجاب بمعنى واحد، و «فَلَمْ يَستجِبهُ» بمعنى فلم يجبه. وانظر الأصمعيّات ٩٦، ومجاز القرآن ١/ ٦٧ و ٢/ ١٠٧ والاقتضاب ٣/ ٣٩٩، واللسان جوب، والمسائل العسكرية للفارسي ١٥٥، والدر المصون ٤/ ٧٥٥.

(٤) نقله الفراء في المعاني ٣/ ٢٤.

(٥) قال بهذين الوجهين ابن الأنباري في البيان ١/ ٣٤٨.

(٦) الكشاف ٣/ ٤٦٩.

(٧) ما بين القوسين كله سقط من ب بسبب انتقال النظر.

(٨) زيادة من ب.

(٩) انظر البغوي ٦/ ١٢٤.

ـ (رضي الله عنهما)[١] ـ: بغيهم طَلَبـ (ـهم)[٢] منزلةً بعد منزلة، ومركباً بعد مركب وملبساً بعد ملبس، ولكن ينزل أرزاقهم بقدر ما شاء نظراً منه لعباده[٣].

(قرأ ابن كثير[٤] وأبو عمرو يُنَزِّلُ مشددة، والباقون[٥] مخففة) إنَّه بعباده خبيرٌ بصيرٌ. روى أنس بن مالك عن النبي ـ ﷺ ـ عن جبريل عن الله عز وجل في حديث طويل وفيه يقول الله عزَّ وجلَّ: «ما تَرَدَّدْتُ في شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي في قَبْضِ رُوحِ عَبْدِي المُؤْمِنِ يَكْرَهُ المَوْتَ وأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ[٦] وَلاَ بُدَّ لَهُ مِنْهُ وإنَّ مِنْ عِبَادِي المُؤْمِنِينَ لمَنْ يَسْأَلُنِي البَابَ عَنِ العِبَادَةِ فأَكُفُّهُ عَنْهُ (أَنْ)[٧] لاَ يَدْخُلَهُ عُجْبٌ فيُفْسِدَهُ ذَلِكَ وَإنَّ مِنْ عِبَادِي المُؤْمِنِينَ لمَنْ لاَ يُصْلِحُ إيمَانَهُ إلاَّ الغِنَى وَلَوْ أَفْقَرْتُهُ لأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وإنَّ مِنَّ عِبَادِي (المُؤْمِنِينَ)[٨] لمَنْ لاَ يُصْلِحُ إيمَانَهُ إلاَّ الفَقْرُ ولو أَغْنَيْتُهُ لأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وإنَّ مِنْ عِبَادِي (المُؤْمِنِينَ) لمَنْ لاَ يُصْلِحُ إيمَانَهُ إلاَّ الصِّحَّةُ، وَلَوْ أَسْقَمْتُهُ لأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وإنَّ مِنْ عِبَادِي (المُؤْمِنِينَ) لمَنْ لاَ يُصْلِحُ إيمَانَهُ إلاَّ السَّقَمُ وَلَوْ أَصْحَحْتُهُ لأَفْسَدَهُ ذَلِكَ وذَلِكَ أَنِّي أُدَبِّرُ أَمْرَ عِبَادِي بِعِلْمِي بِقُلُوبِهِمْ إنِّي عَلِيمٌ خَبِيرٌ»[٩].

فصل

وجه التعلق أنه تعالى لما قال في الآية الأولى إنه يجيب دعاء المؤمنين وَرَدَ عليه سؤالٌ وهو أن المؤمن قد يكون في شدة وبليَّةٍ وفَقْر ثم يدعو فلا يظهر أثر الإجابة فكيف الجمع بينه وبين قوله: ويستجيب الذين آمنوا؟! فأجاب تعالى عنه بقوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، ولأقدموا على المعاصي، فلذلك وجب أن لا يعطيهم ما طلبوه، ويؤيده الحديث المتقدم[١٠].

فصل[١١]

قال الجبائيُّ: هذه الآية تدل على فساد قول المجبرة من وجهين:

---

(١) زيادة من أ.
(٢) كذلك.
(٣) البغوي المرجع السابق.
(٤) ما بين القوسين سقط من ب.
(٥) كذا ذكر المؤلف وفي الرازي: قرأ ابن كثير وأبو عمرو يُنْزِلُ خفيفة والباقون بالتشديد ولم أجدها في المتواتر عنهما ولا في الشواذ، وقد ذكرها الرازي في تفسيره ولكن على العكس ممَّا ذكر المؤلف انظر الرازي ٢٧/ ١٧١.
(٦) في ب إساءته.
(٧) زيادة من البغوي.
(٨) كلمة المؤمنين سقطت من ب محررةً.
(٩) أخرجه الإمام البغوي في تفسيره عن هشام الكناني عن أنس. البغوي ٦/ ١٢٥، وانظر الخازن نفس الصفحة ومسند الإمام أحمد ٦/ ٢٥٦، والقرطبي ١٦/ ٢٨ وهو جزءٌ من حديث.
(١٠) الرازي ٢٧/ ١٧٠.
(١١) هذا الفصل كله سقط من نسخة ب.

الأول: أنه تعالى لو بسط الرزق لعباده لبغوا في الأرض غير مراد، فعلمنا أنه تعالى لا يريد البَغْيَ في الأرض، وذلك يوجب فساد قول المجبرة.

الثاني: أنه تعالى إنما لم يرد بسط الرزق؛ لأنه يفضي إلى المفسدة، فلما بين تعالى أنه لا يريد ما يفضي إلى المفسدة فبأن لا يكون مريداً للمفسدة كان أولى.

وأجيب: بأن الميل إلى البغي والقسوة والقهر صفة حدثت بعد أن لم تكن، فلا بد لها من فاعل وفاعل هذه الأحوال إما العبد أو الله، والأول باطل؛ لأنه إنما يفعل هذه الأشياء لو مال طبعه إليها وعاد السؤال في أنه من المحدث لذلك الميل الثاني؟ ويلزم التسلسل، وأيضاً فالميل الشديد إلى الظلم والقسوة عيوبٌ ونقصاناتٌ، والعاقل لا يرضى بتحصيل موجبات النقصان لنفسه، ولما بطل هذا ثبت أن محدث هذا الميل والرغبة هو الله تعالى.

ثم أورد الجبائي على نفسه سؤالاً:

فإن قيل: أليس قد يبسط الله الرزق لبعض عباده مع أنه يبغي؟!.

فأجاب عنه: بأن الذي يبسط له الرزق إذا بغى كان المعلوم من حاله أنه يبغي على كل حال سواء أُعْطِيَ ذلك الرزق أو لم يُعْطَ[1]. قال ابن الخطيب: هذا الجواب فاسد، ويدل عليه القرآن والعقل أما القرآن فقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦ ـ ٧] حكم مطابق لكون حصول الغنى سبب لحصول الطغيان وأما العقل فهو أن النفس إذا كانت مائلةً إلى الشر فمع حصول الغنى تميل إلى الشر أكثر، فثبت أن وجدان المال يوجب الطغيان[2].

فصل

في كون بسط الرزق موجباً للطغيان وجوه:

الأول: أن الله تعالى لو سوّى في الرزق بين الكل لامتنع كون البعض محتاجاً إلى البعض، وذلك يوجب خراب العالم وتعطيل المصالح.

الثاني: أن هذه الآية مختصة بالعرب، فإنه[3] كلما اتسع رزقهم، ووجدوا من ماء المطر ما يرويهم ومن الكلأ والعشب ما يشبعهم، أقدموا على النهب والغارة.

الثالث: أن الإنسان متكبر بالطبع، فإذا وجد الغنى والقدرة عاد إلى مقتضى خلقته الأصلية وهو التكبر وإذا وقع في شدة وبليَّة ومكروه انكسر وعاد إلى التواضع والطاعة[4].

---

(١) انظر الرازي مع تغيير وتصرف في العبارة ٢٧/ ١٧٠.

(٢) بالمعنى من تفسيره ٢٧/ ١٧٠. (٣) في ب وإنه.

(٤) المرجع السابق.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ أي المطر «مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا» من بعد ما يئس الناسُ منه. وإنزال الغيث بعد القنوط أدعى إلى الشكر؛ لأن الفرح بحصول النعمة بعد البلية أتمُّ.

قال الزمخشري: قرىء قنطوا، بفتح النون وكسرها[١]. (فأما فتح النون فهي قراءة العامة، وأما كسرها فهي قراءة يحيى بن وثَّاب، والأعمش[٢] وهي لغة وعليها قراءة: ﴿يَقْنَطُ﴾ [الحجر: ٥٦] ﴿لَا تَقْنَطُواْ﴾ [الزمر: ٥٣] بفتح النون في المتواتر. ولم يقرأ في الكسر في الماضي إلا شاذاً و «ما» مصدرية أي من بعد قُنُوطِهِمْ)[٣]. قال مقاتل: حبس الله المطر عن أهل مكة سبع سنين حين قنطوا، ثم أنزل الله المطر فذكرهم الله نعمه.

قوله: «وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ» يبسط مطره، كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٧] وهو الولي الحميد. «الوَلِيُّ»: الذي يتولى عباده بإحسانه «الحَميد» المحمود على ما يوصل إلى الخلق من الرحمة وقيل: «الولي» لأهل طاعته، «الحميد» عند خلقه.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**ومن آياته خَلْقُ السمٰواتِ والأرض**...﴾ الآية قد تقدم الكلام على دلالة خلق السموات والأرض والحيوانات على وجود الإله الحكيم.

فإن قيل: كيف يجوز إطلاق لفظ الدابّة على الملائكة؟!.

فالجواب: فيه وجوه:

الأول: أنه قد يضاف الفعل إلى جماعة، وإن كان فاعله واحداً منهم كما يقال: «بَنُو فُلاَنٍ فَعَلُوا كَذَا»، وإنما فعله واحدٌ منهم ومنه قوله: «يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ والمَرْجَانُ»[٤].

الثاني: أن الدابة عبارة عما فيه الروح والحركة، والملائكة لهم الروح والحركة.

الثالث: لا يبعد أن يقال: إنه تعالى خلق في السموات أنواعاً من الحيوانات يمشون

(١) الكشاف ٣/ ٤٦٩.
(٢) وهي من الأربع فوق العشر انظر الإتحاف ٣٨٣، ثمَّ الكشاف السابق والبحر المحيط ٧/ ٥١٨.
(٣) ما بين القوسين ساقط من ب.
(٤) [الرحمن: ٢٢] وانظر تفسير الإمام العلامة الرازي ٢٧/ ١٧١.

مشي الأناس على الأرض. وروى العبَّاس ـ (رضي الله عنه)[١] ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: فوق السماء السابعة بحر (بين)[٢] أسفله وأعلاه كما بين السماء[٣] والأرض، ثم فوق ذلك ثمانية أوعالٍ بين رُكَبِهِنَّ[٤] وأَظْلاَفِهِنَّ كما بين السَّمَاءِ والأرْضِ، ثُمَّ فَوْقَ ذَلِك العَرْشُ[٥]. . . الحديث.

قوله: «وَمَا بَثَّ» يجوز أن تكون مجرورة المحل عطفاً على «السموات» أو مرفوعته عطفاً على «خلق»، على حذف مضاف أي وخلق ما بثَّ. قاله أبو حيان[٦]. وفيه نظر؛ لأنه يئول إلى جره بالإضافة «لِخَلق» المقدر[٧] فلا يعدل عنه.

قوله: «إِذَا يَشَاءُ» «إِذَا» منصوبة «بجَمْعِهِمْ» لا «بِقَدِيرٍ»، قال أبو البقاء: لأن ذلك يؤدي إلى أن يصير المعنى: وهو على جمعهم قدير إذا يشاء، فتتعلق القدرة بالمشيئة وهو محال[٨]. قال شهاب الدين: وَلاَ أدري ما وجه كونه محالاً على مذهب أهل السنة، فإن كان يقول بقول المعتزلة، وهو أن القدرة تتعلق بما لم يشأ الله مشى كلامه، ولكنه مذهب رديء لا يجوز اعتقاده. ونقول: يجوز تعلق الظرف به أيضاً[٩]. قال الزمخشري: «إذا» تدخل على المضارع كما تدخل على الماضي، قال تعالى: «واللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى» ومنه: «إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ»[١٠]، والمقصود أنه تعالى خلقها لا لعجز ولا لمصلحة ولهذا قال: «وهو على جمعهم إذا يشاء قدير»، يعني الجمع والحشر والمحاسبة[١١].

فصل

احتج الجبَّائيُّ بقوله: إذا يشاء قدير على أن مشيئة الله تعالى محدثةٌ، قال: لأن كلمة «إذا» ظرف لما (لم)[١٢] يستقبل من الزمان وكلمة «يَشَاءُ» صيغة المستقبل فلو كانت مشيئته تعالى قديمة لم يكن لتخصيصها بذلك الوقت المستقبل فائدة، ولما دل قوله: «إِذَا يَشَاءُ» على التخصيص علمنا أن مشيئته تعالى محدثة.

وأجيب: بأن هاتين الكلمتين كما دخلتا على المشيئة فقد دخلتا أيضاً على لفظ «القَدِير» فلزم على هذا أن تكون قدرته صفة محدثة، ولما كان هذا باطلاً فكذا القول في المشيئة[١٣].

---

(١) سقط من ب. (٢) كذلك.

(٣) في ابن ماجة: بين سماء إلى سماء. (٤) وفيه: بين أظلافهن وركبهن.

(٥) وفيه: فوق ظهورهن العرش، انظر ابن ماجة ١/ ٦٩ نقلاً عن العباس بن عبد المطلب وهو جزء من حديث طويل.

(٦) البحر المحيط ٧/ ٥١٨. (٧) في ب المقدرة.

(٨) التبيان ١١٣٣. (٩) الدر المصون ٤/ ٧٥٦.

(١٠) الكشاف ٣/ ٤٧٠. والآية الأولى من الليل.

(١١) بتوضيح وتكملة من الرازي لكلام الزمخشري ٢٧/ ١٧١.

(١٢) زيادة من أ لا معنى لها، فهو تحريف. (١٣) قاله ونقله الرازي في تفسيره ٢٧/ ١٧٢.

قوله: «وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ» قرأ نافع وابن عامر بما كسبت بغير فاء[١]، والباقون بالفاء «فما» في القراءة الأولى الظاهر أنها موصولة[٢] بمعنى الذي، والخبر الجار من قوله «بما كسبت».

وقال قوم منهم أبو البقاء: إنها شرطية حذفت منها الفاء، قال أبو البقاء: كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وقول الآخر:

٤٣٨٢ ـ مَنْ يَفْعَلِ الحَسَنَاتِ اللَّهُ يَشْكُرُهَا ....[٣]

وهذا ليس مذهب الجمهور، إنما قال به الأخفش وبعض البغداديِّين[٤]، وأما قوله: «إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ» فليس جواباً للشرط، إنما هو جواب لقسم مقدر حذفت لامه الموطِّئة قبل أداة الشرط[٥].

وأما القراءة الثانية، فالظاهر أنها فيها شرطية. وقال أبو البقاء: إنَّه ضَعيفٌ[٦] ولا يلتفت إلى ذلك. ويجوز تكون الموصولة، والفاء داخلة في الخبر تشبيهاً للموصول بالشرط بشروط مذكورة في هذا الكتاب. وقد وافق نافع وابن عامر مصاحفهما، فإن الفاء ساقطة من مصاحف المدينة والشام، وكذلك الباقون، فإنها ثابتة في مصاحف مكَّة والعراق[٧].

فصل

اختلفوا فيما يحصل في الدنيا من الآلام والأسقام، والقَحط، والغَرَق، والمصائب هل هي عقوبات على ذنوب سلفت أم لا؟ فمنهم من أنكر ذلك لوجوه:

الأول: قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [غافر: ١٧] بيّن تعالى أن ذلك إنما يحصل يوم القيامة وقال تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٣] أي يوم الجزاء، وأجمعوا على أن المراد منه يوم القيامة.

الثاني: مصائب الدنيا يشترك فيها الزنديق، والصِّدِّيق، فيمتنع أن يكون عقوبة على

---

(١) وكذا قرأ أبو جعفر من السبعة أيضاً انظر السبعة ٥٨١، والإتحاف ٣٨٣.

(٢) وهو أحد قولي ابن الأنباري في البيان ٢/٣٤٩ وانظر الجامع للإمام القرطبي ١٦/ ٣٠.

(٣) سبق هذا البيت وبيانُ ما فيه، وانظر التبيان ١١٣٣.

(٤) حذف الفاء ضرورة عند المحققين والجمهور في موضع اللزوم كالبيت السابق وقد روي: مَنْ يفعل الخير فالرَّحمنُ يشكره فلا ضرورة إذن. وأجاز الكوفيون حذف العلامة اختياراً استدلالاً بقوله: «أينما تكونوا يدرككم الموت» على قراءة الرفع وهي شاذة. وهذا على غير رأي سيبويه والجمهور. انظر شرح الكافية ٢/ ٢٦٣.

(٥) والتقدير: ولئن أطعتموهم، وهذا قول السمين في الدر ٤/٧٥٦.

(٦) التبيان ١١٣٣.

(٧) الكشاف ٣/ ٤٧٠ والسمين في الدر المصون ٤/ ٧٥٧.

الذنوب، بل حصول المصائب (للصالحين)[١] والمتقين أكثر منه للمذنبين، ولهذا قال ـ عليه الصّلاة والسّلام ـ: «خُصَّ البَلاَءُ بالأَنْبِيَاءِ ثُمَّ الأَمْثَل فالأَمْثَلِ»[٢].

الثالث: أن الدنيا دار تكليف، فلو حصل الجزاء فيها لكانت دار تكليف ودار جزاء معاً وهو محالٌ. وقال آخرون: هذه المصائب قد تكون أجزيةً على ذنوب متقدمة لهذه الآية، ولما روى الحسن قال: لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ـ ﷺ ـ «والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مِنْ خَدْشِ عُودٍ ولا عَثْرةِ قَدَمٍ وَلاَ اخْتِلاَجِ عِرْقٍ إلاَّ بِذَنْبٍ وَمَا يَعْفُو اللَّهُ عَنْهُ أَكْثَرُ»[٣].

قال علي بن أبي طالب: أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بأَفْضَلِ آيَةَ في كِتَابِ اللَّهِ حَدَّثَنا بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ـ ﷺ ـ: «وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فبمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ» (قَالَ)[٤]: وَسَأفسِّرُها لَكَ يَا عَلِيُّ مَا أَصَابَكُمْ مِنْ مَرَضٍ أَوْ عُقُوبَةٍ أَوْ بَلاَءٍ في الدُّنْيَا فبمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ واللَّهُ عَزَّ وجَلَّ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُثْنِيَ عَلَيْكُم العُقُوبَةَ في الآخِرَةِ، وَمَا عَفَا اللَّهُ عَنْهُ في الدُّنْيَا، فَاللَّه أَحْلَمُ مِنْ أَنْ يَعُودَ بعد عَفْوِهِ[٥]. وتمسكوا أيضاً بقوله تعالى بعد هذه الآية: «أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا» وذلك تصريح بأن ذلك الاهلاك بسبب كسبهم. وأجاب الأولون بأن حصول هذه المصائب يكون من باب الامتحان في التكليف، لا من باب العقوبات، كما في حق الأنبياء والأولياء. ويحمل قوله: «بما كسبت أيديكم» على أن الأصلح عند إتيانكم بذلك الكسب إنزال هذه المصائب عليكم[٦].

فصل

هذه الآية تقتضي إضافة الكسب إلى اليد، والكسب لا يكون باليد بل بالقدرة القائمة باليد فوجب أن يكون المراد من لفظ اليد هاهنا القدرة، وإذا كان هذا المجاز[٧] مشهوراً مستعملاً كان لفظ اليد الوارد في حق الله تعالى يجب حمله على القدرة تنزيهاً لله تعالى عن[٨] الأعضاء.

قوله: «وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ» أي قد يترك الكثير بفضله ورحمته قال الواحدي ـ بعد أن روى حديث عليٍّ المتقدم ـ: وهذه أرجى آية في كتاب الله؛ لأن الله تعالى جعل ذنوب

---

(١) سقط من ب.
(٢) في ابن كثير: «أشدُّ النّاس بلاءً الأنبياء ثم الصالحون» ٣/ ٤٠٤ بدون سندٍ.
(٣) رواه ابن أبي حاتم عن الحسن انظر المرجع السابق ٤/ ١١٦ والكشاف ٣/ ٤٧١.
(٤) سقط من ب.
(٥) نقله البغوي في معالم التنزيل ٦/ ١٢٦.
(٦) قاله الرازي في التفسير الكبير ٢٧/ ١٧٢، ١٧٣.
(٧) فهو مجاز مرسل علاقته السببية كقوله تعالى: ﴿**يد الله فوق أيديهم**﴾.
(٨) في ب «مِنْ». وانظر الرازي السابق.

المؤمنين صنفين، صنف كفَّر عنهم بالمصائب، وصنفٌ عَفَا عنه في الدنيا، وهو كَرَمٌ لا يرجع في عفوه فهذه سنة الله مع المؤمنين. وأما الكافر، فإنه لا يعجل له عقوبة ذنبه حتى يوافي (رَبَّهُ)[1] يوم القيامة[2].

ثم قال: «وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ» أي بفائتين «في الأَرْضِ» هرباً، أي لا تُعْجِزونَنِي حيث ما كنتم ولا تَسْبِقُوني «وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ» والمراد به من يعبد الأصنام، بين أنه لا فائدة فيها ألبتة بل النَّصير هو الله تعالى، فلا جرم هو الذي يَحْسُنُ عِبَادَتُهُ[3].

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: «وَمِنْ آيَاتِهِ الجَوَارِ في البَحْرِ كَالأَعْلاَمِ» قرأ نافعٌ وأبو عمرو «الجواري» بياء في الوصل[4]. وأما الوقف فإثباتها على الأصل وحذفها للتخفيف، وهي السفن، وأحدثها جاريةٌ، وهي السائرة في البحر.

فإن قيل: الصفة متى لم تكن خاصةً بموصوفها امتنع حذف الموصوف، لا تقول: مررت بماشٍ؛ لأن المَشْيَ عامٌّ، وتقول: مررت بمهندس وكاتبٍ، والجري ليس من الصفات الخاصة فما وجه ذلك؟

فالجواب: أن قوله: «في البحر» قرينة دالة على الموصوف، ويجوز أن تكون هذه صفة غالبة كالأبطح[5] والأبرق[6]، فوليت العوامل دون موصوفها[7]. و «في البَحْرِ» متعلق «بالجواري»، إذا لم يجر مجرى الجوامد، فإن جرى مجراه كان حالاً منه[8]، وكذا قوله: «كالأَعْلاَمِ» وهي الجبال قالت الخَنْسَاءُ:

٤٣٨٣ ـ وَإِنَّ صَخْراً لَتَأْتَمُّ الهُدَاةُ بِهِ ... كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ[9]

---

(١) لفظ ربه سقط من ب. (٢) انظر البسيط للإمام الواحدي ميكروفيلم، والرازي ٢٧/ ١٧٣.
(٣) السابق.
(٤) في النسختين وأما الوقف، وفي ب فإثباتها ووجدت الوصل والوقف في الرازي ٢٧/ ١٧٤ وفي السبعة غير ذلك. قال ابن مجاهد: قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو بياء في الوصل. انظر السبعة ٥٨١ والإتحاف ٣٨٣.
(٥) هو مَسِيلُ الوادي لا نَبْتَ فيه.
(٦) كل ما فيه سواد وبياض وغلب على الجبل ومن هنا ساغ حذف الموصوف فقد استعملا استعمال الأسماء انظر اللسان بطح وبرق ٢٦٢ و ٢٩٩.
(٧) الدر المصون ٤/٧٥٧. (٨) انظر التبيان ١١٣٤.
(٩) من تمام البسيط في رثاء أخيها صخر، وشاهده: علم في رأسه فهو بمعنى الجبل مفرقاً لأعلام. وانظر =

روي: أن النبي ـ ﷺ ـ استنشد (بـ)[١] قصيدتها هذه، فلما وصل (الراوي)[٢] (إلى)[٣] هذا البيت قال: قَاتَلَهَا اللَّهُ مَا رَضِيَتْ تَشْبِيهَهُ[٤] بالجَبَلِ حَتَّى جَعَلَتْ في رَأْسِهِ نَاراً[٥].

وقال مجاهد: الأعلام القصور، واحدها علم. وقال الخليل بن أحمد: كل شيءٍ مرتفع عند العرب فهو علم وسمع: هذه الجوار، وركبت الجوار، وفي الجوار، بالإعراب على الراء تناسياً للمحذوف[٦]، وتقدم هذا في قوله تعالى: ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١].

فصل

اعلم أن المقصود من ذكر هذه الآية أمران:

أحدهما: أن يستدل به على وجود الإله القادر الحكيم.

الثاني: أن يعرف ما فيه من النِّعم العظيمة لله تعالى على العباد، وأما وجه الأول فإن هذه السفن العظيمة التي كالجبال تجري على وجه البحر عند هبوب الرياح على أسرع الوجوه وعند سكون الرياح (تقف)[٧] وقد تقدم في سورة النحل أن مُحَرِّك الرياح ومُسَكِّنَها هو الله (سبحانه و)[٨] تعالى؛ إذْ لا يقدر أحد من البشر على تحريكها ولا على تسكينها، وذلك يدل على وجود الإله القادر مع أن تلك السفينة في غاية الثقل ومع ثقلها بقيت على وجه الماء أيضاً. وأما دلالتها على النعم العظيمة، وهو ما فيها من المنافع فإنه تعالى خص كل جانب من الأرض بنوع من الأمتعة، فإذا نقل متاع هذا الجانب إلى الجانب الآخر في السفن وبالعكس حصلت المنافع العظيمة بالتجارة، فلهذه الأسباب ذكر الله تعالى حال هذه السفن[٩].

قوله: «إنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ» التي تجري بها «فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ» قرأ أبو عمرو والجمهور بهمزة: «إنْ يَشَأْ» لأن السكون علامة الجزم، وورشٌ عن نافع بلا همز[١٠] وقرأ نافع «يُسْكِنِ[١١] الرِّيَاحَ» على الجمع والباقون «الريحَ» على التوحيد[١٢].

وقوله: «فَيَظْلَلْنَ» العامة على فتح اللام التي هي عين الكلمة وهو القياس؛ لأن

= الدر المصون ٤/ ٧٥٧ والجامع للقرطبي ١٦/ ٣٢، ولسان العرب علم ٣٠٨٤ و ٣٠٨٥ وديوانها ٤٩.

(١) الباء زيادة من ب. (٢) زيادة من أ.

(٣) زيادة من ب. (٤) في ب تشبُّهه.

(٥) قاله الألوسيُّ في روح المعاني ٢٥/ ٤٢. (٦) من الياء.

(٧) سقطت من ب. (٨) كذلك.

(٩) الرازي ٢٧/ ١٧٥.

(١٠) لم أجدها في كتب المتواتر ولا الشواذ وقد نقلها الرازي ٢٧/ ١٧٥.

(١١) في ب بسكون خطأ. (١٢) وانظر الإتحاف ٣٨٣.

الماضي بكسرها، تقول[١] ظَلِلْتُ قائماً. وقرأ قتادة بكسرها[٢] وهو شاذ، نحو: حسب يحسب وأخواته وقد تقدمت آخر البقرة[٣].

وقال الزمخشري: قرىء بفتح اللام وكسرها من ظَلَّ يظل ويظل، نحو: ضَلّ يَضَلّ[٤] ويَضِلُّ. قال أبو حيان: وليس كما ذكر؛ لأن يضَلُّ بفتح العين من ضَلِلْت بكسرها في الماضي ويَضِلّ بالكسر من ضَلَلْتُ بالفتح وكلاهما مقيس[٥] يعني أن كلاً منهما له أصلٌ يرجع إليه بخلاف «ظَلَّ» فإن ماضيه مكسور العين فقط.

والنون اسمها، و «رَوَاكِدَ» خبرها ويجوز: أن يكون «ظل» هنا بمعنى صار؛ لأن المعنى ليس على وقت الظلول، وهو النهار فقط وهو نظير: أين باتت يده[٦]، من هذه الحيثية. والرُّكود والثُّبُوتُ الاستقرارُ قال:

٤٣٨٤ ـ وَقَدْ رَكَدَتْ وَسْطَ السَّمَاءِ نُجُومُهَا رُكُوداً بِوَادِي الرَّبْرَبِ المُتَفَرِّقِ[٧]

والمعنى فيظللن رواكد أي ثوابت على ظهر البحر، لا تجري «إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ» على بلاء الله «شَكُورٍ» على نعمائه.

قوله: «أَوْ يُوبِقْهُنَّ» عطف على «يُسْكِنْ» قال الزمخشري: لأن المعنى: إن يَشَأْ يُسْكِنْ فَيَرْكُدْنَ، أو يَعْصِفْهَا فَيَغْرقْنَ[٨] بِعَصْفِهَا، قال أبو حيان: ولا يتعين أن يكون التقدير: أو يعصفها فيغرقن لأن إهلاك السفن لا يتعين أن يكون بعصف الريح، بل قد يهلكها بقلع لوح أو خسفٍ[٩].

قال شهاب الدين: والزَّمخشريُّ لم يذكر أن ذلك متعين، وإنما ذكر شيئاً مناسباً؛ لأن قوله: يسكن الرياح يقابله «يعصفها» فهو في غاية الحسن والطِّباق[١٠].

---

(١) مكررة في ب.

(٢) من القراءة الشاذة التي لم يُجزها أبو الفتح قال: هذه القراءة على ظَلِلْتُ أَظِلُّ، كفَرِرتُ أَفِرُّ والمشهور فيها: فعِلتُ أفعَلُ، وأما ظللتُ أظِلُّ فلم يمر بنا، لكن قد مر نحو: ضَلِلْتُ أَضِلُّ وضَلِلْتُ أَضَلُّ. المحتسب ٢/ ٢٥٢ وأبان أبو الفتح أنها لغة.

(٣) فعِلٌ قياس مضارعه يفعل بفتح العين وجاء بكسرها وجوباً في مضارع وَمِقَ، وَوَثِقَ، وَوَفِقَ، وَوَلِيَ، وَوَرِثَ، وَوَرِعَ، وورِمَ، ووَرِيَ الخ، ووَعِمَ، وبكسرها جوازاً مع الفتح في مضارع حَسِبَ، ونَعِمَ، ويَئِسَ، ويَبِسَ، ووَعِرَ، ووَحِرَ، ووَلِهَ، ووَهِلَ، ووَلِعَ، ووَزِعَ، ووَسِقَ، ووَحِبَ، ووَلِغَ. (المزهر ٢/ ٣٧ و ٣٨).

(٤) الكشاف ٣/ ٤٧٠. (٥) البحر المحيط ٧/ ٥٢٠.

(٦) جزء من حديث رواه أبو هريرة عن رسول الله ـ ﷺ ـ واستشهد بالحديث بأن «بات» ليست للدلالة على حال البيات، وإنما على مطلق المكث وانظر الحديث في صحيح البخاري ١/ ٤٢.

(٧) من الطويل وهو مجهول قائله. والرَّبْربُ: قطيع البقر والظباء. والشاهد: ركدت.. ركوداً، فإن الركود بمعنى الثبوت والاستقرار. وانظر البحر المحيط ٧/ ٥٠٧ والدر المصون ٤/ ٧٥٨.

(٨) الكشاف ٣/ ٤٧١. (٩) بالمعنى من البحر ٧/ ٥٢١.

(١٠) بالمعنى من البحر ٤/ ٧٥٨.

فصل

معنى «يُوبِقْهُنَّ» يُهْلِكْهُنَّ ويغرقهن «بِمَا كَسَبُوا» أي بما كسبت ركابها من الذنوب «وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ» من ذنوبهم فلا يعاقب عليها[(١)]. يقال: أَوْبَقَهُ أي أهلكه، كما يقال للمجرم: أَوْبَقَتْهُ ذنوبه أي أهلكته[(٢)].

فإن قيل: ما معنى إدخال العفو في حكم الإيباق حيث جعل مجزوماً مثله؟

فالجواب: معناه إن يشأ يهلك ناساً وينج ناساً على طريق العفو عنهم، وأما من قرأ «ويعفو» فقد استأنف الكلام[(٣)]. والعامة على الجزم عطفاً على جواب الشرط. واستشكله القشيريُّ، وقال: لأن المعنى إن يشأ يسكن الريح فتبقى تلك السفن رواكداً ويهلكها بذنوب أهلها، فلا يحسن عطف: «وَيَعْفُ» على هذا لأن المعنى يصير: إن يشأ يعف، وليس المعنى على ذلك، بل المعنى الإخبار عن العفو من غير شرط المشيئة فهو عطف على المجزوم من حيث اللفظ لا من حيث المعنى[(٤)]. قال أبو حيان: وما قاله ليس بجيّد، إذ لم يفهم مدلول التركيب والمعنى إلا أنه تعالى إن يشأ أهلك ناساً وأنجى ناساً على طريق العفو عنهم[(٥)]. وقرأ الأعمش: ويعفو بالواو[(٦)]. وهي تحتمل أن تكون كالمجزوم، وثبتت الواو في الجزم كثبوت الياء في «مَنْ يَتَّقِي وَيَصْبِرْ»[(٧)]. ويحتمل أن يكون الفعل مرفوعاً، أخبر الله تعالى أنه يعفو عن كثير من السَّيِّئات[(٨)].

وقرأ بعض أهل المدينة[(٩)(١٠)] بالنصب بإضمار «أنْ» بعد الواو كنصبه في قول النابغة: شعراً:

٤٣٨٥ ـ فَإِنْ يَهْلِكْ أَبُو قَابُوسَ يَهْلِكْ رَبِيعُ النَّاسِ والبَلَدُ الحَرَامُ
وَنَأْخُذُ بَعْدَهُ بِذِنَابِ عَيْشٍ أَجَبَّ الظَّهْرِ لَيْسَ لَهُ سَنَامُ[(١١)]

---

(١) قاله البغوي في ٦/١٢٦ من معالم التنزيل.

(٢) قاله ابن قتيبة في غريب القرآن ٣٩٣، واللسان «وَبَقَ» ٤٧٥٥.

(٣) قاله الرازي في التفسير الكبير ٢٧/ ١٧٥.

(٤) القرطبي في الجامع بتصرف ١٦/ ٣٣.

(٥) البحر المحيط ٧/ ٥٢١.

(٦) السابق وانظر الكشاف ٢/ ٤٧١ والقرطبي بدون نسبة فيهما ١٦/ ٣٣.

(٧) وهي قراءة ابن كثير وصلاً ووقفاً. السبعة ٣٥١ وهي من الآية ٩٠ من يوسف.

(٨) بالمعنى من الكشاف ٣/ ٤٧١ وباللفظ من الدر المصون ٤/ ٧٥٩.

(٩) أخبر ابن مجاهد في السبعة ٥٨١، أنهم ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي.

(١٠) زيادة من ب.

(١١) بيتان من تمام الوافر له مدحاً في النعمان بن الحارث، والذِّنابُ عقب كل شيء، و «أجب الظهر» مقطوع السَّنام.
والشاهد في «وتأخذ» حيث يجوز فيه النصب والرفع والجزم فالجزم على العطف والنصب على الإضمار والرفع على الاستئناف، وقد تقدم.

بنصب ونأخذ ورفعه وجزمه، وهذا كما ترى بالأوجه الثلاثة بعد الفاء في قوله تعالى: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] كما تقدم آخر البقرة ويكون قد عطف هذا المصدر المؤول من «أنْ» المضمرة والفعل على مصدر متوهَّم[١] من الفعل قبله تقديره: أو يقع إيباقٌ، وعفوٌ عن كثيرٍ. فقراءة النصب كقراءة الجزمَ في المعنى إلا أن في هذه عطف مصدر مؤول على مصدر متوهم وفي تيك عطفُ فعل على مثله[٢].

قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ قرأ نافع وابن عامر برفعه والباقون بنصبه[٣]. وقرىء: بجزمه أيضاً[٤]. فأما الرفع فواضح جداً، وهو يحتمل وجهين: الاستئناف بجملة فعلية، والاستئناف بجملة اسمية، فتقدر قبل الفعل مبتدأ أي وهو يعلم الذين و «الذين»[٥] على الأول فاعل، وعلى الثاني مفعول. وأما قراءة النصب ففيها أوجه:

أحدها: قال الزجاج: على الصرف قال: ومعنى الصرف صرف العطف عن اللفظ إلى العطف على المعنى قال: وذلك أنه لم يحسن عطف «ويعلم» مجزوماً على ما قبله؛ إذ يكون المعنى إن يشأ يعلم عدل إلى العطف على مصدر الفعل الذي قبله، ولا يتأتى ذلك إلا بإضمار «أن» ليكون مع الفعل في تأويل اسم[٦]. وقال البغوي: قرىء بالنصب على الصَّرف والجزم إذا صرف عنه معطوفه نصب كقوله: ﴿وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢] نقل من حال الجزم إلى النصب استخفافاً وكراهية توالي الجزم[٧].

الثاني: قول الكوفيون: إنه[٨] منصوب بواو الصرف يعنون أن الواو نفسها هي الناصبة، لا بإضمار «أنْ» وتقدم معنى الصَّرف.

---

(١) أو متصيد.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٥٢٠ والدر المصون ٤/ ٧٥٩.

(٣) قراءة متواترة أوردها صاحب الإتحاف ٣٨٣ وكذا صاحب السبعة ٥٨١.

(٤) قراءة شاذة لم ينسبها الزمخشري في كشافه ٣/ ٤٧٢ وانظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٥ ونقلها القرطبي عن الفراء الذي قال: «ولو جزم «ويعلم» جازمٌ كان مصيباً». القرطبي ١٦/ ٣٤.

(٥) الدر ٤/ ٧٥٩.

(٦) لم أجد هذا الرأي منسوباً للزجاج في: معاني القرآن وإعرابه عند هذه الآية ونسبهُ أبو شامة في: إبراز المعاني لأبي عبيد ٦٧٥ وأبو حيان في البحر المحيط ٧/ ٥٢١. ولقد مشى المؤلف وحذا حذو صاحب الدر المصون في نسبة هذا الرأي للزجاج. الدر المصون ٤/ ٧٥٩.

(٧) ذكره في معالم التنزيل ٦/ ١٢٦.

(٨) قال ابن هشام في المغني: والواو الداخلة على المضارع المنصوب لعطفه على اسم صريح أو مؤول، فالأولى كقوله: «للبس عباءةٍ وتقر عيني.... البيت».
والثاني: شرطه أن يتقدم الواو نفي أو طلب وسمى الكوفيون هذه الواو واو الصرف، وليس النصب بها خلافاً لهم. وقال ابن هشام: والحق أن هذه واو العطف كما سيأتي. المغنى ٣٦٠: ٣٦١.

الثالث: قال الفارسي[١] ـ ونقله الزمخشري[٢] عن الزجاج ـ إن النصب على إضمار «إنْ»؛ لأن قبلها جزاءً تقول: ما تصنع أصنع، وأكرمك وإن شئت: وأكرمك على: وأنا أكرمك، وإن شئت: وأكرمك جزماً.

قال الزمخشري: وفيه نظر؛ لما أورده سيبويه في كتابه قال: واعلم أنَّ النَّصب بالواو والفاء في قوله: إن تَأْتِنِي آتِكَ، وأُعطِيكَ ضعيفٌ، وهو نحو من قوله:

٤٣٨٦ ـ .... وَأَلْحَقَ بِالحِجَازِ فَأَسْتَرِيحَا[٣]

فهذا (لا)[٤] يجوز؛ لأنه ليس بحَدِّ الكلام ولا وجه، إلا أنه في الجزاء صار أقوى قليلاً؛ لأنه ليس بواجب أنه يفعل إلا أن يكون من الأول فعل، فلما ضارع الذي لا يوجبه كالاستفهام ونحوه أجازوا فيه هذا على ضعفه[٥]. قال الزمخشري: ولا يجوز أن تحصل القراءة المستفيضة على وجهٍ ليس بحدِّ الكلام ولا وجهه، ولو كانت من هذا الباب لما أخلى سيبويه منها كتابه. وقد ذكر نظائرها من الآيات المشكلة[٦].

الرابع: أن ينتصب عطفاً على تعليل محذوف تقديره: لينتقم منهم ويعلم الذين ونحوه في العطف على التعليل المحذوف غير عزيز في القرآن ومنه: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١] ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ﴾ [الجاثية: ٢٢] قاله الزمخشري[٧]. قال أبو حيان: ويبعد تقديره: لينتقم منهم لأنه مرتب على الشرط إهلاك قوم ونجاة قوم فلا يحسن «لينتقم منهم» وأما الآيتان فيمكن أن تكون اللام متعلقةً بفعل محذوف تقديره «وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ فَعَلْنَا ذلك، ولتُجزَى كُلُّ نَفْسٍ فَعَلْنَا ذَلِكَ» وهو كثيراً (ما)[٨] يقدر هذا الفعل مع هذه اللام إذا لم يكن فعل يتعلق به[٩]. قال شهاب الدين: بل يحسن تقدير: لينتقم؛ لأنه يعود في المعنى على إهلاك قوم المترتب على الشرط[١٠].

وأما الجزم فقال الزمخشري:

---

(١) الحجة ٧/ ٩٩ بلدية.
(٢) الكشاف ٣/ ٤٧٢.
(٣) عجز بيت من الوافر للمغيرة بن حبناء صدره:

سأترك منزلي لبني تميم ....

وفي المقتضب لأبي العباس: وألحق بالعراق، وشاهده: نصب الفعل أستريح بعد الفاء في غير جواب الأمر أو النهي وشبههما وذلك لا يكون إلا في ضرورة فهو ضعيف كما قال سيبويه وانظر ابن يعيش ١/ ٢٧٩، والخزانة ٨/ ٥٢٢ والكتاب ٣/ ٣٩و ٩٢ والأشموني ٣/ ٣٠٥. والهمع ١/ ٧٧ و ٢/ ١٠ و ١٦ و ٧٣ والمقتضب ٢/ ٢٢ والإفصاح ١٨٤.
(٤) سقطت من ب.
(٥) الكتاب ٢/ ٣٤٢.
(٦) الكشاف ٣/ ٤٧٢.
(٧) الكشاف السابق.
(٨) لفظ «ما» سقط من ب.
(٩) انظر البحر المحيط ٧/ ٥٢١.
(١٠) الدر المصون ٤/ ٧٦٠.

فإن قلت: كيف يصح المعنى على جزم «وَيَعْلَمْ»؟!

قلت: كأنه قيل[١]: أو إن يشأ يجمع بين ثلاثة أمور إهلاك قوم ونجاة قوم وتحذير آخرين[٢]. وإذا قرىء بالجزم فيكسر الميم لالتقاء الساكنين.

وقوله: «مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ» في محل نصب، بسدها مسدَّ مفعولي[٣] العلم.

فصل

المعنى[٤] وليعلم الذين يجادلون أي يكذبون بالقرآن إذا صاروا إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ بعد البعث لا مهرب لهم من عذاب الله[٥]، كما أنه لا مخلص لهم إذا وُقصت السفن وإذا عصفت الرياح، ويكون ذلك سبباً لاعترافهم بأن الإله النافع الضار ليس إلا الله[٦].

قوله تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشورى: ٣٦] الآية لما ذكر دلائل التوحيد أردفها بالتنفير عن الدنيا وتحقير شأنها؛ لأن المانع من قبول الدليل هو الرغبة في الدنيا، فقال: «وَمَا أوتِيتُمْ» «ما» شرطية[٧]، وهي في محل نصب مفعولاً ثانياً[٨] «لأوتِيتُمْ» والأول هو ضمير المخاطبين قام مقام الفاعل، وإنما قدم الثاني؛ لأن له صدر الكلام، وقوله: «مِنْ شَيْءٍ» بيان لما الشرطية لما فيها من الإيهام[٩]. وقوله «فَمَتَاعُ» الفاء جواب[١٠] الشرط و «متاع» خبر مبتدأ مضمر أي فهو متاع[١١]، وقوله «وَمَا عِنْدَ اللَّهِ» «ما» موصولة مبتدأة، و «خَيْرٌ» خبرها، و «لِلَّذِينَ» يتعلق[١٢] «بأبْقَى».

---

(١) في الكشاف كأنه قال.
(٢) السابق.
(٣) التبيان ١١١٤.
(٤) في ب ويعلم.
(٥) وانظر البغوي ٦/١٢٦.
(٦) الرازي ٢٧/ ١٧٦.
(٧) قاله الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٧٢.
(٨) البحر المحيط ٧/ ٥٢٢.
(٩) السابق وانظر في هذا الدر المصون ٤/ ٧٦١.
(١٠) الكشاف السابق.
(١١) التبيان ١١١٤.
(١٢) في ب متعلق بالاسمية وانظر الدر المصون ٤/ ٧٦١.

فصل

المعنى: وما أوتيتم من شيء من رياش الدنيا فمتاع الحياة الدنيا ليس من زاد المعاد، وسماه متاعاً تنبيهاً على قلته وحقارته وجعله من متاع الدنيا تنبيهاً على انقراضه، وأما الآخرة فإنها خير وأبقى والباقي خير من الخَسِيس الفاني.

ثم بين أن هذه الخيرية إنما تحصل لمن كان موصوفاً بصفات منها أن يكون من المؤمنين فقال «لِلَّذِين آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»[1]. وهذا يدل على من زعم أن الطاعة توجب الثواب؛ لأنه متكل على عمل نفسه لا على الله فلا يدخل تحت الآية[2].

الصفة الثانية: قوله: «وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ» نسقٌ على[3] «الذين» الأولى. وقال أبو البقاء: «الذين يجتنبون» في موضع جر بدلاً من[4] «الَّذِينَ آمَنُوا» ويجوز أن يكون في محل[5] نصب بإضمار «أعْنِي» أو في موضع رفع على تقدير «هُمْ»[6] وهذا وَهَمٌ منه في التلاوة كأنه اعتقد أن القرآن: وعلى ربهم يتوكلون الذين يجتنبون فبنى عليه الثَّلاثة الأوجه وهو بناء فاسد[7].

قوله: «كَبَائِرَ الإِثْمِ» قرأ الأخوان هنا وفي النجم[8]: «كَبِيرَ الإِثْمِ» بالإفراد[9]، والباقون كَبَائِرَ بالجمع في السورتين، والمفرد هنا في معنى الجمع والرسم الكريم يحتمل القراءتين.

فصل

تقدم معنى كبائر الإثم في سورة النساء[10]. قال ابن الخطيب: نقل الزمخشري عن ابن عباس: أن كبير الإثم هو الشرك، وهو عندي ضعيف لأن شرط الإيمان مذكور وهو يغني عن عدم الشرك، وقيل: كبائر الإثم ما يتعلق بالبدع واستخراج الشبهات[11]. وأما

---

(١) الرازي ٢٧/ ١٧٦.
(٢) الرازي المرجع السابق.
(٣) التبيان ١١٣٤ ومشكل إعراب القُرآن ٢/ ٢٧٩، وفي معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤/ ٤٠٠ أنه صفة «للذين آمنوا».
(٤) لم أجد ذلك في كتابه السابق وإنما ما وجدته ما قاله المؤلف بعد.
(٥) في ب موضع.
(٦) التبيان ١١٣٥.
(٧) والصحيح أن أبا البقاء لم يتوهم ذلك ولقد تابع المؤلف السمين الذي نقل هذا عن أبي حيان ولقد تتبعت كتاب التبيان وآراءه في هذه الآية فلم أجد ما كتبه عنه المؤلف تبعاً للسمين وشيخه. انظر البحر ٧/ ٥٢٢، والدر المصون ٤/ ٧٦١.
(٨) يعني الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللّمم الآية ٢٢.
(٩) انظر السبعة ٥٨٣، وابن خالويه ٣١٩ ومعاني الفراء ٣/ ٢٥.
(١٠) في قوله: ﴿إن تجتنبوا كبائر﴾ [النساء: ٣١].
(١١) الرازي ٢٧/ ١٧٦.

الفواحش فقال السدي: يعني الزنا. وقال مقاتل: ما يوجب الحدَّ.

قوله: «وإِذَا مَا غَضِبُوا» «إذا» منصوبة بيغفرون، و «يَغْفِرُونَ» خير لهم والجملة بأسرها عطف على الصلة وهي «يجتنبون»، والتقدير: والذين يجتنبون وهم يغفرون عطف اسمية على فعلية. ويجوز أن يكون «هم» توكيد للفاعل في قوله: «غضبوا»، وعلى هذا فيغفرون جواب الشرط[١]. وقال أبو البقاء: هم مبتدأ، ويغفرون الخبر، والجملة جواب إذا[٢].

قال شهاب الدين: وهذا غير صحيح، لأنه لو كان جواباً لإذا لاقترن بالفاء، تقول: إذا جاء زيدٌ فعمرو منطلق، ولا يجوز: عمرو ينطلق[٣]. وقيل: (هم)[٤] مرفوع بفعل مقدر يفسره «يغفرون» بعده ولما حذف الفعل انفصل الضمير[٥]. ولم يستبعده أبو حيان، وقال: ينبغي أن يجوز ذلك في مذهب سيبويه[٦]، لأنه أجازه في الأداة الجازمة تقول: إنْ يَنْطَلِقْ زَيْدٌ ينطلق تقديره: ينطلق زيد ينطلق فينطلق واقع جواباً ومع ذلك فسَّر الفعل فكذلك هذا. وأيضاً فذلك جائز في فعل الشرط بعدها نحو: إذا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ فليجز في جوابها أيضاً[٧].

فصل[٨]

وإذا ما غضبوا هم يغفرون يَحْلِمُونَ ويَكْظِمُونَ الغيظ، وخص الغضب بلفظ الغفران؛ لأن الغضب على طبع النار واستيلاؤه شديد ومقاومته صعبة، فلهذا خصه الله تعالى بهذا اللفظ[٩].

قوله (تعالى)[١٠]: «والَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ» أي أجابوه إلى ما دعاهم إليه من طاعته. وقال ابن الخطيب: المراد منه تمام الانقياد.

فإن قيل: أليس أنه لما حصل[١١] الإيمان فيه شرطاً فقد دخل في الإيمان إجابة الله؟!

والجواب: أن يحصل هذا على الرضا بقضاء الله من صميم القلب وأن لا يكون في

---

(١) انظر البيان ٢/ ٣٥٠. (٢) انظر التبيان له ١١٣٥.

(٣) في ب: عمرو منطلق. . وفي السمين لينطلق ولعله خطأ من الناسخ وانظر الدر المصون ٤/ ٧٦٢.

(٤) سقط من ب.

(٥) قال بهذا ابن الأنباري في البيان ٢/ ٣٥٠ في الآية الآتية وهي: «هم ينتصرون» قال: هذا قياس قول سيبويه.

(٦) قال في الكتاب ٣/ ١١٣ و ١١٤: «واعلم أن قولهم في الشعر: إن زيدٌ يأتك يكن كذا إنما ارتفع على فعل هذا تفسيره كما كان ذلك في قولك: إن زيداً رأيته يكن ذلك، لأنه لا تبتدأ بعدما الأسماء ثم يبنى عليها.

(٧) وانظر البحر المحيط بالمعنى ٧/ ٥٢٢. (٨) في ب قوله بدل من فصل.

(٩) الرازي ٢٧/ ١٦٧. (١٠) سقط من ب.

(١١) الرازي ٢٧/ ١٦٧.

قلبه منازعة. ثم قال: «وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ» أي الواجبة لأن هذا هو الشرط في حصول الثواب.

قوله: «وأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ» أي يتشاورون فيما يبدو لهم ولا يعجلون. والشُّورَى مصدر كالفتيا بمعنى التَّشاور(١). «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ».

قوله: «والَّذِينَ إذَا أَصَابَهُمُ البَغْيُ» أي الظلم والعدوان «هُمْ يَنْتَصِرُونَ» أي ينتقمون من ظالمهم من غير أن يعتدوا. قال ابن زيد: جعل الله المؤمنين صنفين: صنف يعفون عن ظالمهم فبدأ بذكرهم وهو قوله: «وإذا ما غضبوا هم يغفرون» وصنف ينتصرون من ظالمهم وهم المذكورون في هذه الآية كانوا يكرهون أن يستذلوا، فإذا قدروا عفوا. وقال عطاء: هم المؤمنون الذين أخرجهم الكفار من مكة وبغوا عليهم، ثم مكنهم الله في الأرض حتى انتصروا ممن ظلمهم(٢). وعن النَّخعيِّ أنه كان إذا قرأها قال: كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجترىء عليهم السفهاء(٣).

فإن قيل: هذه الآية مشكلة لوجهين:

الأول: أنه لما ذكر قبله: وإذا ما غضبوا هم يغفرون كيف يليق أن يذكر معه ما يَجْري مَجْرَى الضد له وهم الذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون؟!

الثاني: أن جميع الآيات دالة على أن العفو أحسن، قال تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧] وقال: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢] وقال: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وقال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]؟

فالجواب: أن العفو على قسمين:

أحدهما: أن يصير العفو سبباً لتسكين الفتنة ورجوع الجاني عن جنايته.

والثاني: أن يصير العفو سبباً لمزيد جرأة الجاني وقوة غيظه، فآيات العفو محمولة على القسم الأول، وهذه الآية محمولة على القسم الثاني وحينئذ يزول التناقض.

روي: أن زَيْنَبَ أقبلت على عائشة تشتمها فنهاها النبي ـ ﷺ ـ عنها فلم تنته فقال النبي ـ ﷺ ـ: (دُونَكِ(٤) فَانْتَصِرِي) وأيضاً فإنه تعالى لم يرغِّب في الانتصار، بل بين أنه مشروع فقط، ثم بين أن مشروعيته مشروطة برعاية المماثلة(٥) فقال: «وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ

---

(١) في الرازي جعل فُعْلى صفة كفِعْلى صفة مثل: قِسْمَةٌ ضِيزَى. وانظر المرجع السابق.

(٢) البغوي ٦/ ١٢٧.

(٣) نقله القرطبي بلفظ: «فتجترىء عليهم الفساق» انظر الجامع ١٦/ ٣٩.

(٤) تصحيح من تفسير الإمام الرازي ففي النسختين: فقال النبي ـ ﷺ ـ سُبِّيها، ولا أدري من أي مرجع أخذ المؤلف هذه اللفظة.

(٥) انظر هذا في تفسير العلامة فخر الدين الرازي ٢٧/ ١٧٧.

مِثْلُهَا» ثم بين أن العفو أولى بقوله: «فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ» فزال السؤال.

قوله: «هُمْ يَنْتَصِرُونَ» إعرابه كإعراب: «وإذا ما غضبوا هم يغفرون» ففيه ما تقدم، إلا أنه يزيد هنا أنه يجوز أن يكون «هُمْ» توكيداً للضمير المنصوب في «أَصَابَهُمْ» أكد بالضمير المرفوع وليس فيه إلا الفصل بين المؤكد والمؤكد، والظاهر أنه غير ممنوع(١).

قوله تعالى: «وَجَزَاءُ سيئةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها...» الآية لما قال: «والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون» بين بعده أن ذلك الانتصار يجب أن يكون مقيداً بالمثل، فإن العدل هو المساواة، وسمي الجزاء سيئة وإن كان مشروط مأذوناً فيه قال الزمخشري: كلتا الفعلتين: الأولى: وجزاؤها سيئة؛ لأنها تسوء من تنزل به، قال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ [النساء: ٧٨] يريد: ما يسوءهم من المصائب والبلاء(٢). وأجاب غيره بأنه لما جعل أحدهما في مقابلة الآخر أطلق اسم أحدهما على الآخر مجازاً والأول أظهر(٣). وقال آخرون: إنما سمي الجزاء سيئة وإن لم يكن سيئةً لتشابههما في الصُورة(٤).

فصل

قال مقاتل: يعني القصاص في الجراحات والدماء. وقال مجاهد والسدي: هو جواب القبيح إذا قال: أخزاك الله تقول: أخزاك الله وإذا شتمك فاشتمه بمثلها من غير أن تعتدي(٥). قال سفيان بن عيينة: قلت لسفيان الثوريِّ: ما قوله عز وجل: وجزاء سيئة سيئة مثلها؟ قال: أن يشتمك رجلٌ فتشتمه أو يفعل بك فتفعل به فلم أجد عنده شيئاً، فسألت هشام بن حجيرٍ(٦) عن هذه الآية فقال: الجارح إذا جرح يقتص منه وليس هو أن يشتمك فتشتمه(٧).

فصل

دلت هذه الآية على أن المسلم لا يقتل بالذمِّيِّ وأن الحرَّ لا يقتل بالعبد؛ لأن المماثلة شرط لجريان القصاص وهي مفقودة في المسألتين، وأيضاً فإن الحر إذا قتل العبد

(١) هو قول أبي حيان في البحر ٧/ ٥٢٢ قال: وقال الحوفي: وإن شئت جعلت «هم» توكيداً للهاء والميم يعني في أصابهم، وهو ضمير رفع، وفي هذا نظر، وفيه الفصل بين المؤكد والتوكيد بالفاعل (وهو البغي) وهو فعل الظاهر أنه لا يمتنع. البحر ٧/ ٥٢٢ فكأن الرأي الذي أورده المؤلف أعلى هو رأي الحوفي نقلاً عن السمين في الدر عن أبي حيان في البحر، وانظر الدر المصون ٤/ ٧٦٢.

(٢) في الكشاف: والبلايا وانظر الكشاف ٣/ ٤٧٣.

(٣) وانظر الرازي ٢٧/ ١٧٨. (٤) البغوي ٦/ ١٢٧.

(٥) الخازن والبغوي السابق ٦/ ١٢٧.

(٦) في ب حجة تحريف وتصحيف وهو هشام بن حجير ـ مصغراً ـ المكي صدوق له أوهام من السادسة. انظر تقريب التهذيب ٢/ ٣١٧.

(٧) انظر معالم التنزيل للبغوي ٦/ ٣١٧.

يكون قد أتلف على مالك العبد شيئاً (فـ)[١] ـيساوي عشرة دنانير مثلاً فوجب أن يلزمه أداء عشرة دنانير لهذه الآية وإذا وجب الضَّمان وجب أن لا يجب القصاص، لأنه لا قائل بالفرق، فوجب أن يجري القصاص بينهما. والدليل على أن المماثلة شرط لوجوب القصاص هذه الآية، وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [غافر: ٤٠] وقوله: «وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ» وقوله تعالى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥] وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨]. والقصاص عبارة عن المساواة والمماثلة فهذه النصوص تقتضي مقابلة الشيء بمثله. ودلت الآية أيضاً على أن الأيدي تقطع باليد الواحدة؛ لأن كل القطع أو بعضه صدر عن (كل)[٢] أولئك القاطعين أو عن بعضهم. فوجب أن يشوع في حق أولئك القاطعين مثله بهذه النصوص.

فإن قيل: فيلزم استيفاء الزيادة من الجاني وهو ممنوع!.

فالجواب: أنه لما وقع التعارض بين جانب الجاني وبين جانب المجنيِّ عليه كان جانب المجني عليه بالرعاية أولى. ودلت الآية أيضاً على مشروعية القصاص في حق شريك الأب لأنه صدر عنه الجرح فوجب أن يقابل بمثله. ودلت الآية أيضاً على أن من حرق حرقناه، ومن غرَّق غرقناه، وعلى أن شهود القصاص إذا رجعوا وقالوا: تعمدنا الكذب يلزمهم القصاص؛ لأنهم بتلك الشهادة أهدروا دمه فوجب أن يهدر دمهم. ودلت أيضاً على أن المكره[٣] يجب عليه القود[٤]، لأنه صدر منه القتل ظلماً فوجب مثله أما صدور القتل فالحسّ يدل عليه، وأما أنه قتل ظلماً فلإجماع المسلمين على أنه مكلف بأن لا يقتل فوجب أن يقابل بمثله ودلت أيضاً على أن منافع الغصب مضمونة، لأن الغاصب فوَّت على المالك منافع تقابل في العرف بدينار مثلاً فوجب أن يفوّت على الغاصب مثله من المال[٥].

قوله: «فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ» بالعفو بينه وبين ظالمه «فَأَمْرُهُ إلى الله». قال الحسن ـ رضي الله عنه ـ: إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: مَنْ كَانَ لَهُ عِنْدَ اللَّه أجْرٌ فَلْيَقُمْ، فَلاَ يَقُومُ إلاَّ مَنْ عَفَا. ثم قرأ هذه الآية «إنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ». قال ابن عباس ـ (رضي الله عنهما)[٦]: الذين يبدأون بالظلم[٧]، وفيه تنبيه على أن المجني عليه لا يجوز له الزيادة والتعدي في الاستيفاء خصوصاً في حال الحرب والتهاب الحمية فربما صار المظلوم عند الاستيفاء ظالماً.

---

(١) زيادة من أ. (٢) سقط من ب. (٣) في ب المكذب.
(٤) هو قتل النفس بالنفس شاذ كالحَوَكَةِ والخونةِ، وقال الجوهري: هو القصاص. انظر اللسان والصحاح قود.
(٥) وكل هذه الأشياء عن الشافعي ـ رضي الله عنه ـ فيما نقله عنه الرازي في التفسير الكبير.
(٦) زيادة من أ الأصل. (٧) انظر معالم التنزيل ٦/١٢٧.

وفيه دقيقة وهو أنه تعالى لما حث على العفو عن الظالم وأخبر أنه لا يحب الظالم وإذا كان لا يحبه وندب غيره إلى العفو عنه فالمؤمن الذي يحبه الله بسبب إيمانه أولى أن يعفو الله عنه(١).

قوله: «ولَمَنِ انْتَصَرَ» هذه لام الابتداء، وجعلها الحوفي وابن عطية للقسم(٢)، وليس بجيد إذا جعلنا «مَنْ» شرطية كما سيأتي؛ لأنه كان ينبغي أن يُجاب السابق، وهنا لم يجب إلا الشرط. و «من» يجوز أن تكون شرطية وهو الظاهر، والفاء في «فَأُوْلَئِكَ» جواب الشرط، وأن تكون موصولة ودخلت الفاء لشبه الموصول بالشرط. و «ظُلْمِهِ» مصدر مضاف للمفعول وأيدها الزمخشري بقراءة من قرأ: «بعدما ظُلِمَ» مبنياً للمفعول(٣).

فصل

معنى الآية: ولمن انتصر بعد ظلم الظالم إياه فأولئك المنتصرين ما عليهم من سبيل لعقوبة ومؤاخذة، لأنهم ما فعلوا إلا ما أبيح لهم من الانتصار. واحتجوا بهذه الآية على أن سراية القود مُهْدَرةٌ(٤) لأنه فعل مأذون فيه مطلقاً فيدخل تحت هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أي يبدأون بالظلم ﴿وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ يعملون فيها بالمعاصي ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ
فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ
﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى
عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ
مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن
مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ
إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ
أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن
يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ
عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

قوله: «وَلَمَنْ صَبَرَ» الكلام في اللام كما تقدم. فإن جعلناها شرطية فإن جواب

---

(١) الرازي ٢٧/ ١٨١.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٥٢٣.
(٣) كشاف الزمخشري ٣/ ٤٧٣.
(٤) الرازي المرجع السابق.

القسم المقدر، وحذف جواب الشرط للدلالة عليه، وإن كانت موصولة، كان قوله: «إِنَّ ذَلِكَ» هو الخبر[١]. وجوز الحوفي وغيره[٢] أن تكون «مَنْ» شرطية و «إِنَّ ذَلِكَ» جوابها على حذف الفاء على حدِّ حذفها في قوله:

٤٣٨٧ ـ مَـنْ يَـفْـعَـلِ الـحَـسَـنَـاتِ. . . ..

وفي الرابط قولان:

أحدهما: هو اسم الإشارة، إذا أريد به المبتدأ، ويكون حينئذ على حذف مضاف تقديره: إنَّ ذَلِكَ لَمِنْ ذَوِي عَزْمِ الأُمُورِ[٣].

والثاني: أنه ضمير محذوف تقديره لمن عزم الأمور «منه أو له»[٤]. وقوله: «وَلَمَنْ صَبَرَ» عطف على قوله: «ولمن انْتَصَرَ» والجملة من قوله: «إِنَّما السَّبِيلُ» اعتراض[٥].

فصل

المعنى لمن صبر وغفر فلم يقتص[٦] وتجاوز، إن ذلك الصبر والتجاوز من عزم الأمور حقها وحزمها. قال مقاتل: من الأمور التي أمر الله بها[٧]. وقال الزجاج: الصابر يؤتى بصبره الثواب والرغبة في الثواب أتم عزماً[٨].

قوله: «وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ» أي فليس له ناصر يتولاه من بعد إضلال الله إياه، وليس له من يمنعه من عذاب الله، وهذا صريح في جواز أن الإضلال من الله وأن الهداية ليست في مقدور أحد سوى الله.

قال القاضي: المراد: ومن يضلل الله عن الجنة لجنايته فما له من ولي من بعده ينصره. وأجيب بأن تقييد الإضلال بهذه الصور المعينة خلاف الدليل، وأيضاً فالله تعالى ما أضله عن الجنة في قولكم بل هو أضل نفسه عن الجنة.

قوله: «وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا العَذَابَ» يوم القيامة «يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ» أي يطلبون الرجوع إلى الدنيا لعظم ما شاهدوا من العذاب[٩].

ثم ذكر حالهم عند عرض النار. قوله: «يُعْرَضُونَ» حال، لأن الرؤية بصرية، و «خَاشِعِينَ» حال والضمير في «عَلَيْهَا» يعود على النار لدلالة العذاب عليها.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٥٢٣.
(٢) كأبي البقاء العكبري في التبيان ١١٣٥.
(٣) قاله البحر المحيط المرجع السابق.
(٤) قاله الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٧٣ وابن الأنباري في البيان ٢/ ٣٥٠ وانظر معاني الأخفش ٦٨٧.
(٥) قاله السمين ٤/ ٧٦٣.
(٦) في ب ينتصر وكذا في البغوي.
(٧) انظر معالم التنزيل للبغوي ٦/ ١٢٦.
(٨) بالمعنى من معاني القرآن وإعرابه ٤/ ٤٠٢.
(٩) الإمام فخر الدين الرازي في التفسير الكبير ٢٧/ ١٨٣.

وقرأ طلحة: من الذِّلِّ ـ بكسر[١] الذال ـ وقد تقدم الفرق بين الذِّل والذِّل[٢] و «مِنَ الذُّلِّ» يتعلق بخاشعين أي من أجل. وقيل: هو متعلق بينظرون[٣]. وقوله: «مِنْ طَرَفٍ» يجوز في «مِنْ» أن تكون لابتداء[٤] الغاية، وأن تكون[٥] تبعيضية وأن تكون بمعنى الباء[٦]، والطرف قيل: يراد به العضو وقيل: يراد به المصدر يقال: طرفت عينه تطرف طرفاً أي ينظرون نظراً خفيًّا[٧].

فصل

اعلم أنه ذكر حالهم عند عرضهم على النار، فقال: خاشعين أي خاضعين حقيرين بسبب ما لحقهم من الذل يسارقون النظر إلى النار خوفاً منها وذلة في أنفسهم، كما ينظر المقتول إلى السيف فلا يقدر أن يملأ عينيه منه، ولا يفتح عينه إنما ينظر ببعضها، وإذا كانت من بمعنى الباء أي بطرف خفي ضعيف من الذل.

فإن قيل: إنه قال في صفة الكفار: إنهم يحشرون عمياً فكيف قال هاهنا إنهم ينظرون من طرفٍ خفي؟! فالجواب: لعلهم يكونون في الابتداء هاهنا[٨] ثم يصيرون عمياً، أو لعل هذا في قوم وذاك في قوم آخرين. وقيل: معنى ينظرون من طرفٍ خفيٍّ أي ينظرون إلى النار بقلوبهم لأنهم يحشرون عمياً والنظر بالقلب خفيّ.

ولما وصف الله تعالى حال الكفار حكى ما يقوله المؤمنون فيهم فقال: «وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ» وقيل: خسروا أنفسهم بأن صاروا إلى النار وأهليهم بأن صاروا لغيرهم إلى الجنة. وهذا القول يحتمل أن يكون واقعاً في الدنيا، وإما أن يقولوه يوم القيامة إذا رأوهم على تلك الصفة، ثم قال: «أَلاَ إنَّ الظَّالِمِينَ في عَذَابٍ مُقِيم» أي دائم. قال القاضي: هذا يدل على أن الكافر والفاسق يدوم عذابهما والجواب: أن لفظ الظالم المطلق في القرآن مخصوص بالكافر قال تعالى: «والكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ» والذي يؤكد هذا قوله تعالى بعد هذه الآية: «وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاء يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ» والمعنى أن الأصنام التي كانوا يعبدونها لتشفع لهم عند الله تعالى ما أتوا بتلك الشفاعة وهذا لا يليق إلا بالكافر[٩].

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٥٢٤. (٢) والذُّل هو ضد العز والذِّل فهو للحيوان.

(٣) انظر الكشاف ٣/ ٤٧٤.

(٤) قال الزمخشري أن يبتدىء نظرهم من تحريك لأجفانهم السابق.

(٥) نقله أبو حيان وعنه نقل السمين وعنه نقل المؤلف عن قتادة. البحر المحيط ٧/ ٥٢٤.

(٦) نقله الأخفش في معانيه عن يونس، قال: وقال يونس إن «مِنْ طَرَفٍ» مثل بطرف كما تقول العرب: ضربتُهُ في السَّيف وبالسَّيف» معاني الأخفش ٦٨٧.

(٧) البحر المحيط ٧/ ٥٢٤ والدر ٤/ ٧٦٥. (٨) في ب بدل ههنا هكذا، وكذا هي في الرازي.

(٩) انظر الرازي ٢٧/ ١٨٢.

قوله: «يَنصُرُونَهُمْ» صفة «لأولياء»، فيجوز أن يحكم على موضعها بالجرِّ اعتباراً بلفظ موصوفها وبالرفع اعتباراً بمحلة، فإنه اسم لكان[١]. وقوله: «مِن سَبِيلٍ» إما فاعل وإما مبتدأ[٢]، والمعنى فما له من سبيل إلى الحق في الدنيا والجنة في العُقْبَى وقد أفسد عليهم طريق الخير[٣].

قوله: «وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا» يجوز أن يكون ماضياً على حقيقته، ويكون «يَوْمَ القِيَامَةِ» معمولاً «لخَسِرُوا» ويجوز أن يكون بمعنى يقول فيكون يوم القيامة معمولاً له[٤].

قوله تعالى: «اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ...» الآيات. لما ذكر الوعد والوعيد ذكر بعده ما هو المقصود، فقال «اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ» أي أجيبوا داعي (ربكم)[٥] يعني[٦] محمداً ﷺ «مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ» أي لا يقدر أحدٌ على دفعه.

قوله: «مِنَ اللَّهِ» يجوز تعلقه بيأتي[٧] أي يأتي من الله يومٌ لا مرد له، وأن يتعلق بمحذوف[٨] يدل عليه «لاَ مَرَدَّ لَهُ» أي لا يرد ذلك اليوم ما حكم الله به فيه.

وجوز الزمخشري أن يتعلق «بِلاَ مَرَدَّ»[٩]، ورده أبو حيان: بأنه يكون معمولاً[١٠] وكان ينبغي أن يعرب فينصب منوناً.

واختلفوا في المراد بذلك اليوم، فقيل: هو ورود الموت. وقيل: يوم القيامة، قال ابن الخطيب: ويحتمل أن يكون معنى قوله: لا مرد له» أي لا يقبل التقديم ولا التأخير، وأن يكون معناه أنه لا مرد فيه إلى حال التكليف حتى يحصل فيه التلاقي[١١].

ثم وصف اليوم فقال فيه: «مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأ» تلجأون إليه يقع به المخلص[١٢] من العذاب «وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ» ينكر[١٣] تغير ما بكم. ويجوز أن يكون المراد من النكير الإنكار، أي لا تقدرون أن تنكروا شيئاً مما اقترفتموه من الأعمال.

قوله: «فَإِنْ أَعْرَضُوا» عن الاستجابة ولم يقبلوا هذا الأمر «فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً» بأن تحفظ أعمالهم وتُحْصِيهَا «إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ البَلاَغُ» أي ما عليك إلا البلاغ، وذلك تسلية من الله تعالى له. ثم بين السبب في إصرارهم على الكفر فقال: «وإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا

---

(١) التبيان للعكبري ١١٣٥.
(٢) قاله السمين في الدر المصون ٤/ ٧٦٥.
(٣) البغوي ٦/ ١٢٨.
(٤) معنى كلام الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٧٤.
(٥) سقط من أ الأصل.
(٦) البغوي المرجع السابق.
(٧) الكشاف المرجع السابق.
(٨) البحر المحيط ٧/ ٥٣٥.
(٩) قال: من صلة «لا مرد» أي لا يرده الحكم اللَّهُ بعد ما حكم به. الكشاف ٣/ ٤٧٤.
(١٠) تصحيح من البحر ففي النسختين مطولاً. وانظر البحر المحيط ٧/ ٥٢٥.
(١١) تفسيره التفسير الكبير ٢٧/ ١٨٣.
(١٢) في ب التخلص وفي الرازي: ينفع في التخلص من العذاب.
(١٣) في ب ينكر يعني ما بكم وفي الرازي: ممن ينكر ذلك حتى يتغير حالكم بسبب ذلك المنكر.

الإنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً» قال ابن عباس ـ (رضي الله عنهما)[١] ـ يعني الغنى والصحة «فرح بها».

واعلم أن نعم الله وإن كانت في الدنيا عظيمة إلا أنها بالنسبة إلى سعادات الآخرة كالقطرة بالنسبة إلى البحر، فلذلك سميت ذوقاً. فبين (الله) تعالى أن الإنسان إذا حصل له هذا القدر الحقير في الدنيا فرح به وعظم غروره، ووقع في العجب والكبر، ويظن أنه فاز بكل المنى، ووصل إلى أقصى السعادات، وهذه طريقة من ضعف اعتقاده في سعادات الآخرة.

ثم إنه تعالى بين أنه متى أصابهم سيئة أي شيء يسوءهم في الحال كالمرض والفقر والقحط وغيرها فإنه يظهر الكفر[٢] وهو (معنى) قوله: «فإِنَّ الإنْسَانَ كَفُورٌ»، والكفور: هو المبالغ في الكفران والمراد بقوله: كفور أي لما تقدم من نعمة الله عليه ينسى ويجحد بأول شدة[٣] جميع ما سلف من النِّعم.

وقوله: فإنَّ الإنسان من وقوع الظاهر موقع المضمر أي فإنه كفور. وقدر أبو البقاء: ضميراً محذوفاً فقال[٤] فإن الإنسان (منهم)[٥] ولما ذكر إذاقة الإنسان الرحمة وإصابته بعدها أتبع ذلك بقوله: «لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأرْضِ» له التصرف فيهما بما يريد والمقصود منه أن لا يغتر الإنسان بما ملكه من المال والجاه بل إذا علم أن الكل ملك لله وملكه وإنما حصل له القدر إنعاماً من الله عليه فيصير ذلك حاملاً له على مزيد من الطاعة.

ثم ذكر من أقسام تصرف الله تعالى في العالم أنه يخص البعض بالأولاد والإناث والبعض بالذكور والبعض بهما، والبعض بأن يجعله محروماً من الكل وهو المراد بقوله: «وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً»[٦].

قوله: «ذُكْرَاناً وإنَاثاً» حال وهي حال لازمة. وسوغ مجيئها كذلك أنها بعد ما يجوز أن يكون الأمر على خلافه، لأن معنى يزوجهم يقرنهم[٧].

قال الزمخشري: فإن قلت: لم قدم الإناث على الذكور مع تقديمهم عليهن ثم رجع فقدمهم؟! ولم عرف الذكور بعدما نكَّر الإناث؟!. قلت: لأنه ذكر البلاء في آخر الآية الأولى، وكفران الإنسان بنسيانه الرحمة السابقة عنه، ثم عقبه[٨] بذكر ملكه ومشيئته وذكر قسمة الأولاد فقدم الإناث؛ لأن سياق الكلام أنه فاعل ما يشاؤه لا ما يشاؤ (ه)[٩]

---

(١) زيادة من أ.
(٢) في ب الكفران.
(٣) في النسختين: شديدة، وانظر في هذا تفسير الرازي ٢٧/ ١٨٣ والبغوي ٦/ ١٢٨.
(٤) في ب فقدر وفي أ فصار وفي السمين فقال.
(٥) سقط من ب وانظر التبيان ١١٣٥.
(٦) انظر الرازي ٢٧/ ١٨٤.
(٧) الدر المصون ٤/ ٧٦٥.
(٨) في النسختين ذكره.
(٩) زيادة من الكشاف.

الإنسان، فكان ذكر الإناث اللاتي من جملة ما يشاؤه الإنسان أهم، والأهم واجب التقديم، وليليَ الجنس التي كانت العرب تعده بلاء (ذكر)[١] البلاء، وأخر الذكور، فلما أخرهم تدارك تأخيرهم وهم أحقَّاء بالتقديم وبالتَّعريف، لأن تعريفهم فيه تنويه وتشهير، كأنه قال: ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين الذين لا يخفون عليكم. ثم أعطى بعد ذلك كلا الجنسين حظه من التقديم والتأخير وعرف أن تقديمهن لم يكن لتقدمهن ولكن لمقتضى آخر فقال: «ذُكْرَاناً وإِنَاثاً» (كَمَا قَالَ: إنَّا)[٢] ﴿خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: ١٣] فجعل فيه «الزوجين الذكر والأنثى»[٣].

فصل

قال ابن الخطيب: وفي الآية سؤالات:

الأول: أنه قدم الإناث في الذكر على الذكور أولاً، ثم قدم الذكور على الإناث ثانياً فما السبب في هذا التقديم والتأخير؟

الثاني: أنه نكّر الإناث وعرف الذكور وقال في الصِّنفين معاً «أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وإِنَاثاً».

الثالث: لما كان حصول الولد هبة من الله تعالى فيكفي في عدم حصوله أن لا يهب فأيّ حاجة في عدم حصوله إلى قوله: «وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً».

الرابع: هل المراد بهذا الحكم جمع معيَّنون أو الحكم على الإنسان المطلق؟

والجواب على الأول: أن الكريم يسعى في أن يقع الحتم على الخير والراحة فإذا وهب الأنثى أولاً ثم أعطي الذكر بعده فكأنه نقله من الغم إلى الفرح، وهذا غاية الكرم، أما إذا أعطي الذكر أولاً ثم أعطي الأنثى ثانياً فكأنه نقله من الفرح إلى الغم، فذكر الله تعالى هبة الأنثى أولاً، ثم ثنَّى بهبة الذكر حتى يكون قد نقله من الغم إلى الفرح فيكون أليق بالكرم.

قيل: من يُمْنِ المرأة تبكيرها بالأنثى قبل الذكر؛ لأن الله بدأ بالإناث وأما تقديم ذكر الذكور على ذكر الإناث ثانياً؛ لأن الذكر أكمل وأفضل من الأنثى، والأفضل مقدم على المفضول.

وأما الجواب عن تنكير الإناث وتعريف الذكور فهو أن المقصود منه التنبيه على أن الذكر أفضل من الأنثى وأما قوله «أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وإِنَاثاً» وهو أن كل شيئين يقرن أحدهما بالآخر، فهما زوجان وكل واحد منهما يقال له: زوج والكناية في «يُزَوِّجُهُمْ»

---

(١) زيادة من الكشاف. (٢) سقط من أ.

(٣) [القيامة: ٣٩]. وانظر الكشاف ٣/ ٤٧٥.

عائدة على الإناث والذكور والمعنى يجعل الذكور والإناث أزواجاً أي يجمع له بينهما فيولد له الذكور والإناث[١].

وأما الجواب عن قوله «عقيماً» فالعقيم هو الذي لا يلد ولا يولد له يقال: رَجُلٌ عَقِيمٌ، وامْرَأَةٌ عَقِيمٌ، وأصل العقم القطع ومنه قيل: الملك عقيمٌ، لأنه يقطع فيه الأرحام بالقتل والعقوق[٢].

وأما الجواب عن الرابع فقال ابن عباس ـ (رضي الله عنهما)[٣] ـ: يَهَبُ لمن يشاء إناثاً، يريد لوطاً وشعيباً لم يكن لهما إلا البنات، «ويَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ» يريد: إبراهيم لم يكن له إلا الذكور، «أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً» يريد محمداً ﷺ كان له من البنين ثلاثة على الصحيح القاسم وعبد الله، وإبراهيم، ومن البنات أربعة: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة «وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً» يريد يحيى وعيسى ـ عليهما الصَّلاة والسَّلام[٤] ـ.

وقال أكثر المفسرين: هذا على وجه التمثيل، وإنما الحكم عام في كل الناس؛ لأن المقصود بيان نفاذ قدرة الله تعالى في تكوين الأنبياء كيف شاء، فلا معنى للتخصيص[٥]. ثم إنه تعالى ختم الآية بقوله: «إنَّه عَلِيمٌ قَدِيرٌ». قال ابن عباس ـ (رضي الله عنهما)[٦] ـ: عليم بما خلق قدير على ما يشاء أن يخلقه. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: «وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إلاَّ وَحْياً...» الآية لما بين حال قدرته وعلمه وحكمته أتبعه ببيان أنه كيف يخص أنبياءه بوحيه وكلامه. قوله: «أَنْ يُكَلِّمَهُ» «أن» ومنصوبها اسم كان و «لِبَشَرٍ»[٦] خبرها. وقال أبو البقاء: «أن» والفعل في موضع رفع

---

(١) وانظر كل هذا بالمعنى من الرازي ٢٧/ ١٨٤. (٢) قاله ابن منظور في اللسان عقم ٣٠٥١.

(٣) زيادة من أ.

(٤) نقله الرازي في تفسيره ٢٧/ ١٨٥ و ١٨٦ عن الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٧٥. ونقله القرطبي في الجامع ١٦/ ٤٩ عن النَّقَّاش: نزلت في الأنبياء وإن عمَّ حكمها.

(٥) وممن قال به البغوي والخازن في تفسيرهما والنقاش عن القرطبي انظر البغوي والخازن ٦/ ١٢٩.

(٦) في النسختين ليس بدل لبشر تحريف.

على الابتداء وما قبله الخبر، أو فاعل بالجار لاعتماده على حرف النفي[١]، وكأنه وهم في التلاوة فزعم أن القرآن: وما لبشر أن يكلمه مع أنه يمكن الجواب عنه بتكلُّفٍ[٢].

و «إلاَّ وَحْياً» يجوز أن يكون مصدراً[٣] أي إلا كلام وحي. وقال أبو البقاء: استثناء منقطع[٤]؛ لأن الوحي ليس من جنس الكلام. وفيه نظر؛ لأن ظاهره أنه مفرغ، والمفرغ لا يوصف بذلك[٥]. ويجوز أن يكون مصدراً في موضع الحال[٦].

قوله: «أَوْ يُرْسِلَ» قرأ نافع: «أَوْ يُرْسِلُ» برفع اللام، وكذلك: فيوحي فسكنت ياؤه. والباقون بنصبهما[٧]. فأما القراءة الأولى ففيها ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه رفع على إضمار مبتدأ أي: أو هو يرسل[٨].

الثاني: أنه عطف على «وَحْياً» على أنه حال؛ لأن وحياً في تقدير الحال أيضاً فكأنه قال: إلا موحياً أو مرسلاً[٩].

الثالث: أن يعطف على ما يتعلق به «مِنَ وَرَاءِ»؛ إذ تقديره أو يُسْمِعُ من وراء حجاب و «وَحْياً» في موضع الحال عطف عليه ذلك المقدر المعطوف عليه «أَوْ يُرْسِل»، والتقدير: إلاَّ موحياً أو مُسْمِعاً مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ مُرْسِلاً[١٠].

وأما الثانية ففيها ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يعطف على المضمر الذي يتعلق به «مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ» إذ تقديره: أو يُكَلِّمَهُ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ. وهذا الفعل (المقدر)[١١] معطوف على «وَحْياً»، والمعنى: إلا بوحي أو إسماعٍ من وراء حجابٍ أو إرسال رسولٍ.

ولا يجوز أن يعطف على «يُكَلِّمَهُ» لفساد المعنى[١٢]؛ إذ يصير التقدير: وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أن يُرْسِلَ اللَّهُ رَسُولاً، فيفسد لفظاً ومعنًى.

وقال مكي: لأنه يلزم منه نفي الرسل، ونفي المرسل[١٣] إليهم.

الثاني: أن ينصب بأن مضمرة وتكون هي وما نصبته معطوفين على «وَحْياً»

---

(١) التبيان ١١٣٥.

(٢) والتكلف هو جعل كان زائدة. (٣) قاله ابن الأنباري في البيان ٢/ ٣٥١.

(٤) التبيان ١١٣٥، قال: لأن الوحي ليس بتكليم.

(٥) نقله السمين في الدر المصون ٤/ ٧٦٦. (٦) قاله ابن الأنباري في البيان ٢/ ٣٥١.

(٧) وهي قراءة متواترة انظر السبعة لابن مجاهد ٥٨٢ والإتحاف للبناء ٣٨٤ ومعاني الفراء ٣/ ٢٦، والبيان ٢/ ٣٥١ والتبيان ١١٣٦.

(٨) البيان والتبيان السابقين والحجة لابن خالويه ٣١٩، والكشاف ٢/ ٤٧٤.

(٩) الكشاف قال بذلك المرجع السابق. (١٠) الدر المصون للسمين ٤/ ٧٦٦.

(١١) سقط من ب. (١٢) وانظر البحر المحيط لفظاً ٧/ ٥٢٧ والكشاف معنى ٣/ ٤٧٤.

(١٣) قاله ابن الأنباري في البيان ٢/ ٣٥٨ وقد نقله أيضاً القرطبي في الجامع ١٦/ ٥٣.

و «وَحْياً» حال، فيكون هنا أيضاً حالاً، والتقدير: إلا موحياً أو مرسلاً[١].

وقال الزمخشري: «وَحْياً وأن يرسل» مصدران واقعان موقع الحال، لأن: أن يُرْسِلَ في معنى: إرسالاً و «مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ» ظرف واقع موقع الحال أيضاً كقوله: ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١] والتقدير: وما صح أن يكلم أحداً إلا موحياً أو مسمعاً من وراء حجاب أو مرسلاً[٢].

ورد عليه أبو حيان بأن وقوع المصدر موقع الحال غير منقاس وإنما قاس منه المبرد ما كان نوعاً للفعل فيجيز أتيته ركضاً ويمنع: أتيته بكاءً أي باكياً[٣]. وبأن: أن يرسل لا يقع حالاً لنص سيبويه: على أن «أنْ» والفعل لا يقع حالاً وإن كان المصدر الصريح يقع حالاً تقول: جاء زيد ضحكاً، ولا يجوز أن يضحك[٤].

الثالث: أنه عطف على معنى وحياً فإنه مصدر مقدر بأن والفعل والتقدير: إلاً بأن يوحي إليه أو بأن يرسل. ذكره مكي[٥] وأبو البقاء[٦].

قوله: «أوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ» العامة على الإفراد. وابن أبي عبلة: حجبٍ جمعاً[٧]. وهذا الجار يتعلق بمحذوف تقديره: أو يكلمه من[٨] وراء حجاب. وقد تقدم أن هذا الفعل معطوف على معنى وحياً، أي إلاً أن يوحي أو يكلمه.

قال أبو البقاء: ولا يجوز أن يتعلق من بـ «يْكَلِّمهُ» (المـ جودة[٩] في اللفظ لأن ما قبل الاستثناء لا يعمل فيما بعد إلا. ثم قال: وقيل: من مـ ـ بيُكَلِّمُهُ)[١٠] لأنه ظرف والظرف يُتَّسَعُ فيه[١١].

---

(١) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٢٧٩ قال: أو نفي المرسل إليهم وذلك لا يجوز.

(٢) قال النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٩٢: قال سيبويه: سألت الخليل عن قول الله عزَّ وجلَّ: «أَوْ يُرسل رسولاً فيوحي بإذنه» فزعم أن النصب محمول إلى أن سوى هذه. وانظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢/ ١٠٣.

(٣) الكشاف ٣/ ٤٧٥.

(٤) قال في المقتضب: ومن المصادر ما يقع في موضع الحال فيسد مسده فيكون حالاً، لأنه قد ناب عن اسم الفاعل وأغنى غناءه وذلك قولهم: قتلته صبراً، إنما تأوله صابراً أو مصبراً، وكذلك: جئتُهُ مشياً لأن المعنى جئته ماشياً فالتقدير أمشي مشياً، لأن المجي على حالات والمصدر قد دل على فعله من تلك الحال. ولو قلت: جئته إعطاء لم يجز؛ لأن الإعطاء ليس من المجيء، ولكن جئته سعياً. فهذا جيد. المقتضب ٣/ ٣٣٤، فهذا النص نفهم منه بأن المصدر واقع موقع الحال، وقد فهم النحاة ونقلوا نقولات كثيرة عن المبرِّد في هذا هل المصدر هذا مفعول مطلق لهذا الفعل المحذوف أم أنه مصدر واقع موقع الحال؟

(٥) البحر المحيط ٧/ ٥٢٧.

(٦) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٢٧٩.

(٧) التبيان ١١٣٦.

(٨) من القراءة الشاذة انظر البحر المحيط ٧/ ٥٢٧ وشواذ القرآن ٢١٦.

(٩) التبيان لأبي البقاء ١١٣٦.

(١٠) ما بين القوسين تكملة لازمة من كتاب التبيان لأبي البقاء فقد سقط كل هذا من النسختين بسبب انتقال النظر.

(١١) التبيان ١١٣٦.

فصل

ذكر المفسرون أن اليهود قالوا للنبي ـ ﷺ ـ ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبياً كما كلمه موسى ونظر إليه؟ فقال: لم ينظر موسى إلى الله عز وجل. فأنزل الله تعالى وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أي يوحي إليه في المنام أو بالإلهام أو من وراء حجاب يسمعه كلامه ولا يراه كما كلم موسى عليه الصَّلاة والسَّلام أو يرسل رسولاً إما جبريل أو غيره من الملائكة فيوحي بإذنه ما يشاء أن يوحي ذلك الرسول إلى المرسل إليه بإذن الله[١] ما يشاء[٢].

وهذه الآية تدل على (أن)[٣] الحسن لا يحسن لوجه عائد إليه وأن القبح لا يقبح لوجه عائد إليه بل الله إنما يأمر بما يشاء من غير تخصيص وأنه ينهى عما يشاء من غير تخصيص، إذ لو لم يكن الأمر كذلك لما صح قوله: «مَا يَشَاءُ»، ثم قال: «إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ» أي عليم بصفات المخلوقين حكيم تجري[٤] أفعاله على الحكمة فيتكلم تارة بغير واسطة على سبيل الإلهام وأخرى بإسماع الكلام وثالثاً بواسطة الملائكة الكرام. ولما بين الله كيفية أقسام الوحي إلى الأنبياء ـ عليهم الصَّلاة والسَّلام ـ قال: «وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِن أَمْرِنَا» أي كما أوحينا إلى سائر رسلنا أوحينا إليك روحاً من أمرنا.

قال ابن عباس ـ (رضي الله عنهما)[٥] ـ نبوة. وقال الحسن ـ (رضي الله عنه)[٦] ـ: رحمة وقال السدي ومقاتل: وحياً. وقال الكلبي: كتاباً، وقال الربيع، جبريل. وقال مالك بن دينار: يعني القرآن[٧].

قوله: «مَا كُنْتَ تَدْرِي ما الكِتَابُ» «ما» الأولى نافية والثانية استفهامية، والجملة الاستفهامية معلقة للدِّراية[٨]، فهي في محل نصب لسدها مسد مفعولين، والجملة المنفية بأسرها في محل نصب على الحال من الكاف في: «إِلَيْكَ»[٩].

فصل[١٠]

المعنى: وما كنت تدري قبل الوحي ما الكتاب ولا الإيمان يعني شرائع الإيمان

---

(١) في ب بإذنه.
(٢) البغوي ٦/ ١٢٩.
(٣) سقط من ب.
(٤) الرازي ٢٧/ ١٩٠.
(٥) زيادة من أ.
(٦) كذلك.
(٧) انظر هذه الأقوال في البغوي والخازن ٦/ ١٢٩ والقرطبي ١٦/ ٥٤.
(٨) ذكره السمين في الدر المصون ٤/ ٧٦٨ عن أبي حيان في البحر المحيط ٧/ ٥٢٨.
(٩) ذكره العكبري في تبيانه ١١٣٦، وانظر الدر المصون السابق.
(١٠) هذا الفصل كله سقط من ب.

ومعالمه. وقال محمد بن إسحاق بن خزيمة: الإيمان هنا الصلاة لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] أي صلاتكم(١). وقيل: هذا على حذف(٢) مضاف أي ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان(٣) حين كنت طفلاً في المهد.

وقيل: الإيمان عبارة عن الإقرار بجميع ما كلف الله تعالى به وأنه قبل النبوة ما كان عارفاً بجميع تكاليف الله تعالى بل كان عارفاً بالله تعالى. وقال بعضهم: صفات الله تعالى على قسمين: منها ما يمكن معرفته بمحض دلائل العقول ومنها(٤) ما لا يمكن معرفته إلا بالدلائل السمعية فهذا القسم الثاني لم يكن معرفته حاصلاً قبل النبوة. واعلم أن أهل الأصول على أن الأنبياء ـ عليهم الصَّلاة والسَّلام ـ كانوا مؤمنين من قبل الوحي، وكان النبي ـ ﷺ ـ يعبد الله قبل الوحي على دين إبراهيم ولم يتبين له شرائع دينه(٥).

قوله: «جَعَلْنَاهُ» الضمير يعود إما لروحاً وإما للكتاب، وإما لهما، لأنهما مقصد واحد، فهو كقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾(٦) [التوبة: ٦٢].

فصل

قال ابن عباس ـ (رضي الله عنهما)(٧) ـ يعني الإيمان: وقال السدي: يعني القرآن(٨) يهدي به من يشاء «نرشد به من نشاء» مِنْ عِبَادِنَا و «نهدي» يجوز أن يكون مستأنفاً وأن يكون مفعولاً مكرراً للفعل وأن يكون صفة لنوراً(٩).

قوله: «وَإِنَّكَ لَتَهْدِي» قرأ (شهر) بن حوشب: لتهدي مبنياً للمفعول وابن السَّميقع: لتهدي بضم التاء وكسر الدال(١٠) من: أهدى والمراد بالصراط المستقيم الإسلام.

قوله: «صِرَاطِ اللَّهِ» بدل من: «صِرَاطٍ» قبله بدل كل من كل معرفة من نكرة(١١).

---

(١) البغوي المرجع السابق والرازي ٢٧/ ١٩٠.

(٢) هذا هو رأي الرازي.

(٣) كان من الأولى: أي ولا أهل الإيمان يعني من الذي يؤمن ومن الذي لا يؤمن الرازي ٢٧/ ١٩٠.

(٤) الرازي المرجع السابق.

(٥) نقله البغوي والخازن في تفسيريهما معالم التنزيل ولباب التأويل ٦/ ١٢٩.

(٦) أقول: وقد جوَّز الأول أبو حيان في البحر ٧/ ٥٢٨ والثاني ابن عطية فيما نقله عنه أبو حيان أيضاً، وحكى الثلاثة أبو زكريا في معاني القرآن ٣/ ٢٧.

(٧) سقط من ب.

(٨) البغوي ٦/ ١٢٩.

(٩) الدر المصون ٤/ ٧٦٩.

(١٠) كلتا القراءتين شاذة الأولى أوردها أبو حيان في البحر ٧/ ٥٢٨ وابن خالويه في المختصر ١٣٤ والسمين في الدر ٤/ ٧٦٨، والثانية أوردها أبو حيان والسمين في مرجعيهما السابقين.

(١١) الكشاف ٣/ ٤٧٦.

فصل

نبه بهذه الآية على أن الذي يجوز عبادته هو الذي يملك السموات والأرض، ثم قال: «أَلاَ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُور» أي أمور الخلائق كلها في الآخرة وهذا كالوعيد والزجر أي ترجع الأمور كلها إلى الله تعالى حيث لا يحاكم سواه فيجازي كلاً منهم بما يستحقه من ثواب أو عقاب(١).

روى أبو أمامة عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ مَنْ قَرَأَ سُورَة حَمَ عَسَقَ كان ممَّن تصلِّي عليه الملائكة ويستغفرون له ويسترحِمُون له(٢). (والله أعلم)(٣).

---

(١) الرازي ٢٧/ ١٩١.

(٢) مجمع البيان ٩/ ٣١ والسراج المنير ٣/ ٥٥٢ والبيضاوي ٢/ ١٩٨ والكشاف ٢/ ٤٧٦ بدون سند فيها.

(٣) زيادة من ب.

سورة الزخرف

مكية[1] وهي تسع وتسعون[2] آية، وثمانمائة وثلاث وثلاثون كلمةً، وثلاثة آلاف وأربعمائة حرف.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ۝٥﴾

قوله تعالى: **﴿حم. والكتاب المبين﴾** إن جعلت «حم» قسماً كانت الواو عاطفة، وإن لم تكن الواو للقسم.

وقوله: «إنَّا جَعَلْنَاهُ» جواب القسم. وهذا عندهم من البلاغة، وهو كون القسم والمقسم عليه من وادٍ[3] واحد، كقول أبي تمام:

٤٣٨٨ - .... وَثَنَايَاكَ إنَّهَا إغْرِيضُ[4]

إن أريد بالكتاب القرآن، وإن أُرِيدَ به جنس الكتب المنزلة غير القرآن لم يكن من ذلك. والضمير في «جَعَلْنَاهُ» على الأول يعود على الكتاب وعلى الثاني للقرآن وإن لم

---

(١) بإجماع. وقال مقاتل: إلا قوله: «واسْأَلْ مَنْ مِنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا» وانظر القرطبي ١٦/ ٦١.

(٢) كذا في النسختين والأصح: تسع وثمانون.

(٣) بالمعنى من الكشاف ٣/ ٤٤٧ وباللفظ من الدر ٤/ ٧٧٠.

(٤) من بحر الخفيف وعجزه:

وَلآلٍ تُومٌ وَبَرْقٌ وَمِيضُ ....

والثنايا: جمع ثنية مقدم الأسنان من تحت ومن فوق ثِنْتَانِ مُتَقَابِلَتَان، والإغْرِيضُ: الطلع ثم أطلق على البَرَدِ وهو حبات البلح الصغيرة. والتُّومُ جمع تُومَةٍ اللؤلؤة العظيمة. والشاهد في قوله: إنها إغريض حيث وقعت هذه الجملة جواباً للقسم وهي تعني الأسنان فاتحد القسم وجوابه معنى.

يصرح بذكره[١]. والجَعْلُ في هذا تصيير، ولا يلتفت لخطأ الزمخشري في تَجْوِيزِه أن يكون بمعنى خلقناه[٢].

فصل

ذكر المفسرون في هذه الآية وجهين:

الأول: أن يكون التقدير هذه حم والكتاب المبين فيكون المقسم واقعاً على أن هذه السورة هي سورة حم.

الثاني: أن يكون القسم واقعاً على قوله: إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً.

وفي المراد بالكتاب قولان:

أحدهما: أنه القرآن فيكون قد أقسم بالقرآن أنه جعله عربياً.

والثاني: المراد بالكتاب الكتابة والخط، أقسم بالكتاب لكثرة ما فيه من المنافع، ووصف الكتاب بأنه مبين أي أبان طريق الهدى من طريق الضلال، وأبان ما يحتاج[٣] إليه الأمة من الشريعة وتسميته مبيناً مجاز؛ لأن المبين هو الله تعالى وإنما سمي القرآن بذلك توسعاً من حيث إنه حصل[٤] البيان عنده[٥].

وقوله: «جَعَلْنَاهُ» أي صَيَّرْنَا قراءة هذا الكتاب[٦] عربياً. وقيل: بيّناه[٧]. وقيل: سميناه[٨] وقيل وضعناه. يقال: جَعَلَ فُلَانٌ زَيْداً عَالِماً، أي وصفه بهذا، كقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا﴾ [الزخرف: ١٩] و﴿جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩١] ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ [التوبة: ١٩] كلها بمعنى الوصف والتسمية.

فصل

احتج القائلون بحدوث القرآن بهذه الآية من وجوه:

الأول: أنها تدل على أن القرآن مجعول، والمجعول هو المصنوع المخلوق.

فإن قيل: المراد به أنه سماه عربياً، فهذا مدفوع من وجهين:

الأول: أنه لو كان المراد من الجعل التسمية لزم أن سماه عجمياً أنه يصير عجمياً، وإن كان بلغة العرب، وهذا باطل.

---

(١) انظر المرجعين الأخيرين السابقين.
(٢) فقد قال في شرح الكشاف ٣/ ٤٧٧ أو بمعنى خلقناه معدّى إلى واحد.
(٣) في ب تحتاج بالتاء.
(٤) انظر الرازي ٢٧/ ١٩٢ و ١٩٣ وفي ب جعل بدل حصل.
(٥) قاله الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٤٧.
(٦) و (٧) وهو رأي الزجاج انظر معاني القرآن ٤/ ٤٠٥.

الثاني: (أنه) لو صرف الجَعْلُ إلى التسمية لزم كونُ التسمية مجعوله، والتسمية أيضاً كلام الله وذلك أنه جعل بعض كلامه، وإذا صح ذلك في البعض صح في الكل.

الثاني: أنه وصفه بكونه قرآناً، وهو إنما سمي قرآناً، لأنه جعل بعضه مقروناً بالبعض، وما كان ذلك كان مصنوعاً.

الثالث: وصفه بكونه عربياً، وإنما يكون عربياً، لأن العرب اختصت بوضع ألفاظه واصطلاحهم، وذلك يدل على أنه مجعول. والتقدير: حَم وَرَبِّ الكِتَابِ المُبِينِ.

ويؤكد هذا بقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «يَا رَبَّ طَه وَيس، ويَا ربَّ القُرْآنِ العَظِيم»[(١)].

وأجاب ابن الخطيب: بأن هذا الذي ذكرتموه حق؛ لأنكم استدللتم بهذه الوجوه على كون الحروف المتواليات والكلمات المتعاقبة مُحْدَثَةً[(٢)]، وذلك معلوم بالضرورة وَمَنِ الذي ينازعكم فيه.

قوله: «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» كلمة «لَعَلَّ» للتمني والترجي، وهي لا تليق بمن كان عالماً بعواقب الأمور، وكان[(٣)] المراد ههنا: إنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لأجل أن تُحِيطُوا بمَعْنَاهُ[(٤)].

قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الكِتَابِ لَدَيْنَا**﴾ متعلقان بما بعدهما، ولا تمنع اللام[(٥)] من ذلك. ويجوز أن يكونا حالين مما بعدهما؛ لأنهما كانا وصفين له في الأصل فيتعلقان بمحذوف، ويجوز أن يكون «لدينا» متعلقاً بما تعلق به الجار قبله، إذا جعلناه حالاً من لَعَلِيّ، وأن يكون حالاً من الضمير المستتر فيه. وكذا يجوز في الجار أن يتعلق بما تعلق به الظرف وأن يكون حالاً من ضميره عند من يجوز (تقديمها)[(٦)] على العامل المعنوي، ويجوز أن يكون الظرف بدلاً من الجار قبله، وأن يكونا حالين من «الكتاب» أو مِنْ «أُمّ»[(٧)].

ذكر هذه الأوجه الثلاثة أبو البقاء[(٨)]، وقال: «ولا يجوز أن يكون واحدٌ من الظرفين خبراً؛ لأن الخير لزم أن يكون «عَلِيًّا» من أجل اللام»[(٩)]. قال شهاب الدين: وهذا يمنع

---

(١) لم أعثر عليه إلا في تفسير الإمام الرازي ٢٧/ ١٩٣.

(٢) في الرازي: محدثة مخلوقة.

(٣) وفيه: فكان المراد منها.

(٤) وانظر الرازي المرجع السابق.

(٥) في ب يمنع بالتذكير.

(٦) سقط ذلك اللفظ من ب ففيها «بياض».

(٧) بتوضيح وتفصيل من كتاب الدر المصون للسمين ٤/ ٧٧١.

(٨) التبيان ١١٣٧.

(٩) قال: ولكن يجوز أن كل واحد منهما صفة للخبر، فصارت حالاً بتقدمها، وانظر المرجع السابق.

أن تقول: «إنَّ زَيْداً كَاتِبٌ لَشَاعِرٌ؛ لأنه منع أن يكون غير المقترن بها خبراً»[١].

وقرأ حمزةُ والكِسَائِيُّ إم الكتاب ـ بكسر الألف[٢] ـ والباقون بالضم. والضمير في قوله «وَإِنَّهُ» عائد إلى الكتاب المتقدم ذكره.

فصل

قيل: أم الكتاب هو اللوح المحفوظ[٣]. قال قتادة: أم الكتاب أصل الكتاب، وأُمُّ كُلِّ شيء أصْله.

قال ابن عباس: ـ (رضي الله عنهما)[٤] ـ: أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ القَلَمَ أَمَرَهُ أَنْ يَكْتُبَ بِمَا يُرِيدُ أَنْ يَخْلُقَ فالكتاب عنده ثم قرأ: وإنَّهُ فِي أُمِّ الكِتَابِ لَدَيْنَا[٥]، فالكتاب مثبت عنده في اللوح المحفوظ كما قال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١ ـ ٢٢].

وقوله: «لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ» قال قتادة: يخبر عن منزلته وشرفه، أي إن كَذَّبْتُمْ بالقرآن يا أهل مكة فإنه عندنا «لَعَلِيٌّ» رفيع شريف «حَكِيمٌ» أي محكم في أبواب البلاغة والفصاحة، أو ذو حكمة بالغةٍ. قيل: المراد بأم الكتاب الآيات المحكمة لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧] والمعنى أن سورة حم واقعة في الآيات المحكمة التي هي الأصل والأم.

فإن قيل: ما الحكمة في خلق هذا اللوح المحفوظ مع أنه تعالى علام الغيوب فيستحيل عليه السهو والنسيان؟

فالجواب: أنه تعالى لما أثْبَتَ[٦] في ذلك أحكامَ حوادثِ المخلوقات، ثم إن الملائكة إذا شاهدوا أن جميع الحوادث إنما تحدث على موافَقَة ذلك المكتوب استدلوا بذلك على كمال حكمته وعلمه[٧].

قوله تعالى: ﴿**أَفَنَضْرِبُ عَنكُم الذِّكْرَ صَفْحاً**﴾ في نصب «صفحاً» خمسةُ أوجه:

أحدها: أنه مصدر في معنى يضرب[٨]؛ لأنه يقال: ضَرَبَ عَنْ كَذَا وأَضْرَبَ عَنْهُ بمعنى أعْرَضَ عنه وصَرَفَ وَجْهَهُ عَنْهُ قال:

---

(١) الدر المصون له ٤/ ٧٧١.

(٢) لم أجدها في المتواتر عنهما، ويبدو أنها شاذة من الأربع فوق العشر. انظر الإتحاف ٣٨٤ والفخر الرازي ٢٧/ ١٩٤ والقرطبي ١٦/ ٦٢.

(٣) القرطبي ١٦/ ٦٢.

(٤) ساقط من ب وانظر رأي قتادة في معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤/ ٤٠٥.

(٥) القرطبي السابق والرازي ٢٧/ ١٩٤.

(٦) كذا ما أثبته من الرازي وفي ب وفي أ «ثبت» بدون همزة التعدية.

(٧) قاله الإمام الرازي في مرجعه السابق.

(٨) في ب نضرب بالنون، وانظر البيان ٢/ ٣٥٢.

٤٣٨٩ ـ اضْرِبَ عَنْكَ الهُمُومَ طَارِقَهَا ضَرْبَكَ بِالسَّيْفِ قَوْنَسَ الفَرَسِ[(١)]

والتقدير: أفنصفح عنكم الذكر، أي أفَنُزِيلُ القرآن عنكم إزالةً، يُنْكِرُ عليهم ذلك.

الثاني: أنه منصوب على الحال من الفاعل أي صافحين[(٢)].

الثالث: أن ينتصب على المصدر المؤكد لمضمون الجملة، فيكون عامله محذوفاً، نحو: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٨٨] قاله ابن عطية[(٣)].

الرابع: أن يكون مفعولاً من أجله[(٤)].

الخامس: أن يكون منصوباً على الظرف.

قال الزمخشري: و «صَفحاً» على وجهين: إما مصدر من صَفَحَ عنه إذَا أعرض عنه، منتصب على أنه مفعول له، على معنى أَفَنَعْزِلُ عَنْكُمْ إنزَالَ القُرْآنِ وإلزام الحجة به إعراضاً عنكم؟ وإما بمعنى الجانب من قولهم: نَظَرَ إلَيْهِ بصفح وجهه، وصفح وجهه بمعنى أَفَنُنَحِّيهِ عَنْكُمْ جانباً؟ فينتصب على الظرف، نحو: ضَعْهُ جانباً، وامْشِ جنباً، ويعضده قراءة: صُفْحاً بالضم[(٥)]. يشير إلى قراءة حَسَّانِ بْنِ عبد الرحمن الضُّبَعيِّ[(٦)] وسُمَيْطِ بن عُمَر[(٧)] وشُبَيْل بن عَزْرَةَ[(٨)] قرأوا: صُفْحاً ـ بضم الصاد ـ وفيه احتمالات:

أحدها: ما ذكره من كونه لُغَةً في المفتوح، ويكون ظرفاً[(٩)]. وظاهر عبارة أبي البقاء أنه يجوز فيه ما جاز في المفتوح؛ لأنه جعله لغة فيه كالسَّدِّ والسُّدِّ[(١٠)].

والثاني: أنه جمع صَفُوحٍ، نحو: صَبُورٍ، وصُبْر، فينتصب حالاً من فاعل «يَضْرِبُ»[(١١)] وقدَّرَ الزمخشري على عادته فعلاً بين الهمزة والفاء، أي: أَنُهْمِلُكُمْ فَنَضْرِبُ[(١٢)]. وقد تقدم ما فيه.

---

(١) من المنسرح لطرفة، وروي البيت: بالسوط بدل بالسيف وهي رواية قليلة بجانب الرواية الأولى. والشاهد: أن الضرب بمعنى الإعراض والنسيان أي انسَ ذلك وأعرض عنه ولا تتذكره فهو مجاز. وانظر النوادر لأبي زيد ١٦٥، والكشاف ٣/ ٣٧٨ والبحر المحيط ٨/ ٥ واللسان ٣٧٥٢، والخصائص ١/ ١٢٦، والممتع ١/ ٣٢٣ وشرح المفصل لابن يعيش ٩/ ٤٤ والمغني ٦٤٢ والإنصاف ٥٦٨ وشرح شواهد المغني للسيوطي ٩٣٣ والهمع ٢/ ٧٩ والأشموني ٣/ ٢٢٨.

(٢) التبيان ١١٣٧. (٣) البحر المحيط ٨/ ٦.

(٤) الكشاف ٣/ ٤٧٨. (٥) السابق مع اختلاف بسيط في العبارة.

(٦) روي عن النبي، وعن ابن عمر، انظر أُسد الغابة ٢/ ٢٥٨.

(٧) السدوسي أبو عبد الله البَصْريّ عن أبي موسى وعنه عاصم الأحول، الخلاصة ١٦٢.

(٨) الضبعي أبو عمرو البَصْري أحد أئمة العربية، عن أنس، وشهر بن حوشب، وعنه الزُّبَيْديّ وشعبة انظر خلاصة الكمال. المرجع السابق. وهذه القراءة شاذة غير متواترة انظر الشواذ لابن خالويه ١٣٤.

(٩) قاله السمين في الدر ٤/ ٧٧٢.

(١٠) قال: قرىء بضم الصاد، والأشبه أن يكون لغة. انظر التبيان له ١١٣٧.

(١١) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٧٨. (١٢) المرجع السابق.

قوله: «أَنْ كُنتُمْ» قرأ نافع والأَخَوَانِ بالكسر، على أنها[1] شرطية. وَإِسْرَافُهُمْ كان مُتَحَقِّقاً و «إنْ» إنما تدخل على غير المُتَحَقّق أو المتحقق المبهم الزمان.

وأجاب الزمخشري: أنه من الشرط الذي يصدر عن المُدْلِي[2] بصحة الأمر والتحقيق لثبوته كقول الأجير: «إنْ كُنْتُ عَمِلْتُ لَكَ عَمَلاً فَوَفِّني حَقِّي»، وهو عالم بذلك، ولكنه تخيل في كلامه أن تفريطَك في إيصال حقي[3] فعل من له شك في استحقاقه إيَّاه تجهيلاً لهم[4].

وقيل: المعنى على المُجَازَاة، والمعنى أفنضرب عنكم الذكر صفحاً متى أَسْرَفْتُم، أي إنكم غير متروكين من الإنذار متى كنتم قوماً مسرفين[5]. وهذا أراد أبو البقاء بقوله: وقرىء: إن بكسرها على الشرط وما تقدم يدل على الجواب[6]، والباقون بالفتح على العلة، أي لأَنْ كُنتُمْ كقوله:

٤٣٩٠ ـ أَتَجْزَعُ أَنْ بَانَ الخَلِيطُ المُوَدِّعُ ....[7]

ومثله قوله:

٤٣٩١ ـ أَتَجْزَعُ أَن أُذْنَا قُتَيْبَةَ جُزَّتَا ....[8]

---

(١) ذكره مكي في الكشف ٢/ ٢٥٥ وهي سبعية وانظر أيضاً الكشاف ٣/ ٤٧٨.

(٢) في الكشاف: عن المدلّ بصحة الأمر المتحقق لثبوته.

(٣) وفيه: ان تفريطك في الخروج عن الحق فعل من له شك في الاستحقاق مع وضوحه استجهالاً له. وانظر الكشاف ٣/ ٤٧٨.

(٤) واللفظ لشهاب الدين السمين في الدر ٤/ ٧٧٣ نقلاً بالمعنى عن الزمخشري.

(٥) المرجع السابق.

(٦) التبيان ١١٣٧ وقد قرأ بالكسر أيضاً مع نافع وحمزة الكسائي والأعمش، وانظر الكشف لمكي ٢/ ١٥٥. ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٢٧ والإتحاف ٣٨٤، والسبعة ٥٨٤.

(٧) صدر بيت من الطويل، ولم أعرف قائله وعجزه:

.... **وَحبلُ الصَّفا مِنْ عَزَّةَ المُتَقَطِّع**

والخليط: القوم الذين أمرهم واحد، والشاهد: ورود البيت بكسر الهمزة وفتحها فالفتح على تقدير حرف العلة، أي لأن، والكسر على الشرط وتقدير الفتح: أتجزع لِبَيْنِ الخليط، وقد أوضح الزمخشري قبلُ كسر الهمزة على الشرطية وانظر معاني الفراء ٢/ ١٣٤ و٣/ ٢٨، والخزانة ٩/ ٨٠ والدر المصون ٤/ ٧٧٣.

(٨) من الطويل كسابقه وهو للفرزدق في هجاء جرير، ومدح سليمان بن عبد عبد الملك وعجزه:

.... **جِهاراً ولم تَجْزَع لِقَتْلِ ابْنِ خَازِمِ**

وقتيبة هو ابن مسلم الباهلي القائد المشهور، وابن خازم أمير خراسان، وحُزَّتا: قطعتا. ويروى البيت أتغضب بدل: أتجزع، والمعنى واحد وشاهده كسابقه ورود البيت بالكسر والفتح، فالفتح على تقدير حرف الجر وهو لام العلة والكسر على الشرط كما أجاب عن ذلك الزمخشري والكسر فيه وفي البيت قبله وارد كورود الفتح، وهنا في البيت يقدر فعل دل عليه حَزَّ، كقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ =

يروى بالكسر والفتح، وقد تقدم نحوٌ من هذا أول المائدة. وقرأ زيدُ بنُ عليّ: إذا ـ بذالِ عوضِ النون[١] وفيها معنى العلة، كقوله: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

فصل

قال الفراء[٢] والزجاج[٣]: يقال: ضَرَبْتُ عَنْهُ وأَضْرَبْتُ عَنْهُ. أي تَرَكْتُهُ ومَسَكْتُ عَنْهُ، وقوله: «صَفْحاً» أي إعراضاً، والأصل فيه: أنك تَوَلَّيْتَ[٤] بصَفْحَةِ عُنُقِكَ. والمراد بالذكر عذابُ الله. وقيل: أفنرُدُّ عنكم النصائح والمواعظ والأعذار بسبب كونكم مسرفين، وقيل: أَفَنرُدُّ عنكم القرآن[٥]، وهذا الاستفهام على سبيل الإنكار، والمعنى: أفنترك عنكم الوحي، ونمسك عن إنزال القرآن، فلا نأمركم ولا ننهاكم من أجل أنكم أسرفتم في كفركم وتركتم الإيمان؟ وهذا قول قتادةَ وجماعةٍ، قال قتادة: والله لو كان هذا القول[٥] رفع حين رده أوائل هذه الأمة لهلكوا، ولكن الله برحمته كرره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنةً أو ما شاء الله.

وقيل: معناه أفنضرب عنكم بذكرنا إياكم صافحين مُعْرِضينَ[٦]. وقال الكسائي: أفنطوي عنكم الذّكرَ طَيًّا، فلا تدعون ولا توعظون[٧]، وقال الكلبي: أَفَنَتْرُكُكُم سُدًى، لا نأمركم ولا نَنْهَاكُمْ[٨]. وقال مجاهد والسدي: أَفَنُعْرِضُ عنكم ونترككم فلا نعاقبكم على كفركم[٩].

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟

= وانظر الكتاب ٣/ ١٦١ ومعاني الفراء ٣/ ٢٧، والخزانة ٩/ ٧٨، ٨٦ والهمع ٢/ ١٩ والمغني ٢٦ و ٣٥ و٣٦ وشرح الشواهد ٨٦، والدر المصون ٣/ ٧٧٣ وديوانه ٢/ ٣١١.

(١) البحر المحيط ٨/ ٦.

(٢) انظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨.

(٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤/ ٤٠٥.

(٤) في الرازي والنسختين تولية.

(٥) الرازي ٢٧/ ١٩٣، ١٩٤ والقرطبي ١٦/ ٦٢.

(٦) الكشاف ٣/ ٤٧٨.

(٧) القرطبي ١٦/ ٦٢.

(٨) ونسب الرأي للسدي انظر السابق.

(٩) السابق أيضاً.

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾

قوله: «وَكَمْ أَرْسَلْنَا» «كم» خبرية مفعول مقدم، و «مِنْ نَبِيٍّ» تمييز و «فِي الأَوَّلِينَ» يتعلق بالإرسال أو بمحذوف على أنه صفة «لِنَبِيٍّ» والمعنى: أن عادة الأمم مع الأنبياء الذين يدعونهم إلى الدين الحق هو التكذيب والاستهزاء، فلا ينبغي أن يُتَأَذَّى بسبب تكذيبهم، واستهزائهم، لأن المصيبة إذا عمت خفت.

ثم قال: «فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنهُمْ بَطْشاً» أي إن أولئك المتقدمين الذين أرسل إليهم الرسل، كانوا أشدَّ بطشاً من قريش وأَكْثَرَ عدداً وجلَداً.

قوله «بطشاً» فيه وجهان:

أحدهما: أنه تمييز «لأشد» **والثاني**: أنه حال من الفاعل أي أهْلَكْنَاهُمْ بَاطِشينَ[١].

قوله: «وَمَضَى مَثَلُ الأَوَّلِينَ» والمعنى أن كفار مكة سلكوا في الكفر والتكذيب مسلك من كان قبلهم فَلْيَحْذَرُوا أنْ يَنْزِلَ بهم الخِزْيُ مثْلَ أنزل بالأولين[٢]. أي صفتِهم وسنتِهم وعقوبتِهم، فعاقبة هؤلاء كذلك في الإهلاك.

قوله تعالى: **﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماوات والأَرْضَ...﴾** الآية والمعنى: وَلَئِنْ سَأَلْتَ قَوْمَكَ من خَلَقَ السموات والأرض؟ وقيل: الضمير في «سألتهم» يحتمل رجوعه إلى الأنبياء. والأقرب الأول، أي أنهم مع كفرهم مقرين بعزته، وعلمه، ثم عبدوا غيره، وأنكروا قدرته على البعث، لفَرْطِ جَهْلِهِمْ[٣].

قوله: «خَلقهنَّ العَزِيزُ العَلِيمُ» كرر الفعل للتوكيد؛ إذ لو جاء «العزيز» بغير «خلقهن» لكان كافياً، كقولك: مَنْ قَامَ؟ فيقال: زيدٌ. وفيها دليل على أن الجلالة الكريمة من قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[٤] [الزخرف: ٨٧] مرفوعة بالفاعلية، لا بالابتداء للتصريح بالفعل في نظيرتها.

وهذا الجواب مطابق للسؤال من حيث المعنى، إذ لو جاء على اللفظ لجيء فيه بجملة ابتدائية كالسؤال.

قوله: «الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً»[٥] اعلم أنه قد تم الإخبارُ عنهم، ثم ابتدأ

---

(١) نقل هذه الإعرابات كلها أبو البقاء في التبيان ١١٣٧، والسمين في الدر المصون بتفصيل نقلاً عنه ٤/ ٧٧٣.

(٢) قال بهذه المعاني الرازي في تفسيره ٢٧/ ١٩٥.

(٣) انظر الرازي ٢٧/ ١٩٦ و ١٩٥ بالمعنى منه.

(٤) انظر هذا في الأشباه والنظائر للإمام السيوطي ٢/ ٥٠، والدر المصون للإمام السمين الحلبي ٤/ ٧٧٣.

(٥) في النسختين مِهاداً وما ذكرته موافق للمصحف والمعهود منه.

دالاً على نفسه بذكر مصنوعاته فقال: «الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مِهَاداً» ولو كان هذا من جملة كلام الكفار لقالوا: الذي جعل لنا الأرض مِهَاداً، إلا أن قوله في أثناء الكلام: «فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً» لا يليق إلا بكلامه.

ونظيره من كلام الناس أن يسمع الرجل رجلاً يقول: الذي بنى هذا المسجدَ فلانٌ العَالِمُ فيقول السَّامع لهذا الكلام: الزاهدُ الكريمُ، كأن ذلك السامع يقول: أنا أعرفه بصفات حميدةٍ فوق ما تعرفه فأَزِيدُ في وصفه، فيكون النعتان جميعاً من رجلين لرجل واحد[١].

ومعنى كون الأرض مهاداً واقعة ساكنة، فإنها لو كانت متحركة لما أمكن الانتفاع بها في الزراعة والأبنية، وستر عيوب الأحياء والأموات، ولأن المهدَ موضعُ راحة الصبي. فكانت الأرض مهاداً لكثرة ما فيها من الراحات «وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً» وذلك أن انتفاع الناس بها إنما يكمل إذا سعوا في أقطار الأرض، فهيأ تعالى تلك السبل ووضع عليها علامات، ليحصل بها الانتفاع[٢]. ثم قال: «لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» إلى مَقَاصِدِكم في أسفاركم، أو لتهتدوا إلى الحق في الدِّين[٣].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ أي بِقَدْرِ حاجتكم إليه من غير زيادة ولا نُقْصَان، لا كما أنزل على قوم نوع بغير قدر حتى أَغْرَقَهُمْ[٤].

قوله: «فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً» قرأ العامة مُخَفَّفاً، وَعِيسَى[٥] وأبو جَعْفَرٍ[٦] مُثَقَّلاً، وتقدم الكلام فيه في آل عمران[٧]. وتقدم في الأعراف الخلاف في تَخْرُجُونَ وتُخْرَجُونَ[٨] أي كما أحيينا هذه البلدة بالمطر، ومعنى الميتة الخالية من النبات، كذلك تخرجون من قبوركم أحياء. والمعنى أن هذا الدليل كما دل على قدرة الله تعالى وحكمته، فكذلك يدل على قدرته على المبعث والقيامة.

ووجه التشبيه أنه جعلهم أحياءَ بعد إماتةٍ كهذه الأرض التي انْتَشَرَتْ بعدما كانت ميتةً.

---

(١) نقله الرازي في تفسيره ٢٧/١٩٦.
(٢) و (٣) الرازي في تفسيره ٢٧/١٩٦.
(٤) المرجع السابق.
(٥) المراد به الثقفي ـ كما تقدم ـ عند الإطلاق.
(٦) أحد العشرة.
(٧) عند قوله: ﴿وتخرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَتُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ﴾ ٢٧، وقد روى حفص عن عاصم التشديد في كل ما ورد في القرآن من هذا الحرف، وقرأ بالتخفيف ابن كثير وعاصم في رواية أبي بكر، وأبو عمرو وابن عامر، وبالتثقيل قرأ نافع وحمزة والكسائي، انظر السبعة ٢٠٣، والإتحاف ١٧٢.
(٨) يقصد الآية ٢٠ وَمِنها تخرجُون فعلى البناء للفاعل قرأ حمزة وخلف والكسائي في الأعراف وفي الزخرف، وفي البناء للمجهول قرأ الباقون وانظر الإتحاف ٢٢٣، والسبعة ٥٨٤، والبحر ٨/٧.

قيل: بل وجه التشبيه أنه يُعيدهم ويُخْرجهم من الأرض بماءٍ كالمني كما تَنْبُتُ الأرضُ بماء المطر، وهذا ضعيف؛ لأن ظاهر لفظ الإنشار الإعادة فقط دون هذه الزيادة.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾، قال ابن عباس ـ (رضي الله عنهما) ـ الأزواج الضروب والأنواع كالحُلو والحَامِض والأبيض والأسود والذكر والأنثى.

وقال بعض المحققين: كل ما سوى الله فهو زَوْج، كالفَوْق، والتَّحْتِ، واليَمِين، واليَسَار، والقُدَّام والخَلْفِ، والمَاضِي، والمُسْتَقْبَلِ، والذَّواتِ والصِّفاتِ، والصيفِ، والشِّتاء، والربيعِ والخريفِ. وكونها أزواجاً يدل على أنها ممكنة الوجود في ذواتها محدثةٌ مسبوقةٌ بالعدم، فأما الحق تعالى فهو المفرد المنزه عن الضِّدِّ والنِّدِّ، والمقابل، والمعاضِد، فلهذا قال تعالى: ﴿والَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أي كل ما هو زوج فهو مخلوق، فدل هذا على أن خالقها فرد مطلق منزه عن الزوجية.

قال ابن الخطيب: وأيضاً علماء الحساب بينوا أن المفرد(١) أفضل من الزوج لوجوه:

الأول: أن الاثنين لا توجد إلا عند حصول وَحْدَتَيْنِ، فالزوج مُحْتَاجٌ(٢) إلى الفرد، والفرد هو الوحدة وهي غنية عن الزوج والغني أفضل من المحتاج.

الثاني: أن الزوج يقبل القسمة بقسمين مُتَسَاوِيَيْنِ والفرد لا يقبل القسمة، وقبول القسمة انفعال وتأثر وعدم قبولها قوة وشدة، فكان الفرد أفضل من الزوج.

(ثم ذكر وجوهاً(٣) أُخَرَ(٤) تدل على أن الفرد أفضل من الزوج) وإذا كان كذلك ثبت أن الأزواج ممكناتٌ ومحدَثاتٌ ومَخْلُوقَاتٌ وأن الفردَ هو القائم بذاته المستقلّ بنفسه، الغني عَمَّا سِوَاهُ.

قوله: «وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الفُلْكِ والأَنْعَام مَا تَرْكَبُونَ» ما موصولة وعائدها محذوف، أي ما تَرْكَبُونَهُ، وركب بالنسبة (إلى الفلك)(٥) يتعدى بحرف الجر: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ﴾ [العنكبوت: ٦٥] وفي غيره بنفسه، قال: ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ [النحل: ٨] فغلب هنا المتعدي بنفسه على المتعدي بواسطة، فلذلك حذف العائدَ(٦).

---

(١) كذا هي في أ هنا وما في الرازي و ب الفرد.
(٢) في الرازي: يحتاج.
(٣) ما بين القوسين سقط من ب بسبب انتقال النظر.
(٤) انظرها في تفسيره ٢٧/ ١٩٧ و ١٩٨ وانظر كل ما سبق في التفسير ٢٧/ ١٩٧ و ١٩٨.
(٥) سقط من ب.
(٦) قاله في الكشاف معنى ٣/ ٤٧٩، وفي الدر المصون لفظاً ٤/ ٤٧٤.

فصل

السَّفَرُ إما أن يكون في البحر، وإما أن يكون في البرِّ، فأما سفر البحر فعلى السفينة، وأما سفر البر فعلى الأنعام.

فإن قيل: لِمَ لَمْ يقل على ظهورها؟

فالجواب من وجوه:

الأول: قال أبو عبيدة التذكير لقوله[١]: «مَا تَرْكَبُونَ»[٢] والتقدير: ما تركبونه، فالضمير يعود على لفظ «ما» فلذلك أَفْرَدَهُ.

الثاني: قال الفراء: أضاف الظهر إلى واحد فيه معنى الجمع بمنزلة الجنس، فلذلك ذَكَّرَهُ، وجمع الظهور باعتبار معناها[٣].

الثالث: أن التأنيث فيها ليس حقيقياً، فجاز أن يختلف اللفظ فيه، كما يقال: عِنْدِي مِنَ النِّسَاء مَنْ يُوَافِقُكَ[٤].

قوله: «لِتَسْتَوُوا» يجوز أن تكون هذه لام العلة، وهو الظاهر[٥] وأن تكون للصيرورة فتتعلق في كليهما بـ «جَعَل»[٦]. وجوز ابن عطية: أن تكون للأمر[٧]، وفيه بعد، لقلة دخولها على أمر المخاطب.

وقُرِىءَ شاذاً: فَلْتَفْرَحُوا[٨] وفي الحديث: «لِتَأْخُذُوا مَصَافَّكُمْ»[٩] وقال:

٤٣٩٢ ـ لِتَقُمْ أَنْتَ يَا ابْنَ خَيرِ قُرَيْشٍ فَتَقْضِي حَوَائِجَ المُسْلِمِينَا[١٠]

---

(١) في ب بقوله.

(٢) نقله في مجاز القرآن ٢/ ٢٠٢.

(٣) ينظر معاني القرآن له ٣/ ٢٨ و٢٩.

(٤) قاله الرازي في تفسيره الكبير ٢٧/ ١٩٨، ١٩٩.

(٥) وهو رأي أبي حيان المفضل، البحر ٨/ ٧.

(٦) نقله أبو حيان عن الحَوْفيّ في المرجع السابق.

(٧) المرجع السابق.

(٨) ذكر ابن خالويه في مختصره (٥٧) أنها عن النبي ـ ﷺ ـ وعن الكسائيّ في رواية زكريا بن وَرْدَانَ.

(٩) سيف هذا الحديث.

(١٠) من الخفيف ولم أعرف قائله من خلال ما قلبت من مراجع، ويروى: فتُقْضى ـ بالبناء للمفعول ـ كما يروى: فَلْتَقْضي ـ بلام الأمر ـ ويكون حينئذ فيه شاهدان فالشاهد: مجيء لام الأمر داخلة على المضارع المبدوء بالتاء وهو في الشعر أكثر منه في النثر. وقوله فلتقضي تكون الياء إشباعاً عن حركة الكسرة، وانظر البيت في الخزانة ٩/ ١٤ والإنصاف المسألة رقم ٧٢/ ٥٢٤ إلى ٥٣٨. وقد احتج به الكوفيون على أن فعل الأمر معرب لا مبني، وهو من الشواذ والقلة عند النحويين، لأن لام الأمر لا تدخل على أمر المخاطب والأكثر الاستغناء عنه هذا الفعل الأمر. وانظر كذلك شرح الكافية ٢/ ٢٥٢ وابن يعيش ٧/ ٦١ وشرح الأشموني ٤/ ٣ والتصريح ١/ ٥٥ و ٢/ ٢٤٦.

نص النحويون على قلتها عدا أَبَا القَاسِمِ الزَّجَّاجِيّ[(١)]، فإنه جعلها لغة[(٢)] جيدة[(٣)].

قوله: «ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ» أي تذكرونها في قلوبكم، وذلك الذكر هو أن يَعْرِف أن الله تعالى خلق البحر وخلق الرياح، وخلق جُرْمَ السفينة على وجه يُمْكِنُ الإنسان من تصريف هذه السفينة إلى أي جانب شاء، فإذا تذكر أن خلق البحر، وخلق الرياح، وخلق السفينة على هذه الوجوه القابلة لتصرف الإنسان ولتحريكاته، إنما هو من تدبير الحكيم العليم القدير، عرف أن ذلك نعمة من الله تعالى، فيَحْمِلُهُ ذلك على الانقياد لطاعة الله تعالى، وعلى الاشتغال بالشكر، لنعم الله التي نهاية لها.

قوله: «وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ» مطيقين[(٤)] وقيل: ضابطين[(٥)].

واعلم أنه تعالى عين ذكراً لركوب السفينة والدابة، وهو قوله: «سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا» وذكر عند دخول المنازل: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩] وتحقيقة أن الدابة المركوبة لا بدّ أن تكون أكثرَ قوة من الإنسان بكثير، وليس لها عقل يهديها إلى طاعة الإنسان، ولكنه تعالى خلق تلك البهيمة على وجوه مخصوصة في خلقها الظاهر، وخلقها الباطن، فحصل منها هذا الانتفاع. أما خَلْقُها الظاهر، فلأنها تَمْشِي على أربَع، وكان ظهرها يحسن لاستقرار الإنسان وأما خلقها الباطن فلأنها مع قوتها الشديدة قَد صيّرها الله تعالى مُنْقَادةً للإنسان، ومسخّرة له، فإذا تأمل الإنسان في هذه العجائب عَظُمَ تعجبه من تلك القدرة، والحكمة التي لا نِهاية لها، فلا بدّ وأن يقول: سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين[(٦)].

قوله: «(لَهُ)[(٧)] مُقْرِنِينَ»، «له» متعلق «بمقرنين»، وقدم للفواصل. والمُقْرِنُ: المُطيقُ للشيء الضابط له من: أَقْرَنَهُ: أي أَطَاقَهُ. قال الواحدي: كأن اشتقاقه من قولك: صِرْتُ له قِرْناً، ومعنى قِرْن فُلاَنٍ، أي مثلُهُ في الشِّدة[(٨)].

وقال أبو عبيدة: قِرْنٌ لفلانٍ أي ضابط له[(٩)]. والقَرْنُ الحَبْلُ[(١٠)]، وقال ابن هَرْمَةَ:

---

(١) عبد الرحمن بن إسحاق، أخذ عن ابن السراج، ولازم الزجاج فنسب إليه وله من الكتب كتاب «الجُمَل» مات سنة ٣٣٧ وانظر نزهة الأولياء ٢٠٤ و ٢٠٥.

(٢) في (ب) آفة وهو تحريف.

(٣) انظر الدر المصون ٤/ ٧٧٥.

(٤) وهو قول ابن عباس والكلبي انظر القرطبي ١٦/ ٦٦.

(٥) وهو رأي الأخفش وأبي عبيدة، انظر تفسير القرطبي ١٦/ ٦٦ والمجاز ٢/ ٢٠٢.

(٦) انظر تفسير الإمام الرازي ٢٧/ ١٩٨ و ١٩٩.

(٧) سقط من (ب).

(٨) وهذا رأي ابن سيده في المخصص «قرن» وابن منظور في اللسان ٣٦١٣.

(٩) مجاز القرآن ٢/ ٢٠٢.

(١٠) اللسان المرجع السابق ٣٦١١.

٤٣٩٣ ـ وَأَقْرَنْتُ مَا حَمَّلْتَنِي وَلَقَلَّمَا يُطَاقُ احْتِمَالُ الصَّدِّ يَا دَعْدُ والهَجْرُ[١]

وقال عمرو بن معد يكرب:

٤٣٩٤ ـ لَقَدْ عَلِمَ القَبَائِلُ مَا عُقَيلٌ لَنَا فِي النَّائِبَاتِ بِمُقْرِنِينَا[٢]

وحقيقة أَقْرَنَهُ: وجده قَرِينَهُ؛ لأن القوي لا يكون قرينه الضعيف[٣]، قال (ـ رحمه الله ـ)[٤]:

٤٣٩٥ ـ وابنُ اللَّبُون إذَا مَا لُزَّ فِي قَرَنٍ لَمْ يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ البُزْلِ القَنَاعِيسِ[٥]

وقرىء: مُقْتَرِنِينَ بالتاء قبل الراء[٦].

فصل

ومعنى الآية ليس عندنا من القوة والطاعة أن نقرن هذه الدابة والفلك، وأن نضبطها فسُبْحَانَ مَنْ سَخَّر لنا هذا بقدرته وحكمته[٧]، روى الزمخشريّ عن النبي ـ ﷺ ـ أنه كان إذا وضع رِجْلَهُ في الركاب، قال: بِسْمِ اللَّهِ، فإذا استوى على الدَّابَّةِ قال: الحَمْدُ لله على كل حال، سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين. وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ[٨]

وروى عن عليٍّ أيضاً مثله وزاد: ثم حمَّد ثلاثاً، وكبَّر ثلاثاً، ثم قال: لا إله إلا الله ظلمت نفسي فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، ثم ضحك، فقيل: مما تضحك يا أمير المؤمنين؟ قال: رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ فَعَلَ ما فعلتُ، فقلنا: ما يضحكك يا نبيَّ

---

(١) من الطويل ومعناه إنني أطقت احتمال هجرك وصدّك عني يا دعد.
والشاهد: أقرنت بمعنى أطقت واستطعت، انظر الدر المصون ٤/ ٧٧٥، والبحر المحيط ٨/ ٧، والكشاف ٣/ ٤٨٠، وشرح شواهده ٤٢١، وليس في ديوانه.

(٢) من الوافر له وليس في ديوانه أيضاً كسابقه.
وشاهده: «بمُقْرِنِينَا» أي بمطيقين، وانظر القرطبي في الجامع ١٧/ ٦٦ والبحر ٨/ ٧، والدر المصون ٤/ ٧٧٥.

(٣) بالمعنى من الكشاف ٣/ ٤٨٠ فقد قال: «وحقيقة أقرنه وحده قرينته وما يقرن به لأن الصعب لا يكون قرينة للضعيف».

(٤) ساقط من ب.

(٥) من البسيط ولم أعرف قائله. وشاهده أن القرن هو الحبل، وأن «أقرنه» المتعدي بهمزة لا يكون إلا بين مُتَسَاوِيَيْنِ كما أوضح أعلى قبل ولزه شده من لَزَّهُ يلُزُّهُ لزًّا ولِزازاً أي شده وألصقه. والبُزْل جمع أبْزَل وبازل وهو الشق وذلك أن نابه ـ أي البعير ـ إذا طلع يقال له بازل لشقه اللحم عن مَنْبَتِهِ شقاً.

(٦) قراء شاذة غير متواترة ذكرها أبو حيان في بحره ٨/ ٧ إلا أنه ذكرها باللام. وقرىء المُقْتَرِنِينَ اسم فاعل من اقترن وانظر كذلك الكشاف ٣/ ٤٨٠.

(٧) الرازي ٢٧/ ١٩٩.

(٨) الكشاف ٣/ ٤٧٩ و ٤٨٠.

الله؟ قال: العبدُ إذا قال لا إله إلا أنت ظلمت نفسي فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت يعلم أنه لا يغفر الذنوب إلا هُوَ[١].

فصل

دلت هذه الآية على خلاف قول المُجَبِّرة من وجوه:

الأول: أنه تعالى قال: «لِتَسْتَوُوا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه» فذكره بلام «كَيْ» وهذا يدل على أنه أراد منا هذا الفعل وهذا يدل على بطلان قولهم: إنه تعالى أراد الكفر منه.

الثاني: قوله «لتستووا» يدل على أن فعله معلّل بالأغراض.

الثالث: أنه تعالى بين أن خلق هذه الحيوانات على هذه الطبائع إنما كان لغرض أن يصدر الشكر عن العبد ولو كان فعل العبد فعلاً لله لكان معنى الآية إني خلقت هذه الحيوانات على هذه الطبائع لأجل أن[٢] أَخْلُقَ سُبْحَانَ الله في لسان العبد. وهذا باطل؛ لأنه تعالى قادر على أن يخلق هذا اللفظ في لسانه بدون هذه الوَسَائِطِ[٣].

قال ابن الخطيب: «الكلام على هذه الوجوه معلوم مما تقدم فلا فائدة في الإعادة»[٤].

قوله: «وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ» أي لمُصَيَّرُونَ في المعاد[٥]. ووجه اتصال الكلام بما قبله أن راكب الفلك في خطر الهلاك وراكب الدابة كذلك أيضاً؛ لأن الدابة قد يحصل لها ما يوجب هلاك الراكب، وكذا السفينة قد تنكسر، ففي ركوبهما تعريض النفس للهَلاَك فوجب على الراكب أن يتذكر أمر الموت، ويقطع أنه هالك، وأنه منقلب إلى الله، وغير منقلب من قَضَائِهِ وقدره، فإذا اتفق له ذلك (المحذور)[٦] كان قد وطن نَفْسَهُ على الموت[٧].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ

---

(١) رواه علي بن أبي ربيعة عن علي بن أبي طالب انظر القرطبي ١٦/ ٦٨.
(٢) في ب أني وما ذكر أعلى كما قاله الإمام الرازي في التفسير الكبير.
(٣) انظر تفسير الرازي ٢٧/ ١٩٩ وقد نقله عن صاحب الكشاف ولم أعثر عَلَيه فِيهِ.
(٤) المرجع السابق.
(٥) انظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤/ ٤٠٦.
(٦) زيادة من الرازي لتوضيح السياق.
(٧) الرازي ٢٧/ ٢٢٠.

﴿وَجَعَلُوا الْمَلَٰئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٨﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١٩﴾ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢٠﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾

قوله: «جُزْءاً» قرأ عاصم ـ في رواية أبي بَكْرٍ ـ جزءاً ـ بضم الجيم والزَّاي، في كل القرآن(١)، والباقون بإسكان الزاي في كُلِّ القرآن. وهما لغتان.

وأما حمزة فإذا وقف قال: جُزَا ـ بفتح الزاي بلا همزٍ(٢). و «جزءاً» مفعول أول للجعل والجعل تَصْيِيرٌ قولي. ويجوز أن يكون بمعنى سَمَّوْا واعْتَقَدُوا.

وأغربُ ما قيل هنا: أن الجزء الأنثى، وأنشدوا:

٤٣٩٦ ـ إنْ أَجْزَأَتْ حُرَّةٌ يَوماً فَلاَ عَجَبٌ   قَدْ تُجْزِىءُ الحُرَّةُ المِذْكَارُ أَحْيَانَا(٣)

وقال الآخر:

٤٣٩٧ ـ زَوَّجْتُهُ مِنْ بَنَاتِ الأَوْسِ مُجْزِئَةً   لِلْعَوْسَجِ اللَّدْنِ في أَبْيَاتِهَا زَجَلُ(٤)

قال الزمخشري: أثر الصنعة فيهما ظاهر(٥).

وقال الزَّجَّاجُ والأَزْهَرِيُّ: هذه اللغة فاسدة، وهذه الأبيات مصنوعة(٦).

---

(١) ليست من المتواتر بل هي من الأربع فوق العشرة. انظر الإتحاف ٣٨٥ والرازي ٢٧/ ٢٢٠.

(٢) انظر السابقين.

(٣) من البسيط ولم أهتد إلى قائله.
وشاهده: أن أجزأت وتُجزِىء بمعنى تَلِدُ الإناثَ وهو معنى غريب نقل، ولم يَرْتَضِه أولو العلم الخُلَّصُ فقد قال الزجاج: أنشدني بعض أهل اللغة بيتاً يدل على أن معنى جزء معنى الإناث، ولا أدري البيت قديم أم مصنوع، ثم قال كذلك صاحب اللسان انظر معاني الزجاج ٤/ ٤٠٧ والدر المصون ٤/ ٧٧٥، وغريب القرآن ٣٩٦ وتفسير غريب القرآن للسجستاني ٢٢٤ والكشاف ٣/ ٤٨١ وشرح شواهده ٥٥٨، ومجمع البيان ٩/ ٦٤ والبحر المحيط ٨/ ٨.

(٤) البيت صدره فقط في القرطبي ١٦/ ٦٩، والبحر ٨/ ٨ وبتمامه في اللسان جزأ ٦١٣ وغريب القرآن ٣٩٦، إلا أن الرواية التي ذكرها المؤلف تبعاً للسمين ٤/ ٧٧٦ وفي اللسان وبقية المراجع: زوجتها وهو من البسيط وقد أنشده أبو حنيفة الدينوري كما قال صاحب اللسان.
والشاهد: مجزئة: أي تلد الإناث ومعنى البيت أنها امرأة غزالة بمغازل سُوِّيت من شجر العوسج، وانظر المراجع السابقة والكشاف ٣/ ٤٨١، وشرح شواهده ٥٠١.

(٥) قال: «ومن بدع التفاسير تفسير الجزء بالإناث، وادعاء أن الجزء في لغة العرب اسم للإناث وما هو إلا كذب على العرب، ووضع مستحدث منحول».

(٦) قال الزجاج ٤/ ٤٠٧ في معاني القرآن: «ولا أدري البيت قديم أم مصنوع»، وانظر تهذيب الأزهري جزأ.

فصل

المشهور أن المراد من هذا الجعل أنهم أثبتوا لِلَّه وَلَداً بمعنى حكموا به، كما تقول: جَعَلْتُ زيداً أفضلَ الناس أي وَصفتُهُ وحكمت به، وذلك قولهم: المَلاَئكةُ بناتُ الله؛ لأن ولد الرجل جزء منه، قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «فَاطِمَةُ بِضْعَةٌ منِّي»[١]. والمعقول من الولد أن ينفصل من الوالد جزء من أجزائه ثم يتربى ذلك الجزء ويتولد منه شخص مثل ذلك الأصل، وإذا كان كذلك فولد الرجل جزء منه[٢].

وقيل: المراد بالجزء إثبات الشركاء لله، وذلك أنهم لما أثبتوا الشركاء فقد زعموا أن كل العباد ليست لله، بل بعضها لله، وبعضها لغير الله، فهم ما جعلوا لله من عباده كلهم، بل جعلوا له من بعضهم جزءاً منهم. قالوا: وهذا القول أولى، لأنا إذا حملنا هذه الآية على إنكار الشريك لله وحملنا الآية التي بعدها على إنكار الولد لله كانت الآية جامعة للرد على جميع المبطلين، ثم قال: ز«إنَّ الإنْسَانَ لَكَفُور» يعني الكافر لكفور جحود لنعم الله «مُبين» ظاهر الكفر[٣].

قوله: «أَم اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ» هذا استفهام توبيخ وإنكار، يقول اتخذ رَبُّكُمْ لِنَفْسِهِ البَنَاتِ و «أَصْفَاكُمْ» أخلَصكم بالبَنِين يقال: أَصْفَيْتُ فُلاَناً أي آثَرْتُهُ به إيثاراً حصل له على سبيل الصفاء من غير أن يكون له فيه مشارك، كقوله: «أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِين»[٤] فقوله: «وَأَصْفَاكُمْ» يجوز أن يكون داخلاً في حيز الإنكار معطوفاً على «اتَّخَذَ»، ويجوز أن يكون حالاً، أي أَمِ اتَّخَذَ في هذه الحاله[٥]. و «قد» مقدرة[٦] عند الجُمْهُورِ.

فصل

واعلم أن الله تعالى رَتَّبَ هذه المناظر على أحسن الوجوه، وذلك لأنه بين أن إثبات

---

(١) ذكره الإمام السيوطي في جامع الأحاديث ٤/ ٦٢٢ عن المسور ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) ذكره الرازي في تفسيره ٢٧/ ٢٠٠ قال: وهو المشهور.

(٣) السابق، وانظر أيضاً الكشاف ٣/ ٤٨١، والقرطبي ١٦/ ٦٩.

(٤) وهو بتوضيح وتفصيل من المؤلف لما في القرطبي ١٦/ ٧٠.

(٥) نقله في الدر المصون ٤/ ٧٧٦.

(٦) نقل الإمام السيوطي في الهمع أن الماضي المثبت المتصرف غير التالي إلا، والمتلو بأو العاري من الضمير إيجاب قد مع الواو كقوله: فجئت وقد نضتْ لنوم ثيابها. فإن كان جامداً كليس، أو منفياً، فلا نَحْوُ: جاء زيد وما طلعت الشمس ثم قال: هذا ما جزم به المتأخرون كابن عصفور، والأبّذِيّ، والجُزُولِيّ، وهو قول الفارسي، والمبرد. قال أبو حيان: والصحيح وقوع الماضي حالاً بدون «قد» ولا يحتاجُ إلى تقديرها لكثرة ورود ذلك وتأول الكثير ضعيف جداً، لأنا إنما نبني المقاييس العربية على وجود الكثرة. وهذا مذهب الأخفش أيضاً فيما نقله صاحب اللباب عن الكوفيين، وابن أصبغ عن الجمهور. انظر الهمع ١/ ٢٤٧ بتصرف.

الولد لله محال، وبتقدير أن ثبت الولد فجعله بنْتاً محالٌ أيضاً.

أما بيان أن إثباتَ الولد لله محال؛ فلأن الوَلَدَ لا بدّ وأن يكون جُزْءاً من الوَالِدِ، ولَمَّا[١] كان له جزء كان مركباً، وكل مركب ممكن وأيضاً ما كان كذلك، فإنه يقبل الاتِّصَالَ والانْفِصَالَ والاجْتَمَاعَ والافْتِرَاقَ وما كان كذلك فهو مُحْدَث عبد، فلا يكون إلهاً قديماً أزليًّا[٢].

وأما المقام الثاني وهو أن يكون لله ولد فإنه يمتنع أن يكون بنتاً، لأن الابن أفضلُ من البنت فلو اتخذ لنفسه البنات وأعطى البنينَ لعباده لزم أن يكون حال العبد أفضل وأكمل من حال الله، وذلك مدفوع ببديهة العقل[٣].

قوله: «وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ» تقدم نظيره[٤]. قال الزمخشري: «وقرىء هنا: وَجْهُهُ مُسْوَدٌّ ومُسْوَادٌّ بالرفع على أنها جملة في موضع خبر «ظل»، واسم «ظل» ضمير الشأن»[٥].

فصل

والمعنى بما ضرب للرحمن مثلاً، أي جعل لله شبهاً؛ لأنَّ وَلَد كُلّ شيء يُشْبِهُهُ، «ظَلَّ وَجْهُهُ» أي صار وجهه «مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ» من الحزن والغيظ[٦]. والمعنى أن الذي بلغ حاله في النقص إلى هذا الحد كيف يجوز للعاقل إثباته[٧]؟ روي أن بعض العرب هجر بيته حين وضعت امرأته بِنْتاً فقالت المرأة:

٤٣٩٨ ـ مَا لأَبِي حَمْزَةَ لاَ يَأْتِينَا ... يَظَلُّ فِي الْبَيْتِ الَّذِي يَلِينَا
غَضْبَانَ أَن لا نَلِدَ البَنِينَا ... لَيسَ لَنَا مِنَ القَضَاءِ مَا شِينَا
وَإِنَّمَا نَأْخُذُ مَا أُعْطِينَا[٨]

---

(١) في ب والرازي: وما كان له جزء، بدون اللام.

(٢) كذا في الرازي وفي ب فقط أولياً.

(٣) وانظر في هذا كله تفسير الرازي ٢٧/ ٢٠١.

(٤) وهو قوله تعالى في سورة النحل الآية (٥٨) ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَداً وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي بأن ولدت له بنت، ومن حالهم أن أحدهم إذا قيل له: قد ولدت له أنثى اغتم، واربدّ وجهه غيظاً وتأسفاً وهو مملوء من الكرب.

(٥) بالمعنى من الكشاف ٣/ ٤٨٢.

(٦) المرجع السابق.

(٧) قاله الرازي في تفسيره الكبير ٢٧/ ٢٠١.

(٨) ذكر هذه الأبيات الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٨٢ وهي: أرجاز لامرأة حمزة الضبي، وانظر البيان والتبيين للجاحظ ١/ ١٦٣، وشرح شواهد الكشاف ٥٥٨، ٥٥٩ والفخر الرازي ٢٧/ ٢٠٢ وفي هذه المراجع: مِنْ أَمِرْنَا مَا شِينَا. وفي النسختين: من القَضَاء.

قوله تعالى: ﴿أَوَ مَنْ يُنَشَّأُ فِي الحِلْيَةِ...﴾ يجوز في «مَنْ» وجهان:

أحدهما: أن تكون في محل نصب مفعولاً بفعل مقدر، أي: أَوَ تَجْعَلُونَ مَنْ يُنَشَّأُ فِي الحِلْيَةِ.

والثاني: أنه مبتدأ وخبره محذوف، تقديره أَوَ مَنْ يُنَشَّأُ جزءٌ أو وَلَدٌ، إذ جعلوا الله جُزْءاً[١].

وقال البغوي: يجوز أن يكون من في محل خفض ردًّا على قوله: مما يخلق، وقوله: «بِمَا ضَرَبَ»[٢]. وقرأ العامة يَنْشَأُ ـ بفتح الياء وسكون النون ـ من نشأ في كذا يَنْشَأُ فِيهِ. والأَخَوَانِ[٣] وَحَفْصٌ بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين مبنياً للمفعول أي يُرَبَّى وقرأ الجَحْدَرِيُّ كذلك، إلا أنه خفف الشين أخذه من أَنْشَأَهُ[٤]. والحسن: يُنَاشَأُ كيقاتل، مبنياً للمفعول[٥]. والمفاعلة تأتي بمعنى الإفعال، كالمُعَالاَةِ بمعنى الإِعْلاَءِ[٦].

فصل

المراد من هذا الكلام التنبيه على نُقْصَانِهَا[٧] والمعنى: أن الذي يتربى[٨] في الحِلية والزينة يكون ناقصَ الذات؛ لأنه لولا نُقْصَانُها في ذاتها لما احتاجت إلى تزيين نفسها بالحِلْية، ثم بين نُقْصَانَ حالها بطريق آخرِ وهو قوله: «وَهُوَ فِي الخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ»[٩] الجملة حال. و «في الخِصَامِ» يجوز أن يتعلق بمحذوف يدل عليه ما بعده تقديره وهو لا يُبِينُ في الخِصَام أي الحجة ويجوز أن يتعلق «بمُبِينٍ»[١٠] وجاز للمضاف إليه أن يَعْمَلَ

---

(١) قال بهذين الوجهين أبو البقاء في التبيان ١٠٣٨ والسمين في الدر المصون نقلاً عنه ٤/٧٧٦، وأبو حيان في البحر ٨/٨ كما قال به قبل الفراء في المعاني ٣/٢٩ كما قال به ابن الأنباري في البيان ٢/٣٥٢.

(٢) انظر معالم التنزيل للبغوي.

(٣) معروف أنهما حمزة والكسائي وقد ذكر في الإتحاف هذه القراءات الأربع جميعاً انظر الإتحاف ٣٨٥ وذكر القرائتين الأوليين وهما متواترتان ابن خالويه في الحجة ٣٢٠، وابن مجاهد في السبعة ٥٨٤ فضلاً عن البناء في الإتحاف السابق.

(٤) ذكرها مع صاحب الإتحاف ابن خالويه في المختصر ١٣٤ من الشواذ.

(٥) السابقين وانظر أيضاً الكشاف ٣/ ٤٨٢ والبحر ٨/٨.

(٦) البحر المحيط ٨/٨ المرجع السابق.

(٧) أي الحلية.

(٨) كذا هو الأصح من ب والرازي وفي أ الجاهلية تحريف غير مقصود.

(٩) قال الرازي: يعني أنها إذا احتاجت المخاصمة والمنازعة عجزت وكانت غير مبين وذلك لضعف لسانها وقلة عقلها وبلادة طبعها. انظر الرازي ٢٧/٢٠٢.

(١٠) ذكر هذين الوجهين العكبري في التبيان ١٠٣٨.

فيما قبل المضاف، لأنَّ غَيْر بمعنى «لا»[١] كما تقدم تحقيقه آخر الفاتحة[٢].

فصل

المعنى وهو في المخاصمة غير مبين الحجة من ضعفهن وسَقَمِهِنّ[٣]. قال قتادة في هذه الآية: كل ما تتكلم امرأة، فتريد أن تتكلم بحُجَّتِها إلا تكلمت بالحُجَّةِ عليها[٤].

قوله: «وَجَعَلُوا المَلاَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إنَاثاً» جعلوا أي حكموا به[٥]. وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر: «عِنْدَ الرَّحْمَن» ظرفاً[٦] ويؤيده قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] والباقون «عباد» جمع عَبْد والرسم يحتملهما. وقرأ الأعمش كذلك، إلا أنه نصب «عباد» على إضمار فِعْل، أي الذين هم خُلِقُوا عِبَاداً ونحوه[٧] وقرأ عبد الله وكذلك هي في مصحفه الملائكة عبادَ الرحمن[٨] وأبي عبد الرحمن بالإفراد[٩]، وإناثاً هو المفعول الثاني للجَعْلِ بمعنى الاعتقاد أو التصيير القولي. وقرأ زَيْدُ بْنُ عِلِيّ: أُنُثاً جمعُ الجَمْع[١٠].

قوله: «أَشَهِدُوا» قرأ نافع بهمزة مفتوحة، ثم بأخرى مضمومة مُسَهَّلةٍ بينها وبين الواو وسكون الشين على ما لم يسمّ فاعله أي أَحَضرُوا خَلْقَهُمْ حين خلقوا، كقوله: «أَمْ خَلَقْنَا المَلاَئِكَةَ إنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ»[١١]. وهذا استفهام على سبيل الإنكار. وقرأ قالون ذلك بالمد يعني بإدخَال أَلِفٍ بين الهمزتين، والقصر يعني بعدم الألف. والباقون بفتح الشين بعد همزة واحدة[١٢]. فنافع أدخل همزة للتوبيخ على «أَشَهِدُوا» فعلاً رباعياً مَبْنِيًّا

---

(١) ففيها معنى النفي فكأنه قال: وهو لا يُبِينُ في الخصام فلا مشكلة حينئذ. بتصرف من البيان للعكبري المرجع السابق.

(٢) اللباب ١/ ٢٧ ب ميكروفيلم.

(٣) كذا في ب وفي الأصل: وسفههن؛ والأول أقرب.

(٤) نقله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٧٢ بالمعنى وكذلك الزجاج في معاني القرآن وإعرابه ٤/ ٤٠٧.

(٥) قاله الزجاج في مرجعه السابق.

(٦) قراءة سبعية متواترة ذكرها مَكّي في الكشف ٢/ ٢٥٦، وابن خالويه في الحجة ٣٢٠، كما ذكرها صاحبها الإتحاف والبحر ٣٨٥ و٨/ ١٠.

(٧) شاذة ذكرها ابن خالويه في مختصره ١٣٥ قال: «هي في مصحف ابن مسعود كذلك».

(٨) المرجع السابق.

(٩) ذكرها أبو حيان في البحر المحيط ٨/ ١٠، قال: «ومعناه الجمع لأنه اسم جنس».

(١٠) المرجع السابق وجمع الجمع هو أُنُث جمعاً للجمع إِناث جمع لأنثى المفرد.

(١١) ١٥٠ من الصافات وانظر الإتحاف ٣٨٥ والسبعة ٥٨٥ أقول وقد ورد عن نافع: أَوَ شَهِدُوا، والباقون عن نافع لا يمدون، وانظر السبعة المرجع السابق.

(١٢) انظر إتحاف فضلاء البشر ٣٨٥ والدر المصون ٤/ ٧٧٧.

للمفعول فسهّل همزته الثانية وأدخل ألفاً بينهما كراهة لاجتماعهما، وتارة لم يدخلها اكتفاء بتسهيل الثانية وهي أَوْجَهُ[١]. والباقون أدخلوا همزة الإنكار على «شَهِدُوا» ثلاثياً[٢]. ولم ينقل أبو حيان عن نافع تسهيلَ الثانية. بل نقله عن عليِّ بْنِ أبي طالبٍ[٣].

وقرأ الزهري أُشْهِدُوا رباعياً مبنياً للمفعول[٤] وفيه وجهان:

أحدهما: أن يكون حذف الهمزة لدلالة القراءة الأخرى عليها، كما تقدم في قراءة أَعْجَميٌّ.

والثاني: أن تكون الجملة خبرية، وقعت صفة لإناثاً، أي أجَعَلُوهُمْ إنَاثاً مَشْهُوداً[٥] خَلْقَهُمْ كذلك.

قوله: «سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ» قرأ العامة ستُكْتَب بالتاء من فوق مبنياً للمفعول «شهادتهم» بالرفع لقيامه مقام الفاعل. وقرأ الحسن: شَهَادَاتُهُمْ بالجَمْع[٦]، والزُّهْرِيُّ: سَيَكْتُبُ بالياء من تحت[٧] وهو[٨] في الباقي كالعامة. وابن عباسٍ وزيدُ بْنُ عليّ وأبو جعفر وأبو حَيْوَةَ سَنَكْتُبُ ـ بنون العظمة[٩] ـ شَهَادَتَهُمْ بالنصب مفعولاً به.

فصل

المعنى سنكتب شهادتهم على الملائكة أنهم بنات الله ويسألون عنها. قال الكلبي ومقاتل: لما قالوا هذا القول سألهم النبي ـ ﷺ ـ فقال: ما يُدْرِيكُم أنهم إناث؟ قالوا: سمعنا من آبائنا ونحن نشهد أنهم لَمْ يُكَذِّبُوا فقال الله تعالى: **﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ عنها في الآخرة﴾** وهذا يدل على أن القول بغير دليل منكر، وأن التقليد حرام يوجب الذم العظيم، والعقاب الشديد.

---

(١) انظر الكشف في القراءات السبع ٢/ ٣٥٧ وحجة ابن خالويه ٣٢١.

(٢) المراجع السابقة وانظر في هذا كله الدر المصون ٤/ ٧٧٧.

(٣) قال: «وعلي بن أبي طالب وابن عباس ومجاهد في رواية أبي عمرو ونافع بتسهيل الثانية بلا مد».

(٤) نقلها أبو الفتح بن جني في المحتسب ٢/ ٣٥٤ وهي شاذة وكذا نقلها الإمام القرطبي ١٦/ ٧٣.

(٥) الأفصح ـ كما في المحتسب ـ مشهداً. وهذان التوجيهان نقلهما ابن جني في المحتسب المرجع السابق بالمعنى. وانظر القراءة المشار إليها في سورة فُصِّلَتْ.

(٦) نقلها صاحب الإتحاف ٣٨٥، وصاحب المختصر ١٣٥ وهي من الأربع فوق العشر المتواتر.

(٧) ولم ينسبها أبو حيان في البحر ٨/ ١٠، بل نسبها صاحب الدر المصون ٤/ ٧٧٧ وهي من الشواذ غير المتواترة.

(٨) أي الزهري في باقي الآية.

(٩) نسبها القرطبي إلى السلمي وابن السَّميقَع، وهبيرة عن حفص وابن خالويه في المختصر ٣٢١ نسبها للأعرج وما هو أعلى موافق لما في البحر المحيط لأبي حيان ٨/ ١٠ والدر المصون للسمين ٤/ ٧٧٧.

قال المحققون: هؤلاء الكفار كفروا في هذا القول من ثلاثة أوجه:

أولها: إثبات الولد.

ثانيها: أن ذلك الولد بنت.

وثالثها: الحكم على هؤلاء الملائكة بالأنوثة(١).

فصل

احتج من قال بتفضيل الملائكة على البشر بهذه القراءات، أما قراءة «عِنْدَ» بالنون، فهذه العندية لا شك أنها عندية الفضل والقرب من الله تعالى بسبب الطاعة ولفظة «هُمْ» يوجب الحصر والمعنى أنهم هم الموصوفون بهذه العندية لا غيرهم، فوجب كونهم أفضل من غيرهم، رعاية للفظ الدال على الحَصْرِ(٢).

وأما قراءة عِبَاد جمع «العَبْد» فقد تقدم أن لفظ العباد في القرآن مخصوصٌ بالمؤمنين، فقوله «عِبَاد الرَّحْمَنِ» يفيد حَصْرَ العُبُودِيَّة فيهم، فَإذَا كَانَ اللَّفظُ الدّالُ على العُبُودِيَّة دالاً على حصر الفضل والقرب والشرف لهم وجب كونهم أفضل؛ والله أعلم(٣).

قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ**...﴾ الآية يعني الملائكة قاله قتادة ومقاتل والكلبي. وقال مجاهد: يعني الأوثان. وإنما لم يعجل عقوبتنا على عبادتنا إياهم، لرضاه منا بعبادتها(٤) وهذا نوع آخر من كفرهم وشبهاتهم.

فصل

قالت المعتزلة: هذه الآية تدل على فساد القول بالجبر في أن كفر الكافر يقع بإرادة الله من وجهين:

الأول: أنه تعالى حكى عنهم أنهم قالوا: لو شاء الرحمن ما عَبَدْنَاهُمْ وهذا تصريح بقول المجبرة. ثم إنه تعالى أبطله بقولهم: «مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْم إنْ هُم إلاّ يَخْرصُونَ» فثبت بطلان هذا المذهب ونظيره قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

الثاني: أنه تعالى حكى عنهم قبل هذه الآية أنواع كفرهم، فأولها: قوله (تعالى): ﴿**وجعلوا له من عباده جزءاً**﴾ وثانيها: قوله: «وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً» وثالثها: قوله تعالى: ﴿**وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم**﴾.

---

(١) الرازي ٢٧/ ٢٠٢ و ٢٠٣.

(٢) السابق أيضاً.

(٣) الرازي المرجع السابق.

(٤) القرطبي ١٦/ ٧٣ و ٧٤.

فلما حكى هذه الأقاويل بعضها على إثر بعض وثبت أن القولين الأولين كفر محض، فكذلك هذا القول الثالث يجب أن يكون كفراً وأجاب الواحدي في البسيط بوجهين:

الأول: ما ذكره الزجاج وهو أن قوله تعالى: ﴿**مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ**﴾ عائد إلى قولهم: الملائكةُ بناتُ الله[١].

والثاني: أنهم أرادوا بقولهم: لَوْ شَاءَ الرحمن ما عبدناهم أنه أمرنا بذلك ورضي بذلك فقررنا عليه فأنكر عليهم ذلك.

قال ابن الخطيب: وهذان الوجهان عندي ضعيفان، أما الأول، فلأنه تعالى حكى عن القوم قولين باطلين، وبين وجه بُطْلاَنهما، ثم حكى بعده وجهاً ثالثاً في مسألة أجنبية عن المسألتين الأوليين[٢]، ثم حكى البطلان، والوعيد، فصرف هذا الإبطال الذي ذكره عنه إلى كلام متقدم وأجنبي عنه في غاية البعد. وأما الوجه الثاني: فهو أيضاً ضعيف؛ لأن قوله: «لو شاء الرحمن ما عبدناهم» ليس فيه بيان متعلق خلاف تلك المشيئة والإجمال خلاف الدليل، فوجب أن يكون التقدير: لو شاء الله أن نعبدَهم ما عبدناهم. وكلمة «لو» تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره، فهذا يدل على أنه لم توجد مشيئة لعدم عبادتهم، وهذا غير مذهب المجبرة. والإبطال والإفساد يرجع إلى فساد هذا المعنى.

ومن الناس من أجاب عن هذا الاستدلال بأن قال: إنهم لما ذكروا ذلك الكلام على سبيل الاستهزاء والسخرية، فلهذا السبب استوجبوا الظن والذم[٣]. وأجاب الزمخشري عنه من وجهين:

الأول: أنه ليس في اللفظ ما يدل على أنهم قالوه مستهزئين، وادعاء ما لا دليل عليه باطل.

الثاني: أنه تعالى حكى فيهم ثلاثة أشياء وهي أنهم جعلوا له من عباده جزءاً، وأنهم جعلوا الملائكة إناثاً، وأنهم قالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم فلو قلنا بأنه إنما جاء الذم على القول الثالث لأنهم قالوه على طريق الهُزْء لا على سبيل الجدّ وجب أن يكون الحال

---

(١) قال: المعنى ما لهم بقولهم: إن الملائكة بنات الله من علم، ولا بجميع ما تخرصوا به. معاني القرآن وإعرابه ٤/٤٠٨.

(٢) في ب الأولتين تحريف وتصحيف.

(٣) بتوضيح وشرح لكلام الزمخشري من الرازي ٢٧/ ٢٠٤ و ٢٠٥ وانظر الكشاف ٣/ ٤٨٣ و ٤٨٤ بالمعنى.

في الحِكَاية للقولين كذلك فيلزم أنهم لو نطقوا بتلك الأشياء على سبيل الجد أن يكونوا محقين ومعلوم[١] أنه كفر[٢].

وأما القول بأن الظن[٣] في القولين الأولين إنما يوجد[٤] على بعض[٥] ذلك القول وبعض[٦] القول الثالث لا على نفسه، بل على إيراده على سبيل الاستهزاء فهذا يوجب تشويش النظم، وأنهم لا يجوز في كلام الله تعالى.

قال ابن الخطيب: والجواب الحق عندي عن هذا الحكم هو ما ذكرنا في سورة الأنعام وهو أن القوم لما ذكروا هذا الكلام، استدلوا بمشيئة الله تعالى للكفر على أنه لا يجوز ورود الأمر بالإيمان، فاعتقدوا أن الأمر والإرادة يجب كونهما مُتَطَابِقيْنِ وعندنا أن هذا باطل فالقوم لم يستحقوا الذم لمجرد قولهم: إن الله يريد الكفر من الكافر، بل لأجل أنهم قالوا: لما أراد الكفر من الكافر وجب أن يقبح منه أمر الكافر بالإيمان، فإذا صرفنا الذمَّ إلى هذا المقام سقط استدلال المعتزلة بهذه الآية. وتمام التقرير موجود في سورة الأنعام[٧].

قوله: «مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْم» فيما يقولون «إنْ هُمْ إلاَّ يَخْرُصُونَ» ما هم إلا كاذبون في قولهم: إن الله رَضِيَ عَنَّا بعبادتنا. وقيل: إنْ هُمْ إلا يخرصون في قولهم: الملائكة إناث وهم بنات الله.

قوله: «أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِنْ قَبْلِهِ» أي من قبل القرآن[٨]، أو الرسول[٩] بأن يعبد غير الله «فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ» يعني أن القول الباطل الذي حكاه الله عنهم عرفوا صحته بالعقل أو بالنقل؟ أما إثباته بالعقل فهو أيضاً باطل، لقوله تعالى: **﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾** والمعنى أنهم وجدوا ذلك الباطل في كتاب منزل قبل القرآن، حتى جاز لهم أن يتمسكوا به؟ فذكر هذا في مَعْرِض الإنكار.

قوله: «بَل قَالُوا إنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّة وَإنَّا على آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ» والمقصود أنه تعالى لما بين أنه لا دليل على صحة قولهم ألبتة لا من العقل ولا من النقل، بين أنه ليس لهم حاملٌ يحمِلُهُم عليه إلا التقليد المحض. ثم بين أن تمسك الجهال بالتقليد أمر كان حاصلاً من قديم الزمان فقال: «وكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِن نَذِيرٍ إلاَّ قَالَ

---

(١) في ب بأنه.

(٢) بالمعنى من الكشاف المرجع السابق، وباللفظ من الفخر الرازي ٢٧/ ٢٠٤، ٢٠٥.

(٣) كذا في النسختين وفي الرازي: الطعن بدل الظن.

(٤) وفيه: «توجه» بدل يوجد.

(٥) وفيه: نفس بدل بعض.

(٦) وفيه: وفي القول بدل: وبعض القول.

(٧) وانظر تفسير الرازي ٢٧/ ٢٠٥.

(٨) قاله القرطبي ١٦/ ٧٤.

(٩) قاله به وسبقه الرازي في المرجع السابق.

مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ»[١]، قوله: أمه العامة على ضم الهمزة بمعنى الطريقة والدين قال قَيْسُ بن الخَطيم:

٤٣٩٩ ـ كُنَّا عَلَى أُمَّةِ آبَائِنَا وَيَقْتَدِي بالأَوَّلِ الآخِرُ[٢]

أي على طريقتهم، وقال آخر:

٤٤٠٠ ـ هَلْ يَسْتَوِي ذُو أُمَّةٍ وَكَفُور[٣]

أي ذو دين. وقرأ مجاهدٌ وقتادةُ وعمرُ بنُ العَزِيزِ بالكسر[٤].

قال الجوهري: (هي[٥] الطريقة الحسنة لغة في أُمَّةٍ[٦] بالضم قال الزمخشري): كلتاهما من الأَمّ وهو القصد، والأُمَّة الطريقة التي تؤم كالرحلة للمرحول إليه، والإمّة الحالة (التي[٧]) يكون عليها الآمّ وهو القاصد[٨]. وقرأ ابن عباس بالفتح وهي المرة من الأم[٩]، والمراد بها القصد والحال.

فصل

المراد بالمترفين الأغنياء والرؤساء. والمُتْرَفُ هو الذي آثر النعمة، فلا يحب إلا الشهوات والملاهي ويبغض المشاق في طلب الحق. وإذا عرف ذلك علمنا أن رأس جميع الآفات حب الدنيا واللذات الجسمانية ورأس جميع الخيرات هو حب الله تعالى، والدار الآخرة، ولهذا قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَة.

قوله تعالى: ﴿۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ

(١) وانظر ما سبق في تفسير الرازي بالمعنى ٢٧/ ٢٠٥ و ٢٠٦.

(٢) من السريع وهو لقيس كما أخبر أعلى، وليس في ديوانه. وشاهده: أن أمة ـ بضم الأول وفتح الثاني مشدداً ـ بمعنى الطريقة والدين وانظر الدر المصون ٤/ ٧٧٧، والبحر المحيط ٨/ ١١ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦/ ٧٤.

(٣) ذكر هكذا في اللسان والقرطبي، والدر والبحر المرجع السابق وهو نصف بيت لم أعثر على تتمة له، ويبدو أنه من الطويل، والشاهد: أمة بمعنى الدين فلا يتساوى ذو دين بكافر والعياذ بالله. وانظر البيت في الدر المصون ٤/ ٧٧٨ والقرطبي ١٦/ ٧٥ ولسان العرب أمم ١٣٢ والبحر المحيط ٨/ ١١.

(٤) ذكرت في مختصر ابن خالويه ١٣٥، كما ذكرها الفراء في المعاني ٣/ ٣٠.

(٥) ما بين القوسين سقط من ب كلية بسبب انتقال النظر.

(٦) الصحاح أم م ٥/ ١٨٤٦.

(٧) سقط من ب.

(٨) انظر الكشاف ٣/ ٤٨٤ وانظر أيضاً اللسان أمم.

(٩) قراءة شاذة هي وسابقتها ذكرها ابن خالويه في المختصر ١٣٥ قال: فتحتمل هذه القراءة على وجهين الطريقة الحسنة والنعمة، وانظر أيضاً البحر المحيط ٨/ ١١.

أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله: ﴿قَالَ أو لو جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا..﴾ الآية. قرأ ابنُ عامر وحفصٌ قَالَ ماضياً مكان «قُلْ» أمراً، أي قال النذير أو الرسول وهو النبي ﷺ[١].

والأمر في «قل» يجوز أن يكون للنذير، أو الرسول وهو الظاهر. وقرأ أبو جعفر وشَيْبَةُ: جِئْنَاكُمْ بنون المتكلمين[٢] «بأَهْدَى» أي بدين أصْوَبَ «مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ» وإن جئتكم بأهدى منه فعند هذا حكى الله عنهم أنهم قالوا: إنا لا ننفك عن دين آبائنا وإن جئتنا بما هو أهدى «فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ» وإن كان أهدى مما كنا عليه فعند هذا لم يبق لهم عذر، فلهذا قال تعالى: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنهُمْ فانظُرْ كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُكَذِّبِينَ﴾ وهذا تهديد للكفار[٣].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لابْنِهِ وَقَوْمِهِ إِنَّني بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ لما بين في الآية المتقدمة أنه ليس لأولئك الكفار حجة إلا تقليد الآباء، ثم بين أنه طريق باطل، وأن الرجوع إلى الدليل أولى من التقليد أردفه بهذه الآية، وهو وجه آخر يدل على فساد التقليد من وجهين:

الأول: أنه تعالى حكى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه تبرأ من دين آبائه بناء على الدليل وذلك أن تقليد الآباء في الأديان إما أن يكون محرماً أو جائزاً. فإن كان محرماً فقد بطل القول بالتقليد، وإن كان جائزاً فمعلوم أن أشرف آباء العرب هو إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأنهم لا يشرفو(ن) ولا يفتخرو(ن) إلا بكونهم من أولاده. وإذا كان كذلك فتقليد هذا الأب الذي هو أشرف الآباء أولى من تقليد سائر الآباء. وإذا ثبت أن تقليده أولى من تقليد غيره فنقول: إنه ترك دين الآباء وحكم بأن اتباع الدليل أولى من متابعة الآباء، فوجب تقليده في ترجيح الدليل على التقليد[٤].

الوجه الثاني: أنه تعالى بين أن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما عدل عن طريقة

---

(١) قراءة سبعية متواترة، ذكرها ابن مجاهد في السبعة ٥٨٥. ومكي في الكشاف ٢/٢٥٨ وانظر أيضاً الإتحاف ٣٨٥، وابراز المعاني ٦٧٩ والنشر ٢/٣٦٩.

(٢) قراءة عشرية انظر الإتحاف والنشر المرجعين السابقين.

(٣) الرازي ٢٧/٢٠٦ و ٢٠٧.

(٤) المرجع السابق نفسه.

أبيه إلى متابعة الدليل لا جَرَم جعل الله دينَه ومذهَبه باقياً في عَقِبِهِ إلى يوم القيامة، وأما أديان آبائه فقد اندرست وبَطُلَتْ. فثبت أن الرجوع إلى متابعة الدليل يبقى محمود الأثر إلى قيام الساعة، وأن التقليدَ ينقطع أثره(١).

قوله: «بَرَاءٌ» العامة على فتح الباء، وألف وهمزة بعد الراء وهو مصدر في الأصل وقع موقع الصفة وهي بَريءٌ، وبها قرأ الأعمش(٢). ولا يثنى «بَرَاءٌ» ولا يجمعُ، ولا يؤنثُ، كالمصادر في الغالب. قال الزمخشري(٣) والفراء(٤) والمبرد(٥): لا يقولون البَرَاءَانِ، ولا البَرَاءُونَ؛ لأن المعنى ذَوَا البَرَاءَ(ةِ) وذَوُو(٦) البراءة. فإن قلت: منك(٧) ثنيت وجمعت.

وقرأ الزعفرانيُ وابنُ المبارك(٨) عن نافع ـ بضم الباء، بزنة طُوال وكُرام، يقال: طَوِيلٌ وطُوالٌ، وبَرِيءٌ، وبُرَاء. وقرأ الأعمش بنون واحدة(٩).

قوله: «إلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي» فيه أربعةُ أوجهِ:

أحدها: أنه استثناء منقطع، لأنهم(١٠) كانوا عَبَدَةَ أصنامٍ(١١) فقط(١٢).

الثاني: أنه متصل؛ لأنه روي أنهم كانوا يشركون مع الباري غيره(١٣).

---

(١) المرجع السابق.

(٢) نقلها أبو حيان في البحر المحيط ٨/ ١١، قال: وهي لغة نجد وشيخيه، وكذلك نقلها صاحب مختصر شواذ القراءات وهو ابن خالويه: إنّي بَرِيءٌ في موضع بَراء الأعمش، وكذلك في مصحف عبد الله. انظر مختصر شواذ القراءات ١٣٥.

(٣) قال: «ولذلك استوى فيه الواحد والاثنان والجماعة والمذكر والمؤنث يقال: نَحْنُ البَرَاءُ مِنْكَ، والخَلاءُ مِنكَ». الكشاف ٣/ ٤٨٤.

(٤) قال في معاني القرآن ٣/ ٣٠: «العرب تقول: نَحْنُ منكَ البَرَاءُ والخَلاَء والواحد والاثنان والجميع من المؤنث والمذكر يقال فيه: براء؛ لأنه مصدر، ولو قال: بريء لقيل في الاثنين: بريئان، وفي القوم بريئون وبرآء».

(٥) وكذا هو رأي الزجاج في معاني القرآن وإعرابه ٤/ ٤٠٩ وكذا الكسائي. انظر القرطبي ١٦/ ٧٦ والفخر الرازي ٢٧/ ٢٠٨.

(٦) ما كتبته أعلى هو الأصح ففي النسختين ذو، بواو واحدة.

(٧) كذا في النسختين منك، أي بريء منك. وفي الرازي: «فإن قلت بريء ثنيت وجمعت».

(٨) في البحر: وقرأ الزعفراني عن أبي جعفر وابن المناذري عن نافع بضم الياء وهنا ابن المبارك في النسختين.

(٩) المرجع السابق البحر والدر المصون ومختصر ابن خالويه ١٣٥ والإتحاف ٣٨٥.

(١٠) في ب وأنهم. (١١) في ب الأصنام.

(١٢) وقد ذكره أبو إسحاق الزجاج في المعاني ٤/ ٤٠٩.

(١٣) ذكره هو وما قبله أبو حيان في البحر ٨/ ١١، ١٢.

الثالث: أن يكون مجروراً بدلاً من «ما» الموصولة في قوله: «مِمَّا تَعْبُدُونَ» قاله الزمخشري(١). ورده أبو حيان: بأنه لا يجوز إلا في نفي أو شبهه. قال: «وغَرَّهُ كونُ «بَرَاء» في معنى النفي، ولا ينفعه ذلك، لأنه موجب»(٢). قال شهاب الدين: قد تأول النحاة ذلك في مواضع من القرآن كقوله: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ [التوبة: ٣٢]، ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]. والاستثناء المفرغ لا يكون في إيجاب، ولكن لما كان «يَأبى» بمعنى لا يفعل، «وَإِنَّها لَكَبِيرَةٌ» بمعنى لا تَسْهلُ ولا تَخِفُّ ساغ ذلك فهذا مثله(٣).

الرابع: أن تكون إلا صفة بمعنى غير على أن تكون «ما» نكرة موصوفة. قاله الزمخشري(٤). قال أبو حيان: وإنما أَخْرَجَهَا في هذا الوجه عن كونها موصولة، لأنه يرى أن «إلاّ» بمعنى غير لا يوصف بها إلا النكرة وفيها خلاف. فعلى هذا يجوز أن تكون «ما» موصولة» و «إلا» بمعنى غير صفة لها(٥).

فصل

«إلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي» أي خلقني «فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ» يرشدني لدينه ويوفقني لطاعته.

قوله: «وَجَعَلَهَا كَلِمَةً باقِيَةً» الضمير المرفوع لإبراهيم وهو الظاهر، أو الله والضمير المنصوب لكلمة التوحيد المفهومة من قوله: «إنَّنِي بَرَاءٌ» إلى آخره، أو لأنها بمنزلة الكلمة، فعاد الضمير على ذلك اللفظ لأجل المعنى به. وقر حُمَيْدُ بْنُ قَيْسٍ: كِلْمَةً ـ بكسر الكاف وسكون اللام ـ(٦). وقرىء: فِي عَقْبِهِ بسكون القاف(٧). وقرىء: فِي عَاقِبِهِ(٨) أي وَرَائِهِ، والمعنى أن هذه الكلمة كلمة باقيةٌ في عقبه أي في ذريته. قال قتادة: لا يزال في ذريته مَن يَعْبُدُ اللَّهَ ويُوَحِّدُهُ. قال القُرْطِيُّ(٩): يعني وجعل وصية إبراهيم التي وصى بها بنيه باقية في ذريته. وهو قوله تعالى ـ عز وجل ـ: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ﴾ [البقرة: ١٣٢]. قال ابن زيد: يعني قوله: «أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ» وقرأ: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾(١٠) [الحج: ٧٨] «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعون» لعل أهل مكة يتبعون هذا الدين ويرجعون عما هم عليه إلى دين إبراهيم. قال السدي: لعلهم يتوبون ويرجعون إلى طاعة الله عز وجل.

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٨٤.
(٢) بالمعنى من البحر ٨/ ١٢.
(٣) الدر المصون ٤/ ٧٧٩.
(٤) الكشاف له ٣/ ٤٨٤.
(٥) بالمعنى من البحر المحيط ٨/ ١٢.
(٦) شاذة غير متواترة انظر مختصر ابن خالويه ١٣٥.
(٧) انظر البحر ٨/ ١٢ والكشاف ٣/ ٤٨٥ ونسبها صاحب الشواذ إلى إسحاق ٢١٧.
(٨) نسبها المرجع السابق إلى قتادة.
(٩) تصحيح عن النسختين ففيهما القرطبي وليس هو.
(١٠) انظر هذه المعاني في القرطبي ١٦/ ٧٧.

قوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ (٢٩) وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٠) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢)﴾

قوله: «بَلْ مَتَّعْتُ» قرأ الجمهور ـ مَتَّعْتُ ـ بتاء المتكلم وقتادة، والأعمش بفتحها للمخاطب خاطب إبراهيم أو محمد ربه بذلك. وبها قرأ نافع في رواية يَعْقُوبَ[١]. والأعمش أيضاً: بل مَتَّعْنَا بنون العظمة[٢] هَؤُلاَءِ وَآبَاءَهُمْ يعني أهل مكة وهم عَقِبُ إبراهيمَ يريد مشركي مكة، ولم أعاجلهم بالعقوبة على الكفر «حَتَّى جَاءَهُمُ الحَقُّ» وهو القرآن. وقال الضحاك: يعني الإسلامَ[٣] «وَرَسُولٌ مُبِينٌ» برسالة واضحة يبين لهم الأحكام، وهو محمد ـ ﷺ ـ فلم يُطيقوه وعصوا، وكذبوا به، وسموه ساحراً ووجه النظم أنهم لما عولوا على تقليد الآباء ولم يتفكروا في الحجة اغتروا بطول الإمهال، وإمتاع الله إياهم بنعيم الدنيا، فأعرضوا عن الحق[٤]. وقال الزمخشري:

فإن قيل[٥]: ما وَجْهُ من قرأ: مَتَّعْتَ، بفتح التاءِ؟.

قُلْنَا[٦]: كأن الله سبحانه وتعالى اعترض على ذاته في قوله: «وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُم يَرْجِعُونَ» فقال: بل مَتَّعْتُهُمْ بما متعتهم به من طُول العمر والسَّعة في الرزق حتى مَنَعَهُمْ[٧] ذلك عن كلمة التوحيد وأراد بذلك المبالغة في تعييرهم، لأنه إذا متعهم بزيادة النعم، وجب عليهم أن يجعلوا ذلك شيئاً في زيادة الشكر، والثبات على التوحيد[٨]، لا أن يشركوا به ويجعلوا له أنداداً، فمثاله أن يشكو الرجل إساءةَ من أحْسَنَ إليه، ثم يقبل على نفسه، فيقول: أنت السبب في ذلك بمعروفك وإحسانك إليه[٩] ويريد[١٠] بهذا الكلام توبيخَ المسيء لا تقبيح فعل نفسه[١١].

---

(١) لم ترد عن نافع في المتواتر. انظر البحر المحيط ٨/ ١٢.
(٢) قال أبو حيان: وهي تعضد قراءة الجمهور وانظر هذه القراءة هي وسابقتها في البحر ٨/ ١٢ والدر المصون ٤/ ٧٨٠.
(٣) القرطبي ١٦/ ٨٢.
(٤) الرازي ٢٧/ ٢٠٨.
(٥) في ب إن قيل، وفي الزمخشري: فإن قلت كالعادة.
(٦) في الكشاف: قلت.
(٧) في الكشاف: شَغَلَهُمْ.
(٨) وفيه: والإيمان.
(٩) زيادة عن الكشاف.
(١٠) في الكشاف وغرضهُ.
(١١) وفيه: فعله لا فعل نفسه؛ وانظر الكشاف ٣/ ٨٥.

قوله: «وَلَمَّا جَاءَهُمُ الحَقُّ» وهو القرآن «قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا القُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيم» هذا نوع آخر من كفر آبائهم، وهو أنهم قالوا: منصب الرسالة منصبٌ شريفٌ فلا يليق إلا برجل شريفٍ، وصدقوا في ذلك، إلا أنهم ضموا إليه مقدِّمة فاسدة، وهو أن الرجل الشريف عندهم هو الذي يكون كثيرَ المال والجاه، ومحمد ليس كذلك، فلا تليق رسالة الله به، وإنما يليق هذا المنصب برجلٍ عظيم الجاه، كثيرِ المال، يعنون الوليدَ بنَ المغيرة بمكة، وعُرْوَةَ بنَ مسعود الثَّقَفِيّ بالطائف. قاله قتادة. وقال مجاهد: عُتْبَةُ بن ربيعة من مكة وعبدُ يَالِيل الثقفيّ من الطائف. وعن ابن عباس ـ (رضي الله عنهما) ـ هو الوليدُ بن المُغيرة من مكة، ومن الطائف حَبيبُ بنُ عَمْرو بنُ عُمَيْر الثقفي[(١)] وقيل: من إحدى القريتين. وقيل: المراد عروةُ بن مسعود الثَّقَفِي كان بالطائف وكان يتردد بين القريتين فنسب إلى كليهما[(٢)]. وقرىء: رَجْلٍ بسكون العين، وهي تَمِيميَّةٌ[(٣)].

قوله: «أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ» يعني النبوة. والهمزة للإنكار. وهذا إبطال لشبهتهم وتقريره من وجوه:

الأول: أنا إذا أوقعنا التفاوت في مناصب الدنيا، ولم يقدِرْ أحد من الخلق على التفسير، فالتفاوت الذي أوقعناه في مناصب الدين والنبوة بأن لا يَقْدِرُوا على التَّصرف أولى.

الثاني: إن اختصاص ذلك المعنى ذلك[(٤)] الرجل إنما كان لأجل حكمنا وفضلنا وإحساننا فكيف يليق بالعقل أن يجعل[(٥)] إحْسَاناً إليه بكثرة المال حجة علينا في أن يحسن إليه بالنبوة؟.

الثالث: أنا إنما[(٦)] أوقعنا التفاوت في الإحسان بمنافع الدنيا لا بسبب سابق فلم لا يجوز أيضاً أن يوقع التفاوت في الإحسان بمناصب الدين والنبوة لا لسبب سابق؟!

ثم قال: «نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا» فجعلنا هذا غَنِيًّا وهذا فقيراً،

---

(١) ابن عوف بن ثقيف، أخو مسعود بن عمر، وأخو ربيعة جدّ أُميَّة، ويقول ابن الأثير: وعندي في صحبته نظر. أسد الغابة لابن الأثير ١/ ٣٧٢.

(٢) انظر هذه الأقوال في تفسير القرطبي ١٦/ ٨٣ وانظر تقدير المضاف في الفراء ٣٠/ ٣١ والقرطبي ١٦/ ٨٣.

(٣) ذكرها القرطبي في المرجع السابق ١٦/ ٨٣ ولم تنسب فيه ولا في الكشاف ٣/ ٤٨٥.

(٤) في ب بذلك وعبارة الرازي: أن اختصاص ذلك الغني بذلك المال الكثير... الخ.

(٥) كذا في ب وفي الرازي: نجعل بالنون.

(٦) في الرازي: لما.

وهذا مالكاً وهذا مملوكاً، كما فضلنا بعضهم على بعض في الرزق كما شِئْنا، كذلك اصطفينا بالرسالة من شِئْنا «وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ» في القوة والضعف، والعلم، والجهل، والغِنَى، والفقر لأن لو سويناهم في كل هذه الأحوال، لم يخدم أحدٌ أحداً، ولم يصِرْ أحدٌ منهم مُسَخَّراً لغيره. وحينئذ يخرب العَالَمُ ويَفْسَدُ نظام الدنيا.

وقوله: «لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا» أي ليستخدم بعضهم بعضاً، فيسخر الأغنياء بأموالهم الأُجَرَاءَ الفقراء بالعمل فيكون بعضهم لبعض سبب المعاش هذا بماله وهذا بأعماله فيلتئم قوام العالم(١). وقد مضى الكلام في سخرياً في المؤمنين(٢). وقرأ بالكسر هنا عَمْرُو بنُ مَيْمُون، وابن مُحَيْصِن، وأبوُ رَجَاء وابنُ أبي ليلى، والوليدُ بنُ مُسْلِم(٣)، وخلائقُ بمعنى المشهورة وهو الاستخدام. وَيَبْعُدُ قولُ بعضهم: إنه استهزاء الغنيّ بالفقير(٤). ثم قال: «وَرَحْمَةُ رِبِّكَ» يعني الجنة «خَيْرٌ لِلْمُؤمِنِينَ» مما يجمع الكفار من الأموال.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**وَلَوْلاَ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً...**﴾ اعلم أنه تعالى أجاب هَهُنَا بوجْهٍ ثالث عن شُبْهَتِهِمْ بتفضيل الغني على الفقير، وهو أنه تعالى بين أن منافع الدنيا وطيباتها حقيرة خسيسة عند الله تعالى وبين حقارتها بقوله: «ولولا أن يكون الناس أمة واحدة» والمعنى لولا أن يرغب الناس في الكفر إذا رأوا الكفار في سعة من الخير والرزق لأعطيتهم أكثر الأسباب المفيدة للنعم **فأحدها**: أن يكون سقْفُهُمْ مِنْ فِضَّةٍ. **وثانيها**: مَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ أي يَعْلُون ويَرْتَقُونَ، يقال: ظَهَرْتُ عَلَى السَّطْحِ إذا عَلَوْته(٥).

---

(١) انظر القرطبي ١٦/ ٨٣.

(٢) عند قوله: ﴿**فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِياً حَتَّى أَنْسَوكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ**﴾ الآية ١١٠ من المؤمنين وكل الناس ضموا سخريًّا عدا ابن محيصن ومجاهد كما قال القرطبي ١٦/ ٨٣ وأخبر المؤلف أعلى أن ممن كسرها أبو رجاء وابن أبي ليلى والوليد بن مسلم وأبو رجاء، وعمرو بن ميمون وابن عامر، وهذا نقلاً عن البحر المحيط ٨/ ١٣ والدر المصون ٤/ ٧٨٠ وقراءة الكسر قراءة شاذة غير متواترة.

(٣) أبو العباس، وقيل: أبو بشر الدمشقي عالم أهل الشام روى عن نافع بن أبي نعيم وغيره، وروى عنه إسحاق بن أبي إسرائيل وغيره مات سنة ١٩ هـ. انظر غاية النهاية ٢/ ٣٦٠.

(٤) نقله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه ٤/ ٤١٠ وكذلك القرطبي ١٦/ ٨٣.

(٥) القرطبي السابق وانظر غريب القرآن ٣٩٧.

وثالثها: «أن يجعل لبيوتهم أبواباً وسرراً أيضاً من فضة عليها يتَّكِئُونَ»[(١)].

قوله: «لِبُيُوتِهِمْ» بدل اشتمال[(٢)]، بإعادة العامل[(٣)]، واللامان للاخْتِصَاص[(٤)].

وقال ابن عطية: الأولى للمِلْكِ[(٥)]، والثانية للاختصاص[(٦)]. ورده أبو حيان: بأن الثاني بدل فيشترط أن يكون (الحرف)[(٧)] متحد المعنى لا مختلفه[(٨)]. وقال الزمخشري: ويجوز أن يكونا بمنزلة اللامين في قولك: وَهَبْتُ لَهُ ثَوْباً لِقَمِيصِهِ[(٩)]. قال أبو حيان: ولا أدري ما أراد بقوله[(١٠)]. قال شهاب الدين: أراد بذلك أن اللامين للعلة، أي كانت الهبة لأجلك لأجل قميصك، فلقميصك بدل اشتمال، بإعادة العامل بِعَيْنِهِ وقد نقل أن قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ﴾ [الأنعام: ٨٤] و [الأنبياء: ٧٢] و [العنكبوت: ٢٧] أنها[(١١)] للعلة.

قوله: «سُقُفاً» قرأ ابنُ كَثِيرٍ، وأبو عمرو بفتح السين، وسكون القاف بالإفراد، على إرادة الجنس والباقون بضمتين على الجمع (كرُهُن)[(١٢)] في جمع رَهْنٍ[(١٣)]. وفي رهن تأويل لا يمكن هنا، وهو أن يكون جمع رِهَان جمع رَهْن، لأنه لم يسمع سِقَاف جمع سَقْف[(١٤)]. وعن الفراء أنه جمع سَقِيفَةٍ[(١٥)] فيكون كصَحِيفَةٍ، وصُحُفٍ. وقرىء: سَقَفاً ـ بفتحتين ـ لغة في سَقْفٍ[(١٦)]، وسُقُوفاً[(١٧)] بزنة فَلسٍ وفُلُوساً. وأبو رجاء بضمة وسكون[(١٨)].

---

(١) الرازي ٢٧/ ٢١١.
(٢) ذكره في الكشاف ٢/ ٤٨٧.
(٣) قاله ابن الأنباري في البيان ٢/ ٣٥٣.
(٤) ذكره أبو حيان ٨/ ١٥.
(٥) مثل: «لَهُ ما فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ» ومعنى لام الاختصاص الداخلة بين اسمين يدل كل منهما على الذات والداخلة عليه لا يملك الآخر وسواء أكان يملك غيره أم كان ممن لا يملك أصلاً نحو الجَنَّةُ لِلْمُؤمِنِينَ وهذا الحصيرُ للمسجد. «بتصرف من المغني ١٠٨».
(٦) وانظر البحر المحيط ٨/ ١٤ بالمعنى.
(٧) سقط من ب.
(٨) المرجع السابق فقد جعل كلاً من اللامين للاختصاص. ولا يصح ما قاله؛ لأن لبيوتهم بدل اشتمال أعيد معه العامل، فلا يمكن من حيث هو بدل أن تكون اللام الثانية إلا بمعنى اللام الأولى أما أن يختلف المدلول فلا واللام في كليهما للاختصاص.
(٩) الكشاف ٣/ ٤٨٧.
(١٠) البحر المرجع السابق.
(١١) الدر المصون ٤/ ٧٨١.
(١٢) سقط من أ الأصل.
(١٣) من القراءات المتواترة انظر السبعة ٥٨٥، والإتحاف ٣٨٥.
(١٤) قاله في الدر المصون المرجع السابق.
(١٥) معاني الفراء ٢/ ٣٢.
(١٦) لم ينسبها أبو حيان ولا الزمخشري في كل من البحر ٨/ ١٥ والكشاف ٣/ ٤٨٧.
(١٧) قال الزمخشري في الكشاف: «وعن الفراء جمع سقيفة وسَقَفاً بفتحتين كأنه لغة في سَقْف وسُقُوف».
وقال الفراء ٣/ ٣٢ في معاني القرآن: قرأها عاصم والأعمش والحسن: «سَقَفاً» وإنْ شِئتَ جعلت واحدها سقيفة وإن شِئت جعلته سُقُفاً. فتكون جمع الجمع كما قال الشاعر:

حَتىَّ إِذَا بَلَّتْ حَلاَقِيمَ الحَلَقْ ... أهوى لأدنى فَقْرِه عَلَى شَفَقْ

ومعنى كلام الفراء أنها لَيست قراءة حينئذ. وقد ذكر هذه القراءة أبو حيان في البحر ٨/ ١٥ والسمين في الدر ٤/ ٧٨١ بدون نسبة، ونسبها صاحب شواذ القرآن إلى عيسى بن عمر انظر ٢١٨.
(١٨) الزمخشري وأبو حيان في تفسيريهما السابقين.

و «مِنْ فِضَّةٍ» يجوز أن يتعلق بالجعل، وأن يتعلق بمحذوف صفة «لسُقفِ».

قوله: «ومعارج» قرأ العامة مَعَارِجَ جمع «مِعْرَج» وهو السلم وطلحة[١] مَعَارِيج[٢] جمع مِعْرَاج وهو كمِفْتَاح لمِفْتَح، وَمَفَاتِيح لمِفْتَاحٍ.

قوله: «وَسُرُراً» جمع «سرير» والعامة على ضم الراء. وقرىء بفتحها، وهي لغة بعض تميم وكَلْبٍ[٣] وقد تقدم أن «فعِيلاً» المضعف يفتح عينه، إذا كان اسماً، أو صفة نحو: ثَوْبٌ جَدِيدٌ، وثِيَابٌ جُدَدٌ. وفيه كلام للنحاة[٤]. وهل قوله: «مِنْ فِضَّةٍ» شامل للمعارج والأثواب والسُّرُر؟.

فقال الزمخشري: نعم[٥]، كأنه يرى تشريك المعطوف مع المعطوف عليه في قيوده. وَ «عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ» و «عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ» صفتان لما قبلهما.

قوله: «وزُخْرُفاً» يجوز أن يكون منصوباً بجعل أي وجَعَلْنَا لَهُمْ زُخْرُفاً[٦]، وجوز الزمخشري أن ينصب عطفاً على محل «من فضة»، كأنه قيل: سُقُفاً من فضةٍ وذهبٍ[٧]، فلما حذف الخافض انتصب أي بعضها كذا وبعضها كذا. الزخرف قيل: هو الذَّهَبُ، لقوله: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ [الإسراء: ٩٣].

وقيل: الزخرف الزينة، لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾[٨]

---

(١) هو ابن مصرف وقد ترجم له.

(٢) البحر المحيط ٨/ ١٥ ومختصر ابن خالويه ١٣٥.

(٣) البحر المحيط ٨/ ١٥ والكتاب ٣/ ٥٨٠ والمقتضب ٢/ ٢١٠.

(٤) «فَعِيل» إما أن يكون اسماً أو صفة، فالاسم الذي على وزن فعيل مضعفاً كان أم لا إنما يكسر على فعل كما يكسر فعال بفتح الفاء وكسرها عليه، نحو قذل، وحُمُر، وذلك نحو قُضُب وعُسُب، ورغفٍ، وسُرُر ويكسر على فعلان أيضاً وهو في الغلبة كفعل سواء، نحو: رُغْفَان وكُثْبَان وقُلْبَان، وربما كسر على أَفْعِلاَءَ كأنْصِبَاءَ وأَخْمِسَاءَ، وعلى فِعَال أيضاً كإفالٍ تشبيهاً بفَعِيل في الوصف نحو ظِراف وبرام ورُبَّما كانَ على فُعْلاَنَ حكى ثعلبُ: ظَلِيم وظلْمان، وعَريض وعرْضان، وقد جاء على فُعَل حَكَوا: سُرَرُ، والأشهر الضم هذا إذا كان اسماً فإن كان صفة فإما أن يكون بمعنى فاعل أو مفعول فإن كان من الثاني فتكسيره يكون على فَعْلَى مثل جَريح وجَرْحَى، وعلى فُعُل تشبيهاً له بالاسم إذا كان من الأول نحو نُذُر جمع نذير، وقال أعلى من أن فُعَل ترد هكذا فقد قال ابن الحاجب والرضي في شرح شافيته: «وربما جاء مضاعفُه» يعني أن الأصل أن يكسر على فُعُل بضمتين، ولكن حكى أبو زيد وأبو عبيدة أَنَّ ناساً فتحوا عين سُرُر فقالوا: سُرَر والأشهر الضم وانظر شرح الشافية ٢/ ١٣١ و ١٣٨ والكتاب ٣/ ٦٠٥ وشرح المفصل لابن يعيش ٦/ ٤٣ واللسان سرر ١٩٩١.

(٥) وانظر الكشاف ٣/ ٤٨٧ بالمعنى.

(٦) قاله الفراء في معانيه ٢/ ٣٢ قال: «إن نصبته على الفعل تُوقعه أي وزخرفاً تجعل ذلك لهم مِنْهُ».

(٧) الكشاف ٣/ ٤٨٧، وذكره أيضاً ابن الأنباري في البيان ٢/ ٢٥٣.

(٨) ٢٤ من يونس، وانظر غريب القرآن ٣٩٧ ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤/ ٤١١. وفسره الفراء في معاني القرآن بالذهب انظر معاني الفراء ٣/ ٣٢.

[يونس: ٢٤] فيكون المعنى نُعْطِيهم زينةً عظيمةً في كل بابٍ.

قوله: «وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاع الحَيَاةِ الدُّنْيَا» قرأ حمزة وعاصم لَمَّا بالتشديد على معنى: وما كُل ذلك إلاّ متاع الحياة الدنيا. فكان لما بمعنى إلا[١]. حكى سيبويه: «أَنْشَدْتُكَ بِاللَّه لَمَّا فَعَلْتَ» بمعنى إلا[٢]. ويؤيد هذه القراءة قراءةُ مَنْ قرأ: وَمَا ذَلِكَ إلاَّ مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا[٣] وخففه الآخرون على معنى: وكل ذلك متاع الحياة الدنيا. فتكون اللام للابتداء، وما صلة[٤] يريد: أن هذا كله متاع الحياة الدنيا وسماه متاعاً، لأن الإنسان يستمتع به قليلاً، ثم يزول ويذهب. وتقدم الخلاف في لما تخفيفاً وتشديداً في سورة هُودٍ[٥].

قال أبو الحسن[٦]: الوجه التخفيف، لأن لما بمعنى إلا لا يُعْرَفُ[٧]. وحكي عن الكسائي أنه قال: لا أعرف وجه التثقيل[٨]. وقرأ أبو رَجَاءٍ وأبو حَيْوَةَ: لِمَا ـ بكسر[٩] اللام ـ على أنها لام العلة ودخلت على ما الموصولة، وحذف عائدها، وإن لم تَطُلِ الصّلة، والأصل: الذي هو متاع، كقوله: ﴿تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٤] برفع النون.

و «إنْ» هي المخففة من الثقيلة، و «كل» مبتدأ، والجار بعده خبره، أي وإنَّ كُلَّ ما تقدم ذكره كائنٌ لِلَّذِي هُوَ متاع الحياة. وكان الوجه أن تدخل اللام الفارقة، لعدم إعمالها، إلا أنها لما دَلَّ الدليلُ على الإثبات جاز حَذفها[١٠]، كما حذفها الآخر في قوله ـ (رحمه الله[١١]) ـ:

٤٤٠١ ـ أَنَا ابْنُ أُبَاةِ الضَّيم مِنْ آلِ مَالِكٍ ... وَإِنْ مَالِكٌ كَانَتْ كِرَامَ المَعَادِنِ[١٢]

---

(١) الإتحاف ٣٨٥ والسبعة ٥٨٦ وهي قراءة متواترة.

(٢) سبق هذا.

(٣) ذكرها الكشاف بدون عَزوٍ في ٣/ ٤٨٧. ونسبها الرازي إلى أبي بن كعب. انظر الرازي ٢٧/ ٢١١.

(٤) ولفظة «ما» لغو، قاله الرازي نقلاً عن الواحدِيّ، انظر المرجع السابق.

(٥) من قوله تعالى: ﴿وإنَّ كُلاً لَمَّا لَيُوفينّهم ربّك﴾ من الآية ١١١.

(٦) تصحيح عن النسختين ففيها أبو الحسين، والأصح ما أثبت أعلى فهو أبو الحسن الأخفش الأوسط.

(٧) قال في معاني القرآن: «خفيفة منصوبة اللام. وقال بعضهم لَمَّا فثقل ونصب اللام وضعَّف الميم وزعم انها في التفسير الأول إلا، وأنها من كلام العرب». معاني القرآن له ٦٨٨ و ٦٨٩، وانظر عنه أيضاً القرطبي ١٦/ ٨٨ والرازي ٢٧/ ٢١١.

(٨) المرجع السابق.

(٩) المرجعين السابقين، وانظر أيضاً المحتسب ٢/ ٢٥٥.

(١٠) وانظر البحر المحيط ٨/ ١٥ والدر المصون ٤/ ٧٨٢.

(١١) زيادة من أ.

(١٢) من الطويل وهو للطِّرِمّاح بن حكيم، والأُبَاةُ جمع آبٍ، وهو الممتنع، والضيمُ الذلُّ. والشاهد: =

قوله: «والآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ» خاصة، يعني الجنة للمتقين عن حب الدنيا. قال عليه الصلاة والسلام: «لَوْ كَانَت الدُّنْيا تَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى مِنْهَا كَافِراً قَطْرَةَ مَاءٍ»(١).

وروى المُسْتَوْرِدُ(٢) بنُ شداد قال: كنت في الركب الذين وقفوا مع رسول الله ـ ﷺ ـ على السحلة الميتة، فقال رسول الله ﷺ: أتُرى هذه هانت على أهلها حين ألقوها؟ قالوا: مِنْ هَوانِها أَلْقَوْها، قال رسول الله ﷺ: «فالدُّنْيا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ عَلَى أَهْلِهَا».

فإن قيل: لما بين تعالى أنه لو فتح على الكافر أبواب النعم لصار ذلك سبباً لاجتماع الناس على الكفر(٣)، فلم لم يفعل ذلك بالمسلمين حتى يصير ذلك سبباً لاجتماع الناس على الإسلام؟!.

فالجواب: لأن الناس على هذا التقدير كانوا يجتمعون على الإسلام، لطلب الدنيا، وهذا الإيمان إيمان المنافقين، فكان الأصوب أن يضيق الأمر على المسلمين حتى أن كل من دخل الإسلام فإنما يدخل لمتابعة الدليل، ولِطَلَبِ رضوان الله تعالى، فحينئذ يعظم ثوابه لهذا السبب(٤).

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾﴾

قوله: «وَمَنْ يَعْشُ» العامة على ضم الشين من عَشَا يَعْشُو، أي يَتَعَامَى، ويَتَجَاهَلُ. وعن ابن عباس وقتادة ويَحْيَى بْنِ سَلاَّمٍ(٥) بفتح الشين بمعنى يَعْمَ، يقال: عَشِيَ يَعْشَى

= حذف اللام الفارقة التي تفرق بين إنْ المخففة من الثقيلة من غيرها، والأصل: «لكانت» حيث دل دليل على الإثبات كما ذكر أعلى وانظر الهمع ١/ ١٤ وابن الناظم ٦٨، والتصريح ١/ ٢٤١ والبحر المحيط ٨/ ١٥ والدر المصون ٤/ ٧٨٢، وشرح الشواهد للعيني على الأشموني ١/ ٢٨٩.

(١) هو لسهل بن سعد عن رسول الله، انظر ابن ماجه ٢/ ١٣٧٧.

(٢) ابن عمرو بن حبيب بن شيبان القُرَشي الفهريّ صحابيّ، له سبعة أحاديث مات سنة ٤٥ انظر خلاصة الكمال ٢٧٤.

(٣) في ب على الإسلام.

(٤) انظر الرازي ٢٧/ ٢١٢.

(٥) ابن أبي ثَعْلَبَة البَصْريّ صاحب التفسير، روى الحروف عن أصْحَاب الحسن البصري عن الحسن بن دينار، وغيره، له اختيار في القراءة من طرق الآثار، روى عن حماد بن سلمة، وهمّام بن يحيى، كان ثقةً، دَيِّناً، ثَبْتاً، ذا علم مات سنة ٢٠٠ هـ انظر الغاية في طبقات القراء ٢/ ١٠٧٢.

عَشاً إذَا عَمِيَ، فَهُوَ أَعْشَى، وامرأةٌ عَشْوَاء[١]. وزيد بن علي يَعْشُو بإثبات الواو[٢]. وقال الزمخشري: على أن من موصولة، وحق هذا أن يقرأ نُقَيِّضُ بالرفع[٣]. قال أبو حيان: ولا يتعين موصوليتُها، بل يخرج على وجهين، إما تقدير حذف حركة حرف العلة، وقد حكاها الأخفش لغةً، وتقدم منه في سورة يُوسُفَ شواهدُ.

وإما على أنه جُزِمَ بِمَنْ المَوْصُولَة تشبيهاً لها بِمَنْ الشَّرْطِيَّة[٤].

قال[٥]: وإذا كانوا قد جزموا بالذي وليس بشرط قَط فأولى بما استعمل شرطاً وغير شرط[٦][٧]، وأنشد:

٤٤٠٢ ـ وَلاَ تَحْفِرَنْ بِئْراً تُرِيدُ أَخاً بِهَا ... فَإِنَّكَ فِيهَا أَنْتَ مِنْ دُونِهِ تَقَعْ
كَذَلِكَ الَّذِي يَبْغِي عَلَى النَّاسِ ظَالِماً ... تُصِبْهُ عَلَى رَغْمٍ عَوَاقِبُ مَا صَنَعْ[٨]

قال: وهو مذهب الكوفيين، وله وجه من القياس، وهو أنَّ «الذي» أشْبَهَتْ اسم الشرط في دخول الفاء في خبرها، واسم الشرط في الجزم أيضاً، إلا أن دخول الفاء منقاسٌ بشرطه[٩] وهذا لا يَنْقَاسُ[١٠].

---

(١) وانظر البحر المحيط ٨/١٦، والكشاف ٣/ ٤٨٧، ومعاني الفراء ٣٠/ ٣٢.
(٢) اللسان عشا ٢٩٦٠ و ٢٩٦١.
(٣) المرجعين السَّابِقَيْن.
(٤) الكشاف المرجع السابق.
(٥) بالمعنى من البحر المحيط ٨/١٦.
(٦) في ب قالوا بالجمعية.
(٧) البحر المحيط ٨/١٦.
(٨) البيتان من الطويل أنشدهما أبو حبان في بحره، والسمين في الدر المصون قال أبو حيان: أنشدهما ابن الأعرابي. . والشاهد: «تصبه» فقد جزم جواباً «للذي» من «كَذَلِكَ الذي» تشبيهاً للموصول باسم الشرط فكما أن الموصول شبه باسم الشرط في دخول الفاء في الخبر كذاك يشبه به في انجزام خبره وهو جواب الشرط الذي هو هنا «تصبه» وهذا منقول عن الكوفيين. من البحر المحيط لأبي حيان ٨/١٦ وانظر الدر المصون ٤/ ٧٨٣.
(٩) باللفظ من الدر المصون المرجع السابق وبالمعنى من البحر المحيط ٨/١٦.
(١٠) أقول: قد ذكر ابن هشام في المغني ١٦٥ من تنبيهاته في مَعْرِض الكلام عن الفاء قوله: كما تربط الفاء للجواب بشرطه كذلك تربط شبه الجواب بشبه الشرط، وذلك في نحو «الذي يَأْتيني فَلَهُ دِرْهَم» وبدخولها فهم ما أراده المتكلم من ترتب لزوم الدرهم على الإتيان ولو لم تدخل احتمل ذلك وغيره. ثم قال: وهذه الفاء بمنزلة لام التوطئة في نحو: «لَئِنْ أُخرِجُوا لاَ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ» في إيذانها بما أراده المتكلم من معنى القسم، وقد قرىء بالإثبات والحذف قوله «وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فبما كَسَبَتْ أيديكُمْ» فلم يتكلم ابن هشام هنا عن الجزم بالنسبة للذي وإنما ذكر الربط فقط، ونجد السيوطي في كتابه الأشباه والنظائر يحدثنا أن الذي لا تجزم وإن تضمنت معنى الشرط لأنها أشبهت لام التعريف فلم تعمل حملاً عليها أضف إلى ذلك إلى أن جملة الصلة معلومة شرطاً بينما الشرط لا يكون إلا مُبْهَماً والموصول وما وصل في تقدير المفرد بينما الشرط جملتان انظر الأشباه والنظائر بتصرف ٢/ ٢٤١.

ويقال[١]: عَشَا يَعْشُو، وَعشِيَ يَعْشَى، فبعضهم[٢] جعلهما بمعنًى. وبعضهم فرق بأن عَشِيَ يَعْشَى، إذا جعلت الآفة في بصره، وأصله الواو. وإنما قلبت ياء، لانكسار ما قبلها، كَرَضِيَ يَرْضَى. وعَشَا يَعْشُو أي تفاعل ذلك، ونَظَرَ نَظَرَ العُشْي، ولا آفة ببصره. كما قال: عَرِجَ لمن به آفة العرج. وَعَرَج لمن تعارج ومشى مِشْيَة العرْجَانِ[٣]. قال ـ (رحمةُ اللَّهِ عليه[٤]) ـ:

٤٤٠٣ ـ أَعْشُو إِذَا مَا جَارَتِي بَرَزَتْ حَتَّى يُوارِي جَارَتِي الخِدْرُ[٥]

أي أنظر نظر العُشْي، وقال آخر:

٤٤٠٤ ـ مَتَى تَأْتِهِ تَعْشُو إلى ضَوْءِ نَارِهِ تَجِدْ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مُوقِدِ[٦]

أي ينظر نظر العُشي لضعف بصره من كثرة الوقُود. وفرّق بعضهم: بأن عشوت إلى النار إذَا استدللت عليها[٧] بنظر ضعيف. وقال الفَرَّاء عَشَا يَعْشُو: يُعْرِضُ، وعَشِيَ يَعْشَى عَمِيَ[٨]، إلا أن ابن قتيبةَ قال: لم نَرَ أحداً حكى: عَشَوْتُ عَنِ الشيء، أعْرَضْتُ عنه، وإنما يقال: تَعَاشَيْتُ عن كَذَا، إذا تَغَافَلْت عنه وتَعَامَيْت[٩].

قوله: «نُقَيِّضْ» قراءة العامة بنون العظمة وعَلِيّ بن أبي طالب، والأعْمشُ ويعقوبُ، والسُّلَمِيّ، وأبو عَمْرو، وعاصمٌ في روايةٍ عنهما: يُقَيِّضْ[١٠] بالياء من تحت. أي يُقَيِّض الرحمنُ. و «الشيطان» نصب في القراءتين وابن عباس ـ (رضي الله عنهما)[١١] ـ

---

(١) في ب لقال.

(٢) هو الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٨٧ و ٤٨٨.

(٣) المرجع السابق.

(٤) زيادة من أ الأصل.

(٥) نسبه الزمخشري وأبو حيان في الكشاف والبحر المحيط إلى حاتم الطائي ولم أعثر له في ديوانه على هذا البيت وهو من تمام الكامل، والأصح نسبته لمسكين الدارمي وهو في ديوانِهِ (٤٥) وورد فيه «أعمى» بدل «أعشو» وعليه فلا شاهد. وشاهده: أن أعشو بمعنى أتعامى وأنظر نَظَرَ العُمْي، والخدْر هو البيت وانظر البيت في الكشاف ٣/ ٤٨٨ والبحر المحيط ٨/ ٤ والدر المصون ٤/ ٧٨٤ وشرح شواهد الكشاف ٤٢١ وأمالي المرتضى ٢/ ٨٧٤، وهامش الخزانة ٩/ ٩٢.

(٦) من الطويل للحطيئة الشاعر الجاهليّ المعروف من قصيدة يمدح فيها بُغَيْض بن عامر التَّميمي وشاهده: تعشو أي تنظر نظر العُشْي لضعف البصر من كثرة الوقود كما أخبر أعلى وانظر غريب القرآن ٣٩٨، والبحر المحيط ٨/ ٤ والدر المصون ٤/ ٧٨٤ والخزانة ٩/ ٩٤ والكتاب ٣/ ٨٦ وابن يعيش ٢/ ٦٦، و ٤/ ١٤٨ و ٧/ ٤٥ و ٥٣، والكشاف ٣/ ٤٨٨ وشرح شواهده ٣٨٧ واللسان «عشا» ومَجَالِس ثعلب ٤٦٧.

(٧) نقله في غريب القرآن ٣٩٨.

(٨) بالمعنى من المعاني للفراء ٣/ ٣٢.

(٩) غريب القرآن ٣٩٨ قال: «ولا أرى القول إلا قول أبي عُبَيْدَةَ وقد عارضه الأزهري وأبو الهيثم» ورجَّحَ الإمامُ القرطبيُ رأيَ الأزهري وأبي الهيثم قال: وكذلك قال جميع أهل المعرفة. وهو قول الفراء السابق.

(١٠) انظر مختصر ابن خالويه ١٣٥، والكشاف ٣/ ٤٨٨ والإتحاف ٣٨٦.

(١١) زيادة من أ.

يُقَيَّضُ[١] مبنياً للمفعول شَيْطَانٌ بالرفع قائم مقام الفاعل.

فصل[٢]

«وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمن» أي يُعْرِض عن القرآن، وقيل: يُعرض عن الله، فلم يخفْ عقابه ولم يرجُ ثَوَابَه[٣]، يقال: عَشَوْت إلى النار، أَعْشُو عَشْواً، إذ قصدتها مُبْتَدِياً، وعَشَوْتُ عَنْهَا إذا أعرضت عنها، كما يقال: عدلت إلى فُلاَن، وعدلت عنه أي مِلْتُ إِلَيْهِ، ومِلْتُ عَنْهُ[٤].

قال القرطبي[٥]: تولية ظهره، كقوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة: ١٨ و ١٧١] وقال الخليل: أصل العَشْوِ النظر ببصرٍ ضعيف[٦]. وأما القراءة بالضم فمعناه: يَتَعَامَ عن ذكره أي يعرف أنه الحق ويتجاهل ويَتَعَامى، كقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

«نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً» أي نضمه إليه، ونسلطه عليه[٧] «فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ» لا يفارقه، يزين له العَمَى ويخيل إليه أنه الهدى.

قوله: «وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ».

«وإنهم» يعني الشياطين «ليصدونهم عن السبيل» أي يمنعونهم عن الهدى. وذكر الشياطين والإنسان بلفظ الجمع، لأن قوله «ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً» يفيد الجمع وإن كان اللفظ على الواحد[٨].

قال أبو حيان: الظاهر أن ضَمِيري النصب في «وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ» عائدان على «مَنْ» من حيث معناها راعى لفظها أولاً، فأفرد (في)[٩] «له» ثم راعى معناها فجمع في قوله: «وإنهم ليصدونهم» والضمير المرفوع على الشيطان لأن المراد به الجنس، ولأن كل كافر معه قرين.

وقال ابن عطية: إن الضمير الأول للشياطين[١٠]، والثاني للكفار[١١] والتقدير: وإن

---

(١) ذكرها أبو حيان في بحره ١٦/٨٥ وكلتا القراءتين شاذتان.
(٢) في ب قوله بدل «فصل».
(٣) ذكره أبو حيان في البحر ٨/ ١٦.
(٤) انظر اللسان عشا.
(٥) ذكر التاسع في النسختين القرطبي وهو القرظي كما صنعت وانظر رأيه في القرطبي ١٦/ ٩٠.
(٦) المرجع السابق.
(٧) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه ٤/ ٤١٢.
(٨) الرازي ٢٧/ ٢١٢.
(٩) سقط من ب.
(١٠) في ب للشيطان بالإفراد.
(١١) البحر المحيط بالمعنى ٨/ ١٦ والدر المصون ٤/ ٧٨٥. وقد سبق إلى ذلك الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٨٨.

الشياطينَ ليصدون الكفار العاتين، ويحسبون أنهم مهتدون أي ويحسب كفارُ بني آدم أنهم على الهُدَى[١].

قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَنَا﴾ قرأ أبو عمرو والأخوان وحفص «جاءنا»، بإسناد الفعل إلى ضمير مفرد يعود على لفظ «من» وهو العاتِي، وحينئذ يكون هذا مما حمل فيه على اللفظ، ثم على المعنى ثم على اللفظ، فإنه حمل أولاً على لفظها في قوله: «نُقَيِّضْ لَهُ.. فَهُوَ لَهُ» ثم جمع على معناها في قوله: «وإنهم ليصدونهم»... ويحسبون أنهم ثم رجع إلى لفظها في قوله: «جَاءَنَا» والباقون: «جاءانا» مسنداً إلى ضمير تثنية[٢]، وهما العاتِي وقرينه جُعلا في سلسلة واحدة فحينئذ يقول الكافر لقرينه «يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْد المَشْرِقَيْنِ» أي بعد ما بين المشرق والمغرب، فغُلِّبت إحدَاهُما على الآخر، كالقمرين والعمرين قال الفرزدق:

٤٤٠٥ ـ .... لَنَا قَمَرَاهَا وَالنُّجُومُ الطَّوَالِعُ[٣]

ويقولون للكوفة والبصرة: البَصْرَتَان، والغَدَاةِ والعَصْر: العصران، ولأبي بكر، وعمر: العُمرَان وللماء والثمر: الأَسْوَدَان[٤] وقيل: أراد بالمشرقين: مَشْرِق الصيف ومشرق الشتاء والأول أصلح[٥]. وقيل: بُعْدُ المشرِقَيْنِ مِن المَغْرِبَيْنِ[٦]. وقال ابن الخطيب: إن أهل النجوم يقولون: إن الحركة التي تكون من المشرق إلى المغرب هي حركة الفَلَك الأعظم، والحركة التي من المغرب إلى المشرق هي حركة الكواكب الثابتة والأفلاك المميلة[٧] والسيارات سوى القمر، وإذا كان كذلك فالمشرق والمغرب كل واحد منهما مشرِق بالنسبة إلى شيء ومغرب بالنسبة إلى شيء آخر. فثبت أن إطلاق لفظ المشرق على كل واحد من الجهتين حقيقة ثم ذكر وجهاً آخرَ، وهو أن الحِسَّ يدل على أن الحركة اليومية إنما تحصل بطلوع الشمس من المشرق إلى المغرب، وأما من المغرب فإنه يظهر في أول الشهر في جانب المغرب، ثم لا يزال يتقدم إلى جانب المشرق وذلك يدل على أن حركة القمر من المغرب. وإذا ثبت هذا بالجانب المسمى بالمَشْرِق، فإنه

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٦.

(٢) من القراءات المتواترة انظر السبعة ٥٨٦، والإتحاف ٣٨٦ ومعاني الفراء ٣/ ٣٣ والبحر المحيط ٨/ ١٦، والدر المصون ٤/ ٧٨٥، والكشاف ٣/ ٤٨٨.

(٣) عجز بيت من الطويل له، صدره:

أَخَذْنَا بِآفَاقِ السَّمَاءِ عَلَيْكُمُ ....

والبيت شاهد على تغليب القمر على الشمس والقمر في قوله: قمراها. وانظر معاني الزجاج ٤/ ١٤٢ والمقتضب ٤/ ٣٢٦، والمغني ٦٨٧ شرح شواهده للسيوطي ١٣ و ٩٦٤ والطبري ٢٥/ ٤٤، ومجمع البيان ٩/ ٧٤ وتفسير الفخر الرازي ٢٧/ ٢١٣ والقرطبي ١٦/ ٩١ والفراء ٣/ ٣٣.

(٤) انظر القرطبي ١٦/ ٩١.

(٥) السابق ومعاني الفراء ٣/ ٣٣.

(٦) قاله الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٤١٢.

(٧) في الرازي: الممثلة التي للسيارات سوى القمر.

مشرق الشمس ولكنه مغرب القمر. وأما الجانب المسمَّى بالمغرب فإنه مشرق القمر ولكنه مغرب الشمس، وبهذا التقدير يصح تسمية المشرق والمغرب بالمشرقين. قال: «ولعل هذا الوجه أقرب إلى مطابقة اللفظ من سائر الوجوه»[١]. وهذا ليس بشيء، فإن ظهور القمر من المغرب ما كان لكونه أشرق من المغرب إنما كان ظهورها لغيبوبة شُعَاع الشَّمْسِ عنه، وإنما كان إشراقه وظهوره من المشرق الحقيقي ولكنه كان مختفياً بشعاع الشمس.

قوله: «فَبِئْسَ القَرِينُ» والمخصوص بالذم محذوف أي أنت. قال أبو سعيد الخدري: «إذا بعث الكافر زوج بقرينه من الشياطين فلا يفارقه حتى يصير بِهِ إلى النار»[٢].

قوله: «وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ» في فاعله قولان:

أحدهما: أنه ملفوظ به وهو «أَنَّكُمْ» وما في خبرها التقدير: ولن ينفعكم اشتراكُكُمْ في العذاب بالتأسِّي كما ينفعكم الاشتراك في مصائب الدنيا فيتأسى المصَاب بمِثْلِهِ[٣].

ومنه قول الخنساء:

٤٤٠٦ ـ وَلَوْلا كَثْرَةُ البَاكِينَ حَوْلِي ... عَلَى مَوْتَاهُمُ لَقَتَلْتُ نَفْسِي
وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلكِنْ ... أُعَزِّي النَّفْسَ عَنْهُمْ بِالتَّأَسِّي[٤]

والثاني: أنه مضمر، فقدره بعضهم ضمير التمني، المدلول عليه بقوله: «يَا لَيْتَ بَيْنِي» أي لن ينفعكم تمنيكم البُعْد[٥].

وبعضهم: لن ينفعكم اجتماعكم. وبعضهم: ظلمكم، وجحدكم[٦]. وعبارة من عبّر بأن الفاعل محذوف مقصوده الإضمار المذكور لا الحذف؛ إذ الفاعل لا يحذف إلا في مواضع، ليس هذا منها[٧] وعلى هذا الوجه يكون قوله: «أنكم» تعليل، أي لأَنَّكُمْ،

---

(١) قاله الرازي في التفسير الكبير ٢٧/ ٢١٣. (٢) القرطبي ١٦/ ٩١.
(٣) قاله أبو حيان معنى في بحره ٨/ ١٧ والسمين في الدر لفظاً ٤/ ٧٨٥.
(٤) من تمام الوافر لها وهي تماضر بنت عمرو بن الشريد، ترثي أخاها صخراً. والشاهد: في كلمة التأسي فإن معنى التأسي إتباع صاحب المصيبة بمثله من الناس أصحاب المصائب الأخرى. وانظر ديوانها (٨٥) والبحر المحيط ٨/ ١٧، والدر المصون ٤/ ٧٨٥، والخصائص ٢/ ١٧٥، والكشاف ٣/ ٤٨٩، وشرح شواهده ٤٣١، والقرطبي ١٦/ ٩١، والسراج المنير ٣/ ٥٦٤.
(٥) ذكره العكبري في التبيان ١١٣٩؛ فعلى هذا يكون أنكم بمعنى لأنكُم.
(٦) وانظر هذه الأقوال جميعاً في الكشاف ٣/ ٤٨٩، والبحر المحيط ٨/ ١٧.
(٧) الأليق والأدق عند النحاة إضمار الفاعل لا حذفه، فلم يقل بحذفه إلا القليل منهم الإمام الكسائيّ ومن المواضع التي يجب تقدير الفاعل فيها:
الأوّل: أن يكون مقدراً مع عامله مثل محمداً في جواب مَنْ أحببت؟.
الثاني: فاعل المصدر إذا لم يكن ملفوظاً به نحو: أو إِطْعَام في يَوْمٍ.

=

فحذف الخافض، فجرى في محلها الخلاف، أهو نصب أم جر؟ ويؤيد إضمار الفاعل لا أنه هو إنكم قراءة إنكم بالكسر فإنه استئناف مفيد للتعليل.

قوله: «إِذْ ظَلَمْتُمْ» قد استشكل المعربون هذه الآية، ووجهه هو أن قوله (اليوم) ظرف حالي و «إذْ» ظرف ماض، و «ينفعكم» مستقبل، لاقترانه بلن، التي لنفي المستقبل، والظاهر أنه عامل في الظَّرْفَيْنِ، وكيف يعمل الحدث المستقبل الذي لم يقع بعد في ظرف حاضر أو ماض؟! هذا ما لا يجوز. وأجيب: عن إعماله في الظرف على سبيل قربه منه، لأنَّ الحال قريب من الاستقبال، فيجوز في ذلك، قال تعالى: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ﴾ [الجن: ٩]، وقال الشاعر:

٤٤٠٧ ـ .... سَأَسْعَى الآنَ إِذْ بَلَغَتْ إِنَاهَا[١]

وهو إقناعي، وإلا فالمستقبل يستحيل وقوعه في الحال عقلاً. وأما قوله: «إذْ» ففيها للناس أوجه كثيرة: قال ابن جني: راجعت أبا علي فيها مراراً، وآخر ما حصلت منه أن الدنيا والآخرة متصلتان، وهما سواء في حكم الله تعالى وعلمه. «فإذْ» بدل من «اليوم» حتى كأنه مستقبل، أو كأن اليوم ماض[٢].

= **الثالث**: فعل المفردة المؤنثة وجماعة الذكور إذا أكد بالنون، نحو: لَتَضْرِبُنَّ فإن الضمير قد حذف لالتقاء الساكنين ياء المخاطبة وواو الجماعة والنون الأولى الساكنة وهذا الحذف عارض فهو واجب التقدير.

الرابع: أن يكون مدلولاً عليه بالفحوى أو اللفظ مثل «ثُمَّ بَدَا لَهُم» ومثل: «وَلاَ يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا».

الخامس: الفاعل المضمر وجوباً مع أفْعَلُ، ونَفْعَلُ، وتَفْعَلُ.

السادس: الفاعل المضمر في نحو: نِعْمَ رَجُلاً زيدٌ.

في كل هذه المواضع ينبغي أن القول: إن الفاعل مضمر؛ لأن الكلام لا يستقيم إلا به، فهو النية وإن لم يكن متلفظاً به. أما إذا حذف الفاعل لغرض من الأغراض كتعينه أو الخوف عليه أو منه وأقيمَ المفعول مُقَامَهُ نائباً في الأحكام اللفظية وصار بهذا التقديم عمدة في اللفظ بعد أن كان فضلة فلا شك في أن الفاعل في مثل هذه المواضع محذوف، لأنه لم يتعلق بذكره في غرض ما، ولم يكن معتمد الفائدة والحال هذه. وانظر الهمع للإمام السيوطي ١/ ١٦٠ وشرح الأشموني على الألفية ٢/ ٤٤ بتصرف.

(١) عجز بيت من تمام الوافر، لعنترة العبسي، صدره:

فَإِنِّي لَسْتُ خَاذِلَكُمْ وَلَكِنْ

وشاهده: إعمال الفعل وهو «أسعى» في الظرف وهو الآن لقربه منه فإن الحال قريب من الاستقبال فيجوز في ذلك حينئذ. وانظر البحر المحيط ٨/ ١٧ والدر المصون ٤/ ٧٨٦ والديوان ٧٧.

(٢) باللفظ من الدر المصون ٤/ ٧٨٦ وانظر هذا كله فيه وفي البحر المحيط المرجع السابق. وقد ألمح ابن جني إلى ذلك في خصائصه حيث قال: صار الوقتان على تباينهما وتنائيهما كالموقتين المقترنين الدانيين المتلاصقين، نحو: أحْسَنْتُ إلَيْه إذْ شَكَرَني، وأعْطَيْتُهُ حِينَ سَألَني وهذا أمر استقر بيني وبين أبي عليّ رحمه الله مع المباحثة. وانظر الخصائص ٣/ ٢٢٤ و ٢٥٥ و ٢/ ١٧٢.

وإلى هذا نحا الزمخشري، قال: «وإذْ بدل من اليوم» وحمله الزمخشري على معنى إذ تَبَيَّنَ وصح ظلمكم ولم يبق لأحدٍ ولا لكم شُبْهَة في أنكم كنتم ظالمين ونظيره:

٤٤٠٨ ـ إِذَا انتَسَبْنا لَمْ تَلِدْنِي لئيمةٌ ....[١]

أي تبين أني ولد كريمة[٢].

قال أبو حيان: ولا يجوز البدل ما دامت إذ على موضوعها من المُغَيّا فإن جعلت لمطلق الزمان جاز[٣].

قال شهاب الدين: «لم يُعْهد في إذ أنها تكون لمطلق الزمان بل هي موضوعة لزمان خاص بالمضي كَأَمْسِ»[٤].

الثاني: أن في الكلام حذف مضاف تقديره: «بَعْدَ إِذْ ظَلَمْتُمْ»[٥].

الثالث: أنها للتعليل، وحينئذ تكون حرفاً للتعليل كاللاّم[٦].

الرابع: أن الفاعل في «إذ» هو ذلك الفاعل المقدر، لا ضميره، والتقدير: ولن يَنْفَعَكُمْ ظلمُكم أو جُحُودكم إذْ ظَلَمْتُمْ[٧].

الخامس: أن العامل في إذْ ما دل عليه المعنى كأنه قال: ولكن لن ينفعكم اجتماعُكُمْ إذْ ظَلَمْتُمْ. قاله الحَوْفِيُّ[٨]. ثم قال: وفاعل ينفعكم الاشتراك[٩] انتهى.

وظاهر هذا متناقض، لأنه جعل الفاعل أولاً اجتماعكم ثم جعله آخِراً الاشتراك. ومنع أن يكون «إِذْ» بدلاً من «اليوم» لِتَغَايُرِهما في الدّلالة[١٠].

وفي كتاب أبي البقاء: وقيل: إذْ بمعنى «إنْ» أي إن ظلمتم[١١]. ولم يقيدها بكونها

---

(١) هذا صدر بيت من الطويل لزائد بن صعصعة الفَقْعَسِيّ وعَجُزُه:

وَلَمْ تَجِدِي مِنْ أَنْ تَقَرِّي بِهَا بُدًّا

وهو يبين لامرأته أنه من أصل كريم، وأنها بنت لئيمة.

والشاهد: أن إذا بمعنى الماضي رغم أنه لما يستقبل من الزمان؛ لأن المعنى تَبَيَّنَ بالانتساب أنّي ولد كريمة. قاله الزمخشري. وانظر البيت في الكشاف ٣/ ٤٨٩ ومعاني الفراء ١/ ٦١ و ١٧٨ والمغني ٢٦ والدر المصون ٤/ ٧٨٧.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٨٩ له.

(٣) بالمعنى من البحر ٨/ ١٧.

(٤) الدر المصون له ٤/ ٧٨٧.

(٥) التبيان ١١٤٠ والبحر ٨/ ١٧.

(٦) البحر المرجع السابق.

(٧) التبيان المرجع السابق.

(٨) نقله أبو البقاء في تبيانه السابق وأبو حيان في بحره السابق أيضاً.

(٩) الدر المصون ٤/ ٧٨٧.

(١٠) فاليوم ظرف للحال، وإذْ ظرف للمعنى فلهذا يتغايران مدلولاً وانظر البحر المحيط ٨/ ١٧ والدر المصون ٤/ ٧٧٨.

(١١) في التبيان له أي لأن ظلمتم باللام.

أَن بالفتح أو الكسر(١). ولكن قال أبو حيانٍ: «وقيل: إذ للتعليل حرف بمعنى أَنْ، يعني بالفتح(٢). وكأنه أراد ما ذكره أبو البقاء إلا أن تسميته «أَنْ» للتعليل مجازاً، فَإِنَّها على حذف حرف العلة أي لأَنْ، فلمصاحبتها لها والاستغناء بها عنها سمَّاها باسمها. ولا ينبغي أن يعتقد أنها في كتاب أبي البقاء بالكسر على الشرطية، لأن معناه بعيدٌ(٣).

وفي كتاب مجاهِدٍ: أن ابن عامر قرأ: إنكم بالكسر، على الاستئناف المفيد للعلة وحينئذ يكون الفاعل مضمراً على أحد التقادير المذكورة(٤).

فصل

المعنى: «وَلَنْ يَنفَعَكُم اليَوْمَ» في الآخرة «إذْ ظَلَمْتُمْ» أشركتم في الدنيا «أَنَّكُمْ فِي العَذَابِ مُشْتَرِكُونَ» أي لا ينفعكم الاشتراك في العذاب ولا يخفف الاشتراك عنكم؛ لأن لكل واحد من الكفار والشياطين الحَظَّ الأوفر من العذاب. وقال مقاتل: لن ينفعكم الاعتذار والندم اليومَ، فأنتم وقرناؤكم اليوم مشتركون في العذاب، كما كنتم في الدنيا تشتركون(٥). واعلم أنه تعالى بين أن الشركة في العذاب لا تفيد التخفيف، كما كان يفيده في الدنيا، والسبب فيه وجوه:

الأول: أن ذلك العذاب الشديد عظيم، واشتغال(٦) كل واحد بنفسه يذهله عن حال الآخر، فلا جَرَمَ لم تفد الشركة خفةً.

الثاني: إذا اشترك الأقوام في العذاب، أعان كل واحد منهم صاحبه بما قدر عليه ليحصل بسببه بعض التخفيف. وهذا المعنى متبدّد في القيامة.

الثالث: أن جلوس الإنسان مع قرينه يُفيده أنواعاً كثيرة من السلوة. فبين تعالى أن الشيطان وإنْ كَانَ قريناً له، إلا أن مجالسته في القيامة لا توجب السلوة وخفة العقوبة(٧).

قوله (تعالى(٨)): ﴿**أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي العُمْيَ**...﴾ لما وصفهم في الآية المتقدمة بالعشى وصفهم في هذه الآية بالصمَم والعَمَى. وما أحسن هذا الترتيب، وذلك أن الإنسان في أول اشتغاله يطلب الدنيا يكون كمن حصل بعينه رَمدٌ ضعيف، ثم لما(٩) كان اشتغاله بتلك الأعمال أكثر كان مَيْلُهُ إلى الجُسمانيَّات أشد، وإعراضه عن الروحانيات أكمل؛

(١) ضبطها محقق الكتاب بالفتح.
(٢) البحر المحيط ٨/ ١٧.
(٣) وانظر الدر المصون ٤/ ٧٧٨.
(٤) التبيان ١١٤٠ والكشاف ٣/ ٤٨٩ والبحر المحيط ٨/ ٧ ولم تنسب في الكتب الثلاثة ونسبها القرطبي في الجامع إلى ابْن عامر باختلاف عنه انظر القرطبي ١٦/ ٩١.
(٥) انظر القرطبي ١٦/ ٩١، ٩٢.
(٦) في ب فالاشْتغال بالفاء.
(٧) الرازي بالمعنى ٢٧/ ٢١٤.
(٨) زيادة من أ.
(٩) في ب كلما بدل لما.

لأن كثرة المواظبة على الشيء توجب حصول الملكة اللاّزمة لينتقل الإنسان من الرمد إلى أن يصير أعشى، فإذا واظب على تلك الحال انتقل من كونه أعشى إلى كونه أعمى.

روي أنه عليه الصلاة والسلام، كان يجتهد في دعاء قومه، وهم لا يزيدون إلا تصميماً على الكفر وعِناداً في الغي فقال الله تعالى: **﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾** بمعنى أنهم في النفرة عنك وعن دينك بحيث إذا أسمعتهم القرآن كانوا كالصُّمِّ، وإذا أريتهم المعجزات كانوا كالعمي[١].

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾﴾

قوله: «فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ» قد تقدم الكلام عليه قريباً، والمعنى فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بك بأَنْ نُميتَكَ قبل أن تعذبهم «فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ» بالقتل بعدك، «أَوْ نُرِيَنَّكَ» في حياتك «الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ» من العذاب، «فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ» قادرون متى شئنا عذبناهم وأراد به مشركي مكة، انتقم منهم يوم بدر هذا قول أكثر المفسرين. وقال الحسن وقتادة: عَنَى به أهل الإسلام[٢] من أمة محمد ـ ﷺ ـ وقد كان بعد النبي ـ ﷺ ـ نقمة شديدة في أمته فأكرم الله تعالى نبيه وذهب به ولم يره في أمته إلا الذي تَقَرُّ عينه، وأبقى النقمة بعده وروي أن النبي ـ ﷺ ـ أُرِيَ ما يصيب أُمَّتَهُ بعده فما رؤي ضاحكاً منبسطاً حتى قبضه الله تعالى[٣]. وقرىء: «نُرِيَنْكَ» بالنون الخفيفة[٤].

قوله تعالى: **﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾** العامة على أوحي مبنياً للمفعول مفتوح الياء وبعض قراء الشام سكنها تخفيفاً[٥]، والضحاك: مبنياً للفاعل[٦] وهو الله تعالى.

فصل

لما بين له ما يوجب التسلية أمره أن يتمسك بما أمره الله تعالى به فقال فاستمسك بالذي أوحي إليك بأن تعتقد أنه حق، وبأن تعمل بموجبه، فإنه الصراط المستقيم الذي لا يميل عنه إلا ضالّ في الدين. ولما بين تأثير التمسك بهذا الدين في منافع الآخرة بين

---

(١) انظر الرازي ٢٧/ ٢١٥. (٢) في ب السلام.

(٣) انظر تفسير القرطبي ١٦/ ٩٢.

(٤) وهي قراءة رُوَيْس وهي من العشرة المتواترة انظر الإتحاف ٣٨٦ والنشر ٢/ ٣٦٩.

(٥) ذكرها البحر المحيط ٨/ ١٨، والدر المصون ٤/ ٧٨٨.

(٦) المرجعين السابقين والكشاف ٣/ ٤٩٠.

أيضاً تأثيره في منافع الدنيا فقال: «وإنه لذكر لك ولقومك» أي أنه يعني القرآن «لذكر لك» لشرف لك[١] «ولقومك» من قريش نظيره: «لقد أنزلنا إليكم كِتَاباً فِيه ذِكْرُكُمْ» شرفكم وأنه يوجب الشرف العظيم لك ولقومك، حيث يقال: إن هذا الكتاب العظيم أنزله الله عز وجل لقوم من هؤلاء.

وهذه الآية تدل على أن الإنسان لا بد وأن يكون عظيم الرغبة في الثناء الحسن والذكر الجميل ولو لم يكن الذكر الجميل أمراً مرغوباً فيه لما مَنَّ اللَّهُ تعالى به على محمد ـ ﷺ ـ فقال: «إنه لذكر لك ولقومك» ولَمَا طلبه إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ حيث قال: «وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْق في الآخِرِينَ» ولأن الذكر الجميل قائمٌ مقامَ الحياة الشريفة، بل الذكر أفضل من الحياة؛ لأن أثر الحياة لا يحصل إلا في مسكن ذلك الحي، وأما أثر الذكر الجميل فإنه يحصل في كل زمانٍ وكل مكان ثم قال تعالى: «وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ» قال الكلبي: تسألون هل أديتم شكر إنعامنا عليكم بهذا الذكر الجميل. وقال مقاتل: يقال لمن كذب به: لِمَ كَذَّبْتَ؟ فيسأل سؤال توبيخ.

وقيل: تسألون هل عملتم بما دل عليه القرآن من التكاليف[٢]. وروى الضحاك عن ابن عباس ـ (رضي الله عنهم[٣]) ـ: أن النبي ـ ﷺ ـ كان إذا سئل لمن هذا الأمر بعدك؟ لم يخبر بشيء حتى نزلت هذه الآية، فكان بعد ذلك إذا سئل لمن هذا الأمر بعدك؟ قال لقُرَيْشٍ[٤].

وروى ابن عُمَر ـ (رضي الله عنهما[٥]) ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ «لاَ يَزَالُ هذَا الأَمْرُ في قُرَيْشٍ مَا بَقِيَ اثْنَانِ»[٦] وروى معاوية قال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: إن هذا الأمر في قرَيْش لا يعاديهم أحدٌ إلا كبّه اللّه عَلَى وَجْهِهِ مَا أَقَامُوا الدِّينَ[٧]. وقال مجاهد: القوم هم العرب، فالقرآن لهم شرف، إذْ نَزَل بلغتهم، ثم يختص بذلك الشرف الأخص فالأخص من العرب ثم يكون الأكثر لقريش ولبني هاشم[٨].

وقيل: ذكر لك بما أعطاك من الحكمة، ولقومك من المؤمنين، بما هداهم الله به، وسوف تسألون عن القرآن، وعما يلزمكم من القيام بحقه.

قوله تعالى: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ

---

(١) في ب لذلك بدل لك تحريف.
(٢) انظر الرازي ٢٧/ ٢١٥.
(٣) زيادة من أ.
(٤) انظر القرطبي ١٦/ ٩٤.
(٥) زيادة من أ.
(٦) ذكره البخاري في صحيحه ٤/ ٢٣٣ و ٢٣٤.
(٧) رواه البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ ٤/ ٢٣٣.
(٨) ذكره القرطبي ١٦/ ٩٤.

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ
مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ
عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى
قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ
أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ
مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ
ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾

قوله: «واسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا» فيه ثلاثة أوجه:

أظهرها: أن من موصولة، وهي مفعولة للسؤال، كأنه قيل: واسْأَل الذي أرسلناهُ من قبلك عَمَّا أُرْسِلُوا به، فإنهم لم يرسلوا إلا بالتوحيد[١].

الثاني: أنه على حذف حرف الجر على أنه المسؤول عنه والمسؤول الذي هو المفعول الأول محذوف تقديره واسْأَلْنا عَمَّنْ أَرْسَلْنَاهُ[٢].

الثالث: أن من استفهامية، مرفوعة بالابتداء، و «أرسلنا» خبره والجملة معلقة للسؤال فيكون في محل نصب على إسقاط الخافض[٣].

وهذا ليس بظاهر بل الظاهر أن المعلق للسؤال إنما هو الجملة الاستفهامية من قوله: «أَجَعَلْنَا».

فصل

اختلف في هؤلاء المسؤولين، فروى عطاء عن ابن عباس (رضي الله عنهم) قال: لما أُسْرِيَ بالنَّبي ـ ﷺ ـ إلى المسجد الأقصى بعث له آدم وولده من المرسلين فَأَذَّنَ جبْرِيلُ ثم أقام وقال: يا محمد تقدم فصل بهم، فلما فرغ من الصلاة قال له جبريل: سل يا محمد من أرسلنا من قبلك من رسلنا... الآية. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: لا أسأل قد اكتفيت، ولست شَاكاً فيه. وهذا قول الزهري، وسعيد بن جبير، وابن زيد؛ قالوا: جمع له الرسل ليلة أسري به وأمر أن يسألهم، فلم يسأل ولم يشك[٤].

---

(١) ذكره السمين في الدر المصون ٤/٧٨٨.

(٢) ذكره المرجع السابق، ونقله أبو حيان في بحره ٨/ ١٩ ولم يرتضه حيث قال: «وأبعد من ذهب إلى أن المعنى واسألنا عن من أرسَلنا». البحر المحيط السابق، وانظر أمالي المرتضى ٢/ ٨٩.

(٣) هذا الوجه امتداد لنفس الوجه الثاني السابق كما ذكره أبو حيان وانظر البحر ٨/ ١٩ والدر المصون ٤/ ٧٨٨.

(٤) ذكره القرطبي ١٦/ ٩٤ و ٩٥ والرازي ٢٧/ ٢١٦ والزجاج في معاني القرآن وإعرابه ٤/ ٤١٣ و ٤١٤.

وقال أكثر المفسرين: سَلْ مُؤْمِني أهْلِ الكتاب الذين أرسلت إليهم الأنبياء هل جاءتهم الرسل إلا بالتوحيد، وهو قول ابن عباس في سائر الروايات ومجاهد وقتادة والضحاك والسدي والحسن، ويدل عليه قراءة عبد الله وأبي: واسأل الذين أرسلنا إليهم قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا ومعنى الأمر بالسؤال التقرير لمشركي قريش أنه لم يأت رسوله بعبادة غير الله ـ عز وجل ـ.

وقال عطاء سؤال الأنبياء الذين كانوا قبله ممتنع، فكأن المراد منه: انظر في هذه المسألة بعقلك وتدبرها بفهمك[١].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا...﴾ لما طعن كفار قريش في نبوة محمد ـ ﷺ ـ بكونه فقيراً، عديم المال والجاه بين الله تعالى أن موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعد أن أورد المعجزاتِ القاهرة التي لا يشك في صحتها عاقل، أورد عليه فرعونُ هذه الشبهة التي ذكرها كفار قريش فقال: إنه[٢] غَنِيٌّ كثيرُ المالِ والجاهِ، ألا ترون أني حصل لي ملك مصر، وهذه الأنهار تجري من تحتي، وأما موسى فإنه فقير مهين، وليس له بيانٌ ولسان، والرجل الفقير كيف يكون رسولاً من عند الله الملك الكبير؟!.

فثبت أن هذه الشبهة التي ذكرها كفار قريش بمكة، وهي قولهم: «لَوْلاَ نُزِّلَ هذَا القُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيم» قد أَوْرَدَهَا بعينها فرعون على موسى «ثم انتقمنا منهم فأغرقناهم»: فيكون الأمر في حق أعدائك هكذا. فثبت أنَّه (ليس)[٣] المقصود من إعادة هذه القصة عينها، بل المقصود تقرير الجواب عن الشبهة المذكورة[٤].

قوله تعالى: «فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ» قال الزمخشري: فَإِن قلت: كيف جاز أن يجاب لَمَّا بإذا المفاجأة؟!.

قلت: لأن فعل المفاجأة معها مقدر، وهو عامل النصب في محلها، كأنه قيل: فلما جاءهم بآياتنا فَاجَأُوا وَقْتَ ضَحِكِهِمْ. قال أبو حيان: ولا نعلم نحوياً[٥] ذهب إلى ما ذهب إليه من أن «إذا» الفجائية تكون منصوبة بفعل مقدر، تقديره: فاجأ، بل المذاهب ثلاثة:

---

(١) انظر هذه الأقوال في الرازي ٢٧/ ٢١٦ والقرطبي ١٦/ ٩٥ و ٩٦.

(٢) في ب إني دون ضَمير.

(٣) ما بين القوسين ساقط من أ.

(٤) ينظر الرازي السابق ٢٧/ ٢١٦.

(٥) وافق ابن الحاجب الزمخشري في مذهبه هذا ورد الإمام الرضيّ عليه فقال: «ويجوز أن يكون ظرف الزمان مضافاً إلى الجملة الاسمية، وعامله محذوف على ما قال المصنف أي ففاجأت وقت وجود السمع بالباب إلا أنه إخراج لإذا عن الظرفية، إذ هو إذَنْ مفعول به لفاجأت، ولا حاجة إلى هذه الكلفة، فإنَّ إذَا الظرفية غير مُتصرفة على الصحيح». شرح الكافية للرضي ١/ ١٠٣، ١٠٤.

إما حرف[١] فلا يحتاج إلى عامل، أو ظرف مكان[٢]، أو ظرف زمان. فإن ذكر بعد الاسم الواقع بعدها خبر، كانت منصوبة على الظرف والعامل فيها ذلك الخبر. نحو: خَرَجْتُ فَإِذَا زَيْدٌ قَائِمٌ تقديره: خَرَجْتُ ففي المكان الذي خرجت فيه زيدٌ قائمٌ، أو ففي الوقت الذي خَرَجْتُ فيه زيدٌ قائمٌ.

وإن لم يذكر بعد الاسم خبر، أو ذكر اسم منصوب على الحال، فإن كان الاسم جُثَّة، وقلنا: إنها ظرف مكان، كان الأمر واضحاً، نحو: خَرَجْتُ فَإِذَا الأَسَدُ، أي فَبالحَضرةِ الأَسَدُ، أو فَإِذَا الأَسَدُ رابضاً. وإن قلنا: إنها زمان كان على حذف مضاف، لئلا يخبر بالزمان عن الجثة، نحو: خَرَجْتُ فَإِذَا الأَسَدُ، أي ففي الزمان حُضُور الأَسَدِ، وإنْ كَان الاسم حَدَثاً جاز أن يكون مكاناً أو زماناً. ولا حاجة إلى تقدير مضاف نحو: خَرَجْتُ فَإِذَا القِتَالُ. إن شئت قدرت: فبالحَضْرَة القتالُ، أو ففي الزمانِ القتالُ[٣][٤].

قوله: «إلاَّ هِيَ أَكْبَرُ» جملة واقعة صفة لقوله: «مِنْ آيَةٍ» فنحكم[٥] على موضعها بالجر اعتباراً باللفظ، وبالنصب اعتباراً بالمحلِّ[٦]. وفي معنى قوله: «أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا» أوجه:

أحدها: قال ابن عطية: هم أنهم يستعظمون الآية التي تأتي لجدَّة أمرها وحدوثه، لأنهم أَنِسُوا بتلك الآية السابقة فيعظُم أمرُ الثانية ويكبرُ[٧] وهذا كقول الشاعر:

٤٤٠٩ ـ عَلَى أَنَّها تَعْفُو الكُلُومَ وَإِنَّمَا ... تُوَكَّلُ بالأَدْنَى وَإِنْ جَلَّ مَا يَمْضِي[٨]

الثاني: قيل: إن المعنى إلا هي أكبر من أختها السابقة، فحذف الصفة للعلم بها[٩].

---

(١) وقال بحرفيتها الأخفش وابن مالك انظر الهمع ١/ ٢٠٧ والمغني ٨٧.

(٢) ويعزى هذا للمبرد والفارسي وابن جني، وأبي بكر بن الخياط، وابن عصفور. انظر المرجعين السابقين.

(٣) وهو رأي الزمخشري كما هنا واختاره الرِّياشِيّ والزجّاج وابنُ طاهِر، وابن خَرُوفٍ، انظر المرجعين السابقين.

(٤) بتصرف من البحر المحيط ٨/ ٢٠ و ٢١ والدر المصون ٤/ ٧٨٩.

(٥) في ب فحكم.

(٦) الدر المصون ٤/ ٧٩٠.

(٧) البحر المحيط ٨/ ٢١.

(٨) من الطويل، لأبي خُراش، خويلد بن مرة الهذلي من أبيات في رثاء أخيه عُرْوَة. ورواية البيت مثل رواية صاحب الدر المصون تبعاً لأبي حيان والرواية الأصح: بلى إنها.. البيت كما في المراجع الآتية والكلوم جمع كَلْم ـ بفتح وسكون ـ وهو الجُرح ومعنى البيت ـ ومنه نأخذ الشاهد ـ أن الإنسان يشغل بما هو فيه من مشاغل الحياة وإن كان ما سبق أعظم وأشد؛ وانظر البيت في الخصائص لأبي الفتح ٢/ ١٧٠ وأمالي القالي ١/ ٢٧١، والدر المصون ٤/ ٧٩٠، والبحر المحيط ٨/ ٢١ وابن يعيش ٣/ ١٧٧، والخزانة للبغدادي ٥/ ٤٠٥.

(٩) قاله السمين في الدر المصون ٤/ ٧٩٠.

الثالث: قال الزمخشري: فإن قُلْتَ: هو كلام مناقض؛ لأن معناه ما من آية من التِّسْع إلا وَهِيَ أكبر من كل واحدة، فتكون كل واحدة منها فاضلة ومفضولة في حالة واحدة.

قلْتُ: الغرض بهذا الكلام وصفين[١] بالكِبَر، لا يَكَدنَ يَتَفَاوَتْنَ فيه وكذلك العادة في الأشياء التي تتقارب[٢] في الفضل التقارب اليسير تختلف آراء الناس في تفضيلها، فبعضهم يفضل هذا وبعضهم يُفَضِّل هذا، وربما اختلف آراء الواحد فيها، كقول الحماسي:

٤٤١٠ ـ مَنْ تَلْقَ مِنْهُمْ تَقُلْ لاَقَيتَ سَيِّدَهُمْ مِثْلَ النُّجُومِ الَّتِي يُهْدَى بِهَا السَّارِي[٣]

وقالت الأنبارية في الجملة من أبنائها[٤]: ثَكِلْتُهُمْ إنْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَيُّهُمْ أَفْضَلُ، هُمْ كَالحَلْقَةِ المُفْرَغَةِ لاَ يُدْرَى أَيْنَ طَرَفَاهَا[٥]. انتهى كلامه[٦].

وأوله فظيع جداً، كأن العبارات ضاقت عليه حتى قال ما قال، وإن كان جوابُهُ حسناً فسُؤاله فظيع[٧].

فصل

ذكر أنه تعالى أرسل موسى بآياته، وهي المعجزات التي كانت مع موسى إلى فرعون وملئه أي قومه فقال موسى: «إنِّي رَسُولُ رَبِّ العَالَمِينَ». فَلَمَّا جَاءَهُمْ بتلك الآيات «إذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ» استهزاء قيل: إنه لما ألقى عصاه صار ثعباناً، ثم أخذه فصار عصاً كما كان فضحكوا. ولما عرض عليهم اليد البيضاء ثم عادت كما كانت[٨] ضحكوا.

---

(١) في الكشاف: أنهن موصوفات.

(٢) وفيه: التي تتلاقى في الفضل وتتفاوت منازلها في التفاوت اليسير أن.

(٣) من البسيط لعُبَيْد بن العَرَنْدس وفي الكشاف: يسري بدل يهدى والمعنى: أن هؤلاء الناس قد بلغوا غاية عظيمة في المجد والشرف والسمعة حتى أن الرائي لواحد منهم يحسبه سيداً وما هو به، وكذا جاء التنظير بالبيت في الكلام عن الآية فهؤلاء الناس عندما رأوا هذه الآيات وَجَدُوهَا معجزة متناهية في العظم لا فرق بين واحدة وأخرى. وانظر الكشاف ٣/ ٤٩١ وشرح شواهده ٤٢٢ والدر المصون ٤/ ٧٩٠ وفتح القدير للشوكاني ٤/ ٥٥٩، وكامل المبرد ١/ ٧٨ و ٧٩ والحماسة البصرية ١/ ٤٧٨ وأمالي القالي ١/ ٢٣٩.

(٤) الكشاف: وقد فاضلت الأنبارية بين الكلمة من بنيتها.

(٥) أي فرق بين واحد وآخَرَ، ولم أستطعْ أن أميز واحداً بالحب على الآخر. وانظر شرح المفصل لابن يعيش ٧/ ١٠٠.

(٦) باللفظ من الدر المصون ٤/ ٧٩٠ وبالمعنى من الكشاف ٢/ ٤٩١.

(٧) هذا انتقاص من الدر المصون للكشاف ولصاحبه.

(٨) وانظر الرازي ٥٧/ ٣١٨.

ثم قال: «وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنَ أُخْتِهَا» أي قرينتها وصاحبتها التي كانت قبلها وَأَخَذْنَاهُمْ بالعَذَابِ أي بالسنين والطوفان، والجراد والقمل والضفادع والدم والطِّمس، فكانت هذه دَلالات لموسى وعذاباً، وكانت كل واحدة أكبر من التي قبلها «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» عن الكفر إلى الإيمان.

قالت المعتزلة: هذا يدل على أنه تعالى يريد الإيمان من الكل فإنه إنما أظهر تلك المعجزات القاهرة لإرادة أن يرجعوا عن الكفر إلى الإيمان[١].

قوله: «وَقَالُوا يَأَيُّهَا السَّاحِرُ» تقدم الكلام فيه في النور، والمعنى أنهم لما عاينوا العذاب قالوا لموسى يا أيها السَّاحرُ، أي يا أيها العالم الكامل الحاذق، وإنما قالوا هذا توقيراً وتعظيماً؛ لأن السحر عندهم كان علماً عظيماً، وصفةً محمودةً.

وقيل: معناه «يا أيها الذين غَلَبَنَا بسحره»[٢]. وقال الزجاج: خاطبوه به لما تقدم له عندهم من التسمية[٣] بالساحر.

فإن قيل: كيف سَمَّوهُ بالساحر[٤] مع قولهم: إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ؟!.

فالجواب من وجوه:

الأول: أنهم كانوا يسمون العالم الماهر ساحراً، لأنهم يستعظمون السحر وكما يقال في زماننا في العمل العجيب الكامل: إنه أتى بالسحر.

والثاني: أيُّهَا السَّاحِر في زعم الناس، ومتعارف قوم فرعون، كقوله: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ﴾ [الحجر: ٦] أي نزل عليه الذكر في اعتقاده وزعمه.

الثالث: أن قولهم: «إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ» وقد كانوا عازمين على خلافه، ألا ترى إلى قوله «فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنهُمُ العَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ» فتسميتهم إياه بالساحر لا ينافي قوله: «إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ»[٥].

قوله: «ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ» أي بما أخبرنا عن عهده إليك إن آمنا كشف عنا العذاب فاسأله يكشف عنا إننا لمهتدون مؤمنون فدعا موسى فكشف عنهم، فلم يؤمنوا فذلك قوله عز وجل: ﴿**فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنهُمُ العَذَاب إذَا هُمْ يَنكُثُونَ**﴾ أي نكثوا ذلك العهد، يعني يَنْقُضُونَ عَهدَهُمْ ويُصرون على كفرهم.

قوله تعالى: ﴿**وَنَادَى فِرْعَوْن فِي قَوْمِهِ**﴾ لما ذكر معاملة قوم فرعون مع موسى ذكر أيضاً معاملة فرعون معه. فقال «وَنَادَى فِرْعَوْن فِي قَوْمِهِ» أي أظهر هذا القول. «وَقَالَ يَا

---

(١) السابق.

(٢) انظر القرطبي ١٦/ ٩٧ و ٩٨.

(٣) معاني القرآن وإعرابه ٤/ ٤١٤.

(٤) سقط من ب.

(٥) الرازي ٢٧/ ٢١٨.

قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي» أي أنهار النيل ومعظمها نهر المَلِك، ونهر طُولون، ونهر دِمياط، ونهر تنيس. قيل: كانت تجري تحت قصره وحاصل الأمر أنه احتج بكثرة أمواله، وقوة جاهه على فضيلة نفسه. ثم قال: «أَفَلاَ تُبْصِرُونَ» من تحت قصري. وقال قتادة: تجري من بين يدي في جناني وبساتيني، وقال الحسن: بأمري أفلا تبصرون عظمتي وشدة ملكي[١]. وقيل: من ملك القِبْطَ يسمى فرعون، ومن ملك اليهود يسمى قبْطُون والمعروف مالخ، ومن ملك الصابئة يسمى نُمرود، ومن ملك البربر يسمى جالوت، ومن ملك الهند يسمى بهمن، وقيل يعفور، ومن ملك فرغانة يسمى الإخشيد، ومن ملك العرب من قبل العجم يسمى النعمان[٢].

قوله: «وهذه الأنهار تجري» يجوز في «وهذه» وجهان:

أحدهما: أن تكون مُبْتَدَأَةً، والواو للحال، و «الأنهار» صفة لاسم الإشارة، أو عطف بيان و «تَجْرِي» الخبر والجملة حال من ياء «لِي»[٣].

والثاني: أن هذه معطوفة على «مُلْكِ مِصْرَ» و «تجري» على هذا حال أي أليس ملك مصر وهذه الأنهار جارية؟! أي الشيئان[٤].

قوله: «تبصرون» العامة على الخطاب لمن ناداهم، وقرأ عيسى بكسر النون أي تُبْصِرُونِي[٥] وفي قراءة العامة المفعول محذوف أي تبصرون مُلْكِي وعَظَمَتِي.

وقرأ فَهْدُ بْنُ الصَّقْر[٦]: يُبْصِرُونَ[٧] بياء الغيبة، إما على الالتفات من الخطاب إلى الغيبة وإما رداً على قوم موسى.

قوله: «أَمْ أَنَا خَيْرٌ» في أم هذه أقوال:

أحدها: أنها منقطعة[٨]، فتقدر بـ «بَلْ» التي لإضراب الانتقال، وبالهمزة التي للإنكار.

والثاني: أنها بمعنى بل فقط[٩]، كقوله:

---

(١) القرطبي المرجع السابق.
(٢) قاله البغوي في معالم التنزيل.
(٣) قال بهذا الإعراب الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٩٢ ونقله عنه السمين في الدر المصون ٤/ ٧٩١.
(٤) السابقين والبحر المحيط ٨/ ٢٢.
(٥) جائزة لغة وإن كانت شاذة غير متواترة انظر مختصر ابن خالويه ١٣٥.
(٦) هو فهد بن صقر، روى القراءة عرضاً عن يعقوب الحضرميّ، وهو من جلة أصحابه وعن أيوب بن المتوكل وروى عنه ابن اخته إبراهيم بن خالد (انظر غاية النهاية ٢/ ١٣).
(٧) من القراءات الشاذة انظر البحر المحيط ٨/ ٢٢ وابن خالويه السابق.
(٨) وهو قول أول للزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٩٢ وانظر البيان ٢/ ٣٥٤.
(٩) وهو قول أبي حيان في البحر ٨/ ٢٢ ناقلاً أياه عن السدي وأبي عبيدة في المجاز ٢/ ٣٠٤.

٤٤١١ ـ بَدَتْ مِثْلَ قَرْنِ الشَّمْسِ فِي رَوْنَقِ الضُّحَى   وَصُورَتُهَا أَمْ أَنْتِ فِي الْعَيْنِ أَمْلَحُ[١]

أي بل أنت.

الثالث: أنها منقطعة لفظاً متصلة معنى[٢]. قال أبو البقاء: «أم هنا منقطعة في اللفظ لوقوع الجملة بعدها في اللفظ، وهي في المعنى متصلة معادلة؛ إذ المعنى أنا خير منه أم لا؟ وأينا خير[٣]؟» وهذه عبارة غريبة أن تكون منقطعة لفظاً متصلة معنى وذلك أنهما مَعْنيَانِ مختلفان، فَإِنَّ الانقطاع يقتضي إضْراباً إما إِبْطالاً، وإما انتقالاً[٤].

الرابع: أنها متصلة، والمعادل محذوف، تقديره: أَمْ تُبْصِرُونَ؟ وهذا لا يجوز إلا إذا كانت «لا» بعد «أم»، نحو: أتقوم أم لا؟ أي أم لا تقوم، وأزيد عندك أم لا؟ أي أم لا هو عندك أما حذفه دون معادل فلا يجوز. وقد جاء حذف «أم» مع المعادل، وهو قليل جداً، قال الشاعر[٥]:

٤٤١٢ ـ دَعَانِي إِلَيْهَا الْقَلْبُ إِنِّي لأَمْرِهَا   سَمِيعٌ فَمَا أَدْرِي أَرُشْدٌ طِلاَبُهَا[٦]؟

أي أم غيّ؟

ونقل أبو حيان عن سيبويه أن هذه هي أم المعادلة، أي أم تبصرون الأمر الذي هو حقيق أن يُبْصَر عنده وهو أنه خير من موسى[٧].

قال: وهذا القول بدأ به الزمخشري فقال: أم هذه متصلة؛ لأن المعنى أَفَلاَ تُبْصِرُونَ أَمْ تُبْصِرُونَ؟ إلا أنه وضع قوله: «أنا خير» موضع «تبصرون» لأنهم إذا قالوا: أنت خير

---

(١) لم ينسب في البحر ولا في الدر، ونسب في الخصائص والمحتسب لابن جني إلى ذي الرمة وهو من الطويل وهو في ملحقات ديوانه ٦٤٤ بلفظ «أو» بدل «لا» وعايه فلا شاهد، وقَرْن الشمس أعلاها وأولها عند طلوعها، ورَوْنَق الضحى أوله والشاهد: أن أم. على تلك الرواية ـ بمعنى بل فقط وهي رواية أبي حيان في البحر المحيط والسمين في الدر المصون ومشى المؤلف وراءهما. انظر البحر ٨/ ٢٢ والدر ٤/ ٧٩١ على أن الرواية المشهورة «أو» وعليه ـ كما قلت ـ فلا شاهد. انظر الخصائص ٢/ ٤٥٨ ومعاني الفراء ١/ ٧٢، والمحتسب ١/ ٩٩ والإنصاف ٤٧٨ وفتح القدير ٤/ ٥٥٩، والسراج المنير ٣/ ٥٦٧.

(٢) وهو رأي أبي البقاء انظر التبيان ١١٤٠.

(٣) المرجع السابق.

(٤) قاله السمين في الدر المصون ٤/ ٧٩٢.

(٥) انظر السابق وأيضاً البحر المحيط ٨/ ٢٣.

(٦) من الطويل لأبي ذؤيب. وهو من الأبيات المشهورة، ويروى: فلا أَدْرِي بدل فما أدري ولا اختلاف في المعنى. انظر ديوان الهذليين ١/ ٧١. والشاهد: حذف أم مع معادلها أو معطوفها وذلك لدلالة المقام عليه ولأنها متصلة. وانظر البحر المحيط ٨/ ٢٣ والدر المصون ٤/ ٧٩٢، ومغني اللبيب ١٣ و ٢٣ و ٦٢٨ والأشموني ٣/ ١٦ والهمع ٢/ ١٣٢. في الديوان «عصاني» بدل «دعاني» وهو بعيد عن الشاهد. وانظر البيت أيضاً في تأويل مشكل القرآن ١٦٦.

(٧) انظر البحر ٨/ ٢٣.

فَهُمْ عنده بصراء، وهذا من إنزال السبب منزلة المُسَبَّب[١]. قال أبو حيان: وهذا متكلف جداً، إذ المعادل إنما يكون مقابلاً للسابق فإن كان المعادل جملة فعلية، كان السابق جملة فعلية، أو جملة اسمية يتقدر منها جملة فعلية، كقوله: ﴿أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٣]؛ لأن معناه أو صمتُّم وهنا لا يتقدر منها جملة فعلية لأن قَوْلَهُ: «أَمْ أَنَا خَيْرٌ» ليس مقابلاً لقوله: أَفَلاَ تُبْصِرُونَ، وإن كان السابق اسماً كان المعادل اسماً أو جملة فعلية يتقدر منها اسم نحو قوله:

٤٤١٣ ـ أَمُخْدَجُ[٢] اليَدَيْنِ أَمْ أَتَمَّتِ؟

«فأتمت» معادل للاسم والتقدير: أم مُتِمًّا؟[٣].

قال شهاب الدين: وهذا الذي رده على الزمخشري رده على سيبويه، لأنه هو السابق به وكذا قوله أيضاً: إنه لا يحذف المعادل بعد «أم» وبعدها «لا» فيه نظر في تجويز سيبويه حذف المعادل دون لا فهو رد على سيبويه أيضاً[٤].

قوله: «ولا يكاد يبين» هذه الجملة يجوز أن تكون معطوفة على الصلة وأن تكون مستأنفةً وأن تكون حالاً[٥]. والعامة على يُبِينُ من أَبَانَ، والباقون: يَبِينُ ـ بفتح الياء ـ من بَانَ أي ظَهَرَ[٦].

فصل

قال أكثر المفسرين: «أم» هنا بمعنى «بل» وليس بحرف عطف[٧]. قال الفراء: الوقف على قوله أم وفيه إضمار مجاز(ه) أفلا تُبْصِرُونَ أَمْ تُبْصِرُونَ؟ لكنه اكتفى بلفظ «أم»

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٩٢ مع أن الزمخشري كما سبق قد جوز فيها وجه الانقطاع أيضاً.

(٢) المُخْدَجُ: الناقص الخلق، ومخدج اليدين ناقص نُمُوِّ اليدين. ويقال: إن هذه صفة رجل كان من الخوارج يؤلب أتباع الإمام عليّ كرم الله وجهه عليه سرًّا. والشاهد في تلك العبارة: أن أتمت وهي جملة فعلية في تقدير اسم كما قال أبو حيان وكما قدره أعلى. وفي هذا رد من أبي حيان على تقدير الزمخشري وانظر البحر ٨/ ٢٣، ولسان العرب «خدج» وكامل المبرد ٣/ ٢٦٣ وغريب الحديث ٣/ ٤٤٤ و ٤٤٥ والفائق في غريب الحديث للزمخشري ١/ ١٤٥.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٣.

(٤) هذا بناء على صحة نقل كلام أبي حيان عن سيبويه في كون أم متصلة ومعادلة. وانظر الدر المصون ٤/ ٧٩٣.

(٥) قال بهذا الإعراب السمين في الدر المصون ٣/ ٧٩٣.

(٦) ذكر هذه القراءة أبو حيان في البحر ٨/ ٢٣ والسمين في المرجع السابق.

(٧) ممن قال بذلك الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٩٢ وأبو عبيدة في مجاز القرآن كما سيأتي قوله والسدي كما نقله عنه الإمام القرطبي في الجامع ١٦/ ٩٩ وأبو حيان في البحر ٨/ ٢٢. وانظر غريب القرآن ٣٣٩ والفخر الرازي ٢٧/ ٢١٨.

كما تقول لغيرك: «أَتَأْكُلُ أَمْ» أي أَتَأْكُلُ أَمْ لاَ تَأْكُلُ؟ لكنك تقتصر على كلمة أم اقتصاراً[(١)].

قال أبو عُبَيْدَة: معناها بل أنا خير[(٢)]، وعلى هذا فقد تم الكلام عند قوله: أفلا تبصرون. ثم ابتدأ فقال: أم أنا خير، يعني بل أنا خير. وقال الباقون أم هذه متصلة، لأن المعنى أفلا تُبْصرُونَ أَمْ تُبْصُرونَ؟ إلا أنه وضع قوله: «أنا خير» موضع: «تبصرون»، لأنهم إذا قالوا له: أَنْتَ خَيْرٌ فَهُمْ عِنْدَهُ بُصَراءُ[(٣)].

قوله: «مِنْ هذا الذي هُوَ مَهِينٌ» أي ضعيف حقير يعني موسى «وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ» أَيْ يُفْصِحُ لسانُهُ لرُتَّةٍ[(٤)] كَانَتْ فِي لِسَانِهِ.

فإن قيل: أليس أن موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ سأل الله أن يُزيل الرُّتَّةَ عن لسانه بقوله: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ [طه: ٢٧ و ٢٨] فأعطاه الله ذلك بقوله تعالى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ فكيف عابه فرعون بتلك الرُّتةِ؟!.

فالجواب من وجهين:

الأول: أن فرعون أراد بقوله: «ولا يكاد يبين» حجته التي تدل على صدقه، ولم يرد أنه لا قدرة له على الكلام.

والثاني: أنه عابه بما كان عليه أولاً، وذلك أن موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ مكث عند فرعون زماناً طويلاً، وكان في لسانه حبسة فنسبه فرعون إلى ما عهد عليه من الرُّتةِ؛ لأنه لم يعلم أن الله تعالى أزال ذلك العيب عَنْهُ[(٥)].

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسَاوِرَةٌ﴾ قرأ حفص[(٦)] أَسْوِرَةٌ كأَخْمِرةٍ[(٧)]. والباقون أَسَاوِرَة، فأسورة جمع «سِوَارٍ» كحِمَارٍ، وأَخْمِرَةٍ، وهو جمع قلة. وأَسَاوِرَةٌ جمع إِسْوَار بمعنى سُوار، يقال: سوارُ المرأةِ، وأَسْوَارُهَا. والأصل أَسَاوِير بالياء، فعوض من حرف المد تاء التأنيث، كبطريقٍ وبَطَارِقَةٍ، وزِنْدِيقٍ وزَنَادِقَةٍ[(٨)].

---

(١) الذي في معاني القرآن له ٣/ ٣٥: من الاستفهام الذي جعل بأم لاتصاله بكلام قبله، وإن شئت رددته على قوله «أليس لي ملك مصر»؟

(٢) مجاز القرآن ٢/ ٢٠٤.

(٣) بتوضيح وتفصيل من الإمام الرازي ٢٧/ ١١٨.

(٤) هي العجلة في الكلام وقلة الأناة وقيل غير ذلك. انظر اللسان (رتت) ١٥٧٥.

(٥) انظر الرازي ٢٧/ ٢١٩.

(٦) عن عاصم وتروى عن أهل المدينة أيضاً وعن يعقوب وهي من القراءات المتواترة انظر السبعة ٥٨٧ ومعاني الفراء ٣/ ٣٥ والإتحاف ٣٨٦.

(٧) كذا في النسختين وفي الدر المصون كأَخْمِرَةٍ بالخاء وخِمار أيضاً بالخاء المعجمة.

(٨) الدر المصون ٣/ ٧٩٣ ومعاني القرآن ٦٩٠، والكشاف ٣/ ٤٩٣.

وقيل: بل هي جمع أَسْوِرَة فهي جمع الجمع[١]. وقر أبي والأعمش ـ وتروى عن أبي عمرو ـ أَسَاوِرُ دون تاء[٢]. وروي عن أبي أيضاً وعبد الله: أَسَاوِير[٣]. وقرأ الضحاك: أَلْقَى مبنياً للفاعل[٤]، أي الله تعالى وَأَسَاوِرَةً نصباً على المفعولية و «مِنْ ذَهَبٍ» صفة لأساورة. ويجوز أن تكون «من» الداخلة على التمييز[٥].

فصل

ومعنى الكلام أن عادتهم جرت بأنهم إذا جعلوا واحداً منهم رئيساً لهم سوّروه بسوار من ذهب وطَوَّقُوهُ بطَوْق من ذهب، فطلب فرعون من موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ مثل عادتهم، وحاصل الكلام أن فرعون كان يقول: أنا أكثر منه مالاً وجاهاً فوجب أن أكون أفضل منه فيمتنع كونه رسولاً من عند الله لأن منصب النبوة يقتضي المَخْدُومِيَّةَ، والأخسّ لا يكون مخدوماً للأشرف ثم قال: «أَوْ جَاءَ مَعَهُ المَلاَئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ» متتابعين يعاون بعضهم بعضاً يشهدون له بصدقه ويُعِينُونَهُ على أمره ويجوز أن يكون المراد مقترنين به من قولك: قَرَنْتُهُ بِهِ[٦].

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ أي وجدهم جُهَّالاً فحملهم على الخفة والجهل، يقال: استخفه عن رأيه، إذا حمله على الجهل[٧] وأزاله عن الصواب «فَأَطَاعُوهُ» على تكذيب موسى، «إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ» حيث أطاعوا ذلك الفاسق الجاهل.

قوله: «فَلَمَّا آسَفُونَا» أغضبونا. حُكي أن ابن جُرَيْج غضب في شيء فقيل له: أتغضب يا أبا خالد؟ فقال قد غضب الذي خلق الأحلام إن الله تعالى يقول: فَلَمَّا آسَفُونَا أي أغضبونا «انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين»[٨] واعلم أن ذكر لفظ الأسف في حق الله تعالى، وذكر لفظ الانتقام كل واحد منهما من المتشابهات التي يجب تأويلها فمعنى الغضب في حق الله تعالى إرادة الغضب ومعنى الانتقام إرادة العقاب بجُرم سابق[٩].

---

(١) قال الفراء: وقد تكون الأساور جمع أَسْوِرَة، كما يقال في جمع الأَسقِيَةِ أساقِي وفي جمع الأَكْرُع أَكَارِع معاني الفراء ٣/ ٣٥.

(٢) لم أجدها في المتواتر عن أبي عمرو انظر مختصر ابن خالويه ١٣٥ عن الأعمش فقط وعن المطوعي في الإتحاف ٣٨٦.

(٣) السابق وأيضاً شواذ القرآن ٢١٨ والكشاف ٣/ ٩٤٣.

(٤) السابق بدون نسبة ونسبها صاحب البحر ٨/ ٢٣.

(٥) أي مِنْ البيانية وحينئذ يجوز في غير القرآن: أسورة ذهباً.

(٦) انظر كل هذا في الرازي المرجع السابق ٢٧/ ٢١٩.

(٧) ويقال: اسْتَخَفَّه الفَرَحُ أي أَزْعَجَهُ، واسْتَخَفَّهُ أي حمله على الجَهْل، ومنه «وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يوقِنُونَ» انظر اللسان خفف.

(٨) القرطبي ١٦/ ١٠١.

(٩) السابق.

وآسَفُونَا منقول بهمزةِ التعديةِ من أَسِفَ بمعنى غضب، والمعنى: أغضبونا بمخالفتهم أمْرَنَا. وقال بعض المفسرين معناه[١]: «أَحْزَنُوا أَوْلِيَاءَنَا».

قوله: «فجعلناهم سلفاً» قرأ الأخوان سُلُفاً ـ بضمتين ـ[٢]، والباقون بفتحتين، فأما الأولى فتحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه جمع سَلِيفٍ، كرَغِيفٍ، ورُغُفٍ، وسمع القاسم[٣] بن معن من العرب معنى سَلِيف من الناس والسليفُ من الناس كالغَرِيقِ منهم[٤].

والثاني: أنها جمع سَالِف، كَصَابِرٍ، وصُبُرٍ[٥].

الثالث: أنها جمع سَلَفٍ كَأَسَدٍ وأُسُدٍ[٦].

والثانية تحتمل وجهين:

أحدهما: أن تكون جمعاً لسَالِفٍ، كحَارِسٍ وحَرَسٍ، وخَادِمٍ وخَدَمٍ، وهذا في الحقيقة اسم جمع لا جمع تكسير، إذ ليس في أبنية التكسير صيغة فَعَلٍ.

والثاني: أنه مصدر يطلق على الجماعة، تقول: سَلَفُ الرَّجُلُ يَسْلُفُ سَلَفاً أي تقدم، والسلف: كُلُّ شَيْءٍ قَدَّمْتَهُ من عمل صالح، أو قرضٍ فهو سَلَفٌ، وسَلَفُ الرَّجُلِ آبَاؤُهُ المتقدمون، والجمع أَسْلاَفٌ وسُلاَّفٌ[٧] قال طفيل:

٤٤١٤ ـ مَضَوْا سَلَفاً قَصْدَ السَّبِيلُ عَلَيْهِم ... صُرُوفُ المَنَايَا بِالرِّجَالِ تَقَلَّبُ[٨]

وقرأ عليٌّ ومُجَاهِدٌ ـ رضي الله عنهما[٩] ـ سُلَفاً[١٠] ـ بضم السين. وفيه وجهان:

---

(١) نقل هذين الوجهين أبو حيان في البحر المحيط ٨/ ٢٣ والسمين في الدر المصون ٤/ ٧٩٤.

(٢) هي قراءة متواترة انظر السبعة ٥٨٧ ومعاني الفراء ٢/ ٣٦.

(٣) هو القاسم بن معن بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود الصحابي أبو الإمام أبي عبد الله المسعودي الهُذليّ كان من علماء الكوفة باللغة العربية والفقه والحديث والشعر والأخبار حدث عن عاصم الأحول وعنه أبو نعيم مات سنة ١٧٥ أو ١٧٦ هـ. انظر بغية الوعاة ٢/ ٢٦٣.

(٤) نقله الفراء في معانيه ٣/ ٣٦.

(٥) ذكره صاحب التبيان ١١٤١.

(٦) انظر الدر المصون ٤/ ٧٩٤.

(٧) وانظر كل هذا في الدر المصون لفظاً ٤/ ٧٩٤، والبحر المحيط معنى ٨/ ٢٣، وانظر اللغة في اللسان (سلف) ٢٠٦٨.

(٨) من الطويل في رثاء من تقدم من قومه وهو لطفيل الغَنَوِيّ وشاهده: أن السلف هم الآباء المتقدمون عليه، ويجمع على ما أوضح أعلى على أَفْعَال وفُعَّال وانظر ديوان طفيل ٤٠ والبحر المحيط ٨/ ٢٣ والدر المصون ٤/ ٧٩٤ ولسان العرب سلف (٢٠٦٩).

(٩) في ب وقرأ علي رضي الله عنه ومجاهد.

(١٠) ذكرها الزجاج في معانيه ٤/ ٣١٦ وابن خالويه في المختصر ١٣٥.

أشهرهما: أنه جمع سُلْفَةٍ كغُرْفَةٍ وغُرفٍ[(١)]. والسُلْفَة الأُمَّةُ.

وقيل: الأصل سُلُفاً بضمتين، وإنَّما أبدل من الضمة فتحة[(٢)].

وقوله: «مَثَلاً» إما مفعول ثان إن كانت بمعنى صير، وإلاَّ حالاً[(٣)]. قال الفراءُ[(٤)] والزجاجُ[(٥)]: جعلناهم متفرقين ليتعظ بهم الآخرون، وهم كفار أمة محمد ـ ﷺ ـ والمعنى ومثلاً للآخرينَ أي عِظة لمن بقي بعدهم وعبرة.

قال أبو علي الفارسي: المَثَلُ واحد يراد به الجمع، ومن ثم عطف على سلف والدليل على وقوعه (على) أكثر من واحد قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٧٥]. فأدخل تحت المَثَل شيْئَيْن[(٦)] وقيل: المعنى سلفاً لكفار هذه الأمة إلى النار، ومثلاً لمن يجيء بعدهم.

قوله تعالى: ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَـٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَـٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً**﴾ اعلم أنه تعالى ذكر أنواعاً كثيرة من كفراناتهم، **فأولها**: قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً**﴾.

وثانيها: قوله: ﴿**وَجَعَلُوا المَلاَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً**﴾.

وثالثها: قوله: ﴿**وَقَالُوا لَو شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ**﴾.

ورابعها: قوله: ﴿**وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا القُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ**﴾.

---

(١) ذكره الزجاج في المرجع السابق وأبو البقاء في التبيان ١١٤١.

(٢) للتخفيف انظر هذين الوجهين كليهما في المرجع السابق والدر المصون ٤/ ٧٩٥.

(٣) المرجعين السابقين.

(٤) قال الفراء كأن واحدته سُلفة من الناس أي قطعة من الناس مثل أمة فهو قد فسر السُّلُف بضم السين واللام انظر معاني الفراء ٣/ ٣٦.

(٥) فسرها بفتح اللام والسين قال: جعلناهم سلفاً متقدمين ليتعظ بهم الآخرون معاني الزجاج ٤/ ٤١٦.

(٦) انظر في هذا الرازي ٢٧/ ٢٢٠.

وخامسها: هذه الآية. وليس في لفظها ما يدل على أن ذلك المثل أي شيء كان والمفسرون ذكروا فيه وجوهاً:

أشهرها: قال ابن عباس وأكثر المفسرين: نزلت الآية في مجادلة عبد الله بن الزِّبَعْرى مع النبي ـ ﷺ ـ في شأن عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما نزل قول الله عز وجل: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] كما تقدم في سورة الأنبياء.

والمعنى: ولما ضرب عبد الله بن الزبعرى عيسى ابن مريم مثلاً، وجادل رسول الله ـ ﷺ ـ بعبادة النصارى إياه «إِذَا قَوْمُكَ» من قريش «مِنْهُ» أي من هذا المثل «يَصِدُّونَ» أي يرتفع لهم ضجيج فرحاً بسبب ما رأوا من سكوت النبي ـ ﷺ ـ فإنه قد جرت العادة بأن أحد الخصْمَيْن إذا انقطع، أظهر الخصْمُ الثاني الفرحَ والضَّجيجَ.

وقيل: إن النبي ـ ﷺ ـ لما حكى أن النصارى عبدوا المسيح وجعلوه إِلَهاً لأنفسهم قالت كفار قريش: إن محمداً يريد أن يجعل نفسه لنا إلٰهاً كما جعل النصارى المسيح إِلَهاً لأنفسهم فعند هذا قالوا: «ءَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ» فعند ذلك قالوا: إن محمداً يدعونا لعبادة نفسه وآباؤنا زعموا أنه يجبُ عبادة هذه الأصنام وإذا كان لا بد من عبادة أحد هذين فعبادة الأصنام أولى؛ لأن آباءنا وأسلافنا أجمعوا على ذلك، وأما محمد فإنه متهمٌ في أمرنا بعبادته. ثم إنه تعالى لم يقل: إن عبادة المسيح طريق حسن، بل هو كلام باطل، وأن عيسى ليس إلا عبداً أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ فزالت شبهتهم في قولهم: إن محمداً يريد أن يأمرنا بعبادة نفسه(١).

وقيل: إن الكفار لما رأوا النصارى يعبدون عيسى قالوا إذا عبد النصارى عيسى فآلهتنا خير من عيسى فعبدوا الملائكة(٢).

قوله: «يَصُدُّونَ» قرأ نافع وابن عامر والكسائي يصدون ـ بضم الصاد ـ والباقون بكسرها، فقيل: هما بمعنى واحد. وهو الصحيح واللفظ، يقال: صَدَّ يَصُدُّ ويَصِدُّ كَعَكَفَ يَعْكُفُ ويَعْكِفُ وعَرَشَ يَعْرُشُ ويَعْرِشُ(٣).

قال ابن عباس (رضي الله عنهما)(٤) يضْجَرون. وقال سعيد بن المسيب:

---

(١) وانظر في هذا تفسير الرازي ٢٧/ ٢٢٠ و ٢٢١ والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ١٠٣.

(٢) المرجع السابق وانظر معاني الزجاج ٤/ ٤١٦.

(٣) وقراءة الكسر أكثر كما قال الزجاج: ويقرأ يُصدونَ بضم الصاد والكسر أكثر ومعناهما جميعاً يضِجُّون. ويجوز أن يكون معنى المضمومة يُعْرِضُونَ. وانظر معاني الفراء ٣/ ٣٦ و ٣٧ وإبراز المعاني ٦٨٠ والكشاف ٣/ ٤٩٣ ومجاز القرآن ٢/ ٢٠٥ وغريب القرآن ٤٤٠ وهي قراءة متواترة. انظر الكشف لمكي ٢/ ٢٦٠ والسبعة ٥٨٧.

(٤) زيادة من أ.

يصيحون. وقال الضحاك: يعجُّون. وقال قتادة: يجْزَعون، وقال القُرَظِيُّ[١]: يضجرون. وقيل: الضَّم من الصّدود[٢] وهو الإعراض وقد أنكر ابن عَبَّاس الضم، وقد روي له عن علي ـ رضي الله عنه ـ. وهذا واللَّهُ أَعْلَمُ ـ قبل بلوغه تواتره[٣].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ﴾ قرأ أهل الكوفة بتحقيق الهمزة الثانية والباقون[٤] بتسهيلها بين بين. ولم يدخل أحدٌ من القراء الذين من قاعدتهم الفصل بين الهمزتين بألفٍ ألِفاً كراهة لتوالي أربع مُتَشَابِهَاتٍ. وأبدل الجميع الهمزة الثانية ألفاً، ولا بد من زيادة بيان، وذلك أن آلهة جمع إله كعِمَادٍ، وأَعْمِدَةٍ، فالأصْل أَأْلهةٌ، بهمزتين الأولى زائدة، والثانية فاء الكلمة، وقعت الثانية ساكنةً بعد مفتوحة فوجب قلبُها ألفاً «كَآمَنَ[٥] وبابِهِ[٦]»، ثم دخلت همزة الاستفهام على الكل فالتقى همزتان في اللفظ، الأولى للاستفهام، والثانية همزة «أَفْعِلَةٍ» فالكوفيون لم يعتدوا باجتماعهما، فأبقوهما على ما لَهُما، وغيرهم استثقل فخفف الثانية بالتسهيل بين بين، والثالثة ألف محضة لم تغير البتَّةَ[٧]. وأكثر أهل العصر يقرأون هذا الحرف بهمزة واحدة بعدها ألف على لفظ الخبر ولم يقرأ به أحدٌ من السبعة فيما علمنا إلا أنه قد روي أن وَرْشاً قرأ كذلك في رواية أبي الأَزْهَر[٨] وهي تحتمل الاستفهام كالعامة. وإنما حذف أداة الاستفهام لدلالة أم عليها، وهو كثير[٩]. ويحتمل أنه قرأة خبراً محضاً وحينئذ تكون أم منقطعة تقدر ببل[١٠] والهمزة وأما الجماعة فهي عندهم متصلة[١١]. فقوله: «أَمْ هُوَ» على قراءة العامة عطف على «آلهتنا خير» وهو من عطف المفردات، والتقدير: أآلهتنا أَمْ هُوَ خَيْرٌ؟ أي أيهما خير؟ وعلى قراءة ورش يكون هو

---

(١) في النسختين القرطبي وهو خطأ مكرر كالعادة. والأصح ما أثبت أعلى وهو الإمام محمد بن كعب القُرَظِيُّ. وانظر هذه الأقوال في القرطبي ١٦/ ١٠٣.

(٢) وهو قول قطرب المرجع السابق.

(٣) انظر البحر المحيط ٨/ ٢٥.

(٤) وهم نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ورويس. وانظر الإتحاف ٣٨٦، والسبعة ٥٨٧ وإبراز المعاني ٦٨٠.

(٥) فأصله أأمن. (٦) إيمان وأُوثر ونحوهما.

(٧) انظر هذا في الكشف ٢/ ٢٦٠ و ٢٦١ وشرح الشافية للإمام الرضي ٣/ ٥٣ و ٥٤.

(٨) هو عبد الصمد بن عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة أبو الأزهر العتقي المصريّ صاحب الإمام مالك راوٍ مشهور بالقراءة متصدر ثقة، أخذ القراءة عَرضاً عن ورش مات في رجب ٢٣١ انظر غاية النهاية لابن الجزري ١/ ٣٨٩ وقد ذكر هذه القراءة ابن مجاهد في السبعة عن أحمد بن صالح عن قالون عن نافع كما نقل: وقال أحمد بن صالح: بلغني عن ورش أنه كان يقرأها بغير استفهام. انظر السبعة ٥٨٨.

(٩) الكشاف ٣/ ٤٩٣.

(١٠) البحر المحيط ٨/ ٢٥ والدر المصون ٤/ ٧٩٦.

(١١) قاله ابن الأنباري في البيان ٢/ ٣٥٤ والمرجع السابق.

مبتدأ، وخبره محذوف تقديره: بل أَهُوَ خَيْرٌ. وليست «أَمْ» حينئذ عاطفةً[١].

فصل

قال قتادة معنى قوله: «أَمْ هُوَ» يعنون محمداً فنعبده ونترك آلهتنا. وقال السدي وابن زيد: أم هو يعني عيسى قالوا يزعم محمد أن كل ما عبد من دون الله في النار، فنحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى وعزير، والملائكة في النار[٢]، قال الله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ﴾ يعني هذا المثل: «لَكَ إِلاَّ جَدَلاً» أي خصومة بالباطل، فقد علموا أن المراد من قوله: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] هؤلاء الأصنام «بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ» مبالغون في الخُصُومَة. روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «مَا ضَلَّ قوم بَعْدَ هُدَى كَانُوا عَلَيْهِ إلاَّ أُوتُوا الجَدَل» ثم قرأ: «مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ»[٣].

قوله: «جَدَلاً» مفعول من أجله، أي لأجل الجدل والمِرَاء، لا لإظهار الحق، وقيل: هو مصدر في موضع الحال أي إلا مُجَادِلين[٤]. وقرأ ابن مقسِم: جِدَالاً[٥] والوجهان جاريان فيه. والظاهر أن الضمير في «هو» لعيسى كغيره من الضمائر. وقيل: هو للنبيّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ وبكُلٍّ قال به المفسرون كما تقدم[٦].

فصل

تمسك القائلون بذم الجدل بهذه الآية، والآيات الكثيرة دالة على مدح الجدل فالتوفيق بينهما أن تُصْرَفَ الآيات الدالة على مدح الجدل إلى الجدل الذي يفيد تقرير الحق وتصرف هذه الآية إلى الجدل الذي يوجب تقرير الباطل.

قوله (تعالى)[٧]: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ﴾ أي ما هو يعني عيسى «إِلاَّ عَبْدٌ» كسائر العبيد «أَنْعَمْنَا عَلَيْه» حيث جعلناه آية، بأن خلقناه من غير ذكَرٍ كما خلقنا آدم، وشرفناه بالنبوّة[٨] «وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً» أي آية وغيره «لِبَنِي إِسْرَائِيلَ» يعرفون به قدرة الله على ما يشاء حيث خلقه من غير أَبٍ «وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلاَئِكَةً» أي لو نشاء لأهلكناكم وجعلنا بدلاً منكم

---

(١) السابق.

(٢) القرطبي ١٦/ ١٠٤.

(٣) رواه الترمذي في صحيحه عن أبي أمامة. وانظر أيضاً القرطبي ١٦/ ١٠٤.

(٤) ذكر هذين الوجهين في الكشاف ٣/ ٤٩٣ و ٤٩٤.

(٥) من القراءة الشاذة. البحر المحيط ٨/ ٢٥ والقرطبي السابق وأيضاً شواذ القرآن ٢١٨.

(٦) كما سبق منذ قليل والدر المصون ٤/ ٧٩٧.

(٧) زيادة من أ.

(٨) انظر كل هذا في تفسير الإمام الفخر الرازي ٢٧/ ٢٢٢.

ملائكة «فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ» أي يكونون خلفاً منكم[١] يَعْمُرونَ الأرض، ويعبدونني ويطيعوني[٢]. وقيل: يخلف بعضهم بعضاً[٣].

قوله: «لَجَعَلْنَا مِنكُمْ مَلائِكَة» في مِن هذه أقوال:

أحدها: أنها بمعنى بدل أي لجعلنا بَدَلَكُمْ كما تقدم[٤] في التفسير، ومنه أيضاً ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [التوبة: ٣٨] أي بدلها. وأنشد (ـ رَحْمَةُ[٥] اللَّهِ عليه) ـ:

٤٤١٥ ـ أَخَذُوا المَخَاضَ مِنَ الفَصِيلِ غُلُبَّةً ظُـلْـمـاً وَيُـكْـتَـبُ لـلأَمِـيـرِ إفَـالا[٦]

وقال آخر:

٤٤١٦ ـ جَـارِيَـةٌ لَـمْ تَـأْكُـل الـمُـرَقَّـقَـا وَلَـمْ تَـذُقْ مِـنَ الـبُـقُـولِ الـفُـسْـتُـقَـا[٧]

والثاني: وهو المشهور: أنها تبعيضية. وتأويل الآية لولدنا منكم يا رجالُ ملائكةً في الأرض يَخْلُفُونَكُمْ كما تخلفُكُمْ أولادكم، كما ولدْنا عيسى من أنثى دونَ ذكر. ذكره الزمخشري[٨].

والثالث: أنها تبعيضية قال أبو البقاء وقيل: المعنى لَحَوَّلْنَا بعضَكُمْ ملائكةً[٩].

قوله: «وَإِنَّهُ لعِلْمٌ» المشهور أن الضمير «لِعِيسى» يعني نزوله آخر الزمان، وقيل: الضمير للقرآن، أي فيه علم الساعة وأهوالها، أو هو علامة على قربها ومنه ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١] ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١] ومنه: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ»[١٠]. والعامة على «عِلْم» مصدراً جعل علْماً مبالغة، لمَّا كان به يحصل العلم، أو

---

(١) وهو رأي السدي.

(٢) وهو رأي مجاهد رضي الله عن الجميع.

(٣) انظر هذا في القرطبي ١٦/ ١٠٥، وبالأخير قال الإمام الزجاج في معانيه ٤/ ٤١٧.

(٤) ذكره السمين في الدر المصون ٤/ ٧٩٧ والزجاج في معاني القرآن ٤/ ٤١٧ ونقله القرطبي عن الأزهري في الجامع ١٦/ ١٠٥.

(٥) زيادة من أ.

(٦) أوردت النسختان إفالاً، وليس كذلك البيت في ديوان الراعي والبيت له من تام الكامل من قصيدة طويلة يخاطب بها عبد الملك بن مروان. والمخاض: الحوامل من النُوقِ واحدها خَلِفَة من غير لفظها، والفصيل ولد الناقة عند فطامه. والغُلُبّة مصدر بمعنى الغلبة، والأفيل الصغير من الإبل، وسمي بذلك لأفوله أي لغيبته بينهما. ومعناه أن عمال الزكاة يأخذون النوق ويحرمون صغارها ومع ذلك يخبرون الأمير بأنهم لم يأخذوا من أصحاب الأموال إلا الإفال من الإبل. وقد تقدم.

(٧) من الرجز وينسب لأبي نُخيلة وشاهده كسابقه في مجيء مِنْ بمعنى البدل وقد تقدم.

(٨) الكشاف ٣/ ٤٩٤.

(٩) انظر التبيان ١١٤١ ولم ينسبه.

(١٠) ذكره البخاري ٣/ ٢١٢ عن سهل بن سعد.

لما كان شرطاً يعلم به ذلك أطلق عليه علم. وابنُ عباس وأبُو هريرة وأبو مَالِكِ الغفاريّ(١) وزيد بن علي لَعَلَمٌ ـ، بفتح العين والفاء ـ أي لشرطٌ وعلامةٌ. وقرأ أبو نَضْرَةَ(٢) وعِكْرِمةُ كذلك إلا أنَّهما عرَّفا باللام فقرآ لَلْعِلْمُ أي للعَلاَمَةُ المَعْرُوفَةُ(٣).

فصل

معنى الآية أن نزول عيسى من أشراط الساعة يعلم بها قربها، قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُم ابْنُ مَرْيَم حَكَماً عَادِلاً يَكْسرُ الصَّلِيبَ ويَقْتُلُ الْخِنزِير، وَيَضَعُ الجِزْيَةَ، وتَهْلِكُ فِي زَمَانِهِ المِلَلُ كُلُّهَا إلاَّ الإِسْلاَمَ»(٤). ويروى: أنه ينزل على ثنيَّة بالأرض المقدسة يقال لها أَفِيق(٥)، وبيده حَرْبَةٌ، وعليه مُمَصَّرتَانِ(٦)، وشعر رَأسِهِ دَهِينٌ يقتل الدَّجَّالَ، ويأتي بيتَ المقدس والناس في صلاة العصر ـ وروي في صلاة الصبح ـ فيتأخر الإمام فيتقدمه عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ويصلي خَلْفه على شريعة محمد ـ ﷺ ـ ثم يقتُل الخَنَازِيرَ، ويكسرُ الصليبَ، ويخَرب البيعَ والكنائسَ ويقتل النَّصَارَى إلا من آمن به(٧).

قوله: «فَلاَ تَمْتَرُنَّ» من المِرية وهي الشك أي لا تَشُكُّنَّ فيها. قال ابن عباس (رضي الله عنهما(٨)) لا تكذبوا بها «واتَّبِعُونِي» على التوحيد «هَذَا» الذي أنا عليه «صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ».

«وَلاَ يَصُدَّنَّكُمُ» لا يصرفنكم «الشَّيْطَانُ» عن دين الله «إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ» قد بانت عداوته لكم لأجل أنه أخرج أبويكم من الجنة، ونزع عنهما لباس النور.

قوله تعالى: ﴿**وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ**﴾ أي بالمعجزات وبالشرائع البينات الواضحات «قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ» وهي النبوة. وقيل: معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله

---

(١) هو غَزوَان الغفاري أبو مالك الكوفي عن البراء بن عازب وابن عباس وعنه سلمة بن كهيل والسدي وانظر خلاصة الكمال ٣٠٦، وانظر القراءة في الإتحاف ٣٨٦ ومختصر ابن خالويه ١٣٥ والكشاف ٣/ ٤٩٤ ومعاني الفراء ٣/ ٣٧.

(٢) هو المنذر بن مالك بن العوقة وهم بطن من عبد قيس وتوفي في ولاية عمر بن هُبَيْرَةَ، وصلى عليه الحسن البصري انظر المعارف لابن قتيبة ٤٤٩.

(٣) انظر مختصر ابن خالويه والكشاف السابقين وهي شاذة غير متواترة.

(٤) هو في صحيح البخاري ٢/ ٢٧ عن ابن المسيب عن أبي هريرة.

(٥) هو في مكان بالقدس الشريف نفسه.

(٦) الممصّر من الثياب التي فيها صفرة خفيفة.

(٧) ذكره الثعلبي والزمخشري من حديث أبي هريرة ولم أجده في الصَّحيح انظر الكشاف ٣/ ٤٩٤ والقرطبي ١٦/ ١٠٦ والرازي ٢٧/ ٢٢.

(٨) سقط من (ب).

«وَلأُبين لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ» من أحكام التوراة[١].

قال قتادة: يعني اختلاف الفرق الذين تحزّبوا في أمر عيسى. قال الزجاج: الذي جاء به عيسى في الإنجيل إنما هو بعض الذي اختلفوا فيه فبين لهم في غير الإنجيل ما احتاجوا إليه[٢].

وقيل: كانوا قد اختلفوا في أشياء من أحكام التكاليف، واتفقوا على أشياء فجاء عيسى ليبين لهم الحقَّ في تلك المسائل الخلافية[٣].

قال ابن الخطيب: وبالجملة فالحكمة معناها أصول الدين، وبعض الذي يختلفون فيه معناه فروع الدين[٤].

فإن قيل: لِمَ لَمْ يُبَيِّنْ لَهُمْ كُلَّ الذي يختلفون فيه؟

فالجواب: لأن الناس قد اختلفوا في أشياء لا حاجة لهم إلى معرفتها فلا يجب على الرسول بيانُهَا. ولما بين لهم الأصول والفروع قال: «فَاتَّقُوا اللَّهَ» من الكفر والإعراض عن دينه «وَأَطِيعُوهُ» فيما أبلغة إليكم من التكاليف، «إنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ»، «فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ» أي الفرق المتحزبة بعد عيسى وهم الملكانيّة[٥] واليعقوبية[٦] والنسطورية[٧]، وقيل: اليهود والنصارى[٨] «فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أليم» وهو وعيد يوم الأحزاب.

فإن قيل: الضمير في قوله: «بَيْنَهُمْ» إلى من يرجع؟

فالجواب: إلى الذين خاطبهم عيسى في قوله: «قَدْ جِئْتُكُم بالْحِكْمَة» وهم قومه.

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

قوله: «هَلْ يَنْظُرُونَ إلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأتِيَهُمْ» أي أنها تأتيهم لا محالة، فكأنهم

(١) القرطبي المرجع السابق.
(٢) معاني القرآن وإعرابه ٤/٤١٨.
(٣) وهو رأي الإمام الرازي ٢٧/ ٢٢٣.
(٤) قاله في مرجعه السابق.
(٥) قالوا: ثالث ثلاثة.
(٦) قالوا: هو الله.
(٧) قالوا: هو ابن الله وانظر هذا الرأي الفِرقيّ في القرطبي ١٦/ ١٠٩ وهو منسوب لمقاتل والكلبي.
(٨) قاله مجاهد والسدي. المرجع السابق.

ينظرونها. فقوله «أَنْ تَأتِيَهُمْ» بدل من الساعة. والمعنى هل ينظرون إلا إتيان الساعة. وقوله: «بَغْتَة» فجأة.

فإن قيل: قوله بغتة يفيد ما يفيد قوله: «وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ» فما فائدته؟

فالجواب: يجوز أن تأتيهم بغتة وهم يعرفونه بسبب أنّهم يشاهدونه»[١].

قوله تعالى: «الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ» مبتدأ وخبره «عَدُوٌّ» والتنوين في «يومئذ» عوض عن جملة، تقديره: يَوْمَئِذ تَأتِيهُمُ السَّاعَةُ. والعامل في يَوْمَئِذٍ: تَأتِيهُمُ السَّاعَةُ[٢] والعامل في «يومئذ» لفظ «عدو»[٣] أي عَدَاوتهم في ذلك اليوم.

فصل

معنى الآية الأخلاء على المعصية في الدنيا يومَئِذٍ أي يوم القيامة «بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إلاَّ المتَّقِينَ» يعني المتحابين في الله على طاعة الله وهم الموحدون الذين يخالّ بعضهم بعضاً على الإيمان والتقوى فإن خلتهم لا تصير عداوة.

روى أبو ثَوْرٍ[٤] عن مَعْمَر[٥] عن قتادةَ عن أبي إسحاقَ[٦] أَنَّ عَلِيًّا (رضي الله عنه)[٧] قال: في الآية خليلان مؤمنان وخليلان كافران، فمات أحد المؤمنين فقال: يا رب إن فلاناً كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك، ويأمرني بالخَيْر، وينهاني عن الشر، ويخبرني أني مُلاَقِيكَ يا رب، فلا تُضِلَّهُ بعدي، واهْدِهِ كما هديتني وأَكْرِمْهُ كما أكْرَمتنِي، فإذا مات خليله المؤمن جمع (الله) بينهما فيقول (الله تعالى): لِيُثْنِ أَحَدُكُمَا على صاحبه فيقول: (يا رب)[٨] نعم الأخ، ونعم الخليلُ، ونعم الصاحبُ. قال: ويموت أحد الكافرين فيقول: يا رب إن فلاناً كان ينهاني عن ذاتك وطاعة رسولك ويأمرني بالشر، وينهاني عن الخير، ويخبرني أني غير ملاقيك فيقول: بئس الأخُ وبئس الخليلُ وبئس الصاحبُ[٩].

---

(١) انظر هذا في تفسير الرازي ٢٧/ ٢٢٣.

(٢) قال بهذا كله السمين في الدر المصون ٤/ ٧٧٩.

(٣) السابق وبه قال صاحب الكشاف قبلُ ٣/ ٤٩٥.

(٤) الأودي الحداني حبيب بن أبي مليكة، روى عن ابن مسعود، وعنه: الشعبي وثقه ابن حبان، وانظر الخلاصة ٤٤٦.

(٥) معمر بن راشد الأزدي مولى مولاهم عبد السلام بن عبد القدوس أبو عروة البصري ثم اليماني أحد الاعلام عن الزهري وهمام بن منبه وعنه أيوب والثوري مات سنة ١٥٣ انظر خلاصة الكمال ٣٨٤.

(٦) هو الثعلبي وقد ترجم له.

(٧) زيادة من أ.

(٨) ما بين الأقواس زيادة لتوضيح السياق كما في القرطبي.

(٩) انظر القرطبي ١٦/ ١٠٩ و ١١٠.

قوله «يَا عِبَادِي» قرأ أبو بكر عن عاصم: «يا عباديَ لاَ خَوْف» بفتح الياء. والأخوان وابن كثير وحفص بحذفها وصلاً ووقفاً[١]. والباقون بإثباتها ساكنة. وقرأ العامة: لاَ خَوْفٌ بالرفع والتنوين إما مبتدأ وإما اسماً لها وهو قليل. وابن مُحَيْصِن دون تنوين على حذف مضاف وانتظاره أي لا خَوْفَ شيءٍ[٢]. والحسنُ وابنُ أبِي إسْحَاقَ بالفتح على لا التبرئة[٣]، وهي عندهم أبلغ.

فصل

قد تقدم أن عادة القرآن جارية بتخصيص لفظ العباد بالمؤمنين المطيعين المتقين. وفيه أنواع كثيرة توجب الفرح:

أولها: أن الحق سبحانه وتعالى خاطبهم بنفسه من غير واسطةٍ.

وثانيها: أنه تعالى وصفهم بالعبودية من غير واسطة، وهذا تشريف عظيم، بدليل أنه تعالى لما أراد تشريف محمد ـ ﷺ ـ ليلة المعراج قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١].

وثالثها: قوله: «لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ» فنفى عنهم الحزن بسبب فوت الدنيا الماضية[٤].

قوله: «الَّذِينَ آمَنُوا» يجوز أن يكون نعتاً لِعبَادِي، أو بدلاً منه، أو عطف بيان لله، أو مقطوعاً منصوباً بفعل أي أعْنِي الذين آمنوا.

أو مرفوعاً بالابتداء وخبره مضمر، تقديره يقال لهم: ادْخُلُوا[٥].

فصل

قال مقاتل: إذا وقع الخوف يوم القيامة نادي مُنَادٍ: يا عبادي لا خوف عليكم اليوم. فإذا سمعوا النداء رفع الخلائق رُؤوسهم فيقال: «الَّذِين آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ» فينكس أهل الأديان الباطلة رؤوسهم فيمر حسابهم على أحسن الوجوه ثم يقال لهم:

---

(١) انظر معاني الفراء ٣/ ٣٧ والسبعة ٥٨٨ والإتحاف ٣٨٦ وهي قراءة متواترة.

(٢) ذكرها أبو حيان في البحر المحيط ٨/ ٢٦.

(٣) انظر المرجع السابق، والإتحاف ٣٨٦.

(٤) انظر تفسير الرازي ٢٧/ ٢٢٥.

(٥) قال بهذه الأوجه كلها السمين في الدر المصون ٤/ ٧٧٩، وبالأول الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٩٥ وأبو حيان في البحر ٨/ ٢٥ والزجاج في معاني القرآن وإعرابه ٤/ ٤١٩ ونقله القرطبي ١٦/ ١١١ كما نقل الأخير وزاد قال: وقيل: «الذين آمنوا» خبر لمبتدأ محذوف أو ابتداء وخبره محذوف تقديره: هم الذين آمنوا أو الذين آمنوا يقال لهم: ادخلوا الجنة. انظر الجامع ١٦/ ١١١.

«ادْخُلُوا الجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأزواجُكم تُحْبَرُونَ» تُسَرُّونَ وتُنعمُونَ والحبرةُ المبالغةُ في الإكرام على أحسن الوجوه[١] وتقدم تفسيره في سورة الروم.

قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِن ذَهَبٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

قوله: «يُطَافُ عَلَيْهِمْ» قبله محذوف أي يَدْخُلُونَ (و) يُطَافُ[٢]. والصِّحَافُ جمع صَحْفَةٍ كجَفْنَةٍ وجِفَانٍ؛ قال الجوهريُّ: الصحْفَةُ كالقَصْعَةِ[٣]. وقال الكسائي: أعظم القِصَاع الجَفْنة، ثم القَصْعَة تشبعُ العشرة، ثم الصحفة تشبع الخمسة، ثم المَكِيلَةَ تشبع الرجلين والثلاثة (ثم الصحيفة تشبع الرجل)[٤]. والصحيفة الكتاب والجمع صُحُفٌ وصَحَائِفُ. وأمال الكسائي ـ في رواية[٥] ـ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ.

«وأكواب» جمع كُوب، وهو إناء مستدير مدوَّر الرأس لا عُرى له[٦]. وقيل: هو كالإبريق إلا أنه لا عروة له[٧]. وقيل: إنه ما لا خرطوم[٨] له. وقيل: إنه لا خرطوم له ولا عروة[٩] معاً. قال الجواليقي: ليتمكن الشارب من أين شاء، فإن العُرْوَةَ تمنع من ذلك[١٠]، وقال عديّ:

٤٤١٧ ـ مُتَّكِئاً تَصْفِقُ أَبْوَابُه يَطُوفُ عَلَيْهِ العَبْدُ بالكُوبِ[١١]

والتقدير: وأكواب من ذهب. فقوله: «يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ» إشارة إلى المطعوم، وقوله: «وَأَكْوَابٍ» إشارة إلى المشروب. ثم إنه تعالى لما ذكر التفصيل ذكر بياناً كلياً فقال: «وَفِيهَا مَا تَشْتَهِي الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ» أي في الجنة.

---

(١) قاله الرازي ٢٧/ ٢٢٥.
(٢) انظر التبيان ١١٤١ قال: «تقدير الكلام: يدخلون فيطاف فحذف لفهم المعنى».
(٣) انظر صحاح الجوهري ٤/ ١٣٨٤ صحف.
(٤) زيادة من القرطبي على نص الكسائي. وانظر اللسان صحف (١٤٠٥) والقرطبي ١٦/ ١١٣ بتصحيح لفظ مِثكلة وليس مكيلة.
(٥) وهي رواية أبي الحارث عنه انظر مختصر ابن خالويه ١٣٧.
(٦) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه ٤/ ٤١٩ والمعاني ٣/ ٣٧.
(٧) نقله السمين في الدر المصون ٤/ ٧٩٩.
(٨) هو رأي أبي عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٢٠٦.
(٩) نقله القرطبي في تفسيره ١٦/ ١١٤.
(١٠) نقله تلميذه ابن الجوزي، زاد المسير ٧/ ٣٢٨.
(١١) من بحر السريع وورد في الفراء: يسقى ورواية اللسان يسعى، وصفق وأصفق من الأضداد بمعنى الغلق والفتح والمراد في البيت الفتح. وانظر القرطبي ١٦/ ١١٤ ومعاني الفراء ٣/ ٣٧ ومجاز القرآن ٣/ ٢٠٦ واللسان صفق ٢٤٦٥ وكوب ٣٩٥١ والدر المصون ٤/ ٨٠٠.

قوله: «مَا تَشْتَهِي الأَنْفُسُ» قرأ نافع وابن عامر وحفص تَشْتَهِيهِ[١] بإثبات العائد على الموصول، كقوله: كـ ﴿ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [البقرة: ٢٧٥]. والباقون بحذفه كقوله: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١]. وهذه القراءة شبيهة بقوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ [يس: ٣٥]. وقد تقدم في يسٓ. وهذه الهاء في هذه السورة رسمت في مصاحف المدينة والشام وحذفت من غيرها[٢].

وقد وقع لأبي عبد الله الفاسي[٣] شارح القصيدة[٤] وَهَم فسبق قلمه فكتب والهاء منه محذوفة في مصاحف المدينة والشام ثابتة في غيرهما[٥] أراد أن يكتب ثابتة في مصاحف المدينة والشام محذوفة من غيرهما فعكس. وفي مصحف عبد الله: تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّهُ الأعيُنُ بالهاء فِيهِمَا[٦].

فصل

روي أن رجلاً قال يا رسول الله (هل) في الجنة خَيْلٌ؟ فإني أُحب الخيل فقال: إن يُدْخِلْكَ الله الجنة فلا تشاء أن يركبك فرساً من ياقوتة حمراء فتطير بك في أي الجنة شئت إلا فَعَلْتَ. فقال أعرابي يا رسول الله: أفي الجنة إبل؟ فإني أحب الإبل فقال يا أعرابي: إنْ أَدْخَلَكَ الله الجنَّة أَصَبْتَ فيها ما اشتهت نفسك ولَذَّتْ عَيْنُك[٧].

قوله (تعالى)[٨]: ﴿وَتِلْكَ الجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قد تقدم الكلام في معنى وراثة الجنة عند قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ [المؤمنون: ١٠ ـ ١١] ولما ذكر الطعام والشراب ذكر الفاكهة فقال: «لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ» جاء في الحديث: «لاَ يَنْزِعُ رَجُلٌ من الجَنَّةِ من ثَمَرةٍ إلاَّ نَبَتَتْ مكانَها مِثْلاَها»[٩]. واعلم أنه تعالى لما بعث محمداً ـ ﷺ ـ أولاً إلى العرب ثم إلى العالمين، وكانت العرب في ضيق شديد بسبب المأكول، والمشروب والفاكهة، فَلِهذا ذكر الله تعالى هذه المعاني

---

(١) السبعة ٥٨٨. (٢) قاله أبو زكريا الفراء في معاني القرآن ٣/ ٣٧.

(٣) محمد بن عبد السلام العربي ابن يوسف فقيه مقرىء، عارف بالعربية، شرح لامية الأفعال لابن مالك مات سنة ١٢١٤ هـ، الأعلام ٧/ ٧٧ و ١٠/ ٢٠٦.

(٤) هي قصيدة الشاطبية وتسمى حِرْزَ الأماني للإمام أبي القاسم بن فيرة بن خلف الرعيني الأندلسي الشافعيّ الضرير وانظر لطائف الإشارات ١/ ٨٩.

(٥) انظر الدر المصون ٤/ ٨٠٠ واللآلىء الفريدة في شرح القصيدة: ٣٧٣.

(٦) معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٧.

(٧) بالمعنى من الدر المنثور ٧/ ٣٩٢ فقد أخرجه ابن أبي شيبة وابن مردويه عن بريدة وانظر القرطبي ١٦/ ١١٤.

(٨) مزيد من أ.

(٩) بالمعنى من الدر المنثور للسيوطي ٧/ ٣٩٢ بإخراج ابن أبي شيبة عن عمر بن قيس.

مرة بعد أخرى تكميلاً لرغباتهم، وتقوية لدواعيهم. و «مِنْ» في قوله: «مِنْهَا تَأْكُلُونَ» تبعيضية[١]، أو ابتدائية[٢]. وقدم الجار لأجل الفاصِلَة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**إِنَّ المُجْرِمِينَ**﴾ أي المشركين «فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ» لما ذكر الوعد أردفه بالوعيد على الترتيب المستمر في القرآن. واحتج القاضي على القطع بوعيد الفساق بهذه الآية فقال: لفظ المجرم يتناول الكافر والفاسق، فوجب كون الكل في عذاب جهنم.

وقوله: «لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ»، و «خالدون» يدل على الخلود. والجواب: أن ما قبل الآية وما بعدها يدل على أن المراد من لفظ المجرم ههنا الكافر. فأما قبل الآية فقوله: يَا عِبَادِي لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُم الْيَوْم وَلاَ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا بآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ. وهذا يدل على أن كل من آمن بآياتِ الله وكان مسلماً، فإنه يدخل تحت قوله: «يَا عِبَادِي لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ» والفاسق من أهل الصلاة آمن بالله وآياته وأسلم فوجب أن يدخل تحت ذلك الوعد، وأن يخرج من هذا الوعيد. لكن وأما بعد الآية فقوله تعالى: ﴿**لقد جئناكم بالحق وأكثركم للحق كارهون**﴾ والمراد بالحقّ ههنا إما الإسلام وإما القرآن، والرجل المسلم لا يكره الإسلام ولا القرآن. فثبت أن ما قبل الآية وما بعدها يدل على أن المراد من المجرمين الكفار. والله أعلم[٣].

قوله: «لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ» جملة حالية وكذلك «وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسونَ»[٤] وقرأ عبد الله: «وَهُمْ فِيهَا»[٥] أي في النار لدلالة العذاب عليها. واعلم أنه قد تقدم أن الخلود عبارة عن طول المُكْث، ولا يفيد الدوام.

وقوله: «لاَ يفتَّرُ عَنْهُمْ» أي لا يخفف فلا ينقص من قولهم: فَتَرَتْ عَنْهُ الحُمَّى إذا سكَنَتْ ونقص حَرُّهَا[٦].

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٩٦.
(٢) قاله السمين في الدر المصون ٤/ ٨٠٠
(٣) انظر هذا في تفسير الرازي ٢٧/ ٢٢٦.
(٤) الدر المصون السابق.
(٥) قراءة شاذة غير متواترة ذكرها الفراء في معاني القرآن ٣/ ٣٧.
(٦) اللسان فتر (٣٣٤٠ و ٣٣٤١).

وقوله: «وهم فيه مبلسون» والمُبْلِسُ هو اليائس الساكت سكوت يائس من فَرَجٍ[١].
عن الضحاك: يُعقل المجرم في تابوت من نار، ثم يُقْفَلُ عليه فيبقى خالداً لا يرى ولا يرى.

قوله: «وَمَا ظلمناهم وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ» العامة على الياء خبراً لكان، و «هم» إما فصل[٢]، وإمَّا توكيد[٣]، وقرأ عبد الله[٤] وأبو زَيْدٍ[٥] النحويان: الظَّالِمُونَ[٦] على أنه مبتدأ و «الظالمون» خبره والجملة خبر كان. وهي لغة تميم[٧].

قال أبو زيد: سمعتهم يَقْرَأُونَ: ﴿تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وأَعْظَم أجراً﴾ [المزمل: ٢٠] بالرفع[٨]. وقال قيس بن ذُرَيْح (الشاعر)[٩]:

٤٤١٨ ـ تَحِنُّ إِلَى لَيلَى وَأَنْتَ تَرَكْتَهَا ... وَكُنْتَ عَلَيْهَا بالمَلاَ أَنْتَ أَقْدَرُ[١٠]

برفع «أقدر» و «أنت» فصل أو توكيد.

قال سيبويه: بلغنا أن رؤبة كان يقول: أَظُنُّ زَيْداً هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ[١١] يعني بالرفع.

فصل

احتج القاضي بقوله: «وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُم الظالِمينَ» فقال: إن كان خلق

---

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه ٤/ ٣١٩.

(٢) وكونه فصلاً أو عماداً صحيح، فالأول تسمية للبصرة والثاني للكوفة وسمي فصلاً، لأنه فصل بين التابع والخبر وعماداً لأنه يعتمد عليه معنى الكلام وفائدته التوكيد، ولهذا قال بعضهم: إنه لا يجامع التوكيد فلا يقال زَيْدٌ نَفْسُهُ هُوَ الفَاضِلُ. وفيه كلام ذكره ابن هشام في مغنيه ٤٩٣ ـ ٤٩٨.

(٣) وقال بهذا السمين ٤/ ٨٠١.

(٤) هو أبو بحر عبد الله بن أبي إسحاق الحَضْرَميّ البَصْري كان أول من علل النحو انظر غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزريّ ١/ ٤١٠ وقد مات هذا الرجل سنة ١١٧ هـ. وانظر أيضاً إنباه الرواة ٢/ ١٠٤.

(٥) هو سعيد بن أوس بن ثابت بن بشير بن أبي زيد، روى القراءة عن المفضل عن عاصم، وكان من جُلَّةِ أصحاب أبي عمرو من أعيان أهل النحو واللغة مات سنة ٢١٥ هـ. وانظر غاية النهاية ١/ ٣٠٥.

(٦) ذكرها ابن خالويه في مختصره (١٣٦) وذكرها القرطبي إجازة نحوية ولم يذكره قراءة.

(٧) أخبر بذلك أبو عمرو الجرمي أن لغة تميم جعل ما هو فصل عند غيرهم مبتدأ ويرفعون ما بعده على الخبر انظر البحر المحيط ٨/ ٢٢.

(٨) انظر المرجع السابق، والكتاب ٢/ ٣٩٢.

(٩) زيادة من أ الأصل.

(١٠) من الطويل له وقد روي ـ كما في الكتاب تبكي بدل تحِنّ، والمَلا ـ مقصوراً ـ الصَّحْراءُ وهو يتحسر على طلاقه لليلى وكان مفتوناً ومشغوفاً بها. والشاهد: أنت أقدر بفصل الضمير ورفعه وما بعده على الخبر على لغة تميم. وانظر الديوان ٣٣ والكتاب ٣/ ٢٩٢، وابن يعيش ٣/ ١١٢، والبحر المحيط ٨/ ٢٧ والدر المصون ٤/ ٨٠٢ واللسان (ملا) ٤٢٧٣.

(١١) الكتاب ٢/ ٣٩٢.

فيهم الكفر ليدخلهم النار فما الذي نفاهُ بقوله: «وَمَا ظَلمناهم (ولكن كانوا هم الظالمين)»؟ وما الذي نسبه إليهم مما نفاه عن نفسه؟ أو ليس لو أثبتناه لهم كان لا يزيد عما يقوله القوم؟ فإن قالوا ذلك الفعل لم يقع بقدرة الله عزّ وجلّ بل إنما وقع بقدرة الله مع قدرة العبد معاً فلم يكن ذلك ظلماً من الله تعالى: قلنا[١]: عندكم القدرةُ على الظلم موجبة للظلم، وخالق تلك القدرة هو الله تعالى، وكأنه تعالى لما فعل مع خلق الكفر قدرة على الكفر خرج من أن يكون ظلماً لهم، وذلك محال، لأن من يكون ظالماً في فعله إذا فعل معه ما يوجب ذلك الفعل يكون ذلك أحق فيقال للقاضي: قدرة العبد هل هي صالحة للطرفين أو هي متعيِّنة لأحد الطرفين؟ فإن كانت صالحة لكلا الطرفين فالترجيح إنْ وقع لا لمرجّح، لزم نفي الصانع، وإن افتقر إلى مرجِّح عاد التقسيمُ الأول، وأن ينتهي إلى داعية مرجحة يخلقها الله تعالى في العبد، وحينئذ يلزمك ما ألزمته علينا. وإن كانت تلك القدرة متعينة لأحد الطرفين فحينئذ يلزمك ما أوردته علينا. قال ابن الخطيب: وليس الرجل من يرى (وجه)[٢] الاستدلال فيذكره إنما الرجل مَنْ[٣] ينظر فيما قبل الكلام وفيما بعده، فإن رآه وارداً على مذهبه بعينه لم يَذْكره[٤].

قوله تعالى: ﴿**وَنَادَوْا يَا مَالِكُ**﴾ العامة من غير ترخيم. وعَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ، وعبدُ الله بن وثَّاب والأعمشُ يَا مَالِ «مرخَّماً»[٥] على لغة من ينتظر المحذوف. قيل لابن عباس: إن ابن مسعود قرأ: «وَنَادَوْا يَا مَالِ» فقال: ما أشغلَ أهل النار بالترخيم، وأجيب عنه: بأنه إنما حَسُنَ الترخيم لأنهم بلغوا من الضعف والنحافةِ إلى حيث لا يمكن أن يذكروا من الكملة إلا بعضها[٦]. وقرأ أبو السَّرار الغَنَوِيُّ: يَا مَالُ مَبْنِيًا على الضم على لغة من لا ينوي[٧].

فصل

روى ابن عباس ـ (رضي الله عنهما)[٨] ـ أن أهل النار يدعون مالكاً خازن النار يقولون: «لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ» لِيُمِتْنَا ربك فنستريح فيجيئهم مالك بعد ألف سنة «إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ» مقيمون في العذاب وعن عبد الله بن عمرو بن العاص يجيئهم بعد أربعين سنة وعن غيره مائة سنة[٩].

---

(١) هذا رد من الرازي على القاضي.
(٢) سقط من ب.
(٣) في ب ممن.
(٤) انظر هذا كله في تفسير الرازي ٢٧/٢٢٧.
(٥) ذكرها أبو الفتح بن جني في المحتسب ٢/٢٥٧ قال: هذا المذهب المألوف في الترخيم إلا أن فيه في هذا الموضع سرًّا جديداً، وذلك أنهم لعظم ما هم عليه ضعفَتْ قواهم وذلّت أنفسكم وصغر كلامهم فكان من مواضع الاختصار ضرورة عليه ووقوفاً دون تجاوزه.
(٦) الرازي ٢٧/٢٢.
(٧) الكشاف ٣/٤٩٩ وابن خالويه ١٣٦.
(٨) زيادة من أ.
(٩) القرطبي ١٦/١١٧.

فصل

اختلفوا في أن قولهم: يا مالك ليقضي علينا ربك على أي الوجوه طلبوه؟ فقال بعضهم: على التمني. وقال آخرون: على وجه الاستغاثة، وإلا[١] فهم عالمون بأنه لا خلاص لهم من ذلك العقاب. وقيل: لا يبعد أن يقال: إنهم لشدة ما هم فيه نَسُوا تلك المسألة تذكره[٢] على وجه الطلب. ثم إنه تعالى بين أن مالكاً يقول لهم: «إنكم ماكثون» وليس في القرآن متى أجابهم، هل أجابهم في الحال أو بعد ذلك بمدة؟ ثم إنه تعالى ذكر بعد ذلك ما هو كالعلة لذلك الجواب فقال: «لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بالْحَقِّ وَلكِنَّ أَكْثَركُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ» والمراد نُفْرَتُهُمْ عن محمد ـ ﷺ ـ وعن القرآن، وشدّة بغضهم لقبول الدين الحق.

فإن قيل: كيف قال: «وَنَادَوْا يَا مَالِكُ» بَعْدَ مَا وَصَفَهُمْ بالإِبْلاَسِ؟

فالجواب: أنها أزمنةٌ متطاولة، وأحقابٌ ممتدة فتختلف بهم الأحوال فَيسْكُنُونَ أوقاتاً لغلبة اليأس عليهم ويستغيثون أوقاتاً لشدة ما بهم. روي أنه يُلْقَى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب فيقولون: ادعوا مالكاً فَيَدْعُونَ يا مالكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ.

ولما ذكر الله تعالى كيفيةَ عذابهم في الآخرة، ذكر بعده كيفية مكرهم، وفساد باطنهم في الدنيا فقال: «أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً» أي أحكموا[٣] أمراً في المكر برسول الله ـ ﷺ ـ يعني مشركي مكة «فإنَّا مُبْرِمُونَ» محكمون أمراً في مجازاتهم أي مبرمون كيدنا كما أبرموا كيدهم كقوله تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ [الطور: ٤٢]. قال مقاتل: نزلت في تدبيرهم في المكر في دار الندوة وقد تقدم في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ . . .﴾ [الأنفال: ٣٠] الآية[٤]. قوله: «أَمْ أَبْرَمُوا» أم منقطعة. والإبرام الإتقان وأصله في الفتل يقال: أَبْرَمَ الحَبْلَ، أي أَتْقَنَ فَتْلَهُ وهو الفَتْلُ الثاني، والأول يقال له: سَحِيلٌ[٥] قال زهير:

٤٤١٩ ـ لَعَمْرِي لَنِعْمَ السَّيِّدَانِ وُجِدتُّمَا عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَحِيلٍ ومُبْرَمِ[٦]

قوله تعالى: **﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾** السر ما حدث الرجل به

---

(١) كذا في الرازي وفي ب فإنهم. (٢) في ب والرازي: فذكروه.

(٣) قاله ابن قتيبة في غريب القرآن ٤٤٠ وأبو عبيدة في مجازه ٢/ ٢٠٦.

(٤) انظر في هذا الماضي تفسير الإمام الرازي ٢٧/ ٢٢٧ و ٢٢٨.

(٥) انظر مادتي برم وسحل من اللسان ٢٦٩ و ١٩٥٧ وانظر أيضاً معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٢٠.

(٦) من الطويل من معلقته المشهورة وهو يمدح هَرِم بن سِنان والحارث بن عوف والمعنى فيه على الاستعارة. والشاهد: من سَحِيل ومُبرَم فإن الشاعر يقصد معنى آخر واستعار هذين اللفظين المَحْسُوسَيْنِ وانظر السبع الطوال ٢٦٠ والهمع ٢/ ٤٢ والخزانة ٣/ ٣ و ٢٠ و ٩/ ٣٨٧ وشرح المعلقات السبع للزوزني والسراج المنير ٣/ ٧٥ والقرطبي ١٦/ ١١٨ والدر المصون ٤/ ٨٠٢ والديوان ١٤.

نفسه أو غيره في مكان والنجوى ما تكلموا به فيما بينهم «بَلى» نسمع ذلك «و» نَعْلَمُ «رُسُلُنا» أي الحفظة «لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ» أي يكتبون عليهم جميع أحوالهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

قوله تعالى: **﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرحمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ العَابِدِينَ﴾**. قوله «إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ» قيل: هي شرطية على بابها، واختلف في تأويله، فقيل: إن صح ذلك فأنا أول من يعبده، لكنه لم يصح ألبتة بالدليل القاطع، وذلك أنه علق العبادة بكَيْنُونَة الولد، وهي محالٌ في نفسها، فكان المعلق بها محالاً مثلها. فهو في صورة إثبات الكينونة والعبادة وفي معنى نفيهما على أبلغ الوجوه وأقواها. ذكره الزمخشري(١).

وقيل: إن كان له ولد في زعمكم فأنا أول العابدين أي الموحِّدين لله، المكذبين لهذا القول(٢).

واعلم أن هذا التأويل فيه نظر، سواء أثبتوا لله ولداً، أو لم يُثْبِتُوا له، فالرسول منكر لذلك الولد، فلم يكن لزعمهم تأثير في كون الرسول منكراً لذلك الولد، فلم يصلح جعل زعمهم إثبات الولد مؤثراً في كون الرسول منكراً للولد. وهذا التأويل قاله الواحدي(٣).

وقيل: العابدين بمعنى الأَنِفِين، من عَبِدَ يَعْبَدُ إذا اشْتَدَّ أنفه فهو عَبِدٌ وعَابِدٌ(٤)، ويؤيده قراءة السُّلَمِيِّ واليَمَانِيِّ: العَبِدِينَ دون ألف(٥). وحكى الخليل(٦) قراءة غريبة وهي

(١) الكشاف ٣/ ٤٩٧ وانظر الدر المصون ٤/ ٨٠٢.

(٢) وهذا رأي الواحدي فيما نقله الرازي في تفسيره عنه قال: «والأقوى أن يقال: المعنى إن كان للرحمن ولد في زعمكم فأنا أول العابدين أي الموحدين لله المكذبين لقولكم». انظر الرازي ٢٧/ ٢٣١.

(٣) المرجع السابق.

(٤) الكشاف ٣/ ٤٩٧، وغريب القرآن للسجستاني ٢٢٥، والرازي السابق.

(٥) نقلها ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٥٧ قال: معناه والله أعلم أول الآنفين يقال: عَبِدْتُ من الأمر أعبد عَبَداً أي أنفت. وحكاه أبو عبيدة في المجاز ٢/ ٢٠٧ وقد أنكر هذه القراءة الإمام أبو منصور الأزهريّ في التهذيب ٢/ ٢٣٨.

(٦) فيما نقله عنه أبو حيان في البحر المحيط ٨/ ٢٨ ولم أجدها في معجمه العين ولا فيما نقلت عنه.

العَبْدين بسكون الباء وهي تخفيف قراءة السلمي، فأصلها بالكسر.

قال ابن عرفة: يقال: عَبِدَ بالكسر ـ يَعْبَدُ ـ بالفتح ـ فهو عَبِدٌ. وقلَّ ما يقال: عابد والقرآن لا يجيء على القليل أو الشاذ(١) يعني تخريج من قال: إن العابدين بمعنى الأَنِفِينَ(٢) لا يصح، ثم قال كقول مجاهد(٣). وقال الفرزدق:

٤٤٢٠ ـ أُولَئِكَ آبَائِي فَجِئْنِي بِمِثْلِهِمْ وَأَعْبَدُ أَنْ أَهْجُو كُلَيْباً بِدَارِمِ(٤)

وقال آخر:

٤٤٢١ ـ مَتَى مَا يَشَأْ ذُو الوُدِّ يَصْرِمْ خَلِيلَهُ وَيَعْبَدْ عَلَيْهِ لاَ مَحَالَةَ ظَالِمَا(٥)

قال ابن الخطيب: وهذا التعليق أيضاً فاسد؛ لأن هذه الأنفة سواء حصل ذلك الزعم والاعتقاد أو لم يحصل(٦).

وقال أبو عبيدة: معناه الجاحدين، يقال: عَبَدَنِي حَقِّي(٧)، أي جَحَدَنِيهِ. وقال أبو حاتم: العَبِدُ ـ بكسر الباء ـ الشديدُ الغَضَب(٨)، وهو معنى حسن، أي إن كان له ولد على زعمكم فأنا أول من يغضب لذلك.

وقيل: «إنْ» نافية؛ أي ما كان ثم أخبر بقوله: «فَأَنَا أَوَّل العَابِدِينَ» أي الموحدين من أهل مكة أن لا ولد له وتكون الفاء سببية(٩). ومنع مكي أن تكون نافية. قال: «لأنه يوهم أنك إنما نفيت عن الله الولد فيما مضى دون ما هو آت، وهذا محال»(١٠). ورد عليه بأن

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٨ والقرطبي ١٦/ ١٢٠.

(٢) وهو ابن عباس انظر المحتسب ٢/ ٢٥٨.

(٣) يعني أول من عبده وحده على أنه لا ولد له انظر القرطبي المرجع السابق.

(٤) ورد البيت بروايات مختلفة فالرواية الأعلى هي رواية أبي حيان في البحر ٨/ ٢٨ والدر المصون ٤/ ٨٠٣ وهو من الطويل له وفي رواية القرطبي: أولئك أجلاس، و: أولئك ناس إن هجوني هجوتهم.. وأعبد أن يهجى كليب، وفي المجاز: أولئك قوم إن هجوني وأعبد أن أهجو عبيداً. ورواية اللسان كالمجاز وفي المحتسب تُهجى كليبٌ والبيت على اختلاف تلك الروايات ليس بالديوان بالمرة. وشاهده: أن أعْبَدَ بمعنى آنف وانظر المجاز ٢/ ٢٠٦ والقرطبي ١٦/ ١٢٠ والدر المصون ٤/ ٨٠٣ واللسان (عبد) والمحتسب ٢/ ٢٥٨ والمفضليات ٥٠٢.

(٥) من الطويل للمرقش الأصغر، من قصيدة له رواه صاحب المفضليات ٥٠٢ وانظر الدر المصون ٤/ ٨٠٤، والطبري ٢٥/ ٦١. والشاهد: يعبد فإن معناها يغضب.

(٦) التفسير الكبير له ٢٧/ ٢٣١.

(٧) قال: «أي الكافرين بذلك، والجاحدين لما قلتم وهي عبد يعبد عبداً» المجاز ٢/ ٢٠٧.

(٨) البحر المحيط ٨/ ٢٨.

(٩) نقل هذا القول وأقوالاً أخر ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٥٨ والقرطبي في الجامع ١٦/ ١٢١٩ عن الحسن والسدي وابن عباس وانظر البيان ٢/ ٣٥٥.

(١٠) لم أعثر لمكي على هذا القول الذي أتى به المؤلف الذي نقله عن أبي حيان، فقد جعل مكي «ما»=

«كَانَ» قد تدل على الدوام. كقوله: «وَكَانَ اللَّهُ غَفوراً رَحِيماً» إلى ما لا يحصى[١]. والصحيح من مذاهب النحاة أنها لا تدل على الانقطاع والقائل بذلك يقول ما لم تكن قرينة كالآيات المذكورة[٢].

وروي عن عبد الله بن عباس ـ (رضي الله عنهما)[٣] ـ أن المعنى ما كان للرحمن ولدٌ فأنا أول العابدين الشاهدين له بذلك، جعل «إنْ» بمعنى الجَحْد، وقال السدي معناه: ولو كان للرحمن ولد فأنا أول من عبده بذلك ولكن لا ولد له[٤]. وتقدم الخلاف في قراءتي «وَلَد» و «ولد» في مَرْيَمَ[٥]. ثم إنه تعالى نزه نفسه فقال: «سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوات وَالأَرْضِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ» أي عما يقولون من الكذب وذلك أن إله العالم يجب أن يكون واجب الوجود لذاته، وكلّ ما كان كذلك فهو لا يقبل التَّجْزِيءَ بوجه من الوجوه، والولد عبارة أن ينفصل عن الشيء جزءٌ فيتولد عن ذلك الجزء شخص مثله، وهذا إنما يعقل فيما تكون ذاته قابلة للتَّجزِيء والتبعيض، وإذا كان ذلك مُحَالاً في حق إله العالم امتنع إثباتُ الولد.

ولما ذكر هذا البرهان القاطع قال: «فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا» أي يخوضوا في باطلهم، ويلعبوا في دنياهم «حتّى يُلاَقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ» يعني يوم القيامة. والمقصود منه التهديد، يعني قد ذكرت الحجة على فساد ما ذكروا، فلم يلتفتوا إليها، لأجل استغراقهم في طلب المال والجاه، والرياسة، فاتركهم في ذلك الباطل، واللعب حتى يصلوا إلى ذلك اليوم الموعود[٦].

قوله: «يُلاَقُوا» قراءة العامة من المُلاَقَاةِ. وابنُ مُحَيْصِن ويروى عن أبي عمرو «يَلْقُوا» من «لَقِيَ»[٧]. قوله (تعالى)[٨]: ﴿وَهُو الَّذِي فِي السَّمَاء إلهٌ﴾ «في السماء» متعلق

= نافية، والعابدين من العبادة وإنما هذا الذي نقله المؤلف للطبريّ انظر المشكل ٢/ ٢٨٤ وجامع البيان ٢٥/ ٦١.

(١) البحر ٨/ ٣٨ و ٣٩.
(٢) انظر الدر المصون ٤/ ٨٠٤.
(٣) زيادة من أ.
(٤) انظر القرطبي ١٦/ ١١٩.
(٥) يقصد قوله: «مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ ولدٍ سُبْحَانَهُ» ٣٥ منها فقد قرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح اللام والواو إلا في نوح فقرأها بالضم، ونافع وعاصم وابن عامر بالفتح مفرداً كأسد في كل القرآن وحمزة والكسائي بضم الواو وسكون اللام جمعاً كأسد، وانظر في هذا السبعة لابن مجاهد ٢١٤ وإبراز المعاني ٥٨٥ والإتحاف ٣٠١.
(٦) انظر تفسير الرازي ٢٧/ ٢٣١.
(٧) ذكرها أبو حيان وابن خالويه عن أبي جعفر وابن محيصن فقط انظر البحر المحيط ٨/ ٢٩ ومختصر ابن خالويه ١٣٦ ويبدو أن هذه القراءة من الشواذ فلم أجدها في المتواتر عن أبي عمرو قراءةً ونسبةً إلا في الدر المصون ٤/ ٨٠٤ بضبط من أعلى بالتاء، بينما قال أبو حيان في البحر: «وعُبَيْد بن عقيل عن أبي عمرو يَلْقُوا».
(٨) زيادة من ب.

بـ «إله» لأنه بمعنى معبود في السماء معبود في الأرض، وحينئذ فيقال: (إنَّ)[١] الصلة لا تكون إلا جملة، أو ما[٢] في تقديرها وهو[٣] الظرف وعديله[٤]. ولا شيء منها هُنَا.

والجواب: أن المبتدأ حذف لدلالة المعنى عليه، ولأن المحذوف هو العائد، تقديره: وَهُوَ الَّذِي هُوَ فِي السَّمَاءِ إِلهٌ، وَهُوَ فِي الأَرْضِ إِلَهٌ، وإنما حذف لطول الصلة بالمعمول، فإن الجار متعلق «بإِلَهٍ» ومثله: مَا أَنَا بالَّذِي قَائِلٌ لَكَ سُوءاً[٥] وقال أبو حيان: وحسنه طوله بالعطف عليه كما حسن في قولهم: «قَائِلٌ لَكَ شَيْئاً» طولُه بالمعمول[٦].

قال شهاب الدين: حصوله في الآية، وفيما حكاه سواء، فإن الصلة طالت بالمعمول في كليهما والعطف أمر زائدٌ على ذلك، فهو زيادة في تحسين الحذف[٧]. ولا يجوز أن يكون الجارُ خبراً مقدماً و «إله» مبتدأ مؤخراً، لئلا تَعْرَى الجملةُ من رابطٍ؛ إذ يصير نظير «جَاءَ الَّذِي فِي الدَّارِ زَيْدٌ» فإن جعلت الجار صِلةً، وفيه ضمير عائد على الموصول وجعلت «إله» بدلاً منه، فقال أبو البقاء: «جاء على ضعفه؛ لأن الغرض الكلي إثبات الإلهية، لا كونه في السموات والأرض فكان يفسد أيضاً من وجه آخر، وهو قوله: «وَفِي الأَرْضِ إِلٰه»؛ لأنه معطوف على ما قبله، وإذا لم يقدر ما ذكرنا صار منقطعاً عنه، وكان المعنى أنه في الأرض إله». انتهى[٨].

وقال أبو علي: نظرت فيما يرتفع به «إله» فوجدت ارتفاعه يصح بأن يكون خبر مبتدأ محذوف، والتقدير هُوَ الَّذِي في السماء هُو إله[٩]. وقال أبو حيان: ويجوز أن تكون الصلة الجار والمجرور، والمعنى أنه فيهما بإلهيَّته، ورُبُوبيَّته؛ إذ يستحيل حمله على الاستقرار[١٠]، وقرأ عُمَرُ، وعَلِيٌّ، وعبدُ الله في جماعةٍ وهو الذي في[١١] السماء اللَّهُ ضمَّن العلم أيضاً معنى المشتق فيتعلق به الجار ومثله: هُوَ حَاتِمٌ فِي طَيِّىءٍ. أي الجواد فيهم. ومثله: فرعونُ العَذَابُ[١٢].

(١) لفظ «إنَّ» أيضاً زيادة من نسخة ب.
(٢) في ب وما في.
(٣) وفيها: وهي.
(٤) مساويه وهو الجار والمجرور.
(٥) أخذ المؤلف هذا الكلام عن الدر المصون ٤/ ٨٠٤، ٨٠٥، الذي أخذه هو الآخر عن الكشاف للزمخشري ٣/ ٤٩٨ مجملاً، فقد قال: «والراجع إلى الموصول محذوف لطول الكلام كقولهم مَا أنا بالذي قائل لك شيئاً، وزاده طولاً أن المعطوف داخل في حيز الصلة».
(٦) البحر المحيط ٨/ ٢٩.
(٧) الدر المصون ٤/ ٨٠٥.
(٨) التبيان لأبي البقاء العكبري ١١٤٢ وانظر الدر المصون السابق والكشاف ٣/ ٣٩٨، والبحر المحيط ٨/ ٢٩.
(٩) تفسير الرازي ٢٧/ ٢٣٢ والقرطبي ١٦/ ١٢١.
(١٠) البحر المحيط ٨/ ٢٩.
(١١) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٩٧ و ٤٩٨ ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤/ ٤٢١ ومختصر ابن خالويه ١٣٦ وهي شاذة غير متواترة.
(١٢) نقله عن الزمخشري بتصرف فقال: «ضمن اسمه تعالى معنى وصف فلذلك غلف به الظرف في=

فصل

قال ابن الخطيب: وهذه الآية من أدل الدلائل على أنه تعالى غير مستقر في السماء لأنه تعالى بين في هذه الآية أن نسبته بإلهية السماء كنسبته إلى الأرض، فلما كان إلهاً للأرض مع أنه غير مستقر فيها فكذلك وجب أن يكون إلهاً للسماء مع أنه لا يكون مستقراً فيها.

فإن قيل: أيُّ تعلق لهذا الكلام بنفي الولد عن الله عزّ وجلّ؟

فالجواب: تَعَلُّقُه به أنه تعالى خلق عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ بمحض كُنْ فَيَكُون من غير واسطة النطفة والأب[١] فكأنه قيل: إن كان هذا القدر[٢] لا يوجب كون عيسى ولداً للَّهِ عزّ وجلّ؛ لأن هذا المعنى حاصل في تخليق السموات والأرض مع انتفاء حصول الولد به هناك. ثم قال: «وَهُوَ الحَكِيمُ العَلِيمُ» الحكيم في تدبير خلقه العليم بِمَصَالِحِهِمْ. وقد تقدم في سورة الأنعام أن كونه حكيماً عليماً ينافي حصول الولد له.

قوله: «تَبَارَكَ» إما أن يكون مشتقاً من وجوب البقاء، وإما من كثرة الخير، وعلى التقديرين فكل واحد من الوجهين ينافي كون عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ واجبَ البقاء والدوام؛ لأنه حدث بعد أنْ لَمْ يَكُنْ ثم عند النصارى أنه قُتل ومَاتَ ومن كان كذلك لم يكن بينه وبين الباقي الأزلي الدائم مجانسة ومشابهة فامتنع كونه ولداً له، وإن كانَ المرادُ بالبركة كثرةَ الخيرات مثل كونه خالقاً للسموات والأرض وما بينهما فَعِيسى لم يكن خالقاً لهما مع أن اليهود عندهم أخذوه وقتلوه وصلبوه، والذي هذا صفته كيف يكون ولداً لمن كان خالقاً للسَّمَوات والأرض وما بينهما؟ ثم قال: «وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ» والمقصود منه التنبيه على أن كل من كان كاملاً في الذات، والعلم، والقدرة على الوصف المشروح فإنه يمتنع[٣] أن يكون ولده في العجز وعدم القدرة عن أحوال العالم[٤] بالحد الذي وصفته النصارى به[٥].

قوله: «وإلَيْهِ تُرْجَعُونَ» قرأ الأَخَوانِ، وابنُ كثير بالياء من تحت، والباقون بالتاء من فوق[٦] وهو في كلاهما مبني للمفعول. وقرىء بالخطاب مبنياً للفاعل[٧].

= قوله: فِي السَّمَاءِ وفي الأرض، كما تقول حَاتِم في طيىء، حَاتم في تغلب». الكشاف ٣/ ٤٩٧.

(١) في النسختين والآن والتصويب من الرازي.

(٢) كذا في الرازي وفي ب القيد. (٣) في ب ممتنع بلفظ الاسمية.

(٤) كذا في النسختين وفي الرازي: وعدم الوقوف على أحوال العالم على الحد الذي وصفه...

(٥) انظر تفسير الرازي ٢٧/ ٢٣٢.

(٦) من متواتر القراءات ذكرها ابن مجاهد في السبعة ٥٨٩ والبناء في الإتحاف ٣٨٧، والكشاف ٢/ ٢٦٢.

(٧) لم ينسبها صاحب البحر ٨/ ٢٩ ونسبها صاحب الإتحاف إلى يعقوب ٣٨٧ وكذلك نسبها ابن الجزري في النشر إليه. انظر النشر ٢/ ٣٧٠ فهي إذَنْ من المتواتر.

قوله: «وَلاَ يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ» قرأ العامة يدعون بياء الغيبة، والضمير للموصول. والسُّلَمِيُّ وابنُ وَثَّاب بتاء الخطاب(١). والأَسْودُ بنُ يَزِيدَ(٢) بتشديد الدال، ونقل عنه القراءة مع ذلك بالياء والتاء(٣).

وقوله: «إلاَّ مَنْ شَهِدَ بالْحَقِّ» فيه قولان:

أحدهما: أنه متصل، والمعنى إلا من شَهِدَ بالحَقِّ، كعُزَيْرٍ، والملائكة فإنهم يملكون الشفاعة بتمليك الله إياهم لها(٤) وقيل: هو منقطع بمعنى أن هؤلاء لا يشفعون إلا فيمن شهد بالحق أي لكن من شهد بالحق يشفع فيه هؤلاء كذا قدروه(٥). وهذا التقدير يجوز فيه أن يكون الاستثناءُ متصلاً على حذف المفعول تقديره: ولا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ فِي أَحَدٍ إلاَّ فِيمَنْ شَهِدَ(٦).

فصل

ذكر المفسرون قولين في الآية:

أحدهما: أن الذين يدعون من دونه الملائكة وعيسى، وعزير، لا يشفعون إلا لمن شهد بالحق.

الثاني: رُوِيَ أن النضْرَ بْنَ الحَارِثِ ونفراً معه قالوا: إن كان ما يقوله محمدٌ حقاً فنحن نتولى الملائكة فهم أحق بالشفاعة من مُحَمَّدٍ، فأنزل الله تعالى هذه الآية، والمعنى لا يقدر هؤلاء أنْ يشفعوا لأحد.

ثم استثنى فقال: إلاَّ من شهد بالحق أي الملائكة وعِيسَى وعُزير، فإنهم يشفعون. فعلى الأول: تكون «من» في محل جر، وعلى الثاني تكون «من» في محل رفع. والمراد بشهادة الحق قول: لا إله إلا الله كلمة التوحيد «وهم يَعْلَمُونَ» بقلوبهم ما شهدوا به بألسنتهم(٧).

قوله تعالى: **﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ الله...﴾** الآية ظن قوم أن هذه الآية

---

(١) شاذة غير متواترة ابن خالويه ١٣٦.

(٢) ابن قيس بن يزيد أبو عمرو النخعي الكوفي الإمام الجليل. قرأ على عبد الله بن مسعود، وروى عن الخلفاء الأربعة وقرأ عليه النخعي مات سنة ٧٥ هـ. انظر غاية النهاية ١/ ١٧١.

(٣) البحر ٨/ ٢٩ وابن خالويه ١٣٦.

(٤) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٩٨ ونقله عنه أبو حيان في البحر ٨/ ٢٩.

(٥) هذا التقدير نقله أبو حيان عن مجاهد وغيره انظر البحر المحيط المرجع السابق، والكشاف ٣/ ٤٩٨ والقرطبي ١٦/ ١٢٢.

(٦) قاله أيضاً أبو حيان في بحره المرجع السابق، وانظر في هذا كله الدر المصون للسمين ٤/ ٨٠٦.

(٧) وانظر تفسير الرازي ٢٢/ ٢٣٢ و ٢٣٣ والقرطبي ١٦/ ١٢٢.

وأمثالها في القرآن تدل على أن القوم مضطرونَ إلى الاعتراف بوجود الإله قال الجبائي: وهذا لا يصح لأن قوم فرعون قالوا: لا إله (لهم)[١] غيره. وقوم إبراهيم قالوا: إنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إلَيْهِ (مُرِيبٍ)[٢].

وأجيب: بأنا لا نسلم أن قوم فرعون كانوا منكرين لوجود الإله، بدليل قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] وقال موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢] على قراءة من فتح التاء من «عَلمتَ»[٣] وهذا يدل على أن فرعون كان عارفاً بالله. وأما قول قوم إبْراهيم ـ (عليه الصلاة[٤] والسلام) ـ: «وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونا إلَيْهِ» فهو مصروف إلى إثبات القيامة، وإثبات التكليف، وإثبات النبوة[٥].

قوله: «فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ» أي لم يكذبون على الله فيقولون: إنَّ الله أمرنا بعبادة الأصنام[٦]؟

قوله تعالى: ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إنَّ هَـٰؤُلاءِ قَوْمٌ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ قراءة حمزة وعاصم بالجر[٧]، والبَاقُونَ بالنصب فأما الجر فعلى وجهين:

أحدهما: أنه عطف على «الساعة» أي عنده علم قِيلِهِ، أي قول محمد، أو عِيسى[٨] والقَوْلُ والقَالُ والقِيلُ بمعنًى واحد. جاءت المصادر على هذه الأوزان.

والثاني: أن الواو للقسم، والجواب إما محذوف، تقديره: لتُنْصَرُنَّ أو لأَفْعَلَنَّ بهم ما أريد وإما مذكور، وهو قوله: إنَّ هَؤُلاَءِ لاَ يؤْمِنُونَ. ذكره الزمخشري[٩]. وأما قراءة النصب ففيها ثمانية أوجه:

أحدها: أنه منصوب على محل «الساعة» كأنه قيل: إنه يعلم الساعةَ ويعلم قِيلَهُ كذا[١٠].

---

(١) سقط من ب.

(٢) زيادة من ب.

(٣) حفص عن عاصم وهي متواترة.

(٤) زيادة من أ.

(٥) انظر الرازي ٢٧/ ٣٣٣.

(٦) الرازي السابق.

(٧) من متواتر القراءات انظر الكشف لمكي ٢/ ٢٦١ والحجة في القراءات السبع لابن خالويه ٣٢٣ والسبعة ٥٨٩ ومعاني الفراء ٣/ ٣٨.

(٨) الكشف المرجع السابق وانظر أيضاً معاني الفراء ٣/ ٣٨ والمحتسب ٢/ ٢٥٨ والبيان ٢/ ٢٥٦ ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤/ ٤٢١.

(٩) الدر المصون ٤/ ٨٠٨ ولم أجد هذا بلفظه للزمخشري في الكشاف على ما سيأتي بعد، بل جعله الزمخشري على لفظ الساعة أو على تقدير حرف الجر كما سيأتي وانظر هذا الوجه وما قبله في التبيان ١١٤٣.

(١٠) التبيان المرجع السابق والبيان ٢/ ٣٥٥ ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٢١ والبحر المحيط ٨/ ٣٣، والكشاف ٣/ ٤٩٨.

الثاني: أنه معطوف على «سرهم ونَجْوَاهم» (أي لا يعلم[١] سِرَّهُمْ) ولا يعلم[٢] قيله.

الثالث: عطف على مفعول «يَكْتُبُونَ» المحذوف، أي يكتبون ذلك، ويكتبون قِيلَهُ كذا أيضاً[٣].

الرابع: أنه معطوف على مفعول يعلمون المحذوف، أي يعلمون[٤] ذلك (ويعلمون)[٥] قيله[٦].

الخامس: أنه مصدر أي قَالَ قِيلَهُ[٧].

السادس: أن ينتصب بإضمار فعل، أي اللَّهُ يعلَمُ قيلَ رَسُولِهِ[٨]. وهو محمدٌ ـ ﷺ ـ.

السابع: أن ينتصب على محلّ «بالحَقِّ»، أي شَهِدَ بالحقِّ وبِقيلِه[٩].

الثامن: أن ينتصب على حذف القسم[١٠]، كقوله: «فَذَاكَ أَمَانَةَ اللَّهِ الثَّرِيدُ»[١١].

وقرأ الأعرج وأبو قِلابة[١٢]، ومجاهد والحسن، بالرفع[١٣]، وفيه أوجه: الرفع، عطفاً على «علم*الساعة»، بتقدير مضاف، أي وعنده علم قِيلِهِ، ثم حذف، وأقيم هذا مُقَامه[١٤].

الثاني: أنه مرفوع بالابتداء، والجملة من قوله: «يَا رَبِّ» إلى آخره[١٥] هو الخبر.

الثالث: أنه مبتدأ وخبره محذوف، تقديره: وقيلهُ كَيْتَ وكَيْتَ مسموعٌ أو متقبلٌ[١٦].

الرابع: أنه مبتدأ أو صلة القسم، كقولهم: أيمُنُ اللَّهِ، ولَعَمْرُ اللَّهِ، فيكون خبره

---

(١) سقط من ب.

(٢) قاله في التبيان السابق، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٣٨.

(٣) البيان ٢/ ٣٥٥ وأبو حيان في البحر ٨/ ٣٠.

(٤) في ب يعلم.

(٥) سقط من ب.

(٦) نقله أبو حيان في بحره وقالَ وهو قول لا يكاد يعقل.

(٧) التبيان ١١٤٣ والكشاف ٣/ ٤٩٨ والفراء ٣/ ٣٨ ونسب إلى الأخفش ولم أجده في المعاني له.

(٨) نقله أبو حيان في البحر ٨/ ٣٠ ولم ينسبه إلى أحد.

(٩) قاله في الدر المصون ٤/ ٨٠٧ وهو ضعيف للفصل بين المتعاطفين ولِتَقْديرِ تكلف حرف البحر.

(١٠) وهو اختيار الزمخشري كما سيجيء الآن، وانظر المرجع السابق.

(١١) سبق ما فيه.

(١٢) محمد بن أحمد بن أبي دارة، أبو قلاية، مقرىء معروف، روى القراءة عن الحسن بن داود وجعفر ابن حميد، وعنه منصور بن أحمد العراقي وانظر غاية النهاية ٢/ ٦٢، ٦٣.

(١٣) قراءة شاذة ذكرها ابن خالويه في المختصر ١٣٦ وابن جني في المحتسب ٢/ ٢٥٨ والفراء في معاني القرآن ٣/ ٣٠.

(١٤) البيان ٢/ ٣٥٥ و ٣٥٦ والمحتسب ٢/ ٢٥٨.

(١٥) ذكره في التبيان ١١٤٣.

(١٦) البيان ٢/ ٣٥٦.

محذوفاً، والجواب كما تقدم. ذكره الزمخشري[١] أيضاً. واختار القراءة بالنصب[٢] جماعة. قال النحاس: القراءة البينة بالنصب من جهتين:

أحدهما: أن التفرقة بين المنصوب، وما عطف عليه مُغْتَفَرةٌ، بخلافها بين المخفوض وما عطف عليه.

والثانية: تفسير أهل التأويل بمعنى النصب[٣]. كأنه يريد ما قال أبو عبيدة قال: إنما هي في التفسير أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ولا نسمع قيله يا رب[٤].

ولم يرتضِ الزمخشري من الأوجه المتقدمة شيئاً. وإنما اختار أن يكون قَسَماً في القراءات الثلاث[٥]. وتقدم تحقيقها.

وقرأ أبو قِلاَبَةَ: يا ربَّ[٦] بفتح الباء، على قلب الياء ألفاً، ثم حذفها مجتزئاً عنها بالفتحة كقوله:

٤٤٢٣ ـ .... بِلَهفَ وَلاَ بِلَيْتَ ....[٧]

والأخفش يَطْرُدُها[٨].

قال ابن الخطيب ـ بعد أن حكى قول الزمخشري ـ: وأقول: الذي ذكره الزمخشري متكلفٌ أيضاً وها هنا إضمار، امتلأ القرآن منه، وهو إضمار اذكر، والتقدير في قراءة النصب: واذكر قيله يا رب، وفي قراءة الجر: واذكر وَقْتَ قِيلِهِ يا رب، وإذا وَجَبَ التزامُ إضمارِ ما جرت العادة في القرآن بالتزامه، فالتزام إضماره أولى من غيره[٩]. وعن ابن عباس ـ (رضي الله عنهما)[١٠] ـ أنه قال في تفسير قوله: «وَقِيلِهِ يَا رَبِّ» المراد: وقيل يا ربِّ. والهاء زائدة[١١].

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٩٨.

(٢) كالزجاج في معاني القرآن وإعرابه ٤/ ٤٢١ ونقله عنه موافقاً النحاس كما سيأتي الآن.

(٣) إعراب القرآن ٤/ ١٢٣.

(٤) قال في المجاز ٢/ ٢٠٧ نصبه في قول أبي عمرو علي «نسمع سِرَّهُمْ ونَجْوَاهم وقيله ونسمع قيله».

(٥) قال: «وأقوى من ذلك وأوجه أن يكون الجر والنصب على إِضْمار حرف القسم وحذفه». الكشاف ٣/ ٤٩٩.

(٦) البحر المحيط ٨/ ٣٠.

(٧) جزء من بيت من الوافر، مجهول قائله وهو بتمامه:

فَلَسْتُ بِمُدْرِكٍ مَا فَاتَ مِنِّي .... وَلا لَوَ انِّي

ويروى: ولست بالواو. والمعنى أن الحسرة والندامة لا يُجْدي على ما فاتَ والشاهد: بلهف وبليت والأصل يا لهفي ويا ليتني فحذف حرف النداء ثم قلب الياء «ياء المتكلم» ألفاً ثم حذف الألف اجتزاءً بالفتحة عنها. وانظر الأشموني ٣/ ١٥٥ والخصائص ٣/ ١٣٥ والمحتسب ١/ ٢٧٧ و ٣٢٣ والدر المصون ٤/ ٨٠٨.

(٨) انظر معاني الأخفش ٧٢/ ٧٣.

(٩) بالمعنى قليلاً من الفخر الرازي ٢٧/ ٢٣٤.

(١٠) سقط من ب.

(١١) المرجع السابق.

فصل[١]

القيلُ مَصْدَرٌ، كالقَوْلِ، ومنه الحديث: «أنه نَهَى عن قِيلَ وقَالَ». وحكى اللَّيْثُ عن العرب تقولُ: كَثُر فيه القِيلُ والقَالُ. وروى شَمِرٌ عن أبي زيد يقال: ما أَحْسَنَ قِيلُكَ، وقَوْلُكَ، ومَقَالَتُكَ، ومَقَالُكَ[٢]. والضمير في «وَقِيلِهِ» لرسول الله ـ ﷺ ـ والمعنى يعلم قَوْلَ محمدٍ ـ ﷺ ـ شاكياً إلى ربه، يا ربِّ إن هؤلاء قومٌ لا يؤمنون لما عرف إصرارهم، وهذا قريب مما حكى الله عن نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه قال: ﴿رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح: ٢١] ثم قال: «فَاصْفَحْ عَنْهُمْ» أي أعْرِضْ عنهم[٣]، «وَقُلْ سَلاَمٌ» قال سيبويه: معناه المتاركة، كقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥] ثم قال: «فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» والمراد به التهديد[٤].

قوله: «فَسَوْفَ يَعْلَمُون» قرأ نافعٌ وابن عامر بتاء الخطاب التفاتاً، والباقون بياء الغيبة نظراً لِمَا تَقَدَّم[٥].

فصل

قال ابن عباس ـ (رضي الله عنهما[٦] ـ) قوله: «فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وقُلْ سَلاَم» منسوخ (بآية)[٧] السَّيْفِ[٨].

قال ابن الخطيب: وعندي التزام النسخ في مثل هذه المواضع مشكل؛ لأن الأمر لا يفيد الفعل إلا مرة واحدة فسقطت دلالة اللفظ، فَأَيُّ حاجة إلى التزام النسخ، وأيضاً فاللفظ المطلق قد يقيَّد بحسب العُرْف، وإذا كان كذلك، فلا حاجة فيه إلى التزام النسخ. والله أعلم بالصواب[٩].

روى أبو أُمامةَ عن أُبَيِّ بنِ كعب ـ (رضي الله عنهم[١٠] ـ) قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورة الزُّخْرُفِ كَانَ مِمَّنْ يُقَالُ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ: «يَا عِبَادِي لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُم الْيَوْمَ ولا أَنْتُمْ تَحزنونَ» ادْخُلُوا الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ»[١١]. (انتهى)[١٢].

---

(١) هذا الفصل كله ساقط من نسخة ب.
(٢) انظر اللسان قول ٣٧٧٩.
(٣) قاله ابن قتيبة في غريب القرآن ٤٠١.
(٤) نقله الرازي عن سيبويه في تفسيره ٢٧/ ٢٣٤ ولم أستطع العثور عليه في الكتاب لسيبويه.
(٥) من القراءة المتواترة انظر السبعة لابن مجاهد ٥٨٩، والإتحاف ٣٨٧.
(٦) زيادة من أ.
(٧) زيادة من ب.
(٨) وهو نفس قول قتادة فيما نقله القرطبي ١٦/ ١٢٤.
(٩) بالمعنى من تفسيره التفسير الكبير ٢٧/ ٢٣٥.
(١٠) زيادة من أ.
(١١) الكشاف ٣/ ٤٩٩ ومجمع البيان ٩/ ٥٩، والسراج المنير ٣/ ٥٧٨، والبَيْضَاوِيُّ ٢/ ٢٠٤.
(١٢) زيادة من ب.

سورة الدخان

مكية[١] وهي تسعُ وخمسونَ آية[٢]، وثلاثمائةٍ وست وأربعون كلمةً، وألف وأَرْبعمائةٍ وواحدٌ وثلاثونَ حرفاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩﴾

قوله تعالى: **﴿حمٓ. وَالكِتَابِ المُبِينِ﴾** فيه احتمالان:

الأول: أن يكون التقدير: هذه حمٓ والكِتَابِ المُبِين، كقولك: هَذَا زَيْدٌ واللَّهِ[٣].

الثاني: أن يكون التقدير: (و[٤]) حمٓ وَالكِتَابِ المبين إنَّا أَنْزَلْنَاهُ؛ فيكون في ذلك تقدير قسمين على شيء واحد[٥].

قوله: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ» يجوز أن يكون جواب القسم، وأن يكون اعتراضاً، والجواب قوله: «إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ»[٦] واختاره ابن عطية[٧].

---

(١) باتفاق إلا قوله تعالى: **﴿إِنَّا كَاشِفُو العَذَابِ قَلِيلاً﴾**.

(٢) وقيل: سبع وانظر القرطبي ١٦/ ١٢٥.

(٣) فيكون حم خبرُ المبتدأ محذوف قد قصد لفظهُ.

(٤) زيادة لا بدّ منها عن النسختين حتى يستقيم المعنى المراد من الرازي.

(٥) تفسير الرازي ٢٧/ ٢٣٦.

(٦) البحر المحيط ٨/ ٣٢ والدر المصون ٤/ ٨٠٩.

(٧) السابقين.

وقيل: إنَّا كُنَّا (مُنْذِرِينَ) مستأنف، أو جواب ثانٍ من غير عاطف[١].

قوله: «يُفْرَقُ» يجوز أن تكون مستأنفةً، وأن تكون صفة لليلة وما بينهما اعتراض[٢].

قال الزمخشري: فإن قلتَ: «إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ» «فِيهَا يُفْرَقُ» ما موقع هاتين الجملتين؟.

قلتُ: هما جملتان مستأنفتان ملفوفتان، فسر بهما جواب القسم الذي هو: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ» كأنه قيل: أنزلناه؛ لأن من شأننا الإنذارَ والتحذيرَ، وكان إنزالنا إياه في هذه الليلة خصوصاً لأن إنزالَ القرآن من الأمور الحكيمة، وهذه الليلة يفرق فيها كل أمر حكيم[٣].

وقرأ الحسن، والأعرج والأعمش: يَفْرُقُ بفتح الياء، وضَمِّ الراء «كُلَّ» بالنصب، أي يَفْرُقُ اللَّهُ كُلَّ أمرٍ[٤]. وزيدُ بن علي: نَفْرِقُ ـ بنون العظمة ـ «كُلَّ» بالنصب (كذا) نقله الزمخشري[٥]. ونقل عنه الأهوازي[٦] بفتح الياء وكسر الراء كُلّ بالنصب[٧] حَكِيمٌ بالرفع على أنه فاعل يَفْرِقُ. وعن الحسن والأعمش أيضاً يُفَرَّقُ كالعامة، إلا أنه بالتشديد[٨].

فصل

استدلوا بهذه الآية على حدوث القرآن من وجوه:

الأول: أن قوله حم تقديره: هذه حم يعني هذا شيء مُؤَلَّف من هذه الحروف والمؤلف من الحروف المتعاقبة مُحْدَثٌ.

الثاني: أنه ثبت أن الحَلِفَ لا يصح بهذه الأشياء، بل بإله هذه الأشياء فيكون التقدير: وَرَبِّ حَمَ وَرَبِّ الكِتَابِ المُبِينِ، وكُلُّ ما كان مربوباً فهو مُحْدَثٌ.

الثالث: أنه وصفه بكون «كتاباً»، والكتاب مشتق من الكتبِ، وهو الجمع فمعناه أنه مجموع، والمجموع مَحَلُّ تصرفِ الغير. وما كان كذلك فهو مُحْدَث.

---

(١) حكاه أبو البقاء في التبيان ١١٤ وانظر الدر المرجع السابق أيضاً.

(٢) الدر المصون السابق.

(٣) الكشاف معنى ٣/ ٥٠٠.

(٤) شاذة غير متواترة انظر مختصر ابن خالويه ١٣٧ وشواذ القرآن ٢١٩.

(٥) الكشاف ٣/ ٥٠٠، وشواذ القرآن ٢١٨.

(٦) الحسن بن علي بن إبراهيم بن يزيد الأستاذ أبو علي الأَهْوازيّ صاحب المؤلفات شيخ القراء في عصره قرأ على إبراهيم بن أحمد الطبري، ومحمد بن فيروز الكَرْخي وعليه أبو علي الحسن بن قاسم وأبو القاسم الهذلي مات سنة ٤٤٦ هـ. انظر الغاية ١/ ٢٢٠، ٢٢٢.

(٧) البحر المحيط ٨/ ٣٣.

(٨) السابق والكشاف ٣/ ٥٠٠.

الرابع: قوله: «إنا أنزلناه» والمنزَل مَحَلّ تصرفِ الغير، وما كان كذلك فهو محدث. قال ابن الخطيب: وقد ذكرنا أن جميع هذه الدلائل تدل على أن الشيء المركب من الحروب المتعاقبة، والأصواب المتوالية محدث والعلم بذلك ضروري بَديهِيّ لا نزاع فيه، إنما القديم شيء آخر سوى ما تركب من هذه الحروف والأصوات[١].

فصل

يجوز أن يكون المراد بالكتاب ههنا الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء، كما قال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥] ويجوز أن يكون المراد به اللوحُ المحفوظ. قال الله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩] وقال: «وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الكِتَابِ لَدَيْنَا لعَلِيٌّ حَكيمٌ» ويجوز أن يكون المراد به القرآن، وبهذا التقدير فقد أقسم بالقرآن على أنه أنزل في ليلة مباركة وهذا النوع من الكلام يدل على غاية تعظيم القرآن، فقد يقول الرجل إذا أراد تعظيم الرجل (له[٢]) إليه حاجةً: «أسْتَشْفِعُ بِكَ إِلَيْكَ، وأُقْسِمُ بِحَقِّكَ عَلَيْكَ». وجاء في الحديث: «أعوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وبِعَفْوِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ وبِكَ مِنْكَ، لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ»[٣].

قوله: «المُبين» هو المشتمل على بيان ما بالناس من حاجة إليه في دينهم ودنياهم فوصفه بكونه مبيناً وإذا[٤] كانت حقيقة الإبانة لله تعالى، لأن الإبانةَ حَصَلَتْ به، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [النمل: ٧٦] وقوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣] وقوله: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٥] فوصفه بالتكلم، إذ كان غاية في الإبانة، فكأنه ذُو لسانٍ ينطق مبالغةً.

فصل[٥]

قال قتادة وابنُ زيد وأكثر المفسرين: المراد بقوله: إنا أنزلناه في ليلة مباركة هي ليلة القدر. وقال عكرمة وطائفة: إنها ليلة البَرَاءَة وهي ليلة النصفِ مِن شعبان. واحتج الأولون بوجوه:

الأول: قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] وقوله ههنا: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ» فوجب أن تكون هي تلك الليلة المسماة بليلة القدر لئلا يلزم التناقض.

---

(١) انظر تفسير الإمام الفخر الرازي ٢٧/ ٢٣٦ و٢٣٧.

(٢) زيادة من أ عن ب والرازي.

(٣) جزء من حديث طويل أخرجه البيهقي وضعفه عن عائشة انظر الدر المنثور ٧/ ٤٠٣ و٤٠٤.

(٤) كذا في النسختين وفي الرازي وإن.

(٥) هذا الفصل كله سقط من ب.

الثاني: قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥] فقوله ههنا: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣] فيجب أن تكون تلك الليلة المباركة في رمضان فثبت أنها ليلة القدر.

الثالث: قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: ٤] وقال ههنا: «فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ» وقال ههنا: «رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ» وقال في ليلة القدر: ﴿سَلَٰمٌ هِىَ﴾ [القدر: ٥]، وإذا تقاربت الأوصاف وجب القول بأن إحدى الليلتين هي الأخرى.

الرابع: نقل محمد بن جَرير الطَّبري في تفسيره عن قتادة أنه قال: نزلت صحفُ إبراهيم في أول ليلة من رمضان والتوراة لست ليال منه والزبور لثنتي عشرة ليلة مضت منه، والإنجيل لِثماني عشرة ليلةً مضت منه، والقرآن لأربعِ وعشرينَ مضت منه، والليلة المباركة هي ليلة القدر.

الخامس: أن ليلة القدر إنما سميت بهذا الاسم لأن قدرها وشرفها عند الله عظيم ومعلوم أنه ليس قدرها وشرفها لسبب نفس الزمان، لأن الزمان شيء واحد في الذات والصفات، فيمتنع كون بعضه أشرف من بعض لذاته فثبت أن شرفه وقدره بسبب أنه حصل فيه أمورٌ شريفة لها قدر عظيم، ومن المعلوم أن منصب الدين أعظم من مناصب الدنيا، وأعظم الأشياء وأشرفها منصباً في الدين هو القرآن؛ لأنه ثبت به نبوة محمد ـ ﷺ ـ وبه ظهر الفرق بين الحق والباطل كما قال تعالى في صفته: «وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ»[(١)] وبه ظهرت درجات أرباب السعادات ودركات أرباب الشقاوات فعلى هذا لا شيء إلا والقرآن أعظم قدراً، وأعْلَى ذكراً، وأعظم منصباً، وحيث أطبقوا على أن ليلة القدر هي التي وقعت في رمضان علمنا أن القرآن إنما أنزل في تلك الليلة. واحتج الآخرون على أنها ليلة النصف من شعبان بأن لها أربعة أسماء: الليلة المباركة، وليلة البراءة، وليلة الصَكّ، وليلة الرحمة، ولأنها مختصة بخمسِ خصالٍ: **الأولى**: قال تعالى: «فِيهَا يُفرقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ» **والثانية**: فضيلة العبادة فيها، قال رسول الله ـ ﷺ ـ مَنْ صَلَّى فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ أَرْسَلَ اللَّهُ تعالى إليه مائةَ مَلَكٍ، ثلاثونَ يبشرونَه بالجنةِ، وثلاثونَ يُؤَمِّنُونَهُ من عذاب النار، وثلاثونَ يدْفَعُونَ عنه آفاتِ الدنيا وعشرةٌ يدفعون عنه مكايدَ الشيطان. **الثالثة**: نزول الرحمة قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ «إنَّ اللَّهَ يَرْحَمُ أُمَّتِي فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ بِعَدَدِ شَعْرِ أَغْنَامِ بَنِي كَلْبٍ»[(٢)]. **الرابعة**: حصول المغفرة قال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لِجَمِيعِ

---

(١) أخرجه التِّرمذيُّ بمعناه عن عائشة وانظر القرطبي ١٦/ ١٢٧ وانظر في هذا الكشاف ٣/ ٥٠٠ والرازي ٢٧/ ١٣٨.

(٢) لم أقف عليه أبداً.

المُسْلمِينِ في تلك الليلة إلا الكاهنَ، والمشاحنَ ومُدْمِنَ الخمر وعاقٌ والديه والمصرَّ على الزنا». **الخامسة**: أنه تعالى أعطى رسول الله ـ ﷺ ـ في هذه الليلة تمام الشّفاعة وذلك أنه سأل في الليلة الثالثةَ عَشَرَ الشفاعة في أمته فأعطي الثُّلُثَ منها ثم سأل الليلة الرابِعَةَ عَشَرَ فأعطي الثُّلُثَيْنِ ثم سأل ليلةَ الخامس عشر فأعطي جميعَ الشفاعة إلا من شَرَدَ عن الله شِرَادَ البَعِيرِ، نقله الزمخشري.

فصل

رُوِيَ أن عطية الحَرُورِيَّ[١] سأل ابن عباس (رضي الله عنهم) عن قوله: «إنَّا أنزلناه في ليلة مباركة» وقوله: ﴿**إنا أنزلناه في ليلة القدر**﴾ كيف يصح ذلك مع أن الله تعالى أنزل القرآن في جميع الأيام؟.

فقال ابن عباس: يا ابن الأسود لو هلكتُ أنا ووقع في نفسك هذا، ولم تجد جوابه لهلكت، نزل القرآن جملة من اللوح المحفوظ إلى البيت المعمور في السماء الدنيا، ثم نزل بعد ذلك في أنواع الوقائع حالاً فحالاً. قال قتادة وابن زيد: أنزل الله القرآن في ليلة القدر من أم الكتاب إلى السماء الدنيا، ثم نزل به جبريلُ على النبي ـ ﷺ ـ نجوماً في عشرينَ سنةً.

قوله: «إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ» يعني إن الحكمة في إنزال القرآن أن إنذارَ الخلق لا يتم إلا به.

قوله: «فِيهَا» أي في الليلة المباركة «يُفرقُ» يُفْصَلُ «كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ» محكم ومعناه ذو الحكمة، وذلك لأن تخصيص الله تعالى كل واحد بحالة معينة من الأجل والرزق والسعادة والشقاوة يدل على حكمة بالغة لله عز وجل، فلما دلت تلك الأقضية على حكمة فاعلها، وصفت بكونها حكمة، وهذا إسناد مجازيّ لأن الحكيم صفة صاحب الأمر على الحقيقة، ووصف الأمر به مجاز. قال ابن عباس: يكتب في أم الكتاب في ليلة القدر ما هو كائن في السنة من الخير، والشر، والأرزاق، والآجال حتى الحُجَّاج يقال: يَحُجُّ فلانٌ ويَحُجُّ فلان. وقال الحسن ومجاهد وقتادة: يُبْرَمُ في ليلة القدر في شهر رمضان كل أجل، وعمل، وخلق، ورزق، وما يكون في تلك السنة. وقال عكرمة: هي ليلة النصف من شعبان يقوم فيها أمر السنة، وتنسخُ الأحياء من الأموات، فلا يزاد فيهم، ولا ينقص منهم أحد. قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «تُقْطَع الآجَالُ مِنْ شَعْبَانَ إِلَى شَعْبَانَ حَتَّى إنَّ الرَّجُلَ لَيَنْكِحُ، ويُولدُ لَهُ، وَلَقَدْ أُخْرِج اسْمُهُ في المَوْتَى»[٢]. وعن ابن عباس ـ

---

(١) سقط من ب.

(٢) أخرجه ابن زنجَوَيْه والدَّيْلَمِيُّ عن أبي هريرة، وانظر فتح القدير ٤/ ٥٧٢.

(رضي الله عنهما[١]) ـ إن الله يقضي الأقضية في ليلة النصف من شعبان، ويسلمها إلى أربابها في ليلة القدر وروي أن الله تعالى أنزل كل القرآن من اللوح المحفوظ في ليلة البراءة، ووقع الفراغ في ليلة القدر، وتدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل، ونسخة الحروف إلى جبريل، وكذلك الزَّلازِل، والصواعق، والخسف، ونَسخَة الأعمال إلى إسرافيل صاحب سماء الدنيا، وهو ملك عظيم، ونسخة المصائب إلى ملك الموت[٢].

قوله: «أَمْراً» فيه اثْنَا عَشَرَ[٣] وَجْهاً:

أحدها: أن ينتصب حالاً من فاعل «أَنْزَلْنَاهُ»[٤].

الثاني: (أنه[٥]) حال من مفعوله أي أَنْزَلْنَاهُ آمرينَ، أو مَأْمُوراً بِهِ[٦].

الثالث: أن يكون مفعولاً له وناصبه إمَّا «أَنْزَلْنَاهُ» وإما «مُنْذِرِينَ» وإما «يُفْرَقُ»[٧].

الرابع: أنه مصدر من معنى يفرق أي فَرْقاً[٨].

الخامس: أنه مصدر «لأَمَرْنَا» محذوفاً[٩].

السادس: أن يكون يُفْرَقُ بمعنى يأمر[١٠]. والفرق بين هذا وما تقدم أنك رددت في هذا بالعامل إلى المصدر، وفيما تقدم بالعكس.

السابع: أنه حال من «كُلُّ»[١١]. حكى أبو علي الفارسي عن (أبي[١٢]) الحسن أنه حمل قوله: «أَمْراً» على الحال، وذُو الحال «كل أمر حكيم»[١٣].

الثامن: أنه حال من «أَمْرٍ». وجاز ذلك؛ لأنه وصف؛ إلا أن فيه شيئين: مجيء الحال من المضاف إليه في[١٤] غير المواضع المذكورة. والثاني: أنها مؤكدة[١٥].

التاسع: أنه مصدر لأَنْزَلَ، أي (إنَّا[١٦]) أَنْزَلْنَاهُ إِنْزَالاً، قاله الأخفش[١٧].

---

(١) سقط من ب.

(٢) وانظر في كل هذا تفسير الرازي ٢٧/ ٢٣٩ والقرطبي ١٦/ ١٢٦، ١٢٨.

(٣) في ب: فيها اثني عشر خطأ نحوي.

(٤) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٠١.

(٥) سقط من ب.

(٦) البيان ٢/ ٣٥٧ والتبيان ١١٤٤ والكشاف ٣/ ٥٠١ ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٢٨٧.

(٧) التبيان السابق.

(٨) البيان ٢/ ٣٥٧ وهو ظاهر قول الفراء ٣/ ٣٩ قال: أمراً منصوب بقوله: يفرق على معنى يفرق كل أمر فرقاً.

(٩) التبيان ١١٤٤.

(١٠) ذكره السمين في الدر المصون ٤/ ٨١٠.

(١١) التبيان السابق.

(١٢) سقط من النسختين والأصح ما أثبت أعلى فهو الأخفش.

(١٣) معاني الأخفش ٦٩١.

(١٤) في ب من.

(١٥) نقله أبو حيان في البحر المحيط ٨/ ٣٣.

(١٦) سقط من ب.

(١٧) المعاني له ٦٩١.

العاشر: أنه مصدر لكن بتأويل العامل فيه إلى معناه، أي أَمَرْنَا به أَمْراً بسبب الإِنْزَال، كما قالوا ذلك في وجهي: «فِيهَا يُفْرَقُ» فرقاً، أو يَنْزِلُ إنزالا[١].

الحادي عشر: أنه منصوب على الاختصاص، قاله الزمخشري[٢]. ولا يعني بذلك الاختصاص الاصطلاحي فإنه لا يكون نكرةً.

الثاني عشر: أن يكون حالاً من الضمير في «حَكِيم»[٣].

الثالث عشر[٤]: أن ينتصب مفعولاً به بمُنْذِرِينَ[٥]، كقوله: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ [الكهف: ٢] ويكون المفعول الأول محذوفاً أي مُنْذِرِينَ الناسَ أمراً، والحاصل أن انتصابه يرجع إلى أربعة أشياء: المفعول به والمفعول له، والمصدريةِ، والحاليةِ، وإنما التكثير بحسب المحالِّ[٦]. وقرأ زيد بن علي: أَمْرٌ بالرفع[٧]. قال الزمخشري: وهي تُقَوِّي النصب على الاختصاص[٨].

قوله: «مِنْ عِنْدنَا» يجوز أن يتعلق «بيُفْرَقُ» أي من جهتنا وهي لابتداء الغاية مجازاً. ويجوز أن تكون صفة لأمراً[٩].

قوله: «إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ» جواب ثالث، أو مستأنف، أو بدل من قوله: إنا كنا منذرين[١٠]. قال ابن الخطيب: أي إنا فعلنا ذلك الإنذار لأجل أَنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ، يعني الأنبياء[١١].

قوله: «رَحْمَةً» فيها خمسة أوجه:

الأول: المفعول له والعامل فيه: إما «أنزلناه»، وإما «أمراً»، وإما «يفرق»، وإما[١٢] «منذرين».

الثاني: مصدر بفعل مقدراً، أي رَحِمْنَا رحمة[١٣].

---

(١) التبيان ١١٤٤.
(٢) الكشاف ٣/ ٥٠٠.
(٣) ذكره أبو البقاء في التبيان ١١٤٤.
(٤) أتى به على الرغم من أنه أخبر أن الأوجه اثنا عشر فقط.
(٥) قاله أبو البقاء بادئاً به انظر تبيانه ١١٤٤.
(٦) ولقد ذكر هذه الأوجه مجتمعةً في كتابه السمين الحلبي في الدر المصون ٤/ ٨٠٩ و٨١٠.
(٧) شواذ القرآن ٢١٩، والقرطبي ١٦/ ١٢٩، والكشاف ٣/ ٥٠١.
(٨) الكشاف المرجع السابق.
(٩) الدر المصون ٤/ ٨١٠ و٨١١ والتبيان ١١٤٤ والكشاف ٣/ ٥٠١.
(١٠) الدر المصون السابق.
(١١) الرازي ٢٧/ ٢٤١.
(١٢) البيان ٢/ ٣٥٧ والتبيان ١١٤٤ و١١٤٥، والدر المصون السابق واعراب النحاس ٤/ ٢٢٦.
(١٣) السابق وانظر السابقين عليه أيضاً.

الثالث: مفعول بمرسِلِينَ[١].

الرابع: حال من ضمير «مرسلين»[٢]، أي ذَوِي رَحْمَةٍ.

الخامس: أنها بدل من «أَمْراً» فيجيء فيها ما تقدم[٣]، وتكثر الأوجه فيها حينئذ. و «مِنْ رَبِّكَ» يتعلق[٤][٥] برَحْمةٍ، أو بمحذوف على أنها صفة. وفي: «مِنْ رَبِّكَ» التفات من المتكلم إلى الغيبة ولو جرى على مِنْوَالِ ما تقدم لقال: رَحْمَةً مِنَّا[٦].

فصل

قال ابن عباس (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ[٧]): معنى رحمة من ربك أي رأفة مني بخلقي، ونعمةً عليهم بما بعثت[٨] إليهم من الرسل. وقال الزجاج: أنزلناه في ليلةٍ مباركة[٩]، «إنه هو السميع العليم» أي إن تلك الرحمة كانت رحمة في الحقيقة؛ لأن المحتاجين إما أن يذكروا حاجاتهم بألسنتهم أو لم يذكروها فإن ذكروها فهو سميع، وإن لم يذكروها فهو تعالى عالمٌ بها.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ قرأ الكوفيون بخفض «رَبِّ» والباقون برفعه[١٠]. فالجر على البدل أو البيان، أو النعت، والرفع على إضمار مبتدأ، أو على أنه مبتدأ خبره: «لاَ إِلَهَ إلاَّ هُوَ»[١١].

فصل

المقصود من هذه الآية أن المنزِّل إذا كان موصوفاً بهذه الجلالة والكبرياء كان المُنزَّل ـ الذي هو القرآن ـ في غاية الشرف والرفعة. ثم قال: «إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ» قال أبو مسلم معناه: إن كنتم تطلبونه[١٢] وتريدونه فاعرفوا أن الأمر كما قلنا؛ كقولهم: فُلاَنٌ مُنْجِدٌ مُتْهِمٌ، أي يريد نَجْداً وتِهَامَةَ[١٣]. وقال الزمخشري: كانوا يقرون بأن (رب[١٤])

---

(١) إعراب القرآن السابق والبيان ٢/ ٣٥٧ ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٢٨٨.
(٢) وهو رأي الفراء انظر المعاني ٣/ ٣٩.
(٣) رأي الأخفش نقله ابن الانباري عنه في البيان ٢/ ٣٥٧.
(٤) المرجع السابق.
(٥) في ب متعلق.
(٦) الكشاف ٣/ ٥٠١.
(٧) سقط من ب.
(٨) في ب بعثت.
(٩) فسرها الزجاج بليلة القدر قال: «وقال المفسرون: في ليلة مباركة هي ليلة القدر» معاني القرآن وإعرابه ٤/ ١٢٣.
(١٠) السبعة ٥٩٢ وإبراز المعاني ٦٨٢، والإتحاف ٣٨٨، ومعاني الفراء ٣/ ٣٩، والكشف ٢/ ٢٦٤.
(١١) انظر هذه التوجيهات في الكشف المرجع السابق والبيان ٢/ ٣٥٨، والحجة لابن خالويه ٣٢٤.
(١٢) في الرازي: تطلبون اليقين وتريدونه.
(١٣) الرازي ٢٧/ ٢٤١.
(١٤) زيادة من النسختين.

السموات والأرض ربٌّ خالقٌ فقيل لهم: إن إرسالنا الرسل وإنْزَالَنا الكتبَ رحمةً من الربِّ ثم قال[١]: إن هذا الرب هو السميع العليم الذي أنتم مقرون به، ومعترفون بأنه رب السنوات والأرض وما بينهما إن كان إقراركم عن علم ويقين، كما تقول: هذا إنْعَامُ زَيْد الّذِي تَسَامَعَ الناسُ بكَرَمِهِ إن[٢] بَلَغَكَ حديثُه وسمعت بصِيتِهِ[٣]. والمعنى إن كنتم موقنين بقوله. «بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ»، وأن إقرارهم غير صادر عن علم ويقين ولا عن حد وحقيقه بل قول مخلوط بهُزْءٍ ولَعِبٍ[٤].

قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ﴾ العامة على الرفع، بدلاً أو بياناً أو نعتاً لرب السموات فيمن رفعه أو على أنه مبتدأ، والخبر: لا إله إلا هو. أو خبر بعد خبر، لقوله: إنه هو السميع أو خبر مبتدأ مضمر عند الجميع، أعني قراء الجر والرفع، أو فاعل لقوله: «يُمِيتُ». وفي «يُحْيِي» ضمير يرجع إلى ما قبله أي يُحْيِي هو أي رب السموات، ويُميت هو، فأوقع الظاهر موقع المضمر. ويجوز أن يكون «يحيي ويميت» من التنازع يجوز أن ينسب الرفع إلى الأول أو الثاني، نحو: يَقُومُ وَيَقْعُدُ زَيْدٌ. وهذا عنى أبو البقاء بقوله: على شريطة التفسير[٥]. وقرأ ابن مُحَيْصِن وابنُ أبي إسحاقَ وأبو حَيْوَةَ والحَسَنُ بالجر[٦]، على البدل أو البيان أو النعت لرب السموات، وهذا يوجب أن يكونوا يقرأون رب السموات بالجر. والأنطاكي[٧] بالنصب على المَدْح.

قوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فارتقب يوم تأتي السماء﴾ «يوم» منصوب بارتقب على الظرف، ومفعول الارتقاب محذوف لدلالة ما بعده عليه، وهو قوله: هذا عذاب أليم، أي ارتقب

---

(١) في الكشاف ثم قيل بالياء. (٢) في ب أي.

(٣) كذا في النسختين وفي الكشاف: بقصته. (٤) الكشاف ٣/ ٥٠١.

(٥) البحر المحيط لأبي حيان ٨/ ٣٣ والتبيان ١١٤٥ والدر المصون ٤/ ٨١١.

(٦) من القراآت الأربع فوق العشر المتواترة، الإتحاف ٣٨٨ والبحر ٨/ ٣٣ ومختصر ابن خالويه ١٣٧ وانظر في هذه القراءة مع الإعراب أيضاً تفسير الجامع للقرطبي ١٦/ ١٢٩.

(٧) هو أحمد بن جبير بن أحمد أبو جعفر الكوفي نزيل أنطاكية، أخذ عرضاً وسماعاً عن الكسائي وغيره وقرأ عليه محمد بن العباس بن شعبة وغيره، مات سنة ٢٥٨ هـ. انظر غاية النهاية ١/ ٤٢، ٤٣، وذكرها أبو حيان في البحر ٨/ ٣٤ والسمين في الدر ٤/ ٨١١.

وعيد الله في ذلك اليوم. ويجوز أن يكون «يوم» هو المفعول المرتقب[١].

فصل

اختلفوا في هذا الدخان، فروى الضحاك عن مسروق قال: بينما رجل يُحَدِّث في كِنْدَةَ فقال يجيء دُخَانٌ يوم القيامة فيأخذ بأسماعهم وأبصارهم ويأخذ المؤمن كهيئة الزكام، ففزعنا فأتينا ابن مسعود، وكان متكئاً فغضب فجلس فقال: من علم فليقل ومن لم يعلم فليقل الله أعلم فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم: لا أعلم، فإن الله تعالى قال لنبيه: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦].

وإن قريشاً لما اسْتَعْصَتْ عن الإسلام، فدعا عليهم النبي ـ ﷺ ـ فقال: اللَّهم أعِنِّي عليهم بسبع كسبع يوسف، فأخذتهم سنة حتى هَلَكُوا فيها، وأكلوا الميتة، والعظامَ، ويرى الرجل ما بين السماء والأرض كهيئة الدخان، فجاءه أبو سفيان فقال يا محمد: جئت كافراً بصلة الرحم، وإن قومك قَدْ هلكوا، فادعُ الله فقرأ: «فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ» إلى قوله «عَائِدُونَ» وهذا قول ابن عباس ومقاتل ومجاهد[٢] واختيار الفراءِ[٣] والزجاج[٤] وهو قول ابن مسعود[٥]، وكان ينكر أن يكون الدخان إلا الذي أصابهم من شدة الجوع كالظُّلْمَةِ على أبصارهم حتى كانوا كأنهم يرون دُخَاناً. وذكر ابن قتيبة في تفسير الدخان في هذه الحالة وجهين:

الأول: أن في سَنَةِ القحط لعِظَم يُبْسِ الأرض بسبب انْقِطَاع المطر يرتفع الغبارُ الكثيرُ، ويُظْلم الهواء وذلك يشبه الدخان، ويقولون: كان بيننا أمر ارتفع له دخان ولهذا يقال للسنة المُجْدِبة الغبراء.

الثاني: أن العرب يسمون الشيء الغالب بالدخان، والسبب فيه أن الإنسان إذا اشتد خوفه أو ضعفه أظلمت عيناه، ويرى الدنيا كالمملوءة من الدخان[٦]. وقيل: إنه دخان يظهر في العالم وهو إحدى علامات القيامة، وهذا منقول عن علي بن أبي طالب، وعن ابن عباس في المشهور[٧] عنه لما روى عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: أَوَّلُ الآيَاتِ الدُّخَانُ، ونزولُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، ونارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدَن تَسُوق النَّاسَ إلى المَحْشَرِ. قال

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٠١ الثاني والأول رأي السمين في الدر ٤/ ٨١١

(٢) وانظر الكشاف ٣/ ٥٠١ و٥٠٢ والقرطبي ١٦/ ١٣٠ و١٣١.

(٣) معاني القرآن له ٣/ ٣٩.

(٤) معاني القرآن وإعرابه له أيضاً ٤/ ٤٢٤.

(٥) القرطبي السابق.

(٦) بتصرف من كتاب غريب القرآن له ٢/ ٤٠٢.

(٧) ذكره الرازي ولم ينسبه إلى من قال به. انظر الرازي ٢٧/ ٢٤٢ والكشاف ٣/ ٥٠٢.

حذيفة: يا رسول الله، وما الدخان؟ فَتَلاَ رسول الله ﷺ الآية به وكان يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوماً وليلة، أما المؤمن فيصيبه كالزُّكْمَةِ. وأما الكافر فهو كالسكران يخرج من منخريه، وأذنيه، ودبره. ويكون الأرض كلها كبيت أُوقد فيه النار قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «بَاكِرُوا بالأَعْمَالِ»، وذَكَر منها طلوعَ الشمسِ من مَغْرِبِهَا، والدُّخَانَ والدابةَ، رواه الحسن[١].

واحتج الأولون بأن الله تعالى حكى عنهم أنهم يقولون: ربنا اكشف عنّا العذاب إنا مؤمنون. فإذا حملناه على القحط الذي وقع في مكة استقام فإنه نقل أن الأمر لما اشتد على أهل مكة مَشَى إليه أبو سفيان فناشده الله والرَّحم وواعده إن دعا لهم وأزال الله عنهم تلك البليّة أن يؤمنوا به، فلما أزاله الله عنهم رَجَعُوا إلى شركهم، أما إذا حملناه على أن المراد منه ظهور علامة من علامات القيامة لم يصح ذلك؛ لأن عند ظهور علامات القيامة لا يمكنهم أن يقولوا: ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون، ولم يصح أيضاً أن يقال لهم: «إنَّا كَاشِفُو العَذَابِ قَلِيلاً إنَّكُمْ عَائِدُونَ»[٢].

فصل[٣]

ظاهر الحال أنه دخان يغشى الناس أَيْ يشملهم وهو في محل جر صفة ثانية أي بدُخَان مبينٍ[٤] غَاشٍ وقوله: «هَذَا عَذَابٌ أليم» في محل نصب بالقول، وذلك القول حال أي قائلين ذلك[٥]. ويجوز أن لا يكون معمولاً لقول ألبتة، بل هو مجرد إخبار[٦]. قال الجُرْجَانِيُّ[٧] صاحب النظم: هذا إشارة إليه، وإخبار عن دُنُوِّه واقترابه كما يقال: هذا العدو فاستقبله، والغرض منه التنبيه على القرب[٨].

قوله: «ربنا اكشف عنا العذاب» إن أضمرنا القول هناك (فالتقدير[٩]: يقولون هذا عذاب أليم ربنا اكشف عنّا العذاب، وإن لم يضمر القول هناك) أضمرناه ههنا، و«العَذَاب» على القول الثاني الدخان المهلك[١٠] «إنَّا مؤمنون» أي بمحمد وبالقرآن والمراد منه الوعد بالإيمان إن كشف عنهم العذاب.

قوله: «أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى» يجوز أن يكون «أنى» خبراً لذكرى، و «لهم» تبيين،

---

(١) الرازي المرجع السابق.
(٢) الرازي المرجع السابق.
(٣) هذا الفصل كله ساقط من نسخة ب.
(٤) وتلك على الصفة الأولى.
(٥) قاله الزمخشري في الكشاف ٣/٥٠٢.
(٦) هذا رأي السمين في الدر المصون ٤/٨١٢.
(٧) أبو علي الجرجاني وقد تقدم التعريف به.
(٨) ذكره عن الرازي ٢٧/٢٤٣.
(٩) ما بين القوسين سقط من ب وموجود في أ والرازي.
(١٠) وعلى القول الأول هو القحط الشديد. وانظر الرازي المرجع السابق.

ويجوز أن يكون «أنى» منصوباً على الظرف بالاستقرار في لَهُم، فإن «لهم» وقع خبراً لذكرى[١].

قوله: «وَقَدْ جَاءَهُمْ» حال من «لَهُمْ» والمعنى كيف يتعظون أي من أين لهم التذكرة والاتِّعاظُ وقد جاءهم ما هو أعظم وأدخل في وجوب الطاعة، وهو «رسول مبين» ظاهر الصدق يعني محمداً ـ ﷺ ـ وما ظهر عليه من المعجزات، «ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ» أعرضوا عنه، ولم يلتفتوا إليه «وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ» وذلك أن كفار مكة منهم من كان يقول: إن محمداً يتعلم هذه الكلمات من بعض الناس، ولقولهم: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] وقوله: ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٤] ومنهم من كان يقول: إنه مجنون، والجن يلقون عليه هذه الكلمات حال ما يعرض له الغُشْي[٢]. وقرأ زيد بن علي معلم بكسر اللام[٣] قوله: «إنا كاشفو العذاب قليلاً» أي عذاب الجوع: «قليلاً» نعت لزمان، أو المصدر محذوف[٤] أي كشفوا قليلاً، أو زماناً قليلاً، يعني يسيراً «إنكم عائدون» أي كما نكشف العذاب عنكم تعودون في الحال إلى ما كنتم عليه من الشرك[٥].

قوله: «يَوْمَ نَبْطِشُ» قيل: هو بدل من «يوم تأتي». وقيل: منصوب بإضمار اذكر. وقيل: بـ «منتقمون». وقيل: بما دل عليه: «مُنْتَقِمُونَ» وهو ينتقم[٦]. ورُدَّ هذان بأن ما بعد «لا» لا يعمل فيما قبلها، ولأنه لا يفسر إلا ما يصحّ أن يعمل[٧]. وقرأ العامة بفتح نون «نَبْطِشُ» وكسر الطاء أي نبطش بهم. وقرأ الحَسَنُ وأبو جَعْفَر بضم الطاء وهي لغة في مضارع «بَطَشَ»[٨]. والحسن أيضاً، وأبو رجاء وطلحة بضم النون وكسر الطاء[٩]. وهو منقول من «أبطش» أي نُبْطِشُ بِهِمُ المَلائِكة والبطشة على هذا يجوز أن تكون منصوبة بنبطِشُ على حذف الزائد. نحو: ﴿أَنبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾[١٠] [نوح: ١٧] وأن تنتصب

---

(١) التبيان ١١٤٥.

(٢) انظر الرازي ٢٧/ ٢٤٣ و٢٤٤.

(٣) ذكر ذلك السمين في الدر المصون ٤/ ٨٠٢ بينما نسبها أبو حيان في البحر المحيط إلى زِرّ بن حبيش انظر البحر ٨/ ٣٤.

(٤) كان من الأولى أن يعبر: نعت لزمان أو لمصدر محذوفين أي زماناً قليلاً أو كشفاً قليلاً.

(٥) قاله الرازي في مرجعه السابق.

(٦) انظر التبيان ١١٤٦ والبيان ٢/ ٣٥٨.

(٧) قاله الزمخشري قال: «ولا يصح أن ينتصب بمنتقمون لأن أن تحجب عن ذلك» الكشاف ٢/ ٥٠٢.

(٨) مختصر ابن خالويه ١٣٧ وروي عنه أيضاً: يُبْطَشُ بالياء مبنيًّا للمجهول.

(٩) الكشاف ٣/ ٥٠٢ وقد ذكر أيضاً الكشاف القراءة السابقة وانظر تلك القراءة أيضاً في المحتسب ٢/ ٢٦٠.

(١٠) فنباتاً منصوب بأنبتكم وكان القياس: إنباتاً لأنه مصدر فعل رباعي ولما كان نبت وأنبت واحداً جاز، هذا قول وذهب آخرون إلى أنَّ هذا المصدر منصوب بفعل محذوف وهو مذهب سيبويه، والأول مذهب المبرد والسِّيرافي انظر شرح المفصل لابن يعيش ١/ ١١٢.

بفعل مقدر أي نبطِشُ بهم الملائكة، فَيَبْطِشُونَ البَطْشَة[١]. والبطش الأخذ بالشدة وأكثر ما يكون بوقع الضرب المتتابع ثم صار بحيث يشتمل في اتصال الآلام المُتَتَابِعَةِ[٢].

(فصل)

في المراد بهذا اليوم قولان:

الأول: أنه يوم بدر، وهو قول ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، ومقاتل، وأبي العالية (وذلك)[٣] أن كفار مكة لما أزال الله تعالى عنهم القحط والجوع عادوا إلى التكذيب، فانتقم الله منهم يوم بدر.

الثاني: أنه يوم القيامة. قال ابن الخطيب: وهذا القول أصح؛ لأن يوم بدر، لا يبلغ هذا المبلغ الذي يوصف بهذا الوصف العظيم، ولأن الانتقام التام إنما يحصل يوم القيامة، لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾)[٤] [غافر: ١٧].

قوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ...**﴾ لما بين أن كفار مكة يُصِرُّونَ على كفرهم بين أن كثيراً من المتقدمين أيضاً كانوا كذلك، وبين حصول هذه الصفة في أكثر قوم فرعون.

قوله: «وَلَقَدْ فَتَنَّا» بالتشديد على المبالغة، أو التكثير لكثرة[٥] متعلّقه[٦]. «وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ» يحتمل الاستئناف والحال[٧].

---

(١) مفهوم كلام أبي الفتح في المحتسب ٢/ ٢٦٠ والدر ٤/ ٨١٢.

(٢) اللسان بطش.

(٣) زيادة للسياق.

(٤) وهذا الفصل كله سقط من نسخة ب وانظره في الرازي ٢٧/ ٢٤٤ والقرطبي ١٦/ ١٣٤.

(٥) في ب كثرة بدون لام.

(٦) البحر المحيط ٨/ ٣٥. والكشاف ٣/ ٥٠٢.

(٧) قاله في الدر المصون ٤/ ٨١٣.

فصل

قال ابن عباس ـ (رضي الله عنهما)[١] ـ: ابتلينا[٢]. وقال الزجاج: بلونا[٣] والمعنى: عاملناهم معاملة المختبر ببعث الرسول إليهم «وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ» أي موسى بن عمران. قال الكلبي: كريم على ربه بمعنى أنه استحق على ربه أنواعاً كثيرة من الإكرام.

قوله تعالى: ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾ يجوز أن تكون المفسرة، لتقدم ما هو بمعنى القول، وأن تكون المخففة[٤]، ومعناه[٥]: وجاءهم بأَنَّ الشأنَ والحَدِيثَ: أَدّوا إلي عِبَادَ اللَّهِ، وأن تكون الناصبة للمضارع وهي توصل بالأمر وفي جعلها مخففة إشكال تقدم، وهو أن الخبر في هذا الباب لا يقع طلباً وعلى جعلها مصدرية تكون على حذف حرف الجر، أي جَاءَهُمْ بأَنْ أَدُّوا و «عِباد الله» يحتملِ أن يكون مفعولاً به وذلك أنه طلب منهم أن يؤدوا إليه بني إسرائيل، بدليل قوله: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٠٥] وأن يكون منادًى، والمفعول محذوف أي أعطوني الطاعة يا عباد الله[٦]. وعلل بأنه رسول أمين قد ائتمنه الله على وحيه ورسالته.

قوله: «وأَن لا تعلوا» عطف على «أَنِ» الأولى[٧]، والمعنى لا تتكبّروا على الله بإهانة وحيه ورسولِهِ «إِنِّي آتيكُمْ بِسُلطَانٍ مُبِينٍ» بحجة بينة يعرف بصحتها كُلُّ عاقل.

والعامة على كسر الهمزة من قوله «إِنِّي آتِيكُمْ» على الاستئناف. وقرىء[٨] بالفتح[٩] على تقدير اللام أي وأَنْ لاَ تَعْلُوا لأَنِّي آتيكم.

قوله: «وإِنِّي عُذْتُ بِرَبي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ» وقوله: «إِنِّي عُذْتُ» مستأنف. وأدْغم الذال في التاء أبو عمرٍو والأَخَوانِ[١٠]. وقد مضى توجيهه في «طه» عند قوله: «فَنَبَذْتُهَا»[١١].

فصل[١٢]

قيل: إنه لما قال: ﴿وأَنَّ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ...﴾ توعدوه بالقتل، فقال: وإني

---

(١) زيادة من ب.
(٢) الرازي ٢٧/ ٢٤٥.
(٣) لم أجده في معاني القرآن وإعرابه ٤/ ٤٢٤ بل نقله عنه الرازي.
(٤) انظر البيان ٢/ ٣٥٨ والكشاف ٣/ ٥٠٢ و٥٠٣.
(٥) في ب معناها بالتأنيث.
(٦) انظر في هذه التوجيهات الإعرابية الدر المصون ٤/ ٨١٣.
(٧) السابق.
(٨) في ب وقرأ مبنيًا للمعلوم.
(٩) بدون نسبة في البحر المحيط ٨/ ٣٥ وكذلك المرجع السابق.
(١٠) الإتحاف ٣٨٨.
(١١) من الآية ٩٧ منها. وانظر المرجع السابق.
(١٢) هذا الفصل بأكمله هو الآخر سقط من نسخة ب.

عذت بربي وربكم أن ترجمون أي تقتلوني، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن ترجموني بالقول وهو الشتم وتقولوا: هو ساحر. وقال قتادة: «تَرْجُمُونِي بالحِجَارة». وإن لم تؤمنوا لي أي تصدقوني ولم تؤمنوا بالله، لأجل ما آتيتكم به من الحجة، فاللام في «لِي» لام الأجل «فَاعْتَزِلُون» أي اتركوني، لا مَعِي، ولا عَلَيَّ. وقال ابن عباس (رضي الله عنهما): فاعْتَزِلُوا أذايَ باليد واللسان[١].

قوله: «فَدَعَا رَبَّهُ» الفاء في «فدعا» تدل على أنه متصل بمحذوف قبله، وتأويله أَنَّهُمْ كفروا ولم يؤمنوا فدعا موسى ربه بأن هؤلاء قَوْمٌ مُجْرِمُونَ.

فإن قيل: الكفر أعظم حالاً من الجرم فما السبب في أن جعل الكفار مجرمين حال ما أراد المبالغة في ذمهم؟.

فالجواب: أن الكافر قد يكون عدلاً في دينه (وقد يكون[٢] فاسقاً في دينه) والفاسق في دينه أَخسُّ الناس[٣].

قوله: «أَنَّ هَؤلاَءِ» العامة على الفتح، بإضمار حرف الجر، أي دَعَاهُ بأنَّ هؤلاء. وابن أبي إسحاق وعيسى، والحسن، بالكسر[٤]، على إضمار القول عند البصريين وعلى إجراء «دعى» مجرى القول عند الكوفيين[٥].

قوله: «فَأَسْرِ بِعبَادِي» قد تقدم قراءتا الوَصْلِ والقَطْع[٦]. وقال الزمخشري فيه وجهان: إضمار القول بعد الفاء. أي فقال: أَسْرِ بِعِبَادِي، أو جواب شرط مقدر كأنه قال: إن الأمر كما تقول فَأَسْرِ بِعِبادِي[٧]. قال أبو حيان: وكثيراً ما يدعي حذف الشرط، ولا يجوز إلا لدليل واضح كأن يتقدمه الأمر وما أَشْبَهَهُ[٨].

فصل

يقال: سَرَى، وأَسْرَى لغتان[٩]، لما قال موسى: إنَّ هؤلاء قَوْمٌ مُجْرِمُونَ أجاب الله

---

(١) انظر في هذا الرازي ٢٧/ ٢٤٥ والقرطبي ١٦/ ١٣٥.

(٢) ما بين القوسين سقط من أ الأصل فهو تكملة من ب والرازي على حدٍّ.

(٣) انظر تفسير الرازي ٢٧/ ٢٤٦.

(٤) مختصر ابن خالويه ١٣٧ وهي شاذة غير متواترة.

(٥) ذكر ذلك الفراء في معاني القرآن ٣/ ٤٠ والزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٠٣.

(٦) قراءة الوصل تنسب لنافع وابن كثير وأبي جعفر والقطع قراءة الباقين وعلى القراءتين يختلف ماضيا الفعلين ثلاثياً ورباعياً أيضاً فالماضي سَرَى وأَسْرَى.

(٧) الكشاف ٣/ ٥٠٣.

(٨) البحر المحيط ٨/ ٣٥ قال: في الكلام حذف أي فانتقم منهم فقال الله تعالى: ﴿أسر بعبادي﴾.

(٩) بالهمزة لغة أهل الحجاز وجاء القرآن بهما جميعاً والاسم من «سرى» السُّرْيَة والسُّرَى، قال القرآن: =

تعالى دعاءه وأمره أن يسري فقال: «فَأَسْرِ بِعِبَادِي» أي بني إسرائيل «لَيْلاً إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ» أي يتبعكم فرعون وقومه وذلك بسبب هلاكهم.

قوله: «واتْرُكِ البَحْرَ رَهْواً» يجوز أن يكون «رهواً» مفعولاً ثانياً، على أن ترك بمعنى صَيَّر[(١)] وأن يكون حالاً على أنها ليست بمعناها[(٢)]. والرهو: قيل: السكون[(٣)]، فالمعنى اتْرُكْهُ سَاكناً، يقال رَهَا، يَرْهُو، رَهْواً، ومنه: جَاءَت الخَيْلُ رَهْواً. قال النابغة:

٤٤٢٤ ـ وَالخَيلُ تَمْرَحُ رَهْواً فِي أَعِنَّتِهَا كَالطَّيْرِ يَنْجُو مِنَ الشُّؤْبُوبِ ذي البَرَدِ[(٤)]

وَرَهَا يَرْهُو في سَيْرِهِ أي رَفَقَ، قال القطاميُّ:

٤٤٢٥ ـ يَمْشِينَ رَهْواً فَلاَ الأَعْجَازُ خَاذِلَةٌ وَلاَ الصُّدُورُ عَلَى الأَعْجَازِ تَتَّكِلُ[(٥)]

وعن أبي عبيدة: رهواً أي اتركه منفتحاً فُرَجاً على ما تركته[(٦)].

روي أنه لما انفلق البحر لموسى، وطلع منه خاف أن يتبعه فرعون فأراد أن يضربه ليعود حتى لا يلحقوه، فأمر أن يتركه فرجاً. وأصله من قولهم: رَهَا الرَّجُلُ يَرْهُو رَهْواً فتح ما بين رجليه (قال مقاتل[(٧)]: اترك البحر رهواً أي راهياً يعني ساكناً. فأصل الرهو السكون، فسمي بالمصدر أي ذا رهو. وقال كعب: اترك طريقاً يابساً). والرَّهْوُ والرَّهْوَةُ المكان المرتفع أو المنخفض يجتمع فيه الماء فهو من الأضداد. والرهوة المرأة الواسعة الهن. والرهو طائر يقال له الكُرْكِيّ[(٨)].

= ﴿والليل إذا يَسْرِ﴾ فجاء القرآن باللغتين حيث قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى﴾ وانظر تفصيل هذا في لسان العرب (سرى) ٢٠٠٣.

(١) التبيان ١١٤٦.

(٢) السابق والبيان ٢/ ٣٥٩ وانظر فيهما معاً الدر ٤/ ٨١٤.

(٣) وقد أثر عن قتادة ومجاهد في رواية عنه انظر الغريب ٤٠٢، والمجاز ٢/ ٢٠٨.

(٤) من البسيط له كما في الديوان وروايته: والخيل تمزع غرباً في أعنتها أي تسرع في حدة ونشاط، ورواية تمرح كما في البحر المحيط وعلى رواية الديوان لا شاهد؛ حيث أن شاهد البيت رَهْواً على أن الرهو هو السكون والشؤبوب شدَّة المطر. والمعنى على هذا لا يستقيم إن كانت رهو معناها السير الهادىء. وانظر البيت في الديوان ٢٣ والقرطبي ١٦/ ١٣٧ والبحر المحيط ٨/ ٣١ والمفضليات ٢٩٩ وفتح القدير ٤/ ٥٧٤ والدر المصون ٤/ ٨١٤.

(٥) من البسيط أيضاً له كما في البحر والقرطبي والدر المصون وهو غير منسوب في اللسان رها ١٧٥٩، ونسب في الكشاف إلى الأعشى وهو المخالف حينئذ. والشاهد في «رهواً» فإنه بمعنى الساكن الهادىء الهين وانظر الديوان ٤ والقرطبي ١٦/ ١٣٧ والكشاف ٣/ ٥٠٣ وشرح شواهد الكشاف ٤/ ٥٠٢ بنسبته للقطامي ومجمع البيان ٩/ ٩٦ وديوان المفضليات ٥٥٢، ٦٣٢.

(٦) كذا قال السمين عنه والذي في المجاز: «ساكناً يقال: ازه على نفسك أي ارفق بها» المجاز ٢/ ٢٠٨.

(٧) ما بين القَوْسَيْنِ كله سقط من ب وانظر القرطبي ١٦/ ١٣٧.

(٨) حكى كل هذه الأقوال ابن منظور في اللسان «رها» ١٧٥٨ و٥٩ و٦٠ و٦١ وفيه الاستزادة من معان أخرى أيضاً. وانظر أيضاً الحيوان للجاحظ ٥/ ١٤٩ و٤١٩.

وقد تقدم الكلام في الشعراء على نظير: «كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ»[١].

قوله: «وَمَقَام» العامة على فتح الميم، وهو اسم مكان القيام. وابن هُرْمُز، وقتادةُ، وابنُ السميقع ونافعٌ في رواية خارجة[٢]: بضمها[٣] اسم مكان الإقامة.

والنَّعْمَة ـ بالفتح ـ نَضَارة العَيْشِ ولَذَاذَتُهُ. (قال الزمخشري[٤]: النعمة بالفتح من التَّنعُّم، والنِّعمة بالكسر الإنعام[٥]. وقيل: النَّعمة بالفتح هي المال والزينة كهذه الآية، ومثله: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ﴾ [المزمل: ١١]. وقوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ [فصلت: ٥٠] أي مالاً بعد فَقْرٍ). والجمهور على جرها. ونصبها[٦] أبو رجاء عطفاً على «كَمْ» أي تركوا كثيراً من كذا، وتركوا نَعْمَةً.

قوله: «فَاكِهِينَ» العامة على الألف أي طيّبي الأنْفُسِ، أو أصحاب فاكهة كَلاَبِنٍ وتَامِرٍ وقيل: فاكهين: لاهِينَ. وقرأ الحسن وأبو رجاء: فَكِهِينَ[٧]، أي مستخفين مستهزئين بنعمة الله.

قال الجوهري: يقال: فَكِهَ الرَّجُلُ ـ بالكسر ـ فَهُوَ فَكِهٌ، إذا كان مَزَّاحاً. والفكه أيضاً الأشر البَطِر[٨].

قوله: «كذلك» يجوز أن تكون الكاف مرفوعة المحل، خبراً لمبتدأ مضمرٍ، أي الأمر كذلك. وإليه نحا الزجاج[٩]، ويجوز أن تكون منصوبة المحلّ، فقدرها الحَوْفِيُّ أهْلَكْنَا إهلاكاً، وانتقمنا انتقاماً كذلك[١٠].

وقال الكلبي: كذلك أفعَل بمن عصا[١١]. وقيل: تقديره: يَفْعَلُ[١٢] فِعْلاً كَذَلِكَ[١٣].

---

(١) عند قوله: ﴿فِي جنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وزُرُوعٍ ونَخِيلٍ طَلْعُهَا هَضِيم﴾ من الآيات ١٤٧، ١٤٨ منها حين أفرد وخص الزرع مع أنها من الجنات تنبيهاً على الأفضلية للزروع وأن يراد بالجنات غير الزروع، بالمعنى من هناك، ٧/ ٢٥٣ ب.

(٢) هو خارجة من مصعب أبو الحجاج الضبيعي أخذ عن نافع وأبي عمرو، وله شذوذ وعنه العباس بن الفضل وغيره مات سنة ١٦٨ هـ انظر غاية النهاية ١/ ٢٦٨.

(٣) البحر ٨/ ٣٦ وحجة ابن خالويه ٢٣٩ و٣٢٢.

(٤) ما بين القوسين سقط من ب.

(٥) الكشاف ٣/ ٥٠٣.

(٦) البحر المحيط ٨/ ٣٦ وهي شاذة.

(٧) الكشاف ٣/ ٥٠٣ والإتحاف ٣٧٧.

(٨) الصحاح ٦/ ٢٢٤٣ فكه.

(٩) انظر معاني القرآن وإعرابه له ٤/ ٤٢٦.

(١٠) البحر المحيط ٨/ ٣٦.

(١١) السابق وانظر أيضاً القرطبي ١٦/ ١٣٩ وهي على هذا مبتدأ والخبر محذوف.

(١٢) في ب نفعل تحريف.

(١٣) نقله أبو البركات ابن الأنباري في البيان ٢/ ٣٥٩. وانظر كل هذه الأوجه في الدر المصون للسمين الحلبي ٤/ ٨١٥.

وقال أبو البقاء: تَرْكاً كذلك[١]، فجعله نعتاً للتَّرْك المحذوف، وعلى هذه الأوجه كلها يوقف على «كذلك»، ويبتدأ: «وَأَوْرَثْنَاهَا» (قَوْماً آخَرِينَ)[٢]. (وقال الزمخشري[٣]: الكاف منصوبة على معنى مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها[٤]، وأورثنا قَوْماً آخرين)، ليسوا منها يعني بني إسرائيل، فعلى هذا يكون: «وَأَوْرَثْنَاهَا» معطوفاً على تلك الجملة الناصبة للكاف فلا[٥] يجوز الوقف على «كَذَلِكَ» حِينَئِذٍ.

قوله: «فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِم السَّمَاءُ» يجوز أن يكون استعارة، كقول الفرزدق:

٤٤٢٦ ـ وَالشَّمْسُ طَالِعةٌ لَيسَتْ بكَاسِفَةٍ تَبْكِي عَلَيكَ نُجُومَ اللَّيلِ وَالْقَمَرَا[٦]

وقال جرير:

٤٤٢٧ ـ لَمَّا أَتَى خَبَرُ الزُّبَيْرِ تَوَاضَعَتْ سُورُ المَدِينَةِ وَالْجِبَالُ الخُشَّعُ[٧]

وقال النابغة:

٤٤٢٨ ـ بَكَى حَارِثُ الجَوْلاَنِ مِنْ فَقْدِ رَبِّهِ وَحَوْرَانُ مِنْهُ خَاشِعٌ مُتَضَائِلُ[٨]

فصل

روى أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: مَا مِنْ عَبْدٍ إلاَّ وَلَهُ فِي السَّمَاءِ بَابَانِ، بابٌ يَخْرُجُ مِنْهُ رِزْقُه، وبَابٌ يَدْخُلُ مِنْهُ عَمَلُهُ. فَإِذَا مَاتَ وَفَقَدَاهُ بَكَيَا عَلَيْهِ، وتَلاَ هذه الآية، وذلك لأنهم لم يكونوا يعملون على الأرض عملاً صالحاً فتبكي عليه، ولم يكن يصعد لهم إلى السماء كلامٌ طيب، ولا عمل صالح فتبكي عليهم. وقيل: التقدير: فما بكت عليهم أهْلُ السماء والأرض، فحذف المضاف والمعنى: فما بكت عليهم الملائكة، ولا المؤمنون بل كانوا لهلاكهم مسرورين.

---

(١) التبيان ١١٤٦.
(٢) زيادة من ب.
(٣) ما بين القوسين ساقط من ب.
(٤) الكشاف ٣/ ٥٠٣.
(٥) الدر المصون ٤/ ٨١٥.
(٦) من البسيط لجرير وليس للفرزدق في رثاء خامس الخلفاء عمر بن عبد العزيز. والشاهد: تبكي عليك نجوم إسناد الفعل إلى الشمس لأن النجوم والقمر باكين الشمس على المرثي فبكتهن فهنا مغالية انظر أمالي المرتضى ١/ ٥٢ و٥٣ والبحر ٨/ ٤٦ والمذكر والمؤنث ٢١٩ والكامل ٢/ ١٤١ وديوان «جرير» ٣٧٢.
(٧) من الكامل لجرير في هجاء الفرزذق. والشاهد: إسناد التواضع إلى السور والجبال إسناداً مجازيًّا، وقد تقدم.
(٨) من الطويل للنابغة كما في الديوان ١٢١ وشاهده كسابقيه من إسناد الفعل إلى الجماد إسناداً مجازياً على سبيل الاستعارة. وحارث وحوران من مرتفعات الجولان وفي الديوان «موحش» بدل خاشع وانظر اللسا (جول) ٧٣١.

وقيل: إن العادة جرت بأن يقولوا في هلاك الرجل العظيم الشأنِ إنه أظلمت له الدنيا، وكسفت الشمس والقمر لأجله، وبكت السماء والريح والأرض. يريدُونَ المبالغة في تعظيم تلك المصيبة لا نفس هذا الكتاب[١]. وقال الزمخشري: ذكر هذا على سبيل السخرية بهم[٢] يعني أنهم كانوا يستعظمون أنفسهم ويعتقدون أنهم لو ماتوا لبكت عليهم السماء والأرض، ولم يكونوا بهذا الحَدِّ، بل كانوا دون ذلك، فذكر هذا تهكماً بهم[٣]. وقال عطاء: بكاء السماء حُمْرَةُ أطرافِهَا. وقال السدي: لما قتل الحسين بن علي ـ رضي الله عنهما ـ بكت عليه السماء وبكاؤها حُمْرَتُها «وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ» أي لما جاء وقت هلاكِهم لم ينظروا إلى وقت آخر لتوبةٍ وتدارك تقصيرٍ.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ العَذَابِ المُهِينِ﴾ وهو قتل الأبناء واستحياء النساء والتعب في العمل. واعلم أن رفع الضرر مقدم على إيصال النفع، فبدأ تعالى ببيان رفع الضرر عنهم فقال: «وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ العَذَابِ المُهِينِ».

قوله: «من فرعون» فيه وجهان:

أحدهما: أنه بدل من «العذاب»، إمَّا على حذف مضاف، أي من عَذَابِ فِرْعَوْنَ، وإما على المبالغة جعل نفس العذاب، فأبدله منه.

والثاني: أنه حال من العذاب تقديره: صادراً مِنْ فِرْعَوْنَ[٤]. وقرأ عبد الله: مِنْ عَذَاب المُهِينِ[٥]، وهي من إضافة الموصوف لصفته، إذ الأصل: العذاب المهين كالقراءة المشهورة. وقرأ ابن عباس ـ (رضي الله عنهما)[٦] ـ مَنْ فِرْعَوْنُ؟ بفتح ميم «مَن»[٧] ورفع فرعون على الابتداء والخَبَر، وهو استفهام تحقير، كقولك: مَنْ أَنْتَ وَزَيْداً[٨]؟ ثم بين حاله بالجملة بعد في قوله: «إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِنَ المُسْرِفِينَ». والتقدير: هل تعرفون من هو في عُتُوه وشَيْطَنَته؟ ثم عرف حاله بقوله: «إِنَّه كَانَ عَالِياً مِنَ المُسْرِفِينَ» أي كان عالي الدرجة في طبقة المسرفين، ويجوز أن يكون المراد إنه كان عالياً كقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤] وكان أيضاً مسرفاً ومن إسرافه أنه كان على حقارته وخسته

---

(١) كذا كتبها ناسخ المخطوط وفي الرازي: الكذب ٢٧/ ٢٤٦ و٢٤٧.
(٢) الكشاف ٣/ ٥٠٤. (٣) الرازي السابق.
(٤) الدر المصون ٤/ ٨١٦.
(٥) في أ مهين والتصحيح من ب وانظر في هذه القراءة الكشاف ٣/ ٥٠٤ ومختصر ابن خالويه ١٣٨ وهي شاذة.
(٦) زيادة من أ.
(٧) من شواذ القراءات انظر الكشاف ٣/ ٥٠٤ والبحر المحيط ٨/ ٣٧.
(٨) كذا في النسختين: وزيداً بالنصب والأصح: زيد رفعاً.

ادَّعى الإلهية. ولما بين الله تعالى (أنه)[١] كيف دفع عن بني إسرائيل الضرر، بين أنه كيف أوصل إليهم الخيرات فقال: «وَلَقَد اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى العَالَمِينَ» والمراد اخترنا مؤمني بني إسرائيل على عالَمِي زمانهم[٢].

قوله: «على علم» متعلقة بمحذوف، لأنها حال من الفاعل في «اخترناهم» و «على العالمين»، متعلقة باخترناهم[٣]. وفي عبارة أبي حيان: أنه لما اختلف مدلولهما جاز تعلقهما باخترنا، وأنشد على ذلك (الشاعر)[٤] (رحمةُ اللَّهِ عَلَيْهِ)[٥]:

٤٤٢٩ ـ وَيَوْماً عَلَى ظَهْرِ الكَثِيبِ تَعَذَّرَتْ عَـلَـيَّ وآلَـتْ حَـلْـفَـةً لَـمْ تُـحَـلَّـلِ[٦]

ثم قال: فـ «على علم» حال إما من الفاعل، أو من المفعول، و «على ظهر» حال من الفاعل في «تعذرت» والعامل في الحال هو العامل في صاحبها. (وفيه نظر[٧]، لأن قوله أولاً: ولذلك تعلقا بفعل واحد لما اختلف المدلول ينافي جعل الأولى حالاً، لأنها لم تتعلق به[٨]، وقوله: والعامل في الحال هو العامل في صاحبها) لا ينفع في ذلك[٩].

فصل

قيل: هذه الآية تدل على كونهم أفضل من كل العَالَمِينَ. وأجيب: بأن المراد على عَالَمِي زَمَانِهِمْ وقيل: هذا عام دخله التخصيص. كقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[١٠] [آل عمران: ١١٠].

قوله: «وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الآيَاتِ» مثل فَلْق البحر، وتَظْلِيلِ الغمام وإنزال المَنِّ والسَّلوَى، والنِّعم التي أنعمها عليهم. وقال ابن زيد: ابتلاهم بالرخاء والشدة، وقرأ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[١١] [الأنبياء: ٣٥]؛ لأنه تعالى كما يبلو بالمحنة فقد يبلو أيضاً بالنعمة، ليتميز به الصديق على الزِّنديق. وههنا آخر الكلام على قصة موسى عليه الصلاة والسلام.

---

(١) سقط من ب.
(٢) انظر تفسير الإمام الفخر الرازي ٢٧/ ٢٤٧ و٢٤٨.
(٣) الدر المصون ٤/ ٨١٧.
(٤) سقط من ب وكان الأولى: أبو حيان بدل الشاعر.
(٥) زيادة من أ.
(٦) من الطويل وينسب لامرىء القيس والكَثِيبُ الرمل الكثير والتعذر التشدد، وآلت حلفت والشاهد جعل «على ظهر» حالاً من فاعل تعذرت كما تعلق قوله «على» بنفس الفعل وإن اختلف معنى الحرفين. وانظر السبع الطوال ٤٢ والبحر ٨/ ٣٨ والهمع ١/ ٨٧، وشرح المعلقات السبع للزوزني ١٣.
(٧) سقط من ب ما بين الاقواس.
(٨) فقد تعلقت بمحذوف أي «اخترناهم عالمين بمكان الخيرة» انظر الكشاف ٣/ ٥٠٤.
(٩) وإذا لم تكن حالاً منه لأنها لم تتعلق به فكيف يكون عاملاً فيها؟
(١٠) وقد ذكر الوجهين الرازي فهما رأيهُ انظر تفسيره ٢٧/ ٢٤٨.
(١١) انظر القرطبي ١٦/ ١٤٣.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ (٣٥) فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٣٦) أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ (٣٧) وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٩)﴾

قوله: «إِنَّ هَؤُلاَءِ لَيَقُولُونَ» يعني مشركي مكة، ليقولون: «إنْ هِيَ إلاَّ مَوْتَتَنَا الأوْلَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ» بمبعوثين بعد موتنا. واعلم أنه رَجَعَ إلى ذكر كفار مكة؛ لأن الكلام كان فيهم حيث قال: «بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ» أي بل هم في شك من البعث والقيامة. ثم بين كيفية إصرارهم على كفرهم ثم بين أن قوم فرعون كانوا في الإصرار على الكفر مثلهم، وبين كيف أهلكهم وكيف أنعم على بني إسرائيل ثم رجع إلى كفار مكة وإنكارهم للبعث فقال: «إنَّ هَؤلاَءِ لَيَقُولُونَ: إنْ هِيَ إلاَّ مَوْتَتَنَا الأوْلَى».

فإن قيل: القوم كانوا ينكرون الحياة الثانية، فكان من حقهم أن يقولوا: إن هي إلا حياتنا الأولى وما نحن بمنشرين.

فالجواب: قال الزمخشري: إنه قيل لهم: إنكم تموتون موتةً يَعْقُبُهَا حياةٌ كما أنكم حال كونكم نطفاً كنتم أمواتاً وقد يعقبها حياة، كقوله: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] فقالوا: إنْ هِيَ إلاَّ مَوْتَتَنَا الأوْلَى يريدون: ما الموتة التي من شأنها أن تعقبها حياة إلا الموتة الأولى خاصة، ولا فرق إذن بين هذا الكلام وبين قوله: «إنْ هِيَ إلاَّ حَيَاتُنا الأولى»[١]. قال ابن الخطيب: ويمكن وجه آخر وهو أن قوله: إن هي إلا موتتنا الأولى، يعني أنه لا يأتينا من الأحوال الشديدة إلا الموتة الأولى وهذا الكلام (لا)[٢] يدل على أنهم لا يأتيهم الحياة الثانية ألبتةَ، ثم صرحوا بهذا المرموز فقالوا: «وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ». ولا حاجة إلى التكليف الذي ذكره الزمخشري[٣]. ثم إنَّ الكفار احتجوا على نفي الحشر، والنشر بأن قالوا: إن كان البعث والنشر ممكناً معقولاً فعجِّلوا لنا إحياء من مات من آبائنا إن كنتم صادقين في دعوى النبوة والبعث في القيامة. قيل: طلبوا من الرسول ـ ﷺ ـ أن يَدْعُوَ الله حتى ينشر قصَيَّ بْن كِلاَب، ليشاوروه في صحة نبوة محمد وفي صحة البعث. ولما حكى الله تعالى عنهم ذلك قال: «أَهُمْ خَيْرٌ أمْ قَوْمُ تُبَّع والَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أهْلَكْنَاهُمْ إنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ» وهذا استفهام على سبيل الإنكار[٤] قال أبو عبيدة: (ملوك[٥] اليمن) كل واحد منهم يسمى تُبَّعاً؛ لأن أهل المدينة

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٠٤و ٥٠٥ بالمعنى وباللفظ من الرازي ٢٧/ ٢٤٩.

(٢) زيادة عن الرازي.

(٣) انظر الرازي ٢٧/ ٢٤٩.

(٤) انظر الرازي المرجع السابق.

(٥) سقط من ب ما بين القوسين.

كانوا يتبعونه، وموضع («تبع»[1]) في الجاهلية موضع الخليفة في الإسلام وهم الأعاظِمُ من ملوك العرب[2] قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ كان تُبَّعُ رَجُلاً صالحاً[3]. وقال[4] كَعْبٌ: ذَمَّ الله ولَمْ يَذُمَّه وقال الكلبي: هو أبو كرب (أبو)[5] أسعد[6]. وعن النبي ـ ﷺ ـ: «لاَ تَسُبُّوا تبَّعاً فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ أَسْلَمَ»[6]. وعنه ـ ﷺ ـ: «مَا أَدْرِي أَكَانَ تُبَّعٌ نَبِيًّا أَمْ غَيْرَ نَبِيٍّ». وقال قتادة: هو تبَّعٌ الْحِمْيَرِيّ، وكان سار بالجيوش حتى حير[7] الحيرة وبنى سمرقند، وكان من ملوك اليمن يسمى تُبَّعاً لكثرة أتباعه، كل واحد منهم يسمى تبعاً، لأنه يتبع صاحبه، وكان هذا يعبد النار، فأسلم ودعا قومه إلى الإسلام، وهم حِمْيَر. فكذبوه[8]. (قال ابن[9] إسحاق: وكان اسمه بيان أسعد أبو كرب وقصَّتُهُ مسرودة؛ لأنه كان يعبد الأوثان، وأنه أسلم على يد حَبْرَيْنِ عالميْن، وأنه أتى البيت الحرام فطاف به، ونحر عنده، وحلق رأسه، وأقام بمكة ستة أيام ينحر بها للناس ويُطْعِمُ أهلها ويسقيهم العسل، وأُري في المنام أن يكْسُوَ البيت، فكساه الخَصَفَ[10]، ثم أري أن يكسوه أحسن من ذلك فكساه المعافري، ثم أري أن يكسوه أحسن من ذلك فكساه الملا والوصائل. وكان تبع أول من كسا البيت وأوصى به ولاته من خزاعة فأمرهم بتطهيره، وأن لا يقربوه دَماً ولا مِيتَةً، ولا مِيلاَثاً، وهي المحايِضُ وجعل له باباً ومفتاحاً، وقصته مع الحَبْرَينِ مشْهُورَة وأيضاً وأنه رَجَعَ إلى اليمن وتبع الحبرين على دينهما ولذلك كان أصل دين اليهودية باليَمَنِ).

فإن قيل: ما معنى قوله: «أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ» مع أنه لا خير في الفريقين؟

فالجواب: أن معناه أهم خير في القوة والشوكة كقوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ [القمر: ٤٣] بعد ذكر آلِ فِرْعَوْنَ[11].

قوله: «والَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» يجوز فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون معطوفاً على قوم «تُبَّع».

---

(١) سقط كذلك من ب. (٢) انظر المجاز لأبي عبيدة ٢/ ٢٠٩.
(٣) في عامة التفسير: أنه مؤمن وصالح لا صابىء كما في النسختين فهذا تحريف.
(٤) في النسختين: وقالت والأصح: وقال كعب كما أثبت أعلى وكما نقلته التفاسير.
(٥) أبو زيادة من النسختين وانظر فيما سبق الرازي السابق والقرطبي ١٦/ ١٤٤، ١٤٦ والكشاف ٣/ ٥٠٥.
(٦) مسند الإمام أحمد ٥/ ٣٤٠. (٧) كذا في الكشاف وغيره وفي القرطبي عبر.
(٨) وانظر الرازي والكشاف والقرطبي المراجع السابقة.
(٩) ما بين القوسين كله سقط من ب.
(١٠) الخَصَفُ بمحركات علوية ثياب غليظة جداً انظر اللسان في تلك القصة خصف ١١٧٤، ١١٧٥ والبغوي.
(١١) الرازي ٢٧/ ٢٤٩.

الثاني: أن يكون مبتدأ، وخبره ما بعده من: «أَهْلَكْنَاهُمْ» وأما على الأول: «فأَهْلَكْنَاهُمْ» إما مستأنفٌ وإما حال من الضمير المستكنّ في الصلة.

الثالث: أن يكون منصوباً بفعل مقدر يفسره «أَهْلَكْنَاهُمْ» ولا محلّ لـ «أهلكناهم» حينئذ[١].

قوله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاواتِ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ**﴾ لما أنكر على كفار مكة قولهم ووبخهم بأنهم أضعف ممن كان قبلهم ذكر الدليل القاطع على صحة القول بالبعث والقيامة، فقال: «وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين» أي لو لم يحصل البعث لكان هذا الخلق لعباً وعبثاً وقد تقدم تقدير هذا الدليل في أول سورة يونس، وفي آخر سورة المؤمنين عند قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥] وفي «ص» عند قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص: ٢٧] وتقدم أيضاً استدلال المعتزلة بنظير هذه الآية على أنه تعالى لا يخلق الكفر والشرك ولا يريدهما وتَقَدَّمَ جَوَابُهُمَا.

قوله: «لاَعِبِينَ» حال. وقرأ عَمْرُو بْنُ عُبَيْد[٢]: وَمَا بَيْنَهُنَّ، لأن السموات والأرض جمعٌ. والعامة: «بينهما» باعتبار النوعين.

قوله «إلاَّ بالْحَقِّ» حال إما من الفاعل وهو الظاهر وإما من المفعول أي إلاَّ مُحِقِّينَ أو ملتبسين بالحق ثم قال: «وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ» (يعني[٣] أهل مكة).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾

قوله: «إِنَّ يَوْمَ الفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ» العامة على رفع ميقاتهم خبراً لـ «إنّ». وقرىء بنصبه[٤] على أنه اسم إنَّ، و «يَوْم الفَصل» خبره. وأجمعوا على تأكيد الضَّمير المجرور[٥].

---

(١) التبيان ١١٤٦ والدر المصون ٤/ ٨١٧.

(٢) الأصح كما في الكشاف عبيد بن عمير بن قَتَادَةَ أبو عاصم الليثي المكي القاصّ وردت الرواية عنه في حروف مات سنة ٧٤ مِنَ الهجرة انظر غاية النهاية ١/ ٤٩٦ و٤٩٧ وانظر القراءة في الكشاف ٣/ ٥٠٥ والدر المصون ٤/ ٨١٨.

(٣) زيادة من ب.

(٤) القارىء بها عُبَيْد بن عُمَيْر على ما ذكره الزمخشري في كشافه ٣/ ٥٠٥. وانظر الدر المصون ٤/ ٨١٧.

(٥) المرجع السابق والتبيان ١١٤٦.

(فصل[١])

لما ذكر الدليل على إثبات البَعْث والقيامة ذكر عَقِيبه يوم الفصل قال الحسن: سمي بذلك لأن الله تعالى يفصل فيه بين أهل الجنة، وأهل النار. وقيل: إن الله يفصل فيه بين العباد في الحكم والقضاء. وقيل: يفصل بين المؤمن وبين ما يكره، ويفصل بين الكافر وبين ما يريد. وقيل: يظهر حال كل أحد كما هو فلا يبقى إلاَّ الحقائقُ والبَيِّنات، ثم وصف ذلك اليوم[٢] فقال: «يَوْمَ لاَ يُغْني» يجوز أن يكون بدلاً[٣] من «يَوْم الفَصْلِ» أو بياناً عند من لا يشترط المطابقة تعريفاً[٤] وتنكيراً. أو أن يكون منصوباً بإضمار أعني[٥]، وأن يكون صفة لميقاتهم ولكنه بني. قاله أبو البقاء[٦]. وهذا لا يتأتى عنه البصريين لإضافته إلى معرب، وقد تقدم آخر المائدة[٧]، وأن ينتصب بفعل يدل عليه «يوم الفصل» أي يفصل بينهم يَوْمَ لا يُغْنِي[٨]، ولا يجوز أن ينتصب بـ «الفَصْل» نفسه لما يلزم من الفصل بينهما بأَجْنَبِيٍّ وهو «مِيقَاتُهُمْ» والفصل مصدر لا يجوز فيه ذلك.

وقال أبو البقاء: لأنه قد أخبر عنه[٩]، وفيه تَجوز، فَإنَّ الإخبار عما أضيف إلى الفَصْل لا عن الفصل[١٠]).

قوله: «مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً» لا ينفع قريبٌ قَرِيبَهُ، ولا يدفع عنه «وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ» أي ليس لهم ناصر يمنعهم من عذاب الله. واعلم أن القريب إما في الدين أو في النَّسب أو المعتق وكل هؤلاء يُسَمَّوْنَ بالمولى فلما لم تحصل النصرة لهم فبأن لا تحصل مِمَّنْ سواهم أولى. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ١٢٣] إلى قوله: «وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ» قال الواحدي: المراد بقوله: مولى عن مولى الكفار، لأنه ذكر بعده المؤمن فقال: «إلاَّ مَنْ رَحِمَ اللَّهُ» قال ابن عباس ـ (رضي الله عنهما)[١١] ـ يريد المؤمن فإنه يشفع له الأنبياءُ والملائكةُ[١٢].

---

(١) ما بين القوسين كله سقط من نسخة ب.
(٢) الرازي ٢٧/ ٢٥٠.
(٣) التبيان السابق والبيان ٢/ ٣٦٠.
(٤) وأبرز إنسان لا يشترطُ الزمخشريُّ وحكايته معروفة في قوله: ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ على قوله تعالى: ﴿آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ من الآية ٩٧ من آل عمران. وانظر هذا الوجه في الدر المصون ٤/ ٨١٧ ورأي الزمخشري في توضيح المقاصد ٣/ ١٨٥.
(٥) الدر المصون المرجع السابق.
(٦) التبيان ١١٤٦.
(٧) من الآية ١١٩: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾.
(٨) التبيان المرجع السابق.
(٩) السابق.
(١٠) وانظر هذا كله في الدر المصون ٤/ ٨١٧ و٨١٨.
(١١) سقط من ب.
(١٢) انظر هذا كله في الرازي ٢٧/ ٢٥١.

قوله: «وَلاَ هُمْ» جمع الضمير عائداً به على «مَوْلى»، وإن كان مفرداً؛ لأنه قصد معناه، فجمع وهو نكرة في سياق النفي تَعُمُّ[١].

قوله: «إلاَّ مَنْ رَحِمَ اللَّهُ» يجوز فيه أَرْبَعَة أَوْجُهٍ:

أحدها: وهو قول الكسائي أنه منقطع[٢].

الثاني: أنه متصل تقديره: لا يُغْني قريبٌ عن قريبٍ، إلا المؤمنين فإنهم يُؤْذَنُ لهم في الشفاعة فيَشْفَعُونَ في بعضهم[٣] كما تقدم عن ابن عباس.

الثالث: أن يكون مرفوعاً على البدلية من «مَوْلًى» الأول، ويكون «يُغْنِي» بمعنى ينفع قاله الحوْفيُّ[٤].

الرابع: أنه مرفوع المحل أيضاً على البدل من واوِ «يُنصَرُونَ» أي لا يمنع من العذاب إلا من رحمه الله[٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: **﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّوم طَعَامُ الأَثِيم﴾** لما وصف اليوم ذكر بعده وعيد الكفار. قال الزمخشري في «شجرة» ثلاث لغات، كسر الشين، وضمها، وفتحها[٦]. وتقدم اشتقاق لفظ «الزَّقُّوم» في سورة الصَّافَّات[٧]، و «الأَثِيمُ» صفة مبالغة ويقال: الأَثُوم كالصَّبُورِ والشَّكُورِ[٨]. و «الأَثِيم» أي ذِي الإثْم.

قال المفسرون: هو أبو جهل. قالت المعتزلة: هذه الآية تدل على حصول هذا الوعيد للأثيم، وهو الذي صدر عنه الإثم، فيكون حاصلاً للفسَّاقِ.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٩ والقرطبي ١٦/ ١٤٨ «أي لكن من رحم الله لا ينالهم ما يحتاجون فيه إلى من يُغْنِيهم من المخلوقين» وهو نفس رأي الفراء انظر المعاني ٣/ ٤٢.

(٢) السابق فهو رأي الفراء.

(٣) انظر المرجع السابق فهو رأي الفراء أيضاً.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٣٩ وانظر المشكل لمكي ٢/ ٢٩١.

(٥) المرجع الأخير السابق، وانظر كل هذه الأوجه في السمين ٤/ ٨١٨.

(٦) كذا في النسخ وما في الكشاف: «وفيها ثلاث لغات: شَجَرَة بفتح الشين وكسرها وشيرة بالياء». وفي الرازي زاد: وشبرة بالباء فتكون أربع لغات انظر الكشاف ٣/ ٦ والرازي ٢٧/ ٢٥١.

(٧) تقدم.

(٨) اللسان (أثم) ٢٩.

والجواب: أن اللفظ المفرد الذي دخل تحته حرف التعريف الأصلُ فيه أن ينصرف إلى المذكور السابق، ولا يفيد العموم، والمذكور السابق هنا هو الكفار فينصرف إليه.

فصل

مذهب أبي حنيفة ـ (رضي الله عنه)[١] ـ أن قراءة القرآن بالمعنى جائز واحتج عليه بأنه نقل عن ابن مسعود ـ (رضي الله عنه)[٢] ـ أنه كان يقرىء رجلاً هذه الآية فكان يقول: طَعَامُ اليَثِيمِ[٣] فقال: طَعَامُ الفَاجِرِ. وهذا الدليل في غاية الضعف على ما بُيِّنَ في الفِقْه[٤].

قوله: «كَالْمُهْلِ» يجوز أن يكون خبراً ثانياً، وأن يكون خبر مبتدأ مضمر، أي هُوَ كَالْمُهْلِ. ولا يجوز أن يكون حالاً من: «طَعَام الأثِيم». قال[٥] أبو البقاء: لأنه لا عامل إذَنْ. وفيه نظر؛ لأنه يجوز أن يكون حَالاً والعامل فيه معنى التشبيه، كقولك: زَيْدٌ أَخُوكَ شُجَاعاً[٦].

والمهل قيل: دُرْدِيّ الزيت. وقيل: عَكَرُ القطران. وقيل: ما أُذِيبَ من ذهب أو فضةٍ. وقيل: ما أذيب منهما ومن كل ما في معناهما من المُنْطَبعَاتِ كالحَدِيد والنُّحاس والرَّصَاص[٧]. والمَهَلُ بالفتح التُّؤَدَةُ والرِّفق، ومنه: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: ١٧]. وقرأ الحسن: كَالْمَهْلِ[٨] ـ بفتح الميم فقط ـ وهي لغة في المُهْل بالضم[٩]. وتقدم تفسيره في الكهف[١٠].

قوله: «يَغْلِي» قرأ ابنُ كثير وحَفْصٌ بالياء[١١] من تحت والفاعل ضمير يعود على «طَعَام». وَجوَّز أبُو البقاء أن يعود على الزقوم. وقيل: على المهل نفسه[١٢]. و «يَغْلِي»

---

(١) و (٢) سقط من ب.

(٣) كذا في أ اليثيم وهي على ما في الكشاف ٣/ ٥٠٦ ونقله عن أبي الدرداء، وفي ب اليتيم وفي الرازي اللئيم.

(٤) في ب اللغة والتصحيح من أ والرازي.

(٥) في ب قاله وانظر هذا الإعراب في الكشاف ٣/ ٥٠٦ والتبيان ١١٤٦.

(٦) قاله السمين في الدر ٤/ ٨١٩.

(٧) انظر هذه الأقوال في الرازي ٢٧/ ٢٥١ والكشاف ٣/ ٥٠٦ ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤/ ٤٢٨.

(٨) من الأربع فوق العشر المتواترة، انظر الإتحاف ٣٨٨ ومختصر ابن خالويه ١٣٧ وهي شاذة غير متواترة.

(٩) كما قال بذلك صاحب اللسان قال: «والمَهْل والمُهْلَةُ والمُهْلُ صديد الميت» انظر اللسان (مهل) ٤٢٨٩.

(١٠) من قوله: ﴿كَالْمُهْلِ يَشْوِي الوُجُوهَ﴾ ٢٩ منها وانظر اللباب ٦/ ٢٣٧ ب.

(١١) و (١٢) انظر البيان ٢/ ٣٦٠ ومعاني القرآن ٣/ ٤٣ والتبيان ١١٤٦، وحجة ابن خالويه ٣٢٥.

حال من الضمير المستتر في الجار أي منهما المهل غالياً. وجوز أبو البقاء أن يكون خبر مبتدأ محذوف، أي هُوَ يَغْلِي[(١)]، أي الزقوم أو الطعام. والباقون[(٢)] تَغْلِي بالتاء من فوق، على أن الفاعل ضمير الشجرة[(٣)] والجملة خبر ثانٍ أو حال على رأي، أو خبر مبتدأ مضمر، أي هِيَ تَغْلِي[(٤)] (واختار[(٥)] أبو عبيد الياء؛ لأن الاسم المذكور الذي هو المهل هو الذي يلي الفعل نعتاً، والتذكير به أولى). قوله: «كَغَلْي الْحَمِيم» نعت لمصدر محذوف أو حال من ضميره أي تَغْلِي غَلْياً مِثْلَ غَلْي الْحَمِيم أو تَغلية مُشْبِهاً غَلْيَ الحميم[(٦)]. قال ابن الخطيب: واعلم أنه لا يجوز أن يحمل الغَلْيُ على المُهْل؛ لأن المهل مشبَّه به، وإنما يغلي ما يشبه بالمهل كغلي الحميم، وهو الماء إذا اشتدت حرارته[(٧)].

قوله: «خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ» قرأ نافعٌ وابنُ كثير وابنُ عامر بضم تاء اعتلوه[(٨)] والباقون بكسرها وهما لغتان في مضارع «عَتَلَهُ» أي ساقه بجَفَاءٍ، وغِلْظَة، كعَرَشَ، يَعْرِشُ، ويَعْرُشُ. والعُتُلُّ: الجَافِي الغَلِيظُ قالت اللَّيْثُ: العَتْلُ أن تأخذ تَلْبِيب الرجل فتقتله، أي تَجُرُّه إليك، وتذهب به إلى حَبْسٍ أو محنةٍ. وأخذ فلان بزمام الناقة يَعْتِلُهَا، وذلك إذا قبض على أصل الزِّمام عند الرأس، وقادها قوداً عنيفاً (وقال ابن[(٩)] السِّكِّيت[(١٠)]: عَتَلْتُهُ إلَى السِّجْنِ وأَعْتَلْتُهُ إذا دفعْتَهُ دَفْعاً عَنِيفاً)[(١١)].

قوله: «إلَى سَوَاء الجَحِيم» أي إلى وَسَطِ الجَحِيم، ومعنى الآية: أنه يقال للزبانية: خذوه أي الأثيم فاعتلوه، أي سوقوه بعنف إلى وَسَط الجحيم، «ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الحَمِيم»، كقوله تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ﴾ [الحج: ١٩] إلا أنَّ هذه الاستعارة أكمل في المبالغة كأنه يقول: صبوا عليه عذاب ذلك الحميم ونظيره قوله: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾ [الأعراف: ١٢٦].

---

(١) التبيان السابق.
(٢) عاصم وابن عامر وأبو عمرو ونافع وحمزة والكسائي انظر السبعة ٥٩٢.
(٣) البيان ٢/ ٣٦٠ ومعاني الفراء ٣/ ٤٣ والكشاف ٣/ ٥٠٦.
(٤) التبيان المرجع السابق.
(٥) ما بين القوسين سقط كله من ب وانظر الرازي ٢٧/ ٢٥٣.
(٦) انظر هذا الإعراب في الدر المصون ٤/ ٨١٩.
(٧) الرازي ٢٧/ ٢٥١.
(٨) ويقصد عين الفعل وإلا كان تحريفاً وانظر السبعة ٥٩٢ و٥٩٣ ومعاني القرآن ٣/ ٤٣.
(٩) ما بين القوسين سقط من ب.
(١٠) أبو يوسف بن السكيت يعقوب بن السكيت كان من أكابر أهْلِ اللُّغَة، أَخَذَ عن أبي عمرو الشَّيْبَانيّ والفَرَّاء وابن الأعرابي وعنه أبو سعيد السكريّ، وأبو عِكْرِمَة الضبي وغيرهما مات سنة ٢٤٣ وقيل سنة ٢٤٦ انظر نزهة الألباء ١٢٣.
(١١) وانظر هذا كله في اللسان ٢٨٠١ وعبارته: عَتَلْتُه إِلَى السِّجن وَعَتَنْتُهُ أَعْتِلُهُ وأَعْتُلُه وأَعْتِنُهُ وأَعْتُنُهُ.

قوله: «ذُقْ إنَّكَ أنْتَ» قرأ الكسائيُّ بفتح همزة إنك، على معنى العلة، أي لأنَّك[١]. وقيل تقديره ذق عذاب الجحيم أنك أنت العزيز[٢]، والباقون بالكسر، على الاستئناف المُفيد للعلة، فتتحدُ القراءتان معنى، وهذا الكلام على سبيل التهكم وهو أغيظ لِلْمُسْتَهْزَأ بِهِ[٣].

ومثله قول جرير لشاعر يسمي نفسه زَهْرَةَ اليَمَنِ:

٤٤٣٠ ـ أَلَمْ تَكُنْ فِي وُسُومٍ قَدْ وُسِمْتَ بِهَا ... مِنْ كُلِّ مَوْعِظَةٍ يَا زَهْرَةَ اليَمَنِ[٤]

وهذا الشاعر قد قال:

٤٤٣١ ـ أَبْلِغْ كُلَيْباً وَأَبْلِغْ عَنْكَ شَاعِرَهَا ... أَنِّي الأَعَزُّ وَأَنِّي زَهْرَةُ اليَمَنِ[٥]

ومعنى الآية أنك بالضدِّ منه. روي أن أبا جهل قال لرسول الله ـ ﷺ ـ: مَا بَيْنَ جبلَيْها أعزُّ ولا أكرمُ مِنِّي، فَوَالله لا تَسْتَطِيعُ أَنْتَ وَلاَ رَبُّكَ أَنْ تَفْعَلاَ بِي شَيْئاً. وروي أن خزنة جهنم تقولُ للكافر هذا الكلام إشْفَاقاً بهم وتوبيخاً[٦].

قوله: «إنَّ هَذَا مَا كُنْتُم بِهِ تَمْتَرُونَ» أي تشكون فيه ولا تُؤْمِنُون بِهِ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ (٥٣) كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ (٥٥) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ (٥٦) فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (٥٧) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨) فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ (٥٩)﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ المُتَّقِينَ فِي مَقَام أَمِينٍ﴾ لما ذكر وعيد الكفار أردفه بِآيَاتِ الوعْد فقال: «إنَّ المُتَّقِينَ» قال أهل السنة: كلُّ من اتقى الشرك صدق عليه أنه متق، فوجب أن

(١) السبعة ٥٩٣ وَرُوِيَتْ عن الحَسَنِ بن عليِّ بْنِ أبي طالب. انظر معاني الفراء ٣/ ٤٣ و٤٤.
(٢) وهو قول أبي البقاء التبيان ١١٤٦.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٤٠، والدر المصون ٤/ ٨٢٠.
(٤) من البسيط وهو له والوُسُوم جمع وَسْم وهو أثر الكيّ. والاستفهام للتقرير والمعنى أن جريراً يُخْبِرُ بأن شعراء كثيرين قد وسمهم بهجَائِهِ وهذا على سبيل الاستعارة، والشاهد: يا زهرة اليمن حيث سمَّاه زهرة اليمن على سبيل التهكم متابعةً له وحكاية للفظه الآتي. وانظر ديوانه ٦٧٥ والخصائص ٢/ ٤٦١، والبحر المحيط ٨/ ٤٠ والدر المصون ٤/ ٨٢٠ والحجة للفارسي ٢/ ١٤٣ والمسائل العسكرية ٩٤.
(٥) ونسبه أبو الفتح بن جني في الخصائص إلى بعض اليمانية انظر المراجع السابقة.
(٦) الرازي ٢٧/ ٢٥٢.

يدخل الفساق في هذا الوعد فقال: فِي مَقَامٍ أَمِينٍ[١]. قرأ أهل المدينة[٢] والشام بضمِّ ميم «مُقَام» على المصدر، أي في إقامة وقرأ الباقون بفتح الميم أي في مَجْلِس أمنين آمنوا فيه من الغير[٣]. قال الزمخشري (المقام) ـ بفتح الميم ـ هو موضع القيام والمراد المكان وهو من الخاص الذي جُعل مستعملاً في المعنى العام وبالضم هو موضع الإقامة، والأمين من قولك: أَمِنَ الرَّجُلُ أَمَانَةً فَهُو أَمِينٌ وهو ضد الخائن. فوصف به المكان استعارة؛ لأن المكان المخيف كأنه يَخُون صَاحِبَه[٤].

قوله: «فِي جَنَّاتٍ» يجوز أن يكون بدلاً من قوله: «فِي مَقَامٍ» بتكرير العامل، ويجوز أن يكون خبراً ثانياً وقوله: «يَلْبَسُونَ» يجوز أن يكون حالاً من الضمير المستكن في الجارِّ، وأن يكون خبراً لـ «إنّ» فيتعلّق الجار به، وأن يكون مستأنفاً.

قوله: «مُتَقَابِلِينَ» حال من فاعل «يَلْبَسُونَ»[٥]. وتقدم تفسير السُّنْدُسِ والإِسْتَبْرَقِ والمُقَام.

قوله: «كذلك» في هذه الكاف وجهان:

أحدهما: النصب نعتاً لمصدر، أي نفعل بالمتقين فعلاً كذلك أي مثْلَ ذلك الفِعل.

والثاني: الرفع على خبر ابتداء مضمر أي الأَمرُ كَذلِكَ[٦].

وقدر أبو البقاء قبله جملةً فقال: «تقديره: فَعَلْنَا ذَلِكَ، والأَمْرُ كَذلِكَ»[٧]، ولا حاجة إليه. والوقف على «كذلك» والابتداء بقوله: وَزَوَّجْنَاهُمْ.

قوله: «بِحُورٍ عِينٍ» العامة على تنوين «حُورٍ» موصوفاً «بِعِينٍ». وعكرمة لم يُنَوِّنْ[٨]، أضافهن لأنهن يَنْقَسِمْن إلى «عِينٍ» وغيرِ «عِينٍ». وتقدم تفسير الحُور العِينِ.

فإن قيل: المراد بجلوسهم متقابلين استئناس بعضهم ببعض، والجلوس على هذه الصّفة موحش لأنه يكون كل واحد منهم مطلعاً على ما يفعل الآخر، وأيضاً فالقليل الثواب إذا اطلع على حال من يكثر ثوابه ينغص[٩] عليه!

فالجواب: أن أحوال الآخرة بخلاف أحوالِ الدنيا.

---

(١) السابق. (٢) وهم نافع وابن عامر، وأبو جعفر والأعمش.
(٣) انظر الإتحاف ٣٨٩ والرازي ٢٧/ ٢٥٣ والكشاف ٣/ ٥٠٧.
(٤) المراجع السابقة.
(٥) انظر هذه الإعرابات في التبيان ١١٤٦ و١١٤٧ والدر المصون ٤/ ٨٢٠ والبيان ٢/ ٣٦١.
(٦) الدر المصون٤/ ٨٢٠ والكشاف ٣/ ٥٠٧.
(٧) التبيان ١١٤٧.
(٨) قراءة شاذة غير متواترة انظر المحتسب ٢/ ٢٦١، والكشاف ٣/ ٥٠٧، والدر المصون ٤/ ٨٢٠.
(٩) في ب يبغض.

فصل

قال أبو عبيدة: معنى «وَزَوَّجْنَاهُمْ» أي جعلناهم أزواجاً، كما يزوح النَّعْلُ بالنَّعْلِ[١] أي جَعَلْنَاهُم اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ. واختلفوا في هذا اللفظ هل يدل على حصول عقد التزويج أم لا؟ فقال يونس[٢]: قوله تعالى: ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ قَرَنَّاهُمْ بِهِنَّ وليس من عقد التزويج، والعرب لا تقول: تَزَوَّجْتُ بِهَا، وإنَّما تقول: تَزَوَّجْتُهَا. قال الواحديُّ: (ـ رحمه الله ـ)[٣]: والتنزيل نزل على ما قال يونس، وذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧] ولو كان المراد تَزَوَّجْتُ بِهَا لقال: زَوَّجْنَاكَ بِهَا[٤].

فصل

قال الواحدي: وأصل الحور البَيَاض، والتَّحْوير التبييض، وقد تقدم في تفسير الحَوَارِيِّينَ[٥]. وعين حوراء إذا اشتدَّ بَيَاضُ بَيَاضِهَا، واشْتَدَّ سَوَادُ سَوَادِهَا، ولا تسمى المرأة حَوْرَاءَ حتى يكون حَوَرُ عَيْنَيْهَا بَيْضَاء في لَوْن الجَسَد[٦]. وأما العِينُ فجمع عَيْنَاءَ، وهي التي تكون عظيمةَ العَيْنَيْنِ من النِّسَاء وَاسِعَتَهُمَا[٧].

قوله: «يَدْعُونَ فِيهَا» حال من مفعول «زَوَّجْنَاهُمْ» ومفعوله محذوف، أي يدعون الخَدَمَ بكُلّ فَاكِهَةٍ وقوله: «آمِنِينَ» يجوز أن تكون حَالاً ثانيةً، وأن تكون حالاً من فاعل «يَدْعُونَ» فتكون حالاً مُتَدَاخِلَةً[٨] ومعنى «آمنين» أي من نِفَارِهَا ومِنْ (مَـ)[٩] ـضَرَّتِهَا. وقال قتادة: آمنين من الموت، والأوْصَاب، والشَّيْطَان[١٠].

قوله: «لاَ يَذُوقُونَ» يجوز أن يكون حالاً من الضمير في «آمِنِينَ» وأن يكون حالاً ثالثةً أو ثانيةً من مفعول «وزَوَّجْنَاهُمْ»[١١]، و «آمِنِينَ» حال من فاعل «يَدْعُونَ» كما تقدم، أو صفة «لآمِنِينَ» أو مستأنف[١٢]. وقرأ عَمرُو بنُ عُبَيْد: لاَ يُذَاقُونَ مبنياً للمفعول[١٣].

---

(١) في ب الفعل بالفعل وما ذكر أعلى موافق للمجاز ٢/ ٢٠٩.

(٢) هو: يونس بن عُبَيْد العَبْدي مولاهم أبو عبد الله البصري أحد الأئمة عن الحسن وابن سِيرين وعطاء، وعنه شعبة وهشَيم، ويزيد بن زريع مات سنة ١٤٠ هـ، انظر خلاصة الكمال ٤٤١.

(٣) سقط من ب.

(٤) انظر الرازي ٢٧/ ٢٥٣.

(٥) من الآية ٥٢ من آل عمران: ﴿قال الحواريون نحن أَنْصَارُ الله﴾.

(٦) اللسان حور ١٠٤٣ ونقله عن الأزهريّ.

(٧) انظر اللسان «عَيَنَ».

(٨) انظر هذه الإعرابات في الدر المصون ٤/ ٨٢١ والتبيان لأبي البقاء ١١٤٦ و١١٤٧ ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٢٩٢.

(٩) الميم زيادة من ب.

(١٠) انظر القرطبي ١٦/ ١٥٤.

(١١) التبيان ١١٤٧ و١١٤٦ والدر المصون ٤/ ٨٢١.

(١٢) السابق.

(١٣) في الكشاف والبحر المحيط عبيد بن عمير كما مضى تصحيحه قبل. انظر الكشاف ٣/ ٥٠٧ والبحر ٨/ ٤٠.

قوله: «إلاَّ المَوْتَة الأُوْلَى» فيه أوجه:

أحدها: أنه استثناء[١] منقطع، أي لكن المَوْتَةَ الأولى، قَدْ ذَاقُوهَا.

الثاني: أنه متصل، وتأولوه بأن المؤمن عند موته في الدنيا يُرَى منزلته في الجنة لمعاينة ما يُعْطَاه منها أو لما يتيقنه من نعيمها[٢].

الثالث: أن «إلاَّ» بمعنى سوى. نقله الطبري[٣] وضَعَّفَهُ.

قال ابن عطية: وليس تضعيفه بصحيح، بل هو كونها بمعنى سوى مستقيم منتسق[٤].

الرابع: أن «إلاّ» بمعنى «بَعْدَ»، واختاره الطبري[٥]. وأباهُ الجمهور، لأن إلاَّ بمعنى بَعْدَ لم يَثْبتُ.

وقال الزمخشري: فَإن قلتَ: كيف استثنيت الموتةَ الأولى المَذُوقَةَ قبل دخول الجنة من الموت المنفي ذوقه منها؟[٦]

قُلْتُ: أريدَ أن يُقَالَ: لا يذوقون فيها الموت البتة، فوضع قوله: «إلاَّ المَوْتَةَ الأُولَى» موضع «ذَلِكَ»، لأن الموتة الماضية محال ذوقها في المستقبل فهو من باب التعليق بالمحال كأنه قيل: إن كانت الموتة الأولى يستقيم ذَوْقُهَا في المستقبل؛ فإنهم يذُوقُونَها في الجنَّة[٧].

قال شهاب الدين: وهذا عند علماء البيان يسمى نَفي الشيء بدليله ومثله قول النَّابغة:

٤٤٣٢ ـ وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ[٨]

يعني إن كان أحد يعد[٩][١٠] فُلُول السيوف من قراع الكتائب عيباً، فهذا عيبهم لكن

---

(١) واختاره مكي في المشكل ٢/ ٢٩٢ واختاره الفراء بمعنى «سِوَى» وانظر معاني الفراء ٣/ ٤٤ والبيان ٢/ ٣٦٢.

(٢) التبيان ١١٤٩.

(٣) في ب الطبراني والأصح أنه الطبري وانظر جامع البيان ٢٥/ ٨٢ و٨٣.

(٤) كذا في النسختين منتسق، وفي الدر المصون الذي نقل المؤلف عنه «متّسق» وكلاهما صحيحان انظر البحر المحيط ٨/ ٤٠، والدر المصون ٤/ ٨٢١.

(٥) جامع البيان المرجع السابق.

(٦) في ب فيها.

(٧) الكشاف ٣/ ٥٠٧.

(٨) الكشاف ٣/ ٥٠٧ بالمعنى وباللفظ من الدر المصون ٤/ ٨٢١.

(٩) له من بحر الطويل وهو مشهور عند أهل البلاغة بتأكيد المدح بما يشبه الذم وقد شرحه أعلى مما لا يحتاج إلى شرح، انظر ديوانه ٤٤، والإيضاح للقزويني ٢٦٦، والدر المصون ٤/ ٨٢١، ومعاهد التنصيص ٢/ ٣١، والهمع ١/ ٢٣٢.

(١٠) في ب يعدل وهو تحريف.

عَدّهُ من العيوب محال فانتفى عنهم العيب بدليل تعليق الأمر على المُحَال[١].

وقال ابن عطية بعد ما حكاه عن الطبري: فتبين أنه نفى عنهم ذَوْقَ الموت، وأنه لا ينالهم من ذلك غير ما تقدم في الدنيا[٢]. يعني أنه كلامٌ محمول على مَعْنَاه.

وقال ابن الخَطيب: إن من جرب شيئاً ووقف عليه صح أن يقال: إنه ذَاقَةُ، وإذا صح أن يسمى ذَلِكَ العلمُ بالذوق صح أن يسمى تذكره أيضاً بالذوق. فقوله: «لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا المَوْتَ إلاَّ المَوْتَةَ الأُولَى» يعني الذَّوْقَ الحاصِلَ بسبب تذكر الموتة الأولى[٣].

فإن قيل: أليس أنَّ أهل النار لا يذوقون الموت فلم بَشَّرَ أهل الجنة بهذا مع أن أهل النار يشاركونهم فيه؟

فالجواب: أن البشارةَ ما وقعت بدوام الحياة، (بل[٤] بدوام الحياة) مع سابقة حصول تلك الخيرات والساعات[٥] فافترقا.

قوله: «وَوَقَاهُمْ» الجمهور على التخفيف، وقرأ أَبو حَيْوَةَ وَوَقَّاهُمْ[٦] بالتشديد على المبالغة ولا تكون للتعدية فإنه متعدٍّ إلى اثنيْنِ.

قوله: «فَضْلاً» مفعول من أجله، وهو مراد مَكّيٍّ بقوله: مصدر عَمِلَ فيه «يَدْعُونَ»[٧]. وقيل: العامل فيه[٨]: «وَوَقَاهُمْ». وقيل: آمنين[٩]. فهذا إنما يظهر[١٠] على كونه مفعولاً من أجله، على أنه يجوز أن يكون مصدراً، لأن «يَدْعُونَ» وما بعده من باب التفضُّل، فهو مصدر ملاقٍ لعامله في المعنى. وجعله أبو البقاء منصوباً بمقدر أي تَفَضَّلْنَا بذلك فضلاً[١١] أي تَفَضُّلاً[١٢].

فصل

احتج أهل السنة بهذه الآية على أن الثواب يحصل من الله (تعالى)[١٣] فضلاً

---

(١) الدر المصون ٤/ ٨٢١.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٠.
(٣) الرازي ٢٧/ ٢٥٤.
(٤) سقط من ب بسبب انتقال النظر.
(٥) في ب والرازي: السعادات وهو الأصح انظر تفسير الرازي ٢٧/ ٢٥٤.
(٦) من القراءات الشاذة انظر مختصر ابن خالويه ١٣٧، وانظرها بدون عزوٍ في الكشاف ٢/ ٥٠٧.
(٧) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٢٩٢.
(٨) نقله صاحب المشكل في إعراب القرآن ٢/ ٢٩٢ أيضاً السابق وقال الفراء في المعاني: «أي فعله تفضلاً منه» ٣/ ٤٤.
(٩) مشكل إعراب القرآن السابق وانظر في هذه الأوجه كلها السمين ٤/ ٨٢٢.
(١٠) في ب ظهر ماضياً.
(١١) التبيان ١١٤٩.
(١٢) كذا في أ وفي ب وهو الموافق لما في التبيان: تفضيلاً.
(١٣) زيادة من أ.

وإحساناً وأن كل ما وصل إليه العبد من الخلاص عن النار والفَوْزِ بالجَنَّة، فإنما يحصل بفضل الله تعالى، ثم قال: «ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ» وهذا يدل على أن الفضل أعلى من درجات الثواب المستحق، لأنه وصفه بكونه فَوْزاً عَظيماً، وأيضاً فإن الملكَ العظيم إذا أعطى الأجير أجرته، ثم خلع على إنسان آخر، فإن تلك الخُلْعة أعلى حالاً من إعطاء تلك الأجرة. ولما بين الله تعالى الدلائل وشرح الوعد والوعيد قال: «فَإِنَّما يَسَّرْنَاهُ» أي سَهَّلْنَا القرآن، كناية عن غير مذكور «بِلِسَانِكَ» أي بلغتك. والباء للمصاحبة «لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» يَتَّعظُونَ. قال القاضي: وهذا يدل على أنه أراد من الكل الإيمان ولم يرد من أحَدٍ الكفر. وأُجِيبَ: بأن الضمير في قوله: «لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» عائد إلى أقوام مخصوصين فيحمل ذلك على المؤمنين.

قوله: «فَارْتَقِبْ» أي فانتظر ما يحِلُّ بهم «إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ» لما يحِلُّ بِكَ. فمفعولا الارتقاب محذوفان أي فارتقب النصر من ربك إنهم مرتقبون بك ما يتمنونه من الدوائر والغوائل ولن يضرك ذلك[١].

روى أبو هريرة: (رضي الله[٢] عنه) قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ مَنْ قَرأَ حَم الدخان في لَيْلِهِ[٣] أصبح يستغفر له سَبْعُون أَلْف مَلَكٍ[٤]. رواه البغوي[٥][٦] في تفسيره. وروى الثَّعْلَبِيُّ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: من قرأ حم التي يذكر فيها الدخان في ليلة جمعةٍ أصبح مغفوراً له. وقال أبو أمامة ـ رضي الله عنه ـ سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ (يقول)[٧]: من قرأ حم الدخان ليلة الجُمُعَةِ أو يوم الجمعة بَنَى الله له بيتاً في الجنة[٨].

(اللهم أسْعِدْنا بعظيم فضلك، وارحمنا برحمتك)[٩]. (والله[١٠] ـ تعالى ـ أعلمُ بالصواب وإليه المرجعُ والمَآب).

---

(١) وانظر فيما مضى تفسير الإمام الفخر الرازي ٢٧/ ٢٥٥ و٢٥٤ وانظر الكشاف ٣/ ٥٠٧ و٥٠٨.
(٢) زيادة من أ عن ب.
(٣) في ب ليلة.
(٤) الإتقان للسيوطي ٢/ ١٩٦ وفتح القدير ٤/ ٥٦٩ ومجمع البيان ٩/ ٩١ والسراج المنير ٣/ ٥١٢.
(٥) رواه الإمام البغوي في معالم التنزيل الجزء الخامس نهاية تلك السورة.
(٦) انظر الثلاثة المراجع الأخيرة السابقة والبيضاوي ٢/ ٢٠٧.
(٧) سقط من ب.
(٨) انظر السراج المنير وفتح القدير، ومجمع البيان السوابق.
(٩) ما بين القوسين الأولين زيادة من أ.
(١٠) ما بين القوسين الأخيرين زيادة من ب.

سورة الجاثية

مكية[1] وهي سَبْعٌ وثَلاثُون آيَة، وأربعمائة وثمانون كلمةً، وألفان ومائة وإحدى وتسعون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿حمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ (٦)﴾

قوله تعالى: ﴿حم. تَنزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللَّهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ﴾ قد تقدم مثله أول غافر. وقال أبو عبد الله الرازي: العزيز الحكيم إن كانا صفة لله كانا حقيقة، وإنْ كَانَا صفة للكتاب كانا مجازاً له[2].

ورد عليه أبو حيان جعله إياهما صفة للكتاب. قال: إذ لو كان كذلك لوليت الصِّفَةُ موصوفَها فكان يقال: تنزيل الكتاب العزيزِ الحكيمِ مِنَ اللَّهِ. قال: لأن «من الله» إن تعلق «بتنزيل» و «تنزيل» خبر لـ «حم» أو لمبتدأ محذوف، لزم الفصل به بين الصفة والموصوف، ولا يجوز، كما لا يجوز: أَعْجَبَنِي ضَرْبُ زَيْدٍ بِسَوْط الفَاضِل، أو في موضع الخبر وتنزيل مبتدأ، فلا يجوز الفصل به أيضاً لا يجوز: ضَرْبُ زَيْدٍ شَدِيدٌ الفَاضِلُ[3].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ إن كان قوله «حم» قسماً «فتنزيل الكتاب» نعتٌ له، وجواب القسم: «إنَّ في السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ»[4] واعلم أن

---

(١) في قول الحسن وجابر وعكرمة. وقال ابن عباس وقتادة إلاّ آية هي: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾، وانظر القرطبي ١٦/ ١٦٠.

(٢) الرازي ٢٧/٢٥٧ و٢٥٨.

(٣) انظر البحر المحيط ٨/ ٤٢ والدر المصون ٤/ ٨٢٣ والرازي ٢٧/ ٢٥٦.

(٤) والتقدير: وحم الذي هو تنزيل الكتاب إنَّ الأمر كذا وكذا. وانظر الرازي ٢٧/ ٢٥٦.

حصول الآيات في السموات والأرض ظاهر دال على وجود الله تعالى، وقدرته مثل مقاديرها وكيفياتها وحركاتها، وأيضاً الشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار. وقد تقدم الكلام في كيفية دلالتها على وجود الإله القادر الفاعل المختار.

وقوله: «لآياتٍ لِلْمُؤمِنِينَ» يقتضي كون هذه مختصةً بالمؤمنين. وقالت المعتزلة: إنها آيات للمؤمن والكافر، إلا أنه لما انتفع بها المؤمن دون الكافر أضيف كونها آياتٍ للمؤمنين، ونظيره قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] فإنه هُدَى لكلّ الناس، كما قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥] إلاَّ أنه لما انتفع به المؤمن خاصةً قيلَ: هدى للمتقين[١].

قوله تعالى: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ﴾ فيه وجهان:

أظهرهما: أن قوله: «وَمَا يَبُثُّ» معطوف على «خَلْقِكُمْ» المجرور بفي والتقدير: وفِيمَا يَبُثُّ[٢].

الثاني: أنه معطوف على الضمير المخفوض[٣] بالخلق وذلك على مذهب من يرى العطف على الضمير المجرور دون إعادة الجار[٤]. واستقبحه الزمخشري وإن أُكِّدَ، نحو: مَرَرْتُ بِكَ أَنْتَ وَزَيْدٍ[٥] يشير بذلك إلى مذهب الجَرْميّ[٦]، فإنه يقول: إن أكّدَ جاز، وإلاَّ فَلاَ. فقوله مذهب ثالث[٧].

قوله: «آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقنون» وآياتٌ لقَوْم يَعْقِلُونَ. وقرأ آيات بالكسر في الموضعين الأخوان[٨] والباقون برفعهما ولا خلاف في كَسر الأولى؛ لأنها اسم «إن» فأما آيات لقوم يوقنون بالكسر فيجوز فيها وجهان:

أحدهما: أنها معطوفة على اسم «إن» والخبر قوله: «وَفِي خَلْقِكُمْ» كأنه قيل: وإنَّ فِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيات[٩].

---

(١) انظر الرازي ٢٧/ ٢٥٨.
(٢) الكشاف ٣/ ٥٠٨.
(٣) في ب المعطوف تحريف.
(٤) وهو مذهب الكوفة ويونس وقد احتجوا بقراءة حمزة أحد السبعة يقرأ آية النساء: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامِ﴾ بجَرِّ الأرحام عطفاً على محل الضمير دون إعادة الجار. وقد احتجوا بآيات أخرى وأقوال وأشعار عربية شاهدة لما ذهبوا إليه. وقد رجح مذهبَ البصريين أناسٌ كثيرون منهم ابن مالك في تسهيله انظر في هذه المسألة الإنصاف المسألة رقم (٦٥) والبحر ٨/ ٤٢، والتسهيل ١٧٧، والكتاب ٢/ ٣٨٢ و٣٨٣.
(٥) الكشاف ٣/ ٥٠٨.
(٦) صالح بن إسحاق أبو عمر، أخذ عن الأخفش الأوسط، وسمع عن يونس وله فضل كبير في إظهار كتاب سيبويه. توفي سنة ٢٥٠ هـ وانظر نُزْهة الألباء ١٠١ وإنباه الرواة ٢/ ٨٠ ونشأة النحو ٩٢.
(٧) الدر المصون ٤/ ٨٢٣ والهمع ١/ ١٣٩ والبخر المحيط ٨/ ٤٢.
(٨) انظر السبعة ٥٩٥ والاتحاف ٣٨٩ والكشف لمكي ٢/ ٢٦٧.
(٩) الفراء في المعاني ٢/ ٤٥.

والثاني: أن تكون[١] كررت توكيداً «لآيَات» الأُوْلَى، ويكون «في خلقكم» معطوفاً على «السَّموات» كرر معه حرف الجر توكيداً. ونظيره أن تقول: إنَّ في بَيْتِكَ زَيْداً وفي السّوقِ زَيْداً فزيد الثاني توكيد للأول كأنك قلت: إنَّ زَيْداً زَيْداً فِي بَيْتِكَ وفِي السُّوق. وليس في هذا عطف على معمولي عاملين البتة[٢] وقد وهم أبو البقاء فجعلها من ذلك فقال: آيات لقوم يوقنون بكسر الثانية وفيه وجهان:

أحدهما: أن «إن» مضمرة حذفت لدلالة «إن» الأولى عليها، وليست «آيات» معطوفة على آيات الأولى، لما فيه من العطف على معمولي عاملين.

والثاني: أن تكون كررت للتأكيد[٣]، لأنها من لفظ «آيات» الأولى، وإعرابها كإعرابها كقولك: إنَّ بِثَوْبِكَ دَماً وَبِثَوْبِ زَيْدٍ دماً، فَدَم الثاني مكرر، لأنك مستغنٍ عن ذكره انتهى[٤].

فقوله: وليست معطوفة على «آيات» الأولى لما فيه من العطف على معمولي عاملين وهمٌ أين[٥] معمول العامل الآخر؟ وكأنه توهم أن «في» ساقطة من قوله: «وَفِي خَلْقِكُمْ» أو اختلطت عليه «آيات لقوم يعقلون» بهذه، لأن تِيكَ فيها ما يوهم العطف على عاملين[٦]. وقد ذكره هو أيضاً[٧]. وأما الرفع[٨] فمن وجهين أيضاً:

أحدهما: أن يكون «فِي خَلْقِكُمْ» خبراً مقدماً، و «آياتٌ» مبتدأ مؤخراً، وهي جملة معطوفة على جملة مؤكدة بإن.

والثاني: أن تكون معطوفة على «آيات» الأولى اعتباراً بالمحل[٩] عند من يجيز ذلك، لا سيما عند من يقول: إنه يجوز ذلك بعد الخبر بإجماع[١٠]. وأما قوله: **﴿وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾** فقد تقدم أنَّ الأخوين يقرآن آياتِ بالكسر وهي تحتاج إلى إيضاح، فإن الناس تكلموا فيها كثيراً وخرّجوها على أوجه مختلفة، وبها استدل على

---

(١) يقصد آيات الثانية.
(٢) البيان ٢/ ٣٦٣، ٣٦٤.
(٣) في التبيان: أن يكون كرر آيات للتوكيد انظر ١١٥٠.
(٤) المرجع السابق.
(٥) في ب أي تحريف.
(٦) الدر المصون ٤/ ٨٢٤.
(٧) قال في الثانية: وأجاز قوم أن يكون ذلك من باب العطف على عاملين. انظر التبيان السابق.
(٨) رفع آيات الثانية.
(٩) ذكر هذين الوجهين ابن الأنباري في البيان ٢/ ٣٦٣ والسمين في الدر ٤/ ٨٢٤ و٨٢٥ وقد ذكر الأول فقط أبو البقاء في التبيان ١١٥٠.
(١٠) نسب أبو حيان هذا إلى أبي الحسن الأخفش ولم أعثر عليه في معاني القرآن عند تعرضه لتلك الآية وانظر البحر ٨/ ٤٣ وانظر في تلك المسألة مغني اللبيب ٢/ ٤٧٤ وانظر أيضاً البيان ٢/ ٣٦٣ و٣٦٤ وشرح الكافية للرضي ١/ ٣٢٤، ٣٢٥.

جواز العطف على عاملين[١] قال شهاب الدين: والعطف على عاملين لا يختص بقراءة الأخوين، بل يجوز أن يستدل عليه أيضاً بقراءة الباقين كما سنقف عليه إنْ شَاءَ الله تعالى فأما قراءة الأخوين ففيها أَوْجهٌ:

أحدها: أن يكون «اخْتِلاَفُ اللَّيْلِ» مجروراً بـ «في» مضمرةً، وإنما حذفت لتقدم ذكرها مرتين[٢] وحرف الجر إذا دلّ عليه دليل (جاز[٣] حذفه وأيضاً عمله وأنشد الإمام الأستاذ سيبويه:)

٤٤٣٣ ـ ألآن قَربّتْ تهجُونَا وتَشْتُمُنَا فَاذْهَبْ فَمَا بِكَ وَالأَيَّامِ مِنْ عَجَبِ[٤]

تقديره: وبالأَيام، لتقدم الباء في «بِكَ». ولا يجوز عطفه على الكاف لأنه ليس من مذهبه العطف على الضمير المجرور، دون إعادة الجارّ[٥]، فالتقدير في هذه الآية: «وَفِي اخْتِلاَفِ آيَاتِ»، فآيات على ما تقدم من الوجهين في آيات قبلها العطف أو التأكيد. قالوا: ويدلّ على ذلك قراءة عبد الله (وَفِي اخْتِلافِ) تصريحاً بفي[٦]. فهذان وجهان.

الثالث: أن يعطف «اخْتِلافِ» على المجرور بفي، وآيات على المنصوب بإن وهذا هو العطف على عاملين، وتحقيقه على معمولي عاملين، وذلك أنك عطفت «اخْتِلاَفِ» على «خَلْقِ» وهو مجرور بفي فهو معمول عامل، وعطف «آياتِ» على اسم إنّ وهو معمول عامل آخر. فقد عطفت بحرف واحد وهو الواو معمولين وهما «اخْتِلافِ» و «آياتِ» على معمولين قبلهما وهما «خلق وآيات».

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٣ والدر المصون ٤/ ٨٢٥.

(٢) السابق وانظر البيان لابن الأنباري ٢/ ٣٦٣، والكشاف ٣/ ٥٠٩.

(٣) ما بين القوسين كله ساقط من ب وبدله كلمة «شعر».

(٤) من أبيات الكتاب الخمسين المجهولة القائل، وهو من البسيط وهو في ملحقات ديوان عمرو بن معديكرب ١٨٥، والشاهد: «جر الأيام» عطفاً على محل الكاف في «بك» على نية تكرار العامل إلاَّ أنه حذف لتقدم ما يدل عليه وهو اختيار أهل البصرة ومتأخري كثير من النحاة كابن مالك كما سبق، وانظر الكتاب ٢/ ٣٨٣، والإنصاف ٤٦٤، وابن يعيش ٣/ ٧٨ و٧٩ والهمع ١/ ١٢٠ و٢/ ١٣٩ والمقتضب ٩٦٠ والأشموني ٣/ ١١٥، والدر المصون ٤/ ٨٢٥.

(٥) ظاهر عبارته يفيد جواز العطف بدون إعادة الجار ولكن على قلة قال: «ولا يحسن لك أن تقول: مررت بكَ أنتَ وزيدٍ، كما جاء فيما أضمرت في الفعل نحو: قمت أنت وزيد لأن ذلك وإن كان قد أنزل منزلة آخر الفعل فليس من الفعل ولا من تمامه». ويقول أيضاً: ومما يقبح أن يشركه المظهر علامة المضمر المجرور، وذلك قولك: مررت بك وزيدٍ... فإذا حملنا عدم الحسن والقبح على المنع كان ذلك خاصاً بالنثر في الاختيار أما في الشعر فذلك جائز عنده لأنه قال: وقد يجوز في الشعر، وأنشد شاهداً آخر قبل هذا الذي ذكره المؤلف انظر الكتاب ٢/ ٣٨١ و٣٨٢.

(٦) انظر المعاني للفراء ٣/ ٤٥.

ويظاهرها استدل من جوّز ذلك كالأخفش[١]. وفي المسألة أربعة مذاهب[٢]، المنع مطلقاً، وهو مذهب سيبويه، وجمهور البصريين، قالوا: لأنه يؤدي إلى إقامة حرف العطف مقام عاملَيْن وهو لا يجوز؛ لأنه لو جاز في عاملين لجاز في ثلاثة، ولا قائل به، ولأن حرف العطف ضعيف، فلا يَقْوَى أن ينوب عن عاملين، ولأن القَائِلَ بجواز ذلك يستضعفه والأحسن عنده أن لا يجوز، فلا ينبغي أن يحمل عليه كتاب الله، ولأنه بمنزلة التَّعْدِيَتَيْنِ بمُعَدٍّ واحد، وهو غير جائز[٣].

قال ابن السراج[٤]: العطف على عاملين[٥] خطأ في القياس غير مسموع من العرب، ثم حمل ما في هذه الآية على التكرار والتأكيد[٦]. قال الرماني[٧]: هو كقولك: إنَّ فِي الدَّارِ زَيْداً وَالبَيْتِ زَيْداً، فهو جائز بالإجماع، وهذا الوجه الذي ذكره ابن السراج حَسَنٌ[٨] جداً لا يجوز أن يحمل كتاب الله إلا عليه وقد ثبتت القراءة بالكسر، ولا يعيب فيها في القرآن على وجه. والعطف على عاملين عيب عند من أجازه ومن لم يجزه فقد تَنَاهى في العيب فلا يجوز حمل هذه الآية على ما ذكره ابن السراج دون ما ذهب إليه غيره[٩]. قال شهاب الدين: وهذا الحَصْر منهُ غير مُسَلَّم، فإن في الآية تخريجاتٍ أُخَر على ما ذكره ابنُ السراج، يجوز الحمل عليها[١٠]. وقال الزجاج[١١] ومثله في الشعر:

٤٤٣٤ ـ أَكُلَّ امْرِئٍ تَحْسَبِينَ امْرَءاً   وَنَارٍ تَوَقَّدُ بِاللَّيْلِ نَارا[١٢]

---

(١) انظر البيان ٢/ ٣٦٤ والتسهيل ١٧٨ والدر المصون ٣/ ٨٢٦ وإعراب القرآن للنحاس وينظر في تلك المسألة أيضاً ٤/ ١٤٠ و١٤١.

(٢) الهمع ٢/ ١٣٩ والمغني ٤٨٦ و٤٨٧.

(٣) انظر في هذا كله الدر المصون ٤/ ٨٢٦.

(٤) مُحَمَّد بن السريّ أبو بكر، نشأ ببغداد، وأخذ عن المبرد وغيره من مؤلفاته كتاب الأصول في النحو وشرح كتاب سيبويه مات سنة ٣١٦ وانظر إنباه الرواة ٣/ ١٤٥، ١٤٩.

(٥) هذا تجوز في التعبير والأصح: معمولي عاملين.

(٦) الدر المصون ٤/ ٨٢٦ وإبراز المعاني ٦٨٣.

(٧) أبو الحسن علي بن عيسى، أخذ عن الزجاج وابن السراج وابن دريد وغيرهم شرح كتاب سيبويه، وشرح المقتضب للمبرد، والأصول لابن السراج، مات سنة ٣٨٤ هـ ببغداد انظر نشأة النحو ١٧٢ أو ١٧٣ وإنباه الرواة ٢/ ٢٩٤ ـ ٢٩٦.

(٨) في ب جَيِّداً.

(٩) انظر إبراز المعاني ٦٨٣، والدر المصون ٤/ ٨٢٧.

(١٠) قاله في المرجع السابق.

(١١) معاني القرآن وإعرابه ٤/ ٤٣١.

(١٢) ينسب لأبي دؤاد جويرية بن الحَجَّاج وإلى عدي بن زيد، وإلى جارية الحُذافي. وهو من المتقارب، والشاهد: جر «نار» بالعطف على «امرىء» والأصل: وتَحْسِبينَ كُلَّ نار توقد ناراً فيكون من العطف على معمولي عاملين؛ لأن نار الثانية معطوفة على «امرءاً».

وأنشد الفارسيّ للفرزدق:

٤٤٣٥ ـ وبَاشَرُوا رَعْيَها الصَّلا بِلَبَانِهِ   وَجَنْبَيْهِ حَرَّ النَّارِ مَا يتَحَرَّفُ[(١)]

وقول الآخر:

٤٤٣٦ ـ أَوْصَيْتَ مِنْ بَرَّةَ قَلْباً حَرَّا   بِالكَلْبِ خَيْراً وَالحَمَاةِ شَرَّا[(٢)]

فأما البيت الأول فظاهره أنه عطف «وَنَارٍ» على «امرىء» المخفوض «بكل» و «نَاراً» الثانية على «امْرءاً» الثاني، والتقدير: أتَحْسَبِينَ كُلَّ نَارٍ نَاراً، فقد عطف على معمولي عاملين.

والبيت الثاني: عطف فيه «وجَنْبَيْهِ» على «بِلَبَانِهِ» وعطف حرّ النار «على الصَّلا» والتقدير: وبَاشَرَ بجَنْبَيْه حَرَّ النَّارِ.

والبيت الثالث: عطف فيه «الحَمَاةِ» على «الكلبِ» و «شرًّا» على «خيراً» تقديره: وأوْصَيْتَ بالحَمَاةِ شَرًّا[(٣)].

وسيبويه في جميع ذلك يرى الجر بخافض مقدر، لكنه عورض بأن إعمال حرف الجر مضمراً ضعيفٌ جداً، ألا ترى أنه لا يجوز: مَرَرْتُ زَيْدٍ بخفض «زَيْدٍ» إلاَّ في ضرورة كقوله:

٤٤٣٧ ـ إذَا قِيلَ أَيُّ النَّاسِ شَرُّ قَبِيلَةٍ   أَشَارَتْ كُلَيبٍ بِالأكُفِّ الأَصَابِعُ[(٤)]

يريد: إلى كليب، وقول الآخر:

٤٤٣٨ ـ ....   تَبَذَّخَ فَارْتَقَى الأَعْلامِ[(٥)]

---

(١) من الطويل وأنشده الفارسي للفرزدق في المسائل العسكرية ١٦٣.

(٢) رجز لأبي النجم العجلي، وشاهد كسابقه من العطف على معمولي عاملين كما أوضح هو أعلى وانظر الدر المصون ٤/٨٢٧، وإبراز المعاني ٦٨٣، والمسائل العسكرية ١٦٣، وانظر أيضاً ابن يعيش ٢/٩ والمقتضب ٧٢ والتصريح ٢/١٧٣ والهمع ١/ ١٧٤ والأشموني ٣/ ١٤٥.

(٣) انظر كل هذا التفصيل والتبيين في الدر المصون ٤/٨٢٨.

(٤) من الطويل كسابق سابقه. ويعزى للفرزدق في هجاء نظيره جرير والشاهد: كليب فحذف حرف الجر، وأبقى عمله إلاَّ أن ذلك ضرورة شعرية لا يجوز القياس عليها. وانظر الهمع ٢/٣٦، ٨١، والتصريح ١/٢١٢، والأشموني ٢/٩٠، ٢٣٣، وتمهيد القواعد ٢/٥٨٣ و٥٩٨ وابن عقيل ١٠١ وابن الناظم ٩٦، وتوضيح المقاصد ٢/٥١، وأوضح المسالك ٩٤، والمغني ١١/ ٦٤٣ وديوانه ١/ ٤٢٠.

(٥) عجز بيت من الكامل وصدره:

وَكَرِيمَةٍ مِنْ آلِ قَيْسٍ أَلَفْتُهُ

وهو مجهول قائله. وألفته: أعطيته ألفاً، وتبذّخ: تكبر وعلا. وشاهده كسابقه في إعمال حرف الجر، وهو محذوف، إلاَّ أن ذلك ضرورة شعرية.

أي إلى الأعلام.

فقد فر من شيء فوقع في أضعف منه، وأجِيب عن ذلك: بأنه لما تقدم ذكر الحرف في اللفظ قويتِ الدّلالة عليه فكأنه ملفوظ به بخلاف ما أوردتموه في المِثَال والشِّعر.

والمذهب الثاني: التفصيل، وهو مذهب الأخفش، وذلك أنه يجوز بشرطين:

أحدهما: أن يكون أحد العاملين جاراً، **والثاني**[١]: أن يتصل المعطوف بالعاطف أو يفصل «بلا» مثال الأول: الآية الكريمة والأبيات المتقدمة، ولذلك استصوب المبرد[٢] استشهاده بالآية ومثال الفصل «بلا» قولك: مَا فِي الدَّارِ زَيْدٌ وَلاَ الحُجْرَةِ عَمْرٌو. فلو فقد الشرطان، نحو: إنَّ زَيْداً شَتَم بِشْراً، وَوَاللَّهِ خَالِداً (هِنْداً[٣]) أو فقد أحدهما، نحو: إنَّ زيداً ضَرَبَ بَكْراً، وخالداً بِشْراً، فقد نقل ابن مالك[٤]، الامتناع عن الجميع. وفيه نظر، لما سيأتي من الخِلاف.

الثالث: أنه يجوز بشرط أن يكون أحد العاملين جارًا، وأن يكون متقدماً نحو الآية الكريمة، فلو لم يتقدم نحو: إنَّ زَيْداً في الدارِ وعمرو السوقِ، لم يَجُز[٥]، وكذا لو لم يكن حرف جر كما تقدم تمثيله[٦].

الرابع: الجواز مطلقاً، ويُعْزَى للفراء[٧].

الوجه الرابع من أوجه تخريج القراءة المذكورة: أن ينتصب «آيات» على الاختصاص[٨]. قاله الزمخشري، كما سيأتي. وأما قراءة الرفع[٩] ففيها أوجه:

---

(١) في ب والثالث تحريف.

(٢) كلامه في المقتضب يوافق كلام سيبويه في منع العطف على معمولي عاملين قال: «. . . . وأما الخفض فيمتنع لأنك تعطف بحرف واحد على عاملين، وهما الباء وليس فكأنك قلت: زيد في الدار والحجرة عمرو فتعطف على (في) والمبتدأ. وكان أبو الحسن الأخفش يجيزه وقد قرأ بعض القراء: ﴿واختلاف الليل والنهار. . . آيات لقوم يعقلون﴾ فعطف على «أن» وعلى «في» وهذا غير جائز عندنا». المقتضب ٤/ ١٩٥ والكامل ١/ ٢٨٧ و٣/ ٩٩٥.

(٣) سقط من ب.

(٤) قال: «وأجاز الأخفش العطف على عاملين إن كان أحدهما جاراً، واتصل المعطوف بالعاطف، أو انفصل «بلا» والأصح المنع مطلقاً، وما أوهم الجواز فجره بحرف مدلول عليه بما قبل العاطف. وانظر التسهيل ١٧٨ والكامل للمبرد ١/ ٢٨٧ و٣/ ٩٩ وانظر هذا كله في الدر المصون ٤/ ٨٢٨.

(٥) وهو رأي المهدوي فيما نقله عنه ابن هشام في المغني وأجازه ابن هشام قال: «فإن كان الجارُّ مؤخراً نحو: زَيْدٌ في الدار، والحجرة عمرٌو، أو وعمرو في الحجرة؛ فنقل المهدوي أنه ممتنع إجماعاً وليس كذلك، بل هو جائز عند من ذكرنا». المغني ٤٨٦.

(٦) وانظر المرجع السابق والدر المصون ٤/ ٨٢٩ والهمع ٢/ ١٣٩.

(٧) وهو رأي الزجاج والكسائي أيضاً المغني ٤٨٦.

(٨) الكشاف ٣/ ٥٠٩.

(٩) رفع «آيات» الثالثة من الآية ٥.

أحدها: أن يكون الأول. **والثاني**: ما تقدم في «آياتٍ لِقَوْم يُوقِنُونَ».

الثالث: أن تكون المسألة من باب العطف على عاملين، وذلك أن «اخْتِلاَفِ» عطف على «خَلْقكم» وهو معمول «لِفِي» و «آيات» قبلها، وهي معمولة للابتداء فقد عطف على معمول عاملين في هذه القراءة أيضاً[١].

قال الزمخشري: وقرىء: «آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ» بالرفع والنصب على قولك: إنَّ زَيْداً فِي الدّارِ وعمرو في السوق أو وعمراً فِي السُّوق[٢]. قال: وأما قوله: «آياتٌ لِقَوم يَعْقِلُونَ» فمن العطف على عاملين سواء نصبت أم رفعت، فالعاملان في[٣] النصب (إنَّ) و (فِي)، أقيمت الواو مُقَامَهُما فعملت الجر في «اختلاف الليل والنهار» والنصب في «آيات» وإذا رفعت فالعاملان الابتداء و (في) عملت الرفع في «آيات» والجر في «اختلاف»[٤]. ثُمَّ قال في توجيه النصب: **والثاني**: أن ينتصب على الاختصاص بعد انقضاء المجرور[٥].

والوجه الخامس: أن يرتفع «آياتٌ» على خبر ابتداء مضمر أي هِيَ آياتٌ[٦]. وناقشه أبو حيان فقال: ونسبة الجر[٧] والرفع والجر والنصب للواو ليس بصحيح؛ لأنّ الصحيحَ من المذاهب أن حرف العطف لا يعمل[٨]. وأيضاً ناقش أبو شامة[٩] فقال: فمنهم من يقول هو على هذه القراءة أيضاً ـ يعني قراءة الرفع ـ عطف على عاملين. وهما حرف «في» والابتداء المقتضي للرفع. ومنهم من لا يطلق هذه العبارة في هذه القراءة؛ لأن الابتداء ليس بعامل لفظي[١٠].

(١) الدر المصون ٤/ ٨٢٩.

(٢) في الكشاف: وعمراً في السوق أو وعمرٌو عكس تلك العبارة التي أمامنا أعلى.

(٣) في الكشاف: إذا نصبت.

(٤) الكشاف ٣/ ٥٠٨. والدر المصون ٤/ ٨٢٩. وانظر في مسألة العطف على معمولي عاملين بتفصيل المغني ٤٨٦ إلى ٤٨٨.

(٥) الكشاف المرجع السابق.

(٦) ذكره الزمخشري في الكشاف أيضاً والسمين في الدر المصون ٤/ ٨٢٩.

(٧) في ب ونسبة الخبر تحريف.

(٨) بالمعنى من البحر المحيط ٨/ ٤٣، وباللفظ من الدر المصون ٤/ ٨٢٩.

(٩) هو الشيخ عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان بن أبي بكر أبو محمد، وأبو القاسم المَقْدِسيّ الدِّمشقي، المقرىء النحوي، الشيخ الإمام العالم العلامة، الحافظ المحدث الفقيه المؤرخ، المعروف بأبي شامة، أخذ عن السخاوي علم الدين وغيره من المعاصرين، وأخذ عن غيره من المعاصرين المبرزين العلوم اللسانية والشرعية، مات مقتولاً سنة ٦٦٥ هـ. انظر غاية النهاية ١/ ٣٧٥ و٣٦٦، ومقدمة كتابه إبراز المعاني ٧ و٨.

(١٠) انظر إبراز المعاني ٦٨٣ و٦٨٤ والدر المصون ٤/ ٨٣٠.

وقرئ: واخْتِلاَفُ ـ بالرفع ـ آيَةٌ ـ بالرفع، والتوحيد ـ على الابتداء والخبر[١]. وكذلك قرئ: وما يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَةٌ بالتوحيد[٢]. وقرأ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ وطلحة وعِيسَى: وتَصْرِيف الرِّيح كذا قال أبو حيان[٣]. قال شهاب الدين: وقد قرأ بهذه القراءة حمزةُ والكسائيُّ أيضاً[٤]. وقد تقدم ذلك في سورة البقرة[٥].

فصل

اختلاف الليل والنهار فيه وجوه:

الأول: تبديل النهار بالليل وبالعكس.

الثاني: زيادة طول النهار على طول الليل والعكس.

الثالث: اختلاف مطالع الشمس في أيام السنة.

قوله: «وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاء مِنْ رِزْقٍ» يعني الرزق[٦] الذي هو سبب أرزاق العباد «فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها» وهذا يدل على وجوب القول بوجود الفاعل المختار من وجوه:

أحدها: إنشاء السحاب وإنزال المطر فيه.

وثانيها: تولد النبات من تلك الحبة الواقعة في الأرض.

وثالثها: تولد الأنواع المختلفة وهي ساق الشجرة، وأغصانها، وأوراقها، وثمارها، ثم تلك الثمرة منها ما يكون القشر محيطاً باللّب، كالجَوْز، واللَّوز، ومنها ما يكون اللّب محيطاً بالقشر كالمِشْمِش والخوخ، ومنها ما يكون خالياً عن القشر كالتِّين. فتولد أقسام النبات على كثرة أقسامه وَتَبَايُنِها يدلّ على وجوب القول بوجود الفاعل المختار الحكيم الرحيم.

قوله: «وَتَصْرِيف الرِّياح» هي أقسام كثيرة منها الشرقية، والغربية، والشّمالية، والجنوبية، ومنها الحارّة، والباردة، آياتٌ لِقَوْم يَعْقِلُون. واعلم أنه تعالى جمع هذه الدلائل في سورة البقرة فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى

---

(١) من القراءات الشاذة ولم تنسب في الدر المصون المرجع السابق ولا في الكشاف ٣/ ٥٠٩ ولا في البحر المحيط ٨/ ٥٤٣ وعزَاهَا صاحب شواذ القرآن إلى عُبَيْد بن عُمَيْر، وزَيْدِ بن علي. انظر شواذ القرآن ٢٢١.

(٢) انظر الكشاف والبحر والدر المصون المرجع السابق.

(٣) البحر ٨/ ٤٣.

(٤) قراءة متواترة انظر السبعة ١٧٣ والاتحاف ٢٨٩.

(٥) من الآية ١٦٤ منها: «وتَصْرِيفِ الرِّياحِ والسَّحَابِ المُسَخَّرِ» وانظر اللباب ١/ ٢٦١ ب.

(٦) في ب الغيث.

تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤]. فذكر الله تعالى هذه الأقسام الثمانية من الدلائل، والتفاوت بين الوصفين من وجوه:

الأول: أنه تعالى قال في سورة البقرة: «إنَّ في خلق السموات والأرض» وقال ههنا: «إن في السموات والأرض» والصحيح عند أهل السنة: أنَّ الخلق غير المخلوق، فذكر لفظ الخلق في سورة البقرة، ولم يذكره هَهُنَا تنبيهاً على أنه لا تفاوت بين أن يفصل السموات أو خلق السموات فيكون هذا دليلاً على أن الخلق غير المخلوق(١).

الثاني: أنه ذكر هناك ثمانيةَ أنواع من الدلائل، وذكر ههنا سبعة أنواع من الدلائل، وأهمل منها الفلك والسحاب، والسَّبَبُ فيه أن مَدَار حركة الفلك والسحاب على الرياح المختلفة، فذكر الرياح التي هي كالسبب يغني عن ذكرهما.

الثالث: أنه جمع الكل وذكر لها مقطَعاً واحداً، وههنا رَتَّبَها على ثلاثة أنواع، والغرض منه التنبيه على أنه لا بدّ من إفراد كل واحد منها بنظر تامٍّ سابقٍ.

الرابع: أنه تعالى ذكر في هذا الموضع ثلاثة مقاطع: **أحدها**: للمؤمنين، **وثانيها**: «يوقنون». **وثالثها**: «يعقلون».

قال ابن الخطيب: وأظنُّ أن سبب هذا الترتيب أن قوله: إن كنتم من المؤمنين فافهموا هذه الدلائل وإن كنتم لستم من المؤمنين (بل أنتم(٢) من طلاب الجَزْم(٣) واليقين، فافهموا هذه الدلائل وإن كنتم لستم من المؤمنين) ولا من المُوقِنِينَ فلا أَقَلَّ أن تكونوا من زُمْرَةِ العقلاء فاجتهدوا في معرفة هذه الدلائل(٤).

قوله تعالى: ﴿**تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوها**﴾ يجوز أن تكون «نتلوها» خبراً «لِتِلْكَ» و «آيَاتُ اللَّهِ»، بدل أو عطف بيان، ويجوز أن تكون «تِلْكَ آيَاتُ» مبتدأ وخبراً، و «نَتْلُوهَا» حال قال الزمخشري: والعامل ما دل عليه «تلك» من معنى الإشارة ونحوه: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢]. قال أبو حيان: وليس نحوه لأن في «وهَذَا بَعْلِي» حرف تنبيه؛ فقيل: العامل في الحال ما دل عليه حرف التنبيه أي تَنَبَّهْ وأما تلك فليس فيها حرف تنبيه، (فإذا كان حرف(٥) التنبيه عاملاً) بما فيه من معنى التنبيه لأن الحرف قد يعمل في الحال، فالمعنى تَنَبَّهْ لزيدٍ في حال شَيْخِه(٦) أو في حال قيامه.

---

(١) وانظر الرازي ٢٧/ ٢٥٨ و٢٥٩.
(٢) ما بين القوسين سقط من ب بسبب انتقال النظر.
(٣) في الرازي: الحق لا الجزم.
(٤) انظر الرازي ٢٧/ ٢٥٩ و٢٦٠.
(٥) ما بين القوسين زيادة عما في البحر المحيط.
(٦) في ب: شيخة.

وقيل: العامل في مثل هذا التركيب فعل محذوف يدل عليه المعنى، أي انظر إليه في حال شيخه[١] فلا يكون اسم الإشارة عاملاً ولا حرف التنبيه إن كان هناك[٢]. قال شهاب الدين: بل الآية نحو: هَذَا بَعْلِي شَيْخاً من حَيْثِيَّةِ[٣] نسبة العمل لاسم الإشارة غاية ما ثَمَّ أن في الآية الأخرى ما يَصْلُحُ أن يكون عاملاً، وهذا لا يَقْدَح في التنظير إذا قصدت جهةً مشتركةً، وأما إضمار الفعل فهو مشترك في الموضعين عند من يرى ذَلِكَ[٤] قال ابن عطية: وفي «نَتْلُوهَا» حذف مضاف، أي نتلو شأنها وشرح العبرة فيها ويحتمل أن يريد بآيات الله القرآن المنزل في هذا المعنى، فلا يكون فيها حذفُ مضاف[٥].

وقرأ بعضهم: يَتْلُوهَا بياء الغيبة، عائداً على الباري تعالى[٦].

قوله: «بالْحَقِّ» حال من الفاعل، أي ملتبسين بالحق، أو من المفعول، أي ملتبسةً بالحق. ويجوز أن تكون (الباء) للسببية فتتعلق بنفس «نَتْلُوهَا»[٧].

قوله: «فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ» قال الزمخشري: أي بعد آيات الله، فهو كقولك: أَعْجَبَنِي زَيْدٌ كَرَمُهُ، يريدون: كَرَمَ زَيْدٍ. وردَّه عليه أبو حيان بأنه ليس مراداً، بل المراد إعجابان، وبأنَّ فيه إقحاماً[٨] للأسماء من غير ضرورة، قال: وهذا قلب لحقائق النَّحْو[٩].

وقرأ الحَرَمِيَّانِ وأبو عمرو وعاصمٌ ـ في رواية ـ «يُؤْمِنُون» بياء الغيبة والباقون بتاء الخطاب[١٠]. و «فَبِأَيِّ» متعلق به، قدم لأن له صدر الكلام. واختار أبو عبيد الياء، لأن فيه غيبة، وهو قوله: «لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»، و «لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ»[١١].

فإن قيل: في أول الكلام خطاب، وهو قوله: «وَفِي خَلْقِكُمْ» قُلْنَا: الغيبة أقرب إلى الحرف المُخْتَلَفِ فيه فكان أولى[١٢].

فصل

ومعنى الآية أن من لم ينتفع بهذه الآيات، فلا شيء بعده يجوز أن ينتفع به. وهذه

---

(١) في ب: شيخة.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٣.
(٣) في ب حيث وما هو أعلى موافق لما في الدر المصون لشهاب الدين.
(٤) الدر المصون ٤/ ٣٠ وغالبية النحاة يرون عمل حرف التنبيه واسم الإشارة في الحال وممَّنْ مَنَعَ ذلك السهيلي. انظر ابن يعيش ٢/ ٥٨، وشرح الرضي ١/ ١٠١، والهمع ١/ ٢٤٤، والأشموني ٢/ ١٠.
(٥) البحر المحيط ٨/ ٤٣.
(٦) لم تنسب في البحر المحيط ٨/ ٤٣ ولا في الكشاف ٣/ ٥٠٩.
(٧) الدر المصون ٣/ ٨٣١.
(٨) في النسختين إلحام خطأ.
(٩) البحر المحيط المرجع السابق ٨/ ٤٤.
(١٠) قراءة متواترة انظر السبعة ٥٩٤ و٥٩٥ والإتحاف ٣٨٩.
(١١) الرازي ٢٧/ ٢٦٠.
(١٢) المرجع السابق.

الآية تبطل القول بالتقليد، وتوجب على المكلف التأمل في دلائل دين الله[١].

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠ هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝١١﴾

قوله: «وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيم...» الآية لما بين الآيات للكفار، وبين أنهم إذا لم يؤمنوا بها مع ظهورها فبأي حديثٍ بعدها يؤمنون أتبعه بوعيد عظيم لهم فقال: «وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيم» والأفاك الكذاب، والأثيم المُبَالغ في اقتراف الإثم، وهو أن يبقى مصراً على الإنكار، والاستكبار. قال المفسرون: يعني النَّضْرَ بن الحارث، والآية عامة في من كان موصوفاً[٢] بهذه الصفة.

قوله: «يَسْمَعُ» يجوز أن يكون مستأنفاً، أي هو يسمع، أو دون إضمار «هو» وأن يكون حالاً من الضمير في «أثيم» وأن يكون صفة.

قوله: «تُتْلَى عَلَيْهِ» حال من «آيَاتِ اللَّهِ»[٣]، ولا يجيء فيه الخلاف وهو أنه يجوز أن يكون في محلِ نصب مفعولاً ثانياً؛ لأن شرط ذلك أن يقع بعدها ما لا يسمع نحو: «سَمِعْتُ زَيْداً يَقْرَأُ» أما إذا وقع بعدها ما يسمع، نحو: سَمِعْتُ قِرَاءَةَ زَيْدٍ يَتَرنَّمُ بِهَا فهي متعدية لواحد فقط، و «الآيات» مما يسمع[٤].

قوله: «ثُمَّ يُصِرُّ» قال الزمخشري: فإن قلتَ: ما معنى «ثم» في قوله: «ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً»؟ قلتُ: كمعناه في قول القائل:

٤٤٣٩ ـ .... يَرَى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ثُمَّ يَزُورُهَا[٥]

وذلك أن غمرات الموت حقيقة بأن ينجو رائيها بنفسه، ويطلب الفِرار منها، وأما زورانها والإقدام على مزاولتها فأمر مستبعد، فمعنى ثم الإيذان بأن فعل المقدم عليها

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٠٩.

(٢) السابقين.

(٣) هذه الأوجه الإعرابية ذكرها أبو البقاء في التبيان ١١٥١، والسمين في الدر ٤/ ٨٣١.

(٤) الدر المصون المرجع السابق، والذي عدَّها من النواسخ الأخفش والفارسي وابنُ بابشاذ، وابن عُصْفُورٍ وابن الصائغ، وابن أبي الربيع وابن مالك، انظر الهمع ١/ ١٥٠.

(٥) سبق هذا البيت أنه لجعفر بن علبة الحارثي من الطويل وصدره:

وَلاَ يَكْشِفُ الْغَمَّاءَ إلاَّ ابْنُ حُرَّةٍ

وانظر كل ما فيه هنا أعلى بتوضيح من المؤلف نقلاً عن الزمخشري ٣/ ٥٠٩ والدر المصون ٤/ ٨٣١.

بعدما رآها وعاينها شيء يستبعد في العادات والطباع وكذلك آيات الله الواضحة الناطقة بالحق من تُلِيَتْ عليه وسَمِعَها كان مستبعداً في العقول إصراره على الضلاله عندها واستنكاره[1] عن الإيمان بها[2].

قوله: «كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا» هذه الجملة يجوز أن تكون مستأنفةً، وأن تكون حالاً[3]، والأصل كأنه لم يسمعها، والضمير ضمير الشأن، ومحل الجملة النصب على الحال أي يَصِيرُ مِثْلَ غَيْرِ السَّامِعِ[4] ثم قال: «فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيم».

قوله: «وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً» العامة على فتح العين وكسر اللام خفيفة مبنياً للفاعل. وقتادةُ ومطر الوراق عُلِّم مبنياً للمفعول مشدداً[5].

قوله: (اتَّخَذَهَا) الضمير المؤنث فيه وجهان:

أحدهما: أنه عائد على «آيَاتِنَا» يعني القرآن.

والثاني: أنه يعود على «شَيْءٍ» وإن كان مذكراً[6]، لأنه بمعنى الآية كقول أبي العتاهية:

٤٤٤٠ ـ نَفْسِي بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا مُعَلَّقَةٌ اللَّهُ وَالْقَائِمُ الْمَهْدِيُّ يَقْضِيهَا[7]

لأنه أراد «بِشَيْءٍ» جاريةً يقال لها: عتبة.

فصل

المعنى ذلك الشيء هُزُوٌ، إلا أنه تعالى قال: اتَّخَذَها للإشعار بأن هذا الرجل إذا أحسّ بشيء من الكلام أنه من جملة الآيات المنزلة على محمَّد ـ ﷺ ـ خاض في الاستهزاء بجميع الآيات، ولم يقتصر على الاستهزاء بذلك الواحد[8].

قوله: «أُولَئِكَ» إشارة إلى معنى كل أَفَاكٍ أَثِيم ليدخل فيه جميع الأفّاكين فَحُمِلَ أَوّلاً على لفظها فأفرد، ثم على معناها فجمع، كقوله: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣].

قوله: «مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ» لما قال: «أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» وصف كيفية ذلك العذاب فقال: من ورائهم جهنم أي أمامهم جهنم لأنهم في الدنيا. قال الزمخشري هي اسم للجهة التي يواجه بها الشخص من خَلْفه أو من قُدَّامِهِ[9]. ثم بين أن ما ملكوه في

---

(١) في ب واستكباره وهو الموافق لما في الكشاف. (٢) انظر الكشاف ٣/ ٥٠٩.

(٣) الكشاف المرجع السابق والتبيان ١١٥١، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٣٩٥.

(٤) قال بهذا الأصل الإمام الفخر الرازي في التفسير الكبير ٢٧/ ٢٦١.

(٥) قراءة شاذة انظر مختصر ابن خالويه ١٣٨. (٦) الكشاف ٣/ ٥٠٩.

(٧) من البسيط له، ويروى «يكفيها» بدل يقضيها، والشاهد: يقضيها فلم يقل: يقضيه ولكنه أنّث وانظر الكشاف ٣/ ٥١٠ وشرح شواهده ٥٦٢ والبحر المحيط ٨/ ٤٤، والحماسة البصرية ١/ ٥٥١ والديوان ٣٤٧.

(٨) الرازي ٢٧/ ٢٦١ والكشاف ٣/ ٥٠٩.

(٩) الكشاف ٣/ ٥١٠ واللفظ لفظ الرازي في ٢٧/ ٢٦١ وفي الكشاف: والوراء اسم للجهة التي يواريها الشخص. إلخ.. الكشاف ٣/ ٥١٠.

الدنيا لا ينفعهم فقال: «وَلاَ يُغْنِي عَنهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئاً» أي من الأموال.

قوله: «وَلاَ مَا اتَّخَذُوا» عطف على ما كسبوا و «ما» فيهما إما مصدرية أو بمعنى الذي أي لا يغني كَسْبُهُمْ ولا اتِخَاذُهُمْ، أو الذي كسبوه ولا الذي اتخذوه[١].

فإن قِيلَ: إنه قال قبل هذه الآية: «وَلَهُمْ عَذَابٌ مهينٌ» ثم قال ههنا: «وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» فما الفرق بينهما؟

فالجواب: كون العذاب مُهيناً يدُلُّ على حصول الإهانة مع العذاب وكَوْنهُ عظيماً يدل على كونه بالغاً إلى أقصى الغايات في الضَّرَر[٢].

قوله: «هَذَا هُدًى» يعني هذا القرآن هدى أي كامل في كونه هدى من الضلالة «والَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ أَلِيم» وقد تقدم الكلام على الرجز الأليم في «سبأ» والرجز أَشَدُّ العذاب لقوله تعالى: ﴿رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٥٩] وقوله: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ [الأعراف: ١٣٤]. وقرىء «أليم» بالجر، والرفع[٣]، أما الرفع فتقديره لهم عذاب أليم، ويكون (المراد)[٤] من الرِّجز النَّجَسُ الذي هو النجاسة، ومعنى النجاسة فيه قوله: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٦] وكأن المعنى لهم عذاب من تَجرُّع رجسٍ أو[٥] شرب رجس، فيكون تنبيهاً للعذاب، وأما الجر فتقديره لهم عذاب من عذاب أليم، وإذا كان عذابهم من عذاب أليم كان عذابهم أليماً[٦].

قوله تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ**...﴾[٧] الآية لما ذكر تعالى الاستدلال بكيفية جَرَيَان الفلك على وجه البحر؛ وذلك لا يحصل إلا بتسخير ثلاثة أشياء: **أحدها**: الرياح التي توافق المراد. **وثانيها**: خلق وجه الماء على المَلاَسَةِ التي تجري عليها الفُلك. **وثالثها**: خلق الخشبة على وجه تبقى طافية على وجه الماء ولا تَغْرقُ

(١) التبيان ١١٥١.
(٢) الرازي المرجع السابق ٢٧/ ٢٦١ و٢٦٢.
(٣) ذكرها الزمخشري والرازي في تفسيرهما الأول في الكشاف ٣/ ٥١٠ والثاني في التفسير الكبير ٢٧/ ٢٦٢.
(٤) زيادة للسياق.
(٥) في أ «أي» تحريف.
(٦) ذكر هذه التوجيهات الرازي في مرجعه السابق.
(٧) في ب الله الذي سخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره؛ فخلط بين آية الجاثية التي معنا، وبين آية إبراهيم ٣٢.

عنه. وهذه الأحوال لا يقدر عليها أحد من البشر، ولا بدّ من موجود قادر عليها وهو الله سبحانه وتعالى. وقوله «ولتبتغوا مِنْ فَضْلِهِ» إما بالتجارة وإما بالغوص على اللؤلؤ والمرجان، أو لاستخراج اللَّحم الطَّرِيّ[١].

قوله تعالى: ﴿**وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض**﴾ أي خلقها مسخرة لنا. أي لنفعنا.

قوله: «جميعاً» حال من «ما في السموات وما في الأرض» أو توكيد[٢]. وقد عدها ابن مالك في أَلْفَاظِهِ[٣] و «منه» يجوز أن يتعلق بمحذوف صفة لـ «جَمِيعاً» وأن يتعلق «بسَخَّر» أي هو صادر من جهته ومن عنده[٤]. وجوَّز الزمخشري في «منه» أن يكون خبر ابتداء مضمر، أي هُنَّ جَمِيعاً منه، وأن يكون «وَمَا فِي الأَرْضِ» مبتدأ و «منه» خبره[٥]. قال أبو حيان: وهَذَانِ لا يجوزان إلاَّ على رأي الأخفش، من حيث إنَّ الحال تقدمت يعني «جَمِيعاً» فقدمت على عاملها المعنوي يَعْنِي الجَار فهي نظير: زَيْدٌ قَائِماً فِي الدَّارِ[٦] والعامة على «مِنْهُ». وابن عباس ـ (رضي الله عنهما)[٧] ـ بكسر الميم وتشديد النون ونصب التاء[٨]. جعله مصدراً مِنْ: «مَنَّ يَمُنُّ مِنَّةً» فانتصبا به عنده على المصدر المؤكد، إما بعاملٍ مضمر، وإما بسخَّر لأنه بمعناه[٩]. قال أبو حاتم: سند[١٠] هذه القراءة إلى ابن عباس مظلم[١١]. قال شهاب الدين: قد رُوِيَتْ أيضاً عن جماعة جلة غير ابن عباس، فنقلها ابن خالويه[١٢] عنه وعن عُبَيْد بْنِ عُمَيْر ونقلها صاحب اللوامح[١٣] وابن جني[١٤] عن ابن عباس، وعبد الله بن عمرو والجَحْدَرِيّ وعبد الله بن عُبَيْد بن عُمَيْر[١٥]. وقرأ

---

(١) الرازي ٢٧/ ٢٦٢. (٢) الدر المصون ٤/ ٨٣٢.

(٣) وشرط إضافتها هي كل وعامة إلى الضمير قال: ومجيئه في الغرض الثاني (وهو التوكيد المعنوي) تابعاً لذي أجزاء يصح وقوع بعضها موقعه مضافاً إلى ضميره بلفظ «كل» أو جميع «أو عامة». ا التسهيل ١٦٤.

(٤) التبيان ١١٥١، والكشاف ٣/ ٥١٠. (٥) المرجع السابق.

(٦) بالمعنى من البحر المحيط ٨/ ٤٥، ووجدت في شرح الكافية للعلاَّمة الرضي: «وأجاز بشرط تقدم المبتدأ على الحال نحو: زَيْدٌ قَائِماً في الدَّارِ، وذلك بناء على مذهبه من حتى جاز أن يعمل عنده بلا اعتماد في الظاهر في نحو: فِي الدَّارِ زَيْدٌ». شرح الكافية

(٧) زيادة من أ.

(٨) شاذة من الأربع عشر وانظر الإتحاف ٣٩٠ ومختصر ابن خالويه ١٣٨ والمحتسب

(٩) انظر المحتسب السابق، والدر المصون ٤/ ٨٣٣.

(١٠) في ب مسند.

(١١) في البحر المحيط ظلم، والرواية تبعاً لصاحب الدر المصون، انظر الدر المرجع ا ر ٨/ ٤٥.

(١٢) مختصر ابن خالويه ١٣٨. (١٣) انظر البحر المحيط

(١٤) المحتسب ٢/ ٢٦٢.

(١٥) عبد الله بن عُبَيْد بن عُمَيْر بن قتادةَ بن سَعْدِ بْن عامر أبو هاشم الليثي ا جليلٌ، وردت الرواية=

مُسْلِمَةُ[١] بْنُ مُحَارِب كذلك إلا أنه رفع التاء جعلها خبَر ابْتِداءٍ مضمر، أي هي مِنَّةٌ[٢]. وقرأ أيضاً في رواية أخرى بفتح الميم وتشديد النون و «هاء» كناية مضمومة جعله مصدراً مضافاً لضمير الله تعالى[٣]. ورفعه من وجهين:

أحدهما: بالفاعلية بسَخَّر، أي سَخَّرَ لَكُمْ هَذِهِ الأشياءَ مَنُّهُ عَلَيْكُمْ[٤].

والثاني: أن يكون خبر ابتداء مضمر، أي هُو، أو ذَلِكَ[٥] مَنُّهُ عليكم إنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ.

قوله تعالى: **﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا﴾** تقدم نظيره في سورة[٦] إبراهيمَ، قال ابن عباس: ـ رضي الله عنهما ـ المراد بالَّذِينَ آمنوا عمرُ بنُ الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ يعني عَبْدَ اللَّه بْنَ أُبَيٍّ، وذلك أنهم نزلوا في غَزَاةِ بني المصْطَلَق على بئرٍ يقال لها: المريسيع فأرسل عبد الله غلامه ليستقي الماء، فأبطأ عليه، فلما أتاه، قال له: ما حَبَسَك؟ فقال[٧]: غُلام عمر قعد على طَرف البئر، فما ترك أحداً يستقي حتى ملأ قُرَبَ النبي، وقُرَبَ أبي بكر، فقال عبد الله بن أُبَيِّ: ما مِثْلُنا ومِثْلُ هؤلاء إلا كما قيل: سَمِّنْ كَلْبَكَ يَأكُلْكَ، فبلغ ذَلِكَ عُمَر، فاشتمل بسيفه، يريد التوجه (له)[٨] فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقال مقاتل: إنَّ رَجُلاً من بني غِفار شتم عُمَرَ بْنَ الخَطَّاب ـ (رضي الله عنه)[٩] ـ بمكَّةَ، فهم عمر أن يَبْطِشَ به، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأمره بالعفو والتَّجاوُز، وروى مَيْمُونُ بْنُ مهرانَ أَن فِنحاصَ اليهوديَّ لما نزل قوله تعالى: **﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾** [البقرة: ٢٤٥] قال: احتاجَ رَبُّ محمَّدٍ، فسمع ذلك عُمَرُ، فاشتمل على سيفه، وخرج في طلبه فبعث النبي ـ ﷺ ـ إليه فردَّه. وقال القُرظِيُّ والسُّدِّيُّ: نزلت في ناسٍ من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ من أهل مكة كانوا في أَذًى كثير من المشركين قبل أن يؤمروا بالقتال فَشَكَوْا ذَلِكَ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فأنزل الله هذه الآية ثم نَسَخَتْهَا آيةُ القِتَال[١٠].

= عنه في حروف القرآن مات سنة ١١٣ هـ انظر غاية النهاية ٢/ ٤٣١، وانظر الدر المصون ٤/ ٨٣٣.

(١) هو مسلمة بن عبد الله بن محارب أبو عبد الله الفهري البصري، النحوي، له اختيار في القراءة قرأ عليه شهاب الدين بن شرنفة، وكان من علماء العربية انظر غاية النهاية ٢/ ٢٩٨.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٥ وهي قراءة شاذة وأوردها أيضاً نقلاً عن البحر صاحب الدر المصون ٤/ ٨٣٣.

(٣) المحتسب ٢/ ٢٦٢ والدر المصون المرجع السابق.

(٤) هذا توجيه أبي الفتح في مرجعه السابق.

(٥) هذا توجيه أبي حاتم فيما نقله عنه أيضاً ابن جني في المرجع السابق وانظر الدر المصون ٤/ ٨٣٣.

(٦) يقصد قوله: **﴿قُلْ لعبادي الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾** من الآية ٣١.

(٧) في ب قال.

(٨) سقط من ب.

(٩) زيادة من أ.

(١٠) السابق.

قال ابن الخطيب: وإنما قالوا بالنسخ، لأنه يدخل تحت الغفران أن لا يَقْتلُوا ولا يقاتِلوا فلما أمروا بالمقاتلة كان نسخاً. والأقرب أن يقال: إنه محمول على ترك المنازعة، وعلى التجاوز عما يصدر عنهم من الكلمات المؤذية[١] وقوله: «لاَ يَرْجُونَ أَيَّام اللَّهِ» قال ابن عباس: لا يرجون ثواب الله ولا يخافون عقابه ولا يخشون مثل عذاب الأمم الخالية[٢] وتقدير تفسير «أيام الله» عند قوله: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥].

قوله: «لِيَجْزِيَ قَوْماً» قرأ ابن عامر والأَخَوَانِ: لنَجْزِي[٣] بنون العظمة، أي لنَجْزي نَحْنُ[٤]. وباقي السبعة ليَجْزِي بالياء من تحت مبنياً للفاعل؛ أي ليجزي اللَّهُ. وأبو جعفر ـ بخلاف عنه وشيبةُ وعَاصمٌ ـ في رواية ـ كذلك إلا أنه مبني للمفعول هذا مع نصب «قوماً»[٥]. وفي القائم مقام الفاعل ثلاثة أوجه:

أحدها: ضمير المفعول الثاني، عاد الضمير عليه لدلالة السِّياق تقديره: ليجزي هو أي الخير قوماً والمفعول الثاني من باب أعطى، يقوم مقام الفاعل بلا خلافٍ، ونظيره: الدِّرْهَمَ أُعْطِيَ زَيْداً[٦].

الثاني: أن القائم مقامه ضمير المصدر المدلول عليه بالفعل، أي لِيُجْزَى الجَزَاءَ[٧]. وفيه نظر لأنه لا يترك المفعول به، ويقام المصدر، لا سيما مع عدم التصريح به.

الثالث: أن القائم مقامه الجار والمجرور[٨]، وفيه حجة للأخفش والكوفيين حيث يجيزون نيابة غير المفعول به مع وجوده وأنشدوا:

٤٤٤١ ـ .... لَسُبَّ بِذَلِكَ الجِرْوِ الكِلاَبَا[٩]

---

(١) الرازي ٢٧/ ٢٦٣. (٢) السابق.

(٣) في ب ليجزي بالياء وهو غير مراد.

(٤) وهذه قراءة متواترة ذكرها صاحب الكشف في ٢/ ٢٦٨ وانظر أيضاً السبعة ٥٩٤ و٥٩٥، والإتحاف ٣٩٠ ومعاني الفراء ٣/ ٤٦.

(٥) انظر هذه القراءة في الإتحاف ومعاني الفراء السابقين وهي من الأربع فوق العشر وقد ذكرها بدون نسبة الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥١١.

(٦) التبيان ١١٥٢ والدر المصون ٤/ ٨٣٤.

(٧) الكشاف ٣/ ٥١١ والبحر المحيط ٨/ ٤٥، والبيان ٢/ ٣٦٥ ومعاني الفراء ٣/ ٤٦ ولم يرضه أبو البقاء في التبيان ١١٥٢ قال: «وهو بعيد».

(٨) الدر المصون ٤/ ٨٣٤.

(٩) عجز بيت من الوافر، نسب لجرير وليس بديوانه وصدره:

فَلَو ولدت قفيرةُ جرو كلبٍ

وقفيرة ـ مصغراً ـ أم الفرزدق ـ والجرو ولد السِّباع، ومنها الكلب والمعنى: في الذم والتحقير. والشاهد: لسُبَّ بذلك حيث ناب الجار والمجرور، وهو بذلك عن الفاعل مع وجود المفعول وهو «الكلاب» منصوبة، وانظر الدر المصون ٤/ ٨٣٤ والخصائص ١/ ٣٩٧ وابن يعيش ٧/ ٧٥، والهمع ١/ ١٦٢.

و:

٤٤٤٢ ـ لَمْ يُغْنَ بِالْعَلْيَاءِ إِلاَّ سَيِّدَا[١]

والبصريون لا يُجِيزُونَه.

فصل

المعنى لكي نجازي بالمغفرة قوماً يعملون الخير.

فإن قيل: ما الفائدة من تنكير «قَوْماً» مع أن المراد بهم المؤمنون المذكورون في قوله: «قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا»؟

فالجواب: أن التنكير بدل على تعظيم شأنهم، كأنه قيل: ليجزِي قَوْماً وأَيّ قوم قوماً من شأنهم الصَّفْحُ عن السّيئات، والتجاوز عن المؤذيات، وتجرع المكروه، كأنه قيل: لا تكافئوهم أنتم حتى نُكَافِئَهُمْ نحن. ثم ذكر الحكم العام فقال: «مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ» وهو مثل ضربه الله للذين يغفرون «وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا» مثل ضربه الله للكفار الذين كانوا يؤذون الرسول والمؤمنين «ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ».

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ آتَينَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾** يعني التوراة «والْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ» والمراد بهذه الآية أنه تعالى بين أنه أنعم بنعمٍ كثيرة على بني إسرائيل مع أنه حصل بينهم الاختلاف على سبيل البغي والحسد، والمقصود منه أن يبين أن طريقة قومِهِ كطريقة مَنْ تَقَدَّم. واعلم أن المراد بالكتاب التوراة وأما الحكم، فقيل: المراد به العِلْم والحُكْمُ. وقيل: المراد العلم بفصل الحكومات[٢]. وقيل: معرفة أحكام الله وهو علم الفقه. وأما

---

(١) رجز وهو لرؤية وهو من الأبيات المشهورة في النحو، وقد ورد الفعل مضبوطاً بالفتح فتح الياء «يَغْنَ» وعليه فلا شاهد حينئذٍ. والشاهد: لم يُغْنَ بالعَلْياء فأناب الجار والمجرور وهو بالعلياء مكان الفاعل المحذوف بدليل نصب «سَيِّداً» وهذا حجة للكوفية والأخفش في نيابة الجار والمجرور مكان الفاعل مع وجود المفعول. قال أبو الفتح في الخصائص: «وأجاز أبو الحسن ضُرِبَ الضَّرْبُ الشَّدِيدُ زيداً، ودُفِع الدَّفْع الذي تعرف إلى محمد، وقُتِلَ القَتْلُ يَوْمَ الجُمْعَةِ أخاك، ونحو هذه من المسائل، ثم قال: وهو جائز في القياس وإن لم يَرِدْ به الاستعمال» وانظر الخصائص ١/٣٩٧، وابن يعيش ٧/٧٥ والهمع ٢/١٦٢ وانظر البيت أيضاً في اللسان (عنا) ٣١٤٦ و٣١٤٧ والأشموني ٣/٦٨، والتصريح ١/٢٩١ وملحقات ديوان رؤبة ١٧٣.

(٢) في ب الخصومات وهو أقرب.

النبوة فمعلومة «وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ» الحَلاَلاَت، يعني المَنَّ والسَّلْوى «وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى العَالَمِينَ». قال المفسرون: على عالَمِي زمانهم. قال ابن عباس ـ (رضي الله عنهما)(١) ـ لم يكن أحد من العالمين أكرم على الله ولا أحبَّ إليه منهم(٢).

ثم قال: «وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الأَمْرِ» قال ابن عباس ـ (رضي الله عنهما)(٣) ـ يعني العلم بِمَبْعَثِ محمد ـ ﷺ ـ وما بين لهم من أمره وأنه يهاجر من تِهامةَ إلى يثربَ، ويكون أنصاره من أهل يثربَ. وقيل: المراد بالبيِّنات المعجزات القاهرة على صحة نبوتهم والمراد معجزات موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

ثم قال تعالى: ﴿**فَمَا اخْتَلَفُوا إلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جَاءَهُمُ العِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ**﴾ وتقدم تفسير هذا في سورة «حم عسق». والمراد من ذكر هذا الكلام التعجب من هذه الحالة؛ لأن حصولَ العلم يوجب ارتفاع الخلاف، وههُنَا صار مجيء العلم سبباً لحصول الاختلاف؛ وذلك لأنهم لم يكن مقصودهم من العلم نفس العلم، وإنما مقصودهم طلب الرِّيَاسَةِ والتَّقَدُّم، فيجوز أنهم علموا ثم عاندوا. ويجوز أن يريد بالعلم الأدلة التي توصل إلى العلم، والمعنى أنه تعالى وضع الدلائل والبينات التي لو تأملوا فيها لعرفوا الحقَّ، لكنهم اختلفوا وأظهروا النزاع على وجه الحسد، ثم قال: «إنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» والمعنى أنه لا ينبغي أن يغتر المُبْطِل بِنعَم الدنيا، فإنها وإن ساوت نِعَمَ المحقّ أو زادت عليها، فإنه سيرى في الآخرة ما يسوؤه وذلك كالزجر لهم. ولما بين تعالى أنهم أعرضوا عن الحق بغياً وحسداً، أمَرَ رسوله بأن يَعْدِلَ عن تلك الطريقة، وأن يتمسَّك بالحقِّ وأن لا يكون له غَرَض سوى إظهار الحق فقال: «ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ» أي جعلناك يا محمد على سنة وطريقة بعد موسى «مِنَ الأَمْرِ» من الدِّين «فَاتَّبِعْهَا وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ» يعني مراد الكافرين وأديانهم الخبيثة. قال الكلبي: إن رؤساءَ قريشٍ قالوا للنبي ـ ﷺ ـ وهو بمكة ارجع إلى دين آبائك فهم كانوا أفْضَلَ منك وأسَنّ، فأَنْزَلَ الله تَعَالَى هذه الآية(٤).

قوله: «عَلَى شَرِيعَةٍ» هو المفعول الثاني لجَعَلْنَاك والشريعة في الأصل ما يرده الناس من الماء في الأنهار، ويقال لذلك الموضع شريعة، والجمع شرائع قال:

٤٤٣ ـ وَفِي الشَّرَائِعِ مِنْ جِيلاَنَ مُقْتَنَصٌ رَثُّ الثِّيابِ خَفِيُّ الشَّخْصِ مُنْسَرِبُ(٥)

---

(١) زيادة من أ.

(٢) وانظر في هذا كله الرازي ٢٧/ ٢٦٣ و٢٦٤ والقرطبي ١٦/ ١٦٢ و١٦٣.

(٣) زيادة من أ.

(٤) وانظر تفسير الإمام العلاّمة الفخر الرازي ٢٧/ ٢٦٥.

(٥) من بحر البسيط، ولم أعرف قائله وشاهده: أن الشرائع جمع شريعة وهو موضع ومكان المياه وانظر البحر المحيط ٨/ ٣٦ والدر المصون ٤/ ٨٣٥.

فاستعير ذلك للدين، لأن العباد يردون ما يحيى(١) به نفوسهم(٢).

قوله: «إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً» أي إن اتبعت أهواءهم «وإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ» والمعنى إنك لو ملت إلى أديانهم الباطلة لصرت مستحقاً للعذاب، وهم لا يقدرون على دفع عذاب الله عنك(٣)، وإنَّ الظالمين يتولى بعضهم بعضاً في الدنيا وأما في الآخرة، فلا ولي لهم ينفعهم في إيصال الثوب، وإزالة العقاب، وأما المتقون المهتدون فالله وليهم وناصرهم(٤).

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ﴾ أي هذا القرآن، جمع خَبَرُهُ باعتبار ما فيه. وقرىء: «هَٰذِهِ»(٥) رجوعاً إلى الآيات ولأن القرآن بمعناها كقوله:

٤٤٤٤ ـ .... سَائِلْ بَنِي أَسَدٍ مَا هَٰذِهِ الصَّوْتُ؟(٦)

لأنه بمعنى الصيحة، والمعنى بصائر للناس، أي معالم للناس في الحُدُودِ والأحكام يبصرون بها. وتقدم تفسيره في سورة الأعراف «وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ» هدى من الضلالة، ورحمة من العذاب لمن اتقى وآمن.

---

(١) في ب «يخفى» تحريف.
(٢) وانظر الدر المصون ٤/ ٨٣٥.
(٣) في أ عليك والتصحيح من ب.
(٤) الرازي ٢٧/ ٢٦٥ و٢٦٦.
(٥) قراءة شاذة غير متواترة لم ينسبها صاحب الكشاف والدر المصون انظر الكشاف ٣/ ٥١١ والدر المصون ٤/ ٨٣٥. بينما نسبها صاحب شواذ القرآن إلى اليماني ٢٢١.
(٦) عجز بيت من البسيط لرُوَيْشِد بْنِ كثير، صدره:

يَا أَيُّهَا الرَّاكِبُ المُزْجِي مَطِيَّتَهُ

والشاهد: الإشارة إلى الصوت بالمؤنث؛ لأن المراد الصَّيْحَة فجاز ذلك. وانظر الخصائص ٢/ ٤١٦، وابن يَعيش ٥/ ٩٥، والإنصاف ٧٧٣، والهمع ٢/ ١٥٧ واللسان (صوت) وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٦٦.

قوله: «أَمْ حَسِبَ» أم منقطعة فتقدر ببل والهمزة أو ببل وحدها، أو بالهمزة وَحْدَها[(١)] وتقدم تحقيق هذا.

قوله: «كَالَّذِينَ آمَنُوا» هو المفعول الثاني للجَعْل، أي أن نَجْعَلَهُمْ كائنين كالذين آمنوا أي لا يحسبون ذلك[(٢)]. وَقَدْ تقدم في سورة الحج[(٣)] أنَّ الأَخَوَيْنِ وحفصاً قرأوا هنا: سَوَاءَ بالنصب والباقون بالرفع[(٤)]. وتقدم الوعد عليه بالكلام هنا فنقول: أما قراءة النصب ففيها ثلاثة أوجه:

أحدها: أن ينتصب على الحال من الضمير المستتر في الجار والمجرور وهما: «كَالَّذِين آمَنُوا» ويكون المفعول الثاني للجعل «كالذين آمنوا» أي أحسبوا أنْ نَجْعَلَهُم مثلهم في حال استواء مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتِهِمْ؟ ليس الأمر كذلك[(٥)].

الثاني: أن يكون «سواءً» هو المفعول الثاني للجَعْل. و «كَالَّذِينَ» في محل نصب على الحال، أي أن نجعلهم حال كونهم مِثْلَهم سواءً. وليس معناه بذاك[(٦)].

الثالث: أن يكون «سواه» مفعولاً ثانياً «لحسب». وهذا الوجه نحا إليه أبو البقاء[(٧)]. قال شهاب الدين: وأظنه غلطاً؛ لما سيظهر لك، فإنه قال: ويقرأ بالنصب وفيه وجهان:

أحدهما: هو حال من الضمير في «الكاف» أي نجعلهم مثل المؤمنين في هذه الحال[(٨)].

الثاني: أن يكون مفعولاً ثانياً لحسب والكاف حال، وقد دخل استواء محياهم ومماتهم في الحِسْبان وعلى هذا الوجه «مَحْيَاهُمْ ومماتُهُمْ» مرفوعان (بسواء) لأنه قد قَوِيَ[(٩)] باعتماده انتهى[(١٠)].

فقد صرح بأنه مفعول ثان للحسبان، وهذا لا يصح ألبتّة، لأن «حسب» وأخواتها إذا وقع بعدها «أَنَّ» المشددة و «أَنْ» المخففة أو الناصبة سَدَّتْ مسدَّ المفعولين، وهنا قد

---

(١) قاله صاحب الكشاف ٣/ ٥١١ وصاحب الدر المصون ٤/ ٨٣٥.

(٢) قاله النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٤٥، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٥١٢ والسمين في الدر ٤/ ٨٣٥.

(٣) عند قوله: «سَوَاءً العَاكِفُ فِيهِ والبَادِ» من الآية ٢٠٥ وانظر السبعة ٤٣٥ واللباب ٦/ ٢٩٠ ب.

(٤) السبعة ٥٩٥ ومعاني الفراء ٣/ ٣٧.

(٥) قاله السمين في الدر المصون ٤/ ٨٣٥ وجعله أبو حيان منصوباً على الحال ولم يبين صاحب الحال البحر ٨/ ٤٧ بينما حدَّد أبو البقاء صاحب الحال فقال: «حال من الضمير في الكاف». بينما ارتأى مكي أن يكون حالاً من الهاء والميم في نَجْعَلُهُمْ. انظر مشكل الإعراب ٢/ ٢٩٧.

(٦) البحر المحيط ٨/ ٤٧ وحجة ابن خالويه ٣٢٥ والتبيان ١١٥٢.

(٧) المرجع الأخير السابق.

(٨) في ب الحالة.

(٩) في التبيان: «قرىء» تحريف.

(١٠) بالمعنى قليلاً من التبيان ١١٥٢.

وقع بعد الحسبان «أَنْ» الناصبة، فهي سادّة مسدَّ المفعولين فمِنْ أين يكون «سواءً» مفعولاً ثانياً لحسب؟!

فإن قلت: هذا الذي قلته رأي الجمهور، سيبويه وغيره، وأما غيرهم كالأخفش فيدَّعي أنها تسد مسدّ واحدٍ[١]. وإذا تقرر هذا فقد يجوز أن أبا البقاء ذهب هذا المذهب فأَعْرَبَ «أَنْ نَجْعَلَهُمْ» مفعولاً أول (لـ «حَسِبَ[٢]») و «سَوَاءً» مفعولاً ثانياً.

فالجواب: أن الأخفش صرح بأن المفعول الثاني حينئذ يكون محذوفاً، ولئن سلمنا أنه لا يحذف امتنع من وجه آخر وهو أنه قد رفع به (مُحياهُمْ وَمَمَاتُهُمْ) لأنه بمعنى مستو كما تقدم، ولا ضمير يرجع من مرفوعه إلى المفعول الأول بل رفع أجنبيًّا من المفعول الأول وهو نظير: حَسِبْتُ قِيَامَكَ مُسْتَوِياً ذهابك وعدمه[٣].

ومن قرأ بالرفع فيحتمل قراءته وجهين:

أحدهما: أن يكون «سواء» خبراً[٤] مقدماً، و «مَحْيَاهُم» مبتدأ مؤخراً[٥]، ويكون «سواء» مبتدأ و «محياهم» خبره كذا أعربوه[٦]. وفيه نظر تقدم في سورة الحج[٧]، وهو أنه نكرة لا مسوغ فيها وأنه متى اجتمع معرفة ونكرة جعلت النكرة خبراً لا مبتدأ[٨].

ثم في هذه الجملة ثلاثة أوجه:

---

(١) قال السيوطي في الهمع ١/ ١٥١، ١٥٢ «تسد عن المفعولين في هذا الباب «أَنَّ» المشددة ومعمولاها نحو: ظننْتُ أَنَّ زَيْداً قائمٌ، واعلم أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قديرٌ، وإن كانت بتقدير اسم مفرد للطول، ولجريان الجهر، والمخبر عنه بالذكر في الصلة ثم لا حذف فيه عند سيبويه وذهب الأخفش والمبرِّد إلى أن الخبر محذوف والتقدير: أظنُّ زَيْداً قائم ثابت أو مستقر وكذا يسد عنهما إن وصلتها نحو: أحسِبَ الناس أن يتركوا لتضمن مسند ومسند إليه مصرح بهما في الصلة الثانية».

(٢) سقط من ب.

(٣) انظر الدر المصون ٤/ ٨٣٦.

(٤) في ب «غير» بدل خبر. تحريف وفي أ خبر مقدم رفعاً والأصح تقعيداً ما أثبته.

(٥) قاله في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٢٩٦ وابن الأنباري في البيان ٢/ ٢٦٥ وأبو البقاء في التبيان ١١٥٢ ومفهوم كلام الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥١٢.

(٦) قاله النحاس في الإعراب ٤/ ١٤٦ وهو رأي الخليل وسيبويه فيما ذكره النحاس والزجاج. انظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤/ ٤٣٣.

(٧) في الآية السابقة الذكر وهي: «سَوَاء العَاكِفُ فِيهِ والبَادِ».

(٨) هذا إطلاق من المؤلف فكلامه يستثنى منه صورتان الأولى: نحو: كم مالك؟ فإن «كم» مبتدأ وهي نكرة وما بعدها معرفة لأن أكثر ما يقع بعد أسماء الاستفهام النكرة والجمل والظروف، ويتعين إذ ذاك كون اسم الاستفهام مبتدأ نحو: مَنْ قائِم؟ ومَنْ قَامَ؟ ومن عندك؟ فحكم على «كم» بالابتداء حملاً للأول على الأكثر. الثانية: أفعل التفضيل نحو: خَيْرٌ منك زيد، وتوجيهه ما تقدم في «كم». وغير سيبويه يجعل المعرفة في الصورتين المبتدأ جرياً على القاعدة. وقال ابن هشام: يتحد عندي جواز الوجهين إعمالاً للدليلين. انظر الهمع ١/ ١٠٠.

أحدها: أنها استئنافية[١]. **والثاني**: أنها تبدل من الكاف الواقعة مفعولاً ثانياً[٢]. قال الزمخشري: لأن الجملة تقع مفعولاً ثانياً فكانت في حكم المفرد، ألا تراك لو قلت: أن نجعلهم سواءً محياهم ومماتهم كان سديداً، كما تقول: ظَنَنْتُ زَيْداً أبوهُ مُنْطَلِق[٣].

قال أبو حيان: وهذا ـ أعني إبدال الجملة من المفرد ـ أجازه ابن جني[٤] وابن مالك[٥] ومنعه ابن العِلْجِ[٦]، ثم ذكر عنه كلاماً كثيراً في تقريره ذلك. ثم قال: «والذي يظهر أنه لا يجوز ـ يعني ما جوزه الزمخشري ـ قال: لأنها بمعنى التَّصْيِير، ولا يجوز: صَيَّرْتُ زيداً أبوه قائمٌ؛ لأن التصيير انتقال من ذات إلى ذات أو من وصف في الذات إلى وصفٍ فيها، وتلك الجملة الواقعة بعد مفعول صيرت المقدرة مفعولاً ثانياً ليس فيها انتقال مما ذكر فلا يجوز.

قال شهاب الدين: ولقائل أن يقول: بل فيها انتقال من وصف في الذات إلى وصف فيها، لأن النحاة نصوا على جواز وقوع الحمل صفة وحالاً، نحو: مَرَرْتُ بِرَجُلٍ أَبُوهُ قائِمٌ، وجاء زيد أبوه قائمٌ، فالذي حكموا عليه بالوصفية والحالية يجوز أن يقع في حيِّز التصيير؛ إذ لا فرق بين صفة وصفة من هذه الحيثية[٧].

الثالث: أن تكون الجملة حالاً (و) التقدير: أم حسب الكفار أن نصيرهم مثل المؤمنين في حال استواء مَحْيَاهُمْ وَمَماتِهِم؟! ليسوا كذلك بل هم مقترفون[٨]. وهذا هو الظاهر عند أبي حيان وعلى الوجهين الأخيرين تكون الجملة داخلة في حيِّز الحسبان، وإلى ذلك نحا ابن[٩] عطية فإنه قال: مقتضى هذا الكلام أن لفظ الآية خبر، ويظهر أن

---

(١) وهو رأي نقله الزمخشري في الكشاف كما سبق ٣/ ٥١٢ وانظر الدر المصون ٤/ ٨٣٦.

(٢) المرجعين السابق. (٣) الكشاف المرجع السابق.

(٤) فقد جوز في البيت:

إلى اللَّهِ أَشْكُو بِالْمَدِينَةِ حَاجَةً ... والشام أُخْرَى كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ

أن تبدل «كيف يلتقيان» من (حاجة وأخرى) إبدال جملة من مفرد. وانظر الأشموني ٣/ ١٣٢، والتصريح ٢/ ١٦٢ و١٦٣ والمرادي على الألفية ٣/ ٢٦٤ و٢٦٥.

(٥) قال في تسهيله: «وقد تبدل جملة من مفرد». انظر التسهيل ١٧٣.

(٦) الإمام ضياء الدين أبو عبد الله محمد بن علي الإشبيليّ. من مصنفاته كتاب «البسيط» وقاله فيه: «ولا يصح أن تكون جملة معمولة للأول في موضع البدل كما كان في النعت لأنها تقدر تقدير المشتق وتقدير الجامد فيكون بدلاً، فيجتمع فيه تجوزان، ولأن البدل يعمل فيه العامل الأول فيصح أن يكون فاعلاً والجملة لا تكون في موضع الفاعل بغير سائغ، لأنها لا تضمر، فإن كانت غير معمولة فهل تكون جملة لا يبعد عندي جوازها كما يتبع في العطف الجملة للجملة، ولتأكيد الجملة التأكيد اللفظي انتهى انظر البحر المحيط ٨/ ٤٧ ونشأة النحو ٣٢٣.

(٧) الدر المصون ٤/ ٨٣٧. (٨) المرجعين السابقين.

(٩) في أ الزمخشري بدل من ابن عطية، والتصحيح من ب.

قوله: سواء محياهم ومماتهم داخل في الحسبة المنكرة السيئة، وهذا احتمال حسن، والأول جيِّد انتهى[١]. ولم يبين كيفية دخوله في الحسبان وكيفية أحد الوجهين الأخيرين إما البدل وإما الحالية كما عرفته. وقرأ الأعمش «سواءً» نصباً محياهُمْ ومَمَاتَهُمْ[٢]. بالنصب أيضاً، فأما سواء فمفعول ثان، أو حال كما تقدم. وأما نصب محياهم ومماتهم ففيه وجهان:

أحدهما: أن يكونا ظرفي زمان، وانتصبا على البدل من مفعول (نجعلهم) بدل اشتمال ويكون سواء على هذا هو المفعول الثاني، والتقدير: أنْ نَجْعَلَ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتَهُمْ (سَوَاءً[٣]).

والثاني: أن ينتصبا على الظرف الزماني، والعامل إما الجعل أو سواء. والتقدير أن نجعلهم في هذين الوقتين سواء أو نجعلهم مُسْتَوِيَيْنِ في هذين الوقتين[٤].

قال الزمخشري مُقرراً لهذه الوجه: ومن قرأ بالنصب جعل «مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتَهُمْ» ظرفين كمقدم الحاجِّ وخُفُوقَ النَّجم[٥]. قال أبو حيان: وتمثيله بخفوق النجم ليس بجيد، لأن خفوق مصدر ليس على مَفْعَل فهو في الحقيقة على حذف مضاف أي وقت خُفُوقِ (النَّجْم) بخلاف (محيا) و (ممات) و (مقدم) فإنها موضوعة على الاشتراك بين ثلاثة معان المصدرية والزمانية والمكانية فإذا استعملت مصدراً كان ذلك بطريق الوضع، لا على حذف مضاف كخُفُوق، فإنه لا بد من حذف مضاف، لكونه موضوعاً للمصدرية[٦] وهذا أمر قريب، لأنه إنما أراد أنه وقع هذا اللفظ مراداً به الزمان. أما كونه بطريق الأصالة أو الفرعية فلا يضر ذلك. والضمير في «محياهم ومماتهم» يجوز أن يعود على القبيلين بمعنى أن مَحْيَا المؤمنين ومماتهم سواء عند الله في الكرامة، ومحيا المجترحين ومماتهم سواء في الإهانة عنده[٧]. فَلَفَّ الكلام اتكالاً على ذهن السامع وفهمه. ويجوز

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٧ والدر المصون ٤/ ٨٣٧.

(٢) من القراءات الشاذة غير المتواترة ذكرها ابن خالويه في المختصر ١٣٨.

(٣) قال بذلك أبو حيان في البحر المحيط ٨/ ٤٧ و٤٨ ونقله عنه أيضاً السمين في الدر ٤/ ٨٣٧. هذا وقد سقطت كلمة سواء من ب.

(٤) قاله الزجاج والفراء في معاني القرآن. قال الزجاج في ٤/ ٤٣٣: «ومن نصب محياهم ومماتهم، فهو عند قوم من النحويين سواء في محياهم وفي مماتهم ويذهب به مذهب الأوقات». ويقول الفراء: «ولو نصبت المحيا والممات، كان وجهاً، تريد أن تجعلهم سواء في محياهم ومماتهم». معاني القرآن له ٣/ ٤٧. وقد ذكره أيضاً الإمام أبو جعفر النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٤٦.

(٥) الكشاف ٣/ ٥١٢.

(٦) بالمعنى من البحر المحيط ٨/ ٤٨، وباللفظ من الدر المصون ٤/ ٨٣٨.

(٧) اللف والنشر معروف في البلاغة وبخاصة في علم البديع وهو أن نلف شيئين، ثم نأتي بتفسيرهما ثقة بأن السامع يرد إلى كل واحد منهما ما له كقول الحق جلال وعلا: «وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُم اللَّيْلَ=

أن يعود على المجترحين فقط أخبر أن حالهم في الزمانين سواء[(١)]. وقال أبو البقاء: ويقرأ مَمَاتَهُمْ بالنصب أي في محياهم ومماتهم. والعامل: نجعل أو سواء. وقيل: هو[(٢)] ظرف. قال شهاب الدين: هو القول الأول بعينه[(٣)].

(فصل)

لما بين الله تعالى الفرق بين الظالمين وبين المتقين من الوجه المتقدم بين الفرق بينهما من وجه آخر فقال: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ (و[(٤)]) أم كلمة وضعت للاستفهام عن شيء حال كونه معطوفاً على شيء آخر سواء كان ذلك المعطوف مذكوراً أو مضمراً. والتقدير هنا: أفيعلم المشركون هنا أم يحسبون أنا نتولاهم كما نتولى المتقين. والاجتراح: الاكتساب أي اكتسبوا المعاصي والكفر، ومنه الجوارح، وفلان جارحة أهله، أي كاسبهم. قال تعالى: **﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾**. وقال الكلبي: نزلت هذه الآية في عليٍّ وحمزة، وأبي عُبيدة بن الجرَّاح ـ رضي الله عنهم ـ وفي ثلاثة من المشركين عُتْبَة، وشيبةَ، والوليد بْنِ عُتْبَة قالوا للمؤمنين: والله ما أنتم على شيء فلو كان ما تقولونه حقًّا لكان حالنا أفضل من حالكم في الآخرة كما كنا أفضل حالاً منكم في الدنيا. فأنكر الله عليهم هذا الكلام، وبين أنه لا يمكن أن يكون حال المؤمن المطيع مساوياً لحال الكافر العاصي في درجات الثواب ومنازل السَّعَادات[(٥)]. ثم قال: «سواءَ محياهم ومماتُهُمْ». قال مجاهد عن ابن عباس: معناه أحسبوا أن حياتَهُم ومماتهم كحياة المؤمنين؟! كلا فإنهم يعيشون كافرين ويموتون كافرين والمؤمنون يعيشون مؤمنين ويموتون مؤمنين، فالمؤمن ما دام حياً في الدنيا فإنَّ وليَّه هو الله وأنصاره المؤمنون[(٦)] وحجة الله معه. والكافر بالضِّدِّ منه، كما ذكره الله تعالى في قوله: «وإِنَّ الظَّالِمينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْض» «واللَّهُ وَلِيُّ المُتَّقِينَ» والمؤمنون تتوفاهم الملائكة طَيِّبين يقولون: سلام عليكم ٱدْخُلوا الجَنَّة بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ وأما الكفار فتتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم. وأما في القيامة فقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ [عبس: ٣٨ ـ ٤٢] وقيل: معنى الآية لا يستوون في الممات، كما استووا في الحياة، لأن المؤمن والكافر قد يستويان في

= والنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ولتبتغوا مِنْ فَضْلِهِ». انظر التعريفات للشريف الجُرجاني ١٦٩.

(١) الدر المصون ٤/ ٨٣٨.

(٢) لعله يقصد «هما» تثنية وانظر التبيان ١١٥٢.

(٣) رأيُ الزجاج والفراء والزمخشري السابق. وانظر الدر المصون ٤/ ٨٣٨.

(٤) زيادة للسياق.

(٥) انظر الرازي ٢٧/ ٢٦٦ والقرطبي ١٦/ ١٦٥.

(٦) في ب وأ: المؤمنين نصباً أو جرًّا وهو تحريف والأصح ما أثبت أعلى.

الصحة والرزق والكفاية، بل قد يكون الكافر أرجح حالاً من المؤمن، وإنَّما يظهر الفرق بينهم في الممات. وقيل: إنَّ قوله «سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ» مستأنف والمعنى أن محيا المؤمنين ومماتهم سواء وكذلك محيا الكفار ومماتهم سواء أي كل يموت على حسب ما عاش عليه. ثم إنه تعالى صرح بإنكار التسوية[١] فقال: «أَلاَ سَاءَ مَا يَحكُمُونَ» أي بئس ما يقضُون. قال مسروق: قال لي رجل من أهل مكة هذا مقام أخيك تَمِيم الدَّاريِّ، لقد رأيته ذات ليلة حتى أصبح أو قرب أن يُصْبح يقرأ آية من كتاب الله يركع بها ويسجد (بها) ويبكي ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّءَاتِ . . .﴾ الآية[٢].

قوله تعالى: «وخلق الله السموات والأرض بالحق» لما بين أن المؤمن لا يساوي الكافر في درجات السَّعادة أتبعه بالدلائل الظاهرة على صحة هذه الفتوى فقال: «وَخَلَقَ الله السَّمٰواتِ والأَرْضَ بَالْحَقِّ» أي لو لم يوجد البعث لما كان ذلك بالحق بل كان بالباطل لأنه تعالى لو خلق الظالم وسلطه على المظلوم الضعيف ولا ينتقم للمظلوم من الظالم كان ظالماً ولو كان ظالماً لبطل أنه ما خلق السموات والأرض إلا بالحق[٣]. وتقدم تقريره في سورة يُونُس.

قوله: «بِالْحَقِّ» فيه ثلاثة أوجه إما حال من الفاعل، أو من المفعول أو الباء للسببية[٤].

قوله: «وَلِتُجْزَى» فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون عطفاً على «بالحق» في المعنى، لأن كلاً منهما سبب فعطف الصلة على مثلها.

الثاني: أنها معطوفة على معلل محذوف، والتقدير: خَلَقَ اللَّهُ السَّمٰواتِ والأَرْضَ ليدل بها على قدرته ولتجزى كل نفس والمعنى أن المقصود من خلق هذا العالم إظهار العدل والرحمة، وذلك لا يتم إلاَّ إذا حصل البعث والقيامة، وحصل التفاوت بين الدَّركات والدرجات بين المحقين والمبطلين[٥].

الثالث: أن تكون لام الصيرورة أي وصار الأمر منها من حيث اهتدى بها قوم وضلَّ عنها آخرون[٦].

---

(١) انظر الرازي السابق.
(٢) القرطبي ١٦/ ١٦٦ ولفظ بها، ساقط من ب.
(٣) قاله الرازي ٢٧/ ٢٦٨.
(٤) بيان ابن الأنباري ٢/ ٣٦٥ والدر المصون ٤/ ٨٣٨.
(٥) ذكر هذين الوجهين الرازي في تفسيره لفظاً ٢٧/ ٢٦٨ نقلاً عن الكشاف معنى ٣/ ٥١٢ وانظر الدر المصون ٤/ ٨٣٩ و٨٣٨.
(٦) نقل هذا الوجه أبو حيان في بحره ٨/ ٤٨ عن ابن عطيه.

قوله: «أَفَرَأَيت» بمعنى أخبرني وتقدم حكمها[١] مشروحاً، والمفعول الأوّل من اتخذ والثاني محذوف، تقديره: بعد غشاوة أيهتدي؟ ودل عليه قوله: «فَمَنْ يَهْدِيهِ». وإنما قدرت بعد غشاوة، لأجل صلات الموصول[٢]. واعلم أنه تعالى عاد إلى شرح أحوال الكفار، وقبائح طرائقهم فقال: «أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ» قال ابن عباس والحسن وقتادة: وذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه، فلا يهوى شيئاً إلا ركبه، لأنه لا يؤمن بالله ولا يخافه. وقرىء «آلِهَتَهُ»[٣] هواه، لأنه كلما مال طبعه إلى شيء اتبعه والمعنى اتخذ معبوده هواه، فيعبد ما تهواه نفسه. قال سعيد بن جبير: كانت العرب يعبدون الحجارة والذهب والفضة فإذا وجدوا شيئاً أحسن من الأول رَموه وكسروه وعبدوا الآخر. قال الشعبي: إنما سمي الهوى لأنه يَهوِي بصاحبه في النار[٤]. قوله: «عَلَى عِلْمٍ» حال من الجلالة أي كَائِناً عَلَى عِلْمٍ منه بعاقبة أمره أنه أهل لذلك[٥].

وقيل: حال من المفعول، أي أضله وهو عالم، وهذا أشنعُ لَهُ. وقرأ الأَعرجُ[٦]: آلِهَةً على الجمع، وعنه كذلك مضافة لضميره آلهته هواه[٧].

قوله: «وختم على سمعه وقلبه» يسمع الهوى وقلبه لم يعقل الهدى وهو المراد من قوله[٨]: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة: ٧] وقد تقدم.

قوله: «غشاوة» قرأ الأخوان غَشْوَةً بفتح الغين، وسكون الشين[٩]. والأعمش وابن مِصْرف كذلك إلا أنهما كسرا الغين[١٠]. وباقي السبعة غِشاوة بكسر[١١] الغين. وابن

---

(١) قال الجمل على الجلالين: «استعمال أرأيت في الإخبار مجاز أي أخبروني عن حالتكم العجيبة ووجه المجاز أنه لما كان العلم بالشيء سبباً للإخبار عنه أو الإبصار به طريقاً إلى الإحاطة به علماً وإلى صحة الإخبار عنه استعملت الصيغة التي لطلب العلم أو لطلب الإبصار في طلب الخبر لاشتراكهما في الطلب ففيه مجاز». وانظر حاشية الجمل على الجلالين ٢/ ٢٨.

(٢) انظر البحر المحيط ٨/ ٤٨ والدر المصون ٤/ ٨٣٩.

(٣) في الرازي آلهته هواه وفي الكشاف آلهة هواه وهي قراءة شاذة. انظر الرازي ٢٧/ ٢٦٨ والكشاف ٣/ ٥١٢.

(٤) انظر القرطبي ١٦/ ١٦٧.

(٥) ذكر الوجه الأول الكشاف ٣/ ٥١٢ والثاني أبو حَيَّان في البحر ٨/ ٤٩.

(٦) في أ الأعمش وفي ب الأعرج وهو الأصح.

(٧) وقد روى هذه القراءة ابن خالويه في المختصر عن أبي جعفر ولم ترو عنه في المتواتر. انظر المختصر ١٣٨، وانظر أيضاً شواذ القرآن (٢٢١).

(٨) في ب قولهم تحريف.

(٩) هي من القراءات المتواترة وهي قراءة ابن وثّاب أيضاً. وانظر السبعة ٥٩٥ ومعاني الفراء ٣/ ٤٨ وحجة ابن خالويه ٢٤٦، والكشف لمكي ٢/ ٢٦٩.

(١٠) من القراءات الشاذة انظر مختصر ابن خالويه ١٣٨.

(١١) مختصر ابن خالويه السابق.

مسعود والأعمش أيضاً بفتحها[١] وهي لغة ربيعة والحسن وعكرمة. وعبد الله أيضاً بضمها، وهي لغة محكيَّة[٢] وتقدم الكلام في ذلك في أول سورة البقرة، وأنه قرىء هناك بالعَيْن المُهْملة[٣].

قوله: «فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ» أي من بعد إضلال الله إياه. قال الواحدي: ليس يبقى لِلْقدرية مع هذه الآية عذر ولا حيلة؛ لأن الله تعالى صرح منعه إياهم عن الهدى بعد أن أخبر أنه ختم على سمع هذا الكافر وقلبه وبصره[٤]. ثم قال: «أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ» قرأ العامة بالتشديد، والجَحْدريّ بتخفيفها والأعمش تتذكرون بتاءين[٥].

قوله: «وقالوا إنْ هِيَ إلاَّ حياتُنا الدُّنيا» تقدم نظيره. وقرأ زيد بن علي نُحْيَا بضم النون[٦].

فإن قيل: الحياة متقدمة على الموت في الدنيا فمنكر القيامة كان يجب أن يقول: نحيا ونموت، فما السبب في تقديم ذكر الموت على الحياة؟

فالجواب من جوه:

الأول: المراد بقوله: «نموت» حال كونهم نُطَفاً في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات وبقوله: «نحيا» ما حصل بعد ذلك في الدنيا.

الثاني: نموت نحن ونحيا بسبب بقاء أولادنا.

الثالث: قال الزّجاج: الواو للاجتماع[٧] والمعنى: يموت بعضٌ ويحيا بعضٌ.

الرابع: قال ابن الخطيب: إنَّه تعالى قدم ذكر الحياة فقال: «إنْ هِيَ إلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا» ثم قال بعده: «نَمُوتُ وَنَحْيا» يعني أن تلك الحياة منها ما يطرأ عليها الموت وذلك في حق الذين ماتوا ومنها ما لم يطرأ عليه الموت بعد، وذلك في حق الأحياء الذين لم يموتوا بعد[٨].

قوله: «وَمَا يُهْلِكُنَا إلاَّ الدَّهْرُ» أي وما يُفنينا إلا مرُّ الزمان، وطول العمر، واختلافُ الليل والنهار «وَمَا لَهُمْ بذَلِكَ» الذي قالوه «مِنْ عِلْمٍ» أي لم يقولوه عن علم عَلِموه «إن هم إلاَّ يظنون». روى أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: قال الله تعالى: «لاَ يَقُل ابْنُ آدَمَ يا خَيْبَةَ الدَّهْرِ فَإِنِّي أَنَا الدَّهْرُ أُرْسِلُ اللَّيْلَ والنَّهارَ فَإذَا شِئْتُ

---

(١) انظر السبعة والكشف السابقين.

(٢) ذكرت في البحر المحيط ٨/ ٤٩ والكشاف ٣/ ٥١٢ بدون نسبة وهي شاذة.

(٣) رويت عن طاووس هنا وفي البقرة أيضاً وانظر مختصر ابن خالويه ١٣٨.

(٤) الرازي ٢٧/ ٢٦٩.

(٥) انظر البحر المحيط ٨/ ٤٩.

(٦) من القراءات الشاذة انظر المرجع السابق، وشواذ القرآن ٢٢١.

(٧) معاني القرآن وإعرابه ٤/ ٤٣٤.

(٨) الرازي ٢٧/ ٢٦٩.

قَبَضْتُها»[١] وعنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ لا يَسُبَّ أحدُكُمُ الدَّهرَ فإنَّ الدَّهْرَ هُوَ اللَّهُ، وَلاَ يَقُولَنَّ لِلْعِنَبِ الكرْمَ، فإنَّ الكَرْمَ هُوَ الرَّجُلُ المُسْلِمُ[٢]. ومعنى الحديث أن العرب كان من شأنها ذم الدهر وسبه عند النوازل، لأنهم كانوا ينسبون إليه ما يصيبهم من المصائب والمكاره فيقولون: أصابتهم قوارعُ الدهر، وأبادهم الدهرُ، كما أخبر الله عنهم: «وَمَا يُهْلِكُنَا إلاَّ الدَّهْرُ» فإذا أضافوا إلى الدهر ما نالهم من الشدائد سبوا فاعلها فكان يرجع سَبُّهم إلى الله ـ عز وجل ـ؛ إذ هو الفاعل في الحقيقة للأمور التي يضيفونها إلى الدهر فنهُوا عن سبِّ الدهر[٣].

قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِم آيَاتُنَا بيِّناتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إلاَّ أَنْ قَالُوا ائْتُوا بآبَائِنَا إنْ كُنْتُم صَادِقِينَ**﴾ قرأ العامة بنصب «حجتهم». وزيدُ بْنُ عليٍّ، وعمروُ بْنُ عُبَيد، وعُبَيْدُ ابن عَمرو[٤] بالرفع وتقدم تأويل ذلك و «ما كان» جواب «إذا» الشرطية[٥]. وجعله أبو حيان دليلاً على عدم إعمال جواب «إذا» فيها لأن «ما» لا يعمل ما بعدها فيما قبلها. قال: وخالفت غيرها من أدوات الشرط، حيث لم يقترن بالفاء جوابها إذا نفي بما[٦].

فصل

سمى قولهم حجة لوجوه:

الأول: لزعمهم أنه حجة.

الثاني: أن من كانت حجته هذا فليس له ألبتة حجة كقوله:

٤٤٤٥ ـ .... تَـحِـيَّـةُ بَـيْـنِـهِـمْ ضَـرْبٌ وَجِـيـعُ[٧]

---

(١) ذكره أحمد أيضاً في مسنده ٢/ ٢٥٩ و٢٧٢ و٢٧٥ و٣١٨ و٩٣٤.

(٢) ذكره أيضاً أحمد في مسنده ٢/ ٢٣٨ و٢٧٢ و٣٩٥ و٤٩١ و٤٩٩ و٥٠٦.

(٣) انظر القرطبي ١٦/ ١٧٠ ـ ١٧٢.

(٤) رويت أيضاً عن الحسن ـ رضي الله عنه ـ انظر الإتحاف ٣٩٠ والبحر المحيط ٨/ ٤٩ والكشاف ٣/ ٥١٣، والرفع على أساس أن حجتهم اسم كان والخبر «إلاَّ أنْ قَالُوا». والنصب على أن «حجتهم» خبر كان مقدم.

(٥) انظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤/ ٤٣٤ والدر المصون ٤/ ٨٤٠ والكشاف ٣/ ٥١٣.

(٦) بالمعنى من البحر المحيط ٨/ ٤٩، وباللفظ من الدر المصون ٤/ ٨٤٠.

(٧) عَجُز بيتٍ من الوافر لعمرو بن معد يكرب وصدره:

وَخَـيْـلٍ قَـدْ دَلَـفْـتُ لَـهَـا بِـخَـيْـلٍ

والخيل: الفرسان، ودلفت: زحفت، ووجيع موجع. يقول: إذا تلاقوا في الحرب جعلوا الضرب الوجيع بدلاً من تحية بعضهم البعض والشاهد: جعل الضرب تحية على الاتِّساع والمجاز، وانظر الكتاب ٢/ ٣٢٣ و٣/ ٥٠ والتصريح ١/ ٣٥٣ وابن يعيش ٢/ ٨٠ والخصائص ٤/ ٣٥ والرازي ٢٧/ ٢٧٠.

الثالث: أنهم ذكروها في معرض الاحتجاج بها. واعلم أنهم احتجوا على إنكار البعث بهذه الشبهة وهي شبهة ضعيفة جداً، لأنه ليس كل ما لا يحصل في الحال يجب أن يمتنع حصوله فإن كان حصول كل واحد منا كان معدوماً من الأزل إلى الوقت الذي خلقنا فيه، ولو كان عدم الحصول في وقت معين يدل على امتناع الحصول لكان عدم حُصُولِنا في الأزل إلى وقت خلقنا يدل على امتناع حصولنا وذلك باطِلٌ.

قوله تعالى: **﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾**.

فإن قيل: هذا الكلام مذكور لأجل جواب من يقول: «ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدّهر» وهذا القائل ينكر وجود الإله ووجود القيامة فكيف يجوز إبطال كلامه بقوله: «قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ»؟ وهل هذا إلا إثْبَات الشيء بنفسه، وهو باطل؟!

فالجواب: أنه تعالى ذكر الاستدلال بحدوث الحيوان والإنسان على وجود الإله القادر الفاعل الحكيم مراراً فقوله ههنا: «قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ» إشارة إلى تلك الدلائل التي بينها وأوضحها مراراً، وليس المقصود من ذكر هذا الكلام إثبات الإله، بل المقصود منه التنبيه على ما هو الدليل الحق القاطع في نفس الأمر. ولما ثبت أنّ الإحياء من الله، وثبت أن الإعادة مثل الإحياء الأول، وثبت أن القادر على الشيء قادر على مثله ثبت أن الله تعالى قادر على الإعادة، وثبت أن الإعادة ممكنة في نفسها وثبت أن القادر الحكيم أخبر عن وقت وقوعها فوجب القطع بكونها حقاً. وقوله تعالى: **﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾** إشارة إلى ما تقدم في الآية المتقدمة، وهو أن كونه تعالى عادلاً خالقاً بالحق منزهاً عن الجَوْر والظلم يقتضي صحة البعث والقيامة، ثم قال: «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ» دلالة حدوث الإنسان والحيوان والنبات على وجود الإله القادر الحكيم، ولا يعلمون أيضاً أنه تعالى لما كان قادراً على الإيجاد ابتداء، وجب أن يكون قادراً على الإعادة ثانياً.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ
﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ
عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ
عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا
نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا
كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن
نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ

يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**...﴾ الآية لما احتج بكونه قادراً على الإحياء في المرة الثانية في الآيات المتقدمة، عَمَّمَ الدليل فقال: «ولِلَّهِ مُلْكُ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ» أي لله القدرة على جميع الكائنات سواء كانت في السموات أو في الأرض وإذا ثبت كونه تعالى قادراً على كُلِّ الممكنات وثبت أن حصول الحياة في هذه الدار ممكن إذ لو لم يكن ممكناً لما حصل في المرة الأولى، فليزم من هاتين المقدمتين كونه تعالى قادراً على الإحياء في المرة الثانية. ولما بين تعالى إمكان القول بالحشر والنشر في هذين الطريقين، ذكر تفاصيل أحوالِ القيامة[١] فأولها: قوله: «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ» في عامله وجهان:

أحدهما: أنه «يخسر» و «يومئذ» بدل من: «يَوْمَ تَقُومُ»[٢]. والتنوين على هذا تنوين عوض عن جملة مقدرة ولم يتقدم من الجمل إلا «تقوم الساعة» فيصير التقدير: ويوم تقوم الساعة يومئذ تقوم الساعة. وهذا الذي قدروه ليس فيه مزيد فائدة، فيكون بدلاً توكيديًّا[٣].

والثاني: أن العامل فيه مقدر، قالوا لأن يوم القيامة حالة ثالثة ليست بالسَّماء ولا الأرض، لأنهما يتبدلان فكأنه قيل: ولله ملك السماوات والأرض والملك يوم تقوم. ويكون قوله: «يَوْمَئِذٍ» معمولاً ليخسرُ، والجملة مستأنفة من حيثُ اللفظ، وإنْ كَانَ لها تعلق بما قبلها من حيثُ المَعْنَى[٤].

فصل

اعلم أنَّ الحَيَاةَ والعقل والصحة كأنها رأس مال، والتصرف فيها بطلب السعادة الأخروية يجري مَجْرَى تصرف التاجر في ماله لطلب الربح والكفار قد أتعبوا أنفسهم في تصرفاتهم بالكفر والأباطيل فلم يجدوا في ذلك اليوم إلاَّ الحرمان والخِذلان ودخول النار وذلك في الحقيقة نهاية الخسران[٥].

وثانيها: قوله: «وَتَرى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً» الظاهر أن الرؤية بصرية فيكون «جاثية»

---

(١) انظر في هذا تفسير الإمام فخر الدين الرازي ٢٧/ ٢٧٠ ـ ٢٧٢.

(٢) الكشاف ٣/ ٥١٣ والدر المصون ٤/ ٨٤٠ والرازي ٢٧/ ٢٧٢.

(٣) قاله في البحر المحيط ٨/ ٥٠ وانظر المرجع السابق وهو الدر المصون أيضاً. قال أبو حيان: «فإن كان بدلاً توكيداً وهو قليل جاز ذلك وإلاَّ فلا يجوز أن يكون بدلاً». وانظر أيضاً البيان لابن الأنباري ٢/ ٣٦٦، ومشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٢٩٧.

(٤) انظر البحر المحيط والدر المصون المرجعين السابقين.

(٥) الرازي ٢٧/ ٢٧٢.

حال[١]. قال الليث: الجَثْوُ الجُلُوسُ على الركب كالجِثِيّ بين يَدَي الحَاكِم[٢]، وذلك لأنها خائفة والمذنب مُسْتَوْفِزٌ[٣]. وقيل: مجتمعة، ومنه الجُثْوَةُ للقبر لاجتماع الأحجار عليه، قال (الشاعر)[٤] (رحمه[٥] الله):

٤٤٤٦ ـ تَرَى جُثْوَتَينِ مِنْ تُرَابٍ عَلَيْهِمَا صَفَائِحُ صُمٌّ مِنْ صَفِيحٍ مُنَضَّدِ[٦]

قال ابن عباس ـ (رضي الله عنهما)[٧] ـ جاثية مجتمعة مرتقبة لما يعمل بها[٨]. قال الزمخشري وقرىء: جاذية[٩] ـ بالذال المعجمة ـ قال: والجَذْوُ أشد من الجَثْوِ، لأن الجَاذِي هو الذي يجلس على أطراف أصابعه، وهو أشد استيفازاً من الجاثِي[١٠].

قوله: «كُلُّ أمة» العامة على الرفع بالابتداء، و «تُدْعَى» خبرها. ويعقوب بالنصب[١١] على البدل من «كُلَّ أُمَّة» الأولى، بدل نكرة موصوفة من مثلها.

قوله: «إلَى كِتَابِهَا» أي إلى صحائف أعمالها، فاكتفي باسم الجنس كقوله تعالى بعد ذلك: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾. قال سلمان الفارسي: إن في القيامة ساعةً هي عشرُ سنين، يَخِرُّ الناس فيها جثاةً على ركبهم، حتى إبراهيم ينادي ربه لا أملك إلا نفسي. قوله: «الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ» هذه الجملة معمولة لقول مضمر، التقدير: يقال لهم اليومَ تُجزونَ و «الْيَوْمَ» معمول لما بعده و «مَا كنْتُمْ» هو المفعول الثاني[١٢].

فإن قيل: الجثو على الركب إنما يليق بالخائف، والمؤمنون لا خوف عليهم يوم القيامة!

فالجواب: أن الجاثي الآمن قد يشارك المبطل في مثل هذه الحالة (إلى)[١٣] أن يظهر كونه محقاً.

---

(١) الدر المصون السابق أيضاً.
(٢) انظر غريب القرآن ٤٠٥ والمجاز ٢/ ٢١٠ واللسان (جثا) ٥٤٦ والبحر ٨/ ٥٠ والقرطبي ١٦/ ١٧٤.
(٣) والمستوفز هو الذي رفع أليتيه ووضع ركبته. وانظر اللسان المرجع السابق.
(٤) لفظ الشاعر زائد من ب. (٥) الجملة الدعائية تلك زائدة من أ فقط.
(٦) من بحر الطويل لطرفة الشاعر الشهير يصف قبرين لغنيٍّ وفقير، وهما سواء في هذين القبرين فلا يضر الفقير فقره ولا ينفع الغني غناه والشاهد: جثوتين مثنى جثوة بتثليث الفاء ضماً وكسراً وفتحاً وهي الحجارة. وروي في اللسان مصمّد وهي قافية بيت آخر في نفس القصيدة، وانظر اللسان جثا ٥٤٦ والبحر المحيط ٨/ ٥٠ والسبع الطوال لابن الأنباري ٢٠٠ والقرطبي ١٦/ ١٧٤.
(٧) زيادة من أ. (٨) البحر ٨/ ٥٠.
(٩) ولم تنسب إلى من قرأ بها. وانظر البحر ٨/ ٥٠ والإبدال لابن السكيت ١٠٨ وأمالي القالي ٢/ ١٢٠ وهي شاذة.
(١٠) الكشاف ٣/ ٥١٣.
(١١) وهي قراءة الأعرج أيضاً المحتسب ٢/ ٢٦٢ ومختصر ابن خالويه ١٣٨.
(١٢) الكشاف ٣/ ٥١٣ والدر المصون ٤/ ٨٤١. (١٣) سقط من ب وانظر الرازي ٢٧/ ٢٧٢.

فإن قيل: كيف أضيف الكتاب إليهم وإلى الله تعالى؟

فالجواب: لا منافاة بين الأمرين، لأنه كتابهم، بمعنى أنه الكتاب المشتمل على أعمالهم، وكتاب الله بمعنى أنه هو الذي أمر الملائكة بكتبه.

قوله: «يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ» أي يشهد عليكم بأعمالكم من غير زيادة ولا نقصان. وقيل: المراد بالكتاب اللوح المحفوظ[1]. و «ينطق» يجوز أن يكون حالاً، وأن يكون خبراً ثانياً، وأن يكون «كتابنا» بدلاً و «ينطق» خبر وحده و «بالحق» حال[2].

قوله: «إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» أي نأمر الملائكة بنسخ أعمالكم أي بكتبها وإثباتها عليكم وقيل: نستنسخ أي نأخذ نسخة، وذلك أن الملكين يرفعان عمل الإنسان فيثبت الله منه ما كان إلا ثواب أو عقاب، ويطرح منه اللغو، نحو قولهم: هلُم، واذهب، فالاستنساخ من اللوح المحفوظ تنسخ الملائكة كل عام ما يكون من أعمال بني آدم. والاستنساخ لا يكون إلا من أصل كما ينسخ كتابٌ من كِتَابٍ. وقال الضحاك: نستنسخ أي نُثْبِتُ. وقال السدي: نكتب. وقال الحسن: نَحْفَظُ[3]. ثم بين أحوال المطيعين فقال: «فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ» فوصفهم بالعمل الصالح بعد وصفهم بالإيمان يدل على أن العمل الصالح مغاير للإيمان زائد عليه[4].

فصل

قالت المعتزلة: علّق الدخول في رحمة الله على كونه آتياً بالإيمان والعمل الصالح والمعلق على مجموع أمرين يكون عدماً عندم عدم أحدهما، فعند عدم الأعمال الصالحة يجب أن لا يحصل الفوز بالجنة!

وأُجِيبَ: بأن تعليق الحكم على الوصف لا يدل على عدم الحكم عند عدم الوصف[5].

فصل

سمى الثواب رحمة، والرحمة إنما يصح تسميتها بهذا الاسم إذا لم (تكن)[6] واجبةً، فوجب أن لا يكون الثوابُ واجباً على الله تعالى.

قوله: «وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ» هذا على إضمار القول أيضاً، وقدر الزمخشري

---

(١) الرازي ٢٧/ ٢٧٢.
(٢) انظر البيان لابن الأنباري ٢/ ٣٦٦.
(٣) القرطبي ١٦/ ١٧٥ و١٧٦ والبحر المحيط ٨/ ٥١.
(٤) و (٥) قاله الإمام الرازي في تفسيره الكبير ٢٧/ ٢٧٢ و٢٧٣.
(٦) ساقطة من أ الأصل.

على عادته جملة بين الهمزة والفاء أي أَلَمْ تأتكم[١] رسلي فَلَمْ تكن آياتي؟[٢]

فصل

ذكر الله المؤمنين والكافرين ولم يذكر قِسْماً ثالثاً، وهذا يدل على أن مذهب المعتزلة في إثبات منزلة بين المنزلتين باطل، وفي الآية دليل على أن استحقاق العقوبة، لا يحصل إلا بعد مجيء الشرع وعلى أن الواجبات لا تجب إلا بالشرع خلافاً للمعتزلة في قولهم: إنَّ بعض الواجبات قد تجب بالعقل[٣].

قوله: «وَإِذَا قِيلَ إنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ» العامة على كسر الهمزة لأنها محكيَّةٌ بالقول. والأعْرَجُ وعمرو بن فائدٍ بفتحها[٤]. وذلك مُخَرَّجٌ على لغة سُلَيْمٍ يُجْرون القول مُجْرَى الظَّنِّ مطلقاً ومنه قوله:

٤٤٤٧ ـ إذَا قُلْتُ أنِّي آيِبٌ أهْلَ بَلْدَةٍ ....[٥]

قوله: «وَالسَّاعة» قرأ حمزة بنصبها عطفاً على «وَعْدَ اللَّهِ»[٦] والباقون برفعها، وفيه ثلاثة أوجه:

الأول: الابتداء، وما بعدها من الجملة المنفية خبرها[٧].

الثاني: العطف على محل إنّ واسمها معاً، لأن بعضهم كالفارسيِّ والزمخشري يَرَوْنَ أن لـ «إنّ» واسْمِها موضعاً وهو الرفع بالابتداء[٨].

---

(١) في ب يأتكم بالياء.

(٢) الكشاف ٣/ ٥١٣ وقد ردّه أبو حيان كثيراً وتكراراً. انظر البحر ٨/ ٥١.

(٣) الرازي ٢٧/ ٣٧٣.

(٤) قراءة شاذة انظر مختصر ابن خالويه ١٣٨.

(٥) صدر بيت من الطويل للحطيئة في وصف جمل وعجزه:

وَضَعْتُ بِهَا عَنْهُ الوَلِيَّةَ بِالْهَجْرِ

والولية: ما يوضع فوق ظهر البعير تحت الرجل، والهَجَر: نصف النهار عند اشتداد الحر. وآيب راجع. والشاهد فتح الهمزة بعد القول، فالقول هنا بمعنى الظن على لغة سليم وأن ومعمولاها سدت مسد المفعولين. وانظر التصريح ١/ ٦٢، والأشموني ٢/ ٣٨ والدر المصون ٤/ ٨٤١، والديوان ٢٢٥.

(٦) السبعة ٥٩٥.

(٧) البيان ٢/ ٣٦٦.

(٨) الدر المصون ٤/ ٨٤٢ وقد قال المبرد في المقتضب: وتقول: إن زيداً منطلق وعمراً، وإن شئت وعمرو، وأحد وجهي الرفع ـ وهو الأجود منهما ـ أن تحمله على موضع «إنّ»، لأن موضعها الابتداء. فإذا قلت: إنَّ زيداً منطلق فمعناه زيد منطلق. وانظر المقتضب ٤/ ١١١. وهامشه أيضاً ٤/ ١١٣.

وقال أبو علي في الحجة ٧/ ١٥٣: «والرفع الذي هو قراءة الجمهور من وجهين: أحدهما: أن تقطعه من الأول، فتعطف جملة على جملة. والآخر أن يكون المعطوف محمولاً على موضع إن وما عملت فيه. وموضعها رفع» وانظر الحجة السابق.

وقال الزمخشري في الكشاف: «وبالرفع عطفاً على محل إنّ واسمِهَا». الكشاف ٣/ ٥١٣، كما ذكر=

قوله: «إلاَّ ظَنًّا» هذه الآية لا بدّ فيها من تأويل، وذلك أنه يجوز تفريغ العامل لما بعده من جميع معمولاته مرفوعاً كان أم غير مرفوع، إلا المفعول المطلق، فإنه لا يفرغ له، لا يجوز: مَا ضَرَبْتُ إلاَّ ضَرْباً لأنه لا فائدة فيه، وذلك أنه بمنزلة تكرير الفعل، فكأنه في قوة: مَا ضَرَبْتُ إلاَّ ضَرَبْتُ. قاله[١] مكي وأبو البقاء[٢]. وقال الزمخشري: فإن قلت: ما معنى: إنْ نَظُنُّ إلاَّ ظَنًّا؟ قلت: أصله نظن ظنًّا، ومعناه إثبات الظن حسبُ، وأدخل حرف النفي والاستثناء ليفاد إثبات الظن ونفي ما سواه ويزيدُ نفي ما سوى الظن توكيداً بقوله: «وَمَا نَحْنُ[٣] بِمُسْتَيْقِنِينَ». فظاهر كلامه أنه لا يتأول الآية بل حملها على ظاهرها.

قال أبو حيان: وهذا كلام من لا شُعُور له بالقاعدة النحوية من أن التفريغ يكون في جميع المعمولات من فاعل أو مفعولٍ وغيرهما إلا المصدر المؤكد، فإنه لا يكون فيه[٤].
وقد اختلف الناس في تأويلها على أوجه:

أحدها: ما قاله المبرد وهو أن الأصل: إنْ نَحْنُ إلاَّ نَظُنُّ ظَنًّا[٥] قال: ونظيره ما حكاه أبو عمرو[٦]: لَيْسَ الطِّيبُ إلاَّ المسكُ. تقديره ليس إلا الطيبُ المسكُ. قال شهاب الدين: يعني أن اسم «ليس» ضمير الشأن مستتر فيها و «إلا الطيب المسك» في محل نصب خبرها. وكأنه خفي عليه أن لغة تميم إبطال عمل ليس إذا انْتَقَضَ نفيها «بإلا» قياساً على «ما الحجازية». والمسألة طويلة مذكورة في كتب النحو[٧]، وعليها حكاية جَرَتْ بين أبي عمرو، وعيسى بن عُمَرَ[٨].

= ذلك في المفصل، ورده عليه ابن يعيش قائلاً: «وقول صاحب الكتاب، ولأن محل المكسورة وما عملت فيه الرفع جاز في قولك: إنَّ زيداً ظريفٌ وعمراً أن ترفع المعطوف ليس بسديد، لأن إن وما عملت فيه ليس للجميع موضع من الإعراب، لأنه لم يقع موقع المفرد، وإنما المراد موضع اسم إن قبل دخولها على تقدير سقوط إن وارتفاع ما بعدها بالابتداء». انظر ابن يعيش ٨/ ٦٧.

(١) قال: «لأن المصدر فائدته كفائدة الفعل، فلو جرى الكلام على غير حذف لصار تقديره إن نظن إلاَّ نظن وهذا كلام ناقص، ولم يجر النحويون: ما ضرب إلاَّ ضَرْباً لأن معناه ما ضربت إلاَّ ضربت؛ وهذا كلام لا فائدة فيه». انظر المشكل ٢/ ٢٩٨.

(٢) التبيان ١١٥٣. (٣) الكشاف ٣/ ٥١٣ و٥١٤.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٥٢.

(٥) انظر الدر المصون ٤/ ٨٤٣ ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٢٩٨.

(٦) وقد قال أبو عمرو: ليس في الأرض حجازيّ إلاَّ وهو وينصب، وليس في الأرض تميمي إلاَّ وهو يرفع. وانظر ذيل الأمالي والنوادر ٣٩، وإنباه الرواة على أنباه النحاة ٤/ ١٤٠ و١٣١.

(٧) فقد قال سيبويه في الكتاب: «وقد زعم بعضهم أن ليس تجعل كما، وذلك قليل، لا يكاد يعرف، فهذا يجوز أن يكون منه: ليس خلق الله أشعر منه... هذا كله سمع من العرب. والوجه والحد أن تحمله على أن في ليس إضماراً وهذا مبتدأ كقوله: إنه أمةُ الله ذاهبة، إلاَّ أنهم زعموا أن بعضهم قال: ليس الطيب إلاَّ المسكُ، وما كان الطيب إلاَّ المسكُ». انظر الكتاب ١/ ١٤٧، والدر المصون ٤/ ٨٤٣.

(٨) حكاها القالي في ذيل الأمالي والنوادر ٣٩.

الثاني: أنّ «ظَنًّا» له صفة محذوفة تقديره: إلاّ ظَنًّا بَيِّناً، فهو مختص لا مؤكد[١].

الثالث: أن يضمن (نظن) معنى «نعتقد» فينتصب «ظناً» مفعولاً به لا مصدراً[٢].

الرابع: أن الأصْل إنْ نَظُنُّ إلاَّ أَنَّكُم تَظُنُّونَ ظَنًّا، فحذف هذا كله وهو معزوٌ للمبرد أيضاً[٣]. وقد رده عليه من حيث إنه حذف إنّ واسمها وخبرها وأبقى المصدر. وهذا لا يجوز[٤].

الخامس: أن الظن يكون بمعنى العلم والشك، فاستثني الشك كأنه قيل: ما لنا اعتقاد إلاّ الشك[٥]. ومثل الآية قول الأعشى:

٤٤٤٨ ـ وَحَلَّ بِهِ الشَّيْبُ أَثْقَالَهُ ... وَمَا اغْتَرَّهُ الشَّيْبُ إلاَّ اغْتِرَارَا[٦]

يريد اغتراراً بيناً.

فصل

قال ابن الخطيب: القوم كانوا في هذه المسألة على قولين، منهم من كان قاطعاً بنفي البعث والقيامة وهم المذكورون في قوله تعالى: **﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾** ومنهم من كان شاكًّا متحيراً فيه لأنهم من كثرة ما سمعوه من الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولكثرة ما سمعوه من دلائل القول بصحّته صاروا شاكين فيه، وهم المذكورون في هذه الآية، ويدل على ذلك أنه تعالى حكى مذهب أولئك القاطعين، ثم أتبعه بحكاية قول هؤلاء، فوجب كون هؤلاء مغايرين للفريق الأول. ثم قال: «وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ» أي

---

(١) ذكره ابن الأنباري في البيان ٢/ ٣٦٧، وانظر البحر المحيط ٨/ ٥١.

(٢) المرجع الأخير السابق، وقال أبو البقاء: «وقيل هي في موضعها لأن (نظن) قد تكون بمعنى العلم والشك، فاستثنى الشك أي ما لنا اعتقاد إلاّ الشك»، التبيان ١١٥٣.

(٣) ذكر هذا التقدير مكي في مشكل الإعراب ٢/ ٢٩٨ لكن لم ينسبه إليه ولا إلى غيره. وقد نسبه إليه أبو حيان في البحر ٨/ ٥٢ وقال: ولعلّه لا يصح. ونسبه إليه السمين في الدر المصون ٤/ ٨٤٣ نقلاً عن أستاذه وشيخه أبي حيان.

(٤) هذا رأي أبي البقاء المرجع السابق الأخير.

(٥) هذا رأي أبي البقاء في التبيان كما سبق ١١٥٣.

(٦) هو له من بحر المتقارب، والمعنى أن الشيب جعله غافلاً عما هو فيه غفلةً واضحة. واغْترارا من قولهم: اغْتَرَرْتُ الرجل أي طلبت غفلته. والشاهد: ما اغتره الشيب إلاّ اغتراراً حيث صح التنظير بالبيت على أن يحمل اغتراراً على الموصوف الذي حذف صفته كما ذكر أعلى، فهو من الوجه الثاني الذي ذكره وقال الإمام ابن يعيش: «والتقدير: إن نَحْنُ إلاّ نَظُنُّ ظناً، وما اغتره إلاّ الشيب اغتراراً، فكان إلاّ في غير موقعها فهي مؤخرة والنية بها التقديم». وانظر شرح المفصل ٧/ ١٠٧ وشرح الرضي على الكافية ١/ ٢٣٦ والبحر ٨/ ٥٢، والدر المصون ٤/ ٨٤٤، والمغني ٢٩٥ وشرح شواهده للسيوطي ٧٠٤، وتمهيد القواعد ٢/ ٥٤٢ والديوان ٨٠.

في الآخرة «سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا» أي جزاؤها «وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ» وهذا كالدليل على أن هذه الفِرقة لما قالوا: إنْ نظنّ إلاّ ظناً إنما ذكروه استهزاءً وسخرية، وعلى هذا الوجه فصار ذلك أول خسرانهم، فهذا الفريق أسوأ من الفريق الأول، لأن الأولين كانوا مُنْكِرين، وما كانوا مُسْتَهْزِئِينَ وهؤلاء ضموا إلى الإصرار على الإنكار الاستهزاء.

قوله: «وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ» أي نترككم في العذاب، كما تركتم الإيمان والعمل ولقاء هذا اليوم. وقيل: نجعلكم بمنزلة الشيء المنسي غير المبالى به، كما لم تبالوا أنتم بلقاء يومكم هذا ولم تلتفتوا إليه[١].

قوله: «لِقَاءَ يَوْمِكُمْ» هذا من التوسع في الظرف، حيث أضاف إليه ما هو واقع فيه، كقوله: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣].

قوله: «وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ» فجمع الله عليهم من وجوه العذاب، ثلاثة أشياء، قطع الرحمة عنهم، وصيّر مأواهم النار، وعدم الأنصار، ثم بين تعالى أن يقال لهم: إنما صرتم مستحقين لهذه الوجوه الثلاثة من العذاب، لأنكم أتيتم ثلاثة أنواع من الأعمال القبيحة، وهي الإصرار على إنكار الدين الحق والاستهزاء به، والسخرية والاستغراق في حب الدنيا، وهو المراد بقوله تعالى: **﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾**[٢].

قوله: «فاليَوْم لاَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ» تقدم الخلاف في قوله: «لا يخرجون منها» في أول الأعراف[٣]، وأن حمزة والكِسَائيّ قرءا بفتح الياء وضم الراء، والباقون بضم الياء وفتح الراء[٤]. «ولا هم يستعتبون» لا يطلب منهم أن يرجعوا إلى طاعة الله، لأنه لا يقبل في ذلك اليوم عذرٌ ولا توبة[٥] قوله تعالى: **﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** قرأ العامة «رَبِّ» في الثلاثة بالجر تبعاً للجلالة، بياناً، أو بدلاً، أو نعتاً، وابن مُحَيْصِنٍ برفع الثلاثة على المدح بإضمار[٦] «هُوَ».

قوله: «وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ» يجوز أن يكون «في السموات» متعلقاً بمحذوف حالاً من «الْكِبْرِياء» وأن يتعلق بما تعلق به الظروف الأول، لوقوعه خبراً. ويجوز أن

---

(١) الرازي ٢٧/ ٢٧٤. (٢) الرازي المرجع السابق.

(٣) يقصد قوله: ﴿وَمِنْهَا تُخرجُونَ﴾ من الآية ٢٥، فقد قرأ الأخوان (حمزة والكسائي) بالبناء للفاعل وكذا هنا في الجاثية، وقرأ الباقون بضم التاء وفتح الراء في الأعراف وكذا هنا على البناء للمفعول. وانظر الإتحاف ٣٩٠، والسبعة ٢٧٩، والكشف ٢/ ٢٦٩، وتقريب النشر ١٧٣.

(٤) انظر المراجع السابقة.

(٥) انظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤/ ٤٣٦.

(٦) قراءة شاذة ذكرها البحر المحيط ٩٨/ ٥٢ وشواذ القرآن ٢٢١.

يتعلق بنفس «الكبرياء» لأنها مصدر[١]. وقال أبو البقاء: «وأن يكون ـ يعني في السموات ـ ظرفاً والعامل فيه الظرف الأول، والكبرياء، لأنها بمعنى[٢] العظمة». قال شهاب الدين: ولا حاجة إلى تأويل الكبرياء بمعنى العظمة فإنها ثابتة المصدرية[٣].

فصل

لما تم الكلام في المباحث الرُّوحَانيَّة ختم السورة بتحميد الله تعالى فقال: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي فاحمدوا الله الذي هو خالق السموات والأرضين، بل خالق كل العالمين من الأجسام والأرواح والذوات والصفات، فإن هذه الرُّبُوبيَّة توجب الحمد والثناء على كل من المخلوقين والمربوبين.

ثم قال: «وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَواتِ والأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» يعني بكمال قدرته، يقدر على خلق أي شيء أراد[٤]، (و)(٥) بكمال حكمته يخص كل نوع من مخلوقاته بآثار الحكمة والرحمة.

وقوله: «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» يفيد أن الكامل في القدرة وفي الحكمة وفي الرحمة ليس إلاَّ هُوَ[٥]. روى أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ يقول الله عزّ وجلّ: «الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحداً مِنْهُمَا أَدْخَلْتُهُ النَّارَ». وروى أبي بن كعب ـ (رضي الله عنه[٦] ـ) قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ مَنْ قَرَأَ سُورَةَ حَمَ الجَاثِيَة سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ وسَكَّنَ[٧] رَوْعَتَهُ يَوْمَ الْحِسَابِ.

---

(١) الدر المصون ٤/ ٨٤٤.
(٢) التبيان ١١٥٣.
(٣) الدر المصون المرجع السابق.
(٤) الواو سقطت من ب.
(٥) انظر في هذا الرازي ٢٧/ ٢٧٥.
(٦) سقط من ب.
(٧) الكشاف ٣/ ٥١٤.

سورة الأحقاف

مكية[1]، وهي خمس[2] وثلاثون آية، وستمائة وأربع وأربعون كلمة وألفان وخمسمائة وخمسة وتسعون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ۝٣ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨﴾

قوله تعالى: **﴿حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى﴾** تقدم الكلام على نظير ذلك. والمراد ههنا بالأجل المسمى يوم القيامة، وهو الأجل الذي ينتهي إليه السموات والأرض وهو إشارة إلى قيامها[3].

قوله: **﴿والَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا﴾** يجوز أن تكون «ما» مصدرية أي عن إنذارهم أو بمعنى الذي أي عن الذي أُنْذِرُوهُ و «عن» متعلقة بالإعراض و «مُعْرِضُون» خبر الموصول.

---

(١) في قول الجميع.

(٢) وقيل أربع. انظر القرطبي ١٦/١٧٨.

(٣) السابق.

قوله: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ» تقدم حكم «أرأيتم»[١]. ووقع بعد هذه «أَرُونِي» فاحتملت وجهين:

أحدهما: أن تكون توكيداً لها، ولأنهما بمعنى أخبروني، وعلى هذا يكون المفعول الثاني (لأَرَأَيْتُمْ) قوله «مَاذَا خَلَقُوا» إلا أنه استفهام، والمفعول الأول هو قوله: «مَا تَدْعُونَ».

الوجه الثاني: أن لا تكون مؤكدة لها وعلى هذا تكون المسألة من باب التنازع، لأن (أَرأَيْتُمْ) يطلب ثانياً و «أروني» كذلك، وقوله: «مَاذَا خَلَقُوا» هو المُتَنَازَعُ فيه، وتكون المسألة من إعمال الثاني، والحذف من الأول[٢].

وجوز ابن عطية في «أَرأيتم» أن لا يتعدى، وجعل «مَا تَدْعُونَ» استفهاماً معناه التوبيخ. قال: «وتدعون» معناه[٣] تبعدون. وهذا رأي الأخفش، وقد قال بذلك في قوله: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ [الكهف: ٦٣] وقد تقدم.

قوله: «مِن الأَرْضِ» هذا بيان للإبهام الذين في قوله: «مَاذَا خَلَقُوا».

قوله: «أَمْ لَهُمْ» هذه «أم» المنقطعة، والشِّرْكُ المُشَارَكَةُ، وقوله: «مِنْ قَبْلِ هَذَا» صفة لِكِتَابٍ أي بكتاب منزل من قبلِ هذا، كذا قدرها أبو البقاء[٤]، والأحسن أن يقدر كون مطلق أي كائن من قبل هذا.

قوله: «أَوْ أَثَارةٍ» العامة على أَثارة، وهي مصدر على فَعَالَةٍ، كالسَّمَاحَةِ، والغَوايَةِ والضَّلاَلَةِ ومعناها البقية من قولهم: سمنت الناقة على أثارةٍ من لَحْم إذَا كانت سَمِينَةً، ثم هزِلَتْ، وبقي بقية من شَحْمِهَا ثم سمنت. والأثارة غلب استعمالها في بقية الشرف، يقال: لِفُلانٍ أثارةٌ أي بقية شرف، وتستعمل في غير ذلك[٥] قال الراعي:

٤٤٤٩ ـ وَذَاتِ أَثَارةٍ أَكَلَت عَلَيْهَا نَبَاتاً فِي أَكِمَّتِهِ قَفَارَا[٦]

وقيل: اشتقاقها من أثر كذا أي أَسْنَدَهُ. ومنه قول عمر: «ما خَلَّفْت به ذَاكِراً وَلاَ

---

(١) من أن معناه الإخبار أي أخبروني عن الذين تدعون من دون الله وهي الأصنام.

(٢) على رأي غير البصريين وهم الكوفيون لسبقه. وانظر البحر المحيط ٨/ ٥٤ و ٥٥.

(٣) البحر المحيط السابق.

(٤) التبيان ١١٥٤.

(٥) كالعلامة وبقية العلم أو شيء مأثور من كتب الأولين انظر اللسان أثر ٢٤/ ٢٥ و ٢٦ ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٣٨ والبحر المحيط ٨/ ٥٥ وغريب القرآن ٤٠٧ ومجاز القرآن ٢/ ٢١٢.

(٦) البيت للراعي كما في مجاز القرآن ٢/ ٢١٣، ونسبه صاحب اللسان إلى الشماخ، ولم أجده بديوانه ولكنه في ديوان الراعي ٣٤٢ وهو من الوافر. والشاهد: وذات أثارة أي بقية من لحم، والبيت في الديوان ٣٤٢، بلفظ عليه، وفي البحر علينا. وانظر البحر ٨/ ٥٥، والمجاز ٢/ ٢١٢، والقرطبي ١٦/ ١٨٢ واللسان أثر والطبري ٢٦/ ٣.

آثِراً»[١] أي مسنداً له عن غيري. وقال الأعشى:

٤٤٥٠ ـ إنَّ الَّذِي فِيهِ تَمَارَيْتُمَا بُيِّنَ لِلسَّامِعِ وَالآثِرِ[٢]

وقيل فيها غير ذلك. وقرأ عَلِيٌّ وابن عَبَّاسٍ وزيدُ بنُ عَلِيٍّ وعكرمةُ في آخرين: أَثَرَةٍ دون ألف[٣]. وهي الواحدة وتجمع على أَثَر، كَقَتَرَةٍ، وقَتَرٍ. وقرأ الكسائي: أُثْرَةٍ، وإِثْرَة بضم الهمزة وكسرها مع سكون الثاء[٤]. وقتادة والسُّلَميّ بالفتح والسكون[٥]. والمعنى بما يُؤْثَرُ ويُرْوَى، أي ائتوني بخبر واحد يشهد بصحة قولكم. وهذا على سبيل التنزل للعلم بكذب المدعي[٦]. و «مِن عِلْمٍ» صفةٌ لأَثَارَةٍ.

فصل

قال أبو عُبَيْدَة[٧] والفَرَّاءُ[٨] والزَّجَّاجُ[٩] أثارة من علم أي بقية. قال المبرد: أثارة ما يؤثر منْ عِلم كقولك: هذا الحديثُ يُؤْثَر عَنْ فُلاَنٍ، ومن هذا المعنى سميت[١٠] الأخبار والآثار، يقالُ: جَاءَ في الأثر كَذَا وكَذَا. قال الواحدي: وكلام أهل اللغة في هذا الحرف يدور على ثلاثة أقوال:

الأول: الأثارة[١١] واشتقاقها من أثرت الشيءَ أُثِيرُه إِثَارةً، كأنها بقية تستخرج فتُثَارُ.

والثاني: من الأثر الذي هو الرواية.

والثالث: من الأَثَرِ بمعنى العلامة[١٢].

---

(١) في اللسان: والاسْتِئْثَار الانْفِرادُ بالشيء، ومنه حديث عمر: فَوَاللَّهِ ما أَسْتَأْثِر بِهَا عَلَيْكُمْ وَلاَ آخُذُهَا دُوَنكُمْ، وفي حديثه الآخر لما ذكر له عثمان للخلافة قال: أخشَى حَفده وأَثَرَتَه، أي إيثاره. اللسان أثر ٢٦.

(٢) هو له من الرجز وشاهده كالحديث السابق لعمر والبيت روايته هكذا في اللسان والبحر والقرطبي ولم أجده بتلك الرواية في ديوانه ٩٢، ٩٣ وإنما برواية:

لَيَأْتِيَنْهُ مَنْطِقٌ سَائِرٌ مُسْتَوْسِقٌ لِلْمُسْمِعِ الآثِرِ

من قصيدة يمدح فيها عامر بن الطفيل ويهجو فيها علقمة بن علاثة انظر الديوان ٩٤، والبحر ٨/ ٥٥ والقرطبي ١٦/ ١٨٢ واللسان أثر ٢٥.

(٣) قراءة شاذة غير متواترة انظر الكشاف ٣/ ٥١٥ والقرطبي ١٦/ ١٨٢ ونسبها إلى السلمي وأبي رجاء والحسن.

(٤) الكشاف ٣/ ٥١٥ والقرطبي السابق.

(٥) الكشاف وهي قراءة أخرى للسلمي مع آخرين. انظر البحر ٨/ ٥٥ وكلها شاذة وإن كانت جائزة لغة.

(٦) البحر المحيط ٨/ ٥٥.

(٧) مجاز القرآن ٢/ ٢١٢.

(٨) معاني القرآن له ٢/ ٥٠.

(٩) معاني القرآن له أيضاً ٤/ ٤٣٨ وهو أحد أقواله في هذا.

(١٠) في الرازي ٢٨/ ٤ سميت الأخبار بالآثار.

(١١) في الرازي البقية بدل الأثارة.

(١٢) الرازي المرجع السابق.

قال الكلبي في تفسير الأثارة: أي بقية من علم يؤثر عن الأولين أي[١] يسند إليهم. وقال مجاهد وعكرمة ومقاتل: رواية عن الأنبياء. وقال مجاهد: خاصة من علم. قال ابن الخطيب: وههنا قول آخر في تفسير (قوله[٢]) تعالى: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾ هو علم الخط الذي يخط في الرمل والعرب كانوا يخطونه وهو علم مشهور. وعن النبيِّ ـ ﷺ ـ أنه قال: «كَانَ نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ يَخُطُّ فَمَنْ وَافَقَ خَطُّه خَطَّهُ عَلِمَ عِلْمَهُ» فعلى هذا الوجه معنى الآية ائتوني بعلم من قبل هذا الخط الذي تخطونه في الرمل على صحة مذهبكم في عبادة الأصنام. فإن صحّ تفسير الآية بهذا الوجه كان ذلك من بَابِ التَّهَكُّم بهم وأقوالهم ودلائلهم[٣].

قوله: «وَمَنْ أَضَلُّ» مبتدأ وخبر. وقوله «مَنْ لاَ يَسْتَجِيبُ» من نكرة موصوفة أو موصولة، وهي مفعولة بقوله: «يَدْعُو».

قوله: «وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ» يجوز أن يكون الضَّمِيرانِ عائدين على مَنْ[٤] في قوله: «مَنْ لاَ يَسْتَجِيبُ لَهُ» وهم الأصنام ويوقع عليهم من معاملتهم إياها معاملة العقلاء ولأنه أراد جميع مَنْ عُبِدَ مِنْ دُونِ الله وغلب العقلاء، ويكون قد راعى معنى «من» فلذلك جمع في قوله: «وهم» بعدما راعى لفظها فأفرد في قوله «وَيَسْتَجِيبُ» وقيل: يعود على «مَنْ» في قوله: «وَمَنْ أَضَلّ» وحُمِلَ أولاً على لفظها، فأفرد في قوله «يَدْعُو»، وثانياً على معناها فجمع في قوله: «وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ»[٥].

فصل[٦]

«ومن أضلّ» استفهام على سبيل الإنكار والمعنى لا أحد أبعد عن الحق وأقرب إلى الجهل ممن يدعو من دون الله الأصنام، فيتخذها آلهة ويعبدها، وهي إذا دُعِيَتْ لا تسمع، ولا تجيب لا في الحال ولا في المآل إلى يوم القيامة. وإنما جعل ذلك غاية، لأن يوم القيامة قد قيل: إنه تعالى يحييها، ويخاطب منْ يعبدها، فلذلك جعله الله تعالى حدًّا وإذا قامت القيامة وحشر الناس فهذه الأصنام تُعَادِي هَؤُلاَءِ العابدين[٧]. واختلفوا فيه فالأكثرون على أنه تعالى يُحْيِي هذه الأصنام يوم القيامة فتتبرأ من عبادتهم. وقيل: المراد عبدة الملائكة وعيسى، فإنهم في يوم القيامة يظهرون عبادة هؤلاء العابدين وهو المراد بقوله: «وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ» أي جاحدين كقوله: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣].

---

(١) ذكرها القرطبي في الجامع ١٦/ ١٨٢.
(٢) سقط من أ الأصل.
(٣) قاله في تفسيره ٢٨/ ٤ و٥.
(٤) ما بين القوسين هذا ساقط من أ الأصل بسبب انتقال النظر.
(٥) بالمعنى من البحر المحيط لأبي حيان ٨/ ٥٥ و ٥٦.
(٦) في ب قوله بدل «فصل».
(٧) الرازي ٢٨/ ٥ و ٦.

قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ**﴾ هنا أقام ظاهرين مقام مضمرين، إذ الأصل قالوا لها أي للآيات ولكنه أبرزهما ظاهرين لأجل الوصفين المذكورين. واللام في للحق للصلة.

فصل

لما تكلم في تقرير التوحيد، ونَفْي الأضداد، والأنداد تكلم في النبوّة وبين أن محمداً ـ ﷺ ـ كلما عرض عليهم نوعاً من أنواع المعجزات قالوا: هذا سحر أي يسمون القرآن سحراً.

قوله تعالى: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ» أم للإنكار والتعجب كأنه قيل: دع هذا واسمع القول المنكر العجيب ثم بين بطلان شبهتهم فقال: «قل» يا محمد «إِن افْتَرَيْتُهُ» على سبيل الفرض، فإن الله يعاملني بعقوبة بُطْلاَن ذلك الافتراء، وأنتم لا تقدرون على دفعه فكيف أقدر على هذه الفِرْيَةِ؟ يعني لعقابه، وهو المراد بقوله: «فَلاَ تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً» أي لاَ تَقْدِرُونَ أن تردوا عني عذابه، وإنْ عذبني الله على افترائي، فكيف أفتري على الله من أجلكم؟! ونظيره: ﴿فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧] ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: ٤١]. ثم قال: «هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُون فِيهِ» أي الله أعلم بما يخوضون فيه من التكذيب بالقرآن، والقول فيه بأنه سحر. «كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وبينكم» أي القرآن جاء من عنده فيشهد لي بالصدق ويشهد لكم بالكذب «وَهُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ» لمن رجع عن الكفر وتاب. قال الزجاج: هذا دعاء إلى التوبة، ومعناه غفور لمن تاب منكم رحيمٌ به(١).

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ...**﴾ لما حكى طعنهم في كون القرآن معجزاً بقولهم: إنه يختلقه من عند نفسه ثم ينسبه إلى كلام الله تعالى على سبيل الفِرْيَة حكى

---

(١) قال: «معناه أنه من أتى من الكبائر العِظَام ما أتيتم به من الافتراء على الله جل وعز وعلا ثم تاب فإن الله غفور رحيم» انظر معاني القرآن ٤/ ٤٣٩.

عنهم شُبْهَةً أخرى وهي أنهم كانوا يقترحون عليه معجزاتٍ عجيبة، ويطالبونه بأن يخبرهم عن المغيبات، فأجاب الله تعالى عن ذلك بقوله: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ﴾[(١)].

قوله: «بدعاً» فيه وجهان:

أحدهما: أنه على حذف مضاف تقديره: ذَا بِدْعٍ، قاله أبو البقاء: وهذا على أن يكون البدْعُ مَصْدراً[(٢)].

والثاني: أن البِدْعَ نفسه صفة على فِعْلٍ[(٣)] بمعنى بَدِيع كالخِفِّ والخَفِيف؛ والبِدْعُ والبَدِيعُ ما لم ير له مِثْلٌ، وهو من الابْتِدَاع وهو الاختراع. أنشد قطرب:

٤٤٥١ ـ فَمَا أَنَا بِدْعٌ مِنْ حَوَادِث تَعْتَرِي رِجَالاً عَرَتْ مِنْ بَعْدِ بُؤْسٍ وَأَسْعد[(٤)]

قال البغوي ـ (رحمه الله) ـ: (البِدْعُ)[(٥)] مثلُ نصْف ونَصِيفٍ، وجمع البِدْعِ أَبْداعٌ[(٦)]. وقرأ عكرمة وأبو حَيْوَة وابنُ أَبِي عَبْلَةَ: بِدعً ـ بفتح[(٧)] الدال ـ جمع بِدْعَةٍ، أي ما كنت ذا بِدَعٍ. وجوز الزمخشري أن يكون صفة على فِعَلٍ، كدِين قِيَم، ولَحْم زِيَم[(٨)]. قال أبو حيان: ولم يُثْبِتْ سيبوَيْهِ صفةً على «فِعَلٍ» إلاَّ قَوْماً عِدًى[(٩)]. وقد استدرك عليه لحمٌ زِيَمٌ. أي متفرق. وهو صحيحٌ. وأما قِيَمٌ فمقصورٌ من قِيَامٍ، ولولا ذلك لصحت عينه كما صحت في حولٍ وعِوَضٍ وأما قول العرب: مَكَانٌ سِوى، وماء رِوًى[(١٠)]، ورجل رِضًى، ومَاءٌ صرًى[(١١)]، وسَبْيٌ طِيَبٌ[(١٢)]، فمتأولة عند التصريفيين[(١٣)]. قال شهاب

---

(١) قاله الرازي في التفسير الكبير ٢٨/ ٧. (٢) التبيان ١١٥٤.

(٣) قاله أيضاً أبو البقاء فهو بالمعنى من التبيان المرجع السابق.

(٤) من الطويل لِعَدِيِّ بن زيد. وقد روي روايات متعددة ففي القرطبي ١٦/ ١٨٥: فلا أنا... من بعد بؤس بأسعد، كما روي: فلست بمن يخشى حوادث تعتري... رجالاً فبادوا بعد بؤس وأسعد. والشاهد: قوله بدع بمعنى الشيء الذي لم يُر منْ قَبْلُ. انظر البحر ٨/ ٥٦ ومجمع البيان ٩/ ٢٦ والقرطبي ١٦/ ١٨٥ والطبري ٢٦/ ٥.

(٥) ما بين الأقواس زيادة من أ. (٦) معالم التنزيل للبغويّ.

(٧) وهي قراءة شاذة ذكرها الزمخشري في الكشَّاف ٣/ ٥١٧ والقرطبي في الجامع ١٦/ ١٨٥.

(٨) الكشاف المرجع السابق.

(٩) قال: «ويكون فِعَلاً فيهما (أي في الأسماء والصفات) فالأسماء نحو: الضِّلع، والعِوَض، والصِّغرِ، والعِنَب، ولا نعلمه جاء صفة إلا في حرف من المُعْتل يوصف به الجماع وذلك قولهم: قومٌ عِدى. ولم يكسر على عدى واحد ولكنه بمنزلة السَّفْر والرَّكْب». الكتاب ٤/ ٢٤٤.

(١٠) أي كثير.

(١١) قال في اللسان: الصَّرى والصِّرى الماء الذي طال استنقاعه. وقال أبو عمرو: إذا طال مكثه وتغيره وقد صَرِيَ الماءُ بالكسر وقد ضبطه محققو ابن منظور: صَرى.

(١٢) ضبطت في اللسان طيّب بالتشديد.

(١٣) البحر ٨/ ٥٦ هذا وقد نقل السيوطي في المزهر ٢/ ٥٠ قال ابن قتيبة: وقال غيره: قد جاء مكاناً=

الدين: تأويلها إما بالمصدرية أو القَصْر، كقِيَم في قِيام. وقرأ أبو حيوةَ أيضاً ومجاهدٌ بَدِع بفتح الباء وكسر الدال، وهو وصف كَحَذِرٍ[(١)].

فصل

البدع والبديع من كل شيء المَبْدَأ، والبدعة ما اخترع ما لم يكن موجوداً قبله[(٢)]. قال المفسرون معناه إني لست بأول مُرْسَل، قد بعث قبلي كثيرٌ من الأنبياء فكيف تنكرون نبوّتي؟! وكيف تنكرون إخباري بأني رسول الله؟! وقيل: إنهم طلبوا منه معجزة عظيمةً وإخباراً عن الغيوب فقال: «قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ» والمعنى أن الإتيان بهذه المعجزات القاهرة والأخبار عن الغيوب ليس في وُسْعِ البشر، وأما جنس الرسل فأنا واحد منهم، فإذا لم يقدِروا على ما تُرِيدُونَه فيكف أقدر عليه؟! وقيل: إنهم كانوا يعيبونه بأنه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، وبأنه فقير، وأن أتباعه فقراء فقال: «قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ». وهم كلهم على هذه الصفةِ[(٣)] فهذه الأشياء لا تقدح في نُبُوَّتي كما لا تقدح في نُبُوَّتِهِم[(٤)].

قوله: «وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي» العامة على نيابة المفعول. وابن أبي عبلة وزيد بن علي مبنياً للفاعل[(٥)]، أي الله تعالى. والظاهر أن (ما) في قوله: «مَا يُفْعَلُ» استفهامية مرفوعة بالابتداء، وما بعدها الخبر، وهي معلقه «لأَدْرِي» عن العمل، فتكون سَادَّةً مَسَدَّ مفعوليها[(٦)]. وجوَّزَ الزمخشري أن تكون موصولة منصوبة[(٧)]، يعني أنها متعدية لواحدٍ، أي لا أعرف الذي يفعلُه اللَّهُ.

فصل

في تفسير الآية وجهان:

أحدهما: أن يحمل ذلك على أحوال الدنيا. **والثاني**: أن يحمل ذلك على أحوال الآخرة. أما الأول ففيه وجوه:

= سِوى، قال المرزوقي في شرح الفصيح: وزادوا عليه دين قيم، ولحم زيم أي متفرق وماء روى أي كثير انظر المزهر ٢/ ٥٠.

(١) قراءة شاذة نقلها أبو حيان في البحر ٨/ ٥٦.

(٢) اللسان بدع ٢٢٩.

(٣) في ب فكلهم كانوا على هذه السنة.

(٤) الرازي ٢٨/ ٧.

(٥) قراءة شاذة غير متواترة لم ينسبها صاحب الكشاف ٣/ ٥١٧ ونسبها أبو حيان في البحر إلى هذين المذكورين. البحر ٨/ ٥٧.

(٦) البحر المحيط المرجع السابق.

(٧) قال: و «ما» في ما يفعل يجوز أن تكون موصولة منصوبة وأن تكون استفهامية مرفوعة. الكشاف ٣/ ٥١٧.

الأول: معناه لا أدري ما يصير إليه أمري وأمركم، ومَن الغالب منَّا ومن المغلوب؟(١).

الثاني: قال ابن عباس ـ في رواية الكلبي ـ: لما اشتد البلاء بأصحاب النبي ـ ﷺ ـ بمكة رأى في المنام أنه يهاجر إلى أرض ذات نخلٍ وشجرٍ وماءٍ فقصها على الصحابة فاستبشروا بذلك ورأوا أن ذلك فرج ممَّا هم فيه من أذى المشركين. ثم إنَّهم مكثوا بُرهَةً من الدهر لا يروْنَ أثر ذلك فقالوا: يا رسول الله: ما رأينا الذي قُلْتَ، متى نهاجر إلى الأرض التي رأيتَها في المنام؟ فسكت النبي ـ ﷺ ـ وأنزل الله تعالى: **﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ﴾** وهو شيء رأيته في المنام وأنا لا أتبع إلا ما يوحيه الله إلَيَّ.

الثالث: قال الضحاك: لا أدري ما تُؤمَرُونَ به، ولا ما أومر به من التكاليف، والشرائع، ولا من الابتلاء والامتحان وإنما أنذركم بما أعلمني الله به من أحوال الآخرة من الثواب والعقاب، ثم أخبر تعالى أنه يظهر دينه على الأديان فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الفتح: ٢٨] وقال في أمته: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣] فأخبره الله ما يصنع(٢) به وبأمته قاله السدي.

الرابع: كأنه يقول: ما أدري ما يفعل بي في الدنيا، أموت أو أُقْتَلُ، كما قتل الأنبياء قبلي ولا أدري ما يفعل بكم أيها المُكَذِّبون أتُرْمَوْنَ بالحجارة من السماء أو يُخْسَف بكم أو يفعل بكم ما يفعل بسائر الأمم، وأما من حمل الآية على أحوال الآخرة فروى عن ابن عباس أنه قال: لَما نزلت هذه الآية فرح المشركون والمنافقون واليهود وقالوا: كيف نتبع نبياً لا يدري ما يفعل به ربُّه فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١ ـ ٥] فقالت الصحابة: هنيئاً لك يا نبي الله، قد علمنا ما يفعل بك فما يفعل بنا؟ فَأَنزَلَ اللَّهُ ـ عز وجلّ ـ: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الفتح: ٥] الآية وأنزل: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٧] فبين الله ما يفعل به وبهم، وهذا قول أنس وقتادة والحَسَنِ وعكرمةَ. وقالوا: إنما قال هذا قبل أن يخبر بغفران ذنبه وإنما أخبر بغُفْرَان ذنبه عام الحديبية فنسخ ذلك قال ابن الخطيب: وأكثر المحققين استبعدوا هذا القول لوجهين:

الأول: أن النبي ـ ﷺ ـ لا بدّ وأن يعلم من نفسه كَوْنَه نبيًّا، ومتى علم كونَه نبياً، علم أنه لا يصدر عنه الكبائرُ وأنه مغفور له، وإذا كان كذلك امتنع كونُه شاكًّا في أنه هل هو مغفور له أم لا؟.

---

(١) وهو رأي الحسن رضي الله عنه.

(٢) في ب بما يصنع.

الثاني: أن الأنبياء أرفع حالاً من الأولياء وقد قال في حق هؤلاء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣] فكيف يعقل أن يبقى الرسول الذي هو رئيس الأنبياء وقُدْوةُ الأولياء شاكًا في أنه هل هو من المغفور لهم؟ فثَبَتَ ضَعْفُ هذا القَوْلِ[١].

قوله: «إِنْ أَتَّبِعُ إلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ» العامة على بناء «يُوحَى» للمفعول، وقرأ ابن عمر[٢] بكسر الحاء على البناء للفاعل وهو الله تعالى. والمعنى[٣] إنِّي لا أقول قولاً ولا أعمل عملاً إلاّ بمقتضى الوَحْي. واحتج نُفَاةُ القياس بهذه الآية فقالوا: النبي ـ ﷺ ـ ما قال قولاً ولا عمل عملاً إلاّ بالنص الذي أوحاه الله (إليه)[٤] فوجب أن يكون حالُنَا كذلك. ثم قال الله تعالى: ﴿**وَمَا أَنَا إلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ**﴾ لأنهم كانوا يطالبونه بالمعجزات العجيبة، وبالإخبار عن الغيوب فقال: قُلْ مَا أنا إلا نذير مبين والقادر على تلك الأعمال الخارجة عن قدرة (البشر والعالم بتلك الغيوب ليس إلاَّ اللَّهُ تَعَالَى)[٥]..

قوله: «أَرَأَيْتُمْ إنْ كَانَ مِنْ عِنْد اللَّهِ» مفعولا «أرأيتم» محذوفان تقديره أرأيتم حالكم إنْ كَانَ كَذَا لستم ظالمين؟ وجواب الشرط أيضاً محذوف تقديره: فقد ظَلَمْتُمْ. ولهذا أتى بفعل الشرط[٦] ماضياً. وقدره الزمخشري: ألستم ظالمين[٧]؟ ورد عليه أبو حيان بأنه لو كان كذلك لوجبت الفاء، لأن الجملة الاستفهامية متى وقعت جواباً للشرط لزمت الفاء. ثم إن كانت أداة الاستفهام همزة فقدمت على الفاء نحو: إنْ تَزُرْنَا أَفَلاَ نُكْرِمُكَ؟ وإن كانت غيرها تقدمت الفاء عليها نحو: إنْ تَزُرْنَا فَهَلْ تَرَى إلاَّ خَيْراً[٨]؟

قال شهاب الدين: والزمخشري ذكر أمراً تقديرياً فسر به المعنى لا الإعراب[٩]. وقال ابن عطية و «أَرَأَيْتُم» يحتمل أن تكون مُنَبِّهة، فهي لفظ موضوع للسؤال، لا يقتضي مفعولاً. ويحتمل أن تكون الجملة كان وما عملت سادّة مسدّ مفعوليها[١٠]. قال أبو حيان: وهذا خلاف ما قرّروه النحاة[١١]، وقد تقدم تحقيق مَا قرَّره. وقيل: جواب الشرط هو قوله: «فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ»[١٢]. وقيل: هو محذوف تقديره فمن المُحِقّ منا

---

(١) وانظر تفسير الإمام الفخر الرازي ٢٨/ ٧ و ٨ وانظر في هذا كله أيضاً تفسير القرطبي ١٦/ ١٨٦ و ١٨٧ وتفسير البحر المحيط ٨/ ٥٦ و ٥٧.

(٢) كذا في النسختين وفي البحر: ابن عمير بينما لم تَثْبُتْ نسبة في القرطبي والكشاف انظر البحر والقرطبي السابقين والكشاف ٣/ ٥١٨.

(٣) الرازي السابق.

(٤) زيادة من أ.

(٥) الرازي السابق.

(٦) قاله أبو حيان في البحر المحيط ٨/ ٥٧.

(٧) الكشاف ٣/ ٥١٧ و ٥١٨.

(٨) البحر المحيط المرجع السابق.

(٩) الدر المصون ٥/ ٤.

(١٠) نقله عنه أبو حيان في البحر ٨/ ٥٧.

(١١) المرجع السابق.

(١٢) ذكره أبو حيان ولم ينسبه.

والمبطل؟[١] وقيل: «فمن أضل»[٢]. قال ابن الخطيب: جواب الشرط محذوف، والتقدير أن يقال: إن كان هذا الكتاب من عند الله ثُمَّ كَفَرْتُمْ به وشَهِدَ شاهدٌ مِنْ بَنِي إسْرَائِيلَ على صحته ثم استكبرتم لكنتم من الخاسرين. ثم حذف هذا الجواب. ونظيره قوله: «إنْ أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ وأَسَأْتَ إِلَيَّ وأَقْبَلْتُ إِلَيْكَ[٣] وأعرضْتَ عني فَقَدْ ظَلَمْتَنِي» وكذا ههنا التقدير أخبروني إن ثبت أن القرآن من عند الله بسبب عجز الخلق عن معارضته ثم كفرتم به وجعل أيضاً شاهده[٤] أعلم بني إسرائيل بكونه معجزاً من عند الله فلو استكبرتم وكفرتم ألستم أضل الناس وأظلمهم؟ واعلم أن جواب الشرط محذوف في بعض الآيات كما في هذه الآية وكما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد: ١٣] وقد يذكر كما في قوله تعالى: **﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ﴾** وقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٧١].

فصل

معنى الآية أخبروني ماذا تقولون «إِنْ كَانَ» ـ يعني القرآن ـ «مِنْ عِنْد اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ» أيها المشركون «وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ». المثل صلة يعني عَلَيْهِ أي على أنه من عند الله فَآمَنَ يعني الشاهد «وَاسْتَكْبَرْتُمْ» عن الإيمان به. واختلفوا في هذا الشاهد فقال قتادة والضحاك وأكثر المفسرين: هو عبد الله بن سلام شهد نبوة المصطفى ـ ﷺ ـ فآمن[٥] به، واستكبر اليهود، فلم يؤمنوا كما روى أنس ـ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٦]) ـ قال: سمع عبد الله بن سَلاَم بِمَقْدِمِ رسول الله ـ ﷺ ـ فأتاه وهو يخترف في أرض، فنظر إلى وجهه، فعلم أنه ليس وجه كَذَّاب، وتأمله فتحقق أنه النبي المُنْتَظَر فقال له: إني سائلك عن ثلاثة لا يَعْلَمُهُنَّ إلاَّ نبي، ما أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؟ وما أَوَّلُ طَعَام أَهْلِ الجَنَّةِ؟ وما ينْزِع[٧] الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ فقال ـ ﷺ ـ أخبرني بهن جبريلُ آنفاً قال: جبريل قال: نعم قال: ذَاكَ عدوّ اليهود من الملائكة فقرأ هذه الآية: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة: ٩٧]. أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المَشْرِق إلى المغرب وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كَبِد حُوت، وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل نزعهُ وإن سبق ماء المرأة نزعته فقال: أشهد أنك رسول الله حقاً. ثم قال يا رسول الله: إن اليهود قوم بُهتٌ، وإن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم

---

(١) السابق.
(٢) ذكره أبو حَيَّان عن الحسن رضي الله عَنْهُ.
(٣) في الرازي: عليك.
(٤) وفيه: وجعل شهادة.
(٥) في ب وأمر به.
(٦) زيادة من أ.
(٧) في ب الوالد تحريف.

عني بَهَتُونِي عنْدك، فجاءت اليهود فقال لهم النبي ـ ﷺ ـ: أيُّ رجل عبد الله فيكم؟ فقالوا: خَيْرُنا وابن خَيْرِنَا وسيدُنا وابنُ سيِّدِنا وأعلَمُنا وابن أَعْلَمِنَا قال: أفرأيتم (إن أسلم)[1] عبد الله بن سلام؟ فقالوا: أعاذَه الله من ذلك. فخرج إليهم عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسولُ الله فقالوا: أشَرُّنَا وابْنُ شَرِّنَا وانتقصوه فقال: هذا ما كنت أخاف منه يا رسول الله فقال سعد بن أبي وقّاص: ما كنا نقول ـ وفي رواية ما سمعت النبي ـ ﷺ ـ يقول لأحد يمْشِي على الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سَلاَم وفيه نزلت هذه الآية: «وَشَهِدَ شَاهِدٌ منْ بَنِي إسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ». وقيل: الشاهد: هو موسى بن عِمْرَانَ ـ عليه الصَّلاَة والسَّلام ـ قال الشعبي: قال مسروق في هذه الآية: والله ما نزلت في عبد الله بن سلام، لأن آل حم نزلت بمكة، وإنما أسلم عبد الله بن سلام بالمدينة قبل وفاة رسول الله ـ ﷺ ـ بعامين، فكيف يمكن حمل هذه الآية المكية على واقعةٍ حدثت في عهد رسول الله ـ ﷺ ـ بالمدينة؟! وإنما نزلت الآية في محاجّة كانت من رسول الله ـ ﷺ ـ لقومه. وأجاب[2] الكلبيُّ بأن السورة مكية إلا هذه الآية فإنها مدنية وكانت الآية تنزل فيأمر[3] رسول الله ـ ﷺ ـ أن يضَعَهَا في سورة كَذَا وكَذَا، وهذه الآية نزلت بالمدينة وأنّ الله تعالى أمر رسوله بأن يضعها في السورة المكية في هذا الموضع المعين[4]. قال ابن الخطيب: ولِقَائِلٍ أن يقول: إن الحديث الذي رَوَيْتُمْ عن عبد الله بن سلام مشكِلٌ؛ لأن ظاهر الحديث يشعر بأنه لما سأل النبي ـ ﷺ ـ عن المسائل الثلاث، فلما أجاب النبيّ ـ ﷺ ـ بذلك[5] الجواب آمن[6] عبد الله بن سلام لأجل أنّ النبي ـ ﷺ ـ ذكر تلك الجوابات وهذا بعيدٌ من وَجْهَيْنِ:

الأول: أن الإخبار عن أول أشراط الساعة وعن أول طعام يأكله أهل الجنة إِخْبَار عن وقوع شيءٍ من المُمْكِنَات، وما هذا سبيله فإنه لا يُعْرَفُ كَوْنُ ذلك الخبر صدقاً إلاّ إذا عرف أولاً كونُ المُخْبر صادقاً، فلو عرفنا صدق المُخْبِر يكون ذلك الخبر[7] صادقاً لزم الدور. وهو محال.

الثاني: أنا نعلم بالضرورة أن الجوابات المذكورة عن هذه المسائل لا يبلغ العلم بها إلى حدِّ الإعجاز ألبتة بل نقول: الجوابات الباهرة عن المسائل الصعبة لما لم يبلغ[8] إلى حد الإعجاز.

---

(١) ما بين القوسين سقط من أ الأصل. (٢) في ب فأجاب.

(٣) كذا في النسختين وهو تحريف من الناسخ والأصح فيؤمر للمفعول.

(٤) وانظر في هذا تفسير الإمام الفخر الرازي ٢٨/ ٩ و ١٠ وانظر في هذا أيضاً القرطبي ١٦/ ١٨٨ و ١٨٩ والكشاف للزمخشري ٣/ ٥١٨.

(٥) في ب بهذا الجواب وفي الرازي بتلك الجوابات.

(٦) كذا في النسختين وفي الرازي: من. (٧) في ب المخبر.

(٨) في ب تبلغ وفي الرازي: لمّا لَمْ يبلغ العلم بها.

والجواب يحتمل أنه جاء في بعض كتب الأنبياء المتقدمين أن رَسُولَ آخِرِ الزمان يُسْأَلُ عن هذه المسائل وهو يجيب عنها بهذه الجوابات وكان عبد الله بن سلام عالماً بهذا المعنى ولما سأل النبيّ ـ ﷺ ـ أجاب بتلك الأجوبة فلا حاجة بنا إلى أن نقول: العِلْمُ بهذه الجوابات مُعْجزةٌ والله أعلم(١).

وقيل: المراد بالشاهد التوراة(٢). ومثل القرآن هو التوراة فشهد موسى على التوراة، ومحمد على الفرقان، وكل واحد يُصَدِّقُ الآخرَ، لأن التوراة مشتملة على البشارة بمحمدٍ ـ ﷺ ـ والقرآن مصدق التوراة ثم قال: «فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ» فلم تؤمنوا «إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ» وهذا تهديد. وهو قائم مقام الجواب المحذوف، والتقدير قل أرأيتم إنْ كَانَ من عند الله ثم كفرتم به فإنكم لا تكونون مهتدين بل تكونون ضالّين.

قوله تعالى: **﴿وَقَالَ الَّذِينَ كفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ...﴾** في سبب النزول وجوه:

الأول: أن كفار مكة قالوا: إن عَامَّةَ من يتبع محمداً الفقراءُ والأرذالُ مثلُ عمَّار، وصُهَيْب، وابْن مَسْعُودٍ ولو كان هذا الدين خيراً ما سبقونا إليه هؤلاء(٣).

الثاني: قيل: لما أسلمت جُهَيْنَةُ ومُزَيْنَة، وأَسْلَم، وغِفار، قالت بنو عامر وغطفان وأسد وأشجع: لو كان هذا خيراً ما سبقنا إليه رعاة البَهْمِ(٤).

الثالث: قيل: إنَّ أَمَةً لعمرَ أسلمت وكان عمر يضربها ويقول: لولا أنّي فترت لزِدْتُكِ ضَرْباً فكان كفار قريش يقولون: لو كان ما يدعونا إليه محمد خيراً ما سبقنا إليه(٥).

الرابع: قيل: كان اليهود يقولون هذا الكلام حين أسلم عبد الله بن سلام(٦) وأصحابه.

قوله: «لِلَّذِينَ آمَنُوا» يجوز أن تكون لام الصلة، أي لأجلهم، يعني أن الكفار قالوا: لأجل إيمان الذين آمنوا(٧)، وأن تكون للتبليغ ولو جروا على مقتضى الخطاب لقالوا: ما سبقتمونا ولكنهم التفتوا فقالوا ما سبقونا(٨). والضمير في «كان» و «إليه» عائدان على القرآن، أو ما جاء به الرسول أو الرسول.

---

(١) الرازي ٢٨/ ١٠.
(٢) القرطبي ١٦/ ١٨٨ وهو رأي مسروق. وانظر البحر المحيط أيضاً ٨/ ٥٧ و ٥٨.
(٣) نقله صاحب الكشاف ٣/ ٥١٩.
(٤) حكي عن الكلبي والزَّجاج وحكاه القشيري عن ابن عباس انظر القرطبي ١٦/ ١٩٠.
(٥) نقله الزمخشري في كشافه السابق.
(٦) وهو قول اكثر المفسرين فيما نقله القرطبي في مرجعه السابق.
(٧) قاله الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥١٩.
(٨) الرازي ٢٨/ ١١.

قوله: «وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ» العامل في «إِذْ» مقدر أي ظهر عنادُهُمْ[(١)]، وتسبب عنه (قوله[(٢)]) «فَسَيَقُولُونَ» ولا يعمل في «إِذْ» فَسَيَقُولُونَ، لتضاد الزمانين، أعني المُضِيَّ والاسْتِقْبَالَ ولأجل الفاء أيضاً[(٣)].

فصل

المعنى وإذ لم يهتدوا بالقرآن كما اهتدى به أهل الإيمان فسيقولون هذا إفك قديم كما قالوا: أَسَاطِيرُ الأَوَّلين[(٤)].

قوله (تعالى)[(٥)]: **﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى﴾** العامة على كسر ميم «مِنْ» حرف جر، وهي مع مجرورها خبر مقدم. والجملة حالية، أو خبر مستأنف وقرأ الكلبي بنصب الكتاب[(٦)] تقديره: وأَنْزَلَ مِنْ قِبْلِهِ كِتَابَ مُوسَى وقرىء: وَمَنْ قَبْلَه بفتح الميم كِتَابَ مُوسَى بالنصب، على أن «من» موصولة، وهي مفعول أول لآتَيْنَا مقدَّراً، و «كتاب موسى» مفعوله الثاني أي وآتينا الذي قبله كِتَابَ مُوسَى[(٧)].

قوله: «إِمَاماً ورَحْمَةً» حالان من «كتاب موسى»[(٨)]. وقيل: منصوبان بمقدر أي أَنْزَلْنَاهُ إِمَاماً[(٩)] ولا حاجة إليه. وعلى كونهما حالين هما منصوبان بما نصب به «مِنْ قَبْل» من الاستقرار. وقال أبو عبيدة[(١٠)]: فيه إضمار أي جعلناه إماماً ورحمة من الله لمن آمن به. ومعنى الآية: ومن قبل القرآن كتابُ موسى يعني التوراة إماماً يهتدى به، ورحمة من الله وفي الكلام محذوف تقديره: وتقدمه كتاب موسى إماماً ورحمةً ولم يَهْتَدُوا به كما قال في الآية الأخرى[(١١)] «وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ».

قوله: «وَهَذا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ» أي القرآن يصدِّق الكتب التي قبله، في أن محمداً رسول من عند الله.

---

(١) التبيان ١١٥٤. (٢) زيادة من ب وانظر الرازي ٢٨/ ١١.

(٣) فلا يعمل ما بعدها فيما قبلها وهو قول أبي حيان في البحر المحيط ٨/ ٥٩ بالمعنى.

(٤) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي ١٦/ ١٩٠.

(٥) زيادة من ب.

(٦) البحر المحيط ٨/ ٥٩ وهي شاذة غير متواترة.

(٧) نسبها أبو حيان أيضاً إلى الكلبي المرجع السابق ولم ينسبها الزمخشري فجعلها قراءة واحدة الكشاف ٣/ ٥١٩.

(٨) التبيان ١١٥٥.

(٩) البحر المحيط المرجع السابق ولم ينسب هذا الرأي لمعيَّن.

(١٠) لم أجده في كتابه مجاز القرآن عند هذه الآية ولعله له في كتاب آخر ولا فرق بينه وبين الذي سبقه من التقدير.

(١١) في ب الأولى.

قوله: «لِسَاناً» حال من الضمير في «مُصَدِّق» ويجوز أن يكون حالاً من «كِتَابٍ» والعامل التنبيه[١]، أو معنى الإشادة. و «عربياً» صفة لـ «لِسَاناً» وهو المسوغ لوقوع هذه الجامدة حالاً، وجوز أبو البقاء أن يكون مفعولاً به ناصبه[٢] «مصدق» وعلى هذا تكون الإشارة إلى غير القرآن؛ لأن المراد باللسان العربي القرآن. وهو خلاف الظاهر. وقيل: هو على حذف مضاف، أي مُصَدِّق ذَا لسانٍ عَرَبيٍّ[٣] وهو النبي ـ ﷺ ـ وقيل: هو على إسقاط حرف الجر، أي بلسان[٤] وهو ضعيف.

قوله: «لتنذر» متعلق بمُصَدِّق، و «بُشْرَى» عطف على محلّه تقديره: للإنذار وللبُشْرَى[٥]. ولما اختلف العلة والمعلول وصل العامل إليه باللام، وهذا فيمن قرأ بتاء الخطاب[٦]. فأما من قرأ بياء الغيبة[٧] ـ وقد تقدم ذلك في يس ـ فإنَّهُمَا متَّحِدَانِ. وقيل: بشرى عطف على لفظ «لِتُنْذِرَ» أي فيكون مجروراً فقط[٨]. وقيل: هي مرفوعة على خبر ابتداء مضمر تقديره[٩]: هِيَ بُشْرَى. ونقل أبو حيان[١٠] وجه النصب عطفاً على محل «لِتُنْذِرَ» عن الزمخشري[١١] وأبي البقاء ثم قال: «وهذا لا يصح على الصحيح من مذاهب النحويين، لأنهم يشترطون في الحمل على المحل أن يكون بحقّ الأصالة. وأن يكون للموضع مُحْرز[١٢]. وهنا المحل ليس بحق الأَصَالة؛ إذ الأصل في المفعول الجر (له)[١٣]، والنصب ناشىء عنه، لكنه لما كثر بالشروط المذكورة وصل إليه الفعل فنصبه»[١٤]. انتهى.

قوله: الأصل في المفعول له الجر بالحرف ممنوع بدليل قول النحويين إنه ينصب

---

(١) يقصد الهاء من قوله: «وهَذَا» وانظر البحر المحيط ٨/ ٥٩ والتبيان ١١٥٥ والبيان ٢/ ٣٦٩ والحال في الحقيقة هو «عربياً» فيكون «لساناً» توطئة للحال أي تأكيداً. انظر القرطبي ١٦/ ١٩١ والبحر المرجع السابق.

(٢) أي هذا الكتاب يصدق لسان محمد ﷺ. التبيان ١١٥٥.

(٣) نقله أبو حيان في بحره المرجع السابق. (٤) السابق.

(٥) قاله صاحب التبيان في مرجعه السابق ١١٥٥.

(٦) وهم أبو رجاء والأعرج وشيبة، وأبو جعفر، ونافع، وابن كثير، وهي قراءة متواترة انظر السبعة ٥٩٦ والنشر تقريبه ١٧٣، وابن خالويه في حجته ٣٢٦.

(٧) باقي السبعة. (٨) أي للإنذار والبشرى.

(٩) وهو اختيار الزجاج ورجَّحه قال: «الأجود أن يكون «بشرى» في موضع رفع والمعنى وهو بشرى للمحسنين» معاني القرآن وإعرابه ٤/ ٤٤١.

(١٠) في البحر ٨/ ٥٩. (١١) الكشاف ٣/ ٥٢٠.

(١٢) أي طالب لذلك المحل.

(١٣) كذا في أ وفي ب: إذ الأصل في المفعول له الجر، وهو الصحيح الموافق لما في البحر لأبي حيان فضلاً عن المعنى المقصود.

(١٤) بالمعنى قليلاً من البحر المحيط ٨/ ٥٩ و ٦٠.

بشروط[1] ذكروها ثم يقولون: ويجوز جره بلام فقولهم: ويجوز ظاهر في أنه فرع لا أصل. قال الزجاج ـ (رَحِمَهُ اللهُ[2]) ـ: الأجوزُ أن يكون «وبشرى» في موضع رفع أي وهُو بُشْرَى. قال: و (لا)[3] يجوز أن يكون في موضع نَصْب على معنى لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين[4]. وقوله للمحسنين متعلق ببشرى، أو بمحذوف على أنَّه صفة لها.

فصل

المراد بالذين ظلموا مشركو مكة، والحاصل أن المقصودَ من إنزال هذا الكتاب إنذار المعرضين وبشارة المطيعين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾** لما قرر دلائل التوحيد والنُّبوة وذكر شبهات المنكرين وأجاب عنها، ذكر بعد ذلك طريقة المحققين فقال: «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ استقامُوا» وقد تقدم تفسيره في سورة السجدة. والفرق بين الموضعين أن في سورة السجدة ذكر أن الملائكة ينزلُونَ ويقولون: لاَ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا، وههنا رفع الواسطة وذكر أنه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؛ فإذا جمعنا بين الآيتين حصل من مجموعهما أن الملائكة يتلقونهم بالبشارة من غير واسطة.

قوله: «فَلاَ خَوْف» الفاء زائدة في خَبَر الموصول، لما فيه من معنى الشرط. ولم تمنع «إنَّ» من ذلك إبقاء معنى الابتداء بخلاف لَيْتَ، ولَعَلَّ، وكَأَنَّ.

قوله تعالى: **﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ﴾** قالت المعتزلة هذه الآية تدل على مسائل:

أولها: أن قوله: **﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾** يفيد الحصر وأن أصحاب الجنة ليسوا إلا الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا وهذا يدل على أن صاحب الكبيرة قبل التوبة لا يدخل الجنة.

وثانيها: قوله «جَزَاءً بِمَا كَانُوا يعملون» يدل على فساد قول من يقول: الثواب فضل لا جزاء.

---

(١) هذه الشروط أن يكون مصدراً خلافاً ليونس، معللاً، قيل: ومن أفعال الباطن وقد شرط المتأخرون والأعلم، مشاركته لفعله وقتاً وفاعلاً، كما شرط المبرد والرياشي تنكيره فإن فقد أي شرط من الشروط السابقة جرّ باللام، أو من، أو الباء، قيل: أو في، وهناك المزيد في همع السيوطي وغيره بتصرف من الهمع ١/ ١٩٤.

(٢) زيادة من أ الأصل.

(٣) زيادة من النسختين ففي معاني القرآن له: «ويجوز أن يكون. . . ويُبشِّر المُحْسِنِيْن بُشْرَى». معاني القرآن وإعرابه ٤/ ٤٤١.

(٤) ذكره العلامة الإمام الفخر الرازي ٢٨/ ١٢ و ١٣.

وثالثها: قوله: «جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون» يدل على إثبات العمل للعبد.

ورابعها: يدل على أن العبد يستحق على الله جزاء عمله[١] وتقدم جواب ذلك.

قوله: «خَالِدِينَ» منصوب على الحالية و «جَزَاءً» منصوب إما بعامل مضمر، أي يُجْزَوْنَ جزاءً[٢] أو بما تقدم، لأن معنى أولئك أصحاب الجنة معنى جَازَيْنَاهُمْ بذَلِكَ.

قـولـه تـعـالـى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: **﴿وَوَصَّينَا الإنْسَانَ بوَالِدَيهِ حُسْناً﴾** تقدم نظيره. قرأ الكوفيون: إحْسَاناً[٣]، وباقي السبعة «حسناً» بضَمِّ الحاء وسكون السين، فالقراءة الأولى يكون «إحْسَاناً» فيها منصوباً بفعل مقدر أي وصيناه أن يحسن إليهما إحْسَاناً[٤] وقيل: بل هو مفعول به على تضمين وصينا معنى «أَلْزَمْنَا»[٥] فيكون مفعولاً ثانياً وقيل: بل هو منصوب على المفعول له، أي وَصَّيْنَا بهما إحْسَاناً منا إليهما[٦]. وقيل: هو منصوب على المصدر، لأن معنى وصينا أحْسَنَّا[٧]، فهو مصدر صريحٌ، والمفعول الثاني هو المجرور بالباء. وقال ابن عطية: إنها تتعلق إما «بوصَّيْنَا» وإما «بإحْسَاناً»[٨] وردَّ عليه أبو حيان هذا الثاني بأنه مصدر مؤول فلا يتقدم معموله عليه، ولأن «أَحْسَنَ» لا يتعدى بالباء، وإنما يتعدى باللام لا تقول: أَحْسِنْ بزَيْدٍ على معنى وصول الإحسان إليه[٩]. ورد بعضهم هذا بقوله: ﴿أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى﴾ [يوسف: ١٠٠]. وقيل: هو بغير هذا المعنى. وقدر بعضهم: ووصينا الإنسان بوالديه ذَا[١٠] إحْسَانٍ، يعني فيكون حالاً. وأما «حُسْناً» فقيل

---

(١) وقد ذكر الرازي وجهًا خامساً وهو كون العبد مستحقاً على الله تعالى وأعظم أنواع هذا النوع الإحسان إلى الوالدين. انظر هذا الوجه وما قبله من الأوجه في الرازي ٢٨/ ١٣ و ١٤.

(٢) التبيان ١١٥٥.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٦٠، والقرطبي ١٦/ ١٩٢ ويقصد بالكوفيين: عاصماً وحمزة والكسائي. وهي قراءة متواترة. انظر السبعة ٥٩٦.

(٤) البيان ٢/ ٣٦٩، والبحر المحيط ٨/ ٦٠.

(٥) التِّبيان ١١٥٦.

(٦) البحر المحيط السابق.

(٧) البحر المحيط ٨/ ٦٠ وهو بقية رأي ابن عطية الآتي فيما نقله عنه أبو حيان في مرجعه السابق.

(٨) السابق.

(٩) بالمعنى من البحر المحيط المرجع السابق.

(١٠) في البحر المحيط: إيصاء ذَا إحسان أو ذا حُسْن. ولم يحدد من قال بتلك الآراء اللهم إلا ابن عطية السابق.

فيها ما تقدم في «إحسان». وقرأ عِيسَى والسُّلَمي بفتحهما[١]. وقد تقدم معنى القراءتين في البقرة[٢] وفي لقمان[٣]. قال ابن الخطيب: حجة من قرأ إحساناً قوله تعالى في سورة بني إسرائيل: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣] ومعناه أمر بأن يوصل إليهما إحساناً. وحجة القراءة الأخرى قوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨] ولم يختلفوا فيه. والمراد أنا أمرناه بأن يوصل إليهما فعلاً حسناً، كما يقال: هذا الرجل عِلْمٌ وكَرَمٌ[٤]. قوله: «حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوضَعَتْهُ كُرْهاً» قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو بفتح الكاف[٥]، والباقون بضمها، وقيل: هما لغتان بمعنى واحد، مثل الضَّعْف والضُّعْف، والفَقْر والفُقْر، ومن غير المصادر الدَّفُّ، والدُّفُّ[٦]، والشَّهْدُ والشُّهْدُ وقال الواحدي: الكُرْهُ مصدر من كَرِهْتُ الشيء أَكْرَهُهُ والكَرْهُ الاسمُ كأنه الشيء المكروه، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] فهذا بالضم، وقال: ﴿تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ [النساء: ١٩] فهذا في موضع الحال، وما كان مصدراً في[٧] موضع الحال فالفتح فيه أحسن. وقال أبو حاتم: الكره بالفتح لا يحسن، لأنه بالفتح الغَضْبُ والغَلبة[٨]. ولا يلتفت لما قاله لتواتر هذه القراءة[٩]. وانتصابهما إمَّا على الحال من الفاعل أي ذات كره، وإمَّا على النعت لمصدرٍ مقدر أي حَمْلاً كُرْهاً[١٠].

فصل

قال المفسرون: حملته أمُّه مشقةً على مشقةٍ، ووضعته بمشقَّةٍ وليس المراد ابتداء الحمل فإن ذلك لا يكون مشقة، لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾

(١) أي فتح السين والخاء وهي من الشواذِ ذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٦٥ وأبو حيان في البحر ٨/ ٦٠.

(٢) من الآية ٢٤٥ «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ» وقوله أيضاً: «وقُولُوا لِلنَّاس حُسناً» من الآية ٨٣.

(٣) الأصح الكهف ٨٦ والنمل ١١ والشورى ٢٣.

(٤) الرازي ٢٨/ ١٤.

(٥) قراءة شاذة ذكرها أبو حيان في البحر ٨/ ٦٠ وهي قراءة شيبة والأعرج وأبي جعفر والحرميَّينِ أيضاً.

(٦) الذي يضرب به النساء انظر اللسان دَفّ ١٣٩٦.

(٧) في الرازي ناقلاً عبارة الواحدي: أو في موضع الحال وانظر الرازي ٢٨/ ١٤.

(٨) ذكر القرطبي هذا الرأي ولم ينسبه لأحد انظر القرطبي ١٦/ ١٩٣ وذكر الفراء والكسائي والزجاج الفرق بينهما ولم يتعرضوا لأكثر من هذا. انظر معاني الزجاج ٤/ ٤٤٢، ومعاني الفراء ٢/ ٥٢، والقرطبي السابق وقد نقل رأي أبي حاتم أبو حيان في البحر ٨/ ٦٠.

(٩) هذا رد أبي حيان على رأي أبي حاتم.

(١٠) السابق.

﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ [الأعراف: ١٨٩] فحينئذ حملته كرهاً ووضعته كرهاً يريد شدة الطلق.

فصل

دلت الآية على أن حق الأم أعظم لأنه تعالى قال: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً﴾ فذكرهما معاً، ثم خص الأمَّ بالذكر فقال: «حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً» وذلك يدل على أن حقها أعظمُ وأَنَّ وصول المشاقّ إليها بسبب الولد كثيرة والأخبار كثيرة في هذا الباب[١].

قوله: «وَحَمْلُهُ وفِصَالُهُ» أي مدة حمله. وقرأ العامة وفِصَالُهُ مَصْدَر «فَاصَل» كأن الأم فَاصَلَتْهُ وهُوَ فَاصَلَهَا[٢]. والجَحْدَرِيُّ والحَسَنُ وقَتَادَةُ: وفَصْلُهُ[٣]. قيل: والفَصْلُ والفِصَالُ بمعنى كالعَظْم والعِظَام والقَطْفِ والقِطَافِ. ولو نصب «ثلاثين» على الظرف الواقع موقع الخبر جاز وهو الأصل، هذا إذا لم نُقدر مضافاً فإن قدرناه ـ أي مُدَّة حَمْلِهِ ـ لم يجز ذلك وتعين الرفع لتصادق الخَبَر والمُخْبَرِ عَنْهُ.

فصل

دلت الآية على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، لأنه لما كان مجموع مدة الحمل والرَّضَاع ثلاثونَ شَهراً وقال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة ٢٣٣] فإذا أسقطنا الحولين الكاملين وهي أربعة وعشرون شهراً من ثلاثين بقي مدة الحمل ستة أشهر. وروى عكرمة عن ابن عباس (رضي الله عنهما)[٤] قال: إذا حملتِ المرأةُ تسعة أشهر أرضعت واحداً وعشرينَ شهراً. وروي عن أبي بكر (الصديق[٥]) رضي الله عنه أَنَّ امرأةً رفعت إليه وقد ولدت لستة أشهر فأمر برجمها. فقال عمر[٦]: لا رَجْمَ عليها وذكر الطريق المتقدمة. وعن عقمان نحوه وأنه يعم بذلك فقرأ ابن عباس عليه الآية. وأما مدة أكثر الحمل فليس في القرآن ما يدل عليه[٧].

قوله: «حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ» لا بد من جملة محذوفة، تكون «حَتَّى» غاية لها، أي عاش واستمرت حياته حتى إذا بلغ أشده[٨]، قال ابن عباس ـ في رواية عطاء ـ الأشد ثماني عشرة سنة وقيل: نهاية قوته وغاية شبابه واستوائه، وهو ما بين ثماني عشرة سنة

---

(١) انظر الرازي ٢٨/ ١٤ ومعاني الزجاج ٤/ ٤٤٢.
(٢) البحر ٨/ ٦١.
(٣) شاذة غير متواترة انظر المرجع السابق، ومختصر ابن خالويه ١٣٩.
(٤) زيادة من أ. (٥) زيادة من ب.
(٦) في القرطبي: عَليّ.
(٧) انظر هذا في القرطبي ١٦/ ١٩٣ و ١٩٤ والرازي ٢٨/ ١٦ و ١٧.
(٨) البحر المحيط ٨/ ٦١.

إلى أربعين سنة[١]، فذلك قوله: «وبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً» وقال السدي والضحاك: نزلت في سعد بن أبي وقاص، وقد مَضَت القِصَّةُ. وقيل: نزلت في أبي بكر الصديق وأبيه أبي قُحَافَةَ عُثْمَانَ بْنِ عمرو، وأمه أم الخير بنت صخر بن عمرو. وقال علي بن أبي طالب: الآية في أبي بكر الصديق أسلم أبواه جميعاً، ولم يجتمع لأحد من المهاجرين أبواه غيره أوصاه الله بهما ولزم ذلك من بعده، وكان أبو بكر صحب النبي - ﷺ - وهو ابن ثماني عشرة سنة، والنبي - ﷺ - ابن عشرين سنة في تجارته إلى الشام فلما بلغ أربعين سنة، ونُبِّىء النبيُّ - ﷺ - آمن به ودعا ربه فقال: «رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وعَلَى وَالِدَيَّ» بالهداية والإيمان[٢]. وأكثر المفسرين على أن الأشد ثلاثٌ وثلاثون سنةً[٣].

فصل

قال ابن الخطيب: مراتب سن الحيوان ثلاثة، لأن بدن الحيوان لا يتكون إلا برطوبة غريزية وحرارة غريزية، والرطوبة الغريزية زائدة في أول العمر، وناقصة في آخر العمر والانتقال من الزيادة إلى النقصان لا يعقل حصوله إلا إذا حصل الاستواء في وسط هاتين[٤] المدتين فثبت أن مدة العمر منقسمة إلى ثلاثة أقسام:

فأولها: أن تكون الرطوبة الغريزية زائدة على الحرارة الغريزية، وحينئذ تكون الأعضاء عظيمة التمدد في ذَوَاتِها وزيادتها في الطول والعرض والعُمْق وهذا هو سن النُّشُوِّ (والانتماء[٥]).

والثانية: وهي المرتبة المتوسطة أن تكون الرطوبة الغريزية وافيةً بحفظ الحرارة الغريزية من غير زيادة ولا نُقْصَان، وهذا هو سنّ الوقوف وهو سِنّ الشباب.

والمرتبة الثالثة: أن تكون الرطوبة الغريزية ناقصة عن الوفاء بحفظ الحرارة الغريزية. ثم هذا النقصان على قسمين:

فالأول: هو النقصان الخفي وهو سن الكهولة. **والثاني**: هو النقصان الظاهر وهو سن الشَّيْخُوخَةِ[٦].

قوله: «أَرْبَعِينَ» أي تمامها، «فأربعين» مفعول به. قال المفسرون: لم يبعث نَبِيٌّ قَطُّ إِلاَّ بعد أربعين سنة. قال ابن الخطيب: وهذا يشكل بعيسى - عليه الصلاة والسلام - فإنه

---

(١) الرازي السابق. (٢) القرطبي السابق.

(٣) وهو اختيار الزجاج في معاني القرآن وإعرابه ٤٤٢. وهو رأي قتادة كما نقله الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٢١.

(٤) في ب هذين. (٥) زيادة من الرازي.

(٦) الرازي ٢٨/ ١٧.

تعالى جعله نبياً من أول عمره إلا أنه يجب أن يقال: الأغلب أن ما جاء(ه)[١] الوحي إلا بعد الأربعين وهكذا كان الأمر في حق نبينا ـ ﷺ[٢] ـ.

قوله: «أَوْزِعْنِي» قال ابن عباس ـ (رضي الله[٣] عنهما) ـ معناه أَلْهِمْنِي[٤]. قال الجوهري: أَوْزَعْتُهُ أَغْرَيْتُهُ به، فَأُوزِعَ بِهِ فَهو مُوزَعٌ به أي مُغْرًى به، واسْتَوْزَعْتُ اللَّهَ فَأَوْزَعَنِي أي اسْتَلْهَمْتُهُ فَأَلْهَمَنِي[٥].

قوله: «وأن أعمل صالحاً ترضاه» قال ابن عباس ـ (رضي الله عنهما[٦]) ـ: أجاب الله ـ عزَّ وجَلَّ ـ دعاء أبي بكر، فأعتق تسعةً من المؤمنين يُعَذَّبُونَ في الله، منهم بلالٌ، وعامرُ بنُ فُهَيْرة، فلم يرد شيئاً من الخير إلا أعانه الله عليه[٧]. ودعا أيضاً فقال: «فَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي» فأجاب الله تعالى فلم يكن له ولد[٨] إلا آمنوا جميعاً. فاجتمع له إسلام أبويه وأولاده جميعاً. فأدرك أبو قحافة النَّبِيَّ ـ ﷺ ـ وابنه أبو بكر، وابنه عبد الرحمن بن أبي بكر، وابن عبد الرحمن أبو عتيق، كلهم أدركوا النبي ـ ﷺ ـ ولم يكن ذلك لأحد من الصحابة[٩].

قوله: «وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي» أصلح يتعدى بنفسه لقوله: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ [الأنبياء: ٩٠] وإنَّمَا تعدى بـ «في» لتضمنه معنى: الطف بي في ذريتي[١٠] أو لأنه جعل الذرية طرفاً للاصلاح[١١] كقوله:

٤٤٥٢ ـ يَخْرُجُ فِي عَرَاقِيهَا نَصْلِي[١٢]

والمعنى هب لي الصلاح في ذريتي، وأوقعه فيهم.

قوله: «إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ» والمراد أن الدعاء لا يصح إلا مع التوبة، ومع كونه من المسلمين[١٣].

قوله: «أولئك الذين نتقبل عنهم» قرأ الأَخَوانِ وحَفْصٌ: نَتَقَبَّلُ بفتح النون مبنياً للفاعل ونصب «أحسن» على المفعول به، وكذلك «نَتَجَاوَزُ» والباقون بنيابتهما للمفعول،

---

(١) زيادة من «أ» والرازي.
(٢) الرازي السابق.
(٣) زيادة من أ.
(٤) الرازي السابق.
(٥) صحاح الجوهري وزع.
(٦) زيادة من أ.
(٧) القرطبي ١٦/ ١٩٥.
(٨) ولا والد ولا والدة كما قال ابن عباس انظر القرطبي المرجع السابق.
(٩) القرطبي السابق.
(١٠) قاله أبو حيان في البحر ٨/ ٦١.
(١١) قاله الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٢١.
(١٢) بحثت كثيراً في هذا الشِّعْر فلم أهتَدِ إليه، من حيثُ النسبة ومن حيث الصَّدْر والعَجُز، وشاهدهُ في ظرفية في.
(١٣) قاله الرازي في تفسيره ٢٨/ ٢١.

ورفع «أحْسَن» لقيامه مقام الفاعل، ومكان النون ياء مضمومة في الفعلين[١]. والحَسَنُ والأَعْمَشُ وعِيسَى بالياء من تحت، والفاعل الله تعالى[٢].

(فصل)

ومعنى أولئك أي أهل هذا القول الذي تقدَّم ذكره، فمن يدعو بهذا الدعاء نتقبل عنهم، والتقبل من الله هو إيجاب الثواب له على عمله. وقوله: «أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا» يعني أعمالهم الصالحة التي عملوها في الدنيا وكلها حسن.

فإن قيل: كيف قال: «أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا» والله يَتَقَبَّل الأحْسَنَ وَمَا دُونَه؟!

فالجواب من وجهين:

الأول: المراد بالأحسن الحسن، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٥] وكقولهم: النَّاقِصُ والأشجُّ أعدلا بني مروان أي عادلا بني مروان.

الثاني: أنّ الحسن من الأعمال هو المباح الذي لا يتعلق به ثواب، ولا عقاب، والأحسن ما يغاير ذلك وهو المندوب أو الواجب[٣].

وقوله: «وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ» فلا يعاقبهم عليها.

قوله: «في أصحاب الجنة» فيه أوجه:

أظهرها: أنه في محل الحال أي كائنين في جملة أصحاب الجنة كقولك: «أَكْرَمَنِي الأَمِيرُ في أصحابِهِ» أي في جُمْلَتِهِم[٤].

والثاني: أن «في» معناها «مَعَ»[٥].

الثالث: أنها خبر ابتداء مضمر أي هُمْ في أصحاب الجنَّة[٦].

قوله: «وَعْدَ الصِّدْقِ» مصدر مؤكد لمضمون الجملة السابقة لأن قوله: «أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتقبَّلُ عَنهُمْ» في معنى الوعد، فيكون قوله: «نَتَقَبَّلُ وَنَتَجَاوَزُ» وعداً من الله بالتقبل والتجاوز[٧] والمعنى (أنه[٨]) يعامل من صفته ما قدمناه بهذا الجزاء، وذلك وعد من الله، فبين أنه صدق لا شك فيه[٩].

---

(١) قراءة متواترة ذكرها صاحب السبعة ٥٩٧ والقارئون بالياء هم ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر، وانظر الكشف لمكي أيضاً ٢/ ٢٧٢.

(٢) قراءة شاذة ذكرها بدون نسبة الكشاف ٣/ ٥٢١ وابن خالويه في الشواذ ١٣٩ والبحر المحيط ٨/ ٦١.

(٣) وهو ما قال به الرازي في تفسيره ٢٨/ ٢١ و ٢٢.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٦١ والكشاف ٣/ ٥٢٣.

(٥) البحر المحيط ٨/ ٦١.

(٦) قاله أبو البقاء في التبيان ١١٥٦.

(٧) قاله الرازي وأبو حيان في تفسيريهما الأول في التفسير الكبير ٢٨/ ٢٢ والثاني في البحر المحيط ٨/ ٦١.

(٨) زيادة للسياق.

(٩) الرازي السابق.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿والَّذي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا﴾ لما وصف الولد البارَّ بوالديه، وصف الولد العاقَّ بوالديه ههنا. واعلم أنه قد تقدم الكلام على أفٍّ[١]. و «لكما» بيان أي التأفيف لكما نحو: «هَيْتَ لَكَ» وهي كلمة كَرَاهِية. «أَتَعِدَانِني أَنْ أُخْرَجَ» من قبري حياً «وَقَدْ خَلَت القُرُونُ مِنْ قَبْلِي» ولم يبعث منهم أحد. قال ابن عباس، والسدي، ومجاهد: نزلت في عبد الله. وقيل: في عبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه كان أبواه يدعوانه إلى الإسلام، وهو يأبى، وهو قوله: أُفٍّ لكما أَحْيوا لي عَبْدَ الله بن جُدْعَان، وعامرَ بن كعب ومشايخ قريش حتى أسألهم عما تقولون. واحتجوا بهذا القول بأنه (لما[٢]) كاتب معاوية إلى ابن مروان بأن يبايع الناس ليزيد قال عبد الرحمن بن أبي بكر: لقد جئتم شيئاً نُكراً[٣] أتبايعون أبناءكم فقال (مروان) يا أيها الناس هو الذي قال الله فيه: «والَّذي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما» والصحيح أنها نزلت في كل كافر عاقٍّ لوالديه. قاله الحسن وقتادة[٤]. قال الزجاج: قول من قال: إنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه يبطله قوله: «أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ القَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ» فأعلم الله تعالى أن هؤلاء قد حقت عليهم كلمة العذاب، وعبد الرحمن مؤمن من أفاضل المؤمنين[٥]، فلا يكون ممّن حقَّت عليهم كلمة العذاب. قال ابن الخطيب: وهذا القول هو الصحيح فإن قالوا: روى أنه لما دعاه أبواه إلى الإسلام، وأخبراه بالبعث بعد الموت قال: أَتَعِدَانني أَنْ أُخْرَجَ من القبر يعني أبعث[٦] بعد الموت «وَقَدْ خلت القرون من قبلي» يعني الأمم الخالية، فلم يرجعوا منهم عبد الله بن جدعان، وفلان وفلان. فنقول: قوله: أولئك الذي حق عليهم القول المراد هؤلاء الذين ذكرهم عبد الرحمن من المشركين الذين ماتوا قبله هم الذين حق عليهم القول فالضمير عائد إلى المُشارِ إليهم بقوله: «وَقَدْ خَلَت القُرُون مِنْ قَبْلِي» لا

---

(١) من قوله: «فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أفٍّ ولا تَنْهَرْهُمَا» من الآية ٢٣ من الإسراء.

(٢) سقط من ب.

(٣) في الرازي: هرقلية وكذا هي في القرطبي ١٦/ ١٩٧ وأراد أن البيعة لأولاد الملوك سنة ملوك الروم، وهرقل: اسم ملك الروم.

(٤) وانظر الرازي ٢٨/ ٢٣ والقرطبي المرجع السابق.

(٥) معاني القرآن وإعرابه ٤/ ٤٤٣ و ٤٤٤.

(٦) في ب البعث.

إلى المشار إليه بقوله: «والذي قال لوالديه أف لكما». هذا جواب الكلبي في دَفْعِ ذلك الدليل، وهو حسن. وأيضاً روي أن مَرْوَان لما خاطب عبد الرحمن بن أبي بكر بذلك الكلام سمعت عائشة ـ رضي الله عنها ـ ذلك فغضبت وقالت: والله ما هُوَ به، ولكن الله كفَّر(١) أباك وأنت في صلبه. وإذا ثبت ذلك كان المراد كُلّ ولد اتصف بالصفات المذكورة. ولا حاجة إلى تخصيص اللفظ المطلق بشخص معين(٢).

قوله: «أَتَعِدَانَنِي» العامة على نوني مكسورتين، الأولى للرفع(٣) والثانية للوقاية وهشام بالإدغام(٤) ونافع في رواية بنون واحدة(٥). وهذه شبيهة بقوله: «تَأْمُرُونِّي أَعْبُد». وقرأ الحسن وشيبة وأبو جعفر وعبد الوارث عن أبي عمرو بفتح النون الأولى(٦)، كأنهم فروا من توالي مثلين مكسورين(٧) بعدهما ياء. وقال أبو البقاء: وهي لغة شاذة في فتح نون(٨) الاثنين. قال شهاب الدين: إن عنى نون الاثنين في الأسماء نحو قوله:

٤٤٥٣ ـ عَلَى أَحْوَذِيَّيْنَ اسْتَقَلَّتْ.... ....(٩)

فليس هذا منه، وإن عنى في الفعل فلم يثبت ذلك لُغَةً، وإنما الفتح هنا لما ذكرت.

قوله: «أَنْ أُخْرَجَ» هو الموعود(١٠) به، فيجوز أن نقدر الباء قبل «أن» وأن لا نقدِّرَهَا(١١).

---

(١) في الرازي: لَعَنَ. (٢) بالمعنى من الرازي ٢٨/ ٢٣.

(٣) وهي نون الأفعال الخمسة وهي حرف لا محل له من الإعراب.

(٤) قراءة شاذة نسبها ابن خالويه في المختصر ١٣٩ إلى الحسن وابن عامر في رواية هشام ولم تثبت في المتواتر عن ابن عامر، وهي من الأربع فوق العشر انظر الإتحاف ٣٩٢.

(٥) كذا قال أبو حيان في البحر ٨/ ٦٢.

(٦) شاذة غير متواترة انظر ابن خالويه والبحر السابقين.

(٧) في ب مَكْسُورَتَيْن.

(٨) التِّبيان ١١٥٦ قال: «وحسنت هنا شيئاً لكثرة الكسرات.

(٩) بعض بيت من الطويل وهو بتمامه:

.... عَشِيَّةً فَمَا هِيَ إلاَّ لَمْحَةٌ وَتَغِيبُ

وهو لحميد بن ثور، والأَحوذي بفتح الهمزة وسكون الحاء المهملة وفتح الواو وكسر الذال وتشديد الياء الخفيف في المشي وهو هنا يصف جَنَاحَي قطاة يصفهما لخفتهما. واستقل الطائر ارتفع في الهواء، والعشية إما عشية ماء، أو عشية معينة. والشاهد: فتح نون التثنية والقياس كسرها وهي لغة بني أسدٍ. وليس بضرورة. وانظر الأشموني ١/ ٩٠، وابن يعيش ٤/ ١٣١ والتّصريح ١/ ٧٨.

(١٠) في ب الموجود تحريف.

(١١) بالمعنى من التبيان ١١٥٧.

قوله: «وَقَدْ خَلَتْ» جملة حالية، وكذلك «وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ» أي يَسْأَلاَنِ الله[(١)]، واستغاث يتعدى بنفسه تارة، وبالباء أخرى، وإن كان ابن مالك زعم أنه متعدٍّ بنفسه، وعابَ قولَ النحاة: مُسْتَغَاثٌ بِهِ[(٢)] قال شهاب الدين: لكنه لم يرد في القرآن إلا متعدياً بنفسه، (كقوله): ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٩] ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِى مِن شِيعَتِهِ﴾ [القصص: ١٥] ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ﴾ [الكهف: ٢٩]. قال ابن الخطيب: معناه يستغيثان الله من كفره وإنكاره، فلما حذف الجار وصل للفعل، ويجوز أن يقال: حذف الباء، لأنه أريد بالاستغاثة الدعاء، فحذف الجار، لأنَّ الدعاء لا يَقْتَضِيهِ[(٣)].

قوله: «وَيْلَكَ» منصوب على المصدر[(٤)] بفعل ملاق له في المعنى دون الاشتقاق، ومثله: وَيْحَهُ[(٥)] ووَيْسَهُ[(٦)]، وَوَيْتَهُ[(٧)]. وإما على المفعول به بتقدير أَلْزَمَكَ اللَّهُ وَيْلَكَ[(٨)]، وعلى كلا التقديرين الجملة معمولة لقول مضمر، أي يَقُولاَنِ وَيْلَكَ آمِنْ، (والقول في[(٩)] محل نصب على الحال أي يستغيثان الله قَائِلِينَ ذلك، والمعنى يقولان له ويلَكَ آمنْ) وصدِّقْ بالبَعْثِ، وهو دعاء عليه بالثُّبُورِ والمراد الحث والتحريض على الإيمان لا حقيقه الهَلاَكِ[(١٠)].

قوله: «إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ» قرأ العامة بكسر إنّ، استئنافاً، أو تعليلاً، وقرأ عمرو بْنُ[(١١)] فَائِدٍ والأعرجُ بفتحها على أنها معمولة «لآمِنْ» على حذف الباء أي آمن بأن وعد الله حق بالبعث[(١٢)] «فَيَقُولُ» لهما «مَا هَذَا إلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ».

قوله: «أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ» أي وجب عليهم العذاب «فِي أُمَمٍ» أي مع أمم. وقد تقدم «قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ والإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ».

قوله: «وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا» قال ابن عباس ـ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[(١٣)] ـ) يريد

---

(١) السابق. (٢) البحر المحيط ٨/ ٦٢.
(٣) انظر الرازي ٢٨/ ٢٤ بالمعنى.
(٤) قاله النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٦٦ وذكره أيضاً العكبري في التبيان ١١٥٧.
(٥) الويح كلمة تقال ـ رحمة ـ وكذلك هي كلمة ترحم وتوجع وقد يقال بمعنى المدح والعجب وهي منصوبة على المصدر، وقد ترفع وتضاف ولا تضاف، وقيل هي بمعنى الويل (اللسان ويح ٤٩٣٧).
(٦) وهي كلمة في موضع رأفة واستملاح كقولك للصبي: ويسه ما أَصْلَحَهُ والويح والويسُ بمنزلة الويل في المعنى. ووَيسٌ له أي ويل وقيل: ويس تصغير وتحقير (اللسان المرجع السابق ٤٩٣٨ وَيَسَ).
(٧) لم أهتد لتلك الكلمة ولعل التاء إبدال من الحاء أو السِّين.
(٨) التبيان المرجع السابق.
(٩) ما بين القوسين كله سقط من ب بسبب انتقال النظر.
(١٠) قاله الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٢٢. (١١) سبقت ترجمته.
(١٢) قراءة شاذة ذكرها صاحب الكشاف ٣/ ٥٢٢ و ٥٢٣ والبحر المحيط ٨/ ٦٢.
(١٣) زيادة من أ.

من سبق إلى الإسلام فهو أفضل ممَّنْ تخلف عنه ولو ساعةً. وقال مقاتل: ولكل واحدٍ من الفريقين يعني البارَّ بوالديه والعاقّ لهما «دَرَجَاتٌ» في الإيمان والكفر والطاعة والمعْصِيَةِ[١].

فإن قيل: كيف يجوز إطلاق لفظ الدرجات في أهل النار، وقد روي: الجَنَّةُ دَرَجَاتٌ والنَّار دركات؟

فالجواب من وجوه:

أحدها: أن ذلك على جهة التغليب.

وثانيها: قال ابن زيد: دَرَجُ أهل الجنة تذهب عُلُوًّا، ودَرَجُ أهلِ النار تذهب هُبُوطاً.

الثالث: المراد بالدرجات المراتب المتزايدة، فدرجات أهل الجنة في الخيرات والطاعات ودرجات أهل النار في المعاصي والسيئات[٢].

قوله: «وَلِيُوَفِّيَهُمْ» معلَّلة بمحذوف تقديره جَاؤُوهُمْ بذلك. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم وهشام بالياء من تحت وباقي السبعة بالنون[٣]. والسُّلَميّ بالتاء[٤] من فوق: أسند التَّوفيَةَ للدرجات مجازاً. قوله: «وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ» إما استئناف وإما حال مؤكِّدة.

قــولــه تــعــالــى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾

قوله: «وَيَوْمَ يُعْرَضُ» اليوم منصوب بقول مضمر، أي يقال لهم: أَذْهَبْتُمْ في يوم عرضهم[٥]. وجعل الزمخشري هذا مثل قولهم: «عُرِضَت النَّاقَةُ عَلَى الْحَوْضِ» فيكون قلباً[٦]. وردهُ أبو حيان بأنه ضرورة وأيضاً العرض أمر نسبي فتصح نسبته إلى الناقة، وإلى

---

(١) الرازي ٢٨/ ٢٤ والقرطبي ١٦/ ١٩٨. (٢) الرازي ٢٨/ ٢٤.

(٣) قراءة متواترة ذكرها صاحب الإتحاف ٣٩٢، والسبعة ٥٩٨ وباقي السبعة هم نافع وابن عامر وحمزة والكسائي.

(٤) نسبها ابن خالويه في المختصر إلى علي بن أبي طالب وعبد الرحمن بن أبي بكر وهي شاذة وإن كانت جائزة لغة، ونسبها المؤلف كنسبة أبي حيان في البحر ٨/ ٦٢ بينما أوردها الكشاف قراءة دون عزو الكشاف ٣/ ٥٢٣، وقد أشار وقرر بأن هذه الجملة معللة لمحذوف كما تكلم المؤلف أعلى.

(٥) ذكره أبو البقاء في التبيان ١١٥٧. (٦) الكشاف ٣/ ٥٢٣.

الحوض[(١)]. وقد تقدم الكلام في القلب[(٢)] وأنَّ فيه ثلاثة مذاهب.

قوله: «أَذْهَبْتُمْ» قرأ ابن كثير: أَأَذْهَبْتُمْ بهمزتين الأولى مخففة والثانية مُسَهَّلة بَيْنَ بَيْنَ ولم يُدخل بينهما ألفاً. وهذا على قاعدته في: «أأنذرتهم» ونحوه[(٣)]. وابن عامر قرأ أيضاً بهمزتين، لكن اختلف راوياه عنه: فهشام سهل الثانية وخففها، وأدخل ألفاً في الوجهين، وليس على أصله فإنه من أهل التحقيق[(٤)]. وابن ذكوان بالتحقيق فقط[(٥)]، دون إدخال ألف، والباقون بهمزة واحدة فيكون إما خبراً وإما استفهاماً سقطت أداته للدلالة عليها[(٦)]. والاستفهام معناه التقريع وكلتا القراءتين فصيحتان لأن العرب تَسْتَفْهِمُ وتترك الاستفهام فتقول: أذَهَبْتَ[(٧)] فَفَعَلْتَ كَذَا؟[(٨)] وذَهَبت فَفَعَلْتَ كَذَا؟.

قوله: «فِي حَيَاتِكُمْ» يجوز تعلقه «بأَذْهَبْتُمْ» ويجوز تعلقه بمحذوف على أنه حال من «طَيِّبَاتِكُمْ».

فصل

قيل: المعنى يعرض الذين كفروا على (النار)[(٩)] أي يَدْخُلُون النار. وقيل: تدخل عليهم النارُ ليروا أهوالها، ويقال لهم: أَذْهَبْتُمْ طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمعتم بها، والمعنى أن ما قدر لكم من الطيبات والدَّرَجَات[(١٠)] فقد استوفيتموه في الدنيا، فلم يبق لكم بعد استيفاء حظكم شيء منها. وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ: لَوْ شِئْتُ لَكُنْتُ أَطْيَبَكُمْ طَعَاماً وأَحْسَنَكُمْ لِبَاساً، ولكنّي أَسْتَبْقِي طَيِّباتِي. قال الواحدي: إن الصالحين يؤثرون

---

(١) قال: «ولا ينبغي حمل القرآن على القلب، إذ الصحيح في القلب أنه مما يضطر إليه في الشّعر، وإذا كان المعنى صحيحاً واضحاً مع عدم القلب فأيّ ضرورة تدعو إليه؟ وليس في قولهم: عرضت الناقة على الحوض، ولا في تفسير ابن عباس ما يدل على القلب، لأن عرض الناقة على الحوض وعرض الحوض على الناقة كل منهما صحيح... إلخ» البحر ٨/ ٧٣.

(٢) أفرد له السيوطي في المزهر باباً باسمه وذكر آراء كثيرين كابن فارس وابن السكيت وابن الأعرابي وأبي عبيد وأبي عبيدة وابن دريد والأصمعي والنحاس وثعلب والجوهري وغيرهم وبين أنه يقع في الكلمة وفي الجملة ولم يذكر أمثله للجملة وبين أنه لم يقع في القرآن وأن من الذين أنكروه ابن درستويه. انظر المزهر ١/ ٤٧٦.

(٣) هذه قراءة متواترة ذكرت في الإتحاف ٣٩٢ وفي السبعة ٥٩٨ وفي الكشف لمكي ٢/ ٢٧٢.

(٤) المراجع السابقة.

(٥) الإتحاف المرجع السابق، ولكن بلا فصل. وانظر في كل هذه القراءات البحر المحيط ٨/ ٦٣ وقراءة ابن ذكوان من القراءة المتواترة أيضاً.

(٦) وانظر كل هذا في الكشف للإمام مكي ٢/ ٢٧٢ و ٢٧٣.

(٧) بدون استفهام فالهمزة همزة أفعل كأكرم وأعتق فهو فعل رباعي.

(٨) دون استفهام أيضاً ولكنه تلك المرة بفعل لثلاثي وهو «ذَهَبَ».

(٩) زيادة لا بد منها على النسختين.

(١٠) في الرازي: والراحات.

التقشف والزهد في الدنيا رجاء أن يكون ثوابهم في الآخرة أكمل، لأن هذه الآية لا تدل على المنع من التمتع، لأن هذه الآية وردت في حق الكافر، وإنما وبخ الله الكافر، لأنه تمتع بالدنيا ولم يؤد شكر المنعم بطاعته، والإيمان به، وأما المؤمن فإنه يؤدي بإيمانه شكر المنعم، فلا يوبّخ بتمتعه، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ﴾ [الأعراف: ٣٢] نعم لا يُنْكَر أنَّ الاحتراز عن التنعم أولى؛ لأن النفس إذا اعتادت التنعم صعب عليها الاحتراز والانقياد[١] وحينئذ ربّما حمله المَيْلُ إلى تلك الطيبات على فعل ما لا يَنْبَغِي[٢]. روى عمر ـ (رضي الله عنه)[٣] ـ قال: دخلت على رسول الله ـ ﷺ ـ فإذا هو على زُمّالٍ[٤] حَصِيرٍ قد أثر الزّمّال بجنبه فقلت يا رسول الله: ادع الله أن يُوسِّعَ على أمتك، فإنَّ فارساً والرومَ قد وسع عليهم وهم يعبدون غير الله فقال: أولَئِكَ قوم قد عُجِّلَتْ لهم طيباتهم في الحياة الدنيا. وروت عائشة ـ (رضي الله عنها) ـ قالت: ما شبع آل محمد ـ ﷺ ـ من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قُبضَ رسول الله ـ ﷺ ـ وعنها قالت: لقد كان يأتي علينا الشَّهْرُ ما نُوقِدُ فيه ناراً ما هو إلا الماء والتمر. وعن ابن عباس ـ (رضي الله عنهما) ـ قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ يَبِيتُ الليالي المتتابعةَ طاوياً وأهلُه لا يجدون شيئاً، وكان أكثر خبزهم خبزَ الشعير، والأحاديث فيه كثيرة[٥].

قوله: «فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عذاب الهون» أي العذاب الذي فيه ذُلّ وخِزْي. وقرىء: عَذَاب الهَوَانِ[٦] «بما كنتم تستكبرون في الأرْضِ بغير الحق وبما كنتم تَفْسُقُونَ» فعلّل تعالى ذلك العذاب بأمرين:

أحدهما: الاستكبار والترفع وهو ذنب القلب.

والثاني: الفِسق، وهو ذَنْب الجوارح وقدم الأول على الثاني، لأن أحوال القلب أعظم وقعاً من أعمال الجوارح، ويمكن أن يكون المراد من الاستكبار أنهم يتكبرون عن قبول الدين الحق، ويستكبرون عن الإيمان بمحمد ـ ﷺ ـ والمراد بالفسق المعاصي.

فصل

دلت الآية على أن الكفار يخاطبون بفروع الإسلام، لأن الله تعالى علل عذابهم بأمرين:

---

(١) كذا في النسختين وفي الرازي: الانقياص.
(٢) وانظر الرازي ٢٨/ ٢٥.
(٣) ما بين الأقواس كله سقط من ب.
(٤) الزمال هو الضعيف انظر اللسان زمل ١٨٦٤ وهي من إضافة الصفة إلى الموصوف.
(٥) وانظر في هذا بروايات مختلفة القرطبي ١٦/ ٢٠٠ و ٢٠١.
(٦) شاذة غير متواترة انظر الكشاف ٣/ ٥٢٣ والبحر ٨/ ٦٣.

أولهما: الكفر، **وثانيهما**: الفسق وهذا الفِسق لا بدّ وأن يكون مغايراً لذلك الكفر لأن العَطْفَ يوجب المغايرة فثبت أن فسق الكافر يوجب العذاب في حقهم، ولا معنى للفسق إلا ترك المأمورات وفعل المنهيّات[١].

قوله تعالى: ﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**واذْكُرْ أَخا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ**...﴾ الآية لما ذكر دلائل النبوة والتوحيد وكان أهل مكة بسبب استغراقهم في لذات الدنيا أعرضوا عنها ولم يلتفتوا إليها لهذا[٢] السبب قال تعالى في حقهم: ﴿**وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُم الدُّنْيَا**﴾ فلما كان الأمر كذلك بين أن قوم عاد كانوا أكثر أموالاً وقوةً وجاهاً، ثم إن الله تعالى سلَّط عليهم العذاب بكفرهم وذكر قصتهم ليعتبر بها أهل مكة فيتركوا الاغترار بما وجدوه في الدنيا ويقبلوا على طلب الدين الحق[٣] فقال: «وَاذْكُرْ يا محمد لقومك أَخَا عَادٍ» أي هوداً ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

قوله: «إِذْ أَنْذَرَ» بدل من «أخا» بدل اشتمال وتقدم تحقيقه. وقوله «بالأَحْقَافِ» هي جمع حِقْفٍ وهو الرمل المستطيل المعوجُ[٤] ومنه احْقَوْقَفَ[٥] الهِلاَلُ، قال امرؤ القيس:

٤٤٥٤ ـ فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الحَيِّ وَانْتَحَى ... بِنَا بَطْنُ حِقْفٍ ذِي حِقَافٍ عَقَنْقَلِ[٦]

(١) الرازي ٢٨/ ٢٥.
(٢) في ب. فلذلك السبب.
(٣) الرازي السابق ٢٦/ ٢٧.
(٤) مجاز القرآن ٢/ ٢١٣ وغريب القرآن ٤٠٧.
(٥) اللسان وفيه معان أخرى اللسان حقف (٩٣٩).
(٦) من الطويل له وشاهده في: حقف حيث المعنى على ما ذكر وأجزنا قطعنا والساحة تجمع على الساحات والسّاح والسُوح الجُبَيْل الصغير، والحَيُّ القبيلة، والانتحاء والتَّنَحّي والنَّحْو: الاعتماد على شيء والبطن مكان مطمئن حوله أماكن مرتفعة. والحقفُ رملٌ مشرفُ معوج وهو محل الشاهد. =

قال ابن عباس ـ (رضي الله عنهما)[١] ـ وادٍ بين عمان ومَهْرة. وقال مقاتل: كانت منازل عاد باليمن في حضرموت، بموضع يقال له: مَهْرَةَ إليها تنسب الإبل المَهْرِيَّة، وكانوا أهل عُمُد سيارة في الربيع فإذا هاج العُود رَجَعُوا إلى منازلهم وكانوا من قبيلة إرَم، وقال قتادة: ذكر لنا أن عاداً كانوا حياً من اليمن كانوا أهل رمل مشرفين على البحر، بأرض يقال لها الشِّحْر[٢].

قوله: «وَقَدْ خَلَتْ» يجوز أن يكون حالاً من الفاعل، أو من المفعول والرابط الواو، والنُّذُر جمع نَذِيرٍ ويجوز أن يكون معترضة بين «أَنْذَرَ» وبين «أَنْ لا تَعْبُدُوا»[٣] أي أنذرهم بأن لا. وقوله: «مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ومن خلفه» أي مضت الرسل من قبل هود ومن خلفه أي بعده. (والمعنى[٤] أعلمهم أن الرسل الذين بعثوا قبله والذين يبعثون) بعده كلهم منذرون نحو إنذاره.

فصل

قال المفسرون: إن هُوداً ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان قد أنذرهم وقال: أن لا تعبدوا إلا الله إنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم العذاب قالوا جئتنا لتأفكنا «أي لتصرفنا»[٥] عَنْ آلِهَتِنَا أي عن عِبَادَتِهَا، والإفْكُ الصَّرْفُ، يقالُ: أَفِكَهُ عَنْ رَأيِهِ إذا صَرَفَهُ عنه. وقيل: المراد لتلفتنا بالكذب[٦]. «فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا» من معاجلة العذاب على الكفر «إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» في وعدك أن العذاب نازل بنا قال هود: إنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وهو يعلم متى يأتيكم العذاب «وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ» من الوحي والتحذير من العذاب، فأما العلم بوقته فما أوحاه إليَّ «وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ» وهذا يحتمل أن المراد أنكم لا تعلمون أن الرسل لم يبعثوا مقترحين ولا سائلين عن غير ما أُذِنَ لهم فيه وإنما بعثوا مبلغين. ويحتمل أن يكون المراد قوماً تجهلون من حيث إنكم بَقِيتُم مُصرِّين على كفركم وجهلكم فيغلب على ظني أنه قرب الوقت الذي ينزل عليكم العذاب بسبب هذا الجهل المفرط والوقاحة التامة. ويحتمل أن يكون المراد قوماً تجهلون حيث تُصِرُّونَ على طلب العذاب وهب أنه لم يظهر لكم كوني صادقاً ولكن لم يظهر لكم أيضاً كوني كاذباً، فالإقدام على الطلب الشديد لهذا العذاب جهل عظيم[٧].

= ويروى: قِفَاف بدل حِقاف وهي جمع قُفّ وهو ما غلُظ من الأرض ولم يبلغ جبلاً. والعقنقل: الرمل المنعقد المتلبد. وانظر البيت في شرح الزوزني للمعلقات ١٩ و ٢٠ وأدب الكاتب ٢٧٣ والبحر ٨/ ٥٣ والإنصاف ٤٥٧، والمنصف ٣/ ٤١.

(١) زيادة من أ.

(٢) انظر هذه المعاني في الكشاف ٣/ ٥٢٣ والقرطبي ١٦/ ٢٠٣، ٢٠٤.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٦٤.

(٤) ما بين القوسين سقط من ب بسبب انتقال النظر.

(٥) قاله ابن قتيبة في غريب القرآن ٤٠٥ وأبو عبيدة في المجاز ٢/ ٢١٣.

(٦) الرازي ٢٨/ ٢٧.

(٧) المرجع السابق.

قوله: «فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً» في «هاء»[١] «رَأَوْهُ» قولان:

أحدهما: أنه عائد على «ما» في قوله «ما تَعِدُنا».

الثاني: أنه ضمير مبهم يفسره «عَارِضاً» إما تمييزاً، أو حالاً. قالهما الزمخشري[٢].

وردَّه أبو حيان بأن التمييز المفسِّر للضمير محصورٌ في باب رُبَّ[٣]، وفي نِعْمَ وبِئْسَ[٤]، وبأنَّ الحالَ لم يُعْهَد فيها أن توضع الضمير قبلها، وأن النَّحويِّين لا يعرفون ذلك[٥]. وذكر المبرد في الضمير ههنا قولين:

الأول: ما تقدم. **والثاني**: أنه يعود إلى غير مذكور وبينه قوله: «عارضاً» كقوله: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]. ولم يذكر الأرض لكونها معلومة فكذا الضمير ههنا، عائد إلى السحاب، كأنه قيل: فلما رأَوا السَّحَابَ عارِضاً[٦]. وهذا اختيار الزجاج[٧]. ويكون من باب الإضمار لا على شريطة التفسير[٨].

والعارض السحابة التي ترى في ناحية السماء ثم تطبّق[٩] السماء. قال أهل اللغة: العَارِضُ المُعْتَرِضُ من السَّحَاب[١٠] في الجوِّ، قال:

٤٤٥٥ ـ يَا مَنْ رَأَى عَارِضاً أَرِقْتُ لَهُ ... بَيْنَ ذِرَاعَيْ وَجَبْهَةِ الأَسَدِ[١١]

قوله: «مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ» صفة لـ «عَارِضاً»، وإضافة غير محضة[١٢] فمن ثَمَّ سَاغَ

---

(١) في ب «ما» بدل «ها» وهو لحنَ بيِّن.

(٢) في الكشاف ٣/ ٥٢٤ وقد رجّح الثاني من الوجهين قائلاً: «وهذا الوجه أعرب وأفصح».

(٣) كرُبَّ رجَلاً.

(٤) مثل: نعْمَ تلميذاً في المدرسةِ زَيْدٌ.

(٥) وهذا بالمعنى من البحر المحيط ٨/ ٦٤ فقد قال: «وهذا الذي ذكره أي الزمخشري أنه أعْرَبُ وأفصح ليس جارياً على ما ذكر النحاة، لأن المبهم الذي يفسره ويوضحه التمييز لا يكون إلا في باب رب، نحو رُبَّ رجلاً لَقِيتُهُ وفي باب نعم وبئس على مذهب البصريين نحو: نِعْمَ رَجُلاً زيْداً، وبئسَ غلاماً عَمْرٌو؛ وأما أن الحالَ يوضح المُبهَم ويفسره فلا نعلم أحداً ذهب إليه وقد حصر النحاة المضمر الذي يفسره ما بعده فلم يذكر فيه مفعول رأى إذا كان ضميراً، ولا أنَّ الحال يفسر الضميرَ ويوضحه».

(٦) نقله عنه الإمام الفخر الرازي ٢٨/ ٢٧.

(٧) قال: «أي فلما رأوا السَّحَابَ الذي نشأت منه الريح التي عذبُوا بها قد عرضت في السماء». معاني القرآن وإعرابه ٤/ ٤٤٥.

(٨) الرازي السابق.

(٩) وهذا رأي أبي زيد فيما نقله عنه الرازي السابق.

(١٠) قال أبو عبيدة في المجاز ٢/ ٢١٣: «والعارض السحاب الذي يرى في قطر من أقطار السموات من العشي ثم يصبح وقد حبا ثم استوى» بينما أطلق اين قتيبة في غريب القرآن ٤٠٥ بأنه السَّحَابُ فقط.

(١١) سبق هذا البيت وأتى به شاهداً هنا على أن العارض هو السحاب المعترض.

(١٢) أي في تقدير الانفصال أي مستقبلاً أوديتهم.

أن يكون نعتاً[١] لنكرة وكذلك «مُمْطِرُنَا» وقع نعتاً «لِعَارِضٍ»[٢] ومثله:

٤٤٥٦ ـ يَا رُبَّ غَابِطِنَا لَوْ كَانَ يَطْلُبُكُمْ لاَقَى مُبَاعَدَةً مِنْكُمْ وَحِرْمَانَا[٣]

وقد تقدم أن أودية جمع وادٍ، وأن أفْعِلَةَ وردت جمعاً لفاعل في ألفاظ كَوَادٍ وأَوْدِيَةٍ ونَادٍ وأَنْدِيَةٍ، وحَائِزٍ[٤] وأَحْوِزَةٍ.

فصل

قال المفسرون: كانت عاد قد حبس عنهم المطر أياماً فساق الله إليهم سحابة سوداء فخرجت عليهم من وادٍ لهم يقال له: المغيث، فلما رأوها استبشروا وقالوا: هذا عارض ممطرنا فقال الله تعالى: ﴿**بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ**﴾ من العذاب. ثم بين ماهيته فقال: «رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ» ثم وصف تلك الريح فقال: «تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا» أي تهلك كل شيء من الحيوان والناس بأمر ربها. ومعناه أن هذا ليس من باب تأثيراتِ الكواكب والقِرانَات بل هو أمر حدث ابتداءً بقدرة الله تعالى لأجل تَعْذِيبكم[٥].

قوله: «بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ» قرىء: «ما اسْتُعْجِلْتُمْ» مبنياً للمفعول[٦]. وقوله: «رِيحٌ» يجوز أن يكون خبر مبتدأ مضمر أي هُوَ رِيحٌ، ويجوز أن يكون بدلاً من «هِيَ»[٧] و «فِيهَا عَذَابٌ» صفة لـ «رِيحٍ» وكذلك «تُدَمِّر»[٨]. وقرىء: يَدْمُر كل شيء، بالياء من تحت مفتوحة، وسكون الدال، وضمّ الميم بالرفع على الفاعلية، أي تهلك كل شيء[٩]. وزيد بن علي كذلك إلا أنه بالتاء من فوق ونصب كل[١٠] والفاعل ضمير الريح؛ وعلى هذا فيكون (دَمَرَ) الثلاثي لازماً ومتعدياً[١١].

---

(١) في ب صفة.
(٢) التبيان ١١٥٧.
(٣) من البسيط لجرير بديوانه ٤٩٢. والشاهد: رُبَّ غابِطِنا حيث إن الإضافة هنا في تقدير الانفصال فرُبَّ لا تدخل إلا على نكرات أي رب غابط لنا وقد تقدم.
(٤) كذا وردت في النسختين بحاء مهملة وفي البحر بجيم معجمة قال: «والجائز الخشبة الممتدة في أعلى السقف»، انظر البحر ٨/ ٦٤ وهذا الجمع شاذ، لأن قياس فَاعِلٍ الاسم «فَوَاعِلُ» أو فَوَاعِيلُ وفُعْلاَن وفِعلان والضم أكثر والصفة يجمع في الغالب على فُعْلان وقد يكسَّر على فِعَال وَفُعَّلٍ وفُعَّالٍ وفَعَلَةٍ وفُعُلٍ وفُعَلاَءَ ويجيء على فواعل إذا كان وصفاً لغير العقلاء»، بتصرفٍ من شرح الشافية ٢/ ١٥١ ـ ١٥٨.
(٥) الرازي ٢٨/ ٢٨.
(٦) شاذة ذكرها بدون نسبة أبو حيان في البحر ٨/ ٦٤.
(٧) في التبيان: من «ما».
(٨) التبيان ١١٥٧.
(٩) ذكرها أبو حيان في مرجعه السابق دون نسبة أيضاً وهي شاذة كما ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٢٤.
(١٠) البحر المحيط ٨/ ٦٤ وهي قراءة شاذة كسابقتها.
(١١) وحكمنا على هذا التَّعدِّي واللُّزوم من اختلاف القراءات تلك.

قوله: «فَأَصْبَحُوا لاَ يُرَى إلاَّ مَسَاكِنُهُمْ» قرأ حمزة وعاصم لا يُرَى بضم الياء من تحت مبْنيًّا للمفعول «مَسَاكِنُهُمْ» بالرفع لقيامه مقام الفاعل، والباقون من السبعة[١] بفتح تاء الخطاب مَسَاكِنَهُمْ بالنَّصب مفعولاً به. والجَحْدَرِيُّ والأعمشُ وابنُ أبي إسحاق والسُّلَمِيّ وأبو رجاء بضم التاء من فوق[٢] مبنياً للمفعول مَسَاكِنُهُمْ بالرفع لقيامه مقام الفاعل، إلا أن هذا عند الجمهور لا يجوز، أعني إذا كان الفاصل «إلا» فإنه يمتنع لحاق علامة التأنيث (في الفعل)[٣] إلاَّ في ضرورة[٤] كقوله ـ (رَحِمَهُ اللَّهُ) ـ:

٤٤٥٧ ـ كَأَنَّهُ جَمَلٌ وَهْمٌ وَمَا بَقِيَتْ إلاَّ النُّحَيزَةُ وَالأَلْوَاحُ والْعُصُبُ[٥]

وعيسى الهمداني: لا يُرَى بالياء من تحت مبنياً للمفعول مَسْكَنُهُمْ بالتوحيد[٦]. ونصرُ بنُ عاصم بتاء الخطاب مَسْكَنَهُمْ[٧] بالتوحيد أيضاً منصوباً. واجْتُزِىءَ بالوَاحِدِ عَن الْجَمْعِ.

فصل

روي أن الريح كانت تحمل الفُسْطَاطَ فَترْفَعُهَا في الجوِّ، وتحمل الظَّعِينَةَ حتى تُرَى كأنها جَرادَةٌ[٨] وقيل: إن أوّل من أبصر العذاب امرأة بينهم قالت: (رَأَيْتُ)[٩] ريحاً فيها كشُهب النار.

وروي أن أول ما عرفوا به أنه عذاب أليم أنهم رأوا ما كان في الصحراء من

(١) وهم ابن كثير ونافع وابن عامر وأبو عمرو والكسائي وهي متواترة انظر السبعة ٥٩٨ والإتحاف ٣٩٣ والكشف لمكي ٢/ ٢٧٤.

(٢) وهي شاذة ذكرها أبو الفتح بن جني في المحتسب ٢/ ٢٦٥ وانظر البحر ٨/ ٦٥ والكشاف ٣/ ٥٢٤.

(٣) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب.

(٤) قال أبو الفتح: «أمّا «ترى» بالتاء ورفع المساكن فضعيف في العربية والشعر أولى بجوازه من القرآن وذلك أنه من مواضع العموم في التذكير فكأنه في المعنى لا يرى شيء إلا مساكنهم وإذا كان المعنى هذا كان التذكير لإرادته هو الكلام». المحتسب ٢/ ٢٦٦.

(٥) كذا رواهُ المؤلف تبعاً للبحر المحيط لأبي حيان وفي اللسان: كأنها ـ أي الناقة ـ وهو من البسيط والوهم: أراد به الضّخم. والجَمَل والجُمَّل حبل السفينة. والنُّحَيْزَةُ من نَحَزَ البعيرُ إذا أصابه النُّحازُ وهو داء يصيب الإبل، ولوْح الجَسَد عظمةٌ يصفها صارت من الهزال بمنزلة الحَبْل فما بقي فيها شيء سوى النفس والعظم والعُصُب. والشاهد: تأنيث الفعل في «بقيت» رغم الفصل بإلا وتلك ضرورة شعرية وانظر البحر ٨/ ٦٥ واللسان «وهم» ٤٩٣٤ ومجمع البيان للطبرسي ٩/ ١٣٥ والديوان ٢/ ٤٣ تحقيق د. عبد القدوس أبو صالح ط مؤسسة الإيمان بيروت الطبعة الأولى.

(٦) قراءة شاذة ذكرها أبو حيان في البحر ٨/ ٦٥.

(٧) المحتسب ٢/ ٢٦٥ والبحر المرجع السابق.

(٨) الكشاف ٣/ ٥٢٤.

(٩) سقط من ب.

رجالهم[(١)] ومواشيهم تطير بهم الريح بين السماء والأرض، فدخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم فقلعت[(٢)] الريح الأبواب، وصَرَعَتْهُمْ وأمال الله تعالى عليهم الأَحْقَافَ فكانوا تحتها سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيَّامٍ، لَهُمْ أنينٌ، ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرِّمال واحتملتهم، فرَمَتْ بهم في البحر. وروي أن هوداً لما أحسَّ بالريح خط على نفسه وعلى المؤمنين خطًّا إلى جنب عين تنبعُ، وكانت الريح التي تصيبهم ريحاً طَيِّبَةً هادية، والريح التي تُصيبُ قوم عاد ترفعهم من الأرض وتطير بهم[(٣)] إلى السماء، وتضربهم على الأرض، وأثر المعجزةِ إنما ظهر في تلك الريح من هذا الوجه. قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ «مَا أَمَرَ اللَّهُ خَازِنَ الرِّيَاحِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَى عَادٍ إلاَّ مِثْلَ مِقْدَارِ الخَاتَم» وذَلِكَ القَدْرُ أَهْلَكَهُمْ بكُلِّيَّتِهِمْ وذلك إظهارُ قدرة الله تعالى. وعن النبي ـ ﷺ ـ أنه كان إذا رأى الريح فزع وقال: اللَّهم إنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّها وشَرِّ مَا أُرسِلَتْ به. قال تعالى: ﴿**كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ**﴾ والمقصود به تخويف كفار مكة فإن قيل: لما قال (تعالى)[(٤)]: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] فكيف يحصل التخويف؟

فالجواب: أن ذلك قبل نزول الآية[(٥)].

قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ**﴾ ما موصولة، أو موصوفة[(٦)]. وفي «إنْ» ثلاثة أوجه:

أحدها: شرطية، وجوابها محذوف والجملة الشرطية صلة ما، والتقدير: في الَّذي إنْ مَكَّنَّاكُمْ فيه طَغَيْتُمْ[(٧)].

والثاني: أنها مزيدة تشبيهاً للموصولة بما النافية والتوقيتية[(٨)]، وهو كقوله:

٤٤٥٨ ـ يُرَجِّي الْمَرْء مَا إنْ لاَ يَرَاهُ ... وَتَعْرِضُ دُونَ أَدْنَاهُ الخُطُوبُ[(٩)]

---

(١) في ب رحالهم بالحاء.

(٢) في ب فقفلت وفي الرازي: فَعَلَّقت وكلها معان متقاربة وممكنة.

(٣) في ب والرازي: نظيرُهُمْ.

(٤) زيادة من أ.

(٥) انظر الرازي ٢٨/ ٢٨ و ٢٩.

(٦) قاله العكبري في التبيان ١١٥٨.

(٧) نقله أبو حيان في البحر ٨/ ٦٥.

(٨) البيان ٢/ ٣٧٢ والتبيان السابق والبحر السابق أيضاً وذكره القرطبي في الجامع ١٦/ ٢٠٨ وابن قتيبة في الغريب ٤٠٨ وتأويل المشكل ١٩٦.

(٩) أنشده الأخفش ولم أجده في معاني القرآن له وهو من الوافر وهو لإياس بن الأرتّ، وشاهده: زيادة إنْ حيث إن المعنى لا يتأثر بدونها. وانظر القرطبي ١٦/ ٢٠٨ والبحر ٨/ ٦٥ والكشاف ٣/ ٥٢٥ وشرح شواهد ٤٥/ ٣٤٤ والإنصاف ٣/ ٥٢٥.

والثالث: ـ وهو الصحيح ـ أنها نافية بمعنى مكّناكم في الذي ما مكّناهم فيه من القوة والبَسْطَةِ وسَعَةِ الأرزاق[١]. ويدل له قوله في مواضع: ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [الروم: ٩] وأمثاله. وإنما عدل عن لفظ «ما» النافية إلى «إنْ» كراهية لاجتماع متماثلين لفظاً. قال الزمخشري: وقد أَغَثَّ[٢] أبو الطيب في قوله:

٤٤٥٩ ـ لَعَمْرُكَ ما ما بانَ مِنْكَ لَضَارِبٌ ....[٣]

وما ضره لو اقتدى بعذوبة لفظ التنزيل فقال: «مَا إنْ بان».

فصل

معنى الآية مكناهم فيما لم نمكنكم فيه من قوة الأبدان وطولِ العمر، وكَثْرةِ المال ثم إنهم مع زيادة القُوَّة ما نَجَوْا من عذاب الله تعالى فكيف يكون حالكم؟ ثم قال: «وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً» أي فتحنا عليهم أبواب النعم وأعطيناهم سمْعاً، فما استعملوه في سَمَاع الدلائل وأعطيناهم أبصاراً فما استعملوها في دلائل ملكوت السموات والأرض، وأعطيناهم أفئدة فما استعملوها في طلب معرفة الله تعالى بل صرفوا كل هذه القُوَى إلى طلب الدنيا ولذاتها فلا جَرَمَ ما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من عذاب الله تعالى[٤].

قوله: «فَمَا أَغْنَى» يجوز أن يكون «ما» نفياً وهو الظاهر. أو استفهاماً للتقرير[٥]. واستبعده أبو حيان لأجل قوله: «مِنْ شَيْءٍ» قال: إذ يصير التقدير أي شيء أغنى عنهم من

---

(١) وهو اختيار الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٢٥، وأبي حيان في البحر ٨/ ٦٥ وسبق إليه الفراء في المعاني ٣/ ٥٩ والزجاج أيضاً في معاني القرآن وإعرابه ٤/ ٤٤٦، واختار المبرد ـ فيما نقله عنه النحاس في الإعراب ـ أن تكون «إنْ» بمعنى النفي أيضاً انظر النحاس في إعرابه ٤/ ١٧٠.

(٢) أغثّ فلان في حديثه إذا جاء بكلام غث ولا معنى له وهو فعل لازم، انظر اللسان غثث ٣٢١٣.

(٣) هذا صدر بيت من الطويل للمتنبي من قصيدة يمدح بها طاهر بن الحُسَين العَلَوي وعجزهُ:

.... بـأَقْـتَـلَ مِـمَّـا بَـانَ مِـنْـكَ لَـعَـائِـبُ

ورواية الديوان: يرى أن مَا ما... البيت.

ولذلك علق ابن المنير على الزمخشري قائلاً بيت المتنبي ليس كما أنشده: لعمرك وإنما هو: يرى أن الخ... ولا يستقيم إلا كذلك لأن قبله، هو ابن رسول الله وابن صفيه وشبههما شبهت بعدُ التجارب. ومعنى البيت أن لسانه لا يتقاعد عن سنانه هذا للعائب، وهذا للمضارب وما الأولى نافية والثانية موصولة واسم أن محذوف تقديره يرى أنه ما الذي ظهر منك لضارب بأقتل من الذي بان منك لعائب أي لا يرى القتل أشد من العيب بل العيب عنده أشد من القتل. والشاهد تكرير لفظ «ما» حيث الثقل المشبع كما أوضح أعلى. وانظر الديوان ٢/ ٢٨٥ والكشاف ٣/ ٥٢٥ وشرح شواهده ٤/ ٣٤٣ والإنصاف على الكشاف ٣/ ٥٢٥.

(٤) الرازي ٢٨/ ٢٩.

(٥) ذكر هذين الوجهين ابن الأنباري في البيان ٢/ ٣٧٢ وأبو حيان في البحر ٨/ ٦٤.

شيء؟ فزاد «من» فِي الوَاجِبِ[١]، وهو لا يجوز على الصحيح[٢].

قال شهاب الدين: قالوا يجوز زيادتها في غير المُوجب. وفسروا غير الموجب بالنفي والنهي والاستفهام وهذا استفهام[٣].

قوله: «إذ كانوا» معمول لـ «أغْنى» وهِيَ مُشْربة معنى التعليل، أي لأنهم كانوا يجحدون فهو كقوله ضَرَبْتُهُ إذْ أَسَاءَ، أي ضربته لأنه أساء[٤]. وفي هذه الآية تخويف لأهل مكة. ثم قال: «وحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ» يعني أنهم كانوا يطلبون نزول العذاب على سبل الاسْتِهْزَاء.

قوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى﴾** يا كفار مكة كحِجْر ثَمُود وعاد باليمن وأرض سدوم ونحوها بالشام «وَصرفنَا الآيَاتِ» الحُجج بيناها لهم لعل أهل القرى يرجعون. قال الجبائي: قوله: «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» معناه لكي يرجعوا عن كفرهم وذلك يدل على أنه تعالى أراد رجوعهم ولم يرد إصرارهم وأجيب: بأنه فصل ما لو فعله غيره لكان ذلك لأجل الإرادة المذكورة وإنَّما ذهبنا إلى هذا التأويل للدلائل الدالة على أنه تعالى مريد لجميعِ الكائنات[٥].

قوله تعالى: **﴿وَلَوْلاَ نَصَرَهُم الَّذِينَ اتَّخذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَاناً آلِهَةً﴾** القُرْبَانُ ما تُقُرِّب به إلى الله. أي اتخذوها شفعاء وقالوا: هؤلاء شفعاؤنا عند الله[٦] ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

قوله: «قُرْبَاناً» فيه أربعة أوجه:

أظهرها: أن المفعول الأول لـ «اتَّخَذَ» محذوف، هو عائد المصر ـ «قُرْبَاناً» نصب على الحال، و «آلِهَةً» هو المفعول الثاني للاتِّخَاذ، والتقدير :هلاَّ نَصرَهُم الَّذِينَ اتَّخذُوهُمْ مُتقَرَّباً بهم آلهة[٧].

---

(١) في البحر: في الموجب. (٢) وانظر البحر ٨/ ٦٤.

(٣) الواقع أن ابن هشام ذكر في المغني ماهية ونوع الاستفهام وحدده بهل. وأخبرنا أن الكوفيين لا يشترطون نفياً أو نهياً أو استفهاماً مستدلين بقوله: «قَدْ كَانَ مِنْ مَطَر» ويقول عمر بن أبي ربيعة. . . فما قَالَ مِنْ كاشِحٍ لَمْ يَضُرْ. وخرج الكسائي على زيادتها: إنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاس عَذَاباً يوم القيامَة المصَوِّرونَ وممن جوز الزيادة في الإيجاب الفارسي قال في قوله: «ويُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ جبَالٍ فِيهَا مِنْ بردٍ»: يجوز كون من ومن الأخيرتين زائدتين وأوله المخالفون والمشترطون لشروط الزيادة. بتصرف من المغني ٣٢٥ و ٣٢٣.

(٤) بالمعنى من الكشاف ٣/ ٥٢٦. (٥) الرازي ٢٨/ ٢٩.

(٦) القرطبي ١٦/ ٢٠٩.

(٧) بالمعنى من الكشاف ٣/ ٥٢٦ وإلى هذا ذهب أبو حيان في البحر ٨/ ٦٦ وقد أخذه على ما أظن من الزمخشري الأسبق.

والثاني: أن المفعول الأول محذوف ـ كما تقدم ـ و «قُرْبَاناً» مفعولاً ثانياً و «آلهة» بدل منه[١]. وإليه نحا ابن عطية والحَوْفِيُّ[٢] وأبو البقاء[٣]، إلا أن الزمخشري منع هذه الوجه قال: «لفساد المعنى»[٤]. ولم يبين جهة الفساد. قال أبو حيان: ويظهر أن المعنى صحيح على ذلك الإعراب[٥]. قال شهاب الدين: ووجه الفساد ـ والله أعلم ـ أن القُرْبَانَ اسم لما تقرب به إلى الإله، فلو جعلناه مفعولاً ثانياً و «آلهةً» بدلاً منه لزم أن يكون الشيء المُتَقَرَّبُ به آلهةً والغرض أنه غيرُ آلهة. بل هو شيء يتقرب به إليها فهو غيرها فكيف تكون الآلهة بدلاً منه؟ وهذا مَا لاَ يَجُوزُ[٦].

الثالث: أن «قرباناً» مفعولٌ من أجله. وعزاه أبو حيان للحَوْفي[٧]. وإليه ذهب أبو البقاء أيضاً[٨]. وعلى هذا فـ «آلِهَةً» مفعولٌ ثان، والأول محذوف كما تقدم.

الرابع: أن يكون مصدراً. نقله مكي[٩]. ولولا أنه ذكر وجهاً ثانياً وهو المفعول من أجله لكان كلامه مؤولاً بأنه أراد بالمصدر المفعول من أجله لبُعْدِ معنى المصدر.

قوله: «بَلْ ضَلُّوا عَنهُمْ» قال مقاتل: بل ضلت الآلهة عنهم فلم ينفعهم عند نزول العذاب لهم.

قوله: «وَذَلِكَ إفْكُهُمْ» العامة على كسر الهمزة، وسكون الفاء، مصدر أَفِكَ يَأفِكُ إفْكاً، أي كَذِبُهُمْ وابن عباس بالفتح[١٠] وهو مصدر له أيضاً. وابن عباس ـ أيضاً ـ وعكرمة والصَّباح بْن العلاء أَفَكَهُمْ[١١] ـ بثلاث فتحات ـ فعلاً ماضياً، أي صَرَفَهُمْ. وأبو عياض[١٢] وعكرمة أيضاً كذلك، إلا أنه بتشديد الفاء للتكثير[١٣]، وابن الزبير[١٤]، وابن

---

(١) البحر المرجع السابق.
(٢) ذكر أبو حيان رأيهما في المرجع السابق.
(٣) التبيان ١١٥٩ وقد ذكره ابن الأنباري في البيان أيضاً ٢/ ٣٧٢.
(٤) الكشاف السابق.
(٥) الكشاف السابق، والبحر المرجع السابق.
(٦) الدر المصون للسمين مخطوط بمكتبة الإسكندرية لوحة رقم ٩٨.
(٧) البحر المحيط المرجع السابق. وقد ذكر هذا الوجه ابن الأنباري في البيان المرجع السابق.
(٨) التّبيان ١١٥٩.
(٩) مشكل إعراب القرآن له ٢/ ٣٠٣ وذكره ابن الأنباري في البيان المرجع السابق.
(١٠) في رواية كما ذكر ذلك صاحب البحر المحيط ٨/ ٦٦ وذكرها أيضاً صاحب اللسان أفك ٩٧ وهي شاذة متواترة.
(١١) فعلاً ماضياً ـ كما ذكر ـ وهي شاذة ذكرها أبو الفتح في المحتسب ٢/ ٢٦٧، وابن خالويه في المختصر ١٣٩ وانظر أيضاً معاني القرآن للفراء ٢/ ٥٩.
(١٢) التبيان ١١٥٩ و ١١٦٠.
(١٣) المحتسب والمختصر المرجعين السابقين وهي شاذة أيضاً.
(١٤) عبد الله بن الزبير الصحابي المعروف.

عباس ـ أيضاً ـ آفَكَهُمْ[١] ـ بالمد ـ فعلا ماضياً أيضاً. وهو يحتمل أن يكون بزنة فَاعَلَ[٢]، فالهمزة أصلية، وأن يكون بزنة أَفْعَلَ[٣] فالهمزة زائدة والثانية بدل من همزة. وإذا قلنا: إنه أفعل، فهمزته يحتمل أن تكون للتعدية[٤]، وأن تكون أفعل بمعنى المُجَرّد[٥] ـ وابن عباس ـ أيضاً آفِكُهُمْ بالمد وكسر الفاء، ورفع الكاف جعله اسم فاعل بمعنى صارفهم. وقرىء أَفَكُهُمْ[٦] ـ بفتحتين ـ ورفع الكاف على أنه مصدر ـ لأَفِكَ أيضاً ـ فيكون له ثلاثة مصادر الإفك والأَفك بفتح الهمزة وكسرها مع سكون الفاء وفتح الهمزة والفاء، وزاد أبو البقاء أنه قرىء: آفَكُهُمْ ـ بالمد وفتح الفاء، ورفع الكاف ـ قال: بمعنى أَكْذَبُهُمْ[٧]. فجعله أفعل تفضيل.

قوله: «وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ» يجوز أن تكون ما مصدرية، وهو الأحسن، ليعطف على مثله، وأن تكون بمعنى الذي، والعائد محذوف أي يَفْتَرُونَهُ ـ والمصدر من قوله: «إفكهم» يجوز أن يكون مضافاً إلى الفاعل بمعنى كَذِبُهُمْ، وإلى المفعول بمعنى صَرْفُهُمْ. والمعنى: وذلك إفكهم أي كذبهم الذي كانوا يقولون: إنها تقربهم إلى الله وتشفع لهم «وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ» يكذبونَ أنَّها آلِهةٌ[٨].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟
أَنصِتُوا۟ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ
بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ
ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ
فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ
ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ
فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل

(١) المرجعين السابقين ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٤٦ وهي شاذة أيضاً.
(٢) كقاتل.
(٣) كأكرم.
(٤) أي أصارهم إلى الإفك أو وَجَدَهُم كذلك كما تقول: أحْمَدتُ الرَّجُلَ وَجَدْتُهُ مَحْمُوداً.
(٥) مثل صَدَّ وأَصَدَّ. وانظر المحتسب ٢/ ٢٦٧ و ٢٦٨.
(٦) وهي رواية قطرب وأبي الفضل الرازي البحر ٨/ ٦٦ وهي قراءة شاذة. معاني القرآن للفراء ٣/ ٥٩ وانظر المحتسب المرجع السابق وهي شاذة كسابقتها.
(٧) ولم يعين من قرأ بها وهي قراءة شاذة انظر التبيان ١١٥٨.
(٨) معنى كلام أبي حيان في البحر ٨/ ٦٧.

لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ**. . .﴾ الآية لما بين أن في الإنس مَنْ آمَنَ، ومنهم من كفر، بين أيضاً أن في الجن من آمن ومنهم من كفر، وأن مؤمنهم مُعَرَّض للثواب، وأن كافرهم معرض للعقاب.

قوله: «وَإِذْ صَرَفْنَا» منصوب باذْكُرْ مقدراً. وقرىء: صَرفنا[١] بالتشديد للتكثير «مِنَ الْجِنِّ» صفة لـ «نَفَراً» ويجوز أن يتعلق بـ «صَرَفْنا» و «مِنْ» لابتداء الغاية.

قوله: «يسمعون» صفة أيضاً لنفراً، أو حال، لتخصصه بالصفة إن قلنا: إن «مِنَ الْجِنِّ» صفة له وراعى معنى النفر فأعاد عليه الضمير جمعاً، ولو راعى لفظه فقال: يستمع لجاز[٢].

قوله: «فَلَمَّا حَضَرُوهُ» يجوز أن تكون الهاء للقرآن وهو الظاهر، وأن تكون للرسول ـ ﷺ ـ[٣] وحينئذ يكون في الكلام التفات من قوله: «إِلَيْكَ» إلى الغيبة في قوله «حَضَرُوهُ».

قوله: فَلَمَّا قُضِيَ» العامة على بنائه للمفعول، أي فرغ من قراءة القرآن وهو يؤيد عود «هاء» حضروه على القرآن. وأبو مِجْلزٍ[٤] وحبيب بن عبد الله قَضَى مبنياً للفاعل، أي أتم الرسول قراءته وهي تؤيد عودها على الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

فصل

ذكروا في كيفية هذه الواقعة قولين:

الأول: قال سعيد بن جبير: كانت الجن تَسْتَمع، فلما رجموا قالوا: هذا الذي حدث في السماء إنما حدث لشيء في الأرض؟ فذهبوا يطلبون السّبب. وكان قد اتفق أن النبي ـ ﷺ ـ لما أَيِسَ[٥] من أهله مكة أن يُجِيبُوه خرج إلى الطائف، لِيَدْعُوَهُمْ إلى الإسلام فلما انصرف إلى مكة وكان ببطن مكة نخلة قام يقرأ القرآن، فمر به نفرٌ من أشراف (جِنِّ)[٦] نَصِيبِينَ، كان إبليس بعثهم ليعرف السبب الذي أوجب حراسة السماء بالرجم فسمعوا القرآن، فعرفوا أن ذلك هو السبب.

والقول الثاني: أن الله تعالى أمر رسوله أن يُنْذِرَ الجنَّ ويدعوهم إلى الله تعالى ويقرأ

---

(١) ولم يحددها أبو حيان في البحر ٨/ ٦٧ وهي شاذّة غير متواترة وقد ذكرها الزمخشري دون نسبة أيضاً في الكشاف ٣/ ٥٢٦.

(٢) انظر التبيان للعكبري ١١٥٩.

(٣) الكشاف ٣/ ٥٢٦.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٦٧ والكشاف ٣/ ٥٢٦.

(٥) في ب أمن خطأ.

(٦) سقط من ب.

عليهم القرآن فصرف إليه نفراً من الجن ليَسْتَمِعُوا منه القرآن، ويُنْذِرُوا[١] قومهم (انتهى)[٢].

فصل

نقل القاضي في تفسيره أن الجنَّ كانوا يهوداً؛ لأن في الجن مِلَلاً[٣] كما في الإنس من اليهود والنَّصارَى والمجوس وعبدة الأوثان، وأطبق المحقِّقون على أن الجنة مكلفون. سئل ابن عباس: هل للجن ثواب؟

قال: نعم: لهم ثواب وعليهم عقاب يلتقون في أبواب الجنة ويزدَحِمُونَ على أبوابها[٤].

فصل

قال الزمخشري: النَّفَرُ دون العَشَرَةِ ويجمع على «أَنْفَارٍ» روى الطبري عن ابن عباس أن أولئك الجنَّ كانوا سبعة نفر من أهل نصِيبِين، فجعلهم رسول الله ـ ﷺ ـ رسلاً إلى قومهم. وعن زِرِّ بن حبيش كانوا تسعة، أحدهم زوبعة. وعن قتادة: ذكر لنا أنهم صرفوا إليه من نِينَوَى. واختلفت الروايات في أنه هل كان عبد الله بن مسعود مع النبي ـ ﷺ ـ ليلة الجن؟[٥]

فصل

روى القاضي في تفسيره عن أنس قال: كنت مع النبي ـ ﷺ ـ وهو بظاهر المدينة إذْ أَقْبَلَ شيخ يَتَوَكَّأُ على عُكَّازِهِ فقال النبي ـ ﷺ ـ أنها لمشية جنِّيٍّ، ثم أتى فسلم على النبي ـ ﷺ ـ فقال النبي ـ ﷺ ـ: إنها لنغمةُ جِنِّيّ، فقال الشيخ: أَجَلْ يا رسول الله فقال له النبي ـ ﷺ ـ: من أيِّ الجن أنت؟ قال يا رسول الله: أنا هَامُ[٦] بن هِيم بن لاقيس بن إبليس فقال له النبي ـ ﷺ ـ: لا أرى بينك وبين إبليس إلا أبوين قال: أجل يا رسول الله. قال كم أتى عليك مِنَ العُمر؟ قال: أكلت عُمر الدنيا إلا القليل كنت حين قَتَلَ قابيلُ هابيلَ غلاماً ابن أعوام فكنت أَتَشوفُ[٧] على الآكام[٨]، وأَصْطَادُ الهَامَ[٩] وأُوْرِشُ[١٠] بين

---

(١) في النسختين يستمعوا... وينذروا وهو خطأ نحوي والأصح ما أثبت أعلى.

(٢) زيادة من ب.

(٣) كذا في ب والرازي وفي أ مثلاً والتصحيح من ب.

(٤) انظر الرازي ٢٨/ ٣١.

(٥) الرازي السابق وانظر الكشاف ٣/ ٥٢٦.

(٦) في الرازي: هامة.

(٧) وفيه مشي وتَشَوَّف إذ ارتفع على معاقل الجبال فأشرف.

(٨) قيل: هو القُفّ من الحجَارة الواحدة وقيل: هو دُونَ الجِبَال، وقيل غير ذلك وهو جمع أَكَم جمع إكام جمع أكمة. انظر اللسان أكم ١٠٣.

(٩) الرأس من كل ذي رُوح.

(١٠) الوارش هو الطفيلي المشتهي للطعام، والتوريش التحريش. انظر اللسان ورش ٤٨١٢.

الأنَام. فقال النبي ـ ﷺ ـ: بئس العملُ قال يا رسول الله دعني من العتب، فإني ممن آمن مع نوحٍ ـ عليه الصلاة والسلام ـ وعاتبته في دعوته فبكا وأبكاني وقال: إني والله لَمِنَ النّادمينَ، وأعوذ بالله أن أكون من الجاهلين. ولَقِيتُ إبراهيم وآمنت به، وكنت بينه وبين الأرض إذ رُمِيَ به في المَنْجَنِيق، وكنت معه في النار إذْ أُلْقِيَ فيها وكنت مع يوسف إذ أُلْقِيَ في الجُبِّ فسبقته إلى قصره ولَقِيتُ موسى بْنَ عِمْرَان بالمكان الأثير. وكنت مع عيسى ابن مَرْيَمَ فقال لي: إن لَقِيتَ مُحَمَّداً فاقرأ عليه السلام (فـ) ـقال النبي ـ ﷺ ـ وعليك يا هام ما حاجَتُكَ؟ قال: إن موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ علّمني التوراة وإن عيسى علمني الإنجيل، فعلّمني القرآن. قال أنس: فعَلَّمَهُ النبي ـ ﷺ ـ عَشْرَ سُوَرٍ، وقُبِضَ رسول الله ـ ﷺ ـ ولم يَنْعِهِ إلينا. قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ولا أراه إلا حيًّا[١]. وروي أنه علمه سورة الواقعة، و ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [النبأ: ١]، و ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١]، و ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [الكافرون: ١] وسورة الإخلاص والمُعَوِّذَتَين[٢].

فصل

اختلفوا في عدد النفر، فقال ابن عباس ـ (رضي الله عنهما) ـ كانوا سبعة وقد تقدم، وقيل: كانوا تسعةً. وروى عاصم عن زِرِّ بن حُبَيْش[٣] كان زوبعة من التسعة الذين استمعوا القرآن، فلما حضروه قالوا أنصتوا أي قال بعضهم لبعض أنصتوا أي اسْكُتُوا[٤] مستمعين يقال: أَنْصَتُّ لِكَذَا، واسْتَنْصَتُّ لَهُ. روي في الحديث أن الجنة ثلاثة أصناف، صنف لهم أجنحة يطيرون في الهواء، وصنف حيَّاتٍ وكِلاَب، وصنف يحلّون ويظْعَنُون. ثم إنهم لما استمعوا القرآن حتى فرغ من تلاوته «ولَّوْا إلى قَوْمِهِمْ» انصرفوا إليهم «مُنْذِرِينَ» مخوفين داعين بأمر رسول الله ـ ﷺ ـ وذلك لا يكون إلا بعد إيمانهم، لأنهم لا يَدْعُونَ غيرهم إلى سماع القرآن، والتصديق به، إلا وقد آمنوا. وعند ذلك «قَالُوا يَا قَوْمَنَا إنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ» أي لكتب الأنبياء، وذلك أن كتب سائر الأنبياء كانت مشتملةً على الدعوة إلى التوحيد والدعوة إلى النبوة والمَعَاد وتطهير الأخلاق، وكذلك هذا الكتاب مشتمل على هذه المعاني وهو معنى قوله «يَهْدِي إِلَى الحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيم».

فإنْ قِيلَ: كيف قالوا: من بعد موسى، ولم يقولوا: من بعد عيسى؟

---

(١) انظر هذا الأثر في تفسير الرازي ٢٨/ ٣٢.

(٢) قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس.

(٣) القرطبي ١٦/ ٢١٣.

(٤) لم أعثر عليه في الكتب الصحاح أو غيرها من كتب الحديث.

فالجواب: أنه روي عن عطاءٍ والحسن أنه كان دينهم اليهودية فلذلك قالوا: إنا سمعنا كتاباً أنزل بعد موسى. وعن ابن عباس ـ (رضي الله عنهما)[١] ـ أن الجنَّ ما سمعت أمر عيسى فلذلك قالوا: من بعد موسى ثم إن الجن لما وصفوا القرآن بهذه الصفات الفاضلة قالوا يا قومنا أجيبوا دَاعِيَ الله» يعني محمَّداً ـ ﷺ ـ[٢].

فصل

دلت هذه الآية على أنه ـ ﷺ ـ كان مبعوثاً إلى الجِنّ كما كان مبعوثاً إلى الإِنْسِ. قال مقاتل: لم يبعث الله نبياً إلى الإنس وإلى الجن قبله.

فإن قيل: قوله «أجيبوا دَاعِيَ الله» أمر بإجابته في كل ما أمر به فيدخل فيه الأمر بالإيمان فكيف قال: «وآمنوا به»؟

فالجواب: أفاد ذكر الإيمان على التعيين، لأنه أهم الأقسام وأشرفها وقد جرت عادة القرآن الكريم بأنه يذكر اللفظ العام ثم يعطف عليه أشرف أنواعه، كقوله: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨] وقوله ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ﴾ [الأحزاب: ٧] ولما أمر بالإيمان به ذكر فائدة ذلك الإيمان فقال: «يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ» قال بعضهم: كلمة «من» هنا زائدة[٣] والتقدير: يغفر لكم ذُنُوبَكُمْ، وقيل: بل فائدته أن كلمة «من» هنا لابتداء الغاية والمعنى أنه يقع ابتداء الغفران بالذنوب ثم ينتهي إلى عَفْوِ ما صدر عنكم من ترك الأَوْلَى والأكمل[٤]. ويجوز أن تكون تبعيضيةً[٥].

قوله: «وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ» قال ابن عباس ـ (رضي الله عنهما) ـ فاستجاب لهم من قومهم نحو سبعينَ بَعْلاً منَ الجن فَرَجَعُوا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فوافقوه في البَطْحَاء فقرأ عليهم القُرْآنَ وأمرهم ونَهَاهُمْ[٦].

فصل

اختلفوا في أن الجن هل لهم ثواب أم لا؟ فقيل: لا ثَوَابَ لهم إلا النجاة من النار، ثم يقال لهم: كُونُوا تراباً مثلَ البهائم. واحتجوا على ذلك بقوله: (وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) وهو قول أبي حنيفة والصحيح أن حكمهم حكم بني آدم يستحقون الثواب على

---

(١) زيادة من أ.
(٢) الرازي ٢٨/ ٣٢.
(٣) ذكرت في البحر والرازي دون تحديد انظر البحر ٨/ ٦٨ والرازي ٢٨/ ٣٣.
(٤) الرازي السابق.
(٥) البحر السابق.
(٦) ذكره القرطبي ١٦/ ٢١٧.

الطاعة والعقاب على المعصية. وهو قولُ ابن أَبِي لَيْلَى ومَالِكٍ[١] وتقدم عن ابن عباس أيضاً نحوُ ذلِكَ. قال الضحاك: يدخلون الجنة، ويأكلون ويشربون، لأن كل دليل[٢] دل[٢] على أن البشر يستحقون الثواب على الطاعة فهو بعينه قائم في حقِّ الجنِّ. والفرق بينهما بَعِيدٌ جِدًّا[٣]، وذكر النقاش في تفسيره حديثاً أنهم يدخلون الجنة. فقيل: هل يصيبون من نعيمها؟ قال: يُلْهِمُهُم اللَّهُ تسبيحهُ وذِكْرَه فيصيبهم من لذته ما يصيب بني آدم من نعيم الجنة. وقال أَرطَأَةُ بْنُ المُنْذِر: سألت ضمرةَ بن حبيب هل للجن ثواب؟ قال: نعم وقرأ: «لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ»[٤]. وقال عمر بن العزيز: إن مؤمني الجنِّ حول الجنة في رَبَض[٥] وَرِحابٍ ولُبْسٍ فيها[٦].

قوله: ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض أي لا يعجز الله فيفوته «ولَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ» أنصار يمنعونه من الله «أُولَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ».

قوله تعالى: **﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاواتِ والأَرْضَ..﴾** اعلم أنه تعالى قرر من أول السورة إلى ههنا أمر التوحيد والنبوة. ثم ذكر ههنا تقرير القادر من تأمل في ذلك علم أن المقصود من القرآن كله تقرير هذه الأصول الثلاثة. واعلم أن المقصود من هذه الآية الدلالة على كونه تعالى قادراً على البعث، لأنه تعالى أمام الدليل على خلق السموات والأرض وخلقها أعظم من إعادة هذا الشّخص حيًا بعد أن كان ميّتاً، والقادر على الأكمل لا بدّ وأن يكون قادراً على ما دونه[٧].

قوله: «وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ» العامة على سكون العين وفتح الياء مضارع «عَيِيَ» بالكسر يَعْيَا ـ بالفتح ـ فلما دخل الجازم حذف الألف. وقرأ الحسن يَعِي بكسر العين[٨] وسكون الياء. قالوا: وأصلها عَيِيَ بالكسر فجعل الكسر فتحة، على لغة طَيِّىء فَصَار «عَيَا»، كما قالوا في بَقِي: بَقَا. ولما بنى الماضي على «فَعَلَ» بالفتح جاء مضارعه على يَفْعِلُ[٩] بالكسر فصار يَعْيِي مثل يَرْمِي، فلما دخل الجَازم حذف الياء الثانية[١٠] فصار: لَمْ يَعْيِ[١١] بعين ساكنة وياءٍ مكسورة، ثم نقل حركة الياء إلى العين[١٢] فصار اللفظ كما

---

(١) والشافعي وانظر القرطبي ١٦/ ٢١٧ و ٢١٨.
(٢) في ب يدل مضارعاً.
(٣) الرازي ٢٨/ ٣٣.
(٤) من الرحمن عز وجل ٥٦.
(٥) أي حول الجنة فالربض هو ما حول الشيء.
(٦) انظر البغوي في معالم التنزيل.
(٧) بالمعنى من الرازي ٢٨/ ٣٤.
(٨) قراءة شاذة ذكرها أبو حيان في البحر ٨/ ٦٨ والقرطبي في الجامع ١٦/ ٢١٩.
(٩) كرَسَى يَرْسِي، وقضى يقضي، ومَشَى يَمْشِي.. الخ.
(١٠) فهي المتطرفة والثقل ينشأ منها.
(١١) وهذا إعلال بالحذف.
(١٢) أما هذا فهو إعلالٌ بالنقل فاجتمع في الكلمة إعلالان كما هو واضحٌ.

تَرَى[١]. وقد تقدم أن عَيِيَ وحَيِيَ فيها لغتان، الفَكّ[٢] والإدغام[٣]. فأما حَيِيَ فتقدَّمَ في الأنفال[٤] و (أما)[٥] عَيِيَ فكقوله:

٤٤٦٠ ـ عَيّوا بأمْرِهِمْ كَمَا عَيَّتْ ببيضَتِهَا الحَمَامَهْ[٦]

والعي عدم الاهتداء إلى جهةٍ. ومنه العَيُّ في الكلام، وعَيِيَ بالأَمر إذا لم يهتد لوجهه[٧].

قوله: «بِقَادِرٍ» الباء زائدة وحَسَّنَ زيادتَها كَوْنُ الكلام في قوة «أَلَيْسَ اللَّهُ بِقَادِرٍ»[٨]. قال أبو عبيدة[٩]، والأخفش[١٠]: الباء زائدة للتوكيد، كقوله: ﴿تَنْبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠] وقاس الزجاج «مَا ظَنَنْتُ أَنَّ أحداً بِقَائِم» عَلَيْهَا[١١]. والصحيح التوقف. وقال الكسائي[١٢] والفراء[١٣] العرب تدخل الباء في الاستفهام فتقول: ما أَظُنُّكَ بقائمٍ. وقرأ عيسى، وزيد بن علي «قَادِرٌ» بغير ياء[١٤].

قوله: «بلى» إيجاب لما تضمنه الكلام من النفي في قوله: «أَوَلم يروا».

---

(١) بالمعنى من البحر المحيط ٨/٦٨. (٢) كما في عيي.
(٣) وهو عَيَّ وحَيَّ.
(٤) من الآية ٤٢ وهي قوله: «ليهلك مَنْ هَلَكَ عَنْ بيِّنةٍ ويَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ».
(٥) زيادة لتوضيع السياق وتبيينه.
(٦) البيت من مجزوء الكامل، ولم أجده هكذا في الديوان وهو لعبيد بن الأبرص وإنما:
برمَتْ بنو أسدٍ كَمَا بَرَمَتْ بِبَيْضَتِهَا الحَمَامه
وعليه فلا شاهد فيه والشاهد «عيوا» حيث أدغم يائي الفعل «عيي» وهو قليل وشاذ والأفصح الفَكُّ حيث لم يأت هذا إلا قليلاً وانظر القرطبي ١٦/٢١٩ وأدب الكاتب ٥٤ والبحر ٨/٥٣ وفتح القدير ٥/٢٦ والديوان ١٣٨ دار صادر بيروت وانظر اللسان عيي ٣٢٠٢.
(٧) المرجع السابق.
(٨) بالمعنى من البحر ٨/٦٨.
(٩) قال: «مجازها: قادر والعرب تؤكد الكلام بالباء وهي مستغنى عنها» وانظر مجاز القرآن ٢/٢١٣.
(١٠) قال: «فهو بالباء كالباء في قوله: كَفَى باللَّهِ، وهي مثل: تَنْبُتُ بالدُّهْنِ». انظر المعاني له ٦٩٤.
(١١) قالَ: «ولو قلت: ظننت أن زيداً بقائم لم يجز، ولو قلت: ما ظننت أن زيداً بقائم جاز بدخول «ما» انظر معانيه ٤/٧٤٧.
(١٢) القرطبي ١٦/٢١٩.
(١٣) قال: «دخلت الباء للم، والعرب تدخلها مع الجحود إذا كانت رافعة لما قبلها ويدخلونها إذا وقع عليها فعل يحتاج إلى اسمين مثل قولك: ما أظنك بقائم وما أظن أنك بقائم، وما كنت بقائم فإذا خلفت الباء نصبت الذي كانت فيه بما يعمل فيه من الفعل، ولو ألغيت الباء من «قادر» في هذا الموضع رفعهُ لأنه خبر لأنَّ». انظر معاني القرآن له ٣/٥٩ والقرطبي ١٦/٢١٩.
(١٤) لم أجد هذه القراءة هكذا وإنما يقدر بلفظ المضارع انظر الكشاف ٣/٥٢٨ ومعاني الفراء ٣/٥٩ وإعراب النحاس ٤/١٧٣ و١٧٣ ومعاني الزجاج ٤/٤٤٧، وبها قرأ آخرون بما فيهم يعقوبُ انظر الإتحاف ٣٩٢ وهي من الأربعة فوق العشر المتواترة.

قوله تعالى: ﴿**وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ**﴾ فيقال لهم: أَلَيسَ هَذا بالْحَقِّ قَالُوا بَلَى فقوله: أليس هذا معمول لقول مضمر[١] هو حال كما تقدم في نظيره[٢]. والمقصود من هذا الاستفهام التهكم والتوبيخ على استهزائهم بوعد الله تعالى ووعيده. فيقال لهم «فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ».

قوله تعالى: ﴿**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو العَزْمِ مِنَ الرُسُلِ**﴾ الفاء في قوله «فَاصْبِر» عاطفة هذه الجملة على ما تقدم[٣]، والسببية[٤] فيها ظاهرة. واعلم أنه تعالى لما قرر المَطَالِبَ الثَّلاثَة وهي التوحيد والنبوة وأجاب عن الشبهات أردفه بما يجري مجرى الوعظ والنصيحة للرسول ـ ﷺ ـ وذلك لأن كانوا يؤذونه ويُوجِسُون[٥] صدره فقال تعالى: ﴿**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ**﴾ أي أُولو الجِدِّ والصَّبْر والثَّبَات[٦] وقال ابن عباس ـ (رضي الله عنهما) ـ أولو الحَزْم[٧].

قوله: «مِن الرُسُلِ» يجوز أن تكون من تبعيضية، وعلى هذا فالرُّسُلُ أُولُو عَزْم وَغيرُ أُولِي عَزْم. ويجوز أن يكون للبيان فكلهم على هذا أولو عَزْم[٨]. قال ابن زيد: كُلّ الرُّسُلِ كانوا أولى عزم ولم يبعث الله نبياً إلا كان ذَا عَزْم وحَزْم، ورأي وكمال عقلٍ. وإنما دخلت مِنْ للتَّجْنِيس[٩] لا للتبعيض كما يقال اشتريت (أكسِيَة)[١٠] من الخَزِّ وأَرْدِيَةً من البزِّ[١١]. وقيل: الأنبياء كلهم أولو العزم إلا يُونُسَ لعجلة كانت منه، ألا ترى أنه قيل للنبي ـ ﷺ ـ: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨] وقيل هم نُجَبَاء الرسل، وهم المذكورون في سورة الأنعام، وهم ثَمَانِيَةَ عَشَرَ[١٢] لقوله بعد ذكرهم: «أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ فبِهداهُمُ اقْتَدِهْ»[١٣]. وقال الكلبي: هم الذين أمروا بالجهاد، وأظهروا المكاشفة مع أعداء الدين[١٤] وقيل: هم ستة: نوحٌ، وهودٌ، وصالحٌ، ولوطٌ، وشعيبٌ،

---

(١) قاله الفراء في معاني القرآن ٣/٥٧ والزمخشري في الكشاف ٣/٥٢٨ وأبو حيان في البحر ٨/٦٨.
(٢) وهو قوله: «وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَروا عَلَى النارِ أذهَبْتُم طَيِّبَاتِكُم» وهي الآية ٢٠ من نفس السورة.
(٣) من أخبار الكفار في الآخرة والمعنى بينهما مرتبط أي هذه حَالُهُمْ مع الله فلا تستعجل أنت واصبر ولا تَخَفْ إلاَّ اللَّه. وهو قول أبي حيان في البحر المرجع السابق.
(٤) وهذا لا يمنع كونها عاطفة فالسببية أكثر من العاطفة.
(٥) في ب ويوحشون.
(٦) انظر الرازي ٢٨/ ٣٥.
(٧) القرطبي ١٦/ ٢٢٠.
(٨) قاله الزمخشري في الكشاف ٣/٥٢٨ وأبو حيان في البحر ٨/٦٨.
(٩) في ب للجنس.
(١٠) زيادة على النسختين لازمة.
(١١) نسب هذا الرأي القرطبي في الجامع لابن عباس.
(١٢) الآية ٩٠ منها.
(١٣) القرطبي السابق.
(١٤) القرطبي السابق أيضاً وقد ذكر رحمة الله عليه كثيراً من الآراء في تفسيره العظيم انظر الجامع ١٦/ ٢٢٠ و ٢٢١.

ومُوسَى، وهم المذكورون على النَّسقِ في سورة الأعْراف والشُّعَرَاءِ.

وقال مقاتل: هم ستة، نوح صبر على أذى قومه، كانوا يضربونه حتى يُغْشَى عَلَيْه، وإبراهيم صَبَرَ على النار وذبْح الوَلَد، وإسحاق صبر على الذبح، ويعقوب، صبر على فَقْد ولده، وذَهَابِ بصره، ويوسفُ صبر في الجُبِّ والسِّجْن، وأيوبُ صبر على الضُرِّ. وقال ابن عباس وقتادة: هم نوح، وإبراهيم، وموسى وعيسى أصحاب الشرائع، فهم مع مُحَمَّد خمسة. قال البغوي: ذكرهم الله على التخصيص في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧] وفي قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ [الشورى: ١٣] الآية[١] روي أن النبي ـ ﷺ ـ قال لعائشة: يا عائشةُ إن الله لم يرض لأولي العزم إلا بالصّبر على مكروهها، والصبر على محبوبها لم يرضَ إلا أن كلفني ما كلفهم قال: «فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل»، وإني والله لا بدّ لي من طاعة، والله لأصبرنَّ كما صَبَرُوا وأَجْهَدَنَّ ولا قوة إلا بالله.

قوله: «وَلاَ تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ» العذاب فإنه نازل بهم. قيل: إن النبي ـ ﷺ ـ ضجر من قومه بعضَ الضَّجَر، وأحبَّ أن ينزل الله العذاب بمن[٢] أبى من قومه، فأمر بالصبر، وترك الاستعجال. ثم أخبر أن ذلك العذاب إذ أنزل بهم يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا حتى يحسبونها ساعة من نهار فقال: «كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ» من العذاب «لَمْ يَلْبَثُوا إلاَّ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ» إذا عاينوا العذاب صار طُول لَبْثِهِمْ في الدنيا والبَرْزَخ كأنه ساعةٌ من النهار، أو كان لم يكن لهول ما عاينوا، لأن ما مضى وإن كان طويلاً صار كأنه لم يكن، قال الشاعر:

٤٤٦١ ـ كَأَنَّ شَيْئاً لَمْ يَكُنْ إذَا مَضَى كَأَنَّ شَيْئاً لَمْ يَكُنْ إذَا أَتَى[٣]

واعلم أنه تم الكلام ههنا.

قوله: «بلاغ» العامة على رفعه. وفيه وجْهَان:

أحدهما: أنه خبر مبتدأ محذوف، فقدره بعضهم: تلكَ الساعةُ بلاغٌ، لدلالة قوله: «إلاَّ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ»[٤]. وقيل: تقديره هذا أي القرآن والشرع بلاغٌ من الله إليكم[٥].

والثاني: أنه مبتدأ والخبر قوله «لَهُمْ» الواقع بعد قوله «وَلاَ تَسْتَعْجِلْ» أي لهم بلاغ

---

(١) انظر معالم التنزيل له ٦/ ٤٧.

(٢) في ب ممن غير مراد.

(٣) في الرازي: لم يزل وقد أتى به استئنافيًا للمعنى المذكور أعلى وانظر الرازي ٢٨/ ٣٥ والبيت لم أعرف قائله وهو من بحر الرجز.

(٤) ذكره أبو حيان ولم يعيّنه انظر البحر ٨/ ٦٩.

(٥) انظر المرجع السابق وهو رأي الحسن فيما نقله القرطبي في الجامع ١٦/ ٢٢٢.

فيوقف على «ولا تستعجل». وهو ضعيف جداً، للفصل بالجملة التشبيهية، ولأن الظاهر تَعَلُّق «لهم» بالاسْتِعْجَالِ فهو يشبه الهيئة والقطع[١].

وقرأ زيد بن علي والحسن وعيسى «بلاغاً»[٢] نصباً على المصدر أي بلِّغ بلاغاً. ويؤيده قراءة ابن مِجْلَزِ «بَلِّغْ» أمراً[٣]. وقرأ أيضاً «بَلَّغَ» فعلاً ماضياً[٤]. ويؤخذ من كلام مَكِّيٍّ أنه يجوز نصبه نعتاً «لِسَاعَةٍ» فإنه قال: «ولو قرىء بلاغاً بالنصب على المصدر، أو على النعت لساعة جاز»[٥]. وكأنه لم يطلع على ذلك قراءة. وقرأ الحسن أيضاً: بَلاَغٍ بالجر[٦]، ويُخَرَّج على الوصف لـ «نَهَار» على حذف مضاف أي من نهارٍ ذي بلاغٍ[٧]، أو وصف الزمان بالبلاغ مبالغةً. والبلاغ بمعنى التَّبْلِيغ.

قوله: «فهل يهلك» العامة على بنائه للمفعول. وابن محيصن يَهْلِكُ ـ بفتح الياء وكسر اللام ـ مبنياً للفاعل[٨]. وعنه أيضاً[٩] فتح اللام وهي لغةٌ والماضي هَلِكَ، بالكسر[١٠]. قال ابن جني[١١]: «كُلٌّ مَرْغُوبٌ عَنْهَا». وزيد بن ثابت: بضم الياء وكسر اللام، فالفاعل هو الله تعالى. «القَوْمَ الفَاسِقِينَ»[١٢]. نصباً على المفعول به. وقرىء: «نَهْلِكُ» بالنون وكسر اللام ونصب «القَوْم»[١٣].

فصل

المعنى فهل يهلك بالعذاب إذا نزل إلاّ القَوْم الفاسقون الخارجون عن أمر الله[١٤] قال الزجاج: تأويله لا يَهْلِكُ مع رحمة الله وفضْلِهِ إلاَّ القَوْم الفاسقون[١٥]، ولهذا قال

---

(١) بالمعنى من البحر المحيط المرجع السابق.
(٢) ذكرها أبو الفتح في المحتسب وهي شاذة انظر المحتسب ٢/٢٦٨.
(٣) المرجع السابق.
(٤) ذكرها ابن خالويه في المختصر ١٤٠ وذكر أنها عن أبي مجلز أيضاً.
(٥) قال: «ولو نصب في الكلام على المصدر أو على النعت لساعة لجاز» مشكل إعراب القرآن ٣/٣٠٤.
(٦) التبيان ١١٥٩ والبحر ٨/٦٩. (٧) المرجع السابق.
(٨) المحتسب ٢/٢٦٨ وهي شاذة.
(٩) قال في المحتسب: «وبعض الناس يقول: فهل يهلك».
(١٠) كذا في البحر لأبي حيان وفي المحتسب أنها بفتح اللام.
(١١) كذا في النسختين وفي المحتسب: وهي مرغوب عنها أي تلك القراءة الأخيرة وانظر المحتسب ٢/٢٦٨.
(١٢) البحر ٨/٦٩ ومختصر ابن خالويه ١٤٠.
(١٣) الكشاف ٣/٥٢٨ وكلها شواذ ولم يحدد من قرأ بها.
(١٤) وهو رأي ابن عباس وغيره انظر القرطبي ١٦/٢٢٢.
(١٥) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤/٤٤٨.

قومٌ: مَا فِي الرَّجَاءِ لِرَحْمَةِ الله أقْوَى مِنْ هذه الآية[١]. روى أبيّ بن كعب (ـ رضي الله عنه)[٢] ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: مَنْ قَرَأَ سُورَة الأَحْقَافِ أُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ بِعَدَدِ كُلِّ رَمْلٍ فِي الدُّنْيَا عَشْرَ حَسَنَاتٍ ومُحِيَ عَنْهُ عَشْرُ سَيِّئاتٍ ورُفِعَ لَهُ عَشْرُ دَرَجَاتٍ[٣]. (اللَّهُمَّ تَوفَّنَا[٤] مُسْلِمِينَ).

(١) القرطبي المرجع السابق.
(٢) زيادة من أ الأصل.
(٣) ذكره الزمخشري دون سند كعادته في نهاية كل سورة انظر الكشاف ٣/ ٥٢٨.
(٤) ما بين القوسين زيادة مَن أ أيضاً.

سورة محمد - ﷺ -

مدنية[١]. وهي ثمان وثلاثون[٢] آية، وخمسمائة وتسع وثلاثون كلمة، وألفان وثلاثمائة وتسعة وأربعون حرفاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَـٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَـٰلَهُمْ ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله...**﴾ أول هذه السورة مناسب لآخر السورة المتقدمة. والمراد بالذين كفروا قيل: هم الذين كانوا يطعمون الجيش يوم بدر، منهم أبو جهل والحارث بن هشام، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وغيرهم[٣]. وقيل: كفار قريش. وقيل: أهل الكتاب. وقيل: كل كافر[٤]. ومعنى صَدِّهِمْ عن سبيل الله، قيل: صدوا أنفسهم عن السَّبيل، ومنعوا عقولهم من اتِّباع الدليل. وقيل: صدوا غيرهم وَمَنَعُوهُمْ[٥].

قوله: «الَّذِينَ كَفَرُوا» يجوز فيه الرفع على الابتداء والخبر الجملة من قوله: «أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ» ويجوز نصبه على الاشتغال بفعل مقدر يفسره «أضل» من حيث المعنى[٦]، أي خَيَّبَ الَّذينَ كَفَرُوا.

قوله: «أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ» أي أبطلها فلم يقبلها وأراد بالأعمال ما فعلوا من إطعام

---

(١) في قول ابن عباس، ذكره النحاس. وقال الماوردي: في قول الجميع إلا ابن عباس وقتادة فإنهما قالا: إلا آية منها نزلت عليه بعد حَجَّة الوداع حين خرج من مكة. وقال الثعلبي: إنها مكية وحكاه ابن هِبةِ الله عن الضحاكِ وسعيدِ بنِ جُبَيْر. وانظر القرطبي ١٦/ ٢٢٣.

(٢) وقيل: تسع وثلاثون.

(٣) ونسب هذا لابن عباس.

(٤) الرازي ٢٨/ ٣٦.

(٥) المرجع السابق أيضاً.

(٦) التبيان ١١٦.

الطعام، وصلةِ الأرحام. قال الضحاك: أبطل كيدهم ومكرهم بالنبيِّ ـ ﷺ ـ وجعل الدائرة عليهم[١].

قوله: «والَّذِينَ آمنوا» يجوز فيه الوجهان المتقدمان، وتقدير الفعل: «رَحِمَ الَّذِينَ آمَنُوا».

قوله: «وآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ» والعامة على بناء الفعل نزل للمفعول مشدداً، وزيد بن علي وابنُ مِقْسِم نَزَّلَ مبنيًا[٢] للفاعل وهو اللَّهُ، والأعمش أُنْزِلَ بهمزة التعدية مبنياً للمفعول[٣]. وقرىء: نَزَلَ ثلاثياً مبنياً للفاعل[٤]. قال سفيان الثوري: لم يخالفوه في شيء. قال ابن عباس: «الذين كفروا وصدوا» مشركُو مكَّةَ والذين آمنوا وعملوا الصالحات الأَنْصَارُ.

قوله: «وهو الحقُّ» جملة معترضة بين المبتدأ والخبر وبين المفسَّر والمفسِّر.

قوله: «كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بالَهُمْ» حالهم[٥]. وتقدم تفسير «البال» في طه[٦]. قال ابن عباس ـ (رضي الله عنه ـ): معنى: أصلح، أي عَصَمَهُمْ أيَّامَ حَيَاتِهِمْ يعني أن هذا الإصلاحَ يعود إلَى صلاح أعمالهم حتَّى لا يَعْصُوا.

فصل

قالت المعتزلة: تكفير السيئات مرتَّب على الإيمان، والعمل الصالح، فمن آمن ولم يعمل صالحاً يبقى في العذاب خالداً.

والجواب: لو كان كما ذكرتم لكان الإضلال مرتباً على الكفر والصّد، فمن يكفر لا ينبغي أن تضل أعماله. أو نقول: إن الله تعالى رتَّب أمرين فمن آمن كفر سيئاته، ومن عمل صالحاً أصلح باله. أو نقول: أي مؤمنٍ يتصور غير آت بالصالحات بحيث لا يصدر عنه صلاة ولا صيام ولا صدقة ولا طعام، وعلى هذا فقوله: «وَعملُوا» من عطف المسببِ على السبب كقول القائل: أَكَلْتُ كَثِيراً وشَبِعْتُ.

فإن قيل: ما الحكمة في قوله: «وآمنوا بما نُزّل على محمد» مع أن قوله: «آمنوا وعملوا الصلحات» أفاد هذا المعنى؟.

فالجواب من وجوه:

---

(١) القرطبي ١٦/ ٢٢٤.

(٢) من القراءات الشاذة غير المتواترة انظر الكشاف ٣/ ٥٣٠ والبحر ٨/ ٧٣.

(٣) قراءة كسابقتها في الشذوذ وانظر المرجعين السابقين.

(٤) لم ترو أيضاً في المتواتر ولم تنسب في كلٍ من المرجعين السابقين.

(٥) انظر هذه المعاني في القرطبي ١٦/ ٢٢٤.

(٦) عند قوله: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى﴾ الآية ٥١.

الأول: قوله: «والذين آمنوا» أي بالله ورسوله، واليوم الآخر، وقوله: «آمَنُوا بِمَا نزل» أي بجميع الأشياء الواردة في كلام الله ورسوله تعميماً بعد أمور خاصة كقولنا: خلق الله السموات والأرض وكل شيء إما على معنى وكل شيء غير ما ذكرنا، وإما على العموم بعد ذكر الخصوص.

والثاني: أن يكون المعنى آمنوا من قبل بما نزل على محمد «وهُوَ الحَقُّ» المعجز الفارق بين الكاذب والصادق يعني آمنوا أولاً بالمعجز، وأيقنوا أن القرآن لا يأتي به غير الله فآمنوا وعملوا الصالحات والواو للجمع المطلق. (و) يجوز أن يكون المتأخر ذكراً متقدماً وقوعاً، وهذا كقول القائل آمن به وكان الإيمان به واجباً ويكون بياناً لإيمانهم، كأنه قال: آمنوا وآمنوا بما نزل على محمد أي آمنوا وآمنوا بالحق كقول القائل: خرجتُ وخرجت مصيباً أي وكان خروجي جيداً، حيث نجوت من كذا أو ربحت كذا، فكذلك لما قال آمنوا بين أن إيمانهم كان بما أمر الله وأنزل الله لا بما كان باطلاً من عند غير الله.

قوله: «ذلك» فيه وجهان:

أظهرهما: أنه مبتدأ والخبر الجار بعده[١].

الثاني ـ قاله الزمخشري ـ: أنه خبر مبتدأ مضمر، أي الأمر ذلك بسبب كذا[٢]. فالجار في محلِّ نصب قال أبو حيان: ولا حاجة إليه[٣].

قوله: «بأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا البَاطِلَ» أي الشيطان. وقيل: قول كبرائهم، ودين آبائهم وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنوا اتَّبَعُوا الحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ» يعني القرآن. وقيل: الحق هو الله تعالى. وعلى هذا فلا يكون قوله: «من ربهم» متعلقاً بالحق وإنما يتعلق بقوله تعالى: ﴿اتَّبَعُوا﴾ أي اتبعوا من ربهم، أو من فضل الله أو هداية ربهم اتبعوا بالحق؛ وهو الله تعالى. ويحتمل أن يقال: قوله: «مِنْ رَبِّهِمْ» عائد إلى الفريقين جميعاً، أي من ربهم اتبع هؤلاء الباطل، وهؤلاء الحق، وأي من حكم ربهم ومن عند ربهم[٤].

قوله: «كذلك يضرب» خرجه الزمخشري على مثل ذلك الضرب يضرب الله للناس أمثالهم[٥] (والضمير راجع إلى الفريقين أو إلى الناس على معنى أنه يضرب أمثالهم)[٦] لأجل الناس ليعتبروا (انتهى)[٧].

فصل

قال الزجاج: معناه كذلك بين الله أمثال حسنات المؤمنين وإضلال أعمال

---

(١) هذا رأي أبي حيان في البحر ٨/ ٧٣.
(٢) الكشاف ٣/ ٥٣٠.
(٣) البحر المحيط المرجع السابق.
(٤) الرازي ٢٨/ ٤٢.
(٥) الكشاف المرجع السابق.
(٦) ما بين القوسين ساقط من (ب).
(٧) زيادة من (ب).

الكافرين[١]. والمراد بالأمثال الأشكال. وقيل: بين كون الكافر متبعاً للباطل وكون المؤمن متبعاً للحق. والضمير في قوله «أَمْثَالَهُمْ» فيه وجهان:

أحدهما: أنه يعود إلى الناس، كأنه تعالى قال: يضرب للناس أمثال أنْفُسِهِمْ.

والثاني: يعود إلى الفريقين السابقين، والمعنى يضرب الله للناس أمثال الفريقين السَّابقين[٢].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦)﴾

قوله: «فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا» العامل في هذا الظرف فعل مقدر هو العامل في «ضَرْبَ الرِّقَابِ» تقديره فاضربوا الرقاب وقتَ مُلاَقَاتِكُمُ العَدُوَّ[٣]. ومنع أبو البقاء أن يكون المصدر نفسه عاملاً، قال: لأنه مؤكّد[٤] وهذا أحد القولين في المصدر النائب عن الفعل، نحو: ضرباً زيداً، هل العمل منسوب إليه أم إلى عامله؟ ومنه (قول الشاعر)[٥]:

٤٤٦٢ ـ عَلَى حِينَ أَلْهَى النَّاسَ جُلُّ أُمُورِهِمْ فَنَدْلاً زُرَيْقَ المَالَ نَدْلَ الثَّعَالِبِ[٦]

فالمال منصوب إما بـ «اندل» أو بـ «نَدْلاً» والمصدر هنا أضيف إلى معموله. وبه استدل على أن العمل للمصدر، لإضافته إلى ما بعده ولو لم يكن عاملاً لَمَا أضيف إلى ما بعده[٧].

فصل

قال ابن الخطيب: الفاء في قوله: «فإذا لقيتم» يستدعي متعلَّقاً تُعَلَّقُ به وتُرَتَّبُ عَلَيْه وفيه وجوه:

الأول: لما بين أن الذين كفروا أضل أعمالهم، وأن اعتبار الإنسان بالعمل ومَنْ لا

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥/ ٣.
(٢) الكشاف ٣/ ٥٣٠ والرازي ٢٨/ ٤٢ و٤٣.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٧٣ والتبيان ١١٦٠.
(٤) المرجع السابق.
(٥) زيادة من (ب).
(٦) نسب إلى الأحوص وإلى جرير وإلى أعشى همدان، وزريق اسم قبيلة وندل الثعالب يريد السرعة. وهذا الشاعر يصف قوماً لصوصاً يأتون إلى دارين فيسرقون ويملئون حقائبهم ثم يفرغونها ويعودون إلى دارين. وقوله: «على حين ألْهى الناس جل أمُورهم» يريد حين اشتغل الناس بالفتن والحروب. والندل التناول. والشاهد: نصب المال بفعل مقدر أو بالمصدر على ما أوضحه أعلى وعلى جواز الأمرين وفيه شاهد أخرى وهو فتح نون «حين» دليلاً على بنائها. وانظر الإنصاف ٢٩٣ والخصائص ١/ ١٢٠ والتّصريح ١/ ٣٣١ والأشموني ٢/ ١١٦ و ٢٥٨ والصحاح نَدَل والبحر ٨/ ٧٣.
(٧) المرجع السابق.

عمل له فهو هَمَج إعدامه خير من وجوده. «فإذا لقيتم الذين كفروا» بعد ظهور أن لا حرمة لهم بعد إبطال عملهم فاضربوا أعناقهم[١] قال البغوي: فضرب الرقاب نَصْبٌ على الإغراء.

الثاني: إذا تبين تباين الفريقين وتباعد الطريقين بأن أحدهما يتبع الباطل وهو حزب الشيطان والآخر يتبع الحق وهو حِزب الرحمن حق القتال (عند التَّحَزُّب)[٢] فإذا لَقِيتُمُوهُمْ فاقْتُلُوهُمْ.

الثالث: أن من الناس من يقول لضعف قلبه وقُصُور نَظَرِه إيلام الحَيوان من الظُّلْم والطُّغْيَان ولا سيما القَتْلُ الذي هو تخريب بنيان. فيقال رَدًّا عليهم: لما كان اعتبار الأعمال باتباع الحق والباطل فلمن يُقْتَلْ في سبيل الله لتعظيم الله وبأمره له (من[٣]) الأجر ما للمصلي والصائم فإذا لقيتم الذين كفروا فاقتلوهم ولا تأْخُذْكُمْ بهم رأفة، فإن ذلك اتباع للحق والاعتبار به لا بصورة الفعل.

فصل

والحكمة في اختيار ضرب الرقبة دون غيرها من الأعضاء، لأن المؤمن هنا ليس بدافع، إنما هو مدافع وذلك لأن من يدفع الصائل[٤] لا ينبغي أن يقصد أولاً مقتله، بل يُتَدَرَّج ويُضْرَب غير المقتل فإن اندفع فذاك، ولا يرقى إلى درجة الإهلاك، فأخبر تعالى أنه ليس المقصود دفعهم عنكم بل المقصود دفعهم عن وجه الأرض بالكلية، وتطهير الأرض منهم وكيف لا والأرض لكم مسجِد، والمشركون نَجَسٌ، والمسجدُ يُطَهَّرُ من النجاسة؟ فإذاً ينبغي أن يكون قصدكم أولاً إلى قتلهم بخلاف دفع الصَّائل. والرقبة أظهر المقاتل، لأن قطع الحلقوم والأوداج مستلزم للموت، بخلاف سائر المواضع ولا سيما[٥] فِي الحرب. وفي قوله «لَقِيتُمْ» ما ينبىء عن مخالفتهم الصَّائل، لأن قوله: «لقيتم» يدل على أن القصد من جانبهم بخلاف قولنا «لقيكم»، ولذلك قال في غير هذا الموضع ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ﴾ [النساء: ٩١].

فإن قيل: ما الفائدة في قوله ههنا: «فَضَرْبَ الرِّقَابِ» بإضمار الفعل وإظهار

---

(١) الرازي ٢٨/ ٤٣.
(٢) زيادة من الرازي.
(٣) سقط من (أ) الأصل.
(٤) أي الساطي يقال: صَالَ على قومه صَوْلاً وصِيَالاً وصُؤُولاً وَصَولاَناً وصَالاً ومَصَالَةً: سَطَا. فهو اسم فاعل. وهذا يبين أسلوب الرازي والتواءه. وانظر الرازي ٢٨/ ٤٣ واللسان صول ٢٥٢٨.
(٥) في (ب) والرازي: لكن في الحرب لا يتهيأ ذلك والرقبة ظاهرة في الحرب. وفي الرازي فقط: ففي ضربها حَزّ العنق وهو مستلزم للموت بخلاف سائر المواضع ولا سيما في الحَرْب. وانظر الرازي ٢٨/ ٤٣.

المصدر، وقال في الأنفال: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ [الأنفال: ١٢] بإظهار الفعل وترك المصدر؟!.

فالجواب مبني على تقديم مقدَّمة، وهي أن المقصود في بعض الصور قد يكون صدور الفعل من فاعل ويتبعه المصدر ضمناً؛ إذ لا يمكن أن يفعلَ فاعل إلا ويقع منه المصدر، ويدخل في الوجود، وقد يكون المقصود أولاً المصدرَ، ولكنه لا يوجد إلا فاعل، فيطلب منه أن يفعل مثاله من قال: إنِّي حَلَفْتُ أن أخْرُج مَن المدينة، فيقال له: فاخْرج صار المقصود صدور الفِعْل منه والخروج في نفسه غير مقصود الابتعاد[١] ولو أمكن أن يخرج من غير تحقق الخروج منه لما كان عليه أن لا يَخْرُج لكن في ضرورة الخروج أن يخرج[٢]. فإذا قال قائل صادق: ضَاقَ بي[٣] المكانُ بسبب الأعداء فيقال مثلاً: الخروج يعني الخروج فاخرج فإن الخروج هو المطلوب، حتى لو أمكن الخروج من غير فعل منه، لحصل الغرض لكنه محال فيتبعه الفعل. وإذا عرف هذا فيقال: في الأنفال الحكاية عن الحرب الكائنة، وهم كانوا فيها والملائكة أنزلوا للنّصرة (و)[٤] من حضر في صفِّ القتالِ، فصدور الفعل منه مطلوب. وههنا الأمر وارد ليس في وقتِ القِتال، بدليل قوله تعالى: «فَإذا لَقِيتُمْ» والمقصود بيان كون المصدر مطلوباً لتقدم المأمُورِ على الفِعْل قال: «فَضَرْبَ الرِّقَابِ». وفي ذلك بيان فائدة أخرى، وهي أن الله تعالى قال هناك «واضْربُوا مِنهُمْ كُلَّ بنَانٍ» وذلكَ لأن الوقت وقت القتال فأرشدهم إلى القتل وغيره إن لم يصيبوا المقتل وههنا ليس[٥] وقت القتال. فبين أن المقصود القتل وغرض المسلم ذلك[٦].

قوله: «حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ» هذه غاية للأمر بضرْب الرِّقاب، لا لبيان غاية القتل[٧]. وقوله: «فشُدُّوا الوَثَاقَ» قرأ السُّلَمِيُّ: فَشِدُّوا ـ بكسر[٨] الشين وهي ضعيفة[٩] جدًّا. والوَثَاقُ ـ بالفتح وفيه الكسر ـ اسم ما يُوثَقُ به والمعنى حتى إذا أثْخَنْتُمُوهُمْ أي بالَغْتُم في القتل وقَهَرْتُمُوهُمْ فشدّوا الوثاق يعني في الأسر حتى لا يَفْلِتوا. والأسر[١٠] يكون بعد المبالغة في القتل كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧].

---

(١) كذا في النسختين وفي الرازي الانتقاء وهو أقرب.

(٢) في (ب) وإذا بالواو. (٣) وفيها: في بدل بي.

(٤) زيادة من النسختين معاً عن الرازي ففيه: أنزلوا لنصره من حضر.

(٥) كذا هو الأصح من (ب) والرازي ففي (أ) قال وهو خطأ وسهو من الناسخ.

(٦) وانظر الرازي ٢٨/ ٤٤. (٧) قاله الرازي في مرجعه السابق.

(٨) وهي شاذة ذكرها ابن خالويه في المختصر ١٤٠ والبحر ٨/ ٧٤.

(٩) نظراً لعدم إتباع حركة العين للام ففيه ثقل من كسر إلى ضم.

(١٠) في (ب) الأمر وهو تحريف.

قوله: «فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وإِمَّا فداءاً». فيهما وجهان:

أشهرهما: أنهما منصوبان على المصدر بفعل[١] لا يجوز إظهاره؛ لأن المصدر متى سبق تفصيلاً لعاقبة جملة وجب نصبه بإضمار فعل لا يجوز إظهاره، والتقدير: فَإِمَّا أَنْ تَمُنُّوا وَإِمَّا أَنْ تُفَادُوا[٢] فِدَاءً ومثله[٣]:

٤٤٦٣ ـ لأَجْـهَـدَنَّ فَـإِمَّـا دَرْءَ وَاقِـعَـةٍ تُـخْـشَـى وَإِمَّـا بُـلُـوغَ الـسُّـؤْلِ وَالأَمَـلِ[٤]

والثاني: قال أبو البقاء: إنهما مفعولان بهما لعامل مقدر تقديره: أَوْلُوهُمْ مَنًّا واقْبَلُوا مِنْهُمْ فِدَاءً[٥].

قال أبو حيان: وليس بإعرابٍ نَحْوِيٍّ[٦].

وقرأ ابن كثير: فِدًى ـ بالقصر[٧] ـ قال أبو حاتم: لا يجوز، لأنه مصدر فَادَيته. ولا يُلْتَفَتُ إليه[٨]؛ لأن الفرّاء حكى فيه أربع لغات المشهور المدّ والإعراب[٩]: فِدَاءً لَكَ، وفَداءِ بالمد أيضاً والبناء على الكسر، والتنوين، وهو غريب جداً. وهذا يشبه قول بعضهم: هؤلاءٍ بالتنوين. وفِدًى بالكسر مع القصر، وفَدًا بالفتح مع القصر أيضاً[١٠]. والأوزار هنا الأثقال. وهو مجاز. وقيل: هو من مجاز الحذف أي أهْل الحرب. والأوزار عبارة عن آلات الحرب قال (الشاعر في معنى ذلك رحمه الله)[١١]:

---

(١) وإلى هذا ذهب القرطبي في الجامع ١٦/ ٢٢٦، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٣١ والرازي في تفسيره ٢٨/ ٤٤ والنحاس في الإعراب ٤/ ١٧٩ وأبو البقاء في التبيان ١١٦٠ وابن الأنباري في البيان ٢/ ٣٧٤ والفراء في المعاني ٣/ ٥٧ وأبو عبيدة في المجاز ٢/ ٢١٤.

(٢) قدره الزمخشري في الكشاف: فَإما تَمُنُّونَ وإما تَفْدُونَ.

(٣) بالمعنى من البحر المحيط ٨/ ٧٤ و ٧٥.

(٤) من البسيط ولم أهتد إلى قائلة والمعنى فيه واضح والشاهد: نصب «دَرْءَ وبُلوغَ» على المصدر بفعل واجب الإضمار حيث وقع في سياق تفسير عاقبة خبر، فهو من المواضع التي يجب فيها حذف الفعل وجوباً. وانظر الهمع ١/ ١٩٢ والبحر المحيط ٨/ ٧٥ والسراج المنير ٤/ ٢٣.

(٥) التبيان ١١٦٠.

(٦) في البحر: إعراب وانظر البحر المرجع السابق.

(٧) لم ترو عنه في المتواتر. انظر المختصر ١٤٠ والبحر ٨/ ٧٥ والقرطبي ١٦/ ٢٢٦ بدون نسبة.

(٨) هذا دفاع أبي حيان انظر المرجع السابق.

(٩) كذا في النسْخَتَيْنِ وفي البحر: الإغراء وهو وإن كان جائزاً إلا أن الإعراب هو المراد.

(١٠) لم أجد هذا في كتابه «معاني القرآن» وهو في المقصور والممدود له ٢٥ و ٢٦ وانظر البحر ٨/ ٧٥ وإعراب النحاس ٤/ ١٧٩.

(١١) ما بين القوسين سقط من (ب).

٤٤٦٤ ـ وَأَعْـدَدْتَ لِـلْـحَـرْبِ أَوْزَارَهَـا رِمَـاحـاً طِـوَالاً وَخَـيْـلاً ذُكُـورا[(١)]

وحتى الأولى غاية لضرب الرقاب، والثانية لـ «شُدُّوا» ويجوز أن يكونا غايتين لضَرْب الرِّقاب على أن الثانية توكيد وبدل.

قال ابن الخطيب: وفي تعلق «حَتَّى» وجْهَانِ:

أحدهما: تعلقها بالقتل أي اقْتُلُوهُمْ حَتَّى تَضَعَ.

وثانيهما: بالْمَنِّ والفِداء. ويحتمل أن يقال متعلقة بقوله: «فشدوا الوثاق» وتعلقها بالقتل أظهر[(٢)].

فصل

قدم المن على الفداء، لأن حرمة النفس راجحة على طلب المال. والفداء يجوز أن يكون مالاً ويجوز أن يكون غيره من الأشياء، ويشرط بشرط عليهم، أو عليه وحده[(٣)].

فصل

قال ابن الخطيب: الوزر الإثمُ أو السِّلاح، والإثم إنما هو على المحارب وكذلك السلاح ومعناه تضع الحرب الأوزار التي على المحاربين أو السلاح الذي عليهم، كقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] فكأنه قال: حتى تَضَع أمةُ الحرب، أو فِرقةُ الحرب أوزارها. والمراد انقضاء الحرب بالكلية بحيث لا يبقى في الدنيا حزب من أحزاب الكفر لا حزب من أحزاب الإسلام هذا إذا أمعنت النظر في المعنى. ولو قلنا: حتى تضع أمة الحرب جاز أن يضعوا الأسلحة ويتركوا الحرب وهي باقية، كقول القائل: خصومتي ما انْفَصَلَتْ، ولكني تركتها في هذه الأيام. وإذا أسندنا الوضع إلى الحرب يكون معناه إن الحرب لم تَبْقَ. واختلفوا في وقت وضع الأوزار على أقوال، يرجع حاصلها إلى الوقت الذي لا يبقى فيه حِزْبٌ من أحْزَاب الإسلام، ولا حزب من أحزاب الكفر. وقيل: ذلك عند قتال الدجال ونزول عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ[(٤)].

فصل

اختلف العلماء في حكم هذه الآية، فقال قوم: هي منسوخة بقوله: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي

(١) نسب هذا البيت لأكثر من واحدٍ، فقد نسبه ابن عطية لعمرو بن معد يكرب. ونسبه الزمخشري للأعشى وكذلك في القرطبي ومجمع البيان، بينما نسبه أبو حيان لعمرو كابن عطية والأصح أنه للأعشى كما في الديوان ٨٧ و٨٨ وهو من المتقارب وشاهده: في كلمة الأوزار، فإنَّ معناها الأثقال والآلات للحرب وانظر القرطبي ١٦/ ٢٢٩ ومجمع البيان ٩/ ١٤٥ والكشاف ٣/ ٥٣٥ والبحر ٨/ ٧٥.

(٢) الرازي ٢٨/ ٤٥.

(٣) السابق.

(٤) الرازي السابق.

ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٧] وبقوله: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] وإليه ذهب قتادة والضحاك، والسُّديُّ وابنُ جُرَيْج، وهو قول الأوزاعي[١] وأصحاب الرأي وقالوا: لا يجوز المنّ على من وقع في الأسر من الكفار ولا الفداء. وذهب آخرون إلى أن الآية محكمة، والإمام بالخيار في الرجال العاقلين من الكفار إذا أوقعوا في الأسر بين أن يقتلهم، أو يَسْتَرِقَّهُمْ أو يمُنَّ عليهم فيطلقهم بلا عوض أو يُفَادِيهم بالمال أو بأسارى المسلمين. وإليه ذهب ابنُ عمر. وبه قال الحسن وعطاء وأكثر الصحابة والعلماء. وهو قول الثَّوريِّ والشافعيِّ وأحمد وإسحاق[٢]. قال ابن عباس ـ (رضي الله عنهما) ـ لما كثر المسلمون واشتد سلطانهم أنزل الله في الأُسارى «فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وإِمَّا فِدَاءً»، وهذا هو الأصح والاختيار، لأنه عمل به رسول الله ـ ﷺ ـ والخلفاءُ بعده[٣]. روى البخاري عن أبي هريرةَ قال: بعث النبي ـ ﷺ ـ خيلاً قبل نَجْد، فجاءت برجُل من بني حنيفة، يقال (له)[٤] ثُمَامَةُ بنُ أُثَالٍ، فربطوه في سَارِيَةٍ من سواري المسجد فخرج إليه رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي خيرٌ يا محمد، إن تَقْتُلْنِي تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وإن تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شاكرٍ وإنْ كُنتَ تريدُ المالَ فلك ما شئتَ، حتى كان الغَدُ فقال له: ما عندك يَا ثُمَامَةُ؟ فقال: عندي ما قلتُ لك: إن تُنْعِمْ تُنعم عَلَى شاكر. فتركه حتى إذا كان بعد الغد قال: ما عندك يا ثمامةُ؟ قال: عندي ما قلتُ لك قال: أطْلِقُوا ثمامة، فانطلق إلى نخل قريبٍ من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله والله ما كان على الأرض وجهٌ أبغضُ إليَّ مِنْ وَجْهِكَ فقد أصبح وجهك أحبَّ الوجوه إليَّ، واللَّهِ ما كان من دينٍ أبغَضَ إلَيَّ من دينكَ فأصبح دينُك أحبَّ الدِّين إلَيَّ. واللَّهِ ما كان من بَلَدٍ أبغضَ إلَيَّ من بلدِكَ فقد أصبح بلدكُ أحبَّ البلادِ إلَيَّ. وإن خَيْلك أخذتني وأنا أريدُ العُمْرَةَ فما ترى؟ فبشَّره رسول الله ـ ﷺ ـ وأمره أن يعتمر فلما قدم مكة قال له قائل: صَبَوْتَ؟ قال: لا ولكن أسلمت مع محمد ـ ﷺ ـ ولا واللَّهِ لا يأتيكم من اليَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ حتى يأذن فيها النبي ـ ﷺ ـ. وعن عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قال: أسر أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ رجلاً من عَقِيل فأوثقوه، وكانت ثَقِيفٌ قد أسرت رجلين من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ فَفَدَاه رسول الله ـ ﷺ ـ بالرجلين اللذين أَسَرَتْهُمَا ثَقِيفٌ.

---

(١) سبق التعريف به.

(٢) هو الإمام الحافظ الكبير إسحاق بن إبراهيم الحَنْظَلِيّ أبو يعقوب التَّمِيمِيّ المروزيّ ويعرف بابن رَاهَوَيْهِ صاحب المسند والسنن والتفسير المشهور سمع من ابن المبارك وجرير بن عبد الحميد، وعنه الجماعة سوى ابن ماجه. مات سنة ٢٣٨ هـ. انظر طبقات الداودي ٢/ ١٠٣: ١٠٥.

(٣) انظر القرطبي ١٦/ ٢٢٧ و٢٢٨.

(٤) سقط من ب.

قوله: «ذَلك» يجوز أن يكون خبر مبتدأ مضمر، أي الأمر ذلك وأن ينتصب بإضمار «افْعَلُوا»[١]. قال ابن الخطيب: ويحتمل أن يقال: ذلك واجبٌ أو مقدمٌ كما يقول القائل: إنْ فعلت فذاك، أي فذاك مقصود ومطلوبٌ[٢].

فصل

قال المفسرون: معناه «ذلك» الذي ذكرت وبيّنت من حكم الكفار، «وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ» فأهلكهم وكفاهم أمرهم بغير قتال، «ولكن» أمركم بالقتال «لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ» فيصير من قتل من المؤمنين إلى الثواب، ومن قتل من الكافرين إلى العذاب[٣].

فإن قيل: ما التحقيق في قولنا: التكليف ابتلاء وامتحان والله يعلم السِّرَّ وأخْفَى؟

فالجواب من وجوه:

الأوّل: أن المراد منه يفعل ذلك فعل المسلمين أي كما يقول المبتلى المُخْتَبَر.

الثاني: أن الله تعالى يَبْلُو ليظهر الأمر لغيره، إما للملائكة، أو للناس والتحقيق هو أن الابتلاء والاختبار فعل يظهر بسببه أمر ظاهر.

فإن قيل: فائدة الابتلاء حصول العلم عند المبتلي، فإذا كان الله عالماً فَأَيُّ فائدةٍ فيه؟

فالجواب: أن هذا السؤال كقول القائل لم عاقب الكافر وهو مُسْتَغْنٍ؟ ولم خلق النار مُحْرِقَةً وهو قادر على أن يخلقها بحيث تنفع ولا تضر؟ وجوابه: لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ (وَهُمْ يُسْأَلُونَ)[٤]؟

قوله: «وَالَّذِينَ قُتِلوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» قرأ العامة قَاتَلُوا. وأبو عمرو وحفصٌ قُتِلُوا مبنياً للمفعول[٥] على معنى أنهم قُتِلُوا وماتوا؛ أصاب القتل بعضهم كقوله: ﴿قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]. وقرأ الجَحْدَرِيّ: قَتَلُوا بفتح القاف والتاء خفيفة ومفعوله محذوف. وزيد بن ثابت والحسن وعيسى قُتِّلُوا، بتشديد التاء مبنياً للمفعول[٦].

قوله: «فلن يضل أعمالهم» قرأ علي ـ رضي الله عنه ـ يُضَلَّ مبنياً للمفعول أَعْمَالُهُمْ

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٣١ والبحر ٧٥ وقال بالأول فقط أبو البقاء ١١٦٠.

(٢) الرازي ٢٨/ ٤٥.

(٣) الرازي السابق والقرطبي ١٦/ ٢٢٩ و ٢٣٠.

(٤) بالمعنى من الرازي ٢٨/ ٤٦.

(٥) قراءة سبعية متواترة انظر السبعة ٦٠٠ والكشاف ٢/ ٢٧٦ وحجة ابن خالويه ٣٢٨ والإتحاف ٣٩٣.

(٦) القراءتان شاذتان لكن الثانية من الأربع فوق العشر، فقد ذكرت في الإتحاف السابق وقد ذكر القراءتين دون نسبه الكشاف ٣/ ٥٣١ كما ذكرهما بنسبة أبو حيان في البحر ٨/ ٧٥ وذكر الثانية بنسبة ابن خالويه في المختصر ١٤١.

بالرفع لقيامه مقام الفاعل[١]. وقرىء: تَضِلَّ بفتح التاء أَعْمَالُهُمْ بالرفع فاعلاً[٢]. والفاء في قوله: «فَلَنْ يُضِلّ» جزائية؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا﴾ فيه معنى الشرط. قال قتادة: ذكر لنا أن هذه الآية نزلت يوم أُحُدٍ، وقد فَشَتْ في المسلمين الجِرَاحَاتُ والقَتْلُ.

قوله: «سَيَهْدِيهِمْ» أيام حياتهم في الدنيا إلى أرشد الأمور وفي الآخرة إلى الدرجات «وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ» برضى خصمائهم وتقبل أعمالهم. وقد تقدم تفسيره في قوله تعالى: ﴿أَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ والماضي والمستقبل راجعٌ إلى أن هناك وعدهم ما وعدهم بسبب الإيمان، والعمل الصالح، وكان قد وقع منهم فأخبر عن الجزاء أيضاً بصيغة الوقوع. وههنا وعدهم بسببه القتل والقتال وكان في اللفظ ما يدل على الاستقبال، لأن قوله «فَإِذَا لَقِيتُم» يدل على الاستقبال فقال: «يُصْلِحُ بَالَهُمْ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ».

قوله: «عَرَّفَهَا لَهُمْ» يجوز فيها وجهان:

أحدهما: أن تكون مستأنفة.

والثاني: أن تكون حالاً.

فيجوز أن تضمر «قد»، وأن لا تضمر[٣]، و «عَرَّفَهَا» من التعريف الذي هو ضد الجَهْل والمعنى أن كل أحد يعرف منزله في الجنة. وقيل: الملك الموكل بأعماله يهديه. وعن ابن عباس ـ (رضي الله عنهما)[٤] ـ أنه من العَرْفِ وهو الطيب أي طيَّبهَا لهم[٥]. وقال الزمخشري: يحتمل أن يقال: عرَّفَهَا لهم من عرَّفَ الدَّارَ وأَوْرَثَها[٦] أي حددها، وتحديدها في قوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، ويحتمل أن يقال: المراد هو قوله تعالى لهم: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا﴾ [الزخرف: ٧٢] فيشير إليها معرفاً لهم بأنها هي تلك. وقيل: عرفها لهم وقت القتل، فإن الشهيد وقت وفاته يُعْرَضُ عليه منزله في الجنة فيشتاقُ إليه[٧]. وقرأ أبو عمرو ـ في رواية ـ ويُدْخِلْهُمْ ـ بسكون اللام[٨] وكذا ميم ويُطْعِمُهُمْ[٩] وعين ﴿يَجْمَعَنَّكُمْ﴾ [النساء: ٨٧] كان

(١) شاذة أيضاً انظر البحر والكشاف والمختصر السابقات.

(٢) الذي في البحر والكشاف: يَضل بفتح الياء لا التاء ولم أعثر عليها قراءة بالتاء ولعل ذلك تحريف من النساخ ولم تنسب في المرجعين هذين. وهي شاذة.

(٣) انظر التبيان: ١١٦٠.

(٤) زيادة من (أ).

(٥) انظر الرازي ٢٨/ ٤٨ والقرطبي ١٦/ ٢٣١.

(٦) كذا في النسختين والأصح كما في الكشاف ونقله عن الرازي: وأَرفَهَا.

(٧) انظر هذه الأوجه في الرازي ٢٨/ ٤٨ والقرطبي ١٦/ ٢٣١.

(٨) لم ترو عنه في المتواتر انظر البحر ٨/ ٧٦.

(٩) لعله قصد «نطعمكم» من الآية ٩ من الإنسان.

يستثقل الحركات. وقد تقدم له قراءة بذلك في ﴿يُشْعِرُكُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٩] و ﴿يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] وبابه.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٩﴾

قوله: «يا أيّها الَّذِينَ آمَنُوا إنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ» أي إن تنصروا دينَه وتَنْصُروا رَسُولَهُ يَنْصُرْكُمْ على عدوكم. وقيل: إنْ تنصُرُوا حِزْبَ اللَّهِ وفَرِيقَهُ.

قوله: «ويُثَبِّتْ أقْدَامَكُمْ» قرأ العامة ويثبت مشدداً. وروي عن عاصم تخفيفه من أثْبَتَ. والمعنى: ويُثَبِّتْ أقْدَامَكُمْ عند القتال.

قوله: «والَّذِينَ كَفَرُوا» يجوز أن يكون مبتدأ، والخبر محذوف تقديره: فَتَعِسُوا وأُتْعِسُوا، بدليل قوله: «فَتَعْساً لَهُمْ» وقوله: «فتعساً» منصوب بالخبر. ودخلت الفاء تشبيهاً للمبتدأ بالشرط[١]. وقدر الزمخشري الفعل الناصب لـ «تعساً» فقال: لأن[٢] المعنى يقال[٣] تعساً أي[٤] فقضَى تَعْساً لَهُمْ[٥]. قال أبو حيان: وإضمار ما هو من لفظِ المصدر أولى. والثاني: أنه منصوب بفعل مقدر يفسره «فَتَعْساً لَهُمْ»، كما تقول: زَيْدٌ جَدْعاً لَهُ[٦]. كذا قال أبو حيان[٧] تابعاً للزمخشري[٨]. وهذا لا يجوز لأن «لهم» لا يتعلق بـ «تَعْساً»، إنما هو متعلق بمحذوف لأنه بيان أي أعني عنهم[٩]. وتقدم تحقيق هذا. فإن عيَّنا[١٠] إضماراً من حيثُ مُطْلَقُ الدَّلالة لا من جهة الاشتغال فمُسَلَّم، ولكن تأباه عبارتُهُما وهي قولهما: منصوب بفعلٍ مضمر يفسره «فتعساً لهم»[١١]. و «أَضَلَّ» عاطف على ذلك الفعل المقدر أي أَتْعَسَهُمْ وأَضَلَّ أعمالهم[١٢] والتَّعْسُ ضدّ السَّعْدِ، يقال: تَعَسَ الرَّجُل ـ بالفتح ـ تَعْساً، وأَتْعَسَهُ اللَّهُ، قال مُجَمِّعٌ:

---

(١) البحر المحيط ٨/٧٦ والتبيان ١١٦١ و ١١٦٠.

(٢) في (ب) إن. (٣) في البحر: فقال.

(٤) وفيه: أو هو بلفظ البحر عن الزمخشري انظر البحر ٨/٧٦.

(٥) قال ـ رحمه الله ـ في الكشاف: «كأنه قال أتعس الذين كفروا».

(٦) و (٧) و (٨) البحر والكشاف السابقين.

(٩) في «ب لهم» بدل عَنْهُمْ. (١٠) في (ب) عَنيا.

(١١) وما ذهب إليه الزمخشري وأبو حيان في نصب «تعساً» بفعل مقدر هو ما ذهب إليه الفراء في المعاني ٣/٥٨ والقرطبي في الجامع ١٦/ ٢٣٢ والزجاج في المعاني في أحد قوليه ٥/٩ والنحاس في الإعراب ٤/ ١٨١ ومكي في المشكل ٢/ ٣٠٥ فلا معنى لاعتراض المؤلف على كلامهما.

(١٢) معاني الفراء وإعراب النحاس السابقين. وانظر أيضاً التبيان ١١٦١ وكذلك البحر والكشاف السابقين.

٤٤٦٥ ـ تَقُولُ وَقَدْ أَفردْتُهَا عَنْ خَلِيلِهَا تَعَسْتَ كَمَا أَتْعَسْتَنِي يَا مُجَمَّعُ[١]

وقيل: تعس ـ بالكسر ـ عن أبي الهَيْثَم[٢] وشَمِرٍ[٣] وغيرهما. وعن أبي عبيدة: تَعسهُ واتْعَسَهُ مُتَعَدِّيَانِ[٤]، فهُما مِّما اتُّفِقَ فِيهِما فَعَلَ وأَفْعَلَ.

وقيل: التعس ضد الانتعاش، قال الزمخشري ـ (رحمه الله تعالى)[٥]: وتعساً له نقيض لَعَا لَهُ[٦] يعني أن كلمة «لَعَا» بمعنى[٧] انْتَعَشَ قال الأعشى:

٤٤٦٦ ـ بِذَاتِ لَوْث عَفَرْنَاةٍ إذَا عَثَرَتْ فَالتَّعْسُ أَدْنَى لَهَا مِنْ أَنْ أَقُولَ لَعَا[٨]

وقيل: التعْسُ الهَلاَك. وقيل التعس الجَرُّ[٩] على الوجه، والنَّكْسُ الجر على الرأس[١٠].

فصل

قال ابن عباس: صَمْتاً لهم، أي بُعْداً لهم. وقال أبو العالية: سُقُوطاً لهم. وقال ابن زيد: شقاءً لهم[١١] وقال الفراء: هو نصب على المصدر على سبيل الدعاء[١٢]. وقيل: في الدنيا العَثْرَةُ، وفي الآخرة التَّرَدِّي في النار. ويقال للعاثر: تَعْساً إذا لم يريدوا قيامه

---

(١) من الطويل لمُجمَّع بن هلال. وشاهده في تعس وأتعس حيث يأتي لازماً ومتعدياً. وانظر البَحْرَ ٨/ ٧٠، والقرطبي ١٦/ ٢٣٣. واللسان تعس ٤٣٣ وفتح القدير ٥/ ٣٢.

(٢) أبو الهيثم خالد بن يزيد الرازي كان عالماً بالعربية عذْب العبارة، دقيق النظر. توفي سنة ٢٢٦ وانظُرْ نزهة الألباء ١٤٧.

(٣) ابن حَمْدَوَيْهِ الهروي أبو عمرو اللغَوي الأديب أخذ عن ابن الأعرابيّ والفراءِ والأَصْمَعِي وأبي حَاتم. انظر البغية ٢/ ٤ و ٥ وانظر اللسان المرجع السابق (تعس).

(٤) لم أعثر على رأيه هذا.

(٥) زيادة من (أ).

(٦) «لعاً» كلمة يدعى بها للعاثر معناها الارْتِفَاعُ.

(٧) الكشاف ٣/ ٥٣٢ بالمعنى.

(٨) هو له من البسيط وفي اللسان «أدنى» كما رواها المؤلف هنا. وقد رويت في الدِّيوان ١٠٧، كما رواها القرطبي والبحر المحيط أولى ـ بالواو ـ والعفرنَاةُ الغُولُ، واللَّوْثُ القوة. وقد شبه ناقته بالغُولِ، ولعا دعاء للعاثر أن ينتعش أي سلمتَ ونجوتَ، وهو محلّ الشاهد. وانظر المحتسب ١/ ١٤١ والبحر ٨/ ٧٠ والقرطبي ١٦/ ٣٣٢ واللسان تعس ٤٣٣، والكشاف ٣/ ٥٣٢ وشرح شواهده ٤٥٠ و ٤٥١.

(٩) في القرطبي: الخرّ بالخاء.

(١٠) نسب القرطبي هذين الوجهين إلى ابن السِّكِّيت. قال: التعس أن يَخر على وجهه والنكس أَنْ يَخِرَّ على رأسه. انظر القرطبي ١٦/ ٢٣٣.

(١١) ذكر هذه الأوجه القرطبي في المرجع السابق.

(١٢) معاني القرآن ٣/ ٥٨.

وضده لِمَا إذا أرادوا قيامه. وأضل أعمالهم؛ لأنها كانت في طاعة الشيطان، وهذا زِيَادَةٌ في تقوية قُلُوبِهِمْ؛ لأنه تعالى قال: لَكُم الثباتُ ولهم الزوالُ والتَّعَثُّر.

قوله: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ» يجوز أن يكون «ذلك» مبتدأ، والخبر الجار بعده، أو خبر مبتدأ مضمر، أي الأمر ذلك بسبب أنهم كرهوا. أو منصوب بإضمار فعل أي فَعَلَ بهم[1] ذَلِكَ بسبب أنهم كرهوا فالجار في الوجْهَيْنِ الأخيرين منصوب المحل والمعنى: ذلك التعس والإضلال بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم والمراد أنهم كرهوا القرآن، أو كرهوا ما أنزل الله من بيان التوحيد فلم يعرفوا العَمَل الصَّالِحَ بل أشركوا، والشرك يحبط العمل، قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] وقيل: كرهوا ما أنزل الله من بيان أمر الآخرة فلم يعملوا لها والدنيا وما فيها وما لها باطل، فأحبط الله أعمالهم.

قوله تعالى: ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴿١٤﴾﴾

ثم خوف الكفار فقال: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» أي أهلكهم[2].

قوله: «دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» يجوز أن يكون حذف مفعوله، أي أهلك الله بُيُوتَهُمْ، وخرّبها عليهم[3] أو يضمن معنى «دمر» معنى سخط الله عليهم بالتدمير. وقوله: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ» مناسب للوجه الأخير، يعني فينظروا إلى حالهم، ويعلموا أن الدنيا فانيةٌ.

قوله: «وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا» أي أمثال العاقبة المتقدمة[4]. وقيل: أمثال العقوبة. وقيل: التدمير. وقيل: الهلكة[5]. والأول أولى لتقدم ما يعود عليه الضمير صريحاً مع صحة معناه.

---

(١) ذكر هذين الإعرابَيْنِ المحتملين الزجاج في معاني القرآن ٥/٧.
(٢) انظر الرازي ٢٨/٤٩ و ٥٠، والبحر المحيط ٨/٧٦.
(٣) قاله القرطبي في الجامع ١٦/٢٣٤ وانظر المرجعين السابقين.
(٤) وهو اختيار الزجاج في المعاني ٥/٨.
(٥) الكشاف ٣/٥٣٢ وقال بالعقوبة الرازي فيما نقله عن أحد الأقوال.

فإن قيل: إذا عاد الضمير إلى العاقبة فكيف يكون لها أمثال؟

فالجواب: أن المراد هو العذاب الذي هو مدلول العاقبة، والألم الذي دلّت العاقبة عليه[١].

فصل

في المراد بقوله: «وللكافرين أمثالها» وجهان:

أحدهما: أن المراد الكافرون بمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

والثَّانِي: أن المراد لهم أمثالها في الآخرة، فيكون المراد من الكافرين مَنْ تقدّم، كأنه يقول: دَمرَ اللَّهُ عليهم في الدنيا ولهم في الآخرة أمثالها.

فإن قيل: إذا كان المراد (من) الكافرين بمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ فإنهم أمثال ما كان لمن تقدمهم من العاقبة، فالأولون أهلكوا بأمور شديدة كالزَّلاَزِلِ والنِّيران والرِّيَاحِ والطُّوفَانِ، ولا كذلك قوم محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

فالجواب: يجوز أن يكون عذابهم أشد من عذاب الأولين، لكون دين محمد أظهر بسبب تقدم الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ عليه، وإخبارهم عنه، وإنذارهم على أنهم قتلوا وأُسِرُوا بأيدي مَنْ كانوا يَسْتَخِفُّونَهُمْ ويستضعفونهم والقتل بيد المِثل آلم من الهلاك بسبب عام[٢].

قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تقدم الكلام على نظيره ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ والمراد بالمولى هنا الناصر. ثم ذكر ما للفريقين فقال: «إنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ» لما بين حال المؤمنين والكافرين في الدنيا بين حالهم في الآخرة وقال: إنه يدخل المؤمن الجنة، والكافر النار. وقد تقدم أن مِنْ في قوله: «مِنْ تَحْتِهَا» تحتمل أن تكون صلة معناه تجري تحتها، ويحتمل أن يكون المراد (أن)[٣] ماءها منها لا يجري إليها من موضع آخر، يقال: هذا النهر مَنْبَعُهُ مِنْ أَيْنَ؟ يقال: من عين كذا من تحت جبل كذا[٤].

قوله: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأكُلُونَ كَمَا تَأكُلُ الأَنْعَامُ» أي ليس لهم هِمة إلا بطونهم وفروجهم وهم لاهون عما في غد. قيل: المؤمن في الدنيا يتزود، والكافر يتزين، والكافر يتمتع[٥].

قوله: «كَمَا تأكُلُ الأنعامُ» إما حال من ضمير المصدر، أي يأكلون الأكل مشبهاً أكل الأنعام وإما نعت لمصدر أي أكلاً مثل أكل الأنعام.

---

(١) الرازي ٢٨/ ٥٠.
(٢) الرازي السابق.
(٣) سقط من (ب).
(٤) انظر كل هذا في الرازي ٢٨/ ٥٠ و ٥١.
(٥) القرطبي ١٦/ ٢٣٤.

قوله: «والنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ» يجوز أن تكون هذه الجملة استئنافاً. ويجوز أن تكون حالاً، ولكنها مقدرة أي يأكلون مقدار ثَوْيتهم في النار. وقال في حق المؤمن: «إنَّ الله يُدْخِلُ» بصيغة الوعد، وقال في حق الكافر: «النار مثوى لهم» بصيغة تنبىء عن الاستحقاق، لأن الإحسان لا يستدعي استحقاقاً، فالمحسن إلى من يوجد منه ما يوجب الإحسان كريم. والمعذب من غير استحقاق ظالم[(١)].

قوله: «وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ» يريد أهل، ولذلك راعى هذا المقدر في قوله: «أَهْلَكْنَاهُمْ فلا نَاصِرَ لَهُمْ» بعدما راعى المضاف في قوله: «هِيَ أَشَدّ» والجملة من هي ابتداء صفة لقرية. وقال ابن عطية: نسب الإخراج للقرية حملاً على اللفظ وقال: «أهلكناهم» حملاً على المعنى[(٢)]. قال أبو حيان: وظاهر هذا الكلام لا يَصِحّ لأن الضمير في «أهلكناهم» ليس عائداً على المضاف إلى القرية التي أسند إليها الإخراج بل على[(٣)] أهل القرية في قوله: «وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ» فإن كان أراد بقوله: «حملاً على المعنى»، أي معنى القرية في قوله: «وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ» فهو صحيح، لكن ظاهر قوله: حملاً على اللفظ، وحملاً على المعنى أن يكون في مدلول واحد. وكان على هذا يبقى كأين مفلتاً غير محدَّث عنه بشيء إلا أن يتخيَّل أن «هِيَ أَشَدّ» خبر عنه والظاهر أنه صفة لقرية[(٤)]. قال شهاب الدين: وابنُ عطية إنما أراد لفظ القرية من حيث الجملة لا من حيث التفسير[(٥)].

فصل

لما ضرب الله لهم مثلاً بقوله: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ»، ولم ينفعهم مع ما تقدم من الدلائل، ضرب للنبي ـ ﷺ ـ مثلاً تسلية له فقال: «وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ» أي أخرجك أهلها، قال ابن عباس: كان رجالهم أشد من أهل مكة، يدل عليه قوله: «أَهْلَكْنَاهُمْ» ولم يقل: «أهلكناها» فلا ناصر لهم كذلك يفعل[(٦)] بهم، فاصبر كما صبر رسلهم.

وقوله: «فلا ناصر لهم» قال الزمخشري (كيف)[(٧)] قال «فَلاَ نَاصِرَ لَهُمْ» (مع)[(٨)] أن الإهلاك ماضٍ وقوله: «فَلاَ نَاصِرَ لَهُمْ» للحال والاستقبال محمول على الحكاية، والحكاية كالحال الحاضر[(٩)]، ويحتمل أن يقال: قوله: «فلا ناصر لهم» عائد على أهل قرية محمد

---

(١) الرازي السابق.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٧٧ و ٧٨.
(٣) في البحر: إلى.
(٤) بالمعنى من المرجع السابق.
(٥) الدر المصون للعلامة شهاب الدين السمين الحلبي مخطوط بمكتبة الإسكندرية لوحة رقم ١٠٠.
(٦) في (ب) نفعل. وانظر البحر ٨/ ٧٨.
(٧) و (٨) زيادة من الرازي يقتضيها السياق.
(٩) وهو بلفظ الرازي نقلا بالمعنى من الكشاف ٣/ ٥٣٣ وانظر الرازي ٢٨/ ٥٢.

ـ عليه الصلاة والسلام ـ كأنه قال: أهلكنا من تقدم من أهل دينك ولا ناصر لأهل قريتك ينصرهم ويُخلِّصهُمْ مِنْ مِثْلِ ما جرى على الأولين[١].

فصل

قال ابن عباس (رضي الله عنهما)[٢]: لما خرج رسول الله ـ ﷺ ـ من مكة إلى الغار التفت إلى مكة، وقال: أنت أحب بلاد الله إلى الله، وأحب بلاد الله إلَيَّ، ولو أن المشركين لم يخرجوني لم أخرج منك. فأنزل الله هذه الآية[٣].

قوله: «أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ» أفمن كان مبتدأ والخبر «كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ» وحمل على لفظ «مَنْ» فأفرد في قوله: «سوء عمله»، وعلى المعنى فجمع في قوله: «وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ». (والجملة[٤] من «اتبعوا أهواءهم» عطف على «زين»؛ فهو صلة.

فصل

معنى قوله: «أفمن كان على بينة من ربه» أي يقين من دينه، يريد محمداً والمؤمنين، كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم) يعني عبدة الأوثان، يريد أبا جهل والمشركين.

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾

قوله: «مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ» لما بين الفرق بين الفريقين في الاهتداء والإضلال بين الفرق بينهما في مرجعهما ومآلهما.

قوله: «مثل الجنة» فيها أوجه:

أحدها: أنه مبتدأ وخبره مقدر، فقدره النضْرُ بنُ شُمَيْل: مثل الجنة ما يسمعون «فما يسمعون» خبر، و «فِيها أَنْهَارٌ» مفسر له. وقدره سيبويه: فيما يتلى عليكم مثل الجنة. والجملة بعدها أيضاً مفسرة للمثل[٥]. قال سيبويه: المثل هو الوصف ومعناه وصف الجنة، وذلك لا يقتضي مشابهة.

---

(١) هذا رأي الإمام الرازي في مرجعه السابق. (٢) زيادة من (أ).

(٣) القرطبي ١٦/ ٢٣٥ والبحر ٨/ ٧٨.

(٤) ما بين القوسين سقط من (ب) بسبب انتقال النظر وهو بتوضيح وتفصيل في التبيان للعكبري ١١٦١.

(٥) انظر البحر والكشاف السابقين.

الثاني: أن مثل زائدة[١] تقديره: الجنَّةُ التي وعد المتقون فيها أنهار. ونظير زيادة مثل هنا زيادة «اسم» في قوله:

٤٤٦٧ ـ **إِلَى الْحَوْلِ ثُمَ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا** ....[٢]

الثالث: أن مثل الجنة مبتدأ، والخبر قوله: «فيها أنهار»[٣]، وهذا ينبغي أن يمتنع؛ إذ لا عائد من الجملة إلى المبتدأ، ولا ينفع كون الضمير عائداً على ما أضيف إليه المبتدأ.

الرابع: أن مثل الجنة مبتدأ خبره «كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ»[٤] فقدره ابن عطية: أمثل أهل الجنة كمن هو خالد (في النار) (فقدر[٥] حرف الإنكار ومضافاً ليصحَّ.

وقدره الزمخشري أمثل الجنة كمن جزاؤه[٦] من هو خالد) والجملة من قوله: «فِيهَا أَنْهَارٌ» على هذا فيها ثلاثة أوجه:

أحدها: هي حال من الجنة، أي مستقرة فيها أنهار.

الثاني: أنها خبر لمبتدأ مضمر، أي هي فيها أنهار، كأن قائلاً قال: ما فيها؟ فقيل: فيها أنهار[٧].

الثالث: أن تكون تكريراً للصلة، لأنها في حكمها، ألا ترى إلى أنه يصح قولك: التي فيها أنهار[٨].

وإنما أعري[٩] قوله مثل الجنة تصوير المكابرة من أن يسوّي بين المستمسك بالبينة وبين التابع هواه، كمن يسوّي بين الجنة التي صفتها كيت وكيت وبين النار التي صفتها أن يسقي أهلُها الحَمِيم. ونظيره قول القائل ـ رحمه الله ـ:

٤٤٦٨ ـ **أَفْـــرَحُ أَنْ أُرْزَأَ الـــكِـــرَامَ وَأَنْ أُورثَ ذَوْداً شَـصَـائِـصـاً نُـبْـلا**[١٠]

---

(١) التبيان ١١٦١.

(٢) صدر بيت من الطويل للبيد عجزه:

.... **وَمَـنْ يَـبـكِ حَـوْلاً كَـامِـلاً فَـقَـد اعْـتَـذَرْ**

والشاهد: زيادة اسم في الكلام. وانظر الخصائص ٣/ ٢٩، وابن يعيش ٣/ ١٤ والهمع ٢/ ٤٩ والتبيان ١١٦١ والأشموني ٢/ ٢٤٣ والديوان ٢١٤ إحسان عباس ـ الكويت ١٩٦٢ م.

(٣) التبيان المرجع السابق.

(٤) هذا رأي أبي حيان في البحر ٨/ ٧٨.

(٥) ما بين القوسين ساقط من (ب).

(٦) الكشاف ٣/ ٥٣٣.

(٧) البحر المرجع السابق.

(٨) السابق.

(٩) كذا في (أ) وفي (ب) والكشاف عري.

(١٠) سبق هذا البيت أنه لحضرمي بن عامر اليهودي وأنه من بحر المُنْسَرح وأتى به ههنا شاهداً على حذف الإنكار كما بينه أعلى. وانظر البيت في الكشاف ٣/ ٥٣٢، وشرح شواهده ٤/ ٤٩٦ والبحر ٨/ ٧٨ وأدب الكاتب ١٧٨ و ١٧٩.

هذا كلام منكر الفرح برزية الكرام ووراثة الذود مع تَعَرِّيه من حرف الإنكار. ذكر ذلك كله الزمخشري[١]. وقرأ علي بن أبي طالب: مِثَالُ الجَنَّةِ[٢]. وعنه أيضاً وعن ابن عباس وابن مسعود: أَمْثَالُ بالجمع[٣].

قوله «غَيْرِ آسِنٍ» قرأ ابن كثير: أَسِن بزنة حَذِرٍ، وهو اسم فاعل من أَسِنَ[٤] بالكسر يَأسنُ، فهو أَسِنٌ كَحَذر يحذر فهو حَذِر. والباقون آسِن بزنة ضَارِبٍ من: أَسَنَ بالفتح يأسن، يقال: أَسَنَ المَاءُ بالفتح يَأسِنُ ويَأسُنُ بالكسر والضم أُسُوناً. كذا ذكره ثَعْلَبُ[٥] في فصيحه[٦]. فهما لغتان يقال: أسن الماء يأسن أسناً وأَجن يَأجنُ، وأَسِنَ يَأسُنُ ويَأسِنُ، وأَجَن يَأجُنُ أُسُوناً وأُجُوناً[٧]. وقال اليَزِيدِيُّ[٨] يقال: أَسِنَ بالكسر يَأسَنُ بالفتح أَسَناً أي تغير طعمه، وأما أَسِنَ الرَّجُلُ إذا دخل بئراً فأصابه من ريحها ما جعل في رأسه دواراً فأَسِنَ بالكسر فقط[٩] قال الشاعر:

٤٤٦٩ ـ قَدْ أَتْرُكُ القِرْنَ مُصْفَرًّا أَنَامِلُهُ يَمِيدُ فِي الرُّمْحِ مَيْدَ المَائِحِ الأَسِنِ[١٠]

وقرىء يَسِنٍ[١١] بالياء بدل من الهمزة. قال أبو علي: هو تخفيف أسن وهو تخفيف غريب[١٢].

---

(١) بالمعنى. انظر الكشاف السابق.

(٢) قراءة شاذة ذكرها الإمام القرطبي في الجامع ١٦/ ٢٣٦.

(٣) ابن خالويه ١٤٠ ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٦٠ والمحتسب ٢/ ٢٧٠ والكشاف ٣/ ٥٣٤ وهي كسابقتها.

(٤) من القراءات المتواترة ذكرها ابن مجاهد في السبعة ٦٠٠ ومكي في الكشف ٢/ ٢٧٧.

(٥) أحمد بن يحيى بن سيار الشيباني النحوي المعروف بثعلب كان إمام الكوفيين في النحو واللغة أخذ عن ابن الأعرابيَ وسَلَمَة بن عاصم وابن سلام وغيرهم وعنه أبو الحسن الأخفش وابن الأنباري وابن عرفة مات سنة ٢٩١ انظر النزهة ١٥٧: ١٦٠.

(٦) لم أجدها في الفصيح مضبوطة بالكسر أو الضم انظر الفصيح ص ٦.

(٧) اللسان أ س ن ٨١ و ٨٢ و أ ج ن ٣٤.

(٨) هو: يحيى بن المغيرة أبو محمد المقْرِيّ مولى لبني عَدِيّ بن عبد مَنَاف أخذ عن الخليل اللغة والعروض وكان ملازماً لأبي عمرو. له من المؤلفات النوادِر في اللغة مات سنة ٢٠٢ هـ وانظر نزهة الألباء السابق ٥٣: ٥٨.

(٩) ذكره الجوهري في الصحاح أسن.

(١٠) البيت من بحر البسيط وهو لزهير كما نسبه القرطبي وصاحب اللسان. وروي: يغادر القرن. والقِرن ـ بكسر القاف ـ المِثْل في الشجاعة والشدة وَيميدُ: يضطرب والمَائِح المتمايل السّكران. والشَّاعر يخبرنا عن شجاعته وترجيح كفته على هذا النظير الذي يتركه في دَوار واضطراب بسبب الهزيمة الساحقة. والشاهد: الأسن فمعناه الداخل بئراً فأصيب بدوار من رائحتها الكريهة. وانظر اللسان أسن ٨١ وميد وميح ٤٣٠٦ و ٤٤٠٣ و ٤٤٠٤ والقرطبي ١٦/ ٢٣٦ والبحر المحيط ٨/ ٧٠ ولم يوجد بالديوان.

(١١) كذا في النسختين والأصح كما في البحر وكما يقتضيه العُرْف والعهد يَاسِن. وهي شاذَّة ولم ينسبها أبو حيان لأحد. انظر البحر ٨/ ٧٩.

(١٢) المرجع السابق.

قوله: «لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ» صفة لـ «لَبَنٍ».

قوله: «لَذَّةٍ» يجوز أن يكون تأنيث «لَذٍّ» ولَذٌّ بمعنى لَذِيذٍ، ولا تأويلَ على هذا. ويجوز أن يكون مصدراً وصف به[١]، ففيه التأويلات المشْهُورَة[٢]. قال ابن الخطيب: يحتمل أن يقال: ما ثَبَتَتْ لذَّتُهُ[٣] يقال: طعام لَذٌّ ولَذِيذٌ، وأَطْعِمَةٌ لَذَّة ولَذِيذَةٌ، ويحتمل أن يكون ذلك وصفاً بنفس المعنى لا بالمشتق منه كما يقال للحكيم: هو حَكِيمٌ كله، وللعاقل: هو عاقل كله[٤]. والعامة على جرِّ «لَذَّةٍ» صفة لخمر. وقرىء بالنصب على المفعول له وهي تؤيد المصدرية في قراءة العامة. وبالرفع صفة «لأنهار». ولم تجمع، لأنها مصدر إن قيل به وإلا فلأنها صفة لجمع غير عاقل، وهو يعامل معاملة المؤنثة الواحدة[٥].

قوله: «مِنْ عَسَلٍ» نقلوا في عسل التذكير والتأنيث، وجاء القرآن على التذكير في قوله: «مُصَفًّى»، والْعَسَلاَنُ العدو[٦]، وأكثر استعماله في الذِّئْبِ، يقال: عَسَلَ الذِّئْبُ والثعلب. وأصله من عسلان الرمح وهو اهتزازه، فكأن العادي يَهُزّ أعضَاءَهُ ويُحركها، قال الشاعر:

٤٤٧٠ ـ لَدْنٌ بِهَزِّ الكَفِّ يَعْسِلُ مَتْنُهُ ... فِيهِ كَمَا عَسَلَ الطَّرِيقَ الثَّعْلَبُ[٧]

وكني بالعُسَيْلَة عن الجِمَاع، لما بينهما. قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «حتى تَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ ويَذُوقَ عُسَيْلَتَكِ»[٨]

فصل

قال ابن الخطيب: اختار هذه الأنهار من الأنهار الأربعة؛ لأن المشروب إما أن يُشْرَبَ لِطَعْمِهِ أو لغير طعمه، فإن كان للطعم فالمطعوم تسعة: المُرّ والمَالِح، والحريف، والحَامِض، والعَفِصُ[٩] والقَابِضُ والتّفه، والحلو، والدَّسِم. وألذها الحُلو والدَّسِم، لكن أحلى الأشياء العسل فذكره وأما أدسَمُ الأشياء فالدهن لكن الدُّسُومَة إذا تَمَحَّضَتْ[١٠] لا

(١) انظر التبيان ١١٦٢.
(٢) أي ذات لذة.
(٣) في الرازي: أن يكون تأنيث لذ. . . .
(٤) الرازي ٢٨/ ٥٥.
(٥) وهو بتوضيح وتفصيل لما في الكشاف للزمخشري ٣/ ٥٣٤.
(٦) في (ب) العدد. وهو تحريف.
(٧) من الكامل لساعدة بن جُؤيّة الهُذَلِيّ. وشاهده: عَسَلَ الطريق. وانظر اللسان عسل ٢٩٤٦ والكتاب ١/ ٣٦ و ٣١٤ والخصائص ٣/ ٣١٩ والمغني ١١، ٥٢ وشرح شواهده للسيوطي ١٧ و ٨٨٥ والتصريح ١/ ٣١٢ والهمع ١/ ٢٠٠، ٢/ ٨١ والأشموني ٢/ ٩١، ٩٧ وقد تقدم.
(٨) من حديث الرسول لامرأة رفاعة القرظي وقد سألته عن زوج تزوجته لِتَرْجِعَ به إلى زوجها الأول الذي طلقها. وانظر اللسان السابق.
(٩) هو الطعام البشع.
(١٠) أي خلصت وأصبحت محضَةً.

تطيب للأكل ولا للشرب، فإن الدّهن لا يأكل ولا يشرب في الغالب وأما اللبن ففيه الدسم الكائن في غيره وهو طيب للأكل وبه تغذية الحيوان أولاً فذكره الله تعالى؛ وأمّا ما يشرب لغير الطَّعْم فالماء والخَمْر، فإن الخمر كريهة الطعم، لحصول التواتر بذلك، وإنما تشرب لأمر آخَر غير الطعام وأما الماء فلأن به بقاء الحيوان فذكره.

فإن قيل: ما الحكمة في قوله في الخمر: «لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ» ولم يقل في اللبن: لم يخبر طعمه للطاعمين ولا قال في العسل مصفًّى للناظرين؟

فالجواب: قال ابن الخطيب: لأن اللذَّةَ تختلف باختلاف الأشخاص فربَّ طعام يلتذ به شخص ويَعَافُهُ الآخر فقال: لذة للشاربين بأَسْرِهِمْ، ولأن الخمر كريهة الطعم في الدنيا، فقال لذة، أي لا يكون في خمر الآخرة كراهة طعم وأما الطعم واللون فلا يختلف باختلاف الناس، فإن الحُلْوَ والحَامِضَ وغيرهما يدركه كل أحد قد يعافه بعض الناس ويلتذ به البعض مع اتفاقهم على أنَّ له طعماً واحداً وكذلك اللون فلم يكن للتصريح بالتعميم حاجةٌ[١].

قوله: «مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ» فيه وجهان:

أحدهما: أن هذا الجار صفة لمقدر، وذلك المقدر مبتدأ وخبره الجار قبله وهو «لَهُمْ» و «فيها» متعلق بما تعلق به، والتقدير: ولهم فيها زَوْجَانِ من كل الثمرات، كأنه انتزعه من قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢] وقدر بعضهم صِنْفٌ. والأول أليق[٢].

والثاني: أن «مِن» مزيدة في المبتدأ.

قوله: «وَمَغْفِرَة» فيه وجهان:

أحدهما: أنه عطف على ذلك المقدر لا بِقَيْدِ كونه في الجنة، أي ولهم مغفرة؛ لأنَّ المغفرة تكون قبل دخول الجنة؛ أو بقيد ذلك. ولا بدّ من حذف مضاف حينئذ أي وبِنَعِيمِ[٣] مَغْفِرَةٍ؛ لأنه ناشىءٌ عَنِ المغفرة وهو الجنة[٤].

والثاني: أن يجعل خبرها مقدراً أي ولَهُمْ مغفرةٌ. والجملة مستأنفة[٥]، والفرق بين الوجهين أن الوجه الذي قبل هذا فيه الإخبار بـ «لَهُمْ» الملفوظ به عن شيئين، ذلك المحذوف ومغفرة. وفي الوجه الآخر الخبر جار آخر حذف للدَّلاَلَةِ عَلَيْهِ.

قوله: «كَمَنْ هُوَ» قد تقدم أنه يجوز أن يكون خبراً عن: «مَثَلُ الجَنَّةِ»، بالتأويلين

---

(١) وانظر تفسير الإمام الكبير الإمام الفخر الرازي ٢٨/ ٥٤، ٥٨.

(٢) انظر التبيان ١١٦٢.

(٣) في (ب) وينعم فعلاً. وما هو بالمقصود.

(٤) بالمعنى من البحر المحيط ٨/ ٧٩.

(٥) التبيان المرجع السابق.

المذكورين عن ابن عطيةَ والزمخشريِّ وأما إذا لم تجعله خبراً عن «مَثَلِ» ففيه أربعة أوجه:

أحدها: أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: حَالُ هؤلاء المتقين كحال مَنْ هُو خَالدٌ[١]. وهذا تأويل صحيح. وذكر فيه أبو البقاء الأوجه الباقية فقال: وهو في موضع رفع أي حَالُهُمْ كحَالِ مَنْ هُوَ خَالدٌ فِي النَّار[٢].

وقيل: هو اسْتِهْزَاءٌ بهم. وقيل: هو على معنى الاستفهام أي أكمنْ هُوَ خالد، وقيل: في موضع نصب أي يُشْبِهُونَ (حال)[٣] مَنْ هُو خَالدٌ فِي النَّار. انتهى[٤].

ومعنى قوله: وقيل: هو استهزاء أي أن الإخبار بقولك: حالهم كَحَال مَنْ (هُوَ خَالِدٌ)[٥] على سبيل الاستهزاء والتهكم. قال البغوي: معناه أمن كان في هذا النعيم كمن هو خالد في النار؟.

قوله: «وَسُقُوا» عطف على الصلة عطف فعلية على اسمية، لكنه راعى في الأول لفظ «من» فأفرد وفي الثانية معناه فجمع[٦]. والأمعاء جمع مِعًى ـ بالقصر ـ وهو المُصْرَانُ[٧] التي في البطن. وقد وصف بالجمع في قوله:

٤٤٧١ ـ .... وَمِعًى جِيَاعُ[٨]

على إرادة الجنس.

فصل

الماء الحميم هو الشديد الحَرِّ تسعر عليه النار منذ خلقت إذا أُدْنِيَ مِنْهم شَوَى وُجُوهَهُمْ، ووقعت فَروة رُؤُوسِهم، فإذا شَرِبُوه قطَّع أمعاءهم فخرجت من أدبارهم جميع ما في البطن من الحَوَايَا، واحدها مِعًى.

---

(١) في الإقامة الدائمة. وانظر التبيان لأبي البقاء ١١٦٢.

(٢) في التبيان ـ كما سبق الآن ـ في الإقامة الدائمة.

(٣) زيادة عن التِّبيان.

(٤) التبيان ١١٦٢.

(٥) زيادة للسياق والإيضاح.

(٦) ذكره أبو حيَّان في البحر المحيط بالمعنى منه ٨/ ٧٩.

(٧) جمع مَصِير كجَمِيلٍ وجُمْلاَن وكَثِيب وكُثْبَانٍ.

(٨) بعض بيت من الوافر للقطامي تكملته:

كَأَنَّ نُسُوعَ رَحْلِي حِينَ ضَمَّتْ حَوَالِبَ غُرَّزاً وَمِعًى جِيَاعَا

والنسوعُ جمع نسع وهو سير يضفر على هيئة أعنّة النعال تشد به الرحال. والغرز جمع غارز والغَارِزُ من النوق القليلة اللبن. والقطامي في هذا البيت يصف النوق بقله اللَّبَن وبجُوع المصران وهوَ مع هذَا لم يأت بالمشبه به في بيته هذا، والشاهد: إقامة الواحد مقام الجمع في قوله: «مِعًى جِيَاعَا» وهنا وصف المفرد وهو مِعًى (بالكسر والفتح فكلاهما جائزان) بالجمع وهو جياع والبيت في اللسا معي ٤٢٣٧ وغرز ٣٢٣٩، والمذكر والمؤنث للفراء ٧٥ والديوان ق ١٣/ ٦٣/ ٤٥.

قوله: «وَمِنْهُمْ مَنْ يستمع إِلَيْكَ» يعني الكفار منهم من يستمع إليك يعني المنافقون يستمعون إليك فلا يسمعونه، ولا يَفْهَمُونَه تهاوناً. والضمير في قوله «وَمِنْهُمْ» يحتمل أن يرجع إلى معنى قوله: «هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً» يعني ومن الخالدين في النار قوم يستمعون إليك[١].

قوله «حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ» قال المفسرون: حَتَّى للعطف. قالوا: والعطف بحتى لا يحسُنُ إلا إذا كان المعطوف جُزْءاً من المعطوف عَلَيْهِ إمَّا أعلاه وإما أدونه، كقولك: أَكْرَمَنِي النَّاسُ حَتَّى المَلِكُ وجاء الحُجَّاجُ حَتَى المُشَاةُ. وفي الجملة ينبغي أن يكون المعطوف متعلّقاً بالمعطوف عليه من حيث المعنى. ولا يشترط بالعطف بالواو ذلك. فوجه التعلق ههنا هو أن قوله: «حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ» يفيد معنًى واحداً في الاستماع كأنه يقول: يستمعون استماعاً بالغاً جيداً لأنهم يستمعون وإذا خرجوا يستعيدون من العلماء كما يفعله المجتهد في التعلُّم الطالب للتفهم، يفعلون ذلك استهزاء كما قال تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]. ويحتمل أن يكون فعلهم ذلك لعدم فهمهم. والأول يؤيده قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١]، وقوله بعد ذلك «أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ» أي تركوا اتّباعَ الحقِّ، إما لعدم الفهم أو لعدم الاستفادة[٢].

قوله: «آنِفاً» فيه وجهان:

أحدهما: أنه منصوب على الحال فقدَّره أبو البقاء: ماذا[٣] قال مُؤْتَنِفاً؟ وقدره غيره مبتدئاً أي ما القول الذي ائْتَنَفَهُ الآن قبل انْفصاله عنه؟[٤]

والثاني: أنه منصوب على الظرف أي ماذا قال الساعة. قاله الزمخشري[٥]. وأنكره أبو حيان قال: لأنا لم نعلم أحداً عده من الظروف[٦].

واختلفت عبارتهم في معناه؛ فظاهر عبارة الزمخشري أنه ظرف حالي كالآنَ، ولذلك فسّره بالسَّاعةِ[٧].

وقال ابن عطية: والمفسرون يقولون: آنفاً معناه الساعة الماضية القريبة منا وهذا تفسير بالمعنى[٨]. وقرأ البَزِّيُّ[٩] ـ بخلاف عنه ـ أَنِفاً بالقصر. والباقون بالمدِّ، وهما

---

(١) وانظر تفسير العلامة القرطبي ١٦/ ٢٣٧، ٢٣٨.

(٢) الرازي السابق.

(٣) التبيان السابق، وهو أحد قولي أبي البقاء.

(٤) وهو رأي أبي حيان في البحر ٨/ ٧٩.

(٥) قال: على فعل نصب على الظرف.

(٦) البحر المحيط ٨/ ٧٩.

(٧) الكشاف ٣/ ٥٣٤.

(٨) البحر المحيط المرجع السابق.

(٩) وهي قراءة ابن كثير أيضاً. وهي سبعية متواترة. انظر السبعة ٦٠٠ والإتحاف ٣٩٣.

لغتان بمعنًى واحدٍ. وهما اسما فاعل كَحذر وحَاذِر وأَسِنٍ وآسِن؛ إلا أنه لم يستعمل لهما فعل مُجَرَّد، بل المستعمل ائْتَنَفَ يأتَنِفُ، واستأنف يَسْتَأنِفُ والائْتناف والاسْتِئنَاف الابتداء. قال الزجاج: هو من اسْتَأنَفْتُ الشَّيْءَ أي[1] ابْتَدَأتُهُ أي ماذا قال في أول وقت يَقْرُبُ منَّا؟[2]

فصل

روى مقاتل ـ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)[3] ـ أن النبي ﷺ ـ كان يخطب ويعيب المنافقين فإذا خرجوا من المسجد سألوا عَبْدَ الله بن مسعود استهزاءاً ماذا قال محمد آنفاً؟ ثم قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ فلم يؤمنوا واتَّبعوا أهواءهم في الكفر والنفاق[4].

قوله: «وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا» يجوز فيه الرفع بالابتداء والنَّصْب على الاشتغال و «تَقْوَاهُمْ» مصدر مضاف لفاعله. والضمير في «وَآتَاهُمْ» يعود على الله أو على (قَوْل)[5] المنافقين؛ لأن قولهم ذلك مما يزيد المؤمنين تقوى. أو على الرسول والمعنى زادهم قول الرسول هُدًى وآتاهم (تقواهم أي[6] وفقهم للعمل بما أمر به، أو زادهم الله هدى وآتاهم الله تقواهم أو زادهم استهزاء المنافقين وآتاهم) قول المنافقين تقواهم أي ثواب تقواهم[7] يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾

قوله: «فَهَلْ يَنْظُرُونَ إلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأتِيَهُمْ بَغْتَةً» يعني الكافرين والمنافقين، قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «مَا يَنْتَظِرُ أَحَدُكُمْ إلاَّ غَنًى مُطْغِياً، أَوْ فَقْراً مُنْسِياً، أَوْ مَرَضاً

---

(١) في (ب) إذا. والتصحيح منها كما في المعاني. (٢) معاني القرآن وإعرابه ٥/ ١٠.
(٣) زيادة من (أ). (٤) وانظر القرطبي ١٦/ ٢٣٨ والكشاف ٣/ ٥٣٤.
(٥) زيادة من (أ). (٦) ما بين القوسين كله زيادة من (أ) وسقط من (ب).
(٧) نقل القرطبي في الجامع ١٦/ ٢٣٩ والزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٣٤ وأبو حيان في البحر ٨/ ٧٩ هذه الأقوال.

مُفسِداً، أَوْ هرَماً مُفنِّداً، أَوْ مَوْتاً مُجْهِزاً أو الدَّجَّال، والدَّجَّال شَرٌّ غَائِبٍ يَنْتَظِرُ أو السَّاعَةُ، والسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ»[١]. وسميت القيامة بالساعة لسرعة الأمور الواقعة فيها من البعث والحشر والحساب.

قوله: «أَنْ تَأْتِيَهُمْ» بدل من الساعة بدل اشتمال. وقرأ أبو جعفر الرؤاسيّ[٢]: إنْ تَأْتِيهِمْ بإنِ الشّرطية[٣] وجزم ما بعدها. وفي جوابها وجهان:

أحدهما: أنه قوله: «فَأَنَّى لَهُمْ» قاله الزمخشري. ثم قال: فإن قلتَ: بم يتصل قوله: «فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا» على القراءتين؟ قلتُ: بإتيان الساعة اتصال العلة بالمعلول كقولك: إنْ أَكْرَمَنِي زَيْدٌ فَأَنَا حَقِيقٌ بالإِكْرَامِ أُكْرِمهُ[٤].

والثاني: أن الجواب قوله: «فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا» وإتيان الساعة وإن كان متحقّقاً إلا أنهم عُومِلُوا معاملةَ الشَّاكِّ وحالهم كانت كذا[٥].

قوله: «فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا» الأَشْراط جمع شَرْطٍ ـ بسكون الراء وفتحها ـ قال أبو الأسود:

٤٤٧٢ ـ فَإِنْ كُنتِ قَدْ أَزْمَعْتِ بِالصَّرْمِ بَيْنَنَا … فَقَدْ جَعَلَتْ أَشْرَاط أَوَّلِهِ تَبْدُو[٦]

والأشراط العلامات. ومنه أشراط الساعة. وأَشْرَطَ الرَّجُلُ نَفْسَهُ أي أَلْزَمَهَا أموراً. قال أوس:

٤٤٧٣ ـ فَأَشْرَطَ فِيهَا نَفْسَهُ وَهوَ مُعْصِمٌ[٧] … فَأَلْقَى بِأَسْبَابٍ لَهُ وَتَوَكَّلا[٨]

والشرط القطع أيضاً مصدر شرط الجلد يَشْرُطُهُ شَرْطاً.

---

(١) ذكره الترمذي في باب الزهد رقم ٣.

(٢) في (ب) الرؤاس وقد سبق التعريف بالرُّؤاسيّ.

(٣) قراءة شاذة انظر الكشاف ٣/ ٥٣٤ ومختصر ابن خالويه ١٤٠.

(٤) الكشاف ٣/ ٥٣٤ و ٥٣٥.

(٥) وهذا رأى أبي حيان في البحر ٨/ ٧٩.

(٦) من الطويل وهو لأبي الأسود والصُّرم ـ بالفتح والضم ـ القطع يقول: علامات الصرم تظهر في أول الوصل. والشاهد: أشراط فهي جمع شَرْط بفتح وسكون وهو العلامة وانظر الكشاف ٣/ ٥٣٥ وشرح شواهده ٤/ ٨٣٧ والقرطبي ١٦/ ١٤٠ والبحر ٨/ ٧٠ وفتح القدير ٥/ ٣٥ والسراج المنير ٤/ ٢٩.

(٧) في الدّيوان واللسان والقرطبي والمؤلف رواه كروايةِ البحر المحيط.

(٨) من الطويل كسابقه. وشاهده: فأشرط أي ألزم نفسه أموراً. وانظر الديوان ٨٦ والقرطبي ١٦/ ٢٤٠ واللسان شرط ٢٣٦ والبحر ٨/ ٧١ والطبري ٢٦/ ٣٣ والضمير في «فيها» راجع إلى الجبال وأعصم يجوز أن يكون من قولهم: أعصم الراكب إذا لم يثبت على الفَرَس، وأن يكون من أعصم به إذا تمسك به. والأسباب الحبال وتوكل عليه أي وثق وهو يصف رجلاً تدلى من رأس الجبل ليقطع النَّبعَة لاتخاذ القوس منها. وانظر مجمع البيان ٩/ ١٥٣.

فصل

قال سهل بن سعد: رأيت النبي ـ ﷺ ـ قال بإصبعه هكذا بالوُسْطَى والتي تلي الإبهام: بُعِثْتُ وَالسَّاعَة كَهَاتَيْنْ. وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: إنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أن يُرْفَعَ العِلْمُ وَيَكْثُرَ الجَهْلُ ويَكْثُرَ الرِّبَا، ويَكْثُرَ شُرْبُ الْخَمْرِ، ويَقِلَّ الرِّجَالُ، وتَكْثُرَ النِّسَاءُ حَتَّى يَكُونَ لِخَمْسِينَ امرأة القيمُ الواحِدُ[١]. وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «إذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ فقيل: كَيْفَ إضَاعَتُهَا؟ قَالَ: إذا وُسِّدَ الأَمْرُ إلى غَيْرِ أَهْلِهِ، فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ[٢]. واعلم أن قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون بياناً لغاية عِنَادِهِمْ. ويحتمل أن يكون تسليةً لقلب المؤمنين كأنه تعالى لما قال: «فهل ينظرون إلا الساعة»، فهم منه تعذيبهم، قال المفسرون: أشراط الساعة مثل انشقاق القمر، ورسالة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ[٣].

قوله: «فَأَنَّى لَهُمْ» «أَنَّى» خبرٌ مقدم، و «ذِكْرَاهُم» مبتدأ مؤخر، أي أَنَّى لهم التذكير. وإذَا وما بعدها معترض. وجوابها محذوف أي كيف لهم التذكير إذا جاءتهم الساعة؟ فكيف تتذكرون؟ ويجوز أن يكون المبتدأ محذوفاً أي أَنَّى لهم الخلاص[٤]؟ ويكون «ذِكْرَاهُمْ» فاعلاً بـ «جَاءَتْهُمْ». وقرأ أبو عمرو ـ في رواية ـ «بَغَتَّةً» بفتح الغين[٥] وتشديد التاء. وهي صفة فنصبها على الحال، ولا نظير لها في الصفات ولا في المصادر، وإنما هي في الأسماء نحو: الجَرَبَّة[٦] ـ للجماعة ـ والشَّرَبَّة للمكان[٧]. قال الزمخشري: وما أخوفني أن تكون غلطة من الراوي على أبي عمرو، وأن يكون الصواب: بَغَتَةً بفتح الغين من غير تشديدٍ[٨].

فصل

معنى الآية فمن أين لهم التَّذكُّر والاتِّعاظ والتوبة إذا جاءتهم ذكراهم أي السّاعة نظيره: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣].

قوله: «فاعلمْ أَنَّه لاَ إِلَهَ إلاَّ اللَّهُ» وجه مناسبته لما قبله هو أنه تعالى لما قال فاعلم أنه لا

---

(١) ذكره الإمام أحمد في مسنده ١٠/ ٣٨٧، ٤٠٦ و ٢/ ٣٩٤ و ٣/ ١٠٨.

(٢) مسند الإمام أحمد ٢/ ٢٦١ والبخاري باب العلم ١/ ٢١ عن أبي هُرَيْرَة.

(٣) الرازي ٢٨/ ٦٠.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٨٠ والتبيان ١١٦٢.

(٥) ذكرها صاحب الكشاف ٣/ ٥٣٥ ولم تُرْو في المتواتر عن أبي عمرو وانظر المختصر لابن خالويه ١٤٠ وقد ضبطت من المحقق خطأ فضبطها بضم الأول.

(٦) هي جماعة الحمر. وقيل: هي الغِلاظ الشداد منها. وفيها أقوال أخر ذكرها صاحب اللسان ٥٨٣ جرب.

(٧) انظر اللسان شرب ٢٢٢٥ ومن معانيها: الموضع أو الأرض التي تنبت العُشب اللينة ولا ثالث لهما وجعل بعضهم ثالثاً وهو غَضَبَّة للغضوب قاله نَضْرٌ انظر المرجع السابق.

(٨) الكشاف ٣/ ٥٣٥.

إله إلا الله أي يأتي بالساعة كما قال: ﴿أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم: ٥٧ ـ ٥٨]. وقيل: فاعلم أنَّه لا إله إلا الله ينفعك، قيل الخطاب للنبي ـ ﷺ ـ والمراد غيره. وقيل: معناه فاثْبُتْ عليه. وقال الحُسَيْنُ بن الفضل: فازدَدْ علماً إلى علمك. وقال أبو العالية وابن عُيَيْنَةَ: معناه إذا جاءتهم الساعة فاعلم أنه لا مَلْجَأ ولا مَفْزَعَ عند قيامها إلا الله[١]. ثم قال: «فَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ» أمرٌ بالاستغفار مع أنه مغفور له لِتَسْتَنَّ به أمته. وقيل: معنى قوله لذنبك أي لِذَنْبِ أهل بيتك الذين ليسوا منك بأهل بيت. وقيل: المراد النبي؛ والذنب هو ترك الأفضل الذي هو بالنسبة إليه ذنب وحسناتُنا دون ذلك[٢]. قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: إنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِ وَإنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ.

قوله: «وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ» هذا إكرام من الله تعالى لهذه الأمة حيث أمر نبيهم ـ ﷺ ـ أن يستغفر لذنوبهم «وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ» قال ابن عباس والضحاك: متقلبكم: مُنْصَرَفَكُمْ ومنْتَشَرَكُمْ في أعمالكم في الدنيا «ومثواكم» مصيركم في الآخرة إلى الجنة أو إلى النار. وقال مقاتل وابن جرير: متقلبكم منصرفكم لأشغالكم بالنهار ومثواكم مأواكم إلى مضاجعكم بالليل. وقال عكرمة: متقلبكم في أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات ومثواكم ومقامكم في الأرض. وقال ابن كيسان: متقلبكم من ظهر إلى بطن ومثواكم مقامكم في القبور، وقيل: معناه أنه عالم بجميع أحوالكم فلا يخفى عليه شيء منها[٣].

قوله: «وَيقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلاَ نُزِلَتْ سُورَةٌ» أي هلاً. ولا التفات إلَى قول بعضهم[٤] إنَّ «لاَ» زائدة. والأصل لو نزلت. والعامة على رفع محكمة لقيامها مقام الفاعل. وزَيْدُ بنُ عَلِيٍّ بالنصب فيهما على الحَالِ[٥]. والقائم مقام الفاعل ضمير السورة المتقدمة وسَوَّغ وقوعَ الحال كذا وَصْفُها كقولك: الرَّجُلُ جَاءَنِي رَجُلاً صَالِحاً وقرىء: فَإذَا نَزَلَتْ سُورَةٌ[٦]. وقرأ زيدُ بْنُ عَلِيٍّ وابنُ عُمَيْر «وَذَكَرَ» مبنياً للفاعل أي الله تعالى «القِتَالَ» نصباً[٧].

---

(١) انظر تلك الأقوال في القرطبي ١٦/ ٢٤١ و ٢٤٢ والرازي ٢٠٨/ ٦٣.

(٢) الرازي ٢٨/ ٦١ والقرطبي ١٦/ ٢٤٢ و ٢٤٣.

(٣) القرطبي والرازي السابقين والبحر ٨/ ٨٠.

(٤) ولعله الفراء حيث أكد في المعاني ٢/ ٣٧٧ تركيبها قال: «لولا» التي هي «لو» ضمت إليها «لا» فصارتا حرفاً واحداً. وهو رأي المبرد أيضاً في المقتضب ٣/ ٧٦ وكذلك ابن الشجري في أماليه ٢/ ٧٦ وقد قال بالتركيب الذي أضاف معنى جديداً كل من ابن يعيش ٨/ ١٤٤ وابن الأنباري في الإنصاف ٢١٥. وانظر قضايا التركيب ٢٨٦: ٢٨٨.

(٥) قراءة شاذة غير متواترة انظر البحر ٨/ ٨١.

(٦) كذا في البحر المحيط لأبي حيان ٨/ ٨١، وذكر القرطبي في الجامع ١٦/ ٢٤٣: فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْدَثَةٌ وكلتا القراءتين شاذة.

(٧) المرجعين السابقين.

فصل

المعنى ويقول الذين آمنوا حرصاً منهم على الجهاد هلا أنزلت سورة تأمرنا بالجِهاد. واعلم أن المؤمن كان ينتظر نزول الأحكام والتكاليف ويطلب تنزيلها وإذا تأخر عنه التكليف كان يقول: هلا أمرت بشيء من العبادة خوفاً من أن لا يؤهل لها. وأما المنافق فإذا أنزلت[١] السورة أو الآية وفيها تكليف فيشق عليه ذلك فحصل التَّبَايُن بين الفريقين في العلم والعمل. والمراد بالسورة التي فيها تكليف. وقوله: «مُحْكَمَةٌ» أي لم تنسخ، وقال قتادة: كل سورة ذكر فيها الجهاد محكمة وهي أشد القرآن على المنافقين[٢].

[٣]قوله: «رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» يعني المنافقين «يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ» شَزْراً بتحديقٍ شديدٍ كراهيةً منهم للجهاد، وجبناً عن لقاء العدوِّ.

قوله: «نَظَرَ الْمَغْشِيِّ» الأصل نَظَراً مثل نَظَر المَغْشِيِّ عليه من الموت كما ينظر الشاخص بصره عند الموت.

قوله: «فَأَوْلَى لَهُمْ طاعة». اختلف اللّغويون والمُعْرِبُونَ ـ (رَحِمَهُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ) ـ في هذه اللفظة فقال الأصمعي ـ (رَحمهُ اللَّه)[٤] ـ: إنها فعل ماضٍ بمعنى قاربه ما يهلكه[٥]، وأنشد ـ (رَحمهُ اللَّهُ):

٤٤٧٤ ـ فَعَادَى بَيْنَ هَادِيَتَيْنِ مِنْهَا وَأَوْلَى أَنْ يَزِيدَ عَلَى الثَّلاَثِ[٦]

أي قارب أن يزيد.

قال ثعلب: لم يقل أحدٌ في أوْلَى أحسن من الأصمعيِّ[٧]. وقال البغوي: معناه وَلِيَكَ وقَارَبَك ما تكره[٨] ولكن الأكثرين[٩] على أنه اسم. ثم اختلف هؤلاء فقيل هو مشتق من الوَلْي وهو القرب كقوله:

٤٤٧٥ ـ تُكَلِّفُنِي لَيْلَى وَقَدْ شَطَّ وَلْيُهَا وَعَادَتْ عَوَادٍ بَيْنَنَا وَخُطُوبُ[١٠]

---

(١) في (ب) نزلت. (٢) الرازي ٢٨/ ٦٢.

(٣) القرطبي١٦/ ٢٤٣ وهذا الإعراب ذكره أبو البقاء في التبيان ١١٦٣.

(٤) ما بين القوسين ساقط من (ب) وزائد من (أ).

(٥) القرطبي المرجع السابق والبحر المحيط ٨/ ٧١.

(٦) لم أعرف مُنْشِدَه وهو من تامِّ الوافر. وشاهده في «أولى» فهو بمعنى قارب ما يهلكه على رأي الأصمعي، والهادية: أول كلّ شيء وما تقدم منه. ولهذا قيل: أقبلت هوادي الخيل إذا رؤيت أعناقها. وانظر البيت في القرطبي ١٦/ ٢٤٤ ومقاييس اللغة ٦/ ١٤١ واللسان ولي ٤٩٢٣، والهمع ١/ ١٢٨ والبحر ٨/ ٧١ بلفظ «تَعَادَى» ولعله خطأ من الناسخ.

(٧) القرطبي المرجع السابق. (٨) معالم التنزيل له ٦/ ٦٣.

(٩) في النسختين: الأكثرون بالرفع.

(١٠) من الطويل وهو لعَلْقَمَةَ الفَحْل. وهو في البحر ٨/ ٧١ ومعاهد التنصيص ١/ ٦٣، وحاشية الدّمَنْهُوريّ ٩٣. والشاهد وليها بمعنى القرب.

وقيل: هو مشتق من الوَيْل والأصل فيه أوئل. فقلبت العين إلى ما بعد اللام فصار وزنه أفلع[١]. وإلَى هذا نحا الجُرْجَانيّ[٢] والأصل عدم القلب وأما معناها فقيل: هي تهديد ووعيد كقوله:

٤٤٧٦ ـ فَأَوْلَى ثُمَّ أولَى ثُمَّ أَوْلَى   وَهَلْ لِلدَّرِّ يُحْلَبُ مِنْ مَرَدِّ[٣]

وقال المبرد: يقال لمن هم بالغضب[٤]: أولى لك كقول أعرابيٍّ كان يوالِي رمي الصيد فيفلت منه فيقول: أَوْلَى لَكَ. ثم رمى صيداً فَقَارَبَهُ فأفلت منه فقال ـ (رَحْمَةُ الله عليه ورِضَاهُ)[٥] ـ:

٤٤٧٧ ـ فَلَوْ كَانَ أَوْلَى يُطْعِمُ الْقَوْمَ صِدْتُهُمْ   وَلَكِنْ أَوْلَى يَتْرُكُ الْقَوْمَ جُوَّعَا[٦]

هذا ما يتعلق باشتقاقه ومعناه.

وأما الإعراب فإن قلنا بقول الجمهور ففيه أوجه:

أحدها: أن «أولى» مبتدأ (و)[٧] «لهم» خبره تقديره: فالهلاك لهم. وسوغ الابتداء بالنكرة كونهُ دُعَاء نحو: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١].

الثاني: أنه خبر مبتدأ مضمر تقديره: العِقَابُ أو الهلاكُ أَوْلَى لهم. أي أقرب وأَدْنَى[٨]. وقال ابنُ الخطيب: التقدير: فالموت أولى لهم؛ لأنَّ الموت سبق ذكره في قوله: «نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ»، وذلك أن الحياة في طاعة الله ورسوله خير منها[٩]. ويجوز أن تكون اللام بمعنى الباء أي أولى وأحق بِهِمْ[١٠].

---

(١) ففيه قلب مكاني.

(٢) صاحب نظم القرآن وقد تقدم التعريف به. وانظر رأيه في القرطبي ١٦/ ٢٤٤.

(٣) من الوافر ومعناه واضح في الوعيد الواقع لا محالة. ولم أعرف قائله وكرر لفظ أولى للتأكيد فهو كَقَوْلِهِ «أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى» أي ويلٌ وهلاك فالوعيد واقع ومؤكد كالدرّ المحلوب لا يرد بعد الحلب إلى منبعه الأصلي.
والشاهد في كلمة أولى فمعناها الوعيد والتهديد وانظر القرطبي ١٦/ ٢٤٣ والبحر ٨/ ٧١ واللسان ولي ٤٩٢٤.

(٤) في القرطبي فيما نقله عنه: في العطب.

(٥) زيادة من (أ) وانظر الكامل ٤/ ٥١ للمبرد بالمعنى والقرطبي ١٦/ ٢٤٤ والبحر المحيط ٨/ ٧١.

(٦) لأحد الأعراب وهو من الطويل. وشاهده أن أولى في البيت لهذا حكاية وذلك أنه كان لا يحسن أن يرمي وأحب أن يمتدح عند أصحابه فقال أولى وضرب بيده على الأخرى وقال أولى فحكى ذلك. وانظر اللسان ولي ٤٩٢٤ والقرطبي ١٦/ ٢٤٤ والبحر ٨/ ٧١ وفي البحر: صَيْدُهُمْ ولعله تحريف.

(٧) زيادة للسياق.

(٨) في (ب) أو أدنى وهذا الإعراب قال به أبو حيان عن قتادة في البحر ٨/ ٨٣.

(٩) الرازي ٢٨/ ٦٢.

(١٠) البحر المحيط المرجع السابق.

الثالث: أنه مبتدأ و «لهم» متعلق به، واللام بمعنى الباء. و «طاعة» خبره والتقدير: أولى بهم طاعة دون غيرها[١].

وإن قلنا بقول الأصمعي فيكون فعلاً ماضياً، وفاعله مضمر يدل عليه السِّيَاق، كأنه قيل: فأولى هو أي الهلاك[٢]. وهذا ظاهر عبارة الزمخشري حيث قال: ومعناه الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه[٣]. وقال ابن عطية: المشهور من استعمال العرب أنك تقول: هذا أولى بك من هذا، أي أحق[٤]. وقد تستعمل العرب «أولى لك» فقط على جهة الحذف والاخْتِصَار؛ لما معها من القول فتقول: أولى لك يا فلان على جهة الزجر والوعيد. انتهى[٥].

وقال أبو البقاء: أَوْلَى مؤنثه أَوْلاة[٦]. وفيه نظر؛ لأن ذلك إنما يكون في التذكير والتأنيث الحقيقيين؛ أما التأنيث اللفظي فلا يقال فيه ذلك[٧]. وسيأتي له مزيد بيان في القيامة[٨] إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قوله: «طَاعَةٌ» فيه وجهان:

أحدهما: أنه خبر «أَوْلَى» على ما تقدم.

الثاني: أنها صفة «لِسُورَة» أي فإذا أنزلت سُورَةٌ محكمة «طاعة» أي ذات طاعة أو مطاعة. ذكره مكي[٩]، وأبو البَقَاءِ[١٠]. وفيه بُعْد لكثرة الفواصل.

الثالث: أنها مبتدأ و «قَوْل» عطف عليها والخبر محذوف تقديره: أَمْثَلُ لَكُمْ مِنْ غَيْرِهِمَا[١١]. وقدّر مَكِّيٌّ منَّا[١٢] طاعةٌ فقدّره مقدَّماً.

الرابع: أن يكون خبر مبتدأ محذوف، أي أَمْرُنَا طَاعَةٌ[١٣].

الخامس: أن لهم خبر مقدم وطاعة مبتدأ مؤخر[١٤]. والوقف والابتداء يُعْرَفَانِ مما تقدم.

---

(١) التبيان والبحر السابقين.
(٢) ذكره أبو حيان في مرجعه السابق.
(٣) الكشاف ٣/ ٥٣٥ و ٥٣٦.
(٤) البحر المحيط السابق.
(٥) السابق.
(٦) التبيان ١٠٦٣.
(٧) فكلمة أولى كَعَطِيَّة تأنيث لفظي.
(٨) عند قوله تعالى: ﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾ الآيتان ٣٤، ٣٥ من القيامة.
(٩) مشكل إعراب القرآن له ٢/ ٣٠٨.
(١٠) التبيان ١١٦٣.
(١١) مشكل إعراب القرآن السابق، والرازي ٢٨/ ٦٢ والكشاف ٣/ ٥٣٦.
(١٢) مشكل الإعراب السابق.
(١٣) التبيان السابق وأبو حيان في بحره ٨/ ٨١.
(١٤) نقله أبو حيان في بحره السابق عن قتادة ـ رضي الله عنه ـ.

فصل

قال المفسرون: قوله: طاعة وقول معروف ابتداء محذوف الخبر، تقديره طاعة وقول معروف أمثل، أي لو أطاعوا وقالوا قولاً معروفاً كان أمثل وأحسن[١]. وساغ الابتداء بالنكرة، لأنها وُصِفَتْ بدليل قوله: «وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ» فإنه موصوف فكأنه تعالى قال: طاعة مخلصةٌ وقولٌ معروف خير[٢]. وقيل: يقول المنافقون قبل نزول السورة المحكمة طاعة رفع على الحكاية أي أمرنا طاعة، أو منا طاعة وقول معروف: حسن[٣]. وقيل: «متَّصل». واللام في قوله: «لَهُمْ» بمعنى الباء أي فأولى بهم طاعة الله ورسوله وقول معروف بالإجابة، أي لو أطاعوا الله كانت الطاعة والإجابة أولى بهم[٤]. وهذا معنى قول ابن عباس في رواية عَطَاءٍ.

قوله: «فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ» في جوابها ثلاثة أوجه:

أحدها: قوله: «فَلَوْ صَدَقُوا» نحو: إِذَا جَاءنِي طَعَامٌ فَلَوْ جِئْتَنِي[٥] أَطْعَمْتُكَ.

الثاني: أنه محذوف تقديره: فَاصْدُقْ، كذا قدره أبو البقاء[٦].

الثالث: أن تقديرنا[٧] ناقضوا[٨]. وقيل: تقديره كرهوا ذلك[٩]. وعَزَمَ الأمْر على سبيل الإسناد المجازي كَقوله:

٤٤٧٨ ـ قَدْ جَدَّتِ الْحَرْبُ بِكُمْ فَجِدُّوا[١٠]

أو يكون على حذف مضاف أي عَزَمَ أَهْلُ الأمر[١١]. قال المفسرون: معناه إذا جدَّ الأمر ولزم فرض القتال خالفوا وتخلفوا فلو صدقوا لله في إظهار الإيمان والطاعة لكان

(١) نقل المؤلف كلام الرازي رغم ما أورده في إعراب كلمة «طاعة». وهذا من العيوب التي يقع فيها كثيراً فهو حريصٌ عَلَى نقل الكلام حتى ولو كان مكرَّراً.

(٢) وانظر الرازي ٢٨/ ٦٢، ٦٣.

(٣) الكشاف ٣/ ٥٣٦ والبحر والرازي السابقين.

(٤) نقله القرطبي في الجامع ١٦/ ٢٤٤ ولم يُعَيِّنْهُ لمعيَّن.

(٥) وهو اختيار أبي حيان في البحر ٨/ ٨٢.

(٦) التبيان ١١٦٣.

(٧) كذا في (أ) وفي (ب) تقديره وهو الأصح والأبين وإلاَّ فمن المقدِّر؟!.

(٨)، (٩) القرطبي ١٦/ ٢٤٤.

(١٠) من الرجز وقبله:

قَدْ شَمَّرتْ عَنْ سَاقِهَا فَشُدُّوا

وشاهد في الإسناد المجازي حيث شبه الحرب بإنسان عاقل، وانظر البحر ٨/ ٣١٦ ومجمع البيان ١٠/ ٨.

(١١) التبيان ١١٦٣.

خيراً لهم[١]. وقيل: جواب إذا محذوف تقديره فإذا عزم الأمر لكلُّوا أو كذبوا فيما وعدوا ولو صدقوا لكان خيراً لهم.

قوله: «فَهَلْ عَسَيْتُمْ» أي فلعلكم إن توليتم أعرضتم عن القرآن وفارقتم أحكامه «أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ»، تعودوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية تفسدوا في الأرْضِ بالمعصية والبَغْي وسَفْكِ الدماء وترجعون إلى الفُرْقة بعدما جمعكم الله بالإسلام!

قوله: «أَنْ تُفْسِدُوا» خبر عسى[٢]. والشرط مُعْتَرِضٌ بينهما وجوابه محذوف لدلاَلَةِ: «فَهَلْ عَسَيْتُمْ» عليه أو هو يفسره «فَهَلْ عَسَيْتُمْ»، عند من يرى تقديمه.

وقرأ علي ـ رضي الله عنه ـ «إن تُوُلِّيتُمْ» بضم التاء والواو وكسر اللام مبنياً للمفعول من الولاية أي وُلِّيتم أمور الناس[٣]. وقال ابن الخطيب: لولا تولاَّكم ولاةٌ ظلمة، جُفاة غَشَمَة ومشيتم معهم لفسدتم وقطعت الأرحام والنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا يأمركم إلا بصلة الأرحام فلم تتقاعدون عن القتال؟!. والأول أظهر ومعناه إن كنتم تتركون القتال وتقولون فيه الإفساد، وقطع الأرحام وكون الكفار أقاربنا فلا يقع منكم إلا ذلك، حيث تَتَقَاتَلُونَ على أدنى شيءٍ كما كان عادة العرب الأُوَل[٤]. (وقرى: وُليتم من الولاية أيضاً[٥]).

فصل

قال ابن الخطيب: في استعمال «عسى» ثلاثة مذاهب:

أحدها: الإتيان بها على صورة فعل ماض معه فاعل تقول: عَسَى زَيْدٌ، وعَسَيْنَا وعَسَوْا، وعَسَيْتُمَا، وعَسَيْتُ وعَسَيْتُنَّ وعَسَيْنَا[٦] وعَسَيْتُنَّ.

والثاني: أن يؤتى بها على صورة فعل ومفعول يقال: عَسَاهُ، وعَسَاهُمَا، وعَسَاكَ، وعَسَاكُمَا وعَسَايَ وعَسَانَا[٧].

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٥/ ١٣ والقرطبي السابق.

(٢) في محل نصب جملة فعلية كخبر أفعال المقاربة والتاء اسمها. وانظر التبيان ١١٦٣، والمشكل ٢/ ٣٠٨.

(٣) شاذة ذكرها الكشاف ٣/ ٥٣٦. والفعل ماض مبني للمجهول وهي قراءة ابن أبي إسحاق أيضاً. ورواها رُوَيْس عن يعقوبَ. وانظر القرطبي ١٦/ ٢٤٥ ومختصر ابن خالويه ١٤٠.

(٤) بالمعنى من الرازي ٢٨/ ٦٤.

(٥) ولم أعرف من قرأ بها وهي شاذة. وانظر الكشاف ٣/ ٥٣٦ والبحر المحيط ٨/ ٨٢ ومعناها توليتم أمور الناس.

(٦) في الرازي: عِسْتم وعست وعِسْنَا والأول يجوز أن يكون صحيحاً ولكن الثاني والثالث من الإمكان أن يكونا محرفين من قبل الناسخ فما دام قد أسنَد الفعل إلى الفاعل المضمر فإن الألف ترد إلى ياء. وهذا المذهب مرجوح فلم يأت القرآن الكريم به. وهذا الرأي ذكره الرازي في تفسيره حيث اقتصر على الفعل والفاعل وهذا المذهب مذهب الكوفيين فهي بمنزلة قرب فعل قاصر.

(٧) وهو قليل أيضاً وفيه مذاهب ثلاثة:

الثالث: الإتيانُ بها من غير أن يُقْرَن بها شيء[١] تقول: عَسَى زَيْدٌ يَخْرُجُ، وعَسَى أَنْتَ تَخْرُجُ، وعَسَى أَنَا أَخْرُجُ، والكل متوجه وما عليه كلام الله أوجه، لأن «عسى» من الأفعال الجامدة، واقتران الفاعل بالفعل الأولى من اقتران المفعول، لأن الفاعل كالجزء من الفعل ولهذا لم يجوزوا فيه أَرْبَعَ متحركات في مثل قول القائل: بَصُرْتُ[٢] وجوزوا في مثل قولنا: بَصَرُكَ[٣]. وقد تقدم الكلام في «عسى» مشْبَعاً.

وفي قوله: «عَسَيْتُم» إلى آخره، التفات من غيبة في قوله: «الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» إلى خطابهم بذلك زيادة في توبيخهم والاستفهام للتقرير المؤكد فإنه لو قال على سبيل الإخبار: «عَسَيْتُمْ إِنْ» لكان للمخاطب أن ينكره فإذا قال بصيغة الاستفهام فإنه يقول: أنا أسألك عن هذا وأنت لا تقدر (أن)[٤] تجيب إلا بـ «لا» أو «نَعَمْ»، فهو مُقَرَّر عندك وعندي[٥].

واعلم أَن «عَسَى» للتوقع والله عالم بكل شيء والكلام فيه كالكلام في «لَعَلَّ» وفي قوله: ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ﴾[٦] [المائدة: ٤٨] فقال بعضهم: يفعل بكم فعل المترجِّي والمبتلي والمتوقع. وقيل: كل من ينظر إليهم يتوقع منهم ذلك. وقال ابن الخطيب: هو محمول على الحقيقة؛ لأن الفعل إذا كان في نفسه متوقعاً فالنظر إليه غير مسلتزم لأمر، وإنما الأمر يجوز أن يحصل منه تارة، ولا يحصل منه أخرى يكون الفعل لذلك الأمر المطلوب على سبيل الترجِّي سواء كان الفاعل يعلم حصول الأمر منه أو لم يعلم. مثاله من نَصَبَ شَبَكَةً لاصطياد الصَّيد يقال: هو متوقع لذلك، فإن حصل له العلم بوقوعه فيه بإخبار صادقٍ أنه سيقع أو بطريق أخرى لا يخرج عن التوقع. غاية ما في الباب أن في الشاهد لم يحصل لنا العلم فيما[٧] نتوقعه[٨] فظن أن عدم العلم لازم للتوقع فليس كذلك بل التوقع

= **أحدها**: أنها أجريت مجرى لعل في نصب الاسم ورفع الخبر كما أجريت لعل مجراها في اقتران خبرها بأن وقال به سيبويه.

والثاني: أنها باقية على عملها عمل كان ولكن استعير ضمير النصب مكان ضمير الرفع وقال بذلك الأخفش.

والثالث: أنها باقية على إعمالها عمل كان ولكن قلب الكلام فجعل المخبر عنه خبراً وبالعكس قاله المبرد والفارسيّ. بتصرف من المغني ١٥١ و ١٥٢ و ١٥٣.

(١) يقصد أن هذا المذهب أو الوجه قليل كقوله: عسى الكرب. . . البيت.

(٢) في (ب) والرازي: نصرت. (٣) وانظر الرازي ٢٨/ ٦٣ و ٦٤.

(٤) ساقط من النسختين فهو زيادة للسياق. (٥) الرازي السابق.

(٦) كذا في (أ) وهي كلمة من الآية ٤٨ من المائدة وفي (ب) ليبلوهم وليست موجودة في القرآن وفي الرازي لنبلوهم بالنون من الآية ٧ من سورة الكهف.

(٧) كذا في (أ) والرازي وفي (ب) يتوقعه بالياء. (٨) في الرازي: فيظن.

هو المنتظر بأمر ليس بواجب الوقوع نظراً إلى ذلك الأمر حسب[١] سواء كان له به علم أو لم يكن[٢].

قوله: «وَتُقطِّعُوا» قرأ العامة بالتشديد على التكثير، وأبو عمرو في رواية وسلام ويعقوب: بالتخفيف مضارع قَطَع[٣]. والحسن: بفتح التاء والطاء مشددة، أصلها تَتَقَطَّعُوا بتاءين[٤] حذفت إحداهما[٥]. وانتصب «أَرْحَامَكُم» على هذا على إسقاط الخافض أي في أرْحَامِكُمْ.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ ﴿٢٦﴾ فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٢٨﴾ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ ﴿٢٩﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ﴿٣١﴾﴾

قوله: «أُولَئِكَ» مبتدأ، والموصول خبره والتقدير: أولئك المفسدون يدل عليه ما تقدم[٦]. وقوله: «فَأَصَمَّهُمْ» ولم يقل: «فَأَصَمّ آذَانَهُمْ» و «أَعْمَى أَبْصَارَهُمْ» ولم يقل: أعْمَاهم، قيل: لأنه لا يلزم من ذهاب الإذن ذهاب السمع فلم يتعرض لها، والأبصار[٧] وهي الأعين يلزم من ذهابها ذهاب الإبْصار ولا يرد عليك قوله: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗا﴾ ونحوه [الأنعام: ٢٥] و [الإسراء: ٤٦] و [الكهف: ٥٧] لأنه دون الصَّمَم والصَّممُ أعظم منه فقال: أصمهم من غير ذكر الأذن، وقال: «أَعْمَى أَبْصَارَهُمْ» مع ذكر العين؛ لأن البَصَرَ ههنا بمعنى العين ولهذا جمعه بالأبْصار ولو كان مصدراً لما جمع، فلم يذكر الأذن؛ إذْ لاَ مَدْخَلَ لها في الإصمام وذكر العين، لأن لها مدخلاً في الرُّؤية، بل هي الكل بدليل أن الآفة في غير هذا الموضع لما أضافها إلى الأذن سماها وقراً فقال تعالى

(١) في الرازي: فحسب.
(٢) وانظر تفسير الإمام الرازي ٢٨/ ٦٤.
(٣) لم ترو في المتواتر عن أبي عمرو فهي شاذة ذكرها ابن خالويه في مختصره ١٤٠ وانظر الكشاف ٣/ ٥٣٦، والقرطبي ١٦/ ٢٤٦.
(٤) شاذة كسابقتها وانظر الكشاف والقرطبي السابقين.
(٥) تخفيفاً.
(٦) قاله صاحب التبيان ١١٦٣.
(٧) في (أ) والأذان فالتصحيح من (ب).

حاكياً عنهم: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ﴾ [فصلت: ٥] والوَقْر دون الصَّمَم[١].

فصل

﴿أولئك الذين لعنهم الله﴾ إشارة إلى من سبق ذكرهم من المنافقين، أبعدهم الله عنه أو عن الخير فأصمهم لا يسمعون الكلام المبين وأعمى أبصارهم عن الحق.

قوله: «أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ» فيه سؤال وهو أنه تعالى قال: فأصمهم وأعمى أبصارهم فكيف يمكنهم التدبر في القرآن وهو كقول القائل للأعمى أَبْصِر وللأصمّ اسْمَعْ؟!.

فالجواب من ثلاثة أوجه مترتبة بعضها أحسن من بعض:

الأول: تكليفه ما لا يطاق جائز والله أمر من علم منه أنه لا يؤمن بأن يؤمن فلذلك جاز أين يُصِمَّهم ويعميهم ويذمَّهم على ترك التدبر.

الثاني: أن قوله: «أفلا يتدبرون القرآن» المراد منه الناس.

الثالث: أن يقال: هذه الآية وردت محققة لمعنى الآية المتقدمة كأنه تعالى قال: ﴿أولئك الذين لعنهم الله﴾ أي أبعدهم عنه أو عن الصدق أو الخير أو غير ذلك من الأمور الحسنة فأصمهم لا يسمعون حقيقة الكلام وأعماهم لا يتبعون طريقة الإسلام، فإِذَنْ هم بين أمرين إما لا يتدبرون القرآن فيبعدون منه، لأن الله لعنهم وأبعدهم عن الخير والصدق والقرآن منهما هو الصّنف الأعلى بل النوع الأشرف وإما يتدبرون لكن لا تدخل معانيه في قلوبهم لكونها مُقْفَلَةً تقديره: أفلا يتدبرون القرآن لكونهم ملعونين مُبْعَدِين «أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا» فيتدبرون ولا يفهمون؛ وعلى هذا لا يحتاج إلى أن يقول: أم بمعنى «بل» بل هي على حقيقتها للاستفهام واقعة والهمزة أخذت مكانها وهو الصدر[٢].

وقيل: أم بمعنى بل. والمعنى بل على قلوب أقفالها فلا تفهم مواعظ القرآن وأحكامه[٣] روى هِشامُ بْنُ عُرْوَةَ[٤] عن أبيه قال: «تلا رسول الله ـ ﷺ ـ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها فقال شابٌّ من أهل اليمن بل على قلوب أقفالها حتى يكون الله يفتحها أو يفرجها، فما زال الشاب في نفس عُمَرَ حتى وَلِيَ فَ ستعان به»[٥].

قوله: «أَمْ عَلَى قُلُوبٍ» أم منقطعة وتقدم الكلام على «أم» ، منقطعة. وقرأ العامة:

---

(١) بالمعنى من تفسير الرازي ٢٨/ ٦٥.

(٢) أخذ المؤلف ـ رحمه الله ـ كل هذا من الإمام الفخر الرازي في تفسيره الكبير السابق مع تغيير طفيفٍ في العبارة.

(٣) قال ببل وبقطع أم جار الله الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٣٦ والقرطبي في الجامع ١٦/ ٢٤٦.

(٤) ابن الزبير رضي الله عنهم أجمعين وقد سبق التعريف به.

(٥) ذكره البغوي في معالم التنزيل في سورة «محمد».

«أَقْفَالُها» بالجمع على أَفْعَالٍ. وقرىء أَقْفُلُهَا (بالجمع[١]) على أفْعل[٢]. وقرىء إِقْفَالُهَا بكسر الهمزة مصدراً كالإقبال[٣]. وهذا الكلام استعارة بليغة قيل: ذلك عبارة عن عدم وصول الحق إليها[٤].

فإن قيل: ما الفائدة في تنكير القلوب؟.

فقال الزمخشري: يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون للتنبيه على كونه موصوفاً لأن النكرة بالوصف أولى من المعرفة فكأنه قال: أمْ عَلَى قُلُوبٍ قاسيةٍ أو مظلمةٍ.

الثاني: أن تكون للتبعيض كأنه قال: أم على نفس القلوب؛ لأن النكرة لا تَعُمُّ، تقول: جاءني رجالٌ فيُفْهَمُ البعض وجاءني الرجال فيُفْهَمُ الكل[٥]. والتنكير في القلوب للتنبيه على الإنكار الذي في القلوب وذلك لأن القلب إذا كان عارفاً كان معروفاً، لأن القلب خلق للمعرفة فإذا لم يكن فيه المعرفة فكأنه لا يعرف قلباً، فلا يكون قلباً يعرف، كما يقال للإنسان المؤذي: هذا ليس بإنسان فكذلك يقال: هذا ليس بقلبٍ هذا حجر. وإذا علم هذا فالتعريف إما بالألف واللام وإما بالإضافة بأن يقال: على قلوبهم أقفالها أو هي لعدم عَوْد فائدة إليهم كأنها ليست لهم[٦].

فإن قيل: قد قال الله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] وقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾ [الزمر: ٢٢].

فالجواب: الإقفال أبلغ من الختم، فترك الإضافة لعدم انتفاعهم رأساً.

فإن قيل: ما الحكمة في قوله: «أَقْفَالُهَا» بالإضافة ولم يقل: أقفال كما قال: قُلُوبٍ؟.

فالجواب: لأن الأقفال كأنها ليست إلا لها ولم تضف القلوب إليهم لعدم نفعها إياهم وإضافة الأقْفال إليها لكونها مناسبةً لها. أو يقال: أراد به أقفالاً مخصوصة هي أقفال الكُفْر والعِنَادِ[٧].

قوله: «إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلى أَدبَارِهِمْ» رجَعُوا كفاراً «مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الهُدَى»

---

(١) زيادة للسياق.

(٢) ذكرها أبو حيان في تفسيره ولم يعيِّنْ من قرأ بها. وهي شاذة. انظر البحر ٨/ ٨٣.

(٣) شاذة كسابقتها. انظر المرجع السابق والكشاف ٣/ ٥٣٦.

(٤) المرجع السابق.

(٥) باللفظ من الرازي والمعنى من الكشاف ٣/ ٥٣٦.

(٦) الرازي المرجع السابق.

(٧) كذا في (أ) والرازي وفي (ب) والفساد. وانظر الرازي المرجع السابق.

قال قتادة: هم كفار أهل الكتاب كفروا بمحمدٍ ـ ﷺ ـ بعدما عرفوه ووجدوا نعتَه في كتابهم. وقال ابن عباس والضحاك والسدي: هم المنافقون[(١)].

قوله: «الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لِم» أي زين لهم القبيحَ. وهذه الجملة خبر: «إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ»[(٢)] وتقدم الكلام على سَوَّلَ معنًى واشتقاقاً. وقال الزمخشري هنا: وقد اشتقه من السُّؤلِ من لا عِلْمَ له بالتصريفِ والاشتقاق جميعاً[(٣)]. قال شهاب الدين: كأنه يشير إلى ما قاله ابْنُ بَحْر[(٤)] من أن المعنى أعطاهم سُؤْلَهُمْ. ووجه الغلط فيه أن مادة السّول من السؤال بالهمز ومادة هذا بالواو فافْتَرَقَا، فلو كان على ما قيل لقيل سأَّل بتشديد الهمزة لا بالواو. وفيما قاله الزمخشري نظر؛ لأن السؤال له مادتان سأل بالهمزة وسال بالألف المنقلبة من واو. وعليه قراءة[(٥)]: «سَالَ سَائِلٌ» وقوله:

٤٤٧٩ ـ سَأَلَتْ هُذَيلٌ رَسُولَ اللَّهِ فَاحِشَةً ضَلَّتْ هُذَيلٌ بِمَا سَالَتْ وَلَمْ تُصِبِ[(٦)]

وقد تقدم هذا في البقرة مستوفًى[(٧)].

قوله: «وَأَمْلَى لَهُمْ» العامة على أملى مبنياً للفاعل وهو ضمير الشيطان. وقيل: هو للباري تَعَالى. قال أبو البقاء: على الأول: يكون معطوفاً على الخبر. وعلى الثاني: يكون مستأنفاً[(٨)]. ولا يلزم ما قاله بل هو معطوف على الخبر في كلا التقديرين أخبر عنهم بهَذَا وبهَذَا.

وقرأ أبو عمرو في آخرين أُمْلِيَ[(٩)] مبنياً للمفعول. والقائم مقام الفاعل الجار. وقيل: القائم مقامه ضمير الشيطان ذكره أبو البقاء[(١٠)]. وقرأ يعقوبُ وسلاَّمٌ ومجاهد وأُمْلِي ـ بضم الهمزة وكسر اللام وسكون الياء ـ فاحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون مضارعاً مسنداً لضمير المتكلم أي وأملي[(١١)] أنا لهم، وأن

---

(١) القرطبي ١٦/ ٢٤٩.
(٢) نقله في التبيان ١١٦٣.
(٣) الكشاف ٣/ ٥٣٧.
(٤) سبق التعريف به.
(٥) وهي قراءة نافع وابن عامر. انظر البحر ٨/ ٢٣٢ والكشاف ٤/ ١٥٦ وهي متواترة وهي لغة قريش أو على لغة من قال: سلت أسال. وقد حكاها سيبويه. ويجوز أن تكون على قلب الهمزة ألفاً على غير قياس، وإنما القياس بين بين انظر الكشاف والبحر السابق.
(٦) من البسيط لحسان ـ رضي الله عنه ـ والشاهد: سالت أي سَأَلت حيث فيه ما فيه مما ذكرت أعلى. وقد تقدم.
(٧) في قوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيناهُم مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ من الآية ٢١١. ولم يزد على ما قاله كل من أبي حيان والزمخشري السابقين.
(٨) التبيان ١١٦٣.
(٩) وهي قراءة متواترة انظر الكشف لمكي ٢/ ٢٧٧.
(١٠) التبيان المرجع السابق.
(١١) أي أنظر أنا كقوله: «إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ».

يكون ماضياً كقراءة أبي عمرو سكنت ياؤه تخفيفاً[١] وقد مضى منه جملة.

فصل

قال المفسرون: سَوَّلَ لَهُمْ سَهَّلَ لهم. وأَمْلَى لهم أي مد لهم فِي الأمل يعني قالوا: نعيش أياماً ثم نؤمن به وهو معنى قوله: «وَأَمْلَى لَهُمْ».

فإن قيل: الإملاء والإمهال وَحَدُّ الآجال لا يكون إلا من الله فكيف يصح قراءة من قرأ: وأملى لهم فإن المملي حينئذ هو الشيطان؟.

قال الخطيب: فالجواب من وجهين:

أحدهما: يجوز أن يكون المراد «وأملى لهم الله» فَيقِفُ[٢] على: «سول لهم».

وثانيهما: هو أن المسوِّل أيضاً ليس هو الشيطان وإنما أسند إليه من حيث إن الله قدر على يده ولسانه ذلك، فكذلك الشيطان يمسهم[٣] ويقول لهم: في آجالكم فَسْحَةٌ فتمتعوا برئاستكم ثم في آخر العمر تؤمنون[٤].

قوله: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا» يعني المنافقين[٥] أو اليهود قالوا «لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ» وهم المشركون أي ذلك الإملاء لا بسبب قولهم الذين كرهوا. قاله الواحدي[٦].

وقيل: ذلك إشارة إلى التسويل[٧]. ويحتمل أن يقال: ذلك إشارة للارتداد بسبب قولهم: سنطيعكم قاله ابن الخطيب[٨]. قال: لأنا نبين أن قوله: «قالوا سنطيعكم في بعض الأمور» هو أنهم قالوا نوافقكم على أن محمداً ليس بمرسل وإنما هو كذاب ولكن لا نوافقكم في إنكار الرسالة والحشر والإشراك بالله من الأصنام ومن لم يؤمن بمحمَّدٍ ـ ﷺ ـ فهو كافر وإن آمن بغيره. لا بل نؤمن بمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولا نؤمن بالله ولا برسله ولا بالحشر، لأن الله تعالى كما أخبر عن الحشر وهو جائز أخبر عن نبوّة محمد ـ ﷺ ـ وهِيَ جائزة[٩].

وقال المفسرون: إن اليهود والمنافقين قالوا للذين كرهوا ما نزل الله وهم المشركون سنطيعكم في بعض الأمر في التعاون على عداوة محمد ـ ﷺ ـ والقعود عن الجهاد. وكانوا يقولونه سراً فقال الله تعالى: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ»[١٠].

---

(١) وهذه القراءة شاذة وانظر هذا في البحر لابن حيان ٨/ ٨٣.
(٢) أي القارىء.
(٣) في الرازي: يمليهم، وهو الأقرب للمعنى المتحدث فيه.
(٤) وانظر تفسير الإمام الفخر الرازي ٢٨/ ٦٦.
(٥) في ب واليهود.
(٦) الرازي المرجع السابق.
(٧) السابق ولم يحدد من قال بهذا.
(٨) الرازي السابق.
(٩) انظر المرجع السابق.
(١٠) القرطبي ١٦/ ٢٥٠.

وقوله: «إِسْرَارَهُمْ» قرأ الأخوان وحفص بكسر الهمزة مصدراً. والباقون بفتحها جمع سِرّ[(١)].

قوله: «فكيف» إما خبر مقدم، أي فكيف علمه بأسرارهم إذا توفتهم الملائكة. وإما منصوب بفعل محذوف أي فكيف تصنعون[(٢)]؟ وإما خبر «لكان» مقدرة أي فكيف يكونُون؟ والظرف معمول لذلك المقدر وقرأ الأعمش: «تَوَفَّاهُمْ» دون تاء، فاحتملت وجهين: أن يكون ماضياً كالعامة، وأن يكون مضارعاً حُذفت إحدى تائيه[(٣)].

قوله: «يَضْرِبُون» حال إما من الفاعل وهو الأظهر أو من المفعول[(٤)].

فصل

قال ابن الخطيب: الأظهر أن قوله: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ إسرارهم» أي ما في قلوبهم من العلم بصدق محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ فإنهم كانوا مكابرين معاندين وكانوا يعرفون رسول الله ـ ﷺ ـ كما يعرفون أبناءهم ويؤيده القراءة بكسر الهمزة فإنهم كانوا يُسِرُّونَ نبوة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وإن قلنا: المراد من الذين ارتدّوا هم المنافقون فكانوا يقولون للجاحدين من الكفار سنطيعكم في بعض الأمر كانوا يرون أنهم إن غلبوا انقلبوا كما قال الله: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٠] وقال تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩]. وقوله: «فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ المَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ» كأنه تعالى قال: هَبْ أنهم يسرون والله لا يظهره اليوم فكيف يبقى مخفياً وقت وفاتهم؟! أو نقول: لما قال الله تعالى: والله يعلم إسرارهم أنهم يختارون القتال لما فيه من الضرب والطعن مع أنه مفيد على الوجهين جميعاً إن غَلبوا في الحال والثواب في المآل، وإن غُلبوا فالشهادة والسعادة، فكيف حالهم إذا ضرب وجوههم وأدبارهم؟!.

وعلى هذا فيه لطيفة وهي أن القتال في الحال إن أقدم المبارز قد يهزم الخَصْم ويسلم وجهه وَقَفاهُ وإن لم يهزمه فالضرب على وجهه إن ثَبَتَ وَصَبَرَ وإن لم يثبت وانهزم فإن فاته بالهرب فقد سلم وجهه وقفَاهُ وإن لم يفته فالضرب على قفاه لا غير ويوم الوفاة لا نُصرة له ولا مفرّ، فوجهه وظهره مضروب مطعون فكيف يحترز عن الأذى ويختار العذاب الأكبر؟!.

---

(١) وهي قراءة سبعية تواترية وانظر السبعة ٦٠١ والكشف ٢/ ٢٧٨ وقد قال مكي: جعلوه مصدر «أسر» ووحد لأنه يدل بلفظه على الكثرة. وقرأ الباقون بفتح الهمزة جعلوه جمع سرّ كعِدْل وأعْدَال. وحسن جمعه لاختلاف ضروب الأسرار من بني آدم. وانظر الإتحاف ٣٩٤.

(٢) في ب تصفون.

(٣) الكشاف ٣/ ٥٣٧ والبحر ٨/ ٨٤ وهي غير متواترة.

(٤) انظر التبيان ١١٦٤.

قوله: «ذَلِكَ بِأَنَّهُم اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ» أي ذلك الضرب بأنهم اتبعوا ما أسخط الله. قال ابن عباس ـ (رضي الله عنهما)[1] ـ بما كتموا التوراة وكفروا بمحمد ـ ﷺ ـ وكرهوا ما فيه رضوان الله وهو الطاعة والإيمان. وقيل: المراد بما أسخط الله الكفر لأن الإيمان يرضيه لقوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]. وقيل: بما أسخط الله هو تسويل الشيطان.

فإن قيل: هم ما كانوا يكرهون رضوان الله بل كانوا يقولون: إن الذي هم عليه رضوان الله ولا نطلب به إلا رضى الله وكيف (لا)[2] والمشركون بإشراكهم كانوا يقولون إنا نطلب رضى الله كما قالوا: ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقالوا: ﴿فَيَشْفَعُواْ لَنَآ﴾[3] [الأعراف: ٥٣].

فالجواب: معناه كرهوا ما فيه رضى الله. وفي قوله: «مَا أَسْخَطَ اللَّهَ» ولم يقل: «ما أرضى الله» لطيفة وهي أن رحمة الله سابقة، فله رحمة ثانية وهي منشأ الرضوان وغضب الله متأخر، فهو يكون على ذنب، فقال «رضوانه» لأنه من وصف ثابت لله سابق. ولم يقل «سَخِطَ الله» بل قال «أَسْخَطَ» إشارة إلى أن السخط ليس ثبوته كثبوت الرضوان ولهذا المعنى قال في اللِّعَان في حق المرأة: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [النور: ٩] يقال: غضب الله مضافاً لأن لعانه قد سبق فظهر الزنا بقوله وإيمانه وقبله لم يكن غضب فرضوان الله أمر يكون منه الفعل وغضب الله أمر يكون من فعله.

قوله: «فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ» حيث لم يطلبوا رضا الله وإنما طلبوا رِضَا الشيطان والأصنام[4]. قوله: «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» يعني المنافقين و «أم» تستدعي جملة أخرى استفهامية[5] يقال: أزيدٌ فِي الدَّارِ أَمْ عَمْرٌو وإذا كانت منقطعة لا تستدعي ذلك؛ يقال: إنَّ هذا لزيدٍ أم عمرو وكما يقال: بل عمرو[6]. والمفسرون على أنها منقطعة[7]. ويحتمل أن يقال: إنها استفهامية والسابق مفهوم من قوله تعالى: وَاللَّهُ يَعْلَم إِسْرَارَهُمْ. وكأنه تعالى قال: (أم)[8] حسب الذين كفروا أن لم يعلم الله إسرارهم أم حسب المنافقون أن لن يظهرها. والكل فاسد[9] فإنما يعلمها ويظهرها.

---

(١) سقط من ب. (٢) سقط من ب.

(٣) وفي النسختين نقلا عن الرازي ليشفعوا باللام، والأصح ما أثبت أعلى.

(٤) انظر الرازي المرجع السابق.

(٥) إذا كانت للاستفهام لأن كلمة أم إذا كانت متصلة استفهامية يستدعي سبق جملة أخرى استفهامية.

(٦) انظر الرازي المرجع السابق ٢٨/ ٦٩. (٧) انظر السابق.

(٨) ساقطة من الرازي ففيه: أحسب.

(٩) كذا في النسختين وفي الرازي: قاصر. وانظر الرازي السابق. أقول: مما يؤيد أن هذه الاستفهامية أن المنقطعة لا تكاد تقع في صدر الكلام فلا يقال ابتداء: بل جاء زيد ولا أم جاء عمرو.

قوله: «أَنْ لَنْ يُخرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ» الإخراج بمعنى الإظهار، أي لن يظهر أحقادهم و«أن» هذه مخففة. و «لن» وما بعدها خبرها واسمها ضمير الشأن. والأَضْغَانُ جمع ضغْنٍ وهي الأَحْقَادُ والضَّغِينَةُ كذلك. قال (رحمه الله[١]):

٤٤٨٠ ـ وَذِي ضِغْنٍ كَفَفْتُ الوُدَّ عَنْهُ وَكُنْتُ عَلَى إسَاءَتِهِ مُقِيتَا[٢]

وقال عمرو بن كلثوم:

٤٤٨١ ـ وَإنَّ الضِّغْنَ بَعْدَ الضِّغْنِ يَعْسُو[٣] عَلَيْكَ وَيُخْرِجُ الدَّاءَ الدَّفِينَا

وقيل: الضغن العداوة وأنشد:

٤٤٨٢ ـ قُلْ لابْنِ هِنْدٍ مَا أَرَدْتَ بِمَنْطِقٍ سَاءَ الصَّدِيقَ وَشَيَّدَ الأَضْغَانَا[٤]

يقال: ضَغِنَ ـ بالكسر ـ يَضْغَنُ ـ بالفتح ـ وقد ضَغِنَ عليه وأضْغَنَ القَوْمُ وتَضَاغَنُوا.

وأصل المادة من الالتواء في قوائم الدّابة والقناة، قال (رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ[٥]):

٤٤٨٣ ـ إنَّ قَنَاتِي مِنْ صَلِيبَاتِ القَنَا مَا زَادَهَا التَّثْقِيفُ إلاَّ ضَغَنَا[٦]

وقال آخر:

٤٤٨٤ ـ .... كَذَاتِ الضِّغْنِ تَمْشِي فِي الرِّقَاقِ[٧]

---

(١) زيادة من (أ).

(٢) من الوافر ولم أعرف قائله والبيت في المسامحة و «ذي» مجرورة برُبَّ محذوفة وفي القرطبي النفس بدل الود والمقيت الحافظ. وجاء به المؤلف في أن الضِّغْن معناه الحقد انظر القرطبي ١٦/ ٢٥١.

(٣) كذا في النسختين والبحر بالعين من عسا يعسو عسْواً وعسوّاً وعسيّاً بمعنى كبر وفي القرطبي يَفْشُو. والمعنى متقارب وفي المعلقة له: «يبدو» وهو هنا يقول: إن الضغن بعد الضغن تفشو آثاره ويخرج الداء المدفون من الأفئدة أي يبعَث على الانتقام، والبيت من الوافر.

وشاهده: أن الضغن بمعنى الحقد وهو مفرد يجمع على أفعال كضغن وأضغان وانظر البيت في شرح المعلقات السبع للزوزني ١٤٩. وقد تقدم.

(٤) من الكامل ولم أعرف قائله. وبالبيت استدل قطرب على أن الأحقاد معناها العداوة. وانظر القرطبي ١٦/ ٣٥١ والبحر ٨/ ٧١.

(٥) زيادة من (أ).

(٦) من الرجز ولم أهتدِ إلى قائله، وشاهده: أن الضِّغَنَ معناه الالتواء في القناة ـ وهي الرمح ـ والعوَج فهي مُعْوَجّة ولم تثقف. وانظر اللسان ضغن ٢٥٩٣ ونوادر أبي زيد، وانظر أيضاً البحر المحيط ٨/ ٧١.

(٧) هذا عجز بيت من الوافر، لبشر بن أبي خَازِمٍ، صدره:

فَإنَّكَ وَالشَّكَاةَ مِنَ آلِ لأمٍ ....

وضِغْنُ الدابة عسره والتواؤه. وذات الضِّغْن هي الدابة فهو كناية عن موصوف والرقاق: حبل يشد من الوظيف إلى العَضُد. وقيل: هو حبل يشد في عنق البعير إلى رُسْغِهِ. والمعنى أن ذات الضغن ليست بمستقيمة المشي لما في قلبها من النزاع إلى هواها. وكذلك أنا لست بمستقيم لآل لأم، لأن في قلبي=

والاضطغَانُ الاحتواء عل الشيء أيضاً[١] ومنه قولهم: اضطَغَنْتُ الصَّبِيَّ إِذَا احتضنته وأنشد:

٤٤٨٥ ـ كَـأَنَّـهُ مُـضْـطَـغِـنٌ صَـبِـيَّـا[٢]

وقال آخر:

٤٤٨٦ ـ وما اضطَغَنْتُ سِلاَحِي عِنْدَ مَعْرَكِهَا ....[٣]

وفرسٌ ضَاغِنٌ لا يجري إِلاَّ بالضَّرْبِ.

فصل

قال المفسرون: أضغانهم أحقادهم على المؤمنين فيُبْدِيها حتى تعرفوا نفاقهم. وقال ابن عباس (ـ رضي الله عنهما)[٤] ـ أضغانهم حَسَدَهُمْ[٥].

قوله: «وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ» من رؤية البصر؛ وجاء على الأفصح من اتصال الضميرين ولو جاء على أريناك إياهم جاز. وقال ابن الخطيب: الإِرَاءَةُ[٦] هنا بمعنى التعريف.

قوله: «فَلَعَرَفْتَهُمْ» عطف على جواب «لو» وقوله: «وَلَتَعْرفنَّهُمْ» جواب قسم محذوف.

قال المفسرون: معنى الكلام: لأريناكهم أي لأعلمناكهم وعَرَّفْنَاكَهُمْ فَلَتَعْرِفَنَّهُمْ بِسِيماهُمْ: بعلامتهم. قال الزجاج: المعنى لو نشاء لجعلنا على المنافقين علامة تعرفهم

= عليهم أشياء. فهو تشبيه شيء بشيء. وانظر اللسان رقق ١٦٩٥ وضغن ٣٥٩٣ والبحر ٨/ ٧١.

(١) هذا اختيار أبي منصور الأزهري في الصحاح ضغن وأبي عبيد عن الأحمر.

(٢) كذا وجد في اللسان والصحاح ض غ ن والبحر ٨/ ٧١، بشطر واحد كما هو أعلى. وكذا رواه القرطبي في الجامع ١٦/ ٢٥٢ ومعنى مضطغن حامله في حجره. بقي أن أقول: إن الشطر هذا رجز ولم أعرف قائله ولعله من مشطور الرجز وليس جُزءاً منه.

(٣) كذا في النسختين كالبحر المحيط لأبي حيان والأصح كتابته كالآتي:

إِذَا أَضْـغَـنْـتُ سِلاَحِي عِـنْـدَ مَـغْـرِضِـهَـا ....

وهو صدر بيت من البسيط لتميم بن مقبل عجزه:

.... ومِـرفَـقٍ كَـرِئَـاسِ الـسَّـيْـفِ إِذْ شَـسَـفَـا

والمغرض جانب البطن أسفل الأضلاع و «رئاس السيف» مقبضه. واليابس هو معنى الشاسف من الضُّمْر والهُزَال.

والشاهد: أن اضطغنت هو احتضنت. ولم أهْتَدِ للبيت في الديوان. وانظر البيت في القرطبي ١٦/ ٢٥٢ واللسان ضغن والبحر ٨/ ٧١ بصَدْرٍ فقط.

(٤) زيادة من أ.

(٥) القرطبي ١٦/ ٢٥٢.

(٦) مصدر أَرَى على زنة أَفْعَلَ فَالأصل (أَرْأَى) انظر الرازي ٢٨/ ٦٩.

بها[١]. قال «أنس»: فأخفي على رسول الله ـ ﷺ ـ بعد نزول هذه الآية شيء من المنافقين كان يعرفهم بسيماهم[٢].

قوله: «وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ» أي في معناه ومقصده. واللحن يقال باعتبارين:

أحدهما: الكناية بالكلام حتى لا يفهمه غير مخاطبك[٣]. ومنه قول القَتَّال الكِلاَبي (رحمه الله)[٤] في حكاية له:

٤٤٨٧ ـ وَلَقَدْ وَحَيْتُ[٥] لكيمَا تَفهَمُوا وَلَحَنْتُ لَحْناً لَيْسَ بِالْمُرْتَابِ[٦]

وقال آخر:

٤٤٨٨ ـ وَمَنْطِقٌ صَائِبٌ[٧] وَتَلْحَن أحيَا نا وَخَيْرُ الْحَدِيثِ مَا كَانَ لَحْنَا[٨]

واللَّحْنُ: صرف الكلام من الإعراب إلى الخطأ. وقيل يجمعه هو والأول صرف الكلام عن وجهه. يقال من الأول: لَحَنْتُ بفتح الحاء أَلْحَنُ له فَأَنَا لاَحِنٌ. وأَلْحَنْتُ الكَلاَمَ أَفْهَمْتُهُ إياه فَلحِنَهُ ـ بالكسر ـ أي فهمه فهو لاحن[٩]. ومنه قول النبي ـ ﷺ ـ: «وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ[١٠] بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ»[١١].

ويقال من الثاني: لَحِنَ بالكسر إذا لم يُعْرب فهو لَحِنٌ.

فصل

معنى الآية أنك تعرفهم فيما يُعَرِّضون به من تهجين أمرك وأمر المسلمين والاستهزاء بهم، فكان بعد هذا لا يتكلم منافق عند النبي ـ ﷺ ـ إلا عَرَفَهُ بقوله ويستدل بفحوى كلامه على فساد دَخْلَتِهِ. قال ابن الخطيب: معنى الآية أن لن يُخْرِجَ الله أضغانهم أي

---

(١) معاني القرآن ٥/ ١٥.

(٢) القرطبي ١٦/ ٢٥٢.

(٣) القرطبي ١٦/ ٢٥٢.

(٤) زيادة من أ.

(٥) في اللسان: لحنت باللام.

(٦) له من الكامل وشاهده: أن خير الكلام ما عرف بالمعنى ولم يصرح به وانظر اللسان لحن ٤٠١٣ والسراج المنير ٤/ ٣٣ ومجاز القرآن ٢/ ٢٥ لحن والكشاف ٣/ ٥٣٨ وعجزه في الكشاف:

واللَّحْنُ يَعْرِفُهُ ذوو الأَلْبَابِ

وانظره في مجمع البيان ٩/ ١٥٩.

(٧) في القرطبي: رائع.

(٨) من الخفيف لمالك بن أسماء الفزاريّ وهو وما قبله في القرطبي ١٦/ ٢٥٢ و ٢٥٣.

والشاهد: أن اللحن معناه الفهم للمخاطب لا لغيره. وانظر مجمع البيان ٩/ ١٥٩ وفتح القدير ٥/ ٤٠ والنوادر لأبي زيد، واللسان لحن ٤٠١٣.

(٩) اللسان السابق.

(١٠) أي أفطَن وأجدل.

(١١) اللسان السابق والقرطبي ١٦/ ٢٥٢.

يُظْهِرَ ضمائرهم ويُبْرِزَ سرائرهم، وكأن قائلاً قال: فِلمَ لَمْ يُظْهر؟ فقال: أخرناه لمحْض المشيئة لا لخوف منهم ولو نشاء لأريناكهم أي لا مانع لنا والإراءة بمعنى التعريف. وقوله: «فَلَعَرفتهُمْ» لزيادة فائدة وهي أن التعريف قد يطلق ولا يلزم منه المعرفة يقال: عَرَّفْتُهُ ولَمْ يَعْرِف وفَهَّمْتُهُ ولَمْ يَفْهَمْ فقال ههنا: فَلَعَرَفْتَهُمْ يعني عَرَّفْنَاهُمْ تَعْرِيفاً تعرفهم به إشارة إلى قوة التعريف. واللام في قوله: «فلعرفتهم» هي التي تقع في خبر «لو» كما في قوله: «لأَرَيْنَاكَهُمْ» أدخلت على المعرفة إشارة إلى المعرفة المرتبة على المشيئة كأنه قال: ولو نشاء لعرفتهم لتفهم أنَّ المعرفة غير متأخرة عن التعريف فتفيد تأكيد التعريف أي لو نشاء لعرفناك تعريفاً معه المعرفة لا بعده. وقوله: «فِي لَحْنِ الْقَوْلِ» أي في معنى القول حيث يقولون ما معناه[(١)] النفاق، كقولهم حين مجيء النصر: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٠] وقولهم: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ [المنافقون: ٨] وقولهم: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ [الأحزاب: ١٣] ويحتمل أن يكون المراد قولهم ما لم يعتقدوا فأمالوا كلامهم كما قالوا: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

ويحتمل أن يكون المراد من لَحْنِ القَوْل هو الوجه الخفي من القول الذي يفهمه النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ[(٢)] ولا يفهمه (غيره[(٣)]. فالنبي عليه ـ ﷺ ـ كان يعرف) المنافقين ولم يظهر أمرهم، إلى أن أذن الله له في إظهار أمرهم، ومنع من الصلاة على جنائزهم، والقيام على قبورهم.

«بِسيماهُمْ» الظاهر أن المراد أنه تعالى لو شاء لجعل على وجوههم علامة أو يمسخهم كما قال: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ﴾[(٤)] [يس: ٦٧]. وروي أن جماعة منهم أصبحوا وعلى جباههم مكتوب هذا منافقٌ ثم قال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ**﴾ وهذا وعد للمؤمنين وبيان لكون حالهم بخلاف حال المنافقين[(٥)].

قوله: «وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ... ونَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ» قرأ أبو بكر الثلاثة بالياء من أسفل يعني الله تعالى[(٦)]. والأعمش كذلك وتسكين[(٧)] الواو (والباقون[(٨)] بنون العظمة. ورُوَيْسٌ كذلك وتسكين الواو والظاهر قطعه عن الأوّل في قراءة تسكين الواو) ويجوز أن يكون سكن الواو تخفيفاً كقراءة الحسن: ﴿**أَوْ يَعْفُوْ الَّذِي**﴾ [البقرة: ٢٣٧] بسكون الواو.

---

(١) في الرازي: معناه النفاق كـ «أ» هنا. وفي ب منعنا من المنع.
(٢) في ب: ﷺ. (٣) ما بين القوسين سقط من ب.
(٤) وانظر في هذا كله تفسير العلامة الرازي ٢٨/ ١٩، ٧٠.
(٥) السابق.
(٦) وهي متواترة انظر الكشف ٢/ ٢٧٨ والإتحاف ٣٩٣ و ٣٩٤.
(٧) مع الياء كيعقوب وهي شاذة وانظر البحر ٨/ ٨٥.
(٨) ما بين القوسين كله سقط من أ الأصل بسبب انتقال النظر وانظر الكشف والإتحاف السابقين.

فصل

المعنى: لنُعَامِلَنَّكُمْ معاملة المختبر بأن نأمركم بالجهاد والقتال «حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ» أي علم الوجود والمشاهدة فإنه تعالى قد علمه علم الغيب يريد نبين المجاهد الصابر على دينه من غيره وقوله: «وَنَبْلُو أَخْبَارَكُمْ» أي يظهرها ويكشفها بإباء من يأبى القتال ولا يَصْبِرُ على الجهاد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ (٣٢) ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ (٣٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ (٣٤) فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ (٣٥) إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ (٣٦) إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ (٣٧) هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم (٣٨)﴾

قوله: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرسولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى» قيل: هم أهل الكتاب قُرَيْظَةُ والنَّضِيرُ لأن أهل الكتاب تبين لهم صدق محمد ـ ﷺ ـ وقيل: هم كفار قريش. «لن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً» إنما يضرون أنفسهم وهذا تهديد «وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ» فلا يُبْقي لهم ثواباً في الآخرة. قال ابن عباس ـ (رضي الله عنهما) ـ هم المُطْعمُونَ يوم بدر. نظيرها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٦] وقيل: الأعمال ههنا مكايدهم في القتال.

قوله: «يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ» قال عطاء: بالشك والنفاق. وقال الكلبي: بالرِّياء والسمعة. وقال الحسن: بالمعاصي والكبائر. وقال أبو العالية: كان أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ يرون أنه لا يضر مع الإخلاص ذنب، كما لا ينفع مع الشِّرك عمل فنزلت هذه الآية فخافوا الكبائر أن تحبط الأعمال. وقال مقاتل: لا تَمُنُّوا على رسول الله ـ ﷺ ـ فتبطلوا أعمالكم نزلت في بني أسد قال تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤] فإنه يقول: فعلته لأجل قلبك ولولا أرضاك[1] به لما فعلت وهذا مناف للإخلاص والله لا يقبل إلاَّ العَمَلَ الخالص[2].

---

(١) كذا في النسختين وفي الرازي: رضاك.

(٢) وانظر فيما مضى القرطبي ١٦/ ٢٥٤ و٢٨/ ٧٠ و ٧١.

قوله: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ» قيل: هم أصحاب القَليب[١]. وقيل: اللفظ عام[٢].

قوله: «فَلاَ تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْم» يجوز جزم «تَدْعُوا» عطفاً على فعل النهي ونصبه بإضمار أن في جواب النهي. وقرأ أبو عبد الرحمن: بتشديد الدال[٣] فقال الزمخشري: مِن ادَّعَى القَوْمُ وتَدَاعَوْا مثل ارْتَمَوا الصَّيد، وتَرَامَوْا[٤]. وقال غيره: بمعنى تغتروا. وتقدم الخلاف في السِّلْمِ[٥].

فصل

لما بين أن عمل الكافر الذي له صورة الحسنات يحبط وذنبه الذي هو أقبح السيئات غير مغفور وأمر بطاعة الله وطاعة الرسول أمر بالقتال فقال: «فَلاَ تَهِنُوا» أي لا تَضْعُفُوا بعدما وجد السبب وهو الأمر بالجِدِّ والاجتهاد في القتال فقال: «فَلاَ تَهِنُوا وتَدْعُوا إِلَى السَّلم» أي إلى الصلح ابتداء فمنع الله المسلمين أن يدعوا الكفار إلى الصلح وأمرهم بحربهم حتى يسلموا.

قوله: «وَأَنْتُمُ الأَعلونَ» جملة حالية، وكذلك «وَاللَّهُ مَعَكُمْ» وأصل الأَعْلونَ الأَعْلَيُونَ فَأُعِلَّ[٦].

قال ابن الخطيب: أصله في الجمع الموافق أَعْلَيُونَ ومُصْطَفَيُونَ فسكنت الياء لكونها حرف علة تحرك ما قبله والواو كانت ساكنة فالتقى ساكنان فلم يكن بُدٌّ من حذف أحَدِهِما وتحريك الآخر والتحريك كان قد ثبت في المحذور[٧] الذي اجتنب منه فوجب الحذف[٨][٩] والواو فيه كانت لمعنى لا يستفاد إلاَّ منها وهو الجمع فأسقطت الياء وبقي أَعْلَوْنَ. وبهذا الدليل صار في الجرِّ أَعْلَيْنَ ومُصْطَفَيْنَ. ومعنى الأعلون الغالبون قال الكلبي: أخر الأمر لكم وإن غلبوكم في بعض الأوقات «وَاللَّهُ مَعَكُمْ» بالعَوْنِ والنُّصْرَةِ.

---

(١) المراد به قَلِيبُ بدر. (٢) السابق من القرطبي.

(٣) وهي شاذة انظر مختصر ابن خالويه ١٤١، والكشاف ٣/ ٥٣١ وانظر الإعراب فيه أيضاً.

(٤) الكشاف السابق.

(٥) في قوله تعالى: ﴿يأيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْم كَافَّةً﴾ ٢٠٨ من البقرة.

(٦) استثقلت الضمة على الياء فحذفت فاجتمع ساكنان لام الكلمة وواو الجماعة فحذفت اللام ـ وهي ياء الكلمة ـ ففيه إعلالٌ بالحذف.

(٧) في النسختين المحذوف.

(٨) حذف الياء والواو كانت فيه لمعنى لا يستفاد إلا منها وهو الجمع فأسقطت الياء وبقي «أعْلَوْنَ». وانظر الإمام الرازي ٢٨/ ٧٣.

(٩) القرطبي ١٦/ ٢٥٧.

قوله: «وَلَنْ يَترِكُمْ أَعْمَالَكُمْ» أي ينقصكم أو يفردكم عنها، فهو من وَتَرْتُ الرَّجُلَ إذا قتلت له قتيلاً أو نَهَبْتَ مَالَهُ. أو من الوَتْر وهو[1] الانفْراد[2]. وقيل: كلا المعنيين يرجع إلى الإفْراد، لأن من قُتَل له قتيل، أو نهبَ له مال فقد أفرد عينه فمعنى: «لن يتركم أعمالكم» لَنْ يَنْقُصكُمْ شيئاً من ثواب أعمالكم يقال: وَتَرَه يَتِرُهُ وَتْراً وترَةً إذَا نقصه حَقَّهُ.

قال ابن عباس ـ (رضي الله عنهما) ـ وقتادة والضحاك: لن يَظْلِمَكُمْ أعمالكم الصالحة أن يؤتيكم أجورها. ثم حضَّ على طلب الآخرة فقال: «إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ» باطل وغرور «وإنْ تُؤمِنُوا وتَتَّقُوا» الفواحش «يُؤْتِكُمْ أُجورَكُمْ» جزاء أعمالكم في الآخرة «وَلاَ يَسْأَلْكُمْ» ربكم «أَموالَكُمْ» لإيتاء الأجر بل يأمركم بالإيمان والطاعة ليثيبكم عليها الجنة. نظيره قوله: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ [الذاريات: ٥٧]. وقيل: لا يسألكم محمد أموالكم نظيره: ﴿قُلْ مَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [ص: ٨٦]. وقيل: معنى الآية لا يسألكم الله ورسوله أموالكم كلها في الصدقات إنما يسألانِكم غيضاً من فيض ربُع العشر فطيبوا بها نفساً. قاله ابن عُيَيْنَةَ. ويدل عليه سياق الآية.

قوله: «فَيُحْفِكُمْ» عطف على الشرط و «تَبْخَلُوا» جواب الشرط. قال ابن الخطيب: الفاء في قوله: «فَيُحْفِكُمْ» لِلإشارَة إلى أن الإحْفَاءَ يتبع السؤال لشُحِّ الأنْفُس، وذلك لأن العطف بالواو قد يكون لمباينين[3] وبالفاء لا يكون إلا للمتعاقبين، أو متعلقين أحدهما بالآخر فكأنه تعالى يبين أن الإحْفَاء يقع عقيبَ السؤال لأن الإنسان بمجرد السؤال لا يعطي شيئاً[4]. قال المفسرون: فيُحْفِكُمْ يُجْهِدُكم وبلحف عليكم بمسألة جميعها يقال: أَحْفَى فلانٌ فلاناً إذا جهده وَأَلحَفَ قلبهُ في المسألة[5].

قوله: «تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ» العامة على إسناد «يُخْرِجْ» إلى ضمير فاعل إما الله تعالى أو الرسول أو السّؤَال[6]؛ لأنه سبب وهو مجزوم عطفاً على جواب الشرط وروي عن أبي عمرو رفعه على الاستئنَافِ[7] وقرأ أيضاً بفتح الياء وضم الراء ورفع «أَضْغَانُكُمْ» فاعلا[8].

---

(١) في ب وهي.

(٢) وانظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٦٤ واللسان وَتَرَ ٤٧٥٨.

(٣) في الرازي: للمثلين.

(٤) الرازي ٢٨/ ٧٤.

(٥) اللسان لحف، ومعاني الفراء ٣/ ٦٤.

(٦) في البحر: أو البخل. وانظر البحر المحيط ٨/ ٨٦.

(٧) لم ترو في المتواتر عن أبي عمرو. وانظر البحر ٨/ ٨٦ فيترتب على ذلك وقوع الجملة حالية.

(٨) رواها عبد الوارث هي وسابقتها عن أبي عمرو فيما نقله صاحب اللوامح فيما نقله عنه أيضاً أبو حيان وهي من الشواذ كسابقتها فلم ترو عنه في المتواتر والمعنى وهو يخرج أضغانكم أو سيخرج رفع بفعله. وانظر مختصر ابن خالويه ١٤١ ونسبها لابن عباس مع آخرين.

وابن عباس في آخرين وتَخْرُجْ ـ بالتاء[١] من فوق وضم الراء ـ أَضْغَانُكُمْ فاعل به[٢]. ويعقوب وَنخْرِجْ بنون العظمة وكسر الراء أضْغَانَكُمْ نصباً[٣].

وقرىء: وَيُخْرَجْ بالياء على البناء للمفعول أضْغَانُكُمْ رفعاً به[٤]. وعيسى كذلك[٥] إلا أنه نصبه بإضمار أن عطفاً على مصدر متوهم أي بأن يُكَفَّ بُخْلُكُمْ وإخْرَاجَ أضغَانِكُمْ بُغْضُكُمْ وعَدَاوَتُكُمْ[٦].

فصل

قال قتادة: علم الله أن في مسألة الأموال خروج الأَضْغَان[٧] يعني ما طلبها ولو طلبها وألحَّ عليكم في الطلب لبخلتم كيف وأنتم تبخلون باليسير فكيف لا تبخلون بالكثير فيخرج أضغانكم بسببه. فإن النبي ـ ﷺ ـ وأصحابه إذا طلبوا منكم وأنتم لمحبة الأموال وشُحِّ الأنفس تمتنعون فيفضي إلى القتال وتظهر به الضغائن[٨].

ثم بين ذلك بقوله «هٰأَنْتُمْ هَؤُلاَءِ» قد طلبت منكم اليسير فيحفكم فكيف لو طلبت منكم الكل[٩]؟

قوله: «هٰأَنْتُم هَؤُلاَءِ» (قال الزمخشري[١٠]: هؤلاء) موصول[١١] صلته «تدعون» أي أنتم الذين تدعون أو أنتم يا مخاطَبُون هؤلاء المؤمنون. ثم استأنف وصفهم كأنهم قالوا: وما وَصْفُنَا؟ فقيل: تُدْعَوْنَ[١٢]. وقال ابن الخطيب: «هؤلاء» تحتمل وجهين:

أحدهما: أن تكون موصولة كأنه قال: أنتم الذين تُدْعَوْنَ لتنفقوا في سبيل الله.

وثانيهما: هؤلاء وحدها خبر «أنتم» كما يقال: أنت (أنت[١٣] و) أنت هذا تحقيقاً للشهرة والظهور أي ظهور أثركم بحيث لا حاجة إلى الإخبار عنكم بأمْر مغاير[١٤]. وقد

---

(١) تاء التأنيث.

(٢) وهي شاذة أيضاً وانظر المرجعين السابقين مع الكشاف ٣/ ٥٣٩.

(٣) وهي قراءة ابن عباس أيضاً انظر المرجع السابق وهي شاذة.

(٤) لم أعثر على هذه القراءة بالبناء للمفعول فقد قال أبو حيان «ويعقوب ونخرج بالنون أضغانكم وهي مروية عن عيسى إلا أنه فتح الجيم بإضمار أنْ».

(٥) كما قلت: أوردها صاحب البحر الذي نقل منه المؤلف بالبناء للفاعل من الرباعي وليس للمفعول.

(٦) انظر البحر المحيط المرجع السابق. (٧) القرطبي ١٦/ ٢٥٧

(٨) قاله الإمام الفخر الرازي ٢٨/ ١٧٤. (٩) السابق.

(١٠) ما بين القوسين ساقط من ب بسبب انتقال النظر.

(١١) مع أنه مشهور فيه الإشارة الجمعية تذكيراً وتأنيثاً.

(١٢) الكشاف ٣/ ٥٣٩.

(١٣) ما بين الأقواس زيادة من النسختين عن كلام ابن الخطيب وهو الرازي كما عرف.

(١٤) وانظر تفسيره ٢٨/ ٧٥.

تقدم الكلام على قوله: «هٰأَنْتُمْ هَؤُلاءِ» مُشْبَعاً في آلِ عِمْرَانَ(١).

وقوله: «تُدْعَوْنَ» أي إلى الإنفاق إما في سبيل الله بالجهاد وإما صرفه إلى المستحقين من إخوانكم. قوله: «فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ» بما فرض عليه من الزكاة «وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ» أي إن ضرر ذلك البخل عائد إليه فلا تظنوا أنهم ينفقون على غيرهم بل لا ينفقونه إلا على أنفسهم فإن من يبخل بأجرة (الطّبيب)(٢) وثمن الدواء وهو مريضٌ فلا يبخل إلا على نفسه ثم حقق ذلك بقوله: «وَاللَّهُ الغَنِيُّ» أي غير محتاج إلى مالكم وأتمه بقوله: «وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ» إليه وإلى ما عنده من الخير حتى لا تقولوا بأنا أغنياء عن القتال ودفع حاجة الفقراء(٣).

قوله: «يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ» بَخِلَ وضنَّ يتعديان بـ «عَلَى» تارةً وبـ «عَنْ» أخرى(٤). والأجود أن يكون(٥) حال تعديهما بـ «عَنْ» مُضَمَّنَيْن معنى الإمساك.

قوله: «وَإِنْ تَتَوَلَّوْا» هذه (الجملة الشرطية(٦) عطف على) الشرطية قبلها. و «ثُمَّ لاَ يَكُونُوا» عطف على «يَسْتَبْدِلْ»(٧).

فصل

ذكر بيان الاستغفار كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [فاطر: ١٦] قال المفسرون: إن تَتَوَلَّوْا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم بل يكونوا أمثل منكم وأطوع لله منكم. قال الكلبي: هم كِنْدَةُ والنَّخْعُ.

وقال الحسن: هم العجم. وقال عكرمة: فارس (والروم)(٨) لما روى أبو هريرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ تلا قوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ قال يا رسول الله: من هؤلاء الذين إن تولينا اسْتُبْدِلُوا بنا، ثم لا يكونوا أمثالنا؟ فضرب

---

(١) عند قوله: «هٰأَنْتُمْ هَؤُلاَءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُونَ» من الآية ٦٦ منها. والهاء حرف تنبيه و «أنتم» مبتدأ «وهؤلاء» خبره و «أولاء» لغة الحجاز والقصر لغة تميم ويقال: أُلاّك بالتشديد وأولالك وأولئك وكلها واردات. (بتصرف من من الهمع للسيوطي ١/ ٧٥).

(٢) سقط من ب.

(٣) وانظر الرازي ٢٨/ ٧٥ المرجع السابق.

(٤) قاله الزمخشري في الكشاف ثم أبو حيان في البحر انظر الكشاف ٣/ ٥٤٠ والبحر ٨/ ٨٦.

(٥) كذا في النسخ والأوضح: أن يكونا أي بخل وضن.

(٦) ما بين القوسين الكبيرين ساقط من ب وما بين القوسين الصغيرين زيادة عن السياق لتوضيحه.

(٧) البحر ٨/ ٨٦ السابق.

(٨) سقط من ب وانظر هذه الآراء في الجامع للقرطبي ١٦/ ٣٥٨ والكشاف للزمخشري ٣/ ٥٤٠ والبحر لأبي حيان ٨/ ٨٦.

على فَخذِ سَلْمَانَ الفَارِسيِّ ثم قال: هذا وقومه ولو كان الدين عند الثُرَيَّا لتناوله رجالٌ من الفرس. وقيل: هم قوم من الأنْصَارِ[١].

فصل

قال ابن الخطيب: ههنا مسألة، وهي أن النُحَاةَ قالوا: يجوز في المعطوف على جواب الشرط «بالواو والفاء وثُمَّ» الجزم والرفع، تقول: إنْ تَأتِنِي آتِكَ فَأُخْبِرُكَ[٢] بالجزم والرفع جميعاً، قال الله تعالى ههنا «إنْ تَتولَّوْا يَسْتَبْدِلَ قَوْماً غَيْرَكُمْ» وقال «ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ» بالجزم[٣] وقال في مَوْضع آخر: «وإنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأدبارَ ثُمَّ لاَ يُنْصَرُونَ»[٤] بالرفع، لإثبات النون. وفيه تدقيق: وهو أن قوله: «لاَ يَكُونُوا» متعلق بالتولي[٥]؛ لأنهم إن لم يَتَوَلَّوْا يَكُونوا[٦] مثلَ من[٧] يأتي بهم الله على الطاعة وإن تولوا لا يكونون مثلهم لكونهم عاصين وكون من يأتي بهم مطيعين. وأما هناك سواء قاتلوا أو لم يقاتلوا لا ينصرون، فلم يكن التعلق[٨] هناك بما وقع بالابتداء وههنا جزم. وقوله: «يكونُوا أمْثَالَكُمْ» في الوصف لا في الجنس[٩].

روى أُبَيُّ بن كَعْبٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ «مَنْ قَرَأَ سُورَة مُحَمَّدٍ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْقِيهُ مِنْ أَنْهَارِ الجَنَّةِ»[١٠]. (صدق رسول الله ـ ﷺ ـ وشرف وكرمَ)[١١].

---

(١) المراجع السابقة.
(٢) هذا الجملة زيادة من المؤلف على تفسير ابن الخطيب. وفي أ الأصل: فأخبرتك والتصحيح من ب كما كتبته أعلى.
(٣) بحذف النون.
(٤) بالرفع بثبوت النون وهي من الآية ١٣٣ من آل عمران.
(٥) في الرازي: وهو أن ههنا لا يكون متعلقاً بالتولي.
(٦) وفيه: يكونون وهو تحريف.
(٧) وفيه: مِمَّنْ يأتي بِهِم اللَّهُ.
(٨) وفيه: للتعليق وجه فرفع بالابتداء وههنا جزم للتعليق وهو الأصح.
(٩) وانظر في هذا كله تفسير الرازي ٢٨/ ٧٦.
(١٠) رَوَاه الزَّمَخْشَري كعادته من دون سند. انظر الكشاف ٣/ ٥٤٠.
(١١) ما بين القوسين كله زيادة من نسخة ب.

سورة الفتح

مدنية(١). وهي تسعٌ وعشرونَ آيةً، وخمسمائة وستون كلمةً وألفان وأربعمائة وثمانية وثلاثون حرفاً.

روى زيد بن أسلم عن ابن عمر عن عمر بن الخطاب أنه كان يسير مع رسول الله ـ ﷺ ـ في بعض أسفاره فسأله عمر عن شيء فلم يُجِبْهُ ثم سأله فلم يُجِبْهُ ثم سأله فلم يُجِبْه قال عمر: فحركت بَعِيري حتى تقدمت أمام الناس وخَشِيتُ أن يكون نَزَلَ فيّ قرآنٌ فما نَشِبْتُ(٢) أنْ سَمِعْتُ صارخاً يَصْرُخُ بي فجئتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ فسلَّمْتُ عليه فقال: لقد أنزلت(٣) عليَّ الليلةَ سورةٌ لَيسَ أحب إلَيَّ مما طَلَعَتْ عليه الشمسُ، ثم قرأ: «إنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ» وروى أنس قال: نزلتْ على النبي ـ ﷺ ـ إنَّا فَتَحْنَا لَكَ. . إلى آخر الآية مَرْجِعَه(٤) من الحديبية وأصحابه مخالطو الحزن والكآبة فقال: نزلت(٥) عليّ آية هي أحبّ إليَّ من الدنيا جميعاً فلما تلاها نَبِيُّ الله ـ ﷺ ـ قال رجل من القوم: هنيئاً مريئاً قد بين الله لك ما يفعل بك فماذا يفعل بنا؟ فأنزل الله: **﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ﴾** حتى ختم الآية.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: **﴿إنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾** اختلفوا في هذا الفتح فروى أنس أنه فتح مكة وقال مجاهد: فتح خيبر. والأكثرون على أنه فتح الحديبية، وقيل: فتح الروم. وقيل: فتح الإسلام بالحُجَّة والبُرْهَان والسَّيْفِ والسِّنان. وقيل: الفتح الحكم لقوله

(١) بإجماع انظر القرطبي ١٦/ ٢٥٩.
(٢) أي ما لَبِثْتُ وما تَعَلَّقْتُ بشيء.
(٣) في القرطبي وأ هنا أنزلت وفي ب أنزل.
(٤) كذا في الروايات وهي منصوبة على نزع الخافض أي عند مرجعه.
(٥) في ب نزل.

تعالى: ﴿افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٨٩] وقوله: ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ [سبأ: ٢٦]. فمن قال: هو فتح مكة قال: لأنه مناسب لآخر السورة التي قبلها من وجوه:

أحدها: أنه تعالى لما قال: ﴿هَاأَنْتُمْ هَؤُلاَءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إلى أن قال: «وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نفسه» وبين تعالى أنه فَتَحَ لهم مكة، وغَنِموا ديارهم، وحصل لهم أضعاف ما أنفقوا؛ ولو بخلوا لضاع عليهم ذلك فلا يكون بخلهم إلا على أنفسهم.

وثانيها: لما قال: «وَاللَّهُ مَعَكُمْ» وقال: «وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ» بين برهانه بفتح مكة فإنهم كانوا هم الأعلون.

وثالثها: لما قال تعالى: ﴿فَلاَ تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ وكان معناه لا تسألوا الفتح بل اصبروا فإنكم تسألون الصلح كما كان يوم الحديبية فكان المراد فتح مكة حيث أتوا صَنَادِيدَ قُرَيْشٍ مستأمنين ومؤمنين ومسلمين ومستسلمين.

فإن قيل: إن كان المراد فتح مكة فمكة لم تكن فتحت فكيف قال: فتحنا بلفظ الماضي؟

فالجواب من وجهين:

أحدهما: فتحنا في حُكْمِنا وتَقْدِيرِنا[١].

والثاني: ما قدره الله تعالى فهو كائن فأخبر بصيغة الماضي إشارة إلى أنه أمرٌ واقعٌ لا دَافِعَ له.

وأما حجة رأي الأَكْثِرين على أنه صلح الحديبية فلِمَا رَوَى البراء[٢] قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحاً ونحن نَعُدُّ الفتحَ بيعةَ الرضوان يوم الحديبية كنا مع النبي[٣] ـ ﷺ ـ أَرْبَعَ عَشْرَةَ مائةً والحديبيةُ بئرٌ فَنَزَحْنَاهَا فلم تنزل قَطْرَةٌ فبلغ ذلك النبي ـ ﷺ ـ فأتاها فجلس على شفيرها فدعا بإناءٍ من ماءٍ فتوضأ ثم تَمَضْمَضَ ودعا وَصبَّهُ فيها فتركناها غير بعيد. ثم إنها أَصْدَرَتْنَا ما شئنا نحن وركابنا[٤]. قال الشعبي في قوله: إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً قال: فتح الحديبية غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وأطعموا نَخْل خيبر، وبلغ الهديُ مَحِلّه وظهرت الروم على الفرس ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المَجُوسِ. قال الزهري: ولم يكن فتح أعظمُ من صُلْحِ الحُدْيبِيَةِ، وذلك أن

---

(١) كذا في الرازي وفي ب وتدبيرنا. وكلتاهما قريبتان.

(٢) هو البراء بن عازب وقد مر ترجمته. (٣) في ب مع الرسول.

(٤) انظر القرطبي ١٦/ ٢٦٠.

المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا كلامهم فتمكن الإسلام في قلوبهم وأسلم في ثلاثِ سنين خلق كثير وكثر سَوَادُ الإسلام[١]، قال المفسرون: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً» أي قضينا لك قَضَاءً بَيِّناً[٢].

قوله: «لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ» متعلق «بِفَتَحْنَا» وهي لام العلة. وقال الزَّمَخْشَرِيُّ:

فإن قلتَ: كيف جعل فتح مكة علَّةً للمغفرة؟

قلتُ: لَمْ تُجْعل علة للمغفرة ولكن لما عدد من الأمور الأربعة وهي المغفرة، وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم، والنصر العزيز كأنه قال: يَسَّرْنَا لَكَ فَتْح مكة، ونَصَرْنَاك على عدوك ليجمع لك بين عِزّ الدَّارَيْن، وإعراض العاجل والآجل. ويجوز أن (يكون)[٣] فتح مكة من حيث إنَّهُ جهادٌ للعدو سبباً للغُفْران والثواب[٤]. وهذا الذي قاله مخالف لظاهر الآية، فإن اللام داخلة على المغفرة فتكون المغفرة علة للفتح والفتح معلَّلٌ بها فكان ينبغي أن يقول: كيف جعل فتح مكة معلَّلاً بالمغفرة؟ ثم يقول: لم يجعل مُعَلَّلاً؟

وقال ابن الخطيب في جواب هذا السؤال وجهين آخرين؛ فقال بعد أن حكى الأول وقال: إنَّ اجتماع الأربعة لم يثبت إلاَّ بالفتح فإنَّ النعمةَ به تَمَّتْ، والنُّصْرَةَ به عَمَّت: **الثاني**: أن فتح مكة كان سبباً لتطهير بيت الله من رِجْز الأوثان وتطهير بيته صار سبباً لتطهير عبده. **الثالث**: أن الفتح سبب الحِجَج، وبالحَجِّ[٥] تحصل المغفرة كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ في الحج «اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ حَجًّا مَبْرُوراً وَسَعْياً مَشْكُوراً وَذَنْباً مَغْفُوراً». **الرابع**: المراد منه التعريف تقديره: إنَّا فتحنا لك لِتَعْرِفَ أنك مغفور لك معصوم[٦]. وقال ابن عطية: المراد هنا أن الله فتح لك لِكَيْ[٧] يجعل الفتح علامة لِغُفْرَانِهِ لك فكأنها لام صيرورة[٨]. وهذا كلام ماش على الظاهر، وقال بعضهم: إنَّ هذه اللام لام القَسَم[٩] والأصل: لَيَغْفِرَنَّ فكسرت اللام تشبيهاً بلام «كي»، وحذفت النون. وَرُدَّ هذا بأن اللام لا تكسر، وبأنها لا تنصب المضارع[١٠].

---

(١) بالمعنى من القرطبي المرجع السابق.
(٢) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه ٥/ ١٩.
(٣) كذا في الزمخشري وقد سقطت من ب.
(٤) وانظر الكشاف ٣/ ٥٤١.
(٥) في ب وبالحجج جَمْع حَجَّة.
(٦) بالمعنى من تفسير الإمام الرازي ٢٨/ ٧٨.
(٧) في ب لكن تحريف.
(٨) البحر المحيط ٨/ ٩٠ وهي ما تسمى بلام العاقبة وهذه اللام أنكرها البصريون ومن تابعهم كالزمخشري الذي قال: إنها لام العلة وأن التعليل فيها واردٌ على طريق المجاز دون الحقيقة. انظر المغني ٢١٤ بتصرف.
(٩) نقل القرطبي في الجامع أنه أبو حاتم السجستانيّ.
(١٠) ولو جاز هذا لجاز: لَيَقُومُ زَيْدٌ بتأويل: لَيَقُومَنَّ زَيْدٌ. وانظر السابق والبحر المحيط ٨/ ٩٠ أقول: وهذا مما لم يحفظ في لسانهم.

وقد يقال: إنَّ هذا ليس بنصب وإنما هو بقاءُ الفتح الذي كان قبل نون التوكيد بَقِيَ ليدل عليها ولكنه قول مردودٌ.

فصل

لم يكن للنبي ـ ﷺ ـ ذنب فماذا يغفر له؟ فقيل: المراد ذنب المؤمنين. وقيل: المراد ترك الأفضل. وقيل: الصغائر فإنها جائزة على الأنبياء بالسهو والعَمْد. قال ابن الخطيب: وهي تصونهم عن العُجْبِ. وقيل: المراد بالمغفرة العِصْمة. ومعنى قوله: «وَمَا تَأَخَّر» قيل: إنه وعد النبي ـ ﷺ ـ بأنه لا يذنب بعد النُّبُوَّة. وقيل: ما تقدم على الفتح. وقيل: هو للعموم، يقال: اضْرِبْ مَنْ لَقِيتَ وَمَنْ لاَ تَلْقَاهُ مع أن من لا تلقاه لا يمكن ضربه إشارة إلى العموم. وقيل: من قبل النبوة وبعدها ومعناه ما قبل النبوة بالعفو وما بعدها بالعصمة. وفيه وجوه أُخر ساقطة. قال ابن الخطيب: منها قول بعضهم: ما تقدم من أمر «مَارِيَةَ»[(١)] «وَمَا تَأَخَّر» من أمر «زَيْنَبَ»[(٢)] وهو أبعد الوجوه وأَسْقَطُهَا لعدم الْتِئَامِ الكَلاَمِ.

قوله: «وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ» قيل: إنَّ التكاليفَ عند الفتح تَمَّتْ حيث وَجَب الحَجُّ ـ وهو آخر التكاليف والتكليف نعمة ـ وقيل: يتم نعمته عليك بإخلاء الأرض من مُعَانِدِيكَ، فإنَّ مِنْ يوم الفتح لم يبق للنبي ـ ﷺ ـ عدوٌّ، فإن بعضهم قُتِلَ يوم بدر، والباقون آمنوا واستأمنوا يوم الفتح[(٣)]. وقيل: ويتم نعمته عليك في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا باستجابة دعائك في طلب الفتح، وفي الآخرة: بِقبول شفاعتك.

فصل

قال الضحاك: إنَّا فتحنا لك فتحاً مبيناً بغير قتال، وكان الصلح من الفتح. فإنْ كانت[(٤)] اللام في قوله: «لِيَغْفِرَ» لام كي فمعناه إنَّا فَتَحْنَا لك فتحاً مبيناً لكي يجتمع لك مع المغفرة تَمَامُ النعمة في الفتح. وقال الحسن بن الفضل: هو مردود إلى قوله: «واسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ ليغفر الله لك ما تقدم من ذنبك، وما تأخر، ولِيُدْخِلَ المؤمنين والمؤمنات جناتٍ تجري من تحتها الأنهار».

وقال محمد بن جرير: هو راجع إلى قوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر: ١ ـ ٣] ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك في الجاهلية قبل الرسالة «وما تأخر» إلى وقت نزول هذه السورة. وقيل: ما تأخر مما يكون. وهذا على طريقة من يجوز الصغائر على الأنبياء. وقال سُفْيَانُ

---

(١) القبطية.
(٢) بنت جحش.
(٣) الرازي ٢٨/ ٧٨.
(٤) في ب فإن قُلْتَ.

الثَّوْرِيّ: «ما تقدم» مما عملت في الجاهلية «وما تأخر» كل شيء لم تعمله كما تقدم.

وقال عطاء الخراساني: «مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنبِكَ» يعني ذنب أبويك آدَمَ وحوّاء ببركتك، «وَمَا تَأَخَّرَ» ذنوب أمتك بدعوتك. «وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ» بالنبوة والحكمة[١].

قوله: «وَيَهْدِيكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً» قيل: يهدي بك. وقيل: يُديمك على الصراط المستقيم[٢]، وقيل جعل الفتح سبب الهداية إلى الصراط المستقيم لأنه سهل على المؤمنين الجهاد لعلمهم بفوائده (و)[٣] العاجلة والآجلة. وقيل: المراد التعريف، أي لتعرف أنك على صراط مستقيم[٤]. ثم قال: «وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً» غالباً. وقيل: مُعِزًّا؛ لأن بالفتح ظهر[٥] النصر[٦].

فإن قيل: إنَّ الله تعالى وصف النَّصْر بكونه عزيزاً والعزيز من له النصر!

فالجواب من وجهين:

أحدهما: قال الزمخشري: إنه يحتمل وجوهاً ثلاثة:

الأول: معناه نصراً ذا عزة، كقوله: ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١] أي ذَاتِ رِضاً.

الثاني: وصف النصر بما يوصف به المنصور إسناداً مجازياً يقال لَهُ كَلاَمٌ صَادِقٌ كما يقال له متكلم صادق.

الثالث: المراد نصراً عزيزاً صَاحِبُهُ[٧].

الوجه الثاني: أن يقال: إنما يلزم ما ذكره الزمخشريُّ إذا قلنا: العزة هي الغلبة والعزيز الغالب. وأما إذا قلنا: العزيز هو النفيس القليل النظير، أو المحتاج إليه القليل الوجود، يقال: عَزَّ الشَّيْءُ في سُوقِ كَذَا أي قَلَّ وُجُودُهُ مع أنه مُحْتَاجٌ إليه، فالنصرُ كان محتاجاً إليه ومثله لم يوجد وهو أخذ بيت الله من الكفار المقيمين[٨] فيه من غير عَدَد ولا عُدَدٍ[٩].

فصل في البحث المعنوي

وهو أن الله تعالى لما قال: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنبِكَ﴾ أبرز الفاعل وهو

---

(١) ذكر هذه الآراء القرطبي في الجامع ١٦/ ٢٦٢ و٢٦٣.

(٢) هذا رأي الرازي في تفسيره ٢٨/ ٧٨.

(٣) زيادة لا معنى لها من أ.

(٤) ذكرهما أيضاً الرازي في مَرْجِعهِ السّابق.

(٥) في ب حصل.

(٦) قاله الرازي أيضاً في مرجعه السابق.

(٧) بلفظ الرازي ٢٨/ ٧٩ وبمعنى كلام الزمخشري فقد قال: «نَصْراً عَزِيزاً فيه عزّ ومَنَعَة، أو وصف بصفة المنصور إسْنَاداً مجازياً، أو عزيزاً صاحبة» الكشاف ٣/ ٥٤١.

(٨) في الرازي المقيمين.

(٩) مع تغيير طفيف في عبارة الرازي. وانظر التفسير الكبير ٢٨/ ٧٨ و٧٩.

الله، ثم عطف عليه بقوله: «ويُتِمّ» وبقوله: «ويَهْدِيكَ» ولم يذكر لفظ الله على الوجه الحسن في الكلام وهو أن الأفعال الكثيرة إذا صدرت من فاعل يظهر اسمه في الفعل، ولا يظهر فيما بعده تقول: «جَاءَ زَيْدٌ وَقَعَدَ وَتَكَلَّمَ وَرَاحَ وَقَامَ» ولا تقول جَاءَ زَيْدٌ وَقَعَدَ زَيْدٌ، بَلْ جَاءَ زَيْدٌ وَقَعَدَ، اختصاراً للكلام بالاقتصار على الأوّل، وههنا لم يقل: «وَيَنْصُرَكَ نَصْراً» بل أعاد لفظ الله وجوابه هذا إرشاد إلَى طريق النَّصر ولهذا قَلَّمَا ذَكَرَ الله النَّصْرَ من غير إضافة فقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠] ولم يقل: بالنَّصْر يُنْصَرُ وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ﴾ [الأنفال: ٦٢] ولم يقل: أيدك بالنصر، وقال: «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ» وقال: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: ١٣]، وقال: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، وهذا أدل الآيات على مطلوبها. وتحقيقه هو أن النصر بالصبر والصبر بالله قال تعالى: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧] وذلك لأن الصبر سكون القلب واطمئنانه وذلك بذكر الله (تعالى)[1] كما قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] فلما قال ههنا: «وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ» أظهر لفظ الله، ليُعْلَمَ أن بذكر الله يحصل اطمئنان القلب وبه يحصل الصبر وبه يتحقق النصر.

فصل

قال: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ» ثم قال: «لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ»، ولم يقل: «إِنَّا فَتَحْنَا لِيَغْفِرَ لَكَ» تعظيماً لأمر الفتح وذلك لأن المغفرة وإن كانت عظيمة لكنها عامة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] وقال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ١١٦] فإن قلنا: المراد من المغفرة في حق النبي ـ ﷺ ـ فكذلك لم يختص به نبينا، بل غيره من الرسل كان معصوماً وإتمام النعمة كذلك قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ [المائدة: ٣] وقال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٧ و ١٢٢] وكذلك الهداية قال تعالى: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ﴾ [النور: ٣٥] وكذلك النصر، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٢]. وأما الفتح فلم يبق لأحد غير النبي ـ ﷺ ـ فعظّمه بقوله: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً» وفيه التعظيم من وجهين:

أحدهما: قوله: «إِنَّا»

والثاني: قوله: «لَكَ» أي لأجلك على وجه المِنَّة.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ

(١) زيادة من أ.

وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي
مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾
وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ
ٱلسَّوْءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ لما قال تعالى: ﴿**وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً**﴾ بين وجه النصر، وذلك أن الله تعالى قد ينصر رسله بصيحةٍ يَهْلِكُ بها أعداؤُهُمْ، أو رَجْفةٍ يُحْكَمُ فيها عليهم بالفَنَاءِ، أو بشيءٍ يُرْسِلُهُ مِن السَّمَاء، أو بصبر وقوة وثبات قلبٍ يرزق المؤمنين ليكون لهم بذلك الثواب الجزيل، فقال: «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ» أي تحقيقاً للنصر. والمراد بالسكينة قيل: السكون، وقيل: الوَقَار لله. وقيل: اليقين. قال أكثر المفسرين: هذه السكينة غير السكينة المذكورة في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[1] [البقرة: ٢٤٨]. ويحتمل أن تكون هي تلك؛ لأن المقصود منها على جميع الوجوه اليقين وثبات القلب.

فصل

قال الله تعالى (في[2] حق الكفار) ﴿**وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ**﴾ بلفظ القذف المُزْعِج وقال في حق المؤمنين: «أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ» بلفظ الإنزال المثبت. وفيه معنى حكميّ وهو أن من علم شيئاً من قبل ويذكره استدام بذكره، فإذا وقع لا يَتَغَيَّر[3] ومن كان غافلاً عن شيء فيقع رفعه فإنه يَرْجُفُ فؤاده، ألا ترى أن من أخبر بوقوع صَيْحَةٍ، وقيل (له)[4] لا تنزعج[5] منها فوقعت الصيحة لا يَرْتَجِفُ[6] ومن لم يخبر به أو أخبر وغفل عنه يرتجف إذا وقعت. كذلك الكافر أَتَاهُ الله من حيث لم يحتسب وقذف في قلبه الرُّعْبَ، فارْتَجَفَ، والمؤمن أُتِيَ[7] من حيث كان يذكر فسكن، فلا تزعج نفوسهم لما يرد عليهم. قال ابن عباس: كل سكينة في القرآن فهي طمأنِينَةٌ إلاّ التي في سورة البقرة[8].

---

(١) وانظر في هذا كله تفسير الإمام الرازي ٢٨/ ٧٩ و٨٠.
(٢) ما بين القوسين زيادة من ب على أ.
(٣) كذا في الرازي وفي ب يتعين.
(٤) زيادة من أ.
(٥) في ب ينزعج.
(٦) وفيها يرجف.
(٧) في ب: والمؤمن من أوتي وفي الرازي: والمؤمن أتاه وأ والرازي هما الصَّحِيحَانِ وانظر الرازي ٢٨/ ٨٠.
(٨) الآية ٢٤٨ السابقة.

قوله: «لِيَزْدَادُوا إيماناً مع إيمَانِهِمْ»، قال ابن عباس ـ (رضي الله عنهما) ـ بَعث الله رسوله محمداً ـ ﷺ ـ بشهادة أن لا إله إلاّ الله، فلما صدقوا زادهم الصلاة، ثم الزكاة، ثم الصِّيام، ثم الحجّ، ثم الجِهَاد حتى أكمل لهم دينهم وكُلَّمَا أُمِرُوا بشيء فصدقوه ازدادوا تصديقاً إلى تصديقهم. وقال الضحاك: يقيناً مع يقينهم[١]، وقيل: أنزل السكينة عليهم فَصَبَرُوا ورأوْا عَيْنَ اليقين ما علموا من النصر علم اليقين إيماناً بالغيب فازدادوا إيماناً مُسْتَفَاداً من الغيب مع إيمانهم المستفادِ من الشهادة. وقيل: ازدادوا إيماناً بالفروع مع إيمانهم بالأصول فإنهم آمنوا بأن محمداً رسولُ الله، فإن الله واحدٌ، والحَشْرَ كائنٌ فآمنوا بأن كُلَّ ما يقول النبي ـ ﷺ ـ فهو صدق، وكُلَّ ما يأمر الله تعالى به فهو واجب.

وقيل: ازدادوا إيماناً استدلاليًّا مع إيمانهم الفطري.

فإن قيل: ما الحكمة في قوله في حق الكفار: «إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً» ولم يقل مع كفرهم وقال في حق المؤمنين: «ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم»؟

فالجواب: أن كفر الكافر عِنَادِيّ، وليس في الوجود كُفْرٌ فِطْرِيّ، ولا في الوجود كفر عِنَاديّ لينضمَّ إلَى الكفر الفطري بل الكفر ليس إلا عناداً وكذلك الكفر بالفروع لا يقال: انضم إلى الكفر بالأصول، لأن من ضرورة الكفر بالأصول الكفر بالفروع وليس من ضرورة الإيمان بالأصول الإيمان بالفروع بمعنى الطاعة والانقياد، ولهذا قال: «لِيَزْدَادُوا إيمَاناً مع إيمانِهِمْ».

قوله: «وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ» فهو قادر على إهلاك عَدُوِّهم بجنود، بل بصيحة ولم يفعل بل أنزل السكينة على المؤمنين ليكون إهلاك أعدائه بأيديهم فيكون لهم الثواب. والمراد بجنود السموات والأرض الملائكة، وقيل: جنود السموات الملائكة وجنود الأرض الجنُّ والحَيَوَانَاتُ. وقيل: الأسباب السماوية.

«وكَانَ اللَّهُ عَلِيماً» لما قال: «وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ» وعددهم غير محصور فقال «عَلِيماً» إشارة إلى أنه لا يعزب عنه مثقال ذرّة في السموات ولا في الأرض. وقيل: لما ذكر القلوب بقوله: «أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ المُؤْمِنِينَ» والإيمان الذي من عَمَلِ القُلُوب ذكر العلم إشارة إلى أنه يَعْلَمُ السِّرَّ وأخفى. وقوله «حكيماً» بعد «عَلِيماً» إشارة إلى أنه يفعل على وَفْق العلم، فإن الحكيم من يعمل شيئاً متقناً وبعلمه[٢].

قوله تعالى: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ في متعلق هذه اللام أربعة أوجه:

أحدها: محذوف تقديره: يبتلي بتلك الجنود من شاء فيقبل الخير ممن أَهَّلَهُ له والشَّرَّ ممن قضى له به ليدخل ويعذب.

---

(١) القرطبي ١٦/ ٢٦٤.

(٢) وانظر في هذا كله المرجع السابق ٢٨/ ٨١.

الثاني: أنها متعلقة بقوله: «إِنَّا فَتَحْنَا»[١] لأنه روي أن المؤمنين قالوا للنبي ـ ﷺ ـ هنيئاً لك إن الله غَفَر لك فما بالنا؟ فنزلت الآية فكأنه تعالى قال: إنا فتحنا لك ليغفر لك وفتحنا للمؤمنين لِيُدْخِلَهُمْ جناتٍ.

الثالث: أنها متعلقة بـ «يَنْصُرَكَ» كأنه تعالى قال: وينصرك الله بالمؤمنين ليدخل المؤمنين جنات.

الرابع: أنها متعلقة بـ «يَزْدَادُوا»[٢] واستشكل هذا بأن قوله: «ويعذب» عطف عليه وازديادهم الإيمان ليس سبباً عن تعذيب الله الكفار. وأجيبَ: بأن اعتقادهم أن الله يعذب الكفار يزيد في إيمانهم لا محالة.

وقال أبو حيان: والازْدِيَادُ لا يكون سبباً لتعذيب الكفار[٣]. وأجيب: بأنه ذكر لكونه مقصوداً للمؤمن كأنه قيل: بسبب ازْدِيَادِكم في الإيمان يدخلكم الجنة ويعذب الكفار بأيديكم في الدنيا[٤]. وفيه نظر لأنه كان ينبغي أن يقول: لا يكون مسبَّباً عن تعذيب الكفار وهذا يشبه ما تقدم في قوله: «لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ»[٥].

وأجاب ابن الخطيب بوجهين آخرين:

أحدهما: (تقديره)[٦] ويعذب نَقِيضَ ما لكم من الازْدِياد، يقال: فعلت لأخبر به العدوَّ والصديق أي لأعرف بوجوده الصديق وبعدمه العدو، فكذا ههنا ليزداد المؤمن إيماناً يُدْخِلُهُ الجنة ويزداد الكافر كفراً فيعذبه (به)[٧].

وثانيهما: أن بسبب زيادة إيمان المؤمن يَكْثُرُ صَبْرُهُمْ[٨] وثباتهم ويتعب المنافق والكافر معه ويتعذب[٩].

ثم ذَكَرَ وجوهاً أخر في تعلق الجار منها: أن الجار يتعلق بقوله: «حَكِيماً» كأنه تعالى قال: وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ لأن الله حكيم فَعَلَ ما فَعَلَ ليدخل المؤمنين. ومنها: أن يتعلق بقوله: «ويتم نِعْمَتَهُ عليك» فيستجيب دعاءك في الدنيا ويقبل شفاعتك في العُقْبَى ليدخل المؤمنين جنات. ومنها: أن يتعلق بأمر مفهوم من قرينة الحال وهو الأمر بالقتال لأنه لما ذكر الفتح والنصر علم أن الحالَ حالُ القِتَال، فكأنه تعالى قال: إنَّ الله تعالى أَمَرَ

---

(١) ذكره أبو حيان في البحر المحيط ٨/ ٩٠ نقلاً عن الرازي ٢٨/ ٨٢.
(٢) المرجع السابق أيضاً وقد ذكر الوجه السابق له أيضاً أبو حيان الذي لم يرتض الأقوالَ الثلاثةَ الأخيرة قائلاً: «وهذه الأقوال فيها بُعْدٌ».
(٣) البحر المحيط ٨/ ٩٠.
(٤) السابق أيضاً.
(٥) من إشكال الزمخشري المتقدم.
(٦) سقط من نسخة ب.
(٧) زيادة من الرازي رحمه الله تعالى.
(٨) كذا في أ وفي ب بكِبر. وفي الرازي: بكثرة.
(٩) وانظر الرازي ٢٨/ ٨٢.

بالقتال ليدخل المؤمنين، أو عرف من قرينة الحال أَنَّ الله اختار المؤمنين (فكأنه تعالى[١] قال: اختار المؤمنين) ليدخلهم جنات[٢].

فإن قيل: ما الحكمة في أنه تعالى ذكر في بعض المواضع المؤمنين والمؤمنات وفي بعضها اكتفى بذكر المؤمنين ودخلت المؤمنات فيهم كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] وقوله: وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ (مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً)؟

فالجواب: أنه في المواضع التي فيها ما يُوهم اخْتِصَاصَ المؤمنين بالخير الموعود به مع مُشَارَكَةِ المؤمنات لهم ذَكَرَهُنَّ الله صريحاً وفي المواضع التي فيها ما يوهم ذلك اكتفى بدخولهن في المؤمنين كقوله: «وبشر المؤمنين» مع أنه علم من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨] العموم، فلا يوهم خروج المؤمنين عن البشارة. وأما ههنا فلما كان قوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلّقاً بفعل سابق وهو إما الأمر بالقتال أو الصبر فيه، أو النصرة (بالمؤمنين)[٣] أو الفتح بأيديهم على ما تقدم. فَإِدْخَالُ المؤمنين كان للقتال والمرأة لا تُقَاتِلُ فلا تدخل الجَنَّةَ الموعودَ بها فصرح الله بِذكرهِنَّ، وكذا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]؛ لأن الموضع ذكر النساء وأحوالهن لقوله: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ وَأَقِمْنَ . . . وَءَاتِينَ . . . وَأَطِعْنَ . . . وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣ ـ ٣٤] فكان ذكر النساء هنا (ك)[٤] أصلاً لكن الرجال لما كان لهم ما للنساء من الأمر العظيم ذكرهم وذكرهن بلفظ مفرد من غير تبعية لما بينا (أَنَّ الأصل ذكرهن في ذلك الموضع)[٥].

قوله: «وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ» فيه سؤال وهو أن تكفير السيئات قبل الإدخال فكيف ذكره بعد ذكر الإدخال؟ والجواب من وجهين:

أحدهما: أن الواو لا تقتضي الترتيب.

والثاني: أن تكفير السيئات والمغفرة من توابع كون المكلف من أهل الجنة فقدم الإدخال في الذكر بمعنى أنه من أهل الجنة[٦].

قوله: «وَكَان ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً» «عِنْدَ اللَّهِ» متعلق بمحذوف على أنه حال من «فَوْزاً» لأنه صفته في الأصل[٧]. وجوز أبو البقاء أن يكون ظرفاً لِمَكَان[٨]. وفيه خلاف. وأن يكون ظرفاً لمحذوف دل عليه الفوز، أي يفوزون عند الله ولا يتعلق

(١) ما بين القوسين زيادة من أ وسقوط من ب بسبب انتقال النظر.
(٢) بالمعنى من تفسير علامتنا الإمام الرازي ٢٨/ ٨٢.
(٣) زيادة من أ.
(٤) زيادة من أ. ففي ب هنا فقط.
(٥) زيادة من الرازي لتوضيح السياق.
(٦) انظر في هذا كله تفسير الإمام ٢٨/ ٨٢ و٨٣.
(٧) قُدِّمَ وصار حالاً. انظر التبيان ١١٦٥.
(٨) أي لمكانِ الفوز أو لما دلَّ عليه الفوز.

«بفَوْزاً»؛ لأنه مصدر فلا يتقدم معموله عليه. ومن اغتفر ذلك في الظرف جوزه[١]. قال ابن الخطيب: معناه أن ذلك الإدخال والتكفير في علم الله فوز عظيم يقال: عندي هذا الأمر على هذا الوجه أي في اعتقادي[٢].

قوله تعالى: ﴿**ويُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ**...﴾ الآية. اعلم أنه قدم المنافقين على المشركين في كثير من المواضع لأمور:

أحدها: أنهم كانوا أشد على المؤمنين من الكافر المجاهر؛ لأن المؤمن كان يتوقى المشرك المجاهر ويخالط المنافق لظنه بإيمانه وكان يفشي أسراره. وإلى هذا أشار النبي ـ ﷺ ـ بقوله «أَعْدَى عَدُوِّكَ نَفْسُكَ الَّذِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ». ولهذا قال الشاعر:

٤٤٨٩ ـ احْـذَرْ عَـدُوَّكَ مَـرَّة وَاحْـذَرْ صَـدِيـقَـكَ أَلْـفَ مَـرَّهْ
فَـلَـرُبَّـمَـا (انْـقَـلَـبَ)[٣] الـصَّـدِيـقُ عَـدُوًّا وَكَـانَ أَعْـلَـمَ بِـالْـمَـضَـرَّهْ[٤]

وثانيها: أن المنافق كان يظن أن يتخلص بالمخادعة والكافر لا يقطع بأن المؤمن إن غلبه يعذبه[٥] فلهذا أول ما أخبر الله عن المنافق.

قوله: «الظَّانِّينَ بِاللَّهِ» صفة للفريقين. وتقدم الخلاف في السَّوءِ في التَّوبْة[٦]. وقرأ الحسن السُّوءِ بالضم فيهما.

فصل

قال المفسرون: ظن السوء هو أن ينصر محمداً والمؤمنين. وقال ابن الخطيب: هذا الظن يحتمل وجوهاً:

أحدها: هو الظن الذي ذكره الله بقوله: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ﴾ [الفتح: ١٢].

وثانيها: ظن المشركين بالله في الإشراك كقوله تعالى: ﴿**إنْ هِيَ إلاَّ أسْمَاءٌ**

(١) المرجع السابق.
(٢) تفسير الإمام ٢٨/٨٣ وقرر الرازي وجهاً غريباً وصفه بالغرابة كأنه مشى مع أبي البقاء قال: «وهو أن يجعَل «عند الله» كالوصف لذلك كأنه تعالى يقول: ذلك عند الله أي بشرط أن يكون عند الله تعالى يوصف عند الله فوز عظيم». انظر الرازي السابق.
(٣) سقط من أ الأصل.
(٤) يبدو أنه من البحور المهملة أو حِكْمَة من الحكم فلم أعرف على أيِّ بحر هو.
(٥) كذا في النسختين وفي الرازي: يفديه.
(٦) من الآية ٩٨ من التوبة ﴿**عليهم دَائِرَة السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ والسوء بالفتح هو ذم للدائرة فهو نقيض: صدق، والسُّوء بالضم العذاب والسوء مصدر سُؤْتُهُ أسوؤه سَوْءاً. وأما السّوء فاسم الفعل. والسَّوء بالفتح أفشى في القراءة وأكثر.

سَمَّيْتُمُوهَا﴾ إلى أن قال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٣ ـ ٢٨].

وثالثها: ظننتم أن الله لا يرى ولا يعلم كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٢].

قال: والأول أصح أو يقال: المراد جميع ظنونهم كما قال: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [ص: ٢٧]. ويؤيد ذلك دخول الألف واللام في السَّوْء. وفي السَّوءِ وجُوهٌ:

أحدها ـ وهو اختيار المحققين من الأدباء ـ: أن السَّوْءَ عبارة عن الفساد والصِّدق عبارة عن الصلاح، يقال: مررت برجل سَوءٍ أي فاسد، وسكنت عند[١] رجل صِدْق، أي صالح وهو قول الخليل[٢]، والزَّجَّاج[٣] واختاره الزَّمخشريّ[٤].

(وتحقيق[٥] هذا أن السوء في المعاني كالفساد في الأجساد يقال: ساء مِزَاجُهُ (و) ساء خُلُقُه (و)[٦] سَاءَ ظَنُّه، كما يقال: فسدَ اللحمُ وفسد الهواء بل كلُّ ما ساء فقد فسد، وكلّ ما فَسدَ فقد سَاءَ غير أن أحدهما كثير الاستعمال في المعاني والآخر في الأجرام قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الروم: ٣٠] وقال: ﴿سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[٧]) [التوبة: ٩] و [المجادلة: ١٥] و [المنافقون: ٢].

قوله: «عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ» أي دائرة الفساد يعني حاق بهم العذاب بحيث لا يخرجون منه «وغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» زيادة على التعذيب «وَلَعَنَهُمْ» أي الغضب يكون شديداً «وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ» في العُقْبى «وَسَاءَتْ مَصِيراً» أي جهنم.

قوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ جُنودُ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ**﴾ تقدم تفسيره. وفائدة الإعادة أن لله جنود الرحمة وجنود العذاب، أو جنود الله أنزلهم قد يكون إنزالهم للرحمة وقد يكون للعذاب فذكرهم أولاً لبيان الرحمة بالمؤمنين كما قال: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣] وثانياً: لبيان إنزال العذاب بالمنافقين والمشركين.

وفي الأول ذكر الجنود قبل إِدْخَال الجنَّة وذَكرهم هنا بعد تعذيب الكفار وإعداد

---

(١) في الرازي: سئلت عن رجل.

(٢) انظر الرازي والقرطبي ٢٨/ ٨٤ و١٦/ ٢٦٥.

(٣) قال في معاني القرآن وإعرابه ٥/ ٢١: «أي الفساد والهلاك يقع بهم».

(٤) قال في الكشاف ٣/ ٥٤٢: «والسَّوء الهلاك والدمار».

(٥) ما بين القوسين كله ـ وهو من كلام الإمام الرازي ـ سقط من نسخة ب.

(٦) الواوان ساقطتان من أ وعن الرازي.

(٧) وانظر الرازي السابق ومعاني الفراء ٣/ ٦٥ قال: «وقوله: دائرة السوء مثل قولك: رجل السوء، ودائرة السوء العذاب. والسوء أفشى في اللغة وأكثر وقلما تقول العرب: دائرة السوء».

جهنم؛ لأن الله تعالى يُنَزِّل جنودَ الرحمة ليدخل المؤمن معظماً مكرماً الجنة، ثم يلبسهم خُلع الكرامة بقوله: «ويُكفِّر عَنهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ» ثم يقربهم زلفى بقوله: «وَكَان ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً» وأما في حق الكفار فيغضب الله عليهم أولاً فيبعدهم ويطردهم إلى البلاد النائية عن الرحمة وهي جهنم، ثم يسلط عليهم ملائكة العذاب وهم جنود الله كما قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ﴾ [التحريم: ٦] فلذلك ذكر جنود الرحْمَةِ أولاً هناك، وقال ههنا: «وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ» وهو الإبْعَاد إلى جهنم ثم ذكر الجنود وهم (الملائكة) ملائكة العذاب آخراً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَرسَلْنَاك شَاهِداً**﴾ على أمتك بما يفعلون، كما قال تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] أنه لا إله إلا الله وكما قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]. وهم الأنبياء «وَمُبَشِّراً» من قبل شهادته ويحكم بها «ونَذِيراً» لمن ردَّ شهادته[١].

ثم بين فائدة الإرسال فقال: «لِتُؤْمِنُوا باللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ» أي تعينوه وتنصروه «وَتُوَقِّرُوهُ» أي تُعظموه[٢] وتُفخموه، هذه الكنايات راجعة إلى النبي ـ ﷺ[٣] ـ وههنا وقف. ثم قال وتسبحوه، أي تُسبحوا الله، يريد يصلوا له بكرة وَأصيلاً بالغَدَاةِ والعشيّ. وقيل: الكنايات راجعة إلى الله تعالى[٤]، أي ليؤمنوا بالله ورسوله ويعزروا الله بتقوية دينه، ويوقروا الله الذي يُعَظِّموه.

قوله: «لِتُؤْمِنُوا» قرأ ابن كثير وأبو عمرو لِيُؤْمِنُوا وما بعده بالياء من[٥] تحت رجوعاً إلى قوله المؤمنين والمؤمنات. والباقون بتاء الخطاب (وقرأ[٦] الجَحْدريّ يَعَزُرُوه بفتح

(١) انظر الرازي ٢٨/ ٨٥.
(٢) وهو قول الحسن والكلبي.
(٣) وعزاه الإمام القرطبي في الجامع إلى الضحاك.
(٤) وعزي إلى الإمام القشيري ـ رحمة الله على الجميع ـ انظر القرطبي ١٦/ ٢٦٧.
(٥) وهي قراءة سبعية متواترة، انظر الكشف لمكي ٢/ ٢٨٠ والقرطبي ١٦/ ٢٦٧ قال: وهو اختيار أبي عبيد واختار أبو حاتم قراءة الخطاب. وانظر أيضاً السبعة ٦٠٢، والإتحاف ٣٩٥.
(٦) ما بين القوسين كله سقط من نسخة ب.

الياء[١] وضم الزاي[٢] وهو أيضاً وجعفر بن محمد كذلك إلا أنهما كسرا الزاي. وابن عباس واليماني ويُعَزِّزُوهُ كالعامَّة إلا أنه بزايَيْن[٣] من العِزَّة[٤].

فإن قيل: ما الحكمة في قوله في الأحزاب: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً﴾ وههنا اقتصر على الثلاثة الأول؟.

فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن ذلك المقام كان مقام ذكر، لأن أكثر السورة ذكر الرسول وأحواله وما تقدمه من المبايعة والوعد بالدخول ففصل هناك[٥] ولم يفصل هنا.

وثانيهما: أن قوله: «شاهداً» لما لم يقتض أن يكون داعياً لجواز أن يقول مع نفسه أشهد أن لا إله إلا الله ولا يدعو الناس قال هناك: «وَدَاعِياً» كذلك[٦] ههنا لما لم يكن كونه شاهداً ينبىء عن كونه داعياً قال: ليؤمنوا بالله ويعزروه ويوقروهُ. وقوله: «بكرة وأصيلاً» يحتمل أن يكون إشارة إلى المداومة، ويحتمل أن يكون لمخالفة عمل المشركين، فإنهم كانوا يعبدون الأصنام في الكعبة بكرة وعشيَّةً، فأمر الله بالتسبيح في أوقات ذكرهم الفَحْشَاء والمُنْكر[٧].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ يا محمَّدُ بالحديبية على أن لا يفروا «إِنَّما يُبَايِعُونَ اللَّهَ» لأنهم باعوا أنفسهم من الله تعالى بالجنة، روى يزيدُ[٨] بن (أبي)[٩] عبيد قال: قلت لسلمةَ بْنِ الأكوع: على أيِّ شيء بايعتم رسولَ الله ـ ﷺ ـ يوم الحديبية؟ قال: على الموت[١٠].

قوله: «إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ» خبر «إِنَّ الَّذِينَ» و «يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ» جملة حالية، أو خبر ثان وهو ترشيح للمجاز في مبايعة الله. وقرأ تمام بن العباس[١١]: يبايعون لِلَّهِ[١٢]، والمفعول محذوف أي إنما يبايعونَكَ لأجل الله.

---

(١) الأصح كما في البحر والمحتسب وغيرهما التاء وهي شاذة.

(٢) أي تمنعوه أو تمنعوا دِينَهُ وشريعتَه. وانظر البحر ٨/ ٩١ والمحتسب ٢/ ١٧٥. وانظر مختصر ابن خالويه ١٤١.

(٣) في ب وأ كذلك بينما في البحر: بزاءين تثنية (زاء).

(٤) انظر البحر المرجع السابق وهما شاذتان.

(٥) في الرازي المصدر السابق: هنالك بلام البعد.

(٦) وفيه: بذلك، وههنا.

(٧) بالمعنى من تفسير الإمام الفخر عليه سحائب الرحمة والرضوان ٢٨/ ٨٦.

(٨) في ب زيد.

(٩) سقط من ب.

(١٠) البحر المحيط ٨/ ٩١.

(١١) ابن عبد المطلب عمّ رسول الله ـ ﷺ ـ.

(١٢) وهي شاذة. انظر البحر ٧/ ٩١.

قوله: «يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ» لما بين أنه مرسل ذكر أن من بايعهُ فقد بايع الحقّ. وقوله: «يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ» يحتمل وجوهاً، وذلك أن اليد في الموضعين إما أن تكون بمعنًى واحدٍ، وإما أن تكون بمعنيين فإن كانا بمعنى واحد ففيه وجهان:

أحدهما: قال الكلبي: نعمة الله عليه في الهداية فوق ما صنعوا من البيعة[١] كما قال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧].

وثانيهما: قال ابن عباس ومجاهد: يد الله بالوفاء بما عاهدهم من النصر والخير وأقوى وأعلى من نصرتهم إياه، ويقال: اليدُ لفلانٍ أي الغلبة والقوة[٢].

وإن كانا بمعنيين ففي حق الله بمعنى الحفظ، وفي حق المبايعين بمعنى الجارحة قال السدي: كانوا يأخذون بيد رسول ـ ﷺ ـ ويبايعونه ويد الله فوق أيديهم في المبايعة، وذلك أن المتبايعين إذا مد أحدهما يده إلى الآخر في البيع، وبينهما ثالث فيضع يده على يديهما ويحفظ أيديهما إلى أن يتم العقد ولا يترك أحدهما بترك يد الآخر لكي[٣] يلزم العقد ولا يتفاسخان فصار وضع اليد فوق الأيدي سبباً لحفظ البيعة، فقال تعالى: **﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾** يحفظهم على البيعة كما يحفظ المتوسط أيدي المتبايعين[٤].

قوله: «فَمَنْ نَكَثَ» أي نقص البيعة «فإنّما يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ» أي عليه وما له «وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْه اللَّهَ» أي ثبت على البيعة «فَسَيُؤتِيهِ أَجْراً عَظِيماً» قرأ أهل العراق[٥] فسيُؤتيه بالياء من تحت، وقرأ الآخرون بالنون[٦]. والمراد بالأجر العظيم الجنة. وتقدم الكلام في معنى الأجر العظيم.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ

---

(١) نقل الرأي للكلبي القرطبي في الجامع ١٦/ ٢٦٧ و٢٦٨.

(٢) ذكر كلا الرأيين الرازي دون تصريح بصاحب الرأي.

(٣) في ب لكن.

(٤) وانظر تفسير الرازي ٢٨/ ٨٧.

(٥) المراد بهم أبو عمرو وعاصم والأخوان حمزة والكسائي وبخلاف عن أبي عَمْرو، فقد روى عبيد عن هارون عنه بالنون وعن عبيد أيضاً بالنون.

(٦) أي باقي السبعة ابن كثير ونافع وابن عامر وبخلاف عن عاصم فقد روى أبان عنه بالنون، انظر السبعة ٦٠٣ وهي قراءة سبعية متواترة.

يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: يعني أعراب غِفَار، ومُزَيْنَةَ وجُهَيْنَةَ، وأشْجَعَ وأسْلَمَ، وذلك أن رسول الله ـ ﷺ ـ حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمراً اسْتَنفَرَ من حول المدينة من الأعراب، والبَوَادِي ليخرجوا معه حَذراً من قريش أن يعرضوا له بحرب، أو يصدوه عن البيت فأحرم بالعمرة وساق معه الهَدْي، ليعلمَ الناسُ أنه لا يريد حَرباً فتثاقل كثيرٌ من الأعراب وتخلفوا واعْتَلُّوا[١] بالشغل لظنهم أنه يهزم، فأنزل الله هذه الآية[٢].

قوله: «شَغَلَتْنَا» حكى الكسائي عن ابن مدح[٣] أنه قرأ: شَغَّلَتْنَا بالتشديد «أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا» يعني النساء والذَّرَارِي أنْ لم يكن لنا من يخلفنا فيهم «فَاسْتَغْفِرْ لَنَا» تَخَلُّفَنَا عنك. فكذبهم الله في اعتذارهم فقال: «يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ» من الأمر بالاستغفار فإنهم لا يبالون أستغفر لهم النبي أو لا. «قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ الله شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً» قرأ الأخوان ضُرًّا ـ بضم الضاد[٤] ـ والباقون بفتحها. فقيل: هما لغتان بمعنى كالفَقْر والفُقْر والضَّعف والضُّعْف، وقيل: بالفتح[٥] ضِدُّ النفع، وبالضم سُوء الحال فمن فتح قال: لأنه قابله بالنفع، والنفع ضد الضر[٦]، وذلك أنهم ظنوا أن تخلفهم عن النبي ـ ﷺ ـ يدفع عنهم الضر، ويجعل لهم النفع بالسلامة في أموالهم وأنفسهم فأخبرهم أنه إن أراد بهم شيئاً من ذلك لم يقدر واحد على دفعه بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْملون خَبِيراً أي بما تعلنون من إظهار أمر وإضمار غيره[٧].

قوله: «بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولَ وَالمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِم أَبَداً» أي ظننتم أن العدو يستأصلهم ولا يرجعون. قرأ عبد الله: إِلَى أَهلهم[٨] دون ياء، بل أضاف الأهل مفرداً[٩].

---

(١) فعلوا علة وحجة.
(٢) ذكره القرطبي في الجامع ١٦/ ٢٦٨.
(٣) كذا في النسختين وهو خطأ من الناسخ والصواب: ابن نوح كما في البحر المحيط: إبراهيم بن نوح بن باذان عن قتيبة. انظر البحر ٨/ ٩٣ وفي المختصر: شغلتنا أموالنا بالتشديد حكاه الكسائي انظر المختصر ١٤١ وهي شاذة غير متواترة وذكرها أيضاً دون نسبة صاحب الكشاف ٣/ ٥٤٣.
(٤) قال القرطبي: هنا فقط أي في تلك السورة انظر القرطبي ١٦/ ٢٦٨ ولم ترو عن غير الأخوين في المتواتر. وانظر البحر ٨/ ٩٣ والسبعة ٦٠٤.
(٥) وهو اختيار أبي عبيدة وأبي حاتم.
(٦) انظر القرطبي بالمعنى فقد نقل رأي كل من أبي عبيد وأبي حاتم.
(٧) بالمعنى من الرازي ٢٨/ ٨٨.
(٨) البحر المحيط ٨/ ٩٣٠ ودون نسبة في الكشاف ٣/ ٥٤٤.
(٩) فتكون حينئذ خارجة عن نطاق الملحق بجمع المذكر السالم وتكون جمع تكسير أو اسم جمع أضيف إلى الضمير.

قوله: «وَزَيَّنَ ذَلِكَ في قُلُوبِكُمْ». قرىء: وزين مبنياً للفاعل[١] أي الشيطان أو فِعْلُكُم زين ذلك الظن في قلوبكم «وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوءِ» وذلك أنهم قالوا: إن محمداً وأصحابه أكلة رأس فلا يرجعون فأين تذهبون معه؟ انتظروا ما يكون من أمرهم «وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً» أي صرتم هَلْكَى لا تصلحون لخير[٢]. وقيل: كنتم على بابها من الإخبار بكونهم في الماضي كذا[٣]. والبُورُ الهلاكُ. وهو يحتمل أن يكون هنا مصدراً أخبر به عن الجمع كقوله:

٤٤٩٠ ـ يَا رَسُولَ الإِلَهِ إِنَّ لِسَانِي ... رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُورُ[٤]

ولذا يستوي فيه المفرد والمذكر وضدهما. ويجوز أن يكون جمع بَائِرٍ كحَائل وحُولٍ في المعتل[٥] وبَازِل وبُزْلٍ في الصحيح[٦].

قوله: «وَمَن لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ» يجوز أن يكون (من)[٧] شرطية أو موصولة. والظاهر[٨] قائم مقام العائد على كلا التقديرين أي فإنا أعتدنا لهم. وفيه فائدة وهي التعميم كأنه قال: ومن لم يؤمن بالله ورسوله فهو من الكافرين وإنّا أعتدنا للكافرين سعيراً[٩].

قوله تعالى: **﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾** ذكر هذه بعد ذكر من له أجر عظيم من المبايعين ومن له في السعير عذاب أليم من الظالمين الضالين. وذلك يفيد عظمة الأمرين جميعاً، لأن من عظم ملكه يكون أجره وهيبته في غاية العظمة وعذابه وعقوبته في غاية الألم.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا

---

(١) لم ينسبها أبو حيان في البحر ٨/ ٩٢ ولا الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٤٤.
(٢) وهو رأي مجاهد وقتادة. انظر القرطبي ١٦/ ٢٦٩.
(٣) قال بذلك العلم أبو حيان في البحر المحيط ٨/ ٩٣.
(٤) بيت من الخفيف لعبد الله بن الزِّبعرى وينسب لأمية بن أبي الصلت وليس في ديوانه. والشاهد: بُور فهو مصدر بمعنى هالك وأخبر في الآية بهذا المصدر عن الجمعية أي هالكون. وانظر مجمع البيان للطبرسي ٩/ ١٧٣ والهمع ٣/ ٢٢٦ والقرطبي ١٦/ ٢٦٩ والبحر ٨/ ٩٣.
(٥) معتل العين المنقلبة همزة.
(٦) الدرجعين السابقين.
(٧) زيادة للسياق وتوضيحه.
(٨) وهو الكافرين.
(٩) الرازي ٢٨/ ٨٩، ٩٠.

وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾

(قوله تعالى)[١]: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ﴾ (إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا[٢]) يعني هؤلاء الذين تخلفوا عن الحديبية «إِذَا انطَلَقْتُمْ» سرتم وذهبتم أيها المؤمنون «إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا» يعني مغانم خيبر «ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ» إلى خيبر لنشهد معكم قتال أهلها[٣]، وذلك أنهم لما انطلقوا انصرفوا من الحديبية وعدهم الله فتح خيبر، وجعل غنائمها لمن شهد الحديبية خاصة عوضاً من غنائم مكة إذا انصرفوا من الحديبية (منهم[٤] على صلح) ولم يصيبوا منهم[٥] شيئاً، (لأن[٦] قوله: «سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ» وعد للمبايعين بالغنيمة وللمخلفين الحالفين بالحرمان).

قوله: يُرِيدُ(ونَ)[٧] يجوز أن يكون مستأنفاً وأن يكون حالاً من «المخلفون» وأن يكون حالاً من مفعول «ذَرُونَا»[٨].

قوله: «كَلاَمَ اللَّهِ» قرأ الأخوان كَلِمَ جمع كلمة[٩] والباقون كَلاَمَ[١٠] قيل معناه: يريدون أن يغيروا تواعد الله تعالى لأهل الحديبية، بغنيمة خيبر خاصة[١١] وقال مقاتل: يعني أمر الله لنبيه ـ ﷺ ـ أن لا يسيِّر معه منهم أحداً. وقال ابن زيد: هو أن النبي ـ ﷺ ـ لما تخلف القوم أطلعه الله على ظنهم وأظهر له نفاقهم وقال للنبي ـ ﷺ ـ ﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ [التوبة: ٨٣]. والأول أصوب وعليه أكثر المفسرين[١٢].

قوله: «قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا» إلى خيبر «كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ» أي من قبل مرجعنا إليكم أن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية ليس لغيرهم فيها نصيب.

قوله: «بَلْ تَحْسُدُونَنا» قرأ أبو حيوة تَحْسِدُونَنَا[١٣] بكسر السين «بَلْ» للإضراب

---

(١) سقط من ب.
(٢) كذلك.
(٣) في ب: أهلنا.
(٤) سقط من ب.
(٥) في ب: ولم يصيبوا شيئاً منها.
(٦) ما بين القوسين كله سقط من ب.
(٧) سقط من أ الأصل فلعله سهو من المؤلف.
(٨) قاله العكبري في التبيان ١١٦٦.
(٩) سبعية متواترة ذكرها ابن مجاهد في السبعة ٦٠٤.
(١٠) وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم اعتباراً بقوله: «إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي» انظر القرطبي ١٦/ ٢٧١.
(١١) هو رأي مجاهد وقتادة.
(١٢) وانظر الرازي ٢٨/ ٩٠ والبحر ٨/ ٩٤.
(١٣) المرجع الأخير السابق.

والمضروب عنه محذوف في الموضعين أما ههنا فتقديره ما قال الله كذلك[١] من قبل بل تحسدوننا أي يمنعكم الحسد من أن نصيب منكم الغنائم «بَلْ كَانُوا لاَ يَفْقَهُونَ» لا يعلمون[٢] عن الله ما لهم وعليهم من الدين «إلاَّ قَلِيلاً» منهم وهم[٣] من صدق الله ورسوله.

(فإن[٤] قيل: بماذا كان الحسد في اعتقادهم؟

قلنا: كأنهم قالوا: نحن (كنا) مصيبين في عدم الخروج (حيث)[٥] رَجَعُوا من الحديبية من غير عدو حاصل، ونحن اسْتَرَحْنَا فإن خرجنا معهم ويكون فيه غنيمة يقولون هم غنموا معنا ولم يتعبوا معنا. ثم قال الله تعالى رداً عليهم كما ردوا عليه: ﴿**بَلْ كَانُوا لاَ يَفْقَهُونَ إلاَّ قَلِيلا**﴾ أي لم يفقهوا من قولك: لا تخرجوا إلا ظاهر النهي، فلم يفهموا حكمه إلاَّ قليلاً فحملوه على ما أرادوه وعللوه بالحسد..).

قوله تعالى: ﴿**قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْم أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ**﴾ لما قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ لهم لن تتبعونا، ولن تخرجوا معي أبداً وكان المخلفون جمعاً كثيراً من قبائل متشعبة دعت الحاجة إلى بيان قبول توبتهم، فإنهم لم يبقوا على ذلك، ولم يكونوا من الذين مَرَدُوا على النفاق بل منهم من حسن حاله فجعل لقبول توبتهم[٦] علامة (وهو أنهم[٧] يدعون إلى قوم أولي بأس شديد، ويطيعون بخلاف حال ثَعْلَبَةَ، حيث امتنع من أداء الزكاة، ثم أتى بها ولم يقبل منه النبي ـ ﷺ ـ واستمر عليه الحال، ولم يقبل منه أحد من الصحابة كذلك كان يستمر حال هؤلاء لولا أن الله تعالى بين أنهم يدعون، فإن أطاعوا أعطوا الأجر الحسن. والفرق بين حال هؤلاء وبين حال ثعلبة من وجهين:

أحدهما: أن ثعلبة يجوز أن يقال حاله لم يكن يتغير في علم الله فلم يبين لتوبته علامة) وحال الأعراب تغيرت، فإن بعد النبي ـ ﷺ ـ لم يبق من المنافقين على النفاق أحدٌ.

الثاني: أن الحاجة إلى بيان حال الجمع الكثير، والْجَمِّ الغفير، أمسّ؛ لأنه لولا البيان لأفضى الأمر إلى قيام الفتنة بين فِرَق الْمُسْلِمِينَ[٨].

---

(١) في الرازي: وكذلك. وانظر الرازي المرجع السابق.
(٢) في ب: يعملون.
(٣) وفي ب أيضاً: وهو.
(٤) ما بين القوسين كله سقط من ب.
(٥) زيادات من الرازي لتوضيح السياق. وانظر الرازي السابق.
(٦) في ب توبته. عائداً على لفظ من.
(٧) ما بين القوسين سقط من ب بسبب انتقال النظر.
(٨) وانظر الرازي ٢٨/ ٩١ و٩٢.

(«فصل»)[١]

قال ابن عباس ومجاهد: المراد بقوله «قَوْم أُولِي بَأسٍ»: هم أصحاب فارس. وقال كعب: الروم وقال الحسن: فارس والروم. وقال سعيد بن جبير: هوازن وثقيف. وقال قتادة: هوازن وغطفان قوم حنين. وقال الزهري ومقاتل وجماعة: هم بنو حنيفة أهل اليمامة أصحاب مسيلمة الكذاب. وقال رافع بن خديج: كنا نقرأ هذه الآية ولا نعلم من هم حتى دعا أبو بكر إلى قتال بني حنيفة فعلمنا أنهم هم. وقال أبو هريرة: لم تأت هذه الآية بعد)[٢].

قوله: «أَوْ يُسْلِمُونَ» العامة على رفعه بإثبات النون عطفاً على «تُقَاتِلُونَهُمْ» أو على الاستئناف أي أو هُمْ يُسْلِمُونَ[٣]. وقرأ أبيّ وزيدُ بن عليٍّ بحذف النون نصباً بحذفها[٤]. والنصب بإضمار «أن» عند جمهور البصريين[٥]، وبـ «أو» نفسها عند الجَرْمي والكِسَائيِّ[٦]، ويكون قد عطف مصدراً مؤولاً على مصدر متوهم كأنه قيل: يكون قتالٌ أو إسلامٌ. ومثله في النصب قول امرىء القيس:

٤٤٩١ ـ فَقُلْتُ لَهُ لاَ تَبْكِ عَيْنُكَ إنَّمَا نُحَاوِلُ مُلْكاً أَوْ نَمُوتَ فَنُعْذَرَا[٧]

وقال أبو البقاء: أو بمعنى[٨] إلاَّ أَنْ، أو حَتَّى[٩].

(«فصل»)[١٠]

معنى قوله: تقاتلونهم أو يسلمون إشارة إلى أن أحدهما يقع؛ لأن «أو» تبين

---

(١) سقط هذا الفصل كله من نسخة ب.

(٢) ذكر هذه الأوجه والآراء مفصلة العلامة القرطبي في الجامع ١٦/ ٢٧٢ والعلامة أبو حيان في البحر ٨/ ٩٤.

(٣) ذكر هذه الأوجه العكبري في التبيان ١١٦٦ وذكر وجهاً ثالثاً ولذلك قلت: الأوجه، وهو الحالية وانظر المغني لابن هشام ٤٨٠.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٩٤ والكشاف ٣/ ٥٤٦.

(٥) ويكون من العطف على المعنى وهو ما يسمى بالتوهم ولكن تَأَدُّباً مع قرآن الله نقول: العطف على المعنى أي ليكن قتال أو إسلام كما قرره أعلى، كأنه توهم أن «أنْ» مضمرةً.

(٦) وأصحابهما إلى أن الفعل انتصب بأو نفسها وهناك مذاهب أخرى للفراء والأخفش وغيرهما ذكرها السيوطي في الهمع ٢/ ١٠.

(٧) من بحر الطويل له، والشاهد في «فنعذرا» حيث نصب المضارع بعد «أو» على تقدير «أن» عند البصرة وبأو نفسها عند الجرمي والكسائيِّ والتقدير: محاولة أو موت، وقد تقدم.

(٨) الأصح كما في التبيان: إلى أن وكلاهما صحيحان ولكني أقارن النسخ بأبي البقاء.

(٩) وانظر التبيان لأبي البقاء ١١٦٦.

(١٠) ما بين القوسين كله أيضاً سقط من ب.

المتغايرين وتُنْبِىءُ عن الحصر، يقال: العدد زوجٌ أو فردٌ، ولهذا لا يصح قول القائل: هذا[١] زيدٌ أو ابن[٢] عمرو؛ إذا كان زيد ابن عمرو؛ إذا علم هذا فقول القائل: أُلاَزِمُكَ[٣] أَوْ تَقضِيَنِي حَقِّي معناه أن الزمان انحصر في قسمين: قسم يكون فيه الملازمة، وقسم يكون فيه قضاءُ الحق فيكون قوله: «أُلاَزِمُكَ أو تقضيني»، كقوله: ألازمك إلى أن تقضيني، لامتداد زمان الملازمة إلى القضاء)[٤].

قوله: «فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً» يعني الجنة «وَإِنْ تَتَوَلَّوْا» تُعْرِضُوا «كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ» عام الحديبية «يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً» وهو النار، فلما نزلت هذه الآية قال أهل الزمانة[٥]: كيف بنا يا رسول الله؟ فأنزل الله ـ عزّ وجلّ[٦] ـ «لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ» أي في التخلف عن الجهاد «وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ». وذلك لأن الجهادَ عبارة عن المقاتلة والكرِّ والفرِّ، وهؤلاء الثلاثة لا يمكنهم الإقدام على العدو والطلب، ولا يمكنهم الاحتراز والهرب. وفي معنى الأعرج الأَقْطَعُ والمُقْعَد بل أولى أن يعذر، ومن به عَرَجٌ لا يمكنه من الكرِّ والفرِّ لا يعذر، وكذلك المرض الذي لا يمنع من الكر والفر كالطّحال والسُّعال وبعض أوجاع المفاصل إذا لم يُضْعِفْهُ عن الكرِّ والفر، فهذه الأعذار في نفس المجاهد، وتبقى أعذار خارجة، كالفقر الذي لا يمكن صاحبه من استصحاب ما يحتاج له وكذا الاشتغال بمن لولاه لضاع كطفلٍ أو مريضٍ. والأعذار المبيحة مذكورة في كتب الفقه[٧]. وقدم الأعمى على الأعرج، لأن عذر الأعمى يستمر ولو حضر القتال، والأعرج إن حضر راكباً أو بطريق يقدر على القتال بالرمي وغيره.

قوله: «وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً» قرأ أهل المدينة والشام ندخله ونعذبه بالنون فيهما[٨]. وقرأ الآخرون بالياء لقوله: «ومن يطع الله ورسوله»[٩].

قوله تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ

(١) في الرازي المصدر السابق: «هو». (٢) زيادة من النسخ عن الرازي.
(٣) المشهور: لألزمنك كما في الرازي والمغني وغيرهما.
(٤) بالمعنى من تفسير الإمام ٢٨/ ٩٣. (٥) أي المرض والعاهة.
(٦) وانظر القرطبي ١٦/ ٢٧٣. (٧) الرازي ٢٨/ ٩٣ و٩٤.
(٨) نافع وابن عامر وأبو جعفر. وانظر الإتحاف ٣٩٦ وهي متواترة.
(٩) وهو اختيار أبي عُبَيْد، وأبي حَاتم؛ لتقدم ذكر الله أولاً. انظر القرطبي ١٦/ ٢٧٤.

عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ. . .﴾ الآية لما بين حال المخلفين بعد قوله «إنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ» عاد إلى بيان حال المبايعين.

قوله: «إِذْ يُبَايِعُونَكَ» منصوب بـ «رَضِيَ» و «تَحْتَ الشَّجَرَة» يجوز أن يكون متعلقاً بـ «يُبَايِعُونَكَ» وأن يتعلق بمحذوف على أنه حال من المفعول.

(«فصل»)(١)

المعنى: يبايعونك بالحديبية على أن يناجزوا قريشاً، ولا يفروا. وقوله: «تَحْتَ الشَّجَرَة» وكانت سمرة قال سعيد بن المسيب: حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله ـ ﷺ ـ تحت الشجرة قال: فلما خرجنا من العام المقبل نَسِيناها فلم نقدر عليها. وروي أن عمر بن الخطاب مرّ بذلك المكان بعد أن ذهبت الشجرة فقال: أين كانت؟ فجعل بعضهم يقول: ههنا، وبعضهم ههنا، فلما كثر اختلافهم قال: سيروا قد ذهبت الشجرة. وروى جابر بن عبد الله قال: قَالَ لَنَا رسول الله ـ ﷺ ـ يوم الحديبية أنتم خير أهل الأرض، وكنا ألفاً وأَرْبَعمِائةٍ ولو كنت أبصر اليوم لأَرَيْتُكُمْ مَكَانَ الشَّجَرَة. وروى سالم عن جابر عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: لاَ يَدْخُلُ النار أَحَدٌ مِمَّنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ(٢).

قوله: «فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ» من الصدق والوفاء «فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ» الطمأنينة والرضا «عَلَيْهِمْ»

فإن قيل: الفاء للتعقيب وعلم الله قبل الرضا؛ لأنه علم ما في قلوبهم من الصدق فرضي عنهم فكيف يفهم التعقيب في العلم؟

فالجواب: قال ابن الخطيب: إن قوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ متعلق بقوله: «إِذْ يُبَايِعُونَكَ» كما تقول: «فَرِحْتُ أَمس إِذْ كَلَّمت(٣) زَيْداً فَقَامَ لي، وإِذْ دَخَلْتُ عَلَيْهِ فَأَكْرَمَنِي» فيكون الفرح بعد الإكرام مرتباً كذلك ههنا قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ. . . فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الصدق إشارة إلى أن الرضا لا يكون

(١) هذا الفصل كله ساقط من ب.
(٢) وانظر القرطبي ١٦/ ٢٧٤، ٢٧٧ والكشاف ٣/ ٥٤٦ والبحر ٨/ ٩٦.
(٣) كذا في تفسير الرازي وأ وفي ب كلم.

عند المبايعة (حَسْب[١] بل عند المبايعة)[٢] التي كان معها علم الله بصدقهم. والفاء في قوله «فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ» للتعقيب المذكور، فإنه ـ تعالى ـ رضي عنهم فأنزل السكينة عليهم. وفي قوله: «فَعَلِمَ» لبيان وصف المبايعة يكون (ها)[٣] معقبة بالعلم بالصدق الذي في قلوبهم.

قوله: «وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً» يعني فتح خيبر. وقوله: «مَغَانِمَ كَثِيرَةً» أي وآتاهم مَغَانِمَ أو أثابهم مغانم. وإنما قدر الخطاب والغيبة لأنه يقرأ: «يَأْخُذُونَهَا» بالغيبة، وهي قراءة العامة، و «تَأْخُذُونَهَا» بالخطاب وهي قراءة الأعمش وطَلْحَةَ ونافعٍ في رواية سِقْلَابٍ[٤].

فصل

قيل: المراد بالمغانم الكثيرة مغانم خيبر، وكانت خيبر ذاتَ عَقَار وأموال فقسمها رسول الله ـ ﷺ ـ بينهم. وقيل: مغانم هجر.

«وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً» كامل القدرة غنياً عن إعانتكم إياه «حَكِيماً» حيث جعل هلاك أعدائه على أيديكم ليثيبكم عليه، أو لأن في ذلك كان إعزاز قوم وإذلالَ لآخرين فقال: يُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ بِعِزَّتِهِ، ويعز من يشاء بِحِكْمَتِهِ.

قوله: «وَعَدكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرةً تَأْخُذُونَها» وهي الفتوح التي تفتح لهم إلى يوم القيامة وليس المغانمُ كل الثواب، بل الجنة قُدَّامهم، وإنما هي عاجلة عَجَّلَ بها لهم، ولهذا قال: «فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ» يعني خيبر «وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ» وذلك أن النبي ـ ﷺ ـ لما قصد خَيْبَرَ وحَاصَرَ أهلها هَمَّ قبائلُ من أَسَدَ، وغَطَفَان، أن يُغِيرُوا على عِيَال المسلمين وذَرَارِيهِمْ بالمدينة فكف الله أيديهم بإلقاء الرعب في قلوبهم. وقيل: كف أيدي الناس عنكم يعني أهل مكة بالصلح، وليكون كفهم وسلامتكم آية للمؤمنين على صدقك، ويعلموا أن الله هو المتولِّي حياطتهم وحِرَاسَتَهُمْ في مَشْهَدِهِمْ ومغيبهم[٥].

قوله: «وَلِتَكُونَ» يجوز فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يتعلق بفعل مقدر بعده تقديره: ولِتَكُونَ (فعلك)[٦] فعل ذلك.

الثاني: أنه معطوف على علة محذوفة تقديره: وَعَدَ فَعَجَّل وَكَفَّ لينتفعوا ولِيَكُونَ أو لتشكروا ولتكون[٧].

---

(١) في الرازي: فحسب.

(٢) ما بين القوسين سقط من ب بسبب انتقال النظر.

(٣) لفظ (ها) زيادة للسياق من الرازي.

(٤) والأنطاكي عن أبي جعفر ورُوَيْس عن يعقوبَ. وهي شاذة. انظر البحر ٨/ ٩٦.

(٥) القرطبي ١٦/ ٢٧٨ و٢٧٩ والبحر ٨/ ٩٨.

(٦) زائدة من النسخة ب.

(٧) قال بهذين الوجهين أبو حيان في مرجعه السابق. وانظر القرطبي ١٦/ ٢٧٩.

الثالث: أن الواو مزيدة[١]. والتعليل لما قبله أي وَكَفَّ لتكون[٢].

قوله: «وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً» يثبكم على الإسلام، ويزيدكم بَصيرَةً ويقيناً بصُلْح الحديبية وفتح خيبر، وذلك أن رسول الله ـ ﷺ ـ لما رجع من الحديبية أقام بالمدينة بقية ذي الحجة وبعض المُحَرَّم، ثم خرج في سَنَةِ سَبْع إلى خيبر. روى أنسُ بن مالك (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)[٣] أن النبي ـ ﷺ ـ كان إذا غزا بنا قوماً لم يكن يغير بنا حتى يُصْبِحَ ويَنْظُرَ، فإن سمع أَذَاناً كفَّ عنهم، وإن لم يسمع أذاناً أغار عليهم، قال: فخرجنا إلى خَيْبَرَ، فانتهينا إليهم، فلما أصبح لم يسمع أذاناً (ركب)[٤] وركبتُ خلف أَبِي طلحة، وإن قدمي لتمَسُّ قدم النبي ـ ﷺ ـ قال: فخرجوا إلينا بمكاتلهم ومَسَاحِيهم فلما رأوا رسول الله ـ ﷺ ـ قالوا محمد، والله محمد والخميس أي محمد والجيش، فلما رآهم رسول الله ـ ﷺ ـ قال: الله أكبر الله أكبر خَربتْ خَيْبَرُ، إنَّا إذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ[٥]. وروى[٦] إياسُ بْنُ سَلَمَةَ قال حدثني أبي قال: خرجنا إلى خيبر مع رسول الله ـ ﷺ ـ قال: فجعل عمي يَرْتَجِزُ بالقَوم:

٤٤٩٢ ـ تَـالـلَّـهِ لَـوْلاَ الـلَّـهُ مَـا اهْـتَـدَيْـنَـا
وَلاَ تَـصَـدَّقْـنَـا وَلاَ صَـلَّـيْـنَـا
وَنَـحْـنُ مِـنْ فَـضْـلِـكَ مَـا اسْـتَـغْـنَـيْـنَـا
فَـثَـبِّـتِ الأَقْـدَامَ إنْ لاَقَـيْـنَـا
وَأَنْـزِلَـنْ سَـكِـيـنَـةً عَـلَـيْـنَـا[٧]

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ مَنْ هَذَا؟ فقال: أنا عامر، قال: غَفَر الله لك ربك. وما استغفر رسول الله ـ ﷺ ـ لإنسان يَخُصُّه إلا استشهد. قال: فنادى عمرُ بنُ الخَطَّاب ـ رضي الله عنه ـ وهُوَ على جمل له: يا نبيّ الله لولا مَتَّعْتَنَا بعامرٍ قال: فلما قدمنا خيبر خرج ملكهم مَرْحَبُ يخطر بسيفه يقول:

٤٤٩٣ ـ قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنّي مَرْحَبُ ... شَاكِي السِّلاَحِ بَطَلٌ مُجَرِّبُ

---

(١) عند الكوفيين فقط. (٢) المرجعين السابقين.
(٣) زيادة من أ. (٤) كذلك زيادة من أ.
(٥) و (٦) انظر معالم التنزيل للبغوي ٦/ ١٩٨ و١٩٩.
(٧) أرجاز لعبد الله بن رواحة، أو عامر بن الأكوع، أو كعب بن مالك، وهي في ابن يعيش ٣/ ١١٨ وطبقات الشافعية ١/ ٢٥٧ و٢٥٨ والهمع ٢/ ٤٣١ والأشموني ٤/ ٢٨ و٥٠ والمقتضب ٣/ ١٣ والمغني ٣٣٩، وشرح شواهده للسيوطي ٢٨٦ و٢٨٧ و٧٥٩ وفي المغني أيضاً ٩٨ و٢٦٩ و٣١٧ ومجمع البيان ٩/ ١٨١ والسراج المنير ٤/ ٤٨.

إذَا الْـحُـرُوبُ أَقْـبَـلَـتْ تَـلَـهَّـبُ(١)

فقال علي ـ رضي الله عنه ـ:

٤٤٩٤ ـ أَنَـا الَّـذِي سَـمَّـتْـنِـي أُمِّـي حَـيْـدَرَهْ
كَـلَـيْـثِ غَـابَـاتٍ كَـرِيـهِ الـمَـنْـظَـرَه
أَكِـيـلُـكُـمْ بِـالـصَّـاعِ كَـيْـلَ الـسَّـنْـدَرَهْ(٢)

قال: فضرب رأس مرحب فقتله، ثم كان الفتح على يديه.

(ومعنى أكيلكم بالسيف كيل السندرة أي أقتلكم قتلاً واسعاً ذريعاً. والسَّندرة مكيال واسع. قيل يحتمل أن يكون اتخذ من السندرة وهي شجرة يعمل منها النَّبْل، والقِسِيُّ، والسَّنْدرة أيضاً العجلة، والنون زائدة(٣). قال ابن الأثير(٤): وذكرها الجَوْهَرِيُّ في هذا الباب ولم ينبه على زيادتها)(٥).

وروي فتح خيبر من طرق أُخَر في بعضها زيادات وفي بعضها نقصان عن بعض.

قوله: «وأخرى» يجوز فيها أوجه:

أحدها: أن تكون مرفوعة بالابتداء و «لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا» صفتها و «قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا» خبرها.

الثاني: أن الخبر «منهم» محذوف مقدر قبلها، أي وَثَمَّ أخرى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا.

الثالث: أن تكون منصوبة بفعل مضمر على شريطة التفسير، فتقدر بالفعل من معنى المتأخر وهو «قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا» أي وقَضَى اللَّهُ أُخْرَى.

(**الرابع**: أن تكون منصوبة بفعل مضمر لا على شريطة التفسير، بل لِدَلاَلَة السِّياقِ، أي ووَعَدَ أُخْرَى، أو وآتَاكُمْ أخرى(٦).

الخامس: أن تكون مجرورة بـ «رُبَّ» مقدرة، ويكون الواو واو «رب» ذكره

---

(١) من الرجز أيضاً لمرحب اليهودي وانظر سيرة ابن هشام، ومجمع البيان ٩/ ١٨١ والسِّراج المنير ٤/ ٤٨ وانظر هذا كله في البغوي ٦/ ١٩٨ و١٩٩.

(٢) أرجاز أيضاً له وهي في ديوانه ١٣٧، وطبقات الشافعية ١/ ٢٥٥، والهمع ١/ ٨٦ ومجمع البيان ٩/ ١٨٢ والسراج ٤/ ٤٨ واللسان سندر ٢١١٦

(٣) اللسان المرجع السابق.

(٤) تقدم التعريف به. وانظر صحاح الجوهريِّ سَ نْ دَ رَ.

(٥) ما بين القوسين كله سقط من ب.

(٦) قال بهذه الأوجه الأربعة أبو البقاء في التبيان ١١٦٦ و١١٦٧، وقال الزمخشري بالوجهين الرابع والخامس. وانظر الكشاف ٣/ ٥٤٧.

الزمخشري[١]. وفي المجرور بعد الواو المذكورة خلاف[٢] مشهور أهو برُبَّ مضمرة أم بنفس الواو؟ إلا أن أبا حيان قال: ولم تأت «رُبَّ» جارة في القرآن على كَثْرة دورها[٣]، يعني جارة لفظاً وإلا تقدر. قيل: إنها جارة تقديراً هنا وفي قوله: ﴿رُّبَمَا﴾ [الحجر: ٢] على قولنا: إنّ ما نكرة موصوفةٌ)[٤].

قوله: «قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا» يجوز أن يكون خبراً لـ «أُخْرَى» كما تقدم، أو صفة ثانية إذَا قِيلَ بأن أخرى مبتدأ وخبرها[٥] مضمر أو حالاً[٦] أيضاً.

فصل

قال المفسرون: معناه أي وعدكم فتح بلدة أخرى لم تقدِروا عليها قد أحاط الله بها حتى يفتحها لكم كأنه حفظها لكم، ومنعها من غيركم حتى تأخذوها. قال ابن عباس ـ (رضي الله عنهما)[٧] ـ علم الله أنه يفتحها لكم. قال ابن الخطيب: تقديره: وعدكم الله مغانم تأخذونها، ومغانم لا تأخذونها أنتم ولا تقدرون عليها، وإنما يأخذها من يجيء بعدكم من المؤمنين. وهذا تفسير الفراء[٨]. قال: معنى قوله: «قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا» أي حفظها للمؤمنين، لا يجري عليها هلاك وفناء إلى أن يأخذها المسلمون كإحاطة الحُرَّاسِ بالخَزَائِنِ[٩].

---

(١) المرجع السابق.

(٢) وقد نقل ابن هشام في المغني ٣٦١ أنه يرجح أن تكون الواو التي يجر الكلام بعدها واو عطف قال: والصحيح أنها واو العطف وأن الجر برب محذوفة خلافاً للكوفيين والمبرد وحجتهم افتتاح القصائد بها كقول رؤبة:

وَقَـاتِـمِ الأَعْـمَـاقِ خَـاوِي الْـمُـخْـتَـرقْـنْ

وأجيب بجواز تقدير العطف على شيء في نفس المتكلم. ويوضح كونها عاطفة أن واو العطف لا تدخل عليها كما تدخل على واو القسم قال:

وَوَالـلَّـهِ لَـوْلاَ تَـمْـرُهُ مَـا حَـبَـبْـتُـهُ ... وَلاَ كَـانَ أَدْنَـى مِـنْ عُـبَـيْـدِ وَمُـشْـرِقِ

(٣) بالمعنى من البحر فقد قال: «ولم تأت في القرآن جارة مع كثرة ورود ذلك في كلام العرب فكيف يؤتى بها مضمرة؟» انظر البحر ٨/٩٧.

(٤) أي رب شيء هذا. وما بين القوسين كله سقط من نسخة ب.

(٥) في ب وخبره.

(٦) في النسختين حال والأصح ما أثبت أعلى فالمؤلف يقصد أو حالاً بالعطف على خبراً لأخرى أي ويجوز أن تكون جملة «قد أحاط» حالية. وانظر الإعراب في التبيان ١١٦٧.

(٧) زيادة من أ.

(٨) في الرازي: وعلى هذا تبين لقول الفراء حسن، وذلك لأنه فسر قوله تعالى: ﴿**قد أحاط**﴾. انظر الرازي ٢٨/٩٧.

(٩) بالمعنى من الفراء قال: «قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا» أحاط لكم بها أن يفتحها لكم. معاني القرآن وإعرابه ٣/٦٧.

واختلفوا فيها فقال ابنُ عباس والحسن ومقاتل: هي فارس والرومُ، وما كانت العرب تقدر على قتال فارس والروم، بل كانوا حولاً لهم حتى قدروا عليها بالإسلام. وقال الضَّحَّاكُ وابنُ زيد: هي خيبر وعدها الله ـ عزّ وجلّ ـ نبيه ـ ﷺ ـ قبل أن يصيبها ولم يكونوا يرجونها. وقال قتادة: هي مكّة. وقال عِكْرِمَةُ: حُنَيْن. وقال مجاهد: وما فَتَحُوا حتى اليوم، «وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً»[١].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني أسداً وغطفانَ وأَهْلَ خَيْبَرَ «لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ»، قال ابن الخطيب: وهذا يصلح جواباً لمن يقول: كَفّ الأيدي عنهم كان أمراً اتفاقياً، ولو اجتمع عليهم العرب كما زعموا[٢] لمنعوهم من فتح خيبر واغتنام غنائمها، فقال: ليس كذلك بل سواء قاتلوا أو لم يقاتلوا لا ينصرون والغلبة واقعة للمسلمين، فليس أمرهم أمراً اتفاقياً، بل هو أمر إلهيٌّ محكوم به محتوم[٣]. ثم قال «لاَ يَجِدُونَ وَلِيًّا ولاَ نَصِيراً».

قول: «سُنَّةَ اللَّهِ» مصدر مؤكد لمضمون الجملة المقدمة، أي سَنَّ اللَّهُ ذلك سنةً[٤]. قال ابن الخطيب: وهذا جواب عن سؤال آخر يقوله قومٌ من الجُهَّال وهو: إن الطَّوَالِعَ والتأثيرات والاتِّصالاتِ[٥] تأثيراتٌ وتغييرات فقال: ليس كذلك، بل سنة الله نصرة رسله، وإهلاك عدوه[٦]، والمعنى: هذه سنة الله في نصرة أوليائه، وقهر أعدائه «وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً».

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنهُمْ بِبطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ وهذا تبيين لما تقدم من قوله: «وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ»

---

(١) القرطبي ١٦/٢٧٨.
(٢) كذا في النسختين وفي تفسير الرازي: عزموا.
(٣) المرجع السابق.
(٤) قاله في الكشاف ٣/٥٤٧.
(٥) في تفسيره: الطوالع لها تأثيرات والاتصالات لها تغيرات.
(٦) المرجع السابق.

بتقدير الله، كما أنه كف أيديهم عنكم بالفرار، وأيديكم عنهم بالرجوع عنهم وتركهم.

روى ثابتٌ عن أنس بن مالك ـ (رضي الله عنه)(١) ـ أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هَبَطُوا على رسول الله ـ ﷺ ـ من جبل التنعيم(٢) متسلحين يريدون غِرَّةَ(٣) النبي ـ ﷺ ـ وأصحابه فأخذهم سلْماً فاستحياهم(٤) فأنزل الله: ﴿**وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُم عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِم**﴾.

قال عبد الله بن مُغَفَّل المُزَنيّ: كنا مع النبي ـ ﷺ ـ بالحديبية في أصل الشجرة التي قال الله تعالى «في القرآن»، وعلى ظهره غُصْنٌ من أغصان الشجرة فرفعته عن ظهرهِ، وعلي بن أبي طالب ـ (رضي الله عنه(٥)) ـ بين يديه يكتب كتاب الصلح فخرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح فنادَوْا في وجوهنا فدعى عليهم نبي الله ـ ﷺ ـ فأخذ الله بأبصارهم فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال لهم رسول الله ـ ﷺ ـ جئتم في عهد (أحد(٦)) أو هل جَعَلَ(٧) لكم أحد أماناً؟ قالوا: اللَّهم لا فَخَلَّى سبيلهم. فأنزل الله هذه الآية(٨).

قوله: ﴿**وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً**﴾ قرأ أبو عمرو(٩) يَعْلَمُونَ بالياء وقرأ الآخرون بالتاء من فوق فمن قرأ بالغيبة فهو رجوع إلى قوله: «أَيْدِيَهُمْ» وَ «عَنْهُمْ». ومن قرأ بالخطاب فهو رجوع إلى قوله: «أَيْدِيَكُمْ» و «عَنكُم»، والمعنى أن الله يرى فيه من المصلحة وإِنْ كُنْتُمْ لا ترون ذلك(١٠).

ثم بين ذلك بقوله تعالى: ﴿**هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾ وهذا إشارة إلى أن الكف لم يكن الأمر (فيهم(١١)) لأنهم كفروا وصدوكم وأحصروا وكل ذلك يقتضي قتالَهُم، فلا يقع لأحد أن الفريقين اتفقوا واصطلحوا، ولم يكن بينهما خلاف ولا نزاع بل الاختلافُ والنزاعُ باقٍ مستمر؛ لأنهم هم الذين كفروا وصدوكم ومنعوكم فازدادُوا كفراً وعداوةً، وإنما ذلك للرجال المؤمنينَ والنِّساء المؤمنات(١٢).

قوله: «وَالهَدْيَ» العامة على نصبه، والمشهور أنه نسق على الضمير المنصوب في

---

(١) زيادة من (أ).
(٢) جبل وهو موضع بين مكة وسرف.
(٣) الغِرة بالكسر الغفلة.
(٤) في القرطبي: فأخذناهم... فاستحييناهم.
(٥) زيادة من (أ).
(٦) زيادة من الروايات لاستقامة اللفظ والمعنى.
(٧) في (ب) يجعل.
(٨) وانظر في سبب النزول القرطبي ١٦/ ٢٨٠ و ٢٨١.
(٩) وحده وهي قراءة متواترة انظر السبعة ٦٠٤ والكشف ٢/ ٢٨٢.
(١٠) قاله الإمام الرازي ٢٨/ ٩٨.
(١١) ما بين القوسين زيادة من الرازي، فقد أشار الناسخ في النسختين بقوله كذا بياض في الأصل وفي الرازي: إشارة إلى أن الكف لم يكن لأمر فيهم، لأنهم كفروا، وصدوا وأحصروا.
(١٢) بالمعنى من تفسير الإمام ٢٨/ ٩٩.

«صَدُّوكُمْ»[(١)] وقيل: نصب على المعية. وفيه ضعف، لإمكان العطف[(٢)]. وقرأ أبو عمرو ـ في رواية ـ بجره عطفاً على «المَسْجِدِ الحَرَامِ»[(٣)]. ولا بد من حذف مضاف، أي وعَنْ نَحْرِ الهَدْي[(٤)]، وقرىء برفعه على أنه مرفوع بفعل مقدر لم يسم فاعله أي وصُدَّ الهَدْيُ[(٥)].

والعامة على فتح الهاء وسكون الدال، وروي عن أبي عمرو وعاصم وغيرهما كسر الدال وتشديد الياء[(٦)]. وحكى ابن خالويه ثلاث لغات الهَدْي وهي الشهيرة لغة قريش، والهَدِيّ والهَدَا[(٧)].

قوله: «مَعْكُوفاً» حال من الهدى أي محبوساً، يقال: عَكَفْتُ الرَّجُلَ عن حاجته. وأنكر الفارسي تعدية «عكف» بنفسه[(٨)]، وأثبتها ابن سِيدَهْ والأزهريّ وغيرُهُمَا[(٩)]. وهو ظاهر القرآن لبناء اسم مفعول منه.

قوله: «أَنْ يَبْلُغَ» فيه أوجه:

أحدها: أنه على إسقاط الخافض، أي «عَنْ» أو «مِنْ أن» وحينئذ يجوز في هذا الجار المقدر أن يتعلق بـ «صَدُّوكُمْ» وأن يتعلق بـ «مَعْكُوفاً» أي محبوساً عن بلوغ مَحِلِّهِ.

الثاني: أنه مفعول من أجله، وحينئذ يجوز أن يكون علة للصد، والتقدير: صدوا الهدي كراهة أن يبلغ محله وأن يكون علة لـ «مَعْكُوفاً» أي لأجل أن يبلغ محله، ويكون الحبس من المسلِمِينَ[(١٠)].

الثالث: أنه بدل من «الهدي» بدل اشتمال أي صدوا بلوغ الهدي محله.

(فصل[(١١)]

معنى الآية «هُم الَّذِينَ كَفَرُوا» يعني كفار مكة «وَصَدُّوكُمْ» منعوكم «عَنِ المَسْجِدِ

---

(١) وهو اختيار الرازي في مرجعه السابق ومن قبل الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٤٧.

(٢) المحض وهو ما جوزه ابن مالك ولكن الجمهور خَصُّوه بما صلح فيه بمعنى العطف ومعنى المفعول به فلا يجوز حيث لا يتصور معنى العطف لقيام الأدلة على أن واو «مع» عطف في الأصل ولا حيث تمَحَّض معنى العطف لأن دخول معنى المفعول به هو الذي سوّغ خروجه بما يقتضيه العطف من المشاكلة التي تؤثرها العرب على غيرها وسواء صلح فيه العطف حقيقة أو مجازاً. انظر الهمع ١/ ٢١٩.

(٣) وهي قراءة الجهني عن أبي عمرو. وانظر البحر ٨/ ٩٨ والكشاف ٣/ ٥٤٧.

(٤) البحر المرجع السابق.

(٥) لم تنسب في كل من المرجعين السابقين.

(٦) لم ترو في المتواتر عنهما. انظر البحر ٨/ ٩٨ ومختصر ابن خالويه ١٤٢ و ١٤٣.

(٧) المرجع السابق.

(٨) قال: لأنا لا نعلم عكف جاء متعدياً القرطبي ١٦/ ٢٨٤.

(٩) انظر التهذيب والمخصص عكف ومعاني الفراء ٣/ ٦٧.

(١٠) قال بالوجه الأول فقط الكشاف ٣/ ٤٧، وقال بالثلاثة الأوجه صاحب البحر المحيط ٨/ ٩٨.

(١١) ما بين القوسين كله سقط من نسخة (ب).

الحَرَام» أن تطوفوا فيه «وَالهَدْيَ» أي وصدوا الهدي وهي البُدْنُ التي ساقها رسول الله ـ ﷺ ـ وكانت سبعينَ بدنةً «مَعْكُوفاً» محبوساً، يقال: عَكَفَهُ عَكْفاً إذا حبسه، وعُكُوفاً، كما يقال: رَجَعَ رَجْعاً ورُجُوعاً «أَن يَبْلُغَ مَحِلَّه» مَنْحَرَهُ[1]، وحيث يحِلّ نحرُه يعني الحرم. ثم قال: «وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ» يعني المستضعفين بمكة[2]).

قوله: «لَمْ تَعْلَمُوهُمْ» صفة للصِّنْفين، وغلب الذكور، وقوله: «أَنْ تَطَئُوهُمْ» يجوز أن يكون بدلاً من «رجال ونساء»، وغلب الذكور ـ كما تقدم ـ وأن يكون بدلاً من مفعول تَعْلَمُوهُمْ، فالتقدير على الأول: ولولا وطءُ رجالٍ ونساءٍ غيرِ معلومين، وتقدير الثاني: لم تَعْلَمُوا وَطْأَهُمْ، والخبر محذوف تقديره: ولولا نساء ورجال موجودون أو بالحَضْرَةِ[3].

(وأما جواب[4] «لولا» ففيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه محذوف، لدلالة جواب «لو» عليه.

والثاني: أنه مذكور وهو «لَعَذَّبْنَا» وجواب «لو» هو المحذوف فحذف من الأول لدلالة الثاني، ومن الثاني لدلالة الأول.

والثالث: أن «لعذبنا» جوابهما معاً. وهو بعيد إن أراد حقيقة ذلك[5].

وقال الزمخشري قريباً من هذا فإنه قال: ويجوز أن يكون: «لَوْ تَزَيَّلُوا» كالتكرير لِلَوْلاَ رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ لمرجعهما إلى معنى واحد، ويكون «لَعَذَّبْنَا» هو الجواب[6].

ومنع أبو حيان مرجعهما لمعنى واحد، قال: لأن ما تعلق به الأوّل غيرُ ما تعلّق به الثاني)[7].

فصل

المعنى «لم تعلموهم» لم تَعْرِفُوهُم «أَنْ تَطَئُوهُمْ» بالقتل وتُوقعوا بهم. «فَتُصِيبكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ». قال ابن زيد: إثم وذلك لأنكم ربما تقتلوهم فيلزمكم الكفَّارة، وهي دليل الإثم، لأن الله تعالى أوجب على قاتل المؤمن في دار الحرب إذا لم يعلم إيمانه الكفارة دون الدِّيَةِ؛ قال تعالى: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾

---

(١) قاله الفراء في المعاني ٣/ ٦٨.
(٢) وانظر القرطبي أيضاً ١٦/ ٢٨٣، ٢٨٤.
(٣) قال بهذه الإعرابات أبو البقاء العكبري في التبيان ١١٦٧.
(٤) ما بين القوسين كله من هنا إلى نهاية القوس الآتي بعد ساقط من نسخة (ب).
(٥) انظر التبيان ١١٦٧ وقد قال بالإعرابات السابقة أيضاً أبو حيان في البحر ٨/ ٩٨.
(٦) الكشاف ٣/ ٥٤٨.
(٧) وقال: «فالمعنى في الأولى ولولا وطء قوم مؤمنين والمعنى في الثانية لو تميزوا من الكفار وهذا معنى مغاير للأول مغايرة ظاهرة» انظر البحر ٨/ ٩٨.

[النساء: ٩٢]. وقال ابن إسحاق: غُرم الدية. وقيل: إن المشركين يعيبوكم ويقولون قتلوا أهل دينهم وفعلوا بإخوانهم ما فعلوا بأعدائهم، والمَعَرَّةُ السُّبَّة يقول لولا أن تطئوا رجالاً مؤمنينَ ونساءً مؤمناتٍ لا تعلموهم فيلزمكم به كفارة ويلحقكم به سُبَّة لأذن لكم في دخولها ولكنه حال بينكم وبين ذلك[١].

قوله: «فَتُصِيبَكُمْ» نَسَقٌ على «أَنْ تَطَئُوهُمْ» وقوله «بِغَيْرِ عِلْمٍ» يجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه صفة لـ «مَعَرَّة» وأن يكون حالاً من مفعول «تُصِيبُكُمْ»[٢] وقال أبو البقاء: مِنَ الضمير المجرور يعني في «منهم»[٣]. ولا يظهر معناه. أو أن يتعلق «بتصيبكم»[٤] أو أن يتعلق «بتطئوهم»[٥]؛ أي تطئوهم بغير علم.

(فإن قيل[٦]: هذا تكرار، لأنه إن قلنا: هو بدل عن الضمير يكون التقدير: لم تعلموا أن تَطَئُوهُمْ بغير علم فيلزم تكرار بغَيرِ عِلْمٍ لحصوله بقوله: لَمْ تَعْلَمُوهُمْ؟.

فالجواب: أن يقال: قوله: «بِغَيْرِ عِلْمٍ» هو في موضعه أي فتصيبكم منهم مَعَرَّةٌ بغير علم من (الذي[٧]) يعرّكم ويعيبُ عليكم، يعني إن وَطَأْتُمُوهُمْ غير عالمين يعركم (مَسبَّة[٨]) الكفار «بغير علم» أي بجهل لأنهم لا يعلمون أنكم معذورون فيه. أو يقال تقديره: لم تعلموا أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم فيكون الوطء الذي يحصل بغير علم معذورين فيه. أو نقول: المعرَّة قسمان:

أحدهما: ما يحصل من القتل العمد العدوان ممن هو غير عالم بحال المحِلّ.

والثاني: ما حصل من القتل خطأ وهو عند[٩] عدم العلم فقال: تصيبكم منهم معرة بغير علم لا التي تكون عند[١٠] العلم).

والوَطْءُ هنا عبارة عن القَتْلِ والدَّوْسِ، قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: اللَّهُمّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ[١١] وأنشدوا:

٤٤٩٥ ـ وَوَطِئْتَنَا وَطْأً عَلَى حَنَقٍ وَطْءَ المُقَيَّدِ ثَابِتَ الهَرَمِ[١٢]

(١) وانظر في هذا تفسير العلامة القرطبي في الجامع ١٦/ ٢٨٥.
(٢) التبيان ١١٦٧. (٣) السابق.
(٤) البحر ٨/٩٨.
(٥) وهو قول الزمخشري في الكشاف ٣/٤٨، ونقله عن الرازي في التفسير الكبير ٢٨/٩٩.
(٦) ما بين القوسين كله سقط من نسخة (ب). (٧) كذا أوردها الناسخ زيادة عن الرازي.
(٨) زيادة من الرازي للسياق. (٩) في الرازي: «غير».
(١٠) وفيه: «عن» بدل من عند. وانظر بالمعنى تفسيرَ الرازي ٢٨/٩٩ و ١٠٠.
(١١) اللسان وطأ ٤٨٨٣.
(١٢) من الكامل أَحَذّ العَرُوض والضَّرْب، ولم أَهْتدِ إلى قائله. وشاهده: في «وطئتنا» وهو القتل والدوس وانْظُر اللِّسان والبحر ٨/٩٨ والكشاف ٣/٥٤٨ وشرح شواهده ٤/٥٤٠.

قوله: «لِيُدْخِلَ اللَّهُ» متعلق بمقدر أي كان انتفاء التسليط على أهل مكة وانتفاء العذاب ليدخل الله[١]. وقال البغوي: اللام في ليدخل متعلق بمحذوف دلّ عليه معنى الكلام يعني ليدخل الله في رحمته أي في دين الإسلام من يشاء من أهل مكة بعد الصلح قبل أن يدخلوها[٢].

قوله: «لَوْ تَزَيَّلُوا» قرأ ابنُ أبي عَبْلَةَ وأبو حيوة وابنُ عَوْن[٣] تَزَايَلُوا[٤] على تَفَاعَلُوا. والضمير في تزايلوا يجوز أن يعود على المؤمنين فقط، أو على الكافرين، أو على الفريقين. والمعنى لو تَمَيَّزَ هؤلاءِ من هؤلاءِ لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً بالسَّبْيِ والقتْل بأيديكم.

قوله (تعالى)[٥]: «إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا» العامل في «إِذْ» إما «لَعَذَّبْنَا» أو «صَدُّوكُمْ» أو «اذْكُر» فيكون مفعولاً به[٦]. قال ابن الخطيب في إذ: يحتمل أن يكون ظرفاً، فلا بد من فعل يقع فيه ويكون عاملاً له، ويحتمل أن يكون مفعولاً به، فإن قلنا: إنه ظرف فالفعل الواقع فيه يحتمل أن يكون مذكوراً ويحتمل أن يكون غير مذكور، فإن كان مذكوراً ففيه وجهان:

أحدهما: هو قوله تعالى: ﴿وَصَدُّوكُمْ﴾ أي وصدوكم حِينَ جَعَلُوا في قلوبهم[٧] الحَمِيَّة فلا يرجعون إلى الإسلام.

وثانيهما: المؤمنون لما أنزل الله عليهم سكينته لا يتركون الاجتهاد في الجهاد والله مع المُؤمنين[٨].

فإن قلنا: إنه غير مذكور ففيه وجهان:

أحدهما: حفظ الله المؤمنين عن أن يَطَئُوهم إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية.

وثانيهما: أحسن الله إليكم إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية. وعلى هذا فقوله: «فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ» تفسير لذلك الإحسان. وإن قلنا: إنه مفعول به فتقديره اذكر ذلك

(١) قاله أبو حيان في البحر ٨/ ٩٩. (٢) معالم التنزيل ٦/ ٢١٢.
(٣) مع ابن مِقْسِم.
(٤) وهي شاذة غير متواترة. انظر البحر ٨/ ٩٩ والكشاف ٣/ ٥٤٨.
(٥) زيادة من أ. (٦) قاله أبو حيان في بحره ٨/ ٩٩.
(٧) في ب قلوبكم. تحريف.
(٨) الواقع أن قبل هذا كلام قد نسيه الناسخ والله أعلم فقد قال الرازي:
وثانيها: قوله تعالى: ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ أي لعذبناهم حين جعلوا في قلوبهم الحمية حميَّة الجاهلية ثم يقول: والثاني أقرب لقربه لفظاً وشدة مناسبته معنى، لأنهم إذا جعلوا في قلوبهم الحمية لا يرجعون إلى الاستسلام والانقياد. والمؤمنون إلخ. انظر الرازي ٢٨/ ١٠١ و١٠٢.

الوقت كقولك: اذْكُر إِذْ قَامَ زَيْدٌ أي اذكر وَقْتَ قيامه. وعلى هذا يكون «إِذْ» ظرفاً للفعل المضاف إليه[١].

قوله: «فِي قُلُوبِهِمْ» يجوز أن يتعلق بـ «جَعَلَ» على أنها بمعنى «أَلْقَى»، فتتعدى لواحد؛ أي إِذْ أَلْقَى الكافرون في قلوبهم الحمية، وأن يتعلق بمحذوف على أنه مفعول ثانٍ قدم على أنها بمعنى صيّر.

قوله: «حَمِيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ» بدل من «الحمية» قبلها، والحمية الأَنَفَةُ من الشيء، وأنشدوا للمتلمس:

٤٤٩٦ ـ أَلاَ إِنَّنِي مِنهُمْ وَعِرْضِي عِرْضُهُمْ كَـذَا الرَّأْسِ يَـحْـمِي أَنْـفَـهُ أَنْ يُـهَـشَّـمَـا[٢]

وهي المنع، ووزنها فَعِيلَةٌ، وهي مصدر، يقال: حَمَيْتُ عن كذا أَحْمِيه (حَمِيَّةً)[٣].

(فصل[٤])

المعنى: إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حين صدوا رسول الله ـ ﷺ ـ وأصحابه عن البيت، وأنكروا أَنَّ محمداً رسول الله. قال مقاتل: قال أهل مكة قد قتلوا أبناءنا وإخوانَنَا ثم يدخلون علينا فتتحدث العرب أنهم دخلوا علينا على رغم أنفنا، واللاتِ والعُزَّى لا يدخلونها علينا. فهذه حَمِيَّة الجاهلية التي دخلت قلوبهم).

قوله: «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى المُؤْمِنِينَ» حين لم يدخلهم ما دخلهم من الحمية فعصوا الله في قتالهم. قال ابن الخطيب: دخول الفاء في قوله: «فَأَنْزَلَ اللَّهُ» يدل على تعلق الإنزال أو ترتيبه على ما ذكرنا من أن «إِذْ» ظرف لفعل مقدر كأنه قال: أَحْسَنَ اللَّهُ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا. «فأنزل» تفسير لذلك الإحسان، كما يقال[٥]: أَكْرَمَنِي فَأَعْطَانِي لتفسير الإكرام. ويحتمل أن تكون الفاء للدلالة على تعلق إنزال السكينة بجعلهم الحمية في قلوبهم على معنى المقابلة تقول: أَكْرَمَنِي فَأَثْنَيْتُ عَلَيْهِ[٦].

(قوله[٧]: «وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى» قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وعكرمة والسدي وابن زيد وأكثر المفسرين: كلمة التقوى لا إله إلا الله. وروي عن أبي بن كعب مرفوعاً. وقال عليٌّ وابنُ عمر: كلمة التقوى لا إله إلا الله والله أكبر. وقال عطاء بن أبي رباح: هي لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء

---

(١) المرجع السابق.

(٢) من الطويل له ورواه المؤلف كرواية أبي حيان في البحر ٨/ ٩٩ وفي القرطبي: كَذِي الأنف و «يكشما». والكَشْمُ: قطع الأنف باستئصال. وانظر: القرطبي ١٦/ ٢٨٨ وشاهده واضحٌ.

(٣) نقله القرطبي في الجامع ١٦/ ٢٨٨.

(٤) ما بين القوسين كله سقط من ب.

(٥) في ب قال وما هكذا في الرازي.

(٦) الرازي ٢٨/ ١٠٢.

(٧) ما بين القوسين أيضاً كله سقط من نسخة ب.

قدير. وقال عطاء الخراساني: هي لا إله إلا الله محمد رسول الله وقال الزهري: هي بسم الله الرحمن الرحيم. وقيل: هي الوفاء بالعَهْد[١]).

قوله: «وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا» الضمير في «كانوا» يجوز أن يعود إلى المؤمنين وهو الظاهر، أي أحق بكلمة التقوى من الكفار، وقيل: يعود على الكفار أي كانت قريشٌ أحقَّ بها لولا حرمانُهُمْ[٢].

(فصل[٣])

قال البغوي: وكان المؤمنونَ أحقّ بها من كفار مكة وأهلها أي وكانوا أهلها في علم الله تعالى، لأن الله تعالى اختار لدينه وصحبةَ نبيه أهل الخير[٤]، قال ابن الخطيب: قوله: «أحق بها» يحتمل وجهين:

أحدهما: أنه يفهم من معنى الأحقّ أنه يثبت رجحاناً (ما[٥]) على الكافرين وإن لم يثبت الأهلية كما لو اختار الملك اثنين لشغل، وكل واحد منهما غير صالح له ولكن أحدهما أبعد عن الاستحقاق يقال للأقرب إلى الاستحقاق إن كان ولا بد فهذا أحق كما يقال: الحبس أهون من القتل، مع أنه لا هيِّن هناك فقال وأهلها دفعاً لذلك.

الثاني: أن يكون لا للتفضيل كما في قوله «خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا» [الفرقان: ٢٤]، و «أَحْسَنُ نَدِيًّا» [مريم: ٧٣]؛ إذ لا خير في غيره «وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً»[٦]).

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: «لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا». «صَدَقَ» يتعدى لاثنين، ثانيهما بحرف الجر، يقال صَدَقَكَ فِي كَذَا، وقد يحذف كهذه الآية[٧]، وقوله: «بِالحَقِّ» فيه أوجه:

أحدها: أن يتعلق بـ «صَدَقَ».

الثاني: أن يكون صفة لمصدر محذوف أي صِدْقاً مُلْتَبِساً بالحَقِّ.

الثالث: أن يتعلق بمحذوف على أنه حال من الرؤيا، أي ملتبسةً بالحق[٨].

الرابع: أنه قسم وجوابه: لَتَدْخُلُنَّ فعلى هذا يوقف على الرؤيا، ويبتدأ بما بعدها.

---

(١) وانظر هذه الأقوال مجتمعةً في القرطبي ١٦/ ٢٨٩ والبحر ٨/ ٩٩.
(٢) نقله أبو حيان في البحر ٨/ ٩٩ و١٠٠ واختار القرطبي عوده على المؤمنين.
(٣) ما بين القوسين كله أيضاً ساقط من نسخة ب. (٤) معالم التنزيل له ٦/ ٢١٢ و٢١٣.
(٥) زيادة على الرازي من المؤلف. (٦) بالمعنى من الرازي ٢٨/ ١٠٣.
(٧) البحر ٨/ ١٠١. (٨) السابق والتبيان ١١٦٨.

(قاله الزمخشري[١]. وعلى تقديره قَسَماً إما أن يكون قَسَماً بالله فإن الحقَّ من أسمائه، وإما أن يكون قسماً بالحق الذي هو نقيض الباطل.

وقال ابن الخطيب[٢]: ويحتمل وجهين آخرين:

أحدهما: فيه تقديم وتأخير تقديره صدق الله (و[٣]) رسوله الرؤيا بالحق الرؤيا أي الرسول الذي هو رسول بالحق.

الثاني: أن يقال تقديره صدق الله (و[٤]) رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن فيكون تفسيراً للرؤيا بالحق يعني أن الرؤيا هي وَاللَّهِ لَتَدْخُلُنَّ[٥].

فصل

ذكر المفسرون أن النبي ـ ﷺ ـ رأى في المنام قبل أن يخرج إلى الحديبية أنه يدخل هو وأصحابه المسجد الحرام ويَحْلِقُونَ رُؤُوسَهُمْ ويُقَصِّرُونَ، فأخبر أصحابه ففرحوا، وحسبوا أنهم دخلوا مكة عامَهُم ذلك فلما انصرفوا ولم يدخلوا شقَّ عليهم ذلك فأنزل الله هذه الآية. وروى مُجَمَّعُ بنُ جارية الأنصاريُّ قال: شهدنا الحديبية مع رسول الله ـ ﷺ ـ فلما انصرفنا عنها إذ النَّاسُ يهزّون الأَبَاعِرَ فقال بعضهم: ما بال الناس؟ قالوا: أُوحِيَ إلى رسول الله ﷺ. قال: فخرجنا نزحف فوجدنا النبي ـ ﷺ ـ واقفاً على راحلته على كرَاع الغَمِيم، فلما اجتمع الناس قرأ: «إنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً» فقال عمر: أَوَ فَتحٌ هو يا رسول الله؟ قال: نعم والذي نفسي بيده. ففيه دليل على أن المراد من الفتح صلح الحديبية وتحقيق الرؤيا كان في العام المقبل فقال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ أراها إياه في مَخْرَجِهِ إلى الحديبية أنه يدخل هو وأصحابه المسجِدَ الحَرَامَ صدق وحق)[٦].

قوله: «لَتَدْخُلُنَّ» جواب قسم مضمر أو لقوله «بالحَقِّ» على ذلك القول. وقال أبو البقاء: و «لَتَدْخُلُنَّ» تفسير الرؤيا أو مستأنف أي والله[٧] لتدخلن، فجعل كونه جواب قسم قسماً تفسيراً للرؤيا. وهذا لا يصح البتة وهو أن يكون تفسيراً للرؤيا غير جواب القسم، إلا أن يريد أنه جواب قسم ولكنه يجوز أن يكون هو مع القسم تفسيراً وأن يكون مستأنفاً غير تفسير، وهو تفسير من عبارته.

قوله: «إِنْ شَاءَ اللَّهُ» فيه وجوه:

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٤٩.
(٢) الرازي ٢٨/ ١٠٤ و١٠٥.
(٣) الواو زيادة على الرازي.
(٤) كذلك.
(٥) تفسيره الكبير ٢٨/ ١٠٤ و١٠٥ بالمعنى.
(٦) ما بين القوسين كله سقط من نسخة ب وقد ذكر العلامة البغوي في معالم التنزيل ٦/ ٢١٣ هذه الآثار والأول العلامة القرطبي في جامعه ١٦/ ٢٨٩ و٢٩٠ عن قتادة.
(٧) التبيان ١١٦٨.

أحدها: أنه ذكره تعظيماً[١] للعباد الأدب كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣ و ٢٤].

الثاني: أن الدخول لما وقع عام الحديبية وكان المؤمنون يريدون الدخول، ويأبون الصلح قال: لَتَدْخُلُنَّ ولكن لا بجلادتكم ولا بإرادتكم وإنما تَدْخُلُنَّ بمشيئة الله (تَعَالَى[٢].

الثالث: أن الله تعالى لما قال في الوحي المنزَّل على النبي ـ ﷺ ـ: «لتدخلن» ذكر أنه بمشيئة الله) تعالى، لأن ذلك من الله وَعْدٌ، ليس عليه دينٌ ولا حقٌّ واجبٌ؛ لأن من وعد بشيء لا يحققه إلا بمشيئة الله، وإلا فلا يلزمه به أحدٌ.

(فصل[٣])

قال البغوي: معناه وقال لتدخلن. وقال ابن كيسان: لَتَدْخُلُنَّ من قول رسول الله ـ ﷺ ـ لأصحابه حكاية عن رؤياه، فأخبر الله عن رسوله أنه قال ذلك، وإنما استثنى مع علمه بدخولها بإخبار الله تعالى تأدباً بأدب الله تعالى حيث قال: ﴿وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾[٤]. وقال أبو عبيدة: «إِلاَّ» بمعنى إذ مجازه إذْ شَاءَ الله[٥] كقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨] وقال الحُسَيْنُ بن الفضل: يجوز أن يكون الاستثناء من الدخول لأن بين الرؤيا وتصديقها سنة ومات في السنة ناس فمجاز الآية لتدخلن المسجد الحرام كلكم إذْ شَاءَ الله. وقيل: الاستثناء واقع على الأمر لا على الدخول؛ لأن الدخول لم يكن فيه شك كقول النبيّ ـ ﷺ ـ عند دخول القبر: «وإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لاَحِقُونَ» فالاستثناء راجع إلى اللحوق لا إلى الموت[٦].

قوله: «آمِنِينَ» حال من فاعل لَتَدْخُلُنَّ وكَذَا «مُحَلِّقِينَ وَمُقَصِّرِينَ». ويجوز أن تكون «مُحَلِّقِينَ» حالاً من «آمِنِينَ» فتكون متداخلةً.

فصل.

قوله: «مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ» إشارة إلى أنكم تتمون الحج من أوله إلى آخره فقوله: «لَتَدْخُلُنَّ» إشارة إلى الأول وقوله: «محلقين» إشارة إلى الآخر.

فإن قيل: محلقين حال الداخلين، والدَّاخل لا يكون إلا مُحْرِماً والمحرم لا يكون مُحَلّقاً.

---

(١) في الرازي: تعليماً وليس تعظيماً. وكذا في ب تعليماً.
(٢) ما بين القوسين سقط من ب بسبب انتقال النظر.
(٣) هذا الفصل بأكمله سقط من نسخة ب.
(٤) نقله عنه إمام قرطبة في جامعه ١٦/ ٢٩٠.
(٥) لم أجده في المجاز عند تفسير تلك الآية وانظر القرطبي المرجع السابق.
(٦) نقل كل هذه الآراء القرطبي في مَرْجِعِهِ السابق. أقول: وجعل أن بمعنى إذْ فيه بُعْد؛ لأن إذ في الماضي من الفعل، و «إذا» في المستقبل، وهذا الدخول في المستقبل. فوعدهم دخول المسجد.

(فالجواب: أن قوله: «آمِنِينَ» مُتَمَكِّنِين من أن تُتِمُّوا الحجَّ مُحَلِّقِينَ)[١].

قوله: «لاَ تَخَافُونَ» يجوز أن يكون مستأنفاً، وأن يكون حالاً ثالثةً، وأن يكون حالاً (إما)[٢] من فاعلِ لتدخلن، أو من ضمير «آمنين» أو «محلِّقين أو مقصرين» فإن كانت حالاً من آمنين أو حالاً من فاعلِ لتدخلن فهي حال للتأكيد وآمنين حال مقارنة وما بعدها حال مقدرة إلا قوله: «لا تخافون» إذا جعل حالاً فإنها مقارنة أيضاً[٣].

فإن قيل: قوله: «لا تخافون» معناه غير خائفين، وذلك يحصل بقوله تعالى: ﴿آمنين﴾ فما الفائدة في إعادته؟

فالجواب: أن فيه كمال الأمن؛ لأن بعد الحلق يخرج الإنسان عن الإحرام فلا يحرم عليه القتال ولكن عند أهل مكة يحرم قتال من أَحْرَمَ ومن دَخَلَ الحَرَمَ فقال: تَدْخُلُون آمِنِينَ وتَحْلِقُونَ، ويبقى أَمنُكُمْ بعد إحلالكم من الإحْرَام.

قوله: «فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا» أي ما لم تعلموا من المصلحة، وأن الصلاح كان في الصلح، وأن دخولكم في سنتكم سبب لوطء المؤمنين والمؤمنات وهو قوله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ. . . . .﴾ الآية.

(فإن قيل[٤]: الفاء في قوله: «فعلم» فاء التعقيب، فقوله «فعلم» عقبت ماذا؟.

فالجواب: إن قلنا: إن المراد من «فَعَلِم» وقت الدخول فهو عقيب صَدَقَ، وإن قلنا: المراد فعلم المصلحة فالمعنى علم الوقوع والشهادة لا علم الغيب. والتقدير: لما حصلت المصلحةُ في العام القابل فعلم ما لم تعلموا من المصلحة المتجددة.

«فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ» أي من قبل دخولهم المسجد الحرام «فَتْحاً قَرِيباً» وهو فتح الحديبية عند الأكثرين. وقيل: فتح خيبر. ثم قال: «وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً» وهذا يدفع وَهَمَ حدوثِ علمه في قوله: «فَعَلِمَ»؛ لأن قوله: «وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً» يفيد سَبْقَ علْمِهِ)[٥].

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالْهُدَى﴾ وهذا تأكيد لبيان صدق الله في

---

(١) ما بين القوسين سقط من نسخة ب. (٢) سقط من ب كذلك.

(٣) التبيان ١١٦٨ ومعنى الحال المؤكدة أنها تؤكد مضمون الجملة أو عاملها أو صاحبها وهي التي أهملها النحويون أما الحال المقارنة والمقدرة فهي بالنسبة للزّمان والمقارنة هي الأغلب عن المقدرة وهي المستقبلة نحو: «هَذَا بَعْلِي شَيْخاً». انظر الهمع بتصرف ١/ ٢٤٥.

(٤) ما بين القوسين كله سقط من ب. (٥) قاله الرازي ٢٨/ ١٠٥ و١٠٦.

الرؤيا؛ لأنه لما كان مرسلاً لرسوله[١] ليهدي، لا يريد ما لا يكون فيحدث[٢] الناس فيظهر خلافه فيكون ذلك سبباً للضلال. ويحتمل أن الرؤيا الموافقة للواقع قد تقع لغير المرسل، لكن ذلك قليل لا يقع لكل أحد فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾ وحكى له ما سيكون في اليقظة فلا يبعد أن يُريَه في المنام ما سيقع ولا استبعاد في صدق رؤياه وفيها بيان وقوع الفتح ودخول مكة بقوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي من يقويه على الأديان لا يستبعد منه فتح مكة. والهدى يحتمل أن يكون هو القرآن كقوله تعالى: ﴿أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٠] وعلى هذا دين الحق هو ما فيه من الأصول والفروع. ويحتمل أن يكون الهدى هو المعجزة أي أرسله بالمعجزة. فيكون قوله: «وَدِين الحق» إشارة إلى ما شرع. ويحتمل أن يكون الهدى هو الأصولَ ودين الحق هو الأحكام. والألف واللام في «الهدى» يحتمل أن تكون للعهد وهو كقوله ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [الأنعام: ٨٨] وأن تكون للتعريف أي كل ما هو هُدًى.

قوله: «وَدِين الْحَقِّ» يحتمل أن يكون المراد دين الله تعالى؛ لأن الحق من أسماء الله، ويحتمل أن يكون الحقُّ نقيضَ الباطل، فكأنه قال: دين الأمر الحق، ويحتمل أن يكون المراد الانقياد للحق، وقوله: أرسله بالهدى ـ وهو المعجزة ـ على أحد الوجوه «لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ» أي جنس الدين «وكَفَى باللَّهِ شَهِيداً» على أنك صادق فيما تخبر وفي أنك رسول الله. وهذا فيه تسلية قلب المؤمنين فإنهم تأذوا[٣] من ردِّ الكفَّار عليهم العهد المكتوب وقالوا: لا نعلم أنه رسول الله فلا تكتبوا محمد رسول الله، بل اكتبوا محمد بن عبد الله، فقال تعالى: ﴿كَفَى باللَّهِ شَهِيداً﴾ أي في أنه رسول الله[٤].

قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾

قوله: «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ» يجوز أن يكون خبر مبتدأ مضمر؛ لأنه لما تقدم «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُوله» دل على ذلك المقدر، أي هو أي الرسول بالهُدَى محمد و «رسول الله» بدل أو بيان، أو نعت. وأن يكون مبتدأ وخبراً، وأن يكون مبتدأ و «رسول الله» على ما تقدم من البيان والبدل، والنعت «والذين معه» عطف على محمد والخبر «عَنْهم»[٥].

---

(١) في ب رسوله من دون لام.

(٢) كذا في ب وفي الرازي: مَهْدِيًا للناس.

(٣) في ب يؤذوا. تحريف.

(٤) وانظر الرازي ٢٨/ ١٠٦.

(٥) قال بهذه الإعرابات العكبري في التبيان ١١٦٨ والزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٥٠. ونقله أبو حيان في البحر ٨/ ١٠١.

قوله: «أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ» (قال[١] ابن الخطيب: كأنه قال[٢]: «والذين معه» جميعهم «أشداء على الكفار رحماء بينهم» لأن وصف الشدة والرحمة وجد في جميعهم، أما في المؤمنين فقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] وأما في حق النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقوله تعالى: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]. وقال في حقه: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وعلى هذا فقوله: «تَرَاهُمْ» لا يكون خطاباً مع النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ بل يكون عاماً خرج مَخْرَج الخطاب تقديره تراهم أيها السامع كائناً من كان)[٣]. وقرأ ابن عامر في رواية: رَسُولَ اللَّهِ بالنصب على الاختصاص[٤] وهي تؤيد كونة تابعاً لا خبراً حالة الرفع.

ويجوز أن يكون «وَالَّذِينَ مَعَهُ» على هذا الوجه مجروراً عطفاً على الجلالة أي ورسول الذين آمنوا معه لأنه لما أرسل إليهم أضيف إليهم فهو رسول الله بمعنى أن الله أرسله ورسول أمته بمعنى أنه مرسل إليهم ويكون «أشداء» حينئذ خبر مبتدأ مضمر أي هُمْ أَشِدَّاءُ. ويجوز أن يكون تَمَّ الكلامُ على «رَسُول اللَّهِ» و «الَّذين مَعَهُ» و «أَشِدَّاء» خبره. وقرأ الحسن: أَشِدَّاءَ رُحَمَاءَ[٥] بالنصب إما على المَدْح وإمَّا على الحال من الضمير المستكِنّ في «مَعَهُ»؛ لوقوعه صلة، والخبر حينئذ عن المبتدأ قوله «تَرَاهُمْ ركعاً» و «رُكَّعاً سُجَّداً» حالان؛ لأن الرؤية بصرية، وكذلك «يَبْتَغُونَ»[٦]. ويجوز أن يكون مستأنفاً[٧]. وإذا كان حالاً فيجوز أن تكون حالاً ثالثة من مفعول «تَرَاهُمْ» وأن تكون من الضمير المستتر في «رُكَّعاً سُجَّداً». وجوز أبو البقاء أن يكون «سُجَّداً» حالاً من الضمير في «رُكَّعاً» حالاً مقدرةً. فعلى هذا يكون «يَبْتَغُونَ» حالاً من الضمير في «سُجَّداً»، فيكون حالاً من حال، وتلك الحال الأولى حالٌ من حالٍ أخرى[٨]. وقرأ ابن يَعْمَرَ[٩] أَشِدَّا[١٠] ـ بالقصر ـ. والقَصْرُ من ضرائر الأشعار كقوله:

---

(١) ما بين القوسين الكبيرين كله سقط من نسخة ب.

(٢) وكلام ابن الخطيب على اعتبار أن «أشداء» خبر «محمد» قال: وثالثها وهو مستنبط وهو أن يقال: محمد مبتدأ و «رسول الله» عطف بيان للمدح للتمييز و «الذين معه» عطف على «محمد» وقوله «أشداء» خبر انظر الرازي ٢٨/ ١٠٧.

(٣) الرازي السابق.

(٤) في الكشاف: على المدح وهو الأصح وهي في البحر ولم أجدها في المتواتر عنه. انظر الكشاف والبحر المرجعين السابقين.

(٥) انظر محتسب ابن جني ٢/ ٢٧٦ وهي شاذة وانظر كذلك الكشاف والبحر السابقين.

(٦) انظر المحتسب والبحر السابقين.

(٧) وهو قوله: «يبتغون» وفي التبيان: ويجوز أن يكون «تَرَاهُمْ» مستأنفاً. وانظر التبيان ١١٦٨.

(٨) انظر التبيان المرجع السابق.

(٩) هو يَحْيَى بن يَعْمَرَ العالِمُ البَصْرِيّ الكبير الذي مرّ ترجمته.

(١٠) وهي شاذة كما أخبر أعلى انظر البحر ٨/ ١٠٢ ومختصر ابن خالويه ١٤٢.

٤٤٩٧ ـ لاَ بُدَّ مِنْ صَنْعَا وإِنْ طَالَ السَّفَرْ ....[١]

فلذلك كانت شاذة. وقال أبو حيان: وقرأ عمرو بن عبيد: ورُضْوَاناً بضم الراء[٢] قال شهاب الدين: وهذه قراءة متواترة[٣]، قرأ بها عاصمٌ في رواية أبي بكر عنهُ، وتقدمت في سورة آل عمران[٤] واستثنيت له حرفاً واحداً وهو ثاني المائدة[٥].

فصل

معنى الآية: «أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّار» أي غِلاظٌ عليهم كالأسد على فريسته، لا تأخذهم فيهم رأفة «رُحَمَاءُ بينهم» متعاطفون متوادُّون بعضهم لبعض كالوالد مع الوَلَد كقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ و «تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً» خبر عن كثرة صلاتهم ومداومتهم عليها «يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ»، أن يدخلهم الجنة «وَرِضْوَاناً» أي يرضى عنهم. وهذا تمييز لركوعهم وسجودهم عن ركوع الكافر وسجوده وركوع المرائي وسجوده فإنه لا يبتغي به ذلك.

قوله: «سِيمَاهُمْ» قرىء سِيمياؤُهُمْ[٦] بياء بعد الميم والمد. وهي لغة فصيحة، وأنشد ـ (رحمه الله عليه)[٧]:

٤٤٩٨ ـ غُلاَمٌ رَمَاهُ اللَّهُ بالْحُسْنِ يَافِعاً لَهُ سِيـمْيَـاءُ لا تُشَـقُّ عَـلَـى الـبَـصَـر[٨]

وتقدم الكلام عليها وعلى اشتقاقها في آخر البقرة[٩].

---

(١) صدر بيت من الرجز لشاعر لم أعرفه وهو من الأبيات المشهورة في النحو عجزه:

.... وَإِنْ تَـحَـنَّـى كُـلُّ عَـوْدٍ وَدَبِـرْ

وتَحَنَّى معناه انحنى من حَنَى ظَهْرَهُ إِذَا احْدَوْدَبَ، والعَوْدُ المسنُّ من الإبل ودبر من دَبِر البعيرُ يدبر دبرة ودبراً إذا فقر ظهره. والشاهد: قصر «صنعاء» وهي المعروفة في اليمن. وذلك ضرورة للوزن. وانظر حاشية الصبان ٤/ ١٠٩ والهمع ٢/ ١٥٦ والبحر ٨/ ١٠٢ والتصريح ٢/ ٢٩٣.

(٢) البحر ٨/ ١٠٢. (٣) ذكرها صاحب الإتحاف ٣٩٦.

(٤) فقد تكررت في آل عمران من الآية ١٥ ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ﴾ و١٦٢ و١٧٤ من نفس تلك السورة.

(٥) وهو قوله: «يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً» الآية ٢ منها. هذا ولم أجد هذه القراءة لا في آل عمران ولا في غيرها وردت في المتواتر فهي من القراءات العشرية وانظر التقريب لابن الجزري ١٧٤.

(٦) في ب سيماهم تحريف من الناسخ وقد ذكر هذه القراءة دون نسبة أبو حيان في البحر ٨/ ١٠٢ ورسمها المؤلف هكذا بهمزة مضمومة بعد الألف بينما وجدت في البحر سيمياهم وأوردها ابن خالويه كما كتبها المؤلف. انظر المختصر ١٤٣.

(٧) زيادة من أ.

(٨) من الطويل لأسيد بن عنقاء. وشاهدة في السيمياء فهي بمعنى العلامة. وقد تقدم.

(٩) من الآية ٢٣٧: ﴿تعرفهُمْ بِسِيماهُمْ لا يَسْأَلُونَ الناس إلْحَافاً﴾، وبين هناك أن الأصل فيها الواو فقلبت ياء لكسرة السين «سِوْمَاهُمْ» وهي تُمَدّ وتقصر ويقال فيها السِّيماء وسِيْمِيَاء. ومعنى البيت حينئذ: أن هذا الغلام جميل يفرح به من ينظر إليه. وانظر اللباب ١/ ٤١٧ ب واللسان والصحاح سوم.

و «فِي وُجُوهِهِمْ» خبر «سِيمَاهُمْ» و «مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ» حال من الضمير المستتر في الجار وهو «في وُجُوهِهِمْ»[١]. وقرأ العامة «مِنْ أَثَرِ» بفتحتين. وابن هرمُز بكسر وسكون[٢]. وقتادة «مِنْ آثار» جمعاً[٣].

فصل

المعنى: علامتهم في وجوههم من أثر السجود. وقيل: المراد سيماهم نورٌ وبياضٌ في وجوههم يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]. رواه عطيةُ العَوْفيُّ عن ابن عباس. وقال عطاء بن أبي رباح والربيع بن أنس: استنارة وجوههم من كَثْرَةِ صلاتهم. وقال شهر بن حوشب: تكون مواضع السجود من وجوههم كالقمر ليلة البدر. وروى الوالبيُّ عن ابن عباس: هو السَّمْتُ الحسن والخشوعُ والتواضع وهو قول مجاهد. والمعنى أن السجود أورثهم الخشوعَ والسَّمْتَ الحسن الذي يعرفون به. وقال الضحاك: صفرة الوجوه. وقال الحسن ـ رضي الله عنه ـ: إذا رأيتهم حسبتهم مرضى وما هم بمرضى. وقال سعيد بن جبير وعكرمة: هو أثر التراب على الجِبَاه. وقيل: المراد ما يظهر في الجباه بكثرة السجود[٤].

قوله: «ذَلكَ مَثَلُهُمْ»، «ذلك» إشارة إلى ما تقدم من وصفهم بكونهم أشدَّاءَ رُحَمَاءَ لهم سِيمَا في وجوههم وهو مبتدأ خبره «مَثَلُهُمْ» و «فِي التَّوْرَاةِ» حال من «مَثَلَهُمْ» والعامل معنى الإشارة.

قوله: «وَمَثَلُهُمْ فِي الإنْجِيلِ» يجوز فيه وجهان:

أحدهما: أنه مبتدأ وخبره «كَزَرْعٍ» فيوقف على قوله: «فِي التَّوْرَاةِ» فهما مَثَلانِ. وإليه ذهب ابن عباس ـ (رضي الله عنهما[٥])[٦] ـ.

والثاني: أنه معطوف على «مَثَلُهُمْ» الأول فيكون مثلاً واحداً في الكتابين ويوقف حينئذ على: في الإنجِيلِ وإليه نحا مُجاهدٌ[٧]، والفراء[٨].

وعلى هذا يكون قوله «كَزَرْعٍ» فيه أوجه:

أحدها: أنه خبر مبتدأ مضمر أي مثلهم كزرع فسر بها المثل المذكور.

---

(١) التبيان ١١٦٨ و١١٦٩.

(٢) و (٣) كلتاهما شاذَّتانِ. وانظر البحر ٨/ ١٠٢ والكشاف ٣/ ٥٥٠.

(٤) انظر هذه الأقوال في القرطبي ١٦/ ٢٩٣ و٢٩٤.

(٥) زيادة من أ الأصل.

(٦) القرطبي ١٦/ ٢٩٤.

(٧) السابق.

(٨) قال في المعاني ٣/ ٦٩: «وقوله: ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَفِي الإنجيل أيضاً كمثلهم في القرآن» وانظر أيضاً البحر ٨/ ١٠٢ والتبيان ١١٦٩.

الثاني: أنه حال من الضمير في «مَثَلُهُمْ» أي مُمَاثِلِينَ زَرْعاً هذِهِ صِفَتُهُ.

الثالث: أنها نعت مصدر محذوف أي تمثيلاً كزرعٍ. ذكره أبو البقاء[١].

وقال الزمخشري: ويجوز أن يكون «ذلك» إشارة مبهمةً أوضحت بقوله: «كزرع»، كقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ﴾ [الحجر: ٦٦].

قوله: «أَخْرَجَ شَطْأَهُ» صفة لـ «زَرْع». وقرأ ابنُ كثير وابنُ ذَكْوَان[٢] بفتح الطاء والباقون بإسكانها. وهما لغتان كالنَّهْر والنَّهَر. وقرأ أبو حَيْوة: شَطَاءَهُ بالمد[٣]. وزيد بن علي: شَطَاهُ[٤] بألف صريحة بعد الطاء فيحتمل أن تكون بدلاً من الهمزة بعد نقل حركتها إلى الساكن قبلها على لغة من يقول: المِرَاةُ والكَمَاةُ[٥] بعد النقل. وهو مقيسٌ عند الكوفيين[٦]. ويحتمل أن يكون مقصوراً من الممدود[٧]. وأبو جعفر ونافع[٨] ـ في رواية ـ «شَطَهُ» بالنقل[٩] والحذف[١٠]. وهو القياس[١١]. والجَحْدَرِيُّ شَطْوَهُ أبدل الهمزة واواً[١٢]، أو يكون لغة مستقلة. وهذه كلها لغات في فِرَاخ الزرع، يقال: شَطَا الزرعُ وأَشْطَأ أي أَخْرَجَ فِرَاخَهُ. وهل يختص ذلك بالحِنْطَةِ فقط أو بها وبالشعير فقط أو لا يختص؟ خلافٌ مشهور[١٣]. قال الشاعر:

---

(١) انظر هذه الإعرابات في المرجع السابق. وذكر الوحه الأول أبو حيان في بحره ٨/ ١٠٢.

(٢) مع ابن عامر وهي سبعية متواترة انظر السبعة ٦٠٤ والكشف ٢/ ٢٨٢ والإتحاف ٣٩٦ وقد وافقهم ابن محيصن أيضاً. وانظر أيضاً الكشاف ٣/ ٥٥١ والبحر ٨/ ١٠٢ والقرطبي ١٦/ ٢٩٥.

(٣) شاذة. انظر الكشاف والبحر السابقين. وهي قراءة عيسى الهمداني فيما رواه ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٧٦ بينما نسبها ابن خالويه في المختصر ١٤٢ لأبي حيوة كالمؤلف ولابن أبي عبلة ولعيسى البصري الثقفي.

(٤) البحر والكشاف السابقين. ونسبها ابن جني في المحتسب لعيسى ٢/ ٢٧٧ بينما سكت عنها ابن خالويه ولم يأت بها. والزمخشري على عادته أتى بها قراءةً دون نسبة بينما نسبها الإمام القرطبي لأنسٍ ونَصْر بن عاصم وابن وثاب وهي شاذة كسابقتها.

(٥) مخفف المرأة والكَمأة.

(٦) وشاذ عند البصريين لا يقاس عليها لأن الهمزة ليست حرف علة حتى يكون فيها إعلال على خلاف في إجازة البعض فيها من اعتبارها رابعة مع حروف العلة الثلاثة.

(٧) انظر البحر ٨/ ١٠٣.

(٨) لم أجدها في المتواتر عنهما. كما رويت عن شَيْبَةَ والجَحْدرِيِّ. انظر البحر السابق والكشاف ٣/ ٥٥١ ومختصر ابن خالويه ١٤٢.

(٩) نقل حركة الهمزة إلى الطاء.

(١٠) حذف الهمزة المنقول حركتها.

(١١) حيث نقل ثم حذف المنقول منه وهو غير حرف علة وقد عبر سيبويه عن مذهب الكوفيين بعدما حكاه بقوله «وهو قليل». وانظر في نقل حركة الهمزة وحذفها وإثباتها شرح الشافية للرضيّ ٣/ ٤٠ و٤١.

(١٢) ذكرها أبو الفتح في المحتسب ٢/ ٢٧٧ وانظر الكشاف والبحر السابقين وهي شاذة.

(١٣) واختار ابن جني أن يكون في البُرِّ والشعير وكذلك الفراء في المعاني ٣/ ٦٩. وقيل: إن الشَّطء شوك =

٤٤٩٩ ـ أَخْرَجَ الشَّطْءَ عَلَى وَجْهِ الثَّرَى   وَمِنَ الأَشْجَارِ أفنانُ الثَّمَرْ[(١)]

قوله: «فآزَرَهُ» العامة على المد وهو على «أَفْعَلَ»[(٢)]. وَغلَّطوا من قال: إنه فاعل كَجَاهَرَ[(٣)] وغَيْرِه بأنه لم يسمع في مضارعه: يُؤَازِرُ على يؤزر[(٤)]. وقرأ ابن ذكوان: فَأَزَرَه مَقصُوراً، جعله ثلاثياً[(٥)]. وقرىء «فأزَّرَهُ» بالتشديد[(٦)]. والمعنى في الكل: قوّاه. وقيل: ساواه، وأنشد:

٤٥٠٠ ـ بِمَحْنِيَةٍ قَدْ آزَرَ الضَّالَ نَبْتُهَا   مَجَرَّ جُيُوشٍ غَانِمِينَ وَخُيَّبِ[(٧)]

قوله: «عَلَى سُوقِهِ» متعلق بـ «اسْتَوَى». ويجوز أن يكون حالاً أي كائناً على سوقه أي قائماً عليها.

وقد تقدم في النمل[(٨)] أنَّ قُنبلاً[(٩)] يقرأ سُؤْقِهِ بالهمزة الساكنة[(١٠)]. كقوله:

٤٥٠١ ـ أَحَبُّ الْمُؤْقِدِينَ إِلَيَّ مُؤْسَى   ....[(١١)]

= السنبل والعرب أيضاً تسمية السَّفَا. وهو شوك البهْمَن قاله قطرب. وهناك كلام كثير وآراء ذكرت لابن الأعرابيِّ وغيره ولكن الغالبية أكدت أنه في البر والشعير. انظر القرطبي ١٦/ ٢٩٤ و٢٩٥ وغريب القرآن ٤١٣ والمجاز ٢/ ٢١٨.

(١) من الرمل ولم أهتدِ إلى مُنْشِدِهِ.
والشاهد: في الشطء فهو بمعنى الزرع المخروج. قال الفراء: أشطأ الزرعُ فهو مُشطِىء. وانظر البحر المحيط ٨/ ١٠٢ وفتح القدير للشوكاني ٥/ ٥٦ والقرطبي ١٦/ ٢٩٤.

(٢) فيكون ثلاثيًا مزيداً بهمزة، كأكْرَمَ وأحْسَنَ.

(٣) كذا في النسختين وهو الظاهر وفي البحر مصدر المؤلف: كمُجَاهِدٍ وغيره.

(٤) في ب: لم يسمع في مضارعه بأنه تؤازر بل تؤزر. وانظر البحر ٨/ ١٠٣.

(٥) ذكرها البحر في ٨/ ١٠٣ والكشاف في ٣/ ٥٥١ ولكن بلا تحديد من قرأ بها. وانظر القرطبي ١٦/ ٣٩٥ وأضَافَ لابن ذكوان حميد بْنَ قَيْس.

(٦) لم ينسبها أبو حيان ولا الزمخشري في مرجعيهما الماضيين وَهِيَ شاذة كسابقتيها.

(٧) من الطويل لامرىء القيس. والمحنية واحدة المَحَانِي وهي معاطف الأودية والضال شجرة السدر. والمعنى في معطفِ وادٍ قد ساوى نبته شجر الضال وهو مجمع جيوش بعضها غانم وبعضها خائب من الغنيمة.
(انظر مجمع البيان للطبرسي ٩/ ١٨٩، وفتح القدير ٥/ ٥٩ والقرطبي ١٦/ ٢٩٥، والبحر ٨/ ٨٨ وروي في مجمع البيان «مضمّ جيوش». وفي البحر «بجرّ». وانظر الديوان ٤٥).

(٨) من الآية ٤٤ منها حيث يقول الله: ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا﴾.

(٩) في ب قنبل بغير نَصْب. تحريف.

(١٠) وهي قراءة ابن كثير أيضاً فيما رواه أبو حيان في البحر ٨/ ١٠٣ وابن مجاهد في السبعة ٦٠٥ ومكي في الكشف ٢/ ٢٨٣ والإتحاف ٣٩٦ ٣٩٧. وهي سبعية متواترة.

(١١) صدر بيت من الوافر لجرير عجزه:
....   وَجَعْدَةُ إِذَا أَضَاءَهُمَا الْوَقُودُ
من قصيدة له يمدح بها هشام بن عبد الملك، وقد روي قوله: أحبُّ هكذا على أنه تفضيل. كما=

وبهمزة مضمومة بعدها واو كعروج وتوجيه ذلك. والسُّوق جمع سَاقٍ.

(«فصل»[١]).

قال المفسرون: يقال: أشطأ الزرع فهو مُشْطِىء إذا خَرَجَ. قال مقاتل: هو نبت واحد فإذا خرج بعده فهو شطء. وقال السُّديّ: هو أن يخرج معه الطاقة الأخرى «فَآزَرَهُ» قَوَّاهُ وأَعَانَهُ وشدَّ أزره «فَاسْتَغْلَظَ» غَلُظَ ذلك الزرع «فَاسْتَوَى» تَمَّ وتَلاَحَقَ نَبَاتُهُ عَلَى سُوقِهِ أصوله «يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ» أي أعجب ذلك زُرَّاعَهُ هذ مثل ضربهُ الله لأصحاب محمد ـ ﷺ ـ في الإنجيل أنهم يكونون قَليلاً ثم يَزْدَادُونَ ويَكْثُرُونَ. قال قتادة: مَثَلُ أصحاب محمد ـ ﷺ ـ في الإنجيل مكتوب له سيخرج قومٌ يَنْبتُونَ نبات الزرع يأمرُون بالمعروف وينهوْن عن المنكر. وقيل: الزرع ـ محمد ـ ﷺ ـ والشطء أصحابه والمؤمنون. روى مبارك بن فُضَالة عن الحَسَن قال: محمد رسول الله والذين معه: أبو بكر الصديق «أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ» عمر بن الخطاب «رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ» عثمان بن عفان «تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً» علي بن أبي طالب «يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ» العشرة المبشرون «كَمَثَلِ زَرْعٍ» محمد «أَخْرَجَ شَطْأَهُ» أبو بكر «فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ» عثمان (بن عفان) يعني استغلظ عثمان بالإسلام «فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ» علي بن أبي طالب استقام الإسلام بسيفه «يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ» قال: المؤمنون «لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ» فعل عمر لأهل مكة بعدما أسلم لا يُعبد الله سرًّا بعد اليوم. روى أنس بن مالك: ـ رضي الله عنه ـ عن النبيّ ـ ﷺ ـ قال: أَرْحَمُ (أَصْحَابِ) النَّبِيِّ أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهُمْ فِي أَمْرِ اللَّهِ عُمَرُ، وَأَصْدَقُهُمْ حُبًّا عُثْمَانُ وَأَفْرَضُهُمْ زيدٌ، وَأَقْرأُهُمْ أَبيٌّ، وَأَعْلَمُهُمْ بالحلال وَالْحَرام مُعاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَلِكُلِّ أُمَّة أَمِينٌ وَأَمِين هَذِهِ الأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ، وفي رواية أخرى: وَأَقْضَاهُمْ عَلِيٌّ. وروى بريدةُ عن النَّبي ـ ﷺ ـ قال: مَنْ مَاتَ مِنْ أَصْحَابِي بِأَرْض كان نُورَهُمْ وَقَائِدَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[٢].

قوله: «يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ» حال أي معجباً[٣]. وهنا تم المَثَلُ.

قوله: «لِيَغِيظَ» فيه أوجهٌ:

أحدها: أنه متعلق بـ «وَعَدَ»؛ لأن الكفار إذا سمعوا بعزِّ المؤمنين في الدنيا وما أعد لهم في الآخرة غَاظَهُمْ ذلك[٤].

= روي لحب بلام ابتداء وروي: لحب الموقدان باللام بعدها فعل تعجب وموسى وجعدة ابنا الشاعر. والبيْت فيه همز الواو. قيل وجه ذلك أن الواو لما جاورت الضمة صارت كأنها مضمومة والواو المضمومة تهمز نحو نؤور وغؤور. وقد تقدم.

(١) انظر هذا الفصل في القرطبي ١٦/ ٣٩٤ و٢٩٥ والبحر ٨/ ١٠٢ و١٠٣.

(٢) البغوي في معالم التنزيل ٦/ ٢١٦ و٢١٧ وهذا وما بين القوسين كله ساقط من نسخة ب.

(٣) التبيان ١١٦٩ وانظر البحر المحيط أيضاً ٨/ ١٠٢ و١٠٣.

(٤) قاله أبو حيان في البحر ٨/ ١٠٣.

الثاني: أن يتعلق بمحذوف دل عليه تشبيهُهُمْ بالزرع في نمائِهِمْ وتقويتهم. قاله الزمخشري[١]، أي شبههم الله بذلك ليغيظ.

الثالث: أن يتعلق بما دل عليه قوله: «أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ....» إلى آخره أي جعلهم بهذه الصفات ليغيظ.

قال مالك بن أنس ـ (رضي الله عنه)[٢] ـ «مَنْ أَصْبَحَ فِي قَلْبِهِ غَيْظٌ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ـ ﷺ ـ فَقَدْ أَصَابَتْهُ هَذِهِ الآيَةُ»[٣]. وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «اللَّهَ اللَّهَ فِي أَصْحَابِي لاَ تَتَّخِذُوهُمْ عَرَضاً بَعْدِي، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ[٤] فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدَ أذانِي وَمَنْ أَذَانِي فَقَدْ أَذَى اللَّه فَيُوشِكُ أَنْ يَأخُذَهُ»[٥]. وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِم وَلاَ نَصِيفَهُ»[٦].

قوله: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ» «مِنْ» هذه للبيان، لا للتبعيض؛ لأن كلهم كذلك فهي كقوله: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ﴾ [الحج: ٣٠]. وقال الطبري: منهم يعني من الشطء الذي أخرج الزرع، وهم الداخلون في الإسلام إلى يوم القيامة، فَأَعَادَ الضمير على معنى الشطء لا على لَفْظِهِ فقال: «مِنهُمْ» ولم يقل: مِنْه وهو معنًى حَسَنٌ[٧].

فصل

قد تقدم الكلام على الأجر العظيم والمغفرة مراراً. وقال ههنا في حق الراكعين السَّاجدين: إنهم يَبْتَغُونَ فضلاً من الله ورِضْواناً وقال: «لهم أجر» ولم يقل: لهم ما يطلبو (نَـ)[٨] ـه من الفضل؛ لأن المؤمن عند العمل لم يلتَفِتْ إلى عمله ولم يجعل له أجراً يعتدّ به فقال: لا أبتغي إلا فضلك فإن عملي نَزْرٌ لا يكون له أجرٌ والله تعالى آتاه[٩] من طلب الفضل، وسماه أجراً إشارةً إلى قبوله[١٠] عمله ووقوعه الموقع[١١].

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٥١ وقد قال بالوجه الأول فقط. (٢) زيادة في أ الأصل.

(٣) ذكره عنه الخطيب أبو بكر فيما نقله عنه الإمام القرطبي في الجامع ١٦/ ٢٩٦ و٢٩٧ وقد رواه عن مالك أبو عروة الزبيري انظر المرجع السابق.

(٤) في أ الأصل: أبغضني ولعله سهو من الناسخ.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن مُغَفَّل المُزَنيّ ٤/ ٨٧ و٥٥ و٥٧.

(٦) القرطبي ١٦/ ٢٩٧ والبخاري ٢/ ٢٩٢. (٧) جامع البيان له.

(٨) في النسختين يطلبوه. والتصحيح ما أثبت أعلى.

(٩) في الرازي: آتاه ما آتاه من الفضل. (١٠) في ب والرازي: قبول بدون عائد.

(١١) انظر الرازي ٨/ ١٠٩.

روي أنه من قرأ في أول ليلة من رمضان: إِنَّا فَتَحْنَا لكَ فَتْحاً مُبِيناً فِي التَّطَوع حُفِظَ في ذلك العام (انتهى)[١]. (اللَّهم إنِّي أَسْأَلُكَ رِضَاكَ والْجَنَّة وأَعُوذُ بك من سَخَطِكَ والنَّارِ)[٢].

(١) زيادة من ب.

(٢) زيادة من أ الأصل.

سورة الحجرات

مدنية[١] وهي ثَمَانِي[٢] عَشْرَةَ آيةً، وثلثمائة وثلاث وأربعون كلمة وألف وأربعمائة وستة وسبعون حرفاً[٣].

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: **﴿يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾** قرأ العامة بضم التاء وفتح القاف وتشديد الدال مكسورة. وفيها وجهان:

أحدهما: أنه متعدٍّ، وحذف مفعوله إما اقتصاراً كقوله: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾[٤] وكقولهم: «هُوَ يُعْطِي ويَمْنَعُ»، و «كُلُوا واشْرَبُوا» وإما اختصاراً للدلالة عليه أي لا تقدموا ما لا يصلح.

والثاني: أنه لازم نحو: وَجه وتَوَجَّه. ويعضده قراءة ابن عباس والضحاك: لاَ تَقَدَّمُوا بالفتح في الثَّلاثَةِ. والأصل لا تتقدموا فحذف إحدى التاءين. وبعض المكيين لا تقدموا كذلك إلا أنه بتشديد التاء كتاءات[٥] البَزّي والمتوصل إليه بحرف الجر في هاتين القراءتين أيضاً محذوف أَيْ لا تَتَقَدَّموا إلى أمر من الأمور[٦].

---

(١) بإجماعهم. انظر القرطبي ١٦/ ٣٠٠.
(٢) في ب ثمانية لحن نحوي.
(٣) البغوي ٦/ ٢١٧.
(٤) من آيات كثيرة في القرآن فهي من الآية ٢٥٨ من البقرة، ٥٦ من آل عمران، ٥٨ من الأعراف، ١٦ من التوبة، ٥٦ من يونس، ٨٠ من المؤمنون، ٦٨ من غافر، ٨ من الدخان، ٢ من الحديد.
(٥) كذا في أ وفي ب كقراءة.
(٦) وانظر هذا كله في البحر المحيط ٨/ ١٠٥ أقول: وقراءة الضحاك هي قراءة يعقوب وهي من العشر المتواترة انظر تقريب النشر ١٧٥ أما قراءة البزي فهي من الشواذ.

وعلى هذا فهو مجاز ليس المراد نفس التقديم بل المراد لا تجعلوا لأنْفُسكم تقدماً عند النبيّ ـ ﷺ ـ يقال: لفلان تقدم من بين الناس إذا ارتفع أمْرُهُ، وعَلاَ شَأْنُهُ[١]. وقرىء: لا تُقْدموا ـ بضم التاء وكسر الدال ـ من أقدم أي لا تُقْدِمُوا على شيءٍ[٢].

فصل

في بيان حسن الترتيب وجوه:

أحدها: أنهم في السورة المتقدمة[٣] لما جرى منهم ميلٌ إلى الامتناع مما أجاز النبي ـ ﷺ[٤] ـ من الصلح، وألزمهم الله كلمة التقوى قال لهم على سبيل العموم: لا تقدموا بين يدي الله ورسوله أي لا تتجاوزوا ما أتى من الله تعالى ورسوله.

الثاني: أنه تعالى لما بين علو درجة النبي ـ ﷺ ـ بكونه رسوله الذي يظهر دينه وأنه بالمؤمنين رحيمٌ قال: لا تتركوا من احترامه شيئاً لا بالفعل ولا بالقول وانظروا إلى رفعة درجته.

الثالث: أنه تعالى وصف المؤمنين بأنهم أشداء ورحماء فيما بينهم وبكونهم راكعين ساجدين[٥] وذكر أن لهم من الحرمة عند الله ما أورثهم حسن الثناء في الكتب المتقدمة بقوله: «ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإنْجِيلِ»، فإن المَلكَ العظيم لا يذكر أحداً في غيبته إلا إذا كان عنده محترماً ووعدهم بالأجر العظيم فقال في هذه السورة لا تفعلوا ما يوجب انْحِطَاط درجاتكم وإحباطَ حَسَنَاتِكم (ولا تقدموا)[٦].

فصل في سبب النزول

روى الشعبي عن جابر أنه في الذبح يوم الأضحى قبل الصلاة وهو قول الحسن أي لا يذبحوا قيل أن يذبح النبي ـ ﷺ ـ وذلك أن ناساً ذبحوا قبل النبي ـ ﷺ ـ فأمرهم أن يُعِيدُوا الذَّبحَ، وقال: «من ذَبَحَ قَبْلَ الصَّلاَةِ فَإنَّمَا هُوَ لَحْمٌ عَجَّلَهُ لأَهْلِهِ لَيْسَ مِنَ النُّسُك فِي شَيْءٍ». وروي عن مسروق عن عائشة أنه في النهي عن صوم الشك أي لا تصوموا قبل أن يصوم نبيكم. وروى ابن الزبير أنه قدم ركبٌ من بني تميم على النبي ـ ﷺ ـ فقال أبو بكر: أمر القَعْقَاع بن معبد بن زرارة. وقال عمر: بل أمر الأقرعَ بن حابس. قال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، قال عمر: ما أردت خلافَك فَتَمَارَيَا حتى ارتفعت أصواتهما فنزلت: «يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله»؛ قال (ابن[٧]) الزبير: فكان

---

(١) البحر والرازي ٢٨/ ١١٣.

(٢) ذكرها الإمام الفخر الرازي في تفسيره السابق دون نسبة وهي شاذة.

(٣) وهي سورة محمد.

(٤) في ب: عليه الصلاة والسلام.

(٥) في ب وساجدين.

(٦) زيادة من أ كالرازي تماماً.

(٧) سقطت من أ الأصل.

عمر لا يسمع رسول الله ـ ﷺ ـ (بعد[١] هذه الآية) حتى يستفهمه. وقيل: نزلت في جماعة أكثروا من السؤال. وقال مجاهد: لا تَفْتَاتُوا[٢] على رسول الله ـ ﷺ ـ بشيء حتى يَقْضِيَهُ الله على لسانه. وقال الضحاك: يعني في القتال وشرائع الدين، أي لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله. قال ابن الخطيب: والأصحّ أنه إرشاد عام يشتمل الكل ومنع مطلق يدخل فيه كل افْتِيَاتٍ وتقدُّم واستبدادٍ بالأمر وإقدامٍ على فعلٍ غيرِ ضروري من غير مُشَاوَرةٍ[٣].

فصل

ومعنى بين يدي الله ورسوله أي بحضرتهما؛ لأن ما[٤] يحضره الإنسان فهو بين يديه ناظر إليه. وفي قوله: «بين يدي الله ورسوله» فوائد:

إحْدَاهَا: أن قول الإنسان فلان بين يدي فلان إشارة إلى أن كل واحد منهما حاضر عند الآخر مع أن لأحدهما علو الشأن وللآخر درجة العبيد والغِلْمَان؛ لأن من يجلس بجنب الإنسان[٥] يكلفه تَقْلِيب الحَدَقَة[٦] إليه وتحريك الرأس إليه عند الكلام ومن يجلس بين يديه لا يكلفه ذلك ولأن اليدين[٧] تنبىءُ عن القدرة لأن قول الإنسان: فلانٌ بين يدي فلان أي يُقَلِّبه كيف يشاء في أشغاله كما يفعل الإنسان بما يكون موضوعاً بين يديه وذلك يفيد وجوب الاجْتِنَاب من التَّقَدُّم.

وثانيها: ذكر الله إشارة إلى وجوب احترام الرسول والانقياد لأوامره، لأن احترام الرسول احترام للمرسل، لكن احترام الرسول قد يترك لأجل بُعد المرسل وعدم اطّلاعه على ما يفعل برسوله فقوله: «بين يدي الله» أي أنتم بحضرة من الله وهو ناظر إليكم. وفي مثل هذه الحال يجب احترام رسوله.

وثالثها: أن العبارة[٨] كما تقرر النهي المتقدم تقرر الأمر المتأخِّر، وهو قوله: «واتّقوا الله» لأن من يكون بين يدي الغير كالمتاع الموضوع بين يديه يقلبه كيف يشاء يكون جديراً بأن يتقيه[٩]، وقوله: «وَاتَّقُوا الله» أي في تضييع حقه، ومخالفة أمره «إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ» لأقوالكم، «عَلِيمٌ» بأفعالكم.

---

(١) ما بين القوسين سقط من نسخة ب. وانظر الفقرة أو الفصل الأول في الرازي ٢٨/ ١١٠ والثاني في القرطبي ١٦/ ٣٠٠ و٣٠١ والبغوي في معالم التنزيل ٦/ ٢١٨.

(٢) أي لا تبتدعوا من افتات الكلام ابْتَدَعَهُ.

(٣) الرازي السابق.

(٤) وفي ب من التي للعاقل وهو رأي الرازي في مرجعه السابق.

(٥) في ب إنسان منكراً.

(٦) وهي العين.

(٧) في ب إليه بدل اليدين.

(٨) في النسختين العادة وفي الرازي: العبادة.

(٩) وانظر هذا كله في تفسير الإمام ٢٨/ ١١٣.

قوله (تعالى[١]): ﴿يأيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ في إعادة النداء فوائد منها أن في ذلك بيان زيادة الشفقة على المسترشد، كقول لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ [لقمان: ١٣] ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ [لقمان: ١٦] ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [لقمان: ١٧]، لأن النداء تنبيه للمنادى ليقبل على استماع الكلام ويجعل بالَه منه، فإعادته تفيد تجدد ذلك. ومنها: أن لا يتوهم متوهم أن المخاطبَ ثانياً غير المخاطب الأول، فإن من الجائز أن يقول القائل: يا زيدُ افعلْ كذا وكذا يا عمرو، فإذا أعاد مرة أخرى وقال: يا زيد قل كذا (يا زيد[٢] قل كذا (وقل كذا)) يعلم أن المخاطب أولاً هو المخاطب ثانياً. ومنها أن يعلم أن كل واحد من الكلامين مقصود، وليس الثاني تأكيداً للأول كقولك: يَا زَيْدُ لا تَنْطق ولا تَتَكَلَّم إلا الحق فإنه لا يحسن أن تقول: يا زيدُ لا تَنْطقْ يا زيدُ لا تَتَكَلَّمْ كما يحسن عند اختلاف المطلوبين.

فصل

قوله: ﴿لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ يحتمل أن يكون المراد حقيقة رفع الصوت، لأن ذلك يدل على قلة الاحتشام، وتركُ الاحترام، وهو أن رفع الصوت يدل على عدم الخَشْيَة؛ لأن من خَشِيَ قلبُه ارْتَجَفَ وضَعُفَتْ حركته الدافعة فلا يخرج منه الصوت بقوة، ومن لم يخف ثبت قلبه وقويت حركته الدافعةُ، وذلك دليلٌ على عدم الخشية. ويحتمل أن يكون المراد المنع من كثرة الكلام، لأن من كَثُر كلامه يكون متكلماً عند سكوت الغير فيبقى لصوته ارتفاعٌ وإن كان خائفاً فلا ينبغي أن يكون لأحد عند النبي ـ ﷺ ـ كلامٌ كثير بالنسبة إلى كلام النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأن النبي ـ ﷺ[٣] ـ مُبَلِّغ فالمتكلمُ عنده إن أراد الإخبار لا يجوزُ له، وإن سأل فإن النبي ـ ﷺ[٤] ـ لَمَّا وجب عليه البيان فهو لا يسكت عما سُئِل، وإن لم يُسْأَل فربما يكون في الجواب تكليف لا يسهل على المكلف الإتيان به فيبقى في ورْطَة العِقَاب كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١].

ويحتمل أن يكون المراد رفع الكلام بالتعظيم، أي لا تجعلوا لكلامكم ارتفاعاً على كلام النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ في الخطاب. والأول أوضح والكل يدخل في المراد[٥]. قال المفسرون: معناه بَجِّلُوه وفَخِّموهُ ولا ترفعوا أصواتكم عنده ولا تنادوه كما ينادي بعضكم بعضاً[٦]. روى أنس بن مالك (رضي الله عنه[٧]) قال: لما نزل قوله

---

(١) زيادة من أ.

(٢) ما بين القوسين الكبيرين زيادة على الرازي وما بين القوسين الصغيرين هما اللذان في ب.

(٣) في ب عليه الصلاة والسلام.

(٤) في ب عليه الصلاة والسلام كذلك.

(٥) وانظر تفسير الإمام ٢٨/ ١١٢ و١١٣.

(٦) قاله البغوي في تفسيره ٦/ ٢١٩.

(٧) زيادة من أ.

تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِي﴾ جلس ثابتُ بنُ قيسٍ في بيته، وقال: أنا من أهل النار واحتَبَسَ عن النبي ـ ﷺ ـ فسأل النبي ـ ﷺ ـ سعدَ بْنَ معاذ فقال: يا أبا عمرو ما شأنُ ثابت اشتكى؟ فقال سعدٌ: إنه لَجَارِي وما علمت له شكوى قال: فأتاه سعدٌ فَذَكَر له قول النبي ـ ﷺ ـ فقال ثابتٌ: أُنزِلَتْ هذه الآية ولقد عَلِمْتُمْ أنِّي من أَرْفَعِكُمْ صوتاً عَلَى رسول الله ـ ﷺ ـ وأنا من أهل النار فذكر ذلك سعدٌ للنبي ـ ﷺ ـ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: بل هو من أهل الجنة. وروي لما نزلت هذه الآية قَعَدَ ثابتٌ في الطريق يبكي فمر به عاصمُ بْنُ عَدِيٍّ فقال: ما يُبْكِيكَ يا ثابتُ؟ قال: هذه الآية أتخوف أن تكونَ نزلت وأنا رفيعُ الصوت أخاف أن يُحْبَط عملي وأكون من أهل النار فمضى عاصم إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وغلب ثابتاً البكاءُ فأتى امرأته جميلَة بنتَ عبدِ الله بن أبيٍّ ابنِ سلول فقال لها: إذا دخلت فَرَسي فشُدّي على الضَّبَّة بمِسمارٍ، فضربت عليه بمِسْمَارٍ وقال: لا أَخْرُجُ حتى يَتَوفَّانِي الله أو يَرْضَى عنِّي رسولُ الله ـ ﷺ ـ فأتى عاصمٌ رسولَ الله ـ ﷺ ـ فَأَخْبَرَهُ خَبَرَهُ فقال: اذهبْ فادْعُهُ لي فجاء عاصم إلى المكان الذي رآه فيه فلم يجدْه، فجاء إلى أهلِهِ فوجَدَهُ في بيت الفرس فقال له إن رسول الله ـ ﷺ ـ يدعوك فقال له: اكْسِرِ الضَّبة فأتى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ ما يُبْكِيكَ يا ثابت؟ فقال: أنا صيت وأخاف أن تكون هذه الآية نزلت فيّ، فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ أما تَرْضَى أن تعيشَ حميداً وتُقْتَلَ شهيداً وتَدْخُلَ الجنة؟ فقال: رضيتُ بِبُشْرَى الله ورسوله، لا أرفعُ صَوْتي أبداً على صوت رسول الله ـ ﷺ ـ فأنزل الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ﴾ الآية. قال أنس: فكُنَّا ننظر إلى رجلٍ من أهل الجنة يمشي بيننا فلما كان يومُ اليَمَامَة في حرب مُسَيْلِمَةَ رأى ثابتٌ من المسلمين بعض الانكسار فانهزمت طائفةٌ منهم فقال: أفٍّ لهؤلاء ثم قال ثابتٌ لسالمِ مولى أبي حذيفة: ما كنا نقاتل أعداء الله مع رسول الله ـ ﷺ ـ مثل هذا ثُمّ ثَبَتَا وقاتلا حتى قُتِلاَ واستشهد ثابتٌ وعليه دِرْعٌ فرآه رجلٌ من الصحابة بعد موته في المنام قال له: اعلم أن فلاناً رجلٌ من المسلمين نَزَع درعي فذهب بها وهي في ناحية من المعسكر عند فرس يستن (به[١]) في طِوَلِه، وقد وضع على درعي بُرْمَةً؛ فأْتِ خالدَ بْن الوليد وأخْبِرْه حتى يسترد درعي، وأت أبا بكر خليفة رسول الله ـ ﷺ ـ وقُلْ له: إن عليّ دَيْناً حتى يَقْضِيَهُ (عنِّي[٢])، وفلان (وفلان[٣]) من رقيقي عتيق. فأخبر الرجلُ خالداً فوجد دِرْعه والفرسَ على ما وصفهُ فاسْتَرَدَّ الدرع وأخبر خالدٌ أبا بكر بتلك الرؤيا، وأجاز أبو بكر وصيَّتَهُ. قال مالك بن أنس (رضي الله عنه[٤]): لا أعلم وصيةً أُجيزَتْ بعد موت صاحبها إلا هذه[٥].

---

(١) و (٢) و (٣) ما بين الأقواس زيادة من رواية البغوي والخازن. انظر معالمَ التنزيل ولباب التأويل لهما ٦/ ٢١٩.

(٤) زيادة من أ. (٥) المرجعين السابقين

قوله: «وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بالقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ» قال ابن الخطيب: إن قلنا: (إن[١]) المراد من قوله: «لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ» أي لا تُكْثِرُوا الكلام فقوله: «ولاَ تَجْهَرُوا» يكون مجازاً عن الإتيان بالكلام عند النبي ـ ﷺ[٢] ـ بقدر ما يؤتى به عند غيره أي لا تكثروا وقللوا غاية التقليل، وإن قلنا: المراد بالرفع الخطاب فقوله: «لاَ تَجْهَرُوا» أي لا تخاطبوه كما تُخَاطِبُو(نَ[٣]) غيره.

واعلم أن قوله تعالى: ﴿لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾ لما كان من جنس لا تجهروا لم يستأنف النداء، ولما كان مخالفاً للتقدم لكون أحدهما فعلاً والآخر قولاً استأنف كقول لقمان لابنه: «يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ»، وقوله: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاَةَ﴾ لكن الأول من عمل القلب والثاني من عمل الجوارح، فقوله: «يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاَةَ وأمُرْ بِالمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ المُنْكَرِ» من غير استئناف النداء لكون الكل من عملِ الجوارح.

فإن قيل: ما الفائدة من قوله: «وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالقَوْلِ» مع أن الجهر مستفاد من قوله: «لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ»؟.

فالجواب: أن المنع من رفع الصوت هو أن لا يجعل كلامه أو صوته أعلى من كلام النبي ـ ﷺ[٤] ـ أو صوته، والنهي عن الجهر منع من المساواة، أي لا تجهروا له بالقول كما تَجْهَرُو(نَ[٥]) لنظرائكم بل اجعلوا كلمته عُلْيَا[٦].

قوله: «أَنْ تَحْبَطَ» مفعول من أجله. والمسألة من التنازع لأن كلاً من قوله: «لاَ تَرْفَعُوا» و «لاَ تَجْهَرُوا لَهُ» يطلبه من حيث المعنى فيكون معمولاً للثاني عند البصريين في اختيارهم، وللأول عند الكوفيين. والأول أصح للحذف من الأول أي لأن تَحْبَطَ[٧]. وقال أبو البقاء: إنها لام الصَّيرورةِ[٨] و «أَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ» حال.

فصل

معنى الكلام إنكم إن رفعتم أصواتكم وتقدمتم فذلك يؤدي إلى الاستحقار وهو يفضي إلى الارتداد والارتداد محبطٌ. وقوله: «وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ» إشارة إلى أن الردّة تتمكن من النفس بحيث لا يشعر الإنسان فإن من ارتكب ذنباً لم يرتكبه في عمره تراه نادماً غاية الندامة خائفاً غايةَ[٩] الخَوف، فإذا ارتكبه مراراً قلّ خوفه ونَدَامَتُه ويصير عادة

(١) زيادة من أ كالرازي تماماً.
(٢) في ب عليه الصلاة والسلام.
(٣) النون ساقطة من النّسْختَين ولا بدّ منها.
(٤) في ب عليه الصلاة والسلام.
(٥) في ب تجهروا.
(٦) قال بهذا الإمام في تفسيره الكبير ٢٨/ ١١٣.
(٧) قاله أبُو حَيَّانَ في البحر ٨/ ١٠٦.
(٨) وهي لام العاقبة قال: أو لأن تَحْبَطَ على أن تكون اللام لا العاقبة. انظر التبيان ١١٧٠.
(٩) الرازي المرجع السابق. وفيه هكذا وفي ب عليه.

من حيث لا يعلم متى تمكن هذا كان في المرة الأولى أو الثانية أو الثالثة أو غيرها، وهذا كما إذا بلغه خبر فإنه لا يقطع بالمخبر، فإذا تكرر عليه ذلك وبلغ إلى حد التواتر حصل له اليقينُ وتمكن الاعتقاد، ولا يدري متى كان ذلك وفي أي لَمْحَةٍ حَصَلَ هذا اليقين. فقوله: «وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ» تأكيد للمنع أي لا تقولوا بأن المرة الواحدة تغفر ولا توجب رِدّة؛ لأن الأمر غير معلوم بل احْسُموا الباب[١].

قوله: «إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ» أي إجلالاً له «أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى» اختبرها وأخلصها كما يمتحن الذهب بالنار فتخرج خالصة.

قوله: «أُولَئِكَ الَّذِينَ» يجوز أن يكون «أولئك» مبتدأ و «الذين» خبره والجملة خبر «إِنَّ» ويكون «لهم مَغْفِرَةٌ» جملة أخرى إما مستأنفة وهو الظاهر وإما حالية. ويجوز أن يكون «الَّذِينَ امْتَحَنَ (اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)» صفة «لأولئك» أو بدلاً منه أو بياناً و «لَهُمْ مَغْفِرَةٌ» جملة خبرية[٢].

ويجوز أن يكون «لهم» هو الخبر وحده و «مَغْفِرَةٌ» فاعل به واللام في قوله: «لِلتَّقْوَى» يحتمل أن يتعلق بمحذوف تقديره عرف الله قلوبهم صالحة أي كائنة للتقوى كقولك: أنْتَ لِكذَا أي صَالِحٌ أي كائنٌ[٣] ويحتمل أن يكون للتعليل[٤]. وهو يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون تعليلاً يجري مَجْرَى بيان السبب المتقدم، كقولك: جِئْتُكَ لإِكْرَامِكَ ابني[٥] أمسِ أي صار ذلك السبب السابق سبب المجيء.

والثاني: أن يكون تعليلاً يجري مجرى بيان علّيّة[٦] المقصود المتوقع الذي يكون لاحقاً لا سابقاً، كقولك: جِئْتُكَ لأَدَاء الوَاجِبِ، أي ليصير مجيئي سبباً لأداء الواجب.

فعلى الأول فمعناه أن الله علم في قلوبهم تقواه[٧] فامتحن قلوبهم للتقوى التي كانت فيها، ولولا أن قلوبهم كانت مملوءة من التقوى لما أمرهم بتعظيم رسوله وتقديم نبيه على أنفسهم. وعلى الثاني فمعناه أن الله تعالى امتحن قلوبهم بمعرفته ومعرفة رسوله

---

(١) الرازي السَّابقُ.

(٢) أخذ المؤلف ـ رحمه الله ـ كل هذه الأوجه من كتاب التبيان لأبي البقاء العكبري ١١٧٠.

(٣) قاله جار الله الزمخشري في كشافه ٣/٥٥٧.

(٤) أحد قولي الزمخشري أيضاً وعنه أخذ الإمام الرازي في تفسيره هذين الوجهين وفصل التفصيل المرئي أعلى كما نلمح.

(٥) في ب لي بدل من ابني.

(٦) في تفسير الرازي: غاية.

(٧) في ب: بقوله تحريف.

بالتقوى أي ليرزقهم الله التقوى[١]، ثم قال: «لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ» وقد تقدم الكلام على ذلك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥)﴾

قوله (تعالى)[٢]: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وراءِ الحُجُرَاتِ**﴾ هذا بيان لحال من كان في (مقابلة[٣] من تقدم، فإن الأول غَضَّ صوته، والآخر رفعه، وفيه إشارة إلى ترك الأدب من وجوه:)

أحدها: النداء، فإن نداء الرجل الكبير قبيح بل الأدب الحضور بين يديه وعرض الحاجة إليهِ.

الثاني: النداء من وراء الحجرات، فإن من ينادي غيره ولا حائل بينهما لا يكلفه المَشْيَ والمجيءَ بل يجيئه من مكانه ويكلمه ومن ينادي غيره مع الحائل يريد منه حضوره.

الثالث: قوله: «الحجرات» يدل على كون[٤] النبي ـ ﷺ ـ في خَلْوَتِهِ التي لا يمكن[٥] إتيان المحتاج إليه في حاجته (في)[٦] ذلك الوقت بل الأحسن التأخير وإن كان في وَرْطَةِ الحاجة[٧].

قوله: «مِنْ وَرَاء» «مِنْ» لابتداء الغاية. وفي كلام الزمخشري ما يمنع أن «مِنْ»[٨] يكون لابتداء الغاية وانتهائها قال: لأن الشيء الواحد لا يكون مبدأ للفعل ومنتهًى له. وهذا الذي أثبته بعض الناس وزعم أنها تدل على ابتداء الفعل وانتهائه في جهة واحدة نحو: أَخَذْتُ الدِّرْهَمَ مِنَ الكِيسِ[٩].

والعامة على الحُجُرَات ـ بضمتين ـ وأبو جعفر وشَيْبَةُ بفَتْحِها[١٠]. وابن أبي عبلَة

---

(١) بالمعنى من الرازي ٢٨/ ١١٥. فالمغفرة إزالة السيئات التي هي في الدنيا لازمة للنفس، والأجر العظيم إشارة إلى الحياة التي هي بعد مفارقة الدنيا عن النفس فيزيل الله عنه القبائح البهيمية ويلبسهُ المحاسنَ الملكية. انظر الرازي المرجع السابق.

(٢) زيادة من أ الأصل.

(٣) ما بين القوسين كله سقط من ب.

(٤) كذا في النسختين وفي الرازي المصدر السابق: قول وليس كون.

(٥) في ب والرازي: التي لا يحسن.

(٦) زيادة للسياق.

(٧) قاله الرازي الإمام في تفسيره ٢٨/١١٦.

(٨) في ب أن يكون من، بتقديم وتأخير والمعنى واحد.

(٩) بالمعنى من الكشاف ٣/٥٥٨.

(١٠) أي الجيم. وانظر الإتحاف ٣٩٧ وتقريب النشر ١٧٥ وهي عشرية.

بإسكانها[١]. وهي ثلاث لغات وتقدم تحقيقها في البقرة في قوله: «في ظُلُمَاتٍ»[٢]. والحُجْرَةُ فُعْلَةٌ بمعنى مفعولة كغُرْفَة بمعنى مَغْرُوفَة. قال البغوي: والحُجُرَاتُ جمع الحُجْرَةِ فهي جَمْعُ الجَمْعِ[٣].

فصل

ذكروا في سبب النزول وجوهاً:

الأول: قال ابن عباس: بعث رسولُ الله ـ ﷺ ـ سريّةً إلى بني العَنْبر، وأمر عليهم عُيَيْنَةَ بن حِصْنٍ الفزَارِيّ، فلما علموا هربوا وتركوا عيالهم، فَسَبَاهُمْ عيينة، وقدم (بهم[٤]) على رسول الله ـ ﷺ ـ فجاء بعد ذلك رجالهم يفدونَ الذَّرَارِي فقدموا وقت الظهيرة ووافقوا رسول الله ـ ﷺ ـ قائلاً في أهله فلما رأتهم الذَّرَارِي أجْهَشُوا إلى آبائهم يبكون وكان لكل امرأة من نساء رسول الله ـ ﷺ ـ حُجْرةٌ فعجلوا أن يخرج إليهم رسول الله ـ ﷺ ـ فجعلوا ينادون: يا محمد اخْرُجْ إلينا حتى أيقظُوه من نومه فخرج إليهم، فقالوا يا محمد: فادنا عيالنا، فنزل جبريل (عليه الصلاة والسلام[٥]) فقال: إن الله يأمرك أن تجعل بينك وبينهم رجلاً فقال لهم رسول الله ـ ﷺ ـ أتَرْضَون أن يكون بيني وبينكم سبرة بن عمرو وهو على دينكم؟ فقالوا: نعم؛ قال سبرة: أنا لا أحكم وعمي شاهد وهو الأعور بن بشامة؛ فرضوا به فقال الأعور: أرى (أن[٦]) تفادي نصفهم وأعتق[٧] نصفهم. فأنزل الله: إنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاء الحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ وصفهم بالجهل وقلة العقل.

«وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ» لأنك كنت تعتقهم جميعاً وتطلقهم بلا فداء «وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ». وقال قتادة: نزلت في ناسٍ من أعراب بني تميم جاءوا إلى النبي ـ ﷺ ـ فنادوا على الباب: اخرج إلينا يا محمد فإن مَدْحَنا زَيْنٌ وذمّنا شينٌ فخرج النبي ـ ﷺ ـ وهو يقول: إنما ذلكم اللَّهُ الذي مَدْحُهَ زَيْنٌ وذَمُّهُ شَيْنٌ، فقالوا: نحن ناس من بني تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرُك ونفاخرك، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ ما بالشعر بُعِثْتُ، ولا بالفخر[٨] أُمِرْتُ، ولكن هاتوا فقام شاب منهم فذكر فضلَه وفضل

---

(١) شاذة ذكرها صاحب البحر ٨/١٠٨.

(٢) من الآية ١٧ منها: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ﴾ فالفتح والاتباع بالضم أو الكسر لغة عامة العرب أما الإسكان فلغة تميم والضم لا يجيء مع اللام اليائية كُذمية وكُلْيَة لثقل الضم قبل الياء فنقول دُمَيَات ودُمْيات بفتح وإسكان فقط، انظر التبيان «بتصرف» للشيخ كُحَيْل ١٣٤.

(٣) الواقع أن كلاماً محذوفاً هنا من كلام البغوي فكلامه: «جمع الحُجَر»، والحُجَر جمع الحُجْرة فهي جمع الجمع. انظر تفسيره ٦/ ٢٢٠.

(٤) سقط من ب.

(٥) زيادة من أ.

(٦) للسياق.

(٧) في ب وتعتق وهو الأقرب.

(٨) في ب بالفخار.

قومه فقال رسول الله ـ ﷺ ـ لثابت بن قيس بن شِمَاس، وكان خطيب النبي ـ ﷺ ـ: قُمْ فَأَجِبْهُ فأجَابَهُ. وقام شاعرهم فذكر أبياتاً فقال رسول الله ـ ﷺ ـ لحسَّان بن ثابت: أجبهُ فأجابهُ، فقام الأقرع بن حابس فقال: إن محمداً المؤتَى له، تكلم خطيبنا، فكان خطيبهم أحسنَ قولاً، وتكلم شاعرُنا فكان شاعرُهم أشعرَ وأحسنَ قولاً، ثم دنا من النبي ـ ﷺ ـ فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: ما يضرك ما كان من قبل هذا ثم أعطاهم رسول الله ـ ﷺ ـ وكساهم وكان قد تخلف في ركابهم عمرو بن الأهتم لحداثَةِ سِنِّهِ فأعطاه رسول الله ـ ﷺ ـ ما أعطاهم فأزرى به بعضهم وارتفعت الأصوات وكثر اللّغَطُ عند رسول الله ـ ﷺ ـ فنزل فيهم: ﴿**يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ**. . .﴾ الآيات الأربع إلى قوله: ﴿**غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾. وقال زيد بن أرقم: جاء ناس من العرب إلى النبي ـ ﷺ ـ فقال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، فإن يكن نبياً فنحن أسعد الناس به، وإن يكُنْ ملكاً نعيش في جَنَاحِهِ فجاءوا فجعلوا ينادون من وراء الحجرات: يا محمدُ يا محمد، فأنزل الله: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُنادونك**. .﴾ الآية[1].

فصل

في قوله: «أكثرهم» وجوه:

أحدها: أن العرب تذكر الأكثر وتريد الكل، احترازاً عن الكذب واحتياطاً في الكلام، لأن الكل مما لا يحيط به علم الإنسان في بعض الأشياء فيقول الأكثر وفي اعتقاده الكل، ثم إن الله تعالى مَعَ إحاطة علمه بالأمور أتى بما يناسب كلامهم، وفيه إشارة إلى لطِيفةٍ وهي أن الله تعالى يقول: أنا مع إحاطة علمي بكل شيء جربت على عادتكم استحساناً لتلك العادة، وهي الاحتراز عن الكذب، فلا تتركوها واجعلوا اختياري ذلك في كلامي دليلاً قاطعاً على رضائي بذلك منكم.

الثاني: أن يكون المراد أنهم في أكثر أحوالهم لا يعقلون، وذلك أن الإنسان إذا اعتبر مع وصف ثم اعتبر مع وصف آخر يكون المجموع الأول غير المجموع الثاني، مثاله: إذا كان الإنسان جاهلاً أو فقيراً فيصير عالماً أو غنياً فيقال في العُرْف: زَيْدٌ لَيْسَ هُوَ الذي رَأَيْتُ مِنْ قَبْلُ بل الآن على أحسن حال فيجعله[2] كأنه ليس ذلك إشارة إلى ما ذكرنا. إذا علم هذا فهم في بعض الأحوال إذا اعتبرتهم مع تلك الحالة مغايرون لأنفسهم

---

(١) انظر هذه الأسباب في النزول تفسيري الخازن والبغوي لباب التأويل ومَعَالم التنزيل ٦/ من ٢٢٠ إلى ٢٢٢، وانظر أيضاً القرطبي ١٦/ ٣٠٩ و٣١٠ وقد ذكر الإمام أبو حيانَ والقرطبي في تفسيريهما أبياتاً شعرية من تلك المناظرة انظر البحر ٨/ ١٠٧ والقرطبي ١٦/ ٣٠٥.

(٢) في ب فتجعله.

إذا اعتبرتهم مع غيرها. فقوله تعالى: ﴿أكثرهم لا يعقلون﴾ إشارة إلى ما ذكرنا.

الثالث: لعل فيهم من رجع عن ذلك الأمر، ومنهم من استمر على تلك العادة الرّديئة فقال: أكثرهم إخراجاً لمن ندم[١] منهم عنهم.

قوله: «وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا» تقدم مثله. وجعله الزمخشري فاعلاً بفعل مقدر أي ولو ثبت صَبْرُهُم. وجعل اسم أن[٢] ضميراً عائداً على هذا الفاعل[٣]. وقد تقدم أن مذهب سِيبَوَيْهِ أنها في محل رفع بالابتداء وحينئذ يكون اسم «أَنَّ» ضميراً عائداً على صَبْرهم المفهوم من الفعل.

قوله: ﴿وَاللَّهُ غفورٌ رَحِيمٌ﴾ يحتمل أمرين:

أحدهما: غفور لسوء صنعهم في التعجيل.

وثانيهما: لحسن الصبر يعني بسبب إتيانهم بما هو خير يغفر الله لهم سيئاتهم. ويحتمل أن يكون ذلك حثّ النبي ـ ﷺ ـ على الصلح. وقوله: «أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ» كالصبر لهم[٤].

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إن جاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبأ فَتَبَيَّنُوا﴾ قال المفسرون: نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط وهو أخو عثمان لأمه بعثه رسول الله ـ ﷺ ـ إلى بني المصطلق بعد الموقعة والياً ومصدقاً، وكان بينه وبينهم عداوة في الجاهلية فلما سمع به القوم تَلقَّوْه تعظيماً لأمر رسول الله ـ ﷺ ـ فحثه[٥] الشيطان أنهم يريدون قتله فهابهم فرجع من الطريق إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وقال: إنهم منعوا صدقاتهم وأراد قتلي، فغضب رسول الله ـ ﷺ ـ وهمَّ أن يَغْزُوَهُمْ فبلغ القومَ رجوعُه فأتوا رسول الله ـ ﷺ ـ فقالوا: يا رسول الله: سَمِعْنَا برسُولك فخرجنا نتلقاه ونكرمه ونؤدي إليه ما قبلنا من حق الله تعالى فأبطأ في الرجوع فخشينا أنه إنما ردّه من الطريق كتاب جاءه منك لغضب غضبته علينا وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله. فاتَّهمهُمْ رسول الله ـ ﷺ ـ وبعث خالدَ بنَ الوليد

---

(١) في النسختين تقدم. وندم تصحيح من الرازي. وانظر تصحيح ذلك وغيره في تفسير الإمام ٢٨/١١٧.

(٢) في النسختين «كان» والأصح ما أثبت أعلى فهو من قوله «ولو أنهم».

(٣) قال: في موضع الرفع على الفاعلية لأن المعنى ولو ثَبَتَ صَبْرُهُمْ.

(٤) الرازي ٢٨/١١٨.

(٥) في ب فحدثه.

خفْيةً في عسكره وقال: انظر فإن رأيت منهم ما يدل على إيمانهم فخذ منهم زكاة أموالهم وإن لم تَرَ ذلك فاستعمل فيهم ما يستعمل في الكفار، ففعل ذلك خالد ووافاهم فسمع منهم أذان صلاتي المغرب والعشاء فأخذ منهم صدقاتهم ولم يَرَ منهم إلا الطاعة والخَيْرَ وانصرف إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وأخبره فنزل ﴿**يا أيُّهَا الَّذينَ آمنُوا أن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبأ**﴾ يعني الوليد بن عقبة «بِنَبأ» بخبر، «فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالةٍ» كيلا تصيبوا بالقتل والقتال قوماً بجهالة «فتصبحوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ» من إصابتكم بالخَطَأ، «نَادِمِينَ»[١].

قال ابن الخطيب: وهذا ضعيف، لأن الله تعالى لم يقل: إني أنزلتها لكذا والنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم ينقل عنه أنه قال: وردت الآية لبيان ذلك حسب، غاية ما في الباب أنها نزلت في ذلك الوقت وهو مثل تاريخ نزول[٢] الآية، ومما يصدِّق ذلك ويؤكده أن إطلاق لفظ الفاسق على الوليد، بعيد لأنه توهم وظن فأخطأ، والمخطىء لا يسمَّى فاسقاً، وكيف والفاسق في أكثر المواضع المراد به من خرج عن رتبة الإيمان، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [المنافقون: ٦] وقوله تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠] وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠] إلى غير ذلك؟!.

فصل

دلت الآية على أن خبر الواحد حجة وشهادة الفاسق لا تقبل أما في المسألة الأولى فلأنه علل الأمر بالتوقف بكونه فاسقاً ولو كان خبر الواحد العدل لا يقبل لما كان للترتيب على النسق فائدة وأما في المسألة الثانية فلوجهين:

أحدهما: أنه أمر بالتبين[٣] وقيل قوله كان الحاكم مأموراً بالتبين، فلم يفد قول الفاسق شيئاً، ثم إنَّ الله تعالى أمر بالتبين في الخبر والنبأ وباب الشهادة أضيق من باب الخبر.

الثاني: أنه تعالى قال: ﴿**أن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ**﴾، والجهل فوق الخطأ؛ لأن المجتهد إذ أخطأ لا يسمى جاهلاً فالذي يبني الحكم على قول الفاسق إن لم يصب جاهلاً[٤] فلا يجوز البناءُ على قَوْلِهِ[٥].

قوله: «أَنْ تُصِيبُوا» مفعول له كقوله: «أَنْ تَحْبَطَ». قال ابن الخطيب: معناه على

---

(١) ذكره البغوي والخازن في تفسيريهما معالم التنزيل ولباب التأويل ٦/ ٢٢٢ وانظر الرازي ٢٨/ ١١٩.

(٢) في الرازي: وهو مثل التاريخ لنزول الآية.

(٣) في ب التبيين.

(٤) كذا في النسختين وفي الرازي: جاهل.

(٥) وهذه الكلمات رأي الرازي نقلها عن الأصحاب العدول. انظر الرازي السابق ٢٨/ ١٢٠.

مذهب الكوفيين لئَلاّ تُصِيبُوا، وعلى مذهب البصريين كَرَاهَةَ أَنْ تُصِيبُوا.

قال: ويحتمل أن يكون المراد فتبينوا واتقوا[1] أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين، فقوله «بِجَهَالَةٍ» في تقدير حال أي تُصيبوهُمْ جَاهلينَ، ثم حقق ذلك بقوله: «فتصبحوا على ما فعلتم نادمين». وهذا بيان، لأن الجاهل لا بد وأن يندم على فِعْلِهِ. وقوله: «تصبحوا» معناه تصيبوا. قال النحاة: أصبح يستعمل على ثلاثة أوجه:

أحدها: بمعنى دخول الإنسان في الصباح.

والثاني: بمعنى كان الأمر وقت الصباح كما يقال: أصبحَ المريضُ اليومَ خَيْراً مما كان يريد كونه في وقت الصبح على حالةٍ خير.

الثالث: بمعنى صار كقوله: «أَصْبحَ زَيدٌ غَنِيًّا» أي صار من غير إرادة وقتٍ دونَ وقتٍ[2].

وهذا هو المراد من الآية. وكذلك «أمسى وأَضْحَى». قال ابن الخطيب: والصيرورة قد تكون من ابتداء أمرٍ وَتَدُومُ وقد تكون في آخر الأمر بمعنى آل الأمر إليه، وقد تكون متوسطة؛ فمثال الأول قولك: صَارَ الطِّفْل فاهِماً أي أخذ فيه وهو في الزيادة. ومثال الثاني قولك: صار الحقّ بَيِّناً واجباً أي انتهى حَدُّهُ. ومثال الثالث قولك: صَار زيدٌ عالماً إذا لم ترد أخذه فيهِ ولا بلوغه ونهايته بل كونه ملتبساً به. وإذا علم هذا فنقول: أصلُ استعمال أصبح فيما يصير الشيء بالغاً في الوصف نهايته[3] وأصل أضحى التوسط، لا يقال: أهل الاستعمال لا يفرقون بين الأمور ويستعملون الألفاظ الثلاثة بمعنى واحداً، لأنَّا نقول: إذا تقاربَتِ المعاني جاز الاستعمال، وجواز الاستعمال لا ينافي الأصل، وكثير من الألفاظ أصله معنى واستعمل استعمالاً شائعاً فيما يشاركه. وإذا علم هذا فقوله تعالى: «فَتُصْبِحُوا» أي فتَصِيروا آخذين في الندم ثم تَسْتَدِيمُونَهُ، وكذلك في قوله: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٢] أي أخذتم في الأُخوَّة وأنتم فيها زائدونَ مستمرُّون.

قوله: «نَادِمينَ» الندم هَمٌّ دائم، والنون والدال والميم في تقلبها لا تَنْفَكُّ عن معنى الدوام كقول القائل: أَدْمَنَ في الشُّرْب ومُدْمِنٌ أي أقام ومنه: المَدِينَةُ[4].

---

(١) الرازي السابق.

(٢) وقد ذكر كل هذا الإمام في تفسيره الكبير المرجع السابق. أقول: وقد ذكر الإمام السيوطي في الهمع ١/ ١١٤ ذلك وذكر ظل وأضحى وأمسى وكان قد قال: «ترد كانَ وأصبحَ وأضحَى وأمسى وظلّ بمعنى صار». انظر الهمع ١/ ١١٤.

(٣) في الرازي: وأصل استعمال أصبح فيما يصير الشيء أخذاً في وصف ومبتدئاً في أمر وأصل أمسى فيما يصير الشيء بالغاً في الوصف نهايته.

(٤) وانظر هذا كله في تفسير الإمام الفخر الرازي ٢٨/ ١٢١. وانظر دَوَرَان مادة النَّدم في الكشاف ٣/ ٥٦٠.

قوله: «واعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّه» فاتقوا الله أن تقولوا باطلاً أو تكذّبوه فإن الله يخبرُه ويعرفُه أحوالكم فتفْتَضِحُوا.

قوله: «لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ» يجوز أن يكون حالاً إما من الضمير المجرور في قوله: «فِيكُمْ» وإمَّا من المرفوع المستتر في «فِيكُمْ» لوقوعه خبراً. ويجوز أن يكون مستأنفاً[١]، إلا أنّ الزمخشري منع هذا، لأدائه إلى تنافر النظم[٢]. ولا يظهر ما قاله بل الاستئناف واضحٌ أيضاً[٣]. وأتى بالمضارع بعد «لو» دلالة على أنه كان في إرادتهم استمرارُ عمله على ما يَسْتَصوبُونَ.

فصل

نقل ابن الخطيب أن الزمخشريَّ قال: وجه التعليق هو أن قوله: «لو يطيعكم» في تقدير حال الضمير المرفوع في قوله: فيكم، والتقدير: كائن فيكم أو موجود فيكم على حالٍ تريدون أن يُطِيعَكُمْ أو يفعل باستصوابكم فلا ينبغي أن يكون على تلك الحال لو فعل ذلك لَعِنتُّمْ أي[٤] وقعتم في شدة أو أَثِمْتُمْ وهَلَكْتُمْ والعَنَتُ الإِثْمُ والهَلاَكُ.

ثم قال: «وَلكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ». وهذا خطاب مع بعض المؤمنين غير المخاطبين بقوله: «لَوْ يُطِيعُكُمْ». قال الزمخشري: اكتفى بالتغاير في الصفة واختصر، ولم يقل: حبّب إلى بعضكم الإيمان وقال أيضاً بأن قوله تعالى: «لَوْ يطيعكم» بدل «أطاعكم» إشارة إلى أنهم كانوا يريدون استمرار تلك الحالة ودوام النبي ـ ﷺ ـ على العمل باستصوابهم لكن يكون ما بعدها على خلاف ما قبلها. وههنا كذلك وإن لم يحصل المخالفة بصريح اللفظ؛ لأن اختلاف المخاطبين في الوصف يدلنا على ذلك، لأن المخاطبين أولاً بقوله: «لَوْ يُطِيعُكُمْ» هم الذي أرادوا أن يكون عملهم لمراد النبي ـ ﷺ ـ هذا ما قاله الزمخشري[٥]، واختاره وهو حسن قال: والذي يَجُوز أنْ يقال وكأنه هو الأقوى أن الله تعالى قال: إِنْ جَاءَكُمْ فاسق بِنَبإٍ فَتَبَيَّنُوا واكشفوا. (ثم[٦]) قال بعده:

---

(١) قال بهذه الإعرابات العكبري في التبيان ١١٧١ والزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٦٠.

(٢) قال: الجملة المصدرة بلو لا تكون كلاماً مستأنفاً لأدائه إلى تنافر النظم ولكن متصلاً بما قبله حالاً من أحد الضميرين في «فيكم» المستتر، المرفوع أو البارز المجرور وكلاهما مذهب سديد. والمعنى: أن فيكم رسول الله على حالة يجب عليكم تغييرها أو أنتم على حالة يجب عليكم تغييرها. انظر الكشاف ٣/ ٥٦٠.

(٣) فقد قال أبو حيان ٨/ ١١٠: والظاهر أن قوله: «واعَلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ» كَلام تام أمرهم بأن يعلموا أن الذي هو بين ظهرانيكم هو رسول الله ـ ﷺ ـ فلا تخبروه بما لا يصح فإنه رسول الله يطلعه على ذلك ثم أخبر أن رسوله لو أطاعكم في كثير لعنتم.

(٤) الرازي ٢٨/ ١٢٢. (٥) بالمعنى من الكشاف ٣/ ٥٦٠ و٥٦١ وباللفظ من الرازي السابق.

(٦) زيادة من ب.

«وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ» أي الكشف سهل عليكم بالرجوع إلى النبي ـ ﷺ ـ فإنه فيكم مبيِّن مُرْشد، وهذا كما يقول القائل عند اختلاف تلاميذ الشيخ في مسألة: هذا الشَّيْخُ قَاعِدٌ، لا يريد به بيان قعوده وإنما يريد أمرهم بمراجعته؛ لأن المراد لا يطيعكم في كثير من الأمر، وذلك لأن الشيخ إذا كان يعتمد على قول التلاميذ لا يطمئن قلوبهم بالرجوع إليه وإن[1] كان لا يذكر إلا للنقل الصحيح وتقريره بالدليل القوي يراجعه كل أحد فكذلك ههنا فاسترشدوه فإنه يعلم ولا يطيع أحداً فلا يوجد فيه حيف ولا يروج عليه زيف. والذي يدل عليه أن المراد من قوله: لَوْ يُطِيعُكُمْ في كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعنتُّم لبيان امتناع الشرط لامتناع الجزاء، كما في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] وقوله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] وذلك يدل على أنه ليس فيهما آلهة وأنه ليس من عند غير الله[2].

قوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ﴾ هذا استدراك من حيث المعنى لا من حيث اللفظ لأن من حبب إليه الإيمان غايرت صفتُهُ صفة من تقدَّم ذِكْرُهُ.

فصل

«حبب إليكم الإيمان» فجعله أحبّ الأديان إليكم «وزَيَّنَهُ» حسنه «فِي قُلُوبِكُمْ» حتى اخترتموه «وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكُفْرَ وَالفُسُوقَ» قال ابن عباس ـ (رضي الله عنهما) ـ يريد الكذب «والعِصْيَانَ» جميع مَعَاصِي الله. ثم عاد من الخطاب إلى الخبر فقال: «أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ»[3].

فصل

قال ابن الخطيب بعد ذكره الكلام المتقدم: وهذا معنى الآية جملةً فلنذكْره تفصيلاً في مسائل:

المسألة الأولى: لو قال قائل: إذا كان المراد بقوله: «واعلموا أن فيكم رسول الله» الرجوع إليه فلم لم يصرح بقوله: «فَتَبيَّنُوا» وراجعوا النبيَّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ؟ وما الفائِدة في العدول إلى هذا المجاز؟ نقول: فائدته زيادته التأكيد لأنَّ قول القائل في المثال المتقدم: هذا الشيخ قاعد آكد في وجوب المراجعة من قوله: رَاجِعُوا شَيْخَكُم؛ لأن القائل يجعل[4] وجوب مراجعته متفقاً عليه ويجعل[5] سبب عدم الرجوع عدم علمهم

---

(١) في ب: وإذا.

(٢) قاله الحبر الفهامة الإمام الفخر في تفسيره الكبير ٢٨/ ١٢٢.

(٣) القرطبي ١٦/ ٣١٤ والبغوي والخازن ٦/ ٢٢٣.

(٤) كذا في أ والرازي وفي ب فعل.

(٥) اتفاق من ب وأ وكلاهما اتفاق للرازي.

بقعوده فكأنه يقول: إنكم لا تشكون في أن الكاشف هو الشيخ وأن الواجب مراجعته، لكنكم لا تعلمون قعوده، فهو قاعد فيجعل[١] المراجعة أظهر من القعود، لأنه يقول خفي عنكم قعوده فتركتم مراجعته ولا يخفى عليكم حسنُ مراجعته فيجعل حسن المراجعة أظهر من الأمر الخفي بخلاف ما لو قال: راجعوه، لأنه حيئنذ يكون قائلاً بأنكم ما علمتم أن مراجعته هو الطريق. وبين الكلامين بَوْنٌ بعيد فكذلك قوله تعالى: «وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ» فجعل حُسْنَ مراجعته أظهر من كونه فيهم حيث ترك بيانه وأخذ في بيان كونه فيهم. وهذا من المعاني العزيزة التي توجد في المجازات ولا توجد في الصَّرَائِحِ.

فإن قيل: إذا كان المراد من قوله: «لَوْ يُطِيعُكُمْ» بيان كونه غير مطيع لأحد بل هو ممتنع[٢] للوحي فلِمَ لَمْ يصرِّحْ به؟.

نقول: بيان نفي الشيء مع بيان ذلك النفي أتمُّ من بيانه من غير دلِيل، والجملة الشرطية بيان للنفي مع بيان دليله وأن قوله: «ليس فيهما آلهة» لو قال قائل: لم قلت إنه ليس فيهما آلهة بحيث أن يذكر الدليل فيقال: لو كان فيهما آلهة إلا الله لَفَسَدَتَا فكذلك ههنا لو قال: لا يطيعكم لقال قائل: لِمَ لاَ يُطِيعُ؟ فوجب أن يقال: لو أطاعكم لأطاعكم لأجل قلتكم ومصلحة أبصاركم لكن لا مصلحة لكم فيه لأنكم تَعْنَتُون وتَأْثَمُونَ وهو يشقُّ عليه عَنَتُكم كما قال: ﴿عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ﴾ [التوبة: ١٢٨] فإذا أطاعكم لا يفيده[٣] شيئاً فلا يطيعكم فهذا نفي الطاعة بالدليل. وبين نفي الشيء بدليل ونفيه من غير دليل فَرقٌ عظيم.

واعلم أن في قوله: «فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ» ليعلم أنه قد يوافقهم ويفعل بمقتضى مصلحتهم تحقيقاً لقوله: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فإن قيل: إذا كان المراد بقوله تعالى: **﴿وَلكنَّ الله حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإيمان﴾** فلا تتوقفوا فلمَ لم يصرح به؟.

قلنا: لما بيناه من الإشارة إلى ظهور الأمر يعني أنتم تعلمون أن اليقين لا يتوقف فيه، إذ ليس بعده مرتبة حتى يتوقف إلى بلوغ الأَمْر إلى تلك المرتبة، بخلاف الشك، فإنه يتوقف إلى بلوغ الأمْر إلى درجة الظنّ، ثم الظن يتوقف إلى اليقين فلما كان عدم التوقف في النفس معلوماً متفقاً عليه لم يقل: فلا تتوقفوا بل قال: حَبَّب إليكم الإيمان أي بَيَّنَهُ وزَيَّنَهُ بالبُرْهَانِ النَّقيّ[٤].

فصل

قال ابن الخطيب: معنى حبب إليكم أن قرَّبَهُ إليكم وأدخله في قلوبكم، ثم زينه

---

(١) كذا في أ والرازي وفي ب فجعل ماضياً. (٢) كذا في النسختين وفي الرازي: متبع.

(٣) في النسختين: يفده. (٤) وانظر في هذا تفسير الإمام الفخر ٢٨/ ١٢٤، ١٢٤.

فِيهَا بحيث لا تفارقونه ولا يخرج من قلوبكم وذلك لأن من يُحِبّ شيئاً فقد يسأم منه لطول ملازمته والإيمان كل يوم يزداد حُسْناً لكل من كانت عبادته أكثر وتحمّله مشاق التكليف أتم تكون العبادة والتكاليف عنده ألذ وأكمل ولهذا قال أولاً: حبب إليكم الإيمان، وقال ثانياً: وزينه في قلوبكم كأنه قربه إليهم ثم أقامه في قلوبهم.

قوله[١]: «وَكَرَّهَ إليكُمُ الكُفْر وَالفُسُوق وَالعِصْيَان» قال ابن الخطيب: هذه الأمُور الثلاث في مقابلة الإيمان الكامل؛ لأن الإيمان المزين هو التصديق بالجَنَان. وأما الفسوق فقيل: هو الكذب كما تقدم عن ابن عباس وقال تعالى: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبأ﴾ فسمى الكاذب فاسقاً وقال تعالى: ﴿بِئْسَ الاسمُ الفُسُوق﴾. وقيل الفسوق الخروج عن الطاعة لقولهم: فسقت الرُّطَبَةُ[٢] إِذَا خَرَجَتْ. وأما العصيان فهو ترك المأمور به. وقال بعضهم[٣]: الكفر ظاهر، والفسوق هو الكبيرة والعِصْيَانُ هو الصغيرة[٤].

قوله: «فَضْلاً» يجوز أن ينتصب على المفعول من أجله[٥]. وفيما ينصبه وجهان:

أحدهما: قوله: «وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمْ» وعلى هذا فما بينهما اعتراض من قوله: «أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ».

والثاني: أنه الفعل الذي في قوله «الرّاشدون». وعلى هذا يقال: فكيف جاز أن يكون فضل الله الذي هو فعل الله مفعولاً له بالنسبة إلى الرشد الذي هو فعل العبد فاختلف الفاعل، لأن فاعَل الرُّشْدِ غير فاعل الفَضْل؟. وأجاب الزمخشري: بأن الرشد لما كان توفيقاً من الله تعالى كان فعل الله وكأنه تعالى أرشدهم فضلاً أي يكون متفضِّلاً عليهم، منعماً في حقهم، لأن الرشد عبارة عن التحبب والتَّزْيين والتكريه. وجوز أيضاً أن ينتصب بفعل مقدر، أي جرى ذلك وكان ذلك فضلاً من الله[٦]. قال أبو حيان: وليس من مواضع إضمار كان، وجعل كلامه الأول اعتزالاً[٧]. وليس كذلك لأنه أراد الفعل المسند إلى فاعله لفظاً وإلا فالتحقيق أن الأفعالَ كلها مخلوقة لله تعالى وإنْ كان الزمخشري غَيْرَ موافقٍ عَلَيْه.

(١) في ب «فصل» بدل «قوله».

(٢) خَرَجَتْ مِنْ قِشْرِهَا والفأرةُ من جُحْرِها. وانظر تفسير العلامة القرطبي الجامع الكبير ١٦/ ٣١٤.

(٣) عبر عنهم الإمام الرازي بقوله: وقال بعض الناس.

(٤) المرجع السابق للرازي ٢٨/ ١٢٥.

(٥) قاله الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٦٢ وأبو البقاء في التبيان ١١٧١ وأبو حيان نقلاً عن الكشاف في البحر ٨/ ١١٠.

(٦) بالمعنى من الكشاف المرجع السابق وباللفظ من تفسير الإمام الفخر ٢٨/ ١٢٥.

(٧) البحر ٨/ ١١١.

ويجوز أن ينتصب على المصدر المؤكد لمضمون الجملة السابقة، لأنها فضل أيضاً، إلا أنَّ ابن عطية جعله من المصدر المؤكد لنفسه. وجوز الحَوْفِيُّ أن ينتصب على الحال وليس بظاهر ويكون التقدير متفضلاً منعماً أو ذا فضل ونعمة[١] قال ابن الخطيب: ويجوز أن يكون فضلاً مفعولاً به والفعل مضمراً دل عليه قوله تعالى: ﴿**أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ**﴾ وهم يبتغون فضلاً من الله ونعمة[٢]، قال: لأن قوله: فضلاً من الله إشارة إلى ما هو من جانب الله المغني. والنعمة إشارة إلى ما هو من جانب العبد من اندفاع الحاجة. وهذا يؤكد قولنا: أن ينتصب «فضلاً» بفعل مضمر وهو الابتغاء والطَّلَبُ[٣].

ثم قال: «واللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» وفيه مناسبات:

منها: أنه تعالى لما ذكر نبأ الفاسق قال: فلا يعتمد على تَرْوِيجهِ عليكم الزُّورَ فإن الله عليم، ولا يقل كقول المنافق: «لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ» فإن الله حكيم لا يفعل إلا على وَفْق حكمته.

وثانيها: لما قال تعالى: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ**﴾ بمعنى لا يطيعكم بل يتبع الوحي «فإن الله عليم» يعلم من يكذبه «حكيمٌ» بأمره بما تقتضيه الحكمة[٤].

قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا**...﴾ الآية. لما حذر المؤمنين من النبأ الصادر من الفاسق أشار إلى ما يلزم منه استدراكاً لما يفوت فقال: فإن اتفق أنكم تبنون على قول من يوقع بينكم من الأمر المُفْضِي إلى اقتتال طائفتين من المؤمنين «فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي» أي الظالم يجب عليكم دفعه ثم إن الظالم إن كان هو الرعية فالواجب على الأمير دفعهم وإن كان هو الأمير فالواجب على المسلمين دفعه بالنصيحة فما فوقها وشرطه أن لا يُثِيرَ فتنة مثل التي في اقتتال الطائفتين أو أشد منهما[٥].

فصل

الضمير في قوله: «اقْتَتَلُوا» عائد على أفراد الطائفتين كقوله (تعالى)[٦]: ﴿هَٰذَانِ

---

(١) المرجع السابق. (٢) الرازي ٢٨/ ١٢٥.
(٣) نفسه ٢٨/ ١٢٦. (٤) السابق.
(٥) كذا في الرازي وفي النسختين منها بالإفراد. (٦) زيادة من أ.

خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾ [الحج: ١٩] والضمير في قوله: «بينهما» عائد على اللفظ. وقرأ ابن أبي عبلة: اقْتَتَلَتَا[١] مراعياً للَّفْظِ. وزيد بن علي وعُبَيْدُ بْنُ عَمْرو اقْتَتَلا[٢] أيضاً إلا أنه ذكر الفعل باعتبار الفريقين، أو لأنه تأنيث مجازي.

فصل

روى أنس ـ (رضي الله عنه)[٣] ـ قال: قيل للنبي ـ ﷺ ـ: لَوْ أَتَيْتَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبيّ (ابْنِ سَلُول) فانطلق إليه رسول الله ـ ﷺ ـ وركب حماراً (وانطلق المسلمون[٤] يمشون معه) وهو بأرض سَبِخَةٍ، فلما أتاه النبي ـ ﷺ ـ فقال: إِلَيْكَ عَنِّي وَاللَّه لَقَدْ آذَانِي نَتَنُ حِمَارِكَ فقال رجل من الأنصار منهم: واللَّهِ لَحِمَارُ رسولِ الله ـ ﷺ ـ أطيب ريحاً منك، فغضب لعبد الله رجل من قومه فَتَشَاتَمَا فغضب لكل واحد منهم أصحابهُ، فكان بينهما ضربٌ بالجريد والأيدي والنِّعال فنزلت: «وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا» فقرأها رسول الله ـ ﷺ ـ فاصطلحوا وكف بعضهم عن بعض. وقال قتادة: نزلت في رجلين من الأنصار كان بينهما مداراة[٥] في حق بينهما فقال أحدهما للآخر: لآخُذَنَّ حقِّي منك عَنْوةً لكثرة عشيرته وإن الآخر دعاء لِيُحَاكِمَهُ إلى النبي ـ ﷺ ـ فأبى أن يتبعه فلم يزل الأمر بينهما حتى تدافعوا وتناول بعضهم بعضاً بالأيدي والنعال و (إنْ)[٦] لم يكن قتال بالسيوف. وقال سفيان عن السدي: كانت امرأة من الأنصار يقال لها: أم زيد تحت رجل وكان بينها وبين زوجها شيء فرقي بها إلى عُلِّيّة وحبسها فبلغ ذلك قومها فجاءوا وجاء قومه فاقْتَتَلُوا بالأيْدي والنِّعال فأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿**وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا**﴾ أي بالدعاء إلى حكم كتاب الله والرِّضا بما فيه لهُمَا وَعَليهمَا[٧].

فصل

قوله: «وَإِنْ طَائِفَتَانِ (من المؤمنين)» إشارة إلى نُدْرَةُ وقُوع الاقتتال بين طوائف المسلمين.

فإن قيل: نحن نرى أكثر الاقتتال في طوائفهم؟

فالجواب: أن قوله تعالى: ﴿**إنْ**﴾ إشارة إلى أنه لا ينبغي أن لا يقع إلا نادراً،

---

(١) و (٢) القراءتان كلتاهما شاذتان انظر البحر ٨/ ١١٢ وقد ذكر القرطبي في الجامع ١٦/ ٣١٦ القراءة الأولى فقط.

(٣) زيادة من أ.

(٤) ما بين القوسين ساقط من أ.

(٥) في البغوي: مباراة.

(٦) لفظ «إنْ» زيادة من النسختين على رواية البغوي وغيره.

(٧) وانظر معالم التنزيل على لباب التأويل للخازن ٦/ ٢٢٤. وقد رواه البغوي عن أبيّ عن أنس رضي الله عنهما أقصد الحديث الأول.

غاية[١] ما في الباب أن الأمر على خلاف ما ينبغي كذلك: «إنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بنَبأٍ» إشارة إلى أنَّ مجيء الفاسق بالنبأ ينبغي أن لا يقع إلا قليلاً مع أن مجيء الفاسق كثيرٌ، وذلك لأن قول الفاسق صار[٢] عند أول الأمر أشدَّ قبولاً من قول الصادق الصالح، وقال: «وَإِنْ طَائِفَتَانِ» ولم يقل: «فِرْقَتَان» تحقيقاً للمعنى الذي ذكرناه وهو التقليل[٣]، لأن الطائفة دون الفرقة، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ [التوبة: ١٢٢].

فصل

قال: من المؤمنين ولم يقل: منكم مع أن الخطاب مع المؤمنين سبق في قوله تعالى: ﴿يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ﴾ تنبيهاً على قبح[٤] ذلك وتبعيداً لهم عنه، كقول السيد لعبده: إنْ رأيتَ أحداً مِنْ غِلمَاني يفعل كذا فامنعه، فيصير بذلك مانعاً للمخاطب عن ذلك الفعل بالطريق الحسن كأنه يقول: أنت حاشاك أنْ تفعل ذلك وإن فعل غيرك فامْنَعْهُ، كذلك[٥] ههنا.

فصل

قال: وإنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا ولم يقل: فإن اقْتَتَلَ طائفتان من المؤمنين مع أن كلمة «إن» اتصالها بالفعل أولى، وذلك ليكون الابتداء بما يمنع من القتال فيتأكد معنى النكرة، والمدلول عليها بكلمة إنْ، وذلك لأن كونهما طائفتين (مؤمنتين)[٦] يقتضي أن لا يقع القتال بينهما.

فإن قيل: فِلَم لَمْ يقل: يا أيها الذين آمنوا إن فاسقٌ «جَاءَكُمْ» أو إن أحدٌ من الفسّاق جاءكم ليكون الابتداء بما يمنعهم من الإصغاء إلى كلامه وهو كونه فاسقاً؟ أو يزداد بسببه فسقه بالمجيء به بسبب الفسق؟

فالجواب: أن الاقتتال لا يقع سبباً للإيمان ولا للزيادة فقال: إنْ جَاءَكُمْ فاسقٌ أي سواء كان فاسقاً أولاً أو جاءكم بالنبأ فصار فاسقاً به. ولو قال: إنْ أَحَدٌ من الفُسَّاقِ جاءكم لا يتناول إلا مشهور الفِسْقِ قبل المجيء إذا جاءهم بالنَّبَأِ.

فصل

قال تعالى: ﴿اقْتَتَلُوا﴾ ولم يقل يَقْتَتِلُوا (بصيغة الاستقبال)؛ لأن صيغة الاستقبال

(١) في ب فغاية. (٢) في ب صادر.
(٣) في النسختين التعليل. وفي الرازي التقليل كما كتبتُها.
(٤) في النسختين فتح. والرازيُّ كتبها قبح كما هو واضح.
(٥) في ب كذا وليس كذلك. (٦) زيادة من الرازي للسياق.

تنبىء عن الدوام والاستمرار فيفهم[١] منه أن طائفتين من المؤمنين إنْ تمادى الاقتتال بينهما فأصلحوا، وهذا لأن صيغة المستقبل تنبىء عن ذلك، يقال: فُلاَنٌ يَتَهَجَّدُ وَيَصُومُ.

فصل

قال: «اقْتَتَلُوا» ولم يقل: اقْتَتَلاَ وقال: «فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا» ولم يقل: بَيْنَهُمْ لأن الفتنة قائمة عند الاقتتال[٢]، وكل أحد[٣] برأسِهِ[٤] يكون فاعلا فعلاً فقال: اقْتَتَلُوا وعند الصلح تتفق كلمةُ كُلِّ طائفة وإلا لم يتحقق (الصلح)[٥] فقال: «بَيْنَهُمَا» لكون الطائفتين حينئذ كَنَفْسَيْنِ.

قوله: «فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى» وأبت الإجابة إلى حكم كتاب الله. وقيل: إلى طاعة الرسول وأولي الأمر. وقيل: إلى الصُّلْحِ. كقوله تعالى: ﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١] وقيل: إلى التقوى، لأن مَن خاف الله لا يبقى له عدو إلا الشيطان، لقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].

فإن قيل: كيف يصح في هذا الموضع كلمة «إنْ» مع أنها تستعمل في الشرط الذي لا يتوقع وقوعه وبغي أحدهما عند الاقتتال متحقق الوقوع فيكون مثل قول القائل: إنْ طَلَعَتِ الشَّمْسُ؟

فالجواب: أن فيه معنى لطيفاً وهو أن الله تعالى يقول: الاقتتال بين طائفتين لا يكون إلا نادر الوقوع لأن كل طائفة تظن أن الأخرى فئة الكفر والفساد كما يتحقق[٦] في الليالي المظلمة، أو يقع لكل طائفة أن القتال جائز باجتهاد خطأ، فقال تعالى: الاقتتال لا يقع إلا كذا فإن بَانَ لَهُمَا أو لأحدهما الخطأ واستمرّ عليه فهو نادر وعند ذلك يكون قد بغى فقال: «فَإِنْ بَغَتْ» يعني بعد انكشاف الأمْر، وهذا يفيد النُّدْرة وقِلَّةَ الوقوع.

فإنْ قيل: لم قال: فإنْ بَغَتْ ولم يقل: فَإن تَبْغِ؟

فالجواب: ما تقدم في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اقْتَتَلُوا﴾ ولم يقل: يَقْتَتلُوا[٧].

قوله: «حَتَّى تَفِيءَ» العَامة على همزه من فَاءَ يَفِيءُ أي رَجَعَ كجَاء يَجِيءُ. والزهري: بياء مفتوحة كمضارع وَفَا[٨] وهذا على لغة من يقصر فيقال[٩]: «جاَ، يَجِي»

---

(١) في ب منعهم.

(٢) في ب القتال.

(٣) في ب واحد.

(٤) في النسختين: برأيه ولكن الرازي كتبها هكذا.

(٥) سقط من ب.

(٦) في ب سبق. وفي الرازي يتفق.

(٧) وانظر هذا كله في تفسير الإمام ٢٨/ ١٢٧ و١٢٨.

(٨) الأصح إملائياً: وفى.

(٩) في ب فتقول وهذه القراءة ذكرها ابن خالويه في المختصر ١٤٣.

دون همز؛ وحينئذ فتح الياء[١] لأنها صارت حرف الإعراب[٢].

فصل

المعنى حتى تفيء إلى أمر الله في كتابه وهذا إشارة إلى أن القتال جزاء الباغي كحدِّ الشرب الذي يُقَامُ وإن ترك الشرب بل القتال إلى حدّ الفيئة، فإن فاءت الفئةُ الباغيةُ حَرُم قتالهُم. وهذا يدل على جواز قتال الصَّائِل، لأن القتال لما كان للفيئة فإذا حصلت لم يوجد المعنى[٣] الذي لأجله القتال. وفيه دليل أيضاً على أن المؤمن لا يخرج عن الإيمان بفعل الكبيرة؛ لأن الباغي من إحدى الطَّائِفَتَيْنِ وسماهما مؤمنين.

قوله: «فَإِنْ فَاءَتْ» أي رَجَعَتْ إلى الحَقِّ.

فإن قيل: قد تقدم أن «إِنْ» تدل على كون الشرط غير متوقع الوقوع وقلتم بأن البغي من المؤمن نادرٌ فإذن تكون الفئةُ متوقعةً فكيف قال: «فَإِنْ فَاءَتْ»؟

فالجواب: هذا كقول القائل لعبده: إن مُتّ فَأَنْتَ حُرٌّ، مع أن الموت لا بدّ من وقوعه لكن لما كان وقوعه بحيث لا يكون العبد مَحَلاً للعِتْق بأن يكون باقياً في ملكه حياً يعيش بعد وفاته غير معلوم. فكذلك ههنا لما كان المتوقَّع فيئتهم[٤] من تلقاء أنفسهم لما لم يقع دل على تأكيد الأمْر بينهم فقال تعالى: ﴿فَإِنْ فَاءَتْ﴾ أي بعد اشتداد الأمر والتحام القتال فَأَصْلِحُوا. وفيه إشارة إلى أنَّ من لم يَخفِ الله وبغى يكون رجوعه بعيداً.

قوله: «فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ» بحملهما على الإنصاف والرضا بحكم الله «وَأَقْسِطُوا» اعِدْلُوا «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينِ».

فإن قيل: لم قال ههنا: «فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ» ولم يذكر العدل في قوله: «وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا»؟

فالجواب: أن الإصلاح هناك بإزالة الاقتتال نفسه وذلك يكون بالنصيحة وبالتهديد والزجر والتعذيب والإصلاح ههنا بإزالة آثار الاقتتال بعد ارتفاعه[٥] من ضمان المتلفات وهو حكم فقال: «بالْعَدْلِ» فكأنه قال: فاحكموا بينهما بعد تركهما القتال بالحق وأَصْلِحُوا بالْعَدْلِ فيما يكون بينهما لئلا يؤدي إلى ثَوَرَان الفتنة بينهما مرة أخرى.

فإن قيل: لما قال: فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بالعدل فأيةُ فائدة في قوله: وَأَقْسِطُوا؟

فالجواب: أنّ قوله: «فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا» كأن فيه تخصيصاً بحال[٦] الاقتتال فعمَّ

---

(١) شذوذاً.
(٢) وانظر البحر المحيط ٨/ ١١٢.
(٣) في الرازي: البغي.
(٤) في ب فيهم.
(٥) في الرازي: اندفاعه.
(٦) في ب لحال.

الأمر بالعدل وقال: وأقسطوا أي في (كل)[١] أمر فإنه مفضٍ إلى أشرف درجة وأرفع منزلة وهي محبة الله. والإقساط إزالة القسْطِ وهو الجَوْر والقَاسِطُ هو الجَائِرُ[٢].

قوله: «إنَّما الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ» أي في الدين، والولاية. قال بعض أهل اللغة: الإخوة جمع الأَخ، من النَّسب والإِخْوَانُ جمع الأخ من الصَّداقة، والله تعالى قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُون إخوَةٌ﴾ تأكيداً للأمْر وإشارة إلى أن ما بين الإخوة من الإسلام والنسب لهم كالأب. قال قائلهم ـ (رحمةُ الله عليه)[٣] ـ:

٤٥٠٢ ـ أَبِـي الإِسْـلاَمُ لاَ أَبَ لِـي سِـوَاهُ إِذَا افْـتَـخَـرُوا بِـقَـيْـسٍ أَوْ تَـمِـيـمِ[٤]

قوله: «بَيْنَ أَخَوَيكُمْ» العامة على التثنية. وزيد بن ثابت وعبدُ الله وحمَّادُ بنُ سلمة وابنُ سيرين: إخْوَانِكُمْ جمعاً على فِعْلاَنَ[٥]. وقد تقدم أن الإخْوان تغلب في الصداقة والإخوة في النسب، وقد تعكس كهذه الآية. وروي عن أبي عمرو وجماعة: إخْوَتِكُمْ بالتاءِ من فَوْقِ[٦]. وقد رُوِيَ عن ابن عمرو أيضاً القراءات الثَلاَثُ[٧].

فصل

المعنى: فاتقوا الله ولا تَعْصُوه ولا تُخَالفوا أمره «لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يَشْتُمُه مَنْ كَانَ فِي حَاجَة أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ بها كُرْبَةً مِنْ كُرَب يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[٨].

فإن قيل: عند إصلاح الفريقين والطائفتين لم يقل: اتَّقُوا وقال هَهُنَا اتَّقُوا مع أنَّ ذلك أهم؟

فالجواب: أنّ الاقتتال بين طائفتين يُفْضي إلى أنْ تَعُمَّ المفسدة ويلحق كل مؤمن منها

---

(١) زيادة للسياق.
(٢) وانظر الرازي ٢٨/ ١٢٨ و١٢٩.
(٣) زيادة من أ.
(٤) من بحر الطويل وهو لنَهَار بن تَوْسعة. وأنشده المؤلف حملاً على ما أنشده الرازي من أن الإسلامَ هو السيّد، وهو كل شيء. وانظر البيت في الكتاب ٢/ ٢٨٢ والهمع ١/ ١٤٥ وشرح مفصل الزمخشري لابن يعيش ٢/ ١٠٤ والرازي ٢٨/ ١٢٩ وفيه الشاهد النحوي المشهور في لا النافية للجنس وهو ما نحن لسنا بصدده.
(٥) ذكر هذه القراءة صاحب الإتحاف ٣٩٧ وما ذكره المؤلف أعلى موافق لما في البحر ٨/ ١١٢. وهي شاذة. وقد ذكر القرطبي في الجامع ١٦/ ٣٢٣ أن ابن سيرين قرأ: إخوتكم القراءة الآتية.
(٦) أورد أبو حيان في البحر وابن مجاهد في السبعة ٦٠٦ أنها لابن عامر وحده بينما قال أبو حيان: والحَسَن أيضاً وابن عامر في روايةٍ وزيدُ بن علي ويعقوبُ.
(٧) البحر المحيط ٨/ ١١٢.
(٨) أخرجه البغوي في معالم التنزيل ٦/ ٢٢٥، عن سالم عن أبيه.

شيء وكل يسعى في الإصلاح لأمر نفسه فلم يؤكد بالأمر بالتقوى وأما عند تخاصم رَجُلَيْن لا يخاف الناس ذلك وربما يريد بعضهم تأكد الخِصَام بين الخصوم لغرض فاسد، فقال: «فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله» أو يقال: قوله: وأَصْلِحُوا إشارة إلى الإصلاح، وقوله: «وَاتَّقُوا اللَّهَ» إشارة إلى ما يصيبهم عن المُشَاجَرَة، وإيذاء قلب الأخ؛ لأن من اتقى الله شغله تقواه عن الاشتغال بغيره، قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ» فالمسلم يكون مقبلاً على عبادة الله مشتغلاً بعَيْبِه عن عيوب الناس[1].

فصل

في هاتين الآيتين دليل على أن البغي لا يزيل اسم الإيمان، لأن الله تعالى سماهم إخوةً مؤمنين مع كونهم باغين، ويدل عليه ما روى الحارثُ الأعور أن عليَّ بْنَ أبي طالبٍ سُئِلَ وهو القدوةُ في قتال أهل البغي عن أهل الجمل وصِفِّين أمشركون هُمْ؟ فقال: لا؛ من الشرك فروا فقيل: أمُنَافِقُونَ؟ فقال: (لا)[2] إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً. قيل: فما حالهم؟ قال: إخواننا بَغَوْا علينا والباغِي في الشرع هو الخارج على إمام العدل، فإذا اجتمعت طائفةٌ لهم قوة ومَنَعَةٌ فامتنعوا عن طاعة إمام العدل بتأويل محتمل ونصَّبُوا إماماً بالحكم فيهم أن يبعث الإمام إليهم وبدعوهم إلى طاعته فإن أظهروا مظلمةً أزالها عنهم وإن لم يذكروا مظلمةً وأصروا على بغيهم قاتلهم الإمام حتى يَفِيئُوا إلى طاعته[3]. وحكم قتالهم مذكور في كتب الفقه[4].

فصل

«إنَّمَا» للحصر أي الإخوة الآتين من المؤمنين[5]. فلا أُخُوَّةَ بين المؤمن والكافر ولهذا إذَا مات المسلم وله أخ كافر يكون مالُه للمسلمين، ولا يكون لأخيه الكافر، وكذلك الكافر، لأن في النسب المعتبر الأب الشرعي حتى إنَّ وَلَدَي الزّنا من ولدِ رجلٍ واحد لا يتوارثان، فكذلك الكفر لأن الجَامع الفاسد لا يفيد الأخُوّة ولهذا من مات من الكفار وله أَخٌ مسلم ولا وارثَ له من النسب لا يجعل ماله للكفار، ولو كان الدّين يجمعهم يرثه الكفار ومال المسلم للمسلمين عند عدم الوارث.

فإن قيل: إذا ثبت أن أُخوّة الإسْلاَم أقوى منْ أُخُوّة النسب بدليل أنَّ المسلم يَرِثُه المسلمون إذا لم يكن له أخوة نسبيّة ولا يرث الأَخُ الكافر من النسب فِلمَ لا يقدمون

---

(١) الرازي ٢٨/ ١٢٩، ١٣٠.
(٢) سقط من ب حرف «لا».
(٣) انظر البغوي ٦/ ٢٢٥.
(٤) فَهُو لا يتبع مُدْبِرَهُم ولا يقتُلُ أَسيرَهم ولا يذْفِفُ على جَرِيحِهِم. وانظر المرجع السابق. وفيه كلام آخر.
(٥) أي لا أخوّة إلا بين المؤمنين هكذا ذكر الرازي.

الأخوة الإسلامية على الأخوة النَّسَبِيَّة مطلقاً حتى يكون مال المسلم للمسلمين لا لأخوة النسب؟

فالجواب: أن الأخ المسلم إذا كان أخاً من النسب فقد اجتمع فيه أُخُوَّتان فصار أَقْوَى[١].

فصل

قال النحاة ههنا: إنَّ «مَا» كافَّة تكف إنَّ عن العمل، ولولا ذلك لقيل: إنَّمَا الْمُؤْمِنِينَ إخوَةٌ وفي قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ [المؤمنون: ٤٠] ليست كافة. قال ابن الخطيب والسؤال الأقوى: هو أن رُبَّ من حروف الجر و «الباء» و «عن» كذلك. و «ما» في «رُبَّ» كافّة، في «عما» و «بما» ليست كافة. والتحقيق فيه هو أن الكلام بعد «رُبَّمَا» و «إنَّما» يكون تاماً ويمكن جعله مستقلاً، ولو حذفت «ربّما وإنّما» لم يضرَّ تقول: ربَّمَا قَامَ الأَمِيرُ، ورُبَّمَا زَيْدٌ فِي الدَّارِ. ولو حذفت «رُبَّمَا» وقلت: زَيْدٌ فِي الدَّار وقام الأمير لصحَّ، وكذلك في «إنَّما» و «لَكِنَّما» وأما «عَمَّا» و «بما» فليس كذلك، لأن قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ لو حذفت «بما» وقلت: رَحْمةٌ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ، لما كان كلاماً، فالباء تُعَدّ متعلقة[٢] بما يحتاج إليها فهي باقية حقيقه وكذلك «عَمَّا»، وأما «رُبَّمَا» لما استغني عنها، فكأنها لم تبق حكماً، ولا عَمَلَ للمعدوم.

فإن قيل: إنَّ «إذَا» لم تُكَفَّ بِمَا فما بعده كلام تام فوجب أن لا يكون له عمل. تقول: إنَّ زَيْداً قَائِمٌ ولو قلت: زيدٌ قائمٌ لَكَفَى وَتَمَّ!

نقول: ليس كذلك لأن ما بعد إنَّ يجوز أَنْ يكون نكرة تقول: إنَّ رَجُلاً جَاءَنِي وأَخْبَرَنِي بكذا. وتقول جَاءَنِي رَجُلٌ وأَخْبَرَنِي. ولا يحسن: إنَّما رَجُلٌ جَاءني كما لو لم يكن هناك إنما. وكذلك القول في لَيْتَمَا لو حذفتهما واقتصرْت على ما بعدهما لا يكون تاماً فلم يكف. وتقدم الكلام في «لعلّ» مِرَاراً[٣].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا

---

(١) المرجع السابق.

(٢) في تفسير الرازي: يعد متعلقها انظر الرازي ٢٨/ ١٣٠. وانظر المغني ١٣٧.

(٣) تتصل بلعل «ما» الحرفية فتكفها عن العمل لزوال اختصاصها حينئذ بدليل قوله:

.... لَعَلَّما أَضَاءَتْ لَكَ النَّارُ الحِمَارَ المُقَيَّدَا

وجوز قوم إعمالها حينئذ حملاً على «ليت» لاشتراكهما في أنهما يُغَيِّران معنى الابتداء. انظر المغني ٢٨٦.

نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**يأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِن قَوْمٍ**...﴾ الآية تقدم الخلاف في «قَوْم» وجعله الزمخشري ههنا جمعاً لقائم قال: كصَوْم وزَوْر جمع صَائِم وزائِر. (و) فَعْل ليس من أبنية التكسير إلا عند الأخفش نحو: رَكْب، وصَحْب. والسخرّية هو أن لا ينظر الإنسان إلى أخيه بعين الإجلال، ولا يلتفت إليه ويُسْقطه عن درجته، وحينئذ لا يذكر ما فيه من المعايب. ومعنى الآية لا تحقروا إخواتكم ولا تَسْتَصْغِرُوهُمْ.

فصل

قال ابن عباس ـ (رضي الله عنهما)[١] ـ: نزلت في ثابتِ بنِ قيسِ بنِ شِماس كان في أُذُنِهِ وَقْرٌ، فكان إذا أتى رسول الله ـ ﷺ ـ وقد سبقوه بالمجلس أوسعوا له حتى يجلس إلى جَنْبه فَيستَمِعُ[٢] ما يقول، فأقبل ذاتَ يوم وقد فاتَتْه رَكْعَةٌ من صَلاة الفَجْرِ، فلما انصرف النبيُّ ـ ﷺ[٣] ـ من الصلاة أخذ[٤] أصحابهُ مجالسَهم فَضنَّ كل رجل بمجلسه، فلا يكاد يوسع أحدٌ لأحدٍ وكان الرجل إذا جاء ولم يجدْ مجلساً قَام قائماً فلما فرغ ثابتٌ من الصلاة أقبلَ نحوَ رسول الله ـ ﷺ ـ يتخطى رقابَ الناس (ويقول)[٥]: تفسَّحُوا تَفَسَّحُوا فَجَعلُوا يتفسَّحون حتى انتهى إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وبينه وبينه رَجُل فقال له: تفسَّح فقال له الرجل: قد أصبتَ مجلساً فاجْلس فجلس ثابتٌ خَلْفَهُ مُغْضَباً فلما انجلتِ الظّلمة غَمَزَ ثابتٌ الرجلَ فقال: من هذا فقال: أنا فلانٌ فقال له ثابت: ابن فلانة؟ ذكر أُمًّا له كان يعيَّر بها في الجاهلية، فنكس الرجل رأسهُ، فاستحيا. فأنزل الله تعالى هذه الآية[٦]. وقال الضَّحَّاكُ: نزلت فِي وَفْدِ تميم كانوا يستهزِئون بفُقَرَاء أصحاب النبي ـ ﷺ ـ مثل عمَّار، وخَبَّاب وبلالٍ، وصُهَيْبٍ، وسَلْمَانَ، وسالمِ مولى حذيفةَ، لما رأوا من رَثَاثة حَالِهِم[٧].

قوله: «عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً منْهُمْ» قرأ أُبَي وعبدُ الله بنُ مسعود عَسَوْا وعَسَيْنَ[٨]

(١) سقط من ب.
(٢) وفيها: فيسمَعُ.
(٣) وفيها: ـ عليه الصلاة والسلام ـ.
(٤) وفيها: فأخذ.
(٥) زيادة للسياق.
(٦) البغوي والخازن في معالم التنزيل ولُبَاب التأويل ٦/ ٢٢٥ و٢٢٦.
(٧) المرجعين السابقين.
(٨) ذكرها الفراء في معاني القرآن ٣/ ١٧٢ وأبو حيان في البحر المحيط ٨/ ١١٢. وهي شاذَّةٌ.

(جَعَلاَها نَاقصةً)[١]. وهي لغة تميم وقِرَاءَةُ العامة لغة الحجاز.

قوله: «وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ» روي أنها نزلتْ في نساء النبي - ﷺ - عيرت أم سلمة بالقِصَر، وروى عكرمة عن ابن عباس أيضاً: نزلت في صَفيَّةَ بنتِ حُيَيّ بنِ أخْطَبَ قَالَ لها النساء: يهودية بنتُ يَهُودِيَّيْن[٢].

قوله: «وَلاَ تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ» أي لا يعبْ بعضكُم على بعض[٣]. قرأ الحَسَنُ والأَعْرجُ: ولا تَلْمُزُوا بالضَّمِّ[٤] واللَّمْز بالقول وغيره[٥] والغَمْزُ باللسان فقط[٦].

قوله: «وَلاَ تَنَابَزُوا بالأَلْقَابِ» التنابز تفاعل من النَّبْز وهو التداعِي بالنَّبْز والنَّزَب، وهو مقلوب منه لقلة هذا، وكثرةِ ذاك. ويقال: تَنَابَزُوا وتَنَازبوا إذا دعا بعضُهم بعضاً بلقبِ سوءٍ. وأصله من الرفْع كأَنَّ النَّبزَ يَرْفَع صاحبه فيُشَاهَدُ. واللَّقَب: ما أشعر بضَعَةِ المُسَمَّى كقُفَّة وبَطَّة أو رِفعتِهِ[٧] كالصِّدِّيق وعتيقٍ والفَارُوق، وأَسَد الله، وأَسَدِ رَسُولِهِ وله مع الكنية والاسم إذا اجتمعن أحكام كثيرة مذكورة في كتب النحو.

وأصل: تَنَابَزُوا تَتَنَابَزُوا أسقِطَتْ إحدى التاءين كما أسقط من الاستفهام إحدى الهَمْزَتَيْنِ فقال: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ [البقرة: ٨] والحذفُ هَهُنَا أولى؛ لأن تاء الخطاب وتاء التفاعل حرفانِ من جنْسٍ واحدٍ في كلمة وهمزة الاستفهام كلمة برأسها و «أنذرتهم» أُخْرَى، واحتمال حَرْفَيْن في كلمتين أسهل من احتماله في كلمة واحدة[٨].

فصل

ذكر في الآية أموراً ثلاثةً مرتبة بعضها دون بعض، وهي السُّخْرِيَةُ واللَّمْزُ والنَّبْزُ. والسُّخْرية الاحتقار والاستصغار، واللمز ذكر الرجل في غيبته بعيب. وهذا دون الأول، لأنه لم يلتفت إليه وإنما جعله مثل المَسْخَرة الذي لا يغضب له ولا عَلَيْه، وهذا جعل فيه شيئاً ما فعابه به. والنَّبْزُ دون الثاني لأنه يَصِفهُ بوصفٍ ثابت فيه نقصه[٩] به، ويحط منزلته والنَّبْزُ مجرد[١٠] التسمية وإن لم يكن فيه لأن اللقب الحسن والاسم المستحسن

---

(١) ما بين القوسين ساقط من ب.

(٢) البغوي والخازن السابقين.

(٣) المرجع السابق.

(٤) ذكرها صاحب الإتحاف ٣٩٧ وهي قراءة عشرية. انظر تقريب النشر ١٧٥.

(٥) اللسان لمز ٤٠٧٢.

(٦) قال في اللِّسان «غمز»: الغَمْزُ الإشارة بالعين والحاجب والجَفْنِ.

(٧) ذكره صاحب اللسان «نبز» ٤٣٢٤.

(٨) ولهذا وجب الإدغام في قولنا: مَدّ ولم يَجِبْ في قولنا: امدُدْ وفي قولنا: مرّ، دون قوله: أَمَرَ رَبُّنَا. انظر الرازي ٢٨/ ١٣٣.

(٩) في الرازي: لأن في هذه المرتبة يضيف إليه وصفاً ثابتاً فيه يوجب بغضهُ وحَطَّ مَنْزِلَتِهِ.

(١٠) كذا في الرازي وفي ب مَحْمُود.

إذا وضع لواحدٍ وعَلاَ عليه لا يكون معناه موجوداً فإن من سمي سَعْداً وسَعيداً قد لا يكون كذلك وكذلك من لُقِّب إمام الدين أو حُسَام الدّين لا يفهم منه أنه كذلك وإنما هو علامة، وكذلك النَّبز، فإن من سمي مروان الحمار لم يكن كذلك فكأنه تعالى قال: لا تَتَكَبَّرُوا فَتَسْتَحْقِرُوا إخوانكم بحيث لا تلتفتوا إليهم أصلاً، وإذا نزلتم عن هذا فلا تَعيبُوهم طالبين حَطَّ درجتهم وإذا لم تَعِيبُوهم ولم تصفوهم بما يسوؤهم فلا تُسَمُّوهم[١] بما يكرهُونه[٢].

فصل

قال ابن الخطيب: القَوْمُ اسم يقع على جمع من الرجال ولا يقع على النساء ولا على الأطفال لأنه جمع قائم والقائم بالأمور هو الرجال وعلى هذا ففي إفراد الرجال والنساء فائدة وهي أن عدم الالتفات والاستحقار إنما يصدر في أكثر الأمر من الرجال بالنسبة إلى الرجال؛ لأن المرأة في نفسها ضعيفة؛ قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «النِّسَاءُ لَحْمٌ على وَضَم» فالمرأة لا يوجد منها استحقار الرجل لأنَّها مضطرة إليه في رفع حوائِجِها وأما الرجال بالنسبة إلى الرجال والنساء بالنسبة إلى النساء فإنه يوجد فيهم ذلك[٣].

فصل

في قوله: «عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ» حكمة وهي أنهم إذا وجد منهم التَّكَبُّر[٤] المُفْضي إلى إحباط الأعمال وجعل نفسه خيراً منهم، كما فعل إبليس حيث لم يلتفت إلى آدم وقال: «أَنَا خَيْرٌ منه» فصار هو خيراً منه، ويحتمل أن يكون المراد بقوله: «يكونوا» أي يصيروا، فإن من استحقر إنساناً لفقره أو ضَعْفِهِ لا يأمن أن يفتقر هو ويستغني الفقير ويضعف هو ويقْوَى الضعيفُ.

فصل

في قوله: «وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ» وجهان:

أحدهما: أن عيب الأخ عائد إلى الأخ فإذا أعابه[٥] فكأنه أعاب نَفْسَه.

والثاني: أنه إذا عابه وهو لا يخلو من عيب فيعيبه به المعاب فيكون هو بمعيبه حاملاً للغير على عيبه فكأنه هو العائب نفسه ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ﴾ [النساء: ٢٩].

ويحتمل أن يقال: لا تعيبوا أنفسكم أي كل واحد منكم مُعَيَّب فإنكم إن فعلتم فقد

---

(١) في ب تسمونهم. خطأ نَحْويّ.
(٢) بالمعنى من الرازي ٢٨/ ١٣١.
(٣) انظر المرجع السابق.
(٤) كذا في النسختين وفي الرازي: النّكر المُفْضِي.
(٥) كذا في النسختين أعابه، وليس عابهُ.

عبتم أنفسكم أي كل واحد عاب كل واحد فصِرْتُمْ عائِبِينَ من وجه مُعيَّبين من وجه. وهذا الوجه ههنا ظاهر ولا كذلك في قوله: «وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ»[١].

فصل

قال: «وَلاَ تَنَابَزُوا» وَلَمْ يقُل: ولا تَنْبزُوا لأن اللامِزَ إذا لَمَزَ فالمَلْمُوز قد لا يجد فيه في الحال عيباً يَلْمِزُهُ به وإنما يبحث ويتتبّع ليطلع منه على عيب فيوجد اللمز في جانب. وأما النَّبْزُ فلا يعجز كل أحد عن الإتيَانِ بِنَبْزٍ، فالظاهر أن النَّبْزَ يُفْضِي في الحال إلى التَّنَابز، ولا كذلك اللمزُ.

فصل

قال المفسرون: اللقب هو أن يدعى الإنسان بغير ما يُسَمَّى به، وقال عكرمة: هو قول الرجل للرجل يا فاسقُ، يا منافقُ، يا كَافرُ. وقال الحسن: كان اليهودي والنصرانيّ يسلم، فيقال له بعد إسلامه: يا يهوديّ يا نصرانيّ فنهوا عن ذلك، وقال عطاء: هو أن يقول الرجل لأخيه: يا حمارُ يا خنزيرُ. وعن ابن عباس (رضي الله عنهما)[٢]: التنابز بالألقاب أن يكون الرجلُ عمل السيئات ثم تاب عنها فنهي أن يعيَّر بما سلف من عمل[٣].

قوله: «بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإيمَانِ» أي بئسَ الاسمُ أن يقول له: يا يَهُودِيُّ يا فاسِقُ بعدما آمَن. وقيل: معناه من فعل ما نهي عنه من السخرية واللمز والنبز فهو فاسق وبئس الاسم الفسوق بعد الإيمان فلا تفعلوا ذلك فتستحقوا اسم الفسوق. ثم قال: «وَمَنْ لَمْ يَتُبْ» أي من ذلك «فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ».

قوله تعالى: ﴿**يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ...**﴾ الآية. قيل: نَزَلَتْ في رَجُلَيْن اغتابا رفيقهما، وذلك أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان إذا غزا أو سافر ضم الرجل المحتاجَ إلى رَجُلَيْن مُوسِرَيْن يخدمهما ويتقدم لهما إلى المنزل فيهيّىء لهما طعامَهُمَا وشرابهما فضم سلمان الفارسي إلى رجلين في بعض أسفاره فتقدم سلمانُ الفارسي إلى المنزل فغلبته عيناه فَلَمْ يُهيّىءْ لهما فلما قدما قالا له ما صَنَعْتَ شيئاً؟ قال: لا غلبتني عَيْنَاي، قالا له: انطلق إلى رسول الله ـ ﷺ ـ واطلب لنا منه طعاماً، فجاء سلمان إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وسأله طعاماً، فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ: انطلق إلى أسامة بن زيد وقل له: إن كان عند فضلٌ من طعام فَلْيُعْطِكَ، وكان أسامةِ خازن رسول الله ـ ﷺ ـ وعلى رَحْلِه فأتاه فقال ما عندي شيء فرجع سَلْمَانُ إليهما فأخبرهما فقالا: كان عند أسامة ولكن بَخِلَ

---

(١) وانظر الرازي ٢٨/ ١٣٢. (٢) سقط من ب.

(٣) قاله البغوي في مَعَالِمِ التَّنزيل والخازن في لُبَاب التَّأويل ٦/ ٢٢٦ و٢٢٧.

فبعثَا سَلْمَانَ إلى طائفةٍ مِنَ الصَّحَابة فلم يجد عندهم شيئاً فلما رَجَعَ قالوا: بعثناه إلى بئر[١] سُمَيْحَةَ فغار ماؤها ثم انطلقا يتجسّسان هل عند أسامة ما أمر لهما به رسول الله ـ ﷺ ـ فلما جاءا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ قال لهما: مَا لِي أَرَى خَضْرَةَ اللَّحْم فِي أَفْواهِكُمَا؟ قالا: والله يا رسول الله ما تَنَاوَلْنَا يَوْمَنَا هذا لحماً قال: (بل)[٢] ظَلَلْتُمْ تأكلونَ لَحم أسامةَ وسلمان. فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ﴾[٣].

فصل

قال سفيان الثوري: الظّنُّ ظنان:

أحدهما: إثم وهو أن يُظَنَّ ويتكلم به.

والآخر: ليس بإثم وهو أن يظن، ولا يتكلم به، قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ».

قوله: «إِثْمٌ» جعل الزمخشري همزهُ بدلاً من واو قال: لأنه يَثِمُ الأَعْمَال أي يكسرها[٤] وهذا غير مُسَلَّم بلْ تلك مادةٌ أخرى[٥].

قوله: «وَلاَ تَجَسَّسُوا» التجسس التَّتبعُ، ومنه الجَاسُوسُ، والجَسَّاسَةُ، وجواسّ الإنسان وحَوَاسُّهُ ومشاعره[٦]، وقد قرأ هنا بالحاء الحَسَنُ وأبو رجاء وابنُ سِيرِينَ[٧].

فصل

التجسس هو البحث عن عيوب الناس فنهى الله تعالى عن البحث عن المستورين من الناس وتتبع عوراتهم قال عليه الصلاة والسلام: «لا تَجَسَّسُوا وَلاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَحَاسَدُوا وَلاَ تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَاناً»[٨] وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «يا مَعْشَرَ مَنْ آمنَ بِلِسَانِهِ وَلَم يَفِضِ الإيمَانُ إلى قَلْبِهِ لاَ تَغْتَابُوا المُسْلِمِينَ وَلاَ تَتَبَّعُوا عَوْرَاتِهم فإنه من تتبّع عوراتِ المسلمين تَتَبَّعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحُهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ»[٩]. ونظر عمر يوماً إلى الكعبة فقال: ما أعظَمكَ وأعْظَمَ حُرْمَتِكَ والمُؤمِنُ أَعْظَمُ حُرْمَةً مِنْكِ عِنْدَ

---

(١) بئر قديمة بالمدينة غزيرة الماء.

(٢) ما بين القوسين سقط من ب.

(٣) وانظر البغوي والخازن المرجعين السابقين والقرطبي ١٦/ ٣٣١.

(٤) بإحباطه. وانظر الكشاف ٣/ ٥٦٨.

(٥) قال صاحب اللسان: وَوَثَم يَثِمُ أي عَدَا. ونقل الجوهري أن الوثم هو الضرب والكسر. انظر اللسان والصِّحَاح «وثم».

(٦) فهناك تقارب. وانظر الكشاف ٣/ ٥٦٩.

(٧) ذكرها ابن خالويه في المختصر ١٤٣. وانظر الكشاف السابق.

(٨) أخرجه البغوي عن أبي الزناد عن الأعرج.

(٩) أخرج عن ابن عمر، وانظر البغوي المرجع السابق ٦/ ٢٢٨.

اللَّهِ. وقيل لابن مسعود: هل لك في الوليد بن عقبة تقطر لحيته خمراً؟ فقال: إنَّا قَدْ نُهينا عَنِ التَّجَسُّسِ فإن يظهر لنا شيئاً نأخذه به(١).

فصل

واعلم أن الظن تُبْنَى عليه القبائح فالعاقل إذا وَقَفَ أموره على اليقين قلَّ ما يتيقّن في أحد عيباً يلمزه به لأن الوعظ في الصورة قد يكون قبيحاً وفي نفس الأمر لا يكون كذلك؛ لأن الفعل قد يكون فاعله ساهياً أو يكون الرأي مخطئاً، وقوله تعالى: ﴿كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ﴾ إخراج للظنون التي تبنى عليها الخيرات.

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ «ظُنُّوا بالْمُؤْمِنِ خَيْراً» وقوله: «إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ» إشارة إلى الأخذ بالأحوط. وقوله: «وَلاَ تَجَسَّسُوا» إتمامٌ لذلك لأنه تعالى لما قال: «اجتنبوا كثيراً من الظن» فهم منه أن المعتبر اليقين. وقوله: «وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً» أي لا يتناول بعضكم بَعْضاً في غَيْبَتِهِ بما يَسوؤه مما هو فيه(٢).

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «أَتَدْرُونَ مَا الْغَيبةُ؟» قالوا: الله ورسوله أَعلَم قال: ذكرُك أَخَاكَ بما يَكْرَهُ. قيل: أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغْتَبْتَهُ وإن لم يكن فيه ما تَقُولُ فقد بَهَتَّهُ(٣). وفي هذا إشارة إلى وجوب حفظ عرض المؤمن(٤).

قوله: «أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً» نصب «ميتاً» على الحال من «لَحْم» أو «أَخِيهِ»(٥)، وتقدم الخلاف في مَيْتاً.

فإن قيل: اللحم ألا يكون ميتاً؟

فالجواب: بلى(٦). قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «مَا أُبِينَ مِنْ حَيٍّ فَهُوَ مَيِّتٌ» فسمى القطعة(٧) ميتاً.

فإن قيل: إذا جعلناه حالاً من الأخ لا يكون هيئة(٨) الفاعل ولا المفعول فلا يجوز جعله

---

(١) وانظر البغوي ٦/٢٢٨.

(٢) الرازي ٢٨/١٣٣ و١٣٤.

(٣) أخرجه البغوي في معالم التنزيل عن أبي هريرة ٦/٢٢٩.

(٤) ذكره العكبري في التبيان ١١٧٢.

(٥) فقد قرأ نافع وحده ميتاً بالتشديد والباقون ميتاً. وانظر السبعة ٦٠٦ والكشف ٢/ ٢٨٤ وهي سبعيَّة متواترة. وقد ذكرها صاحب الإتحاف ٣٩٨.

(٦) كذا تكون الصحة فالإجابة ببلى إلا إذا كان التقدير على الاستفهام فإنه تكون النسختان صحيحتين.

(٧) في الرازي الغلفة، وهو الأصح يقال: قلبٌ أغلفُ بيِّن الغُلْفة كأنه غُشيَ بغلاف فهو لا يَعِي شيئاً. وانظر اللسان «غلف» وكذا يكون المقصود من الكلام. وانظر الرازي ٢٨/ ١٣٥.

(٨) في الرازي: هو الفاعل.

حالاً فهو كقول القائل: مَرَرْتُ بِأَخِي زَيْدٍ (قَائِماً) ويريد كون زيدٍ قائماً. وذلك لا يجوز.

قلنا: من أكل لحمه فقد أكل فصار الأخ مأكولاً مفعولاً بخلاف المرور بأخِي زيدٍ[١].

فصل

في هذا التشبيه إشارة إلى أن عِرْضَ الإنسان كَدمِهِ ولَحْمِهِ لأنَّ الإنسان يتألمُ قلبه من قرض العرض كما يتألم جسمه من قطع اللحم. وهذا من باب القياس الظاهر؛ لأن عرض الإنسان أشرف من لحمه ودمه فلما لم يحسن من العاقل أكل لحوم الناس لم يحسن منه قرض عرضهم بالطريق الأولى، لأن ذلك آلَمُ.

وقوله: «لَحْمَ أَخِيهِ» آكد في المنع؛ لأن العدو يحمله الغَضَبُ على مَضْغ لحم العدوِّ، وفي قوله: «مَيْتاً» إشارةٌ إلى دفع وَهَم وهو أن يقال: الشَّتم في الوجه يؤلم فيحرم وأما الاغتياب فلا اطلاع عليه للمغتاب فلا يؤلم فقال: آكل لحم الأخ وهو ميت أيضاً لا يؤلمه ومع هذا فهو في غاية القبح لِمَا أنَّه لو اطلع عليه لتألم فإن الميت لو أحس بأكل لحمه لآلمه، وفيه معنى لطيفٌ وهو أن الاغتياب بأكل لحم الآدمِيِّ ميتاً ولا يحل أكله إلا للمضطر بقدر الحاجة، والمضطر إذا وجد لحم الشاة الميتة ولحم الآدمي فلا يأكل لحم الآدميّ فكذلك المغتاب إن وجد لحاجته مدفعاً غير الغيبة فلا يباح له الاغتياب[٢].

قوله: «فَكَرِهْتُمُوهُ» قال الفراء: تقديره: فقَدْ كَرِهْتُمُوهُ فلا تفعلوه[٣]. وقال ابن الخطيب: الفاء في تقدير جواب كلام كأنه تعالى لما قال: أَيُحِبُّ للإنكار فكأنه قال: لا يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه فكرهتموه إذَنْ[٤]. وقال أبو البقاء: المعطوف عليه محذوف تقديره عُرِضَ عَلَيْكُمْ ذَلِكَ فَكَرِهتُمُوهُ. والمعنى يعرض عليكم فتكرهُونَهُ[٥].

وقيل: إن صح ذلك عندكم فأنتم (أي) تكرهونه[٦] قال ابن الخطيب: هو كمتعلق المسبّب بالسبب وتَرَتُّبِهِ عَلَيْه كقولك: جَاءَ فُلاَنٌ ماشياً فتَعِبَ، فقيل: هو خبر بمعنى الأمر كقولهم: «اتَّقَى اللَّهَ امْرُؤٌ فَعَلَ خَيْراً يُثَبْ عَلَيْهِ»[٧]. وقرأ أبو حيوة والجَحْدرِيّ: فكُرِّهْتُمُوهُ

---

(١) فيجوز أن تقول: ضَرَبْتُ وَجْهَهُ آثماً؛ أي وهو آثم أي صاحب الوجه كما أنك إذا ضَرَبْتَ وجهه فقد ضربته. الرازي المرجع السابق.

(٢) وانظر تفسير الإمام الفخر الرازي ٢٨/ ١٣٤ و١٣٥.

(٣) قاله في معاني القرآن له ٣/ ٧٣.

(٤) المرجع قبل السابق.

(٥) التبيان في إعراب القرآن ١١٧١.

(٦) نقله في المرجع السابق دون عَزْو لأحد. هذا وما بين القوسين زيادة على كتاب التبيان وعلى ذلك فقوله: «فكرهتموه» جملة واقعة جواب شَرْطٍ لشَرْطٍ مع فعله محذوف.

(٧) البحر المحيط ٨/ ١١٥ وقد ذكر الوجه السابق أيضاً صاحب الكشاف في كشافه ٣/ ٥٦٨. وانظر الرازي ٢٨/ ١٣٥.

ـ بضم الكاف وتشديد الراء[١] ـ عدي بالتضعيف إلى ثانٍ[٢] بخلاف قوله أولاً: «كَرَّهَ إلَيْكُمُ الكُفْرَ» فإنه وإن كان مضعّفاً لم يتعدّ لواحد لتضمنه معنى بَغَّضَ[٣].

فصل

قال ابن الخطيب: الضمير في قوله: «فَكَرِهْتُمُوهُ» فيه وجوه:

أظهرها: أن يعود إلى الآكل لأن قوله تعالى: ﴿**أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ**﴾ معناه أيحب أحدكم الأكل لأن «أَنْ» مع الفعل للمصدر أي فَكِرِهْتُمُ الأَكْلَ[٤].

وثانيها: أن يعود إلى اللحم أي فَكَرِهْتُمُ اللَّحْمَ.

وثالثها: أن يعود إلى الميّت في قوله: «ميتاً» تقديره: أيُحِبُّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً متغيراً فكرهتموه فكأنه صفة لقوله: «ميتاً» ويكون فيه زيادَةُ مبالغة في التحذير يعني الميتة أن أكلت في النُّدرة لسبب[٥] كان نادراً ولكن إذا أَنْتَنَ وأروح وتغير لا يؤكل أصلاً فكذلك ينبغي أنْ يكون الغيبة، وذلك يحقّق الكراهة ويوجب النُّفْرة إلى حد لا يشتهي الإنسان أن يبيت في بيت فيه ميت فكيف يقربه بحيث يأكله ففيه إذَنْ كراهة شديدة فكذلك حال الغيبة[٦].

فصل

قال مجاهد: لما قيل لهم: أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأكُلَ لَحْم أَخِيهِ مَيْتاً؟ قالوا: لا، قيل: «فَكرِهْتُمُوهُ» أي كما كرهتم هذا فاجتنبوا ذكره بالسوء غائباً[٧]. قال الزجاج: تأويله إن ذِكْرَكَ مَنْ لم يَحْضُرك بسُوءٍ بمنزلةِ أكلِ لحمه وهو ميت لا يحسُّ بذلك[٨].

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: لَمَّا عُرِجَ بِي مَرَرْتُ بِقوم لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمِشُونَ وُجُوهَهُمْ وَلُحُومَهُمْ فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلاَءَ يا جِبْرِيلُ؟ قالَ: هَؤُلاء الذين يأكلونَ لحُوم النَّاسِ ويَقَعُونَ في أَعْرَاضِهِمْ[٩].

---

(١) قال في البحر: ورواها الخدري عن النبي ـ ﷺ ـ وهي قراءة الخدري أيضاً وانظر مختصر ابن خالويه ١٤٣، ١٤٤.

(٢) وهو الهَاءُ.

(٣) بالمعنى من كتاب البحر لأبي حيان ٨/ ١١٥.

(٤) رسمت في النسختين: كرهتموا أكل. وانظر الرازي ٢٨/ ١٣٥ كما كتبت أعلى.

(٥) في النسختين: وتُسْتَطَابُ.

(٦) الرازي في تفسيره الكبير المرجع السابق.

(٧) نقله العلامة البغوي في معالم التنزيل ٦/ ٢٢٩ وكذلك الخازن في لباب التأويل نفس الجزء والصفحة.

(٨) قال: فتأويله كما تكرَهُونَ أكلَ لحمِهِ ميتاً كذلك تجنبوا ذكره بالسوء غائباً.

(٩) رواه أنس بن مالك عن النبي ـ ﷺ ـ انظر البغوي والخازن السابقين.

قوله: «وَاتَّقُوا اللَّهَ» عطف على ما تقدم من الأوَامِر والنواهي أي اجتنبوا واتقوا الله «إنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ» واعلم أنه تعالى ختم الآيتين بذكر التوبة فقال في الأولَى: ﴿**وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ وقال ههنا: ﴿**إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ**﴾ لكن لما كان الابتداء في الآية الأولى بالنهي في قوله: «وَلاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْم» ذكر النفي الذي هو قريب من النهي وفي الثانية كان الابتداء بالأمر في قوله: «اجْتَنِبُوا كَثِيراً» فذكر الإثبات الذي هو قريبٌ من الأمْر.

قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)﴾

قوله (تعالى)[١]: ﴿**يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى...**﴾ الآية هذه الآية مبينة ومقررة لما تقدم لأن السخرية من الغير والعيب[٢] إن كان بسبب التفاوت في الدين والإيمان فهو جائز، وكذلك لَمْزُهُ وغَيْبَتُهُ وإن لم يكن بسبب الدين والإيمان فلا يجوز، لأنَّ الناسَ بعُمُومِهِمْ كافِرِهم ومؤمِنِهِمْ يشتركون فيما يفتخر به المفتخِر، لأن التكبر والافتخار إن كان بسبب الغنى فالكافر قد يكون غنياً والمؤمن فقيراً وبالعكس، وإنْ كان بسبب النَّسب فالكافر قد يكون نسيباً والمؤمن مولى لِعَبْدٍ[٣] أَسْوَد وبالعكس فالناس فيما ليس من الدين والتقوى متساوون أو متقاربون ولا يؤثر شيء من ذلك مع عدم التقوى كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ فقوله تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى**﴾ يعني كآدمَ أي أنكم متساوون في النسب فلا تفاخر لبعض على بعض لكونهم أبناء رجل واحد وامرأة واحدةٍ.

فصل

قال ابن عباس (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا)[٤] نزلت في ثابتِ بن قيس وقوله للرجل الذي لم يتفسح له: ابنَ فلانة فقال النبي - ﷺ - من الذاكر فلانة؟ قال ثابت: أنا يا رسول الله فقال: انْظُر في وجوه القوم فَنظَر، فقال: ما رأيت يا ثابتُ؟ قال: رأيت أبيضَ وأحْمَرَ وأسود، قال: فإنك لا تَفْضُلُهم إلا في الدِّين والتقوى، فنزلت هذه الآية ونزل في الذي لم يَتَفَسَّح: «يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا»[٥].

وقال مقاتل: لما كان فتح مكة أمر رسول الله - ﷺ - بلالاً حتى علا ظَهْرَ الكَعْبَةِ

---

(١) زيادة من أ. (٢) في ب وعيبه.

(٣) في ب وعبد أسود.

(٤) زيادة من أ وانظر الكلام الأعلى في تفسير الإمام ٢٨/ ١٣٦، ١٣٧.

(٥) البغوي والخازن في تفسيريهما ٦/ ٢٢٩ و٢٣٠.

فأذَّن فقال عَتَّاب بن أُسَيد بن أبي العِيص: الحمدُ لِلَّه الذي قبض أبي حتى لم ير هذا اليوم. وقال الحارث بن هشام: أما وَجَدَ مُحَمَّدٌ غَيْرَ هذا الغراب الأسود مؤذناً؟ وقال سُهَيْل بن عَمْرو: إن يرد اللَّهُ شيئاً يُغَيِّرْهُ. وقال أبو سفيان: إني لا أقول شيئاً أخاف أن يخبر به ربُّ السموات فأتى جبريل رسول الله ـ ﷺ ـ فأخبره بما قالوا: فدعاهم عما قالوا فأقروا فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ هذه الآيَةَ وزَجَرَهم عن التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال، والإزْرَاءِ بالفقراء[١].

فإن قيل: هذه الآية تدل على عدم اعتبار النسب وليس كذلك فإن للنسبِ اعتباراً عُرْفاً وشرعاً حق لا يجوز تزويج الشريفة بالنَّبَطِيِّ!.

فالجواب: إذا جاء الأمر العظيم لا يبقى الأمر الحقير معتبراً، وذلك في الجنس والشرع والعرف أما الجنس فلأن الكواكب لا ترى عند طلوع الشمس، ولجناح الذباب دَوِيّ ولا يسمع عندما يكون رَعدٌ قويّ. وأما العرف فلأن من جاءه غلام ملك أقبل عليه وأكرمه فإذا جاءه مع الملك لا يبقى له اعتبار ولا يلتفت إليه. وإذا علم هذا ففي الشرع كذلك إذا جاء الشرف الديني الإلهيّ لا يبقى هناك اعتبار لا لنسب ولا لسبب، ألا ترى أن الكافر وإنْ كان من أعلى الناس نسباً، والمؤمن وإنْ كان من أدْوَنِهِمْ نسباً لا يقاس أحدهما بالآخر وكذلك ما هو من الدين مع غيره، ولهذا تصلح المناصبُ الدينية كالقضاءِ والشهادة لكل شريف ووضيع إذا كان ديناً عالماً، ولا يصلح لشيء منها فاسق وإن كان قُرَشِيَّ النَّسَبِ وقَارُونِيَّ النَّشَبِ ولكن إذا اجتمع في اثنين الدينُ المتينُ وأحدهما نسيب يرجح بالنسب عند الناس لا عند الله، لقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩] وشرف النسب ليس مكتسباً ولا يحصل بسعيٍ[٢].

فصل

الحكمة في اختيار النسب من جملة أسباب التفاخر، ولم يذكر المال، لأن الأمور التي يفتخر بها في الدنيا وإن كانت كثيرة، لكن النسب أعلاها، لأن المال قد يحصل للفقير فيبطلُ افتخار المفتخر به عليه والسنّ والحسن وغير ذلك لا يدوم، والنسب ثابت مستمر غير مقدور التحصيل لمن ليس له ذلك فاختاره الله للذكر وأبطل اعتباره بالنسبة إلى التقوى ليعلم منه بطلان غيره بطريق الأولى.

فإن قيل: إذا كان ورود الآية لبيان عدم جواز الافتخار بغير التقوى فما فائدة قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ﴾؟

فالجواب: بأن كل شيء يترجح على غيره، فإما أن يرجح بأمر فيه يلحقه ويرتب[٣]

(١) البغوي والخازن السابقين. (٢) انظر الرازي ٢٨/ ١٣٧.

(٣) في ب ويترتب.

عليه بعد وجوده وإما أن يرجح عليه بأمر قبله، فالذي بعده كالحُسْنِ والقوة وغيرهما من الأوصاف المطلوبة من ذلك الشيء وأما الذي قبله فإنما راجع إلى أصله الذي وجد منه أو إلى الفاعل الذي أوجده فالأول كقولك: هَذَا مِنَ النُّحَاس، وهَذَا مِنْ فضَّةٍ والثاني: كقولك: هَذَا عَمَلُ فُلاَنٍ، وهذا عمل فُلاَن، فقال تعالى: لا ترجيح[١] بما خلقتم منه، لأنكم كلكم من ذكر وأنثى، ولا ترجيح بالنسبة إلى فاعلكم لأنكم كلكم خلق الله، فإن كَانَ عندكم تفاوت فَهُو بأمور تَحْصُل لكم بعد وجودكم وأشرفُها التَّقْوى[٢].

قوله: «جَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وقَبَائِلَ» الشعوب جمع شَعْبٍ بفتح الشين، وهو أعلى طبقات الأنْساب مثل رَبِيعة، ومُضَر، والأوْس، والخَزْرج، وذلك أن طبقات النسب التي عليها العرب ستّ: الشَّعب، والقَبِيلة، والعِمَارة، والبَطْن، والفَخِذ، والفصيلة، وكل واحد يدخلُ فيما قبله فالفصيلة تدخل في الفخذ والفخذ في البطن وزاد بعض النّاسِ بعد الفخذ العشيرة فجعلها داخلة فيها، فتكون الفصائل داخلة في العَشِيرة وتدخل العشيرة في الأفخاذ وتدخل الأفخاذ في البُطُون والبطون في العَمَائر والعمائر في القبيلة والقبيلة في الشعب، وذكر الأعم لأنه أذْهَبُ بالافْتِخَارِ[٣] وسُمّي الشعب شعباً لتشَعب القبائل منه، واجتماعهم فيه كشُعَب أغصان الشجرة. والشَّعْبُ من الأضداد، يقال: شَعْبٌ أي جمع، ومنه تشعيب القَدَح وشَعَّب أي فرق[٤]، والقبائل هي دون الشعوب واحدتها قَبِيلَةٌ وهي كَبَكْر مِن ربيعة، وتَميم من مُضَرَ سميت بذلك لتقابلها، شبهت بقبائل الرأس، وهي قطع متقابلة، وقيل: الشعوب في العَجَم، والقبائل في العَرَب والأسباط في بني إسرائيل. وقيل: الشعب النسب الأبعد والقبيلة الأقرب وأنشد:

٤٥٠٣ ـ قَبَائِلُ مِنْ شُعُوبٍ لَيْس فِيهم كَرِيمٌ قَدْ يُعَدُّ ولاَ نَجِيبُ[٥]

والنسبة إلى الشّعب شَعُوبِيَّة ـ بفتح الشين ـ وهم جيل يبغضون العرب ودون القبائل العمائر واحدتها ـ عَمَارة ـ بفتح العين وهم كشَيْبَان مِنْ بكر ودَارِم من تميم، وَدُونَ العَمَائر البُطُون واحدتها بَطْن وهم كبَنِي هاشم وأمية من بني لُؤَيّ. ثم الفصائل والعشائر واحدتها فَصِيلة وعَشِيرة.

وقال أبو رَوْق: الشعوب الذين لا يعتزون إلى أحد بل يَنْتَسبون إلى المَدَائن والقُرَى والقَبَائل العرب الذين ينتسبون إلى آبائهم[٦].

---

(١) وفيها تَرَجُّح. (٢) الرازي ٢٨/ ١٣٧ و١٣٨.
(٣) البغوي والخازن ٦/ ٢٣٠ والرازي السابق.
(٤) الصّحاح للجوهري «شعب» والقرطبي ١٦/ ٣٤٤.
(٥) البيت من تمام الوافر، وهو لعبيد بن الأبرص وشاهده واضح وانظر القرطبي ١٦/ ٣٤٤ والبحر المحيط ٨/ ١١٦ وفتح القدير ٥/ ٦٧ والخصائص ٢/ ١٦٩.
(٦) انظر القرطبي المرجع السابق والبحر أيضاً.

قوله: «لِتَعَارفُوا» العامة على تخفيف التاء، والأصل: لتتعارفُوا فحذف إحدى التاءين[١]. والبَزِّي بتشديدها[٢] وقد تقدم ذلك في البَقَرة، واللام مُتَعلِّقة «بجَعَلْنَاكُم». وقرأ الأعْمش بتاءين وهو الأصل الذي أدغمه البزّي[٣]، وحذفه الجمهور[٤]، وابن عباس لتَعْرِفُوا مضارع عَرَفَ[٥].

فصل

المعنى ليعرفَ بعضُكم بعضاً في قُرْب النسب وبعده لا لِتَفَاخَرُوا. وقال في أول الآية: خَلَقْنَاكُم وقال ههنا: وجَعَلْنَاكم شُعُوباً، لأن الخلق أصل تفرع عليه الجعل والإيجاد لأجل العبادة، كما قال تعالى: **﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْس إلاَّ لِيَعْبُدُون﴾**، والجَعْل شعوباً للتعارف، والأصل متقدم على الفرع فتعتبر العبادة قبل اعتبار النسب، لأن اعتبار الجعل شعوباً إنما يتحقق بعد تَحَقُّقِ الخلق، وفي هذا إشارة إلى أنَّه إن كان فيكم عبادة فتُعْتَبَرُ، وإلا فلا اعتبار لأنْسَابِكُمْ.

فإن قيل: الهداية والضلال كذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣] ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [النحل: ٩٣] و [النور: ٤٦].

فالجواب: أن الله تعالى أثبت لنا فيه كسباً مَبْنِيًّا على فعل لقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٩] ثم قال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الإنسان: ٣٠] وأما في النسب فلا[٦].

قوله: «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ» أخبر تعالى أن أرفعهم منزلةً عند الله أتقاهم. وقال قتادة في هذه الآية: أكْرَمُ الكَرَمِ التقوى وألأَمُ اللُّؤم الفجور. وقال عليه الصلاة والسلام ـ: «الحَسَبُ المَالُ والكَرَمُ التَّقْوَى». وقال ابن عباس ـ (رضي الله عنهما) ـ: كرم الدنيا الغِنَى وكرم الآخرة التقوى. وعن أبي هريرة ـ (رضي الله عنه[٧]) ـ قال: سئل رسول الله ـ ﷺ ـ: أيُّ الناس أكرمُ؟ قال: أَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ، قالوا: ليس عن هذا نسألك قال: فأكرمُ الناسِ

---

(١) تخفيفاً.

(٢) تصبح هكذا: لتّعارفوا وهي شاذة وقد رويت في مختصر ابن خالويه ١٤٤ عن ابن كثير وابن مُحَيْصِن ومجاهد وهكذا الشأن في البحر المحيط ٨/ ١١٦.

(٣) البحر والمختصر المرجعين السابقين.

(٤) ولكن هكذا: لتتعرَّفوا.

(٥) المراجع السابقة. وانظر أيضاً الكشاف ٣/ ٥٦٩ وكلها شاذة.

(٦) وانظر الرازي ٢٨/ ١٣٨.

(٧) ما بين الأقواس زيادة من أ كالعادة وقد أخرج البغوي في معالم التنزيل هذه الأحاديث، أخرج الأول عن سَمُرَة بن جندب، والأخير عن يزيد بن الأصمّ عن أبي هريرة وانظر البغوي والخازن ٦/ ٢٣٠ و٢٣١.

يُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ ابْنُ نَبِيِّ الله ابْنِ خَلِيلِ الله قالوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ قال: فَعَنْ مَعَادِنِ العَرَبِ تَسْأَلُونِي؟ قالوا: نَعَم قال: خِيارُكُم في الجَاهِلِيّة خيارُكُم في الإسْلاَم إذا فَقِهُوا. وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: إنَّ اللَّهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَلكِنْ يَنْظُرُ إلى قُلُوبِكُمْ.

فصل

قرأ العامة: إنَّ أَكْرَمَكُمْ بكسر «إنّ»، وابن عباس بفتحها[1]، فإن جعلت اللام لام الأمْر ـ وفيه بُعْدٌ ـ صَحَّ أن يكون قوله: «أَنَّ أَكْرَمَكُمْ» بالفتح مفعول العِرْفَان فإن أمرهم أن يعرفوا وإن جعلتها للعلّة لم يظهر أن يكون مفعولاً، لأنه لم يجعلهم شعوباً وقبائل ليعرفوا ذلك، فينبغي أن يكون المفعول محذوفاً واللام للعلة أي لِتَعْرِفُوا الحقَّ لأنَّ أَكْرَمَكُمْ[2].

فصل

قال ابن الخطيب: في المراد بالآية وجهان:

الأول: أن التقوى تفيد الإكرام.

والثاني: أن الإكرام يورث التقوى، كما يقال: المخلصون على خَطَر. والأول أشهر، والثاني أظهر.

فإن قيل: التقوى من الأعمال والعلم أشرف لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «لَفَقِيهٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ».

فالجواب: أن التقوى ثمرة العلم لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] فلا تقوى إلا للعالم فالمتقي العالم أتم علمه والعالم الذي لا يتقي كشجرةٍ لا ثَمَر لها لكن الشجرة المثمرة أشرفُ من الشَّجَرَةِ التي لا تُثْمر بل هي حطب وكذلك العالم الذي لا يتّقي حَصَبُ جهنم، وأما العابد الذي يفضل عليه الفقيه فهو الذي لا علم له وحينئذ لا يكون عنده من خشية الله نِصَابٌ كامل، ولعلمه[3] يعبده مخافة الإلقاء في النار فهو كالمكره، أو لدخول الجنة، فهو يعمل كالفاعل له أجره ويرجع إلى نيته، والمتقي هو العالم بالله المواظب لِبَابِهِ.

فإن قيل: خطاب الناس بقوله: «أَكْرَمَكُمْ» يقتضي اشتراك الكل في الإكرام ولا كرامة للكافر فإنه أضل من الأنعام.

---

(١) ذكرها صاحب البحر ٨/ ١١٦ والكشاف ٣/ ٥٦٩ وهي شاذة غير متواترة.

(٢) بالمعنى من البحر المحيط ٨/ ١١٦ وقال الزمخشري في كشافه: «وقرىء أن بالفتح» كأنه قيل: لِمَ لا يُتَفَاخَرُ بالأنْسَابِ؟ فقيل: لأن أكرمكم عند الله أتقاكم لا أنسبكم، وانظر الكشاف ٣/ ٥٦٩. وقد قال ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٨٠: قراءة ابن عباس لتعرفوا قال أبو الفتح: المفعول هنا محذوف أي لتعرفوا ما أنتم محتاجون إلى معرفته انظر التبيان أيضاً ١١٧١.

(٣) في ب ولعله وهو الأصح.

فالجواب: ذلك غير لازم مع أنه حاصل بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠] لأن كل من خلق فقد اعترف بربه، ثم من استمر عليه وزاد زيدَ في كرامته، ومن رجع عنه أُزيلَ عن الكرامة.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أي عليم بظواهركم يعلم أنسابكم خبير ببواطنكم لا يخفى عليه أسراركم فاجعلوا التقوى زادكم[١].

قوله تعالى: ﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى[٢]: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ الآية. لما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتقَاكُمْ﴾ والاتّقاء لا يكون إلا بعد حُصول التقوى وأصله الإيمان والاتِّقاء من الشِّرك قالت الأعراب يكون لنا النسب الشريف يكون[٣] لنا الشرف قال[٤] الله تعالى: ليس الإيمان بالقول إنما هو بالقلب، فما آمنتم فإن الله خبير بعلم ما في «الصدور» ولكن قولوا أسلمنا أي انْقَدْنَا[٥] وأَسْلَمْنَا[٦]. قيل: نزلت في نَفَرٍ من بني أسد بن خزيمة، قدموا على رسول الله - ﷺ - في سَنةٍ مُجَدِبَةٍ، فأظهروا الإسلام ولم يكونوا مؤمنين في السر طالبين الصدقة فأفسدوا طرق المدينة بالقاذورات وكانوا يغتدون[٧] وَيُروحُون إلى رسول الله - ﷺ - ويقولون: أَتَتْكَ العرب بأنفسها على ظهور رَوَاحِلهَا، وجئناك بالأثقال والعِيَال والذَّرارِي ولم نُقَاتِلكَ كما قاتَلَكَ بنو فلان وبنو فلان يَمُنُّون على رسول الله - ﷺ - ويريدون الصدقة، ويقولون أَعْطِنَا، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية. وقال السدي: نزلت في الأعراب الذين ذكرهم الله تعالى في سورة الفتح وهم جُهَيْنَةُ ومُزَيْنَةُ وأَسْلَمُ، وأشْجَعُ وغِفَار وكانوا يقولون: آمنَّا ليأْمَنُوا على أنفسهم وأموالهم فلما استنفروا إلى الحديبية تخلفوا فأنزل الله تعالى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ صدقنا «قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا» انقَدْنا[٨] واسْتَسْلَمْنَا مخافَة القتل والسَّبْي[٩].

قال ابن الخطيب: وقد بينا أن ذلك كالتاريخ للنزول لا للاختصاص بهم، فكل من

---

(١) انظر الرازي ٢٨/ ١٣٩ و١٤٠. (٢) زيادة من الأصل.

(٣) كذا في النسختين وفي الرازي: وإنما يكون لنا الشرف. وانظر الرازي ٢٨/ ١٤٠.

(٤) جواب لما أعلى. (٥) كذا في الرازي وفي النسختين: أنقذنا.

(٦) وفيه: واستسلمنا بخلاف النسختين: وأسلمنا. (٧) في ب: يعتذرون تحريف.

(٨) في ب أيضاً وأ الأصل أنقذنا والتصحيح من روايات المفسرين كما كتبته أعلى على أن العقل والمعنى يحتمان أن تكون الكلمة انقدنا من الانقياد فعلاً ماضياً.

(٩) وانظر أسباب النزول تلك في البغوي والخازن ٦/ ٢٣١ و٢٣٢ والقرطبي ١٦/ ٣٤٨.

أظهر فعل التقوى أراد أن يصير له ما للمتقي من الإكرام ولا يحصل له ذلك لأن التقوى من عمل القلب(١).

قوله: «وَلَمَّا يَدْخُلْ» هذه الجملة مستأنفة، أخبر تعالى بذلك. وجعلها الزمخشري حالاً مستقرّة في: «قَولُوا»(٢) وقد تقدم الكلام في «لما» وما تدل عليه، والفرق بينها وبين «لم» في البقرة عند قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم﴾ [البقرة: ٢١٤].

وقال الزمخشري: فإن قلت: هو بعد قوله: «لَمْ تُؤْمِنُوا» يشبه التكرير من غير استقلال بفائدة متجدِّدة!.

قلت: ليس كذلك، فإن فائدة قوله: لم تُؤْمِنُوا هو تكذيب دعواهم. وقوله: «وَلَمَّا يَدْخُل» توقيت لِمَا أمروا به أن يقولوه. ثم قال: «ولما(٣) في «لمّا» من معنى التوقع دليل على أن هؤلاء قد آمنوا فيما بعده»(٤)، قال أبو حيان: فلا أدري من أي وجه يكون النفي(٥) بِلَمَّا يقع بعد؟!(٦). قال شهاب الدين: لأنَّها لنفي قَدْ فَعل، وقَدْ للتَّوَقع.

فصل

قال ابن الخطيب: لَمْ ولَمَّا حَرْفَا نفي، ومَا، وإنْ ولاَ كذلك من حروف النفي ولَمْ ولَمَّا يجزمان وغيرهما من حروف النفي لا يجزم فما الفرق بينهما؟.

فالجواب: أن لم ولما يفعلان بالفعل ما لا يفعل به غيرهما، فإنهما يَصْرِفَان معناه من الاستقبال إلى النفي تقول: لَمْ يُؤْمِنْ أَمْسِ، وآمَنَ اليَوْمَ، ولا تقول: لاَ يُؤْمِنُ أَمْسِ، فلما فعلا بالفعل ما لم يفعل به غيرهما جزم بهما.

فإن قيل مع هذا: لم جزم بهما؟ غاية ما في الباب أن الفرق حصل ولكن ما الدليل على وجوب الجزم بهما؟ نقول: لأن الجزمَ والقَطْع يَحْصل في الأفعال الماضية؛ لأنَّ من قام فقد حصل القطع بقيامه ولا يجوز أن يكون ما قام، والأفعال المستقبلة إما متوقعة الحصول وإما ممكنة من غير تَوَقُّع، فلا يمكن الجزم والقطع فيه، فإذا كان«لَمَّا ولَمْ» يَقْلِبَان اللَّفْظَ من الاستقبالِ إلى المُضِيِّ أفاد الجزم والقطع في المعنى فجعل له مناسباً والقطع في المعنى فجعل له مناسباً لمعناه وهو الجزم لفظاً، وعلى هذا نقول: إذا كان السببُ في الجزم ما ذكرنا فلهذا

---

(١) تفسير الإمام الرازيّ ٢٨/ ١٤٠.
(٢) الكشاف ٣/ ٥٧٠.
(٣) في الكشاف: وما في لما. والتصحيح منه.
(٤) الكشاف ٣/ ٥٧٠.
(٥) في البحر: يكون ما نفي بلما.
(٦) ولما إنما تنفي ما كان متصلاً بزمان الإخبار ولا تدل على ما ذكر، وهي جواب لنفي قد فعل، وهَبْ أن قد تدل على توقع الفعل فإذا نفي ما دل على التوقع فكيف يتوهم أنه يقع بعد؟ وانظر البحر ٨/ ١١٧ أقول: ومذهب أبي حيان ورأيه أن الجملة تلك وهي: «ولمّا يَدْخُلِ الإيْمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ» غير متصلة بما قبلها.

قيل: الأمر يجزم، لأن الآمرَ كأنه جزم على المأمور أن يفعله ولا يتركه، فأتى بلفظ مجزوم تنبيهاً على أنّ الفعل لا بد من إيقاعه و «إنْ» في الشرط كـ «لَمْ» لأن «إنْ» تغير معنى الفعل من المُضِيّ إلى الاستقبال كما أن «لَمْ» تغيِّره من الاستقبال إلى المُضِي تقول: إنْ أكْرَمْتَنِي أُكْرِمْكَ، فلما كان «إنْ» مثلُ «لَمْ» في كونه حرفاً، وفي لزوم الدخول على الأفعال وتغييرها صار جازماً للشبه اللَّفْظِيّ وأما الجزاء فجزم لِمَا ذَكَرْنا مِن المعنى، فإن الجزاء يجزم لوقوعه عند وجود الشرط فجَزْمُهُ إِذَنْ إمّا للْمَعْنَى، أو للشبه اللفظي[1].

فصل

أخبر الله تعالى أنَّ حقيقة الإيمان هو التصديق بالقلب، وأن الإقرار باللِّسان وإظهار شرائعه بالإيمان لا يكون إيماناً دون التصديق بالقلب والإخلاص والإسلامُ هو الدخول في السِّلْم، وهو الانقياد والطاعة يقال: أسْلَمَ الرَّجُلُ إذا دخل في الإسلام والسِّلْم، كما يقال أَشْتَى إذَا دَخَلَ في الشِّتَاء، وأَصَافَ إذَا دخَلَ في الصَّيْفِ، وأَرْبَعَ إذا دخل في الرَّبيع، فمن الإسلام ما هو طاعة على الحقيقة باللسان والأبدان والجنان كقوله ـ عز وجلّ ـ لإبراهيم: ﴿أَسْلِمْۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١] ومنها: ما هو انقياد باللِّسان دون القلب وذلك قوله: «ولَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ولَمَّا يَدْخُل الإيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ».

قال ابن الخطيب: المؤمن والمسلم واحد عند أهل السنة فيكون الفرق بين العام والخاص أن الإيمان لا يحصل إلا بالقلب والانقياد قد يحصل بالقلب وقد يحصل باللسان والإسلام أعم لكن العام في صورة الخاص متَّحد مع الخاص ولا يكون أمراً آخر غيره. مثاله: الحَيَوَان أَعَمُّ من الإنسان، لكن الحيوان في صورة الإنسان (ليس[2]) أمراً ينفكُّ عن الإنسان ويجوز أن يكون ذلك الحيوانُ حيواناً ولا يكون إنساناً، فالعام والخاص مختلفان في العموم متحدان في الوجود وكذلك المؤمن والمسلم. وسيأتي بقية الكلام عن ذلك في الذّاريات عند قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥ و ٣٦] إن شاء الله تعالى.

قال ابن الخطيب: وفي الآية إشارة إلى بيان حال المؤلَّفة إذا أسلموا ويكون إيمانهم ((بعد) ضعيفاً[3]) قال[4] لهم: لَمْ تؤمنوا لأن الإيمان إيقانٌ وذلك بعد لم يدخل في قلوبكم وسيدخل باطّلاعكم على محاسن الإسلام[5].

---

(١) وقد قال بِتلكَ الكلمات الإمام الفخر في تفسيره ٢٨/ ١٤١ وانظر في مَعَالم «لم ولما» المُغْنِيَ كما سبق وهمع الهوامع ١/ ٢١٥ و٢/ ٥٦ و٥٧ وقطر النَّدى وبلّ الصَّدَى ١١١ و١١٢ و١١٣ وشرح الكافية للإمام الرضي ٢/ ٣٥١، وشرح الأشموني على الألفية بحاشية الصبان ٤/ ٥ و٦ و٧.

(٢) تكملة من الرازي على النسختين بدليل نصب الخبر بعدُ.

(٣) ما بين القوسين الكبيرين ساقط من أ الأصل وما بين الصغيرين ساقط من ب فقط.

(٤) كذا في الرازي وأ وفي ب يقال.

(٥) انظر تفسير الإمام ٢٨/ ١٤١ و١٤٢.

قوله: «وَإِنْ تُطيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ» أي ظاهراً وباطناً سراً وعلانية. قال ابن عباس: تُخْلِصُوا الإيمان(١).

قوله: «لاَ يَلتكُمْ» قرأ أبو عمرو: «لا يألتكم» بالهمز(٢) من أَلَتَهُ يَأْلِتُهُ بالفتح في الماضي والكسر والضم في المضارع لقوله: «وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ»(٣) والسُّوسِيّ(٤) يبدل الهمزة ألفاً على أصله(٥).

والباقون: «يُلِتْكُمْ» من لاَتَهُ يليتُه كَباعَهُ يَبِيعُهُ. وهما لغتان معناهما لا يَنْقُصُكُمْ، فالأولى لغة غَطَفَان وأسدِ والثانية لغة الحِجَاز، يقال: أَلَتَ يأْلُتُ أَلْتاً(٦)، ولاَتَ يلِيتُ لَيْتاً(٧)، وقيل: هي من وَلَتَهُ يَلِتُهُ(٨) كوَعَدَهُ يَعِدُهُ، فالمحذوف على القول الأولى عينُ(٩) الكلمة ووزنها: يَفِلْكُمْ وعلى الثاني فاؤها(١٠)، ووزنها يَعِلْكُمْ ويقال أيضاً أَلاَتَهُ يليتُه كأَبَاعَهُ يُبِيعُهُ وآلَتَهُ يُؤْلِتُهُ كآمن يُؤْمِنُ(١١). وكلّها لغات في معنى نَقَصَهُ حَقَّهُ، قال الحطيئة:

٤٥٠٤ - أَبْلِغْ سَرَاة بَنِي(١٢) سَعْدِ مُغَلْغَلَةً(١٣) جَـهْـدَ الـرِّسَـالَـةِ لاَ أَلْـتـاً ولاَ كَـذِبَـا(١٤)

وقال رؤبة:

٤٥٠٥ - ولَـيْـلَـةٍ ذَاتِ نَـدًى سَـرَيْـتُ وَلَـمْ يَـلِـتْـنِـي عَـنْ سُـرَاهَـا لَـيْـتُ(١٥)

---

(١) نقله البغوي والخازن في تفسيريهما ٦/ ٢٣٢.

(٢) وهي سبعية متواترة نقلها في السبعة ابن مجاهد ٦٠٦ ومكي في المشكل ٢/ ٢٨٤ وهي قراءة اليزيدي والحسن أيضاً. وانظر الإتحاف ٣٩٨.

(٣) من الطور ٢١.

(٤) سبقت ترجمته.

(٥) ولم أعثرْ على تلك القِراءة. ومن المؤكد أنها شاذة وتصبح هكذا: يَالِتْكُمْ. وانظر قراءة أبي عمرو في الكشاف ٣/ ٥٠ ومعاني الفراء ٣/ ٤ والبحر المحيط ٨/ ١١٧.

(٦) اللسان «ألت» ١٠٦.

(٧) المرجع نفسه ليت.

(٨) نفسه ٤٩١٢.

(٩) وهي اللام في المَوزُون.

(١٠) وهي الهمزة من المَوْزُون.

(١١) ذكرها صاحب اللسانِ «ألتَ» ١٠٧. وانظر معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٩ والفراء ٣/ ٧٤.

(١٢) ورد بني سَعْد وبني كعب وبني ثعل.

(١٣) كما وِرد: مغلْغَلَةً وهي الرسالة.

(١٤) له من البسيط وروايته كما في البحر ولكن باختلاف لفظ «مغلغلة» ففيه «مغلطة». وجهد الرسالة حقُّها والأَلْتُ بسكون اللام وفتح الهمزة هو نقص الحق وهو الاستشهاد بالبيت. وانظر مجمع البيان ٩/ ٢٥٠ والبحر ٨/ ١٠٤، والقرطبي ١٦/ ٣٤٩ ومعاني الفراء ٣/ ٩٢ بلفظ بني ثعل وفتح القدير ٥/ ٦٨ والدر المنثور ٧/ ٥٨٤، والديوان ١٧.

(١٥) رجز لرؤبة وهو نفس الاستشهاد بالبيت السابق ولكن هنا باللّيت والسابق بالألْت وكله بمعنى نَقْص الحق، وليلةٍ جرت على نزع الخافض والسُّرى - بضم السين - السير ليلاً. وانظر اللسان «ليت» والبحر ٨/ ١٠٤ والقرطبي ١٦/ ٣٤٩ والمحتسب ٢/ ٢٩١ وفتح القدير ٥/ ٦٨ ومجمع البيان ٩/ ٢٠٢.

أي لم يمنعني ويَخبِسْنِي.

فصل

قال ابن الخطيب: معنى قوله: («لاَ يَلِتْكُمْ[١]») لا يَنْقُصْكُم، المراد منه أنكم إذا أتيتم بما يليق يضعّفكُم من الحسنة فهو يؤتيكم به من الجزاء؛ لأن من حمل إلى ملك فاكهة طيبةً يكون ثمنها في السوق درهماً فأعطاه الملك درهماً انتسب الملك إلى البخل، وإنما معناه ألاّ يُعْطِي مثل ذلك من غير نقص أي يعطي ما تتوقعون بأعمالكم من غير نقص[٢].

ثم قال: «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» أي يغفر لكم ما قد سلف ويرحمكم بما أتيتم به[٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: **﴿إِنَّما المُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾** هذا إرشاد للذين قالوا آمنّا؛ بين لهم حقيقة الإيمان فقال: إنْ كُنتمْ تريدون الإيمان فالمؤمن من آمن بالله ورسوله «ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا» أي لم يشكوا في دينهم وأيقنوا بأن بالإيمان إيقانٌ. و «ثُمَّ» للتراخي في الحكاية كأنه يقول: آمنوا ثم أقول شيئاً آخر لم يرتابوا.

ويحتمل أن تكون للتراخي في الفعل، أي آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا فيما قال النبي - ﷺ[٤] - من الحشر والنَّشر «وَجَاهدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» أي أيقنوا أن بعد هذه الدار دارٌ أخرى فجاهدوا طالبين العُقْبَى «أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ» في إيمانهم.

فإن قيل: كيف يجوز أن يكذبوا في الإسلام، والإسلام هو الانقياد وقد وجد منهم قولاً وفعلاً، وإن لم يوجد اعتقاداً أو علماً، وذلك القدر كاف في صدقهم في قولهم: إِنَّا أَسْلَمْنَا؟!.

فالجواب: إن التكذيبَ يقع على وجهين:

أحدهما: إن لا يوجد نفس المخبر عنه.

والثاني: أن لا يوجد كما أخبر في نفسك[٥]، فقد يقول له: ما جئتنا بلْ جئتَ

---

(١) زيادة للسياق.

(٢) وانظر تفسيره الكبير ٢٨/ ١٤٢.

(٣) نفسه ٢٨/ ٤٣.

(٤) في ب: عليه الصلاة والسلام.

(٥) في الرازي: نفسه.

للحاجة، فاللَّه تعالى كذبهم في قولهم: آمنّا على الوجه الأوَّل أي ما آمنتم أصلاً، ولم يصدقهم في الإِسلام على الوجه الثاني فإنهم انقادوا للحاجة وأخذ الصدقة(١).

فصل

لما نزلت هاتان الآيتان أتت الأعراب رسولَ الله ـ ﷺ ـ يَحْلِفُونَ بالله أنهم مؤمنون صادقون وعرف الله غير ذلك منهم فأنزل الله: «قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ»، والتعليم ههنا بمعنى الإِعْلام فلذلك قال: بِدِينِكم(٢)، أدخل الباء فيه؛ لأنه منقول بالتضعيف من علمت به بمعنى شعرت به فلذلك تعدت لواحد بنفسها، ولآخر بالباء(٣).

والمعنى لا تعرفوا الله بدينكم فإنه عالم به لا يخفى عليه شيء، لأنه يعلم ما في السموات وما في الأرض، «وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» لا يحتاج إلى إخباركم.

قوله (تعالى(٤)): «يَمُنُّونَ عَلَيك أَنْ أَسْلَمُوا» يجوز في قوله: أَنْ أَسْلَمُوا وجهان:

أحدهما: أنه مفعول به لأنّه ضمن يمنون معنى يُعِيدُونَ كأنه قيل: يعيدون عليك إسلامهم مانِّين به عليك ولهذا صرح بالمفعول به في قوله: «قُلْ لاَ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ» أي لا تُعيدوا عليَّ إسلامكم. كذا استدل أبو حَيَّان(٥).

وفيه نظر، إذ لقائل أن يقول: لا نسلم انتصاب «إِسْلاَمَكُمْ» على المفعول به، بل يجوز فيه المفعول من أجله كما يجوز في محل «أَنْ أَسْلَمُوا» وهو الوجه الثاني(٦) فيه أي يمنون عليك لأجل أن أَسْلَمُوا فكذلك في قوله: «لاَ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ»، وشروط النصب موجودة والمفعول له متى كان مضافاً اسْتَوَى جرّه بالحرف ونصبه.

قوله: «بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ» يعني لا مِنَّةَ لَكُمْ عَلَيْنَا أَصْلاً، بل المنة عليكم حيث بيَنْتُ لكم الطرق المستقيم.

قوله: «أَنْ هَدَاكُم لِلإِيمَان» إعرابه كقوله: «أن أَسْلَمُوا»(٧). وقرأ زيد بن علي: إِذْ هَدَاكُمْ(٨) بإِذْ مَكَانَ «أنْ» وهي في مصحف عبد الله كذلك. وهي تفيد التعليل، وجواب

---

(١) وانظر تفسير أستاذنا الفخر الرازي ٢٨/ ١٤٣ و١٤٤.

(٢) نقله البغويّ والخازن في تفسيريهما ٦/ ٢٣٢ و٢٣٣.

(٣) قاله صاحب البحر المحيط ٨/ ١١٧. (٤) زياد من أ الأصل.

(٥) قال: «فأنْ أسْلَمُوا في موضع المفعول ولذلك تعدى إليه في قوله: قُلْ لاَ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ».

(٦) وقد ذكره أيضاً أبو حيان قال: «ويجوز أن يكون»: «أنْ أَسْلَمُوا» مفعولاً من أجله أي يتفضلون عليكم بإسلامهم أنْ هَوَاكُمْ».

(٧) من المفعول به والمفعول لأجله.

(٨) وهي شاذة وانظر البحر المحيط ٨/ ١١٨ والكشاف ٣/ ٥٧٢. ومختصر ابن خَالَوَيهِ ١٤٤.

الشرط مقدر أي فَهُوَ المَانُّ عليكم لا أَنتم[١] عَلَيْه وعَلَيَّ.

فإن قيل: كيف مَنَّ عليهم بالهداية إلى الإيمان مع أنه تبين أنهم لم يؤمنوا؟.

فالجواب من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه تعالى لم يقل: بل الله يمن عليكم أن رزقكم الإيمانَ بلْ قال: أنْ هَدَاكُمْ للإِيمان.

وثانيها: أنَّ إرسال الرسول بالآيات البينات هدايةً.

ثالثها: أنه تعالى يمنُّ عليهم بما زعموا فكأنه قال: أنتم قلتم آمنا فذلك نعمة في حقكم حيث تخلصتم من النار فقال: هداكم في زعمكم، ولهذا قال تعالى: **﴿إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾**.

ثم قال تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ...﴾** الآية؛ وهذا تقرير لأول السورة حيث قال: «إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»، فأخبر هٰهنا عن علمه وبصره[٢].

قوله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ واللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تعملون﴾** قرأ ابن كثير بالغيبة[٣]، نظراً لقوله: يَمُنُّونَ وما بعده، والباقون بالخطاب، نظراً إلى قوله: لاَ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ إلى آخره وفي هذه الآية إشارة إلى أنه يُبْصرُ أعمال جوارحكم الظاهرة والباطنة، لا يخفى عليه شيءٌ.

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الحُجُرَاتِ أُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وعَصَاهُ»[٤]. (انتهى)[٥].

تمَّ الجزء السابع عشر، ويليه الجزء الثّامن عشر

وأوّله: تفسير سورة قَ

---

(١) كذا قدر أبو حيان في بحره المحيط السابق. وقدر الزمخشري: «إنْ كنتم صادقين في ادّعائكم بالإيمان فَلِلّهِ المِنة عليكم». وانظر الكشاف ٣/ ٥٧٢.

(٢) بالمعنى من تفسير الإمام ٢٨/ ١٤٤.

(٣) وهي سبعية متواترة انظر السبعة ٦٠٦ والإتحاف ٣٩٨ وهي نفس قراءة عاصم عن أبان كما قال بذلك ابن مجاهد في السبعة وانظر الكشف ٢/ ٢٨٤.

(٤) نقله الكشاف من دون سند انظر الكشاف ٣/ ٥٧٢.

(٥) ما بين القوسين سقط من أ فهو زيادة من ب.

فهرس محتويات
الجزء السابع عشر
من
اللباب

فهرس المحتويات

سورة غافر

سورة فصلت

سورة الشورى

سورة الزخرف

سورة الدخان

سورة الجاثية

سورة الأحقاف

سورة محمد ـ ﷺ ـ

سورة الفتح

سورة الحجرات